العالم كما رأيته

للرحالة المصري

محمد ثابت

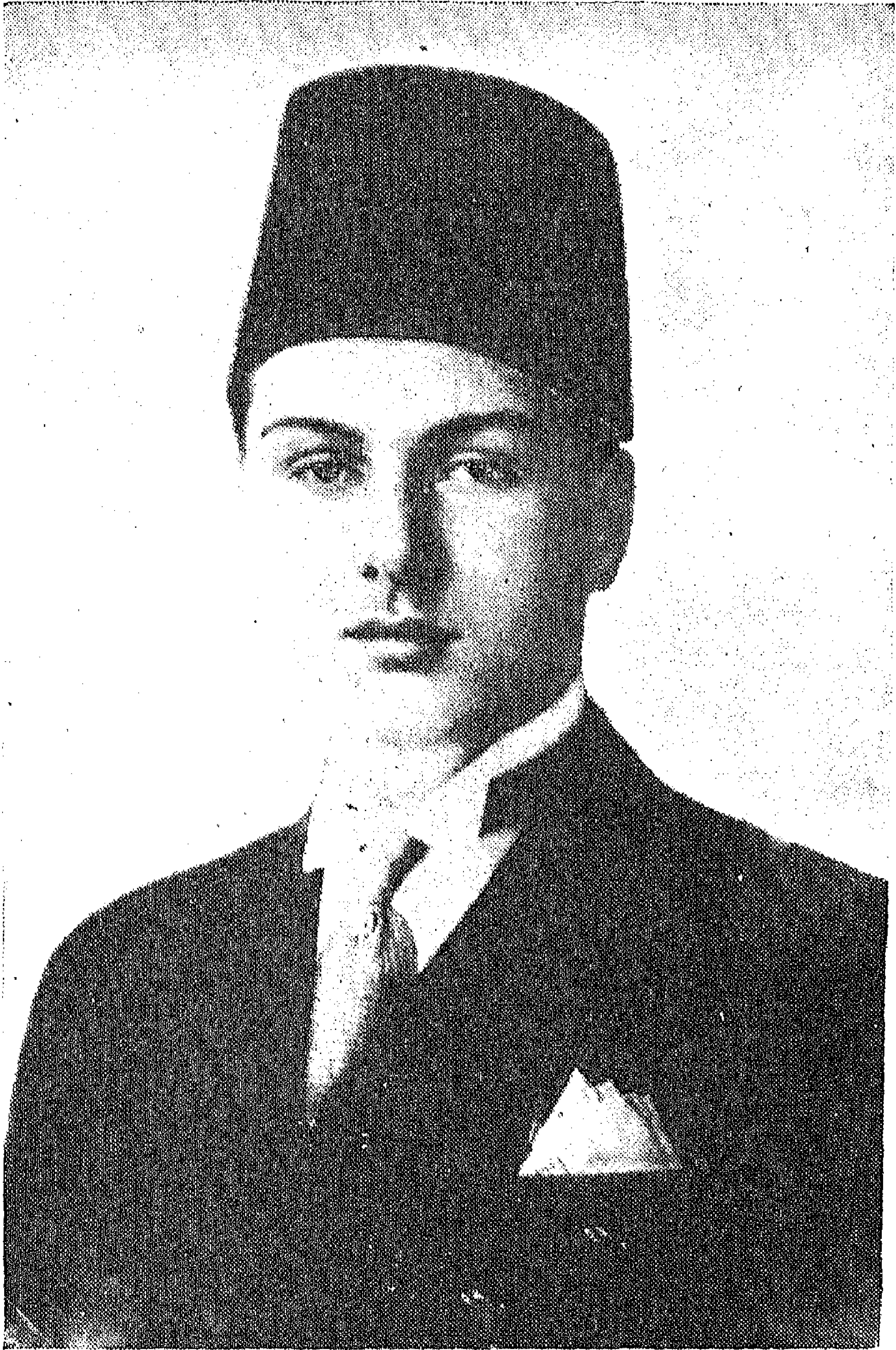
جولة في ربوع العالم الإسلامي



الناشر

مكتبة النهضة المصرية

١٥ شارع المدابغ بالقاهرة



حضرة صاحب الجلالة مليكنا المحبوب

جولة

في ربوع العالم الإسلامي

من مشاهدات سائح مصري

محمد ثابت

المدرس بمعهد التربية للبنين



الناشر : مكتبة النهضة المصرية

١٥ شارع المدابغ بمصر

مقدمة

ها أنا ذا أقدم لبنى وطنى (جولتى فى ربوع العالم الاسلامى) بعد ان جست خلال البلاد الاسلامية من أقصاها إلى أقصاها وكانت خاتمة زياراتى فى اقليمين عظيمين ، اقليم الحجاز المقدس مهبط الوحى ومبعث نور الاسلام واقليم غرب أفريقيه أحدث الأصقاع بالاسلام عهداً . وكنت كلما زرت قطراً من هذا العالم المترامى الأطراف أكبر فى العرب حماستهم لدينهم وتفانيهم فى إعلاء كلمته وبطولتهم التى غالبوا بها ما كان يلقاهم من صعاب ، حتى تناول نفوذهم رقعة متصلة من الكرة الأرضية امتدت من بلاد الصين والتركستان والهند وجاوة والملايو شرقا إلى بلاد الشرق الأدنى جميعها فأفريقية والمغرب الأقصى والأندلس غربا . فبعض أنحاء من شرق أوروبا . وقد جاوز عديدهم اليوم ثلاثمائة مليوناً من الأنفس ولا يزال يعتنق الاسـلام نفر من أهالى وسط أفريقية وأعالى السودان وبعض أصقاع من آسيا كاليابانيين والمنبوذين من الهندوس . ولو أن الدعاية للاسلام نظمت وعنى بأمرها فى تلك الديار كما تعنى الهيئآت التبشيرية المسيحية لدخل الاسلام زرافات من هؤلاء وأولئك

وكان يزيدنى فخاراً بالاسلام والمسـلمين أنهم مسودون حيثما حلوا . فمستواهم الثقافى والاجتماعى يفوق مستوى جيرانهم من أهل الديانات الأخرى فى أكثر القارات إسلاما : آسيا وأفريقية ، فهم هناك قادة الفكر وسادة القوم

وإن عجبت فعجبي من الأفرنج الذين لا يفتأون يتهمون العرب والمسلمين بأنهم جروا من الويلات على زنوج أفريقية الشيء الكثير وخلفوا فيهم البؤس والدمار وهم يلصقون بهم وصمة الرق والاستعباد متجاهلين ما ورد فى الدين الحنيف من الحض على عتق الرقاب وتحرير الأرقاء والمساواة بين الناس ، ولقد تناسوا أن العرب لم ينفردوا بالاتجار فى الرقيق بل الذى شجعهم على تلك التجارة الممقوتة مروجوها من الأفرنج ، فكلا الفريقين كان خاطئا فى هذا السبيل

كذلك فان الافرنج يشيدون بذكر البربر من مسلمى شمال أفريقية وينسبون إليهم كل خير حل بالبلاد التى فتحها الاسلام هناك ويقولون بأن العرب قوم مدمرون لا حضارة لهم . وهم لا يفتأون يذكون نار البغضاء بين الفريقين ويحضون البربر على التبرؤ من العرب بحجة أن لهم شخصيتهم القوية التى لم يستطع العرب محوها . ولكم أبدى الفرنسيون أسفهم أن كانت جل مستعمراتهم فى غرب أفريقيه من المسلمين وودوا لو أنهم ألفوهم من الفرنسيين الذين يسهل تحويلهم إلى المذهب الذى يرغبون . مع أن الاسلام هو الذى حد من وحشية أولئك وهمجيتهم الأولى ورفع من مستواهم الخلقى والاجتماعى .

وفى السودان الأعلى تزيد الحوائل كل يوم فى سبيل اتصال أهل الشمال من المسلمين بأهل الجنوب من الوثنيين بينما تطلق يد التبشير من كافة المذاهب المسيحية هناك ويذلل لها كل أمر عسير . إلى ذلك فأنهم ما فتئوا يثيرون النعرة الفارسية بين أهل إيران ضد العرب ، كل ذلك لكى يخدموا سياستهم (فرق تسد) ويوقفوا الوحدة الاسلامية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا

وفى يقينى أن الوقت قد حان للعمل على توثيق أواصر المحبة بين الشعوب الاسلامية وقيام حلف إسلامى عربى يرد كيد بلاد الغرب عنا ويشعرهم

باحترام كلمتنا ويعاون المسلمين على لم شعثهم والدعاية لدينهم والنهوض ببلادهم من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية حتى تكافىء أمم الغرب علماً ومالا . وعندئذ يمكن أن نخاطب الغرب باللغة التي يفهمها ، لغة العلم ، ولغة المادة . وها قد قامت هذه الايام دعاية طيبة لتلك الوحدة بدأنا نلمس أثرها في احترام الغربيين للمسلمين وفي محاولة الدول العظمى وبخاصة انجلترا وفرنسا وإيطاليا الادعاء بأنها من نصراء الاسلام وحماته . ولعل في الاكثار من تبادل الزيارات والمطبوعات والبعوث العلمية والدينية أكبر محقق لهذا الرجاء . ويقدر كثير من البلاد الاسلامية ما تقوم به مصر في هذا السبيل وهم يعدونها بحق محور العالم الاسلامي ويعقدون عليها آمالا كباراً

سدد الله خطانا وألهم المسلمين من أمرهم رشدا ؟

الاسلام فى قارة آسيا
إلى الحجاز مهبط الوحى

حقت إرادة الله وصح العزم على السفر إلى الأقطار الحجازية لأفوز بخاتمة رحلاتى فى حمى بيت الله الحرام ورعاية مثوى المصطفى عليه الصلاة وأتم السلام .

فتقدمت إلى قسم مصر الجديدة فى آخر أيام التقديم وهو يوم ٤ فبراير ودفعت كلف السفر إلى الحج وكانت زهاء ٣٤ جنيها منها : ١٥ جنيها للباخرة بالدرجة الاولى ، ١٣,٥ جنيها أجرة السيارة إلى مكة ومنها . وأرجأت أمر المدينة حتى أتبين وأنا فى مكة خير السبل إليها .

وقد قصدت فى اليوم نفسه دار الصحة وحقنت ضد الكوليرا ، والتيفود والجدرى . على أن أعود بعد أسبوع لأكرر تلك الحقن قبل تسلمى جواز السفر . وما كان أشد أثرها أول يوم واليوم الذى تلاه إذ شعرت بحمى شديدة وثقل فى الرأس وآلام فى المفاصل جميعها . على أن الدور الثانى لم يخلف ذلك الأثر السىء .

قمت غداة الجمعة ١٢ فبراير ووصلنا السويس ثم بكرنا يوم السبت ١٣ فبراير نزور باخرتنا زمزم لنعرف مقرنا منها فكان فى غرفة بالدرجة الأولى (رقمها ١٠) بها ثلاثة مضاجع وهى فى مجموعها دون الدرجة الثانية فى بواخر الغرب ، ليس بها من وسائل النعيم شىء وحتى بعض الضروريات لم تكن متوفرة .



صاحب الجلالة ابن السعود ملك الحجاز

ويخيل إلى أن ذلك راجع إلى المسافرين أنفسهم فلقد بدا عليهم التقشف وعدم الاهتمام لحطام الدنيا. على أنى كنت أوثر ألا يكون ذلك مبرراً للتساهل فى حسن النظام .

عدنا إلى السويس لنرى ركب المحمل وكانت دار المحافظة قد حلاها الزهر والشجر وفرشت جوانبها وتقدمتها الموسيقات المختلفة ، وأخذت تطوف أمامها مراراً وجماهير الناس تسد كل الآفاق . ثم بدأ الموكب تتقدمه صفوف الموسيقات ثم الجنود على اختلافها : الجيش والبوليس والمطافىء ،

والسوارى والهجانة على الجمال ، وأخيراً جمل المحمل ووراءه ثلاثة جمال أخرى ، وبعد طوافه بأكبر طرق المدينة قصد إلى الباخرة وأودع بعض حجراتها . وقد رفعت الجمال نفسها بالأسلاك إلى السماء وأنزلت مكانها من سطح السفينة ثم صفت الموسيقات على اختلافها وظلت تعزف والناس يسدون الآفاق سداً فى أزيائهم المختلفة وكلهم مستبشر فرح هذا يغنى وذاك يصيح وتلك تزغرد وكان القوم ينطلقون بالغناء مدفوعين بعاطفتهم الدينية وإيمانهم العميق فكم كنت أرى من السيدات الوقورات من ينطلقن فى الغناء غير آبهات لمن أحاطهن من جموع وبخاصة فوق الباخره نفسها .

صعدنا الباخرة ولا تسل عن مبلغ الزحام فوقها فلقد كانت الجماهير تسد كل مكان منها حتى لم نستطع السير إلى غرفتنا إلا بعد قيام الباخرة . وما آذنت الساعة الرابعة حتى تدفق المودعون إلى البر فى سيول لا حدّ لها . ثم تحركت الباخرة باسم الله مجراها وسط عزف الموسيقات وقرع الطبول والأغانى .

وظلت زوارق الوداع تحوطنا حتى خرجنا بعيداً عن الميناء ولبثنا نشق مياه البحر الأحمر وخليج السويس وكأنه بحر من الزيت لم تخدش أديمه موجة واحدة ، وكان اتزان الباخرة بسبب ذلك عجيباً ، والجو دافئاً منعشاً عليلا .

هنا بدأ القوم يخلعون عنهم تكاليف الحياة وتعقيداتها ، وأخذت بساطة الهندام تزيد ساعة بعد أخرى . وكادت تختفى أزياء القاهرة . إذ سارع جل الناس إلى لبس جلابيبهم وأخفافهم ولأول مرة فى تاريخ رحلاتى الطويلة المتعددة سمعت القرآن يقرأه شيخ وقور فى عرض البحر ، ويقوم فيؤذن للصلاة فى مواقيتها ، ويستعين على إسماع أرجاء الباخرة (بمكبرات الصوت) هنا يسارع القوم إلى جانب من السطح فرش بالبسط والحصر ليؤدوا فرائض الصلاة جماعة . ولكم كانت دهشتى شديدة عندما وقفت أصلى العشاء خلف الامام وما انتهى من الركعة الثانية حتى سلم فاختلط على الأمر وسألته .أتلك صلاة القصر ؟ قال كلا ، بل الصلاة فى الأسفار ركعتان للظهر والعصر

والعشاء فقط ولا تجوز بغيرها . وما كنت أعلم ذلك من قبل وطالما أديتها فى أسفارى كاملة كما نؤديها فى بلادنا .

آوينا فى المساء إلى بهو الجلوس للدرجة الأولى وضمنا المجلس ببعض علية القوم من مصريين وأجانب .

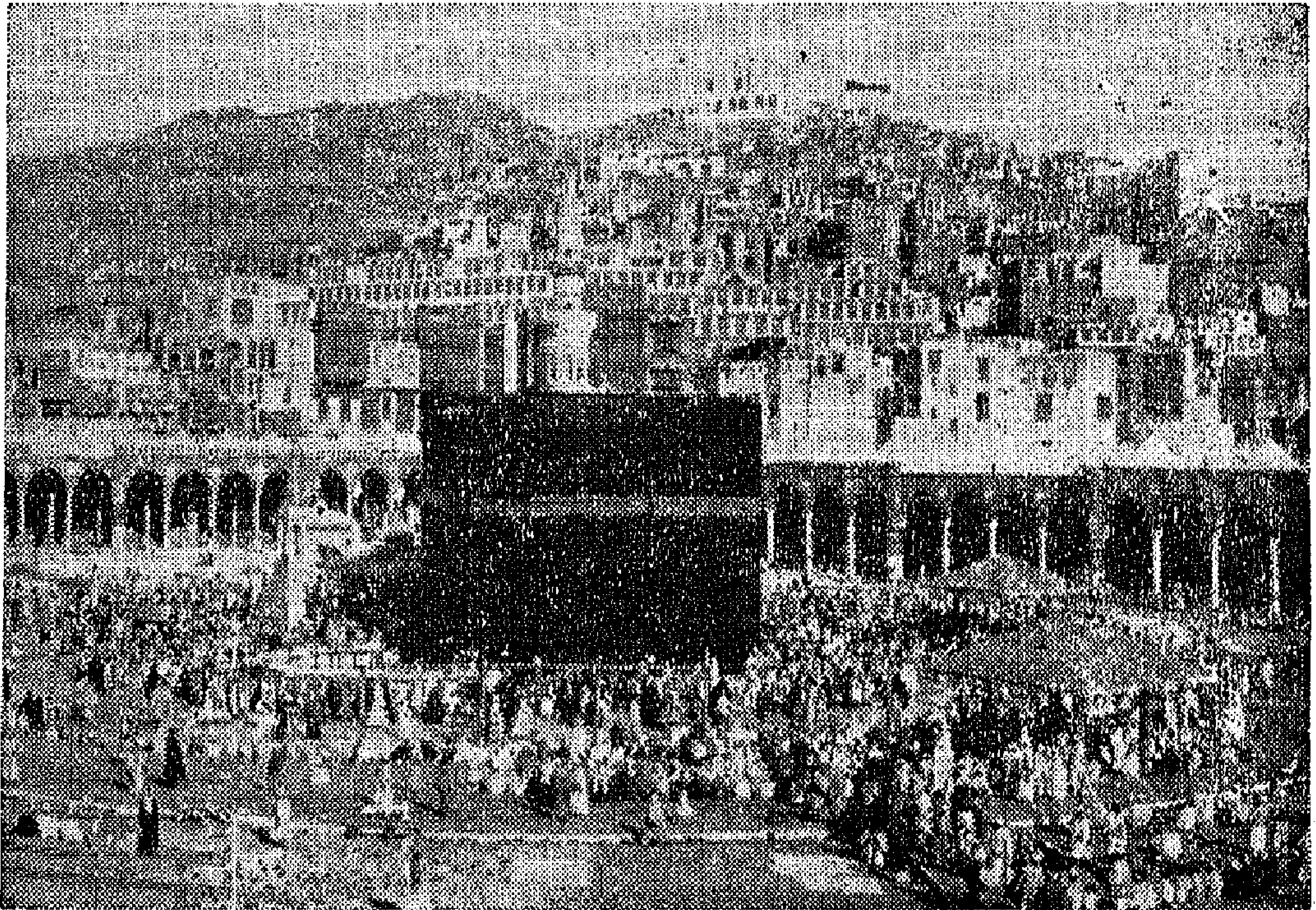
ولبثنا طيلة يوم الأحد نستمع لنصائح الفقهاء يذيعون على أهل الباخرة بالمذياع دروساً عن الحج ومناسكه ويسترسلون فى إثبات فضائل الحج ومراميه يتقبلون النقاش فى إفاضة وحسن بيان ، وبين آونة وأخرى يسمعنا بعض الشيوخ آى الذكر الحكيم ، ثم يدوى الآذان فيسارع الجمع إلى الوضوء ليشاطروا فى صلاة الجماعة .

وفى يوم الاثنين بدأ الناس يتأهبون لاعداد معدات الاحرام ، ذلك يسائل رفيقه على أى المذاهب يحرم ، والآخر يفاوض زميله فيما إذا كان سيؤدى الاحرام بالحج فقط أو بالعمرة فقط أو بهما معاً . وعند الاحرام يغتسل المرء وينوى ثم يلبس من الثياب ما ليس مخيطاً ولا محيكا وكم اختلف القوم فى تفسير ذلك فذهب البعض إلى تحريم القماش الذى دخلته خياطة ما وتشبث آخرون بلف الأزار حول أسفل الجسم ، والرداء على النصف الأعلى فى شكل خاص لا حيدة عنه وحرم الكثير لبس شىء سوى النعل المكشوف ، أما الشبشب أو الحذاء العادى فممنوع ، ويجب ترك الرأس عارياً وكم حذرنا القوم أن نحك فى رءوسنا خشية سقوط شعرة وعندئذ تجب الفدية ، وقص الشعر أو تقليم الأظافر محظور كلاهما فى الاحرام . كثر اللغط وزاد عدد الشارحين الذين بالغوا فى تعقيد الامر ، فحرت فى أمرى ماذا أنا صانع ؟ .

فقلت لأيسرهم نزعة أليس الدين يسرا وهلا تحللت من كل تلك القيود قال بلى فالدين يسر . فاعتمر . قلت وما معنى ذلك ؟ قال أن تحرم من مساء اليوم ، وعند ما تصل مكة فى اليوم التالى تطوف بالكعبة طواف القدوم ثم

تسعى بين الصفا والمروة ، وبعد ذلك تتحلل فتقص شعرك ثم تعود إلى لباسك العادى . قلت ولكنى أخشى كل تلك القيود ، قال : ليس ثمت قيود فلك أن تلف أسفل جسدك بقماش أو بشكير وتلبس (شبشباً) فان خشيت ضرر البرد فالبس (المحبوك كالفنلات) على أن تفدى فى مكة . فقصدت إلى متجر بنـــك مصر فوق ظهر الباخرة وابتعت بشكيرين وبعض قماش التيل ، وأخذت أنا وبعض الرفقاء ندرب أنفسنا على لفها حول جسومنا وظل ذلك حديث القوم حتى إذا كانت الثانية بعد الظهر نفخت الباخرة فى صورها ثلاثا ليستعد المســـافرون للاحرام فاندفع الجميع إلى الحمامات وتزاحموا عليها تزاحماً شديداً وكان الواحد يستعجل أخاه بالصياح والقرع على الأبواب وعند الرابعة تماما كررت الباخرة صيحاتها ومعنى ذلك أنها حاذت (رابغ) من أرض الحجاز ، وهى الحد الذى عنده يجب الاحرام للوافدين من الشمال ... عندئذ أخذ القوم يخرجون من حجراتهم فى لفائفهم البيضاء فى أزار حول الوسط ورداء ألقى فوق الأكتاف ، ورءوسهم عارية ، وفى أرجلهم النعال وما كان أجمل منظرهم وبخاصة النســاء وهن يبدون فى جلابيب فضفاضة بيضاء وطرح مهفهفة ناصعة البياض ، واختلط الحابل بالنابل وبدأوا صيحات التـكبير قائلين فى صوت جهورى : (لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) وتلك يجب أن يكررها المحرم مراراً ويحيى بها الناس والمكان كلما أقبل عليه وكلما انتهى من عمل ، ولقد تجمهروا جماعات وراء بعضهم وكأنهم الملائكة وكانت صيحات هتافهم تهز القلوب ، وتشق أجواز الفضاء وتصل إلى أعماق المـاء وهنا عم الخشوع الناس قاطبة ، وظلوا يتلمسون إلى ربهم الهدى والغفران . وما حل المساء ودخلنا بهو الجلوس حتى ظهر الجميع : العظيم والحقير ، والغنى والفقير فى زى واحد وخشوع وتواضع كلهم سواسية . هنا تجلت حكمة الاحرام وتوحيد الزى فلقد زالت الفوارق وتودد الجميع بعضهم

لبعض وتضافروا فى الدعاء والابتهال ، ومن بينهم المصرى والسورى والعراقى والمغربى وكان بيننا رهط من أربعة يابانيين أسلموا حديثاً بعد أن هداهم للاسلام معلم تركى فى طوكيو ألّف جمعية إسلامية بلغ أعضاؤها اليوم خمسين، ومجموع المسلمين فى اليابان زهاء ١٥٠٠ منهم ٣٠٠ من اليابانيين أنفسهم . ولقد ساعدهم على اعتناق الدين بساطة العقيدة الاسلامية أولا . وقلة عصبية اليابانيين لديانتهم الأصلية ثانيا وهم يرجون لحركة التبشير الاسلامية فى بلادهم رواجاً كبيرا وقد اعتزموا إقامة مسجد فى طوكيو والحكومة اليابانية لا تقاومهم بل تعطف عليهم ويظهر أنها تنظر للمسألة نظرة سياسية لانها ترى فى تيسير نشر الاسلام عندها كسباً لقلوب الشعوب الاسلامية وعطفها وهى على ما نعلم من شقاق ونفور مع الدول المسيحية وبخاصة انجلترا وأمريكا ، وهؤلاء الشبان يجيدون الانجليزية، ويقرأون قليلا من العربية . ومن الظواهر الغريبة التى استرعت نظرى أنى



الحرم الشريف والناس يطوفون بالكعبة

ألفيت من بين الحجاج نفراً كبيراً من حديثي السن بين نساء ورجال فماظننت الشباب على ما نراه فى تفرنجه اليوم يقبل على أداء فريضة الحج هكذا. وتلك فى ظنى بداية حسنة تبشر بخير كبير.

لبثنا الليل كله نحي بعضنا البعض بتلك التلبية الرهيبة وقد جلس الكل نساء ورجالا فى لفائفهم البيضاء الناصعة، وفى باكورة الصباح (الثلاثاء) بدت أرض جدة فى تلال فاترة ما لبثت أن استبانت فى جدب عراها عن كل نبت وألقت الباخرة مراسيها وسط اليم على بعد يفوق ثلاثة كيلو مترات وهاجمتنا الزوارق البخارية والشراعية لحمل من أراد مقابل نصف ريال مصرى لكل مسافر، أما من أراد الانتقال على حساب الباخرة فركب صندلا غص فى زمن وجيز بالناس والمتاع حتى لم يبق مكان لموطىء قدم، وكان إلى جواره صندل آخر لنقل المحمل وماحوله من رجال ومتاع. أقلنا زورق إلى البر فكان حاشداً بالجماهير الغفيرة من مستقبلى المحمل، وشققت طريقى وسطهم إلى رجال الشرطة فتسلموا الجواز وسألنى الرجل: من مطوفك؟ فقلت (عمر المداح) فتسلم رسوله الجواز (وكان وكلاء المطوفين يجلسون صفوفا) وأمسك بيدى وحمل رجاله متاعى ومررت من تفتيش الجمرك وأودعت حقيبتى عربة النقل إلى بيته. والمطوف هو الرجل الذى يعهد إليه أمر الحاج من مسكن وسير ومناسك وهو المسئول أمام حكومته عن كل شىء يقع لنا. وكان المفروض أن معظم ركاب زمزم يقومون فى نفس اليوم إلى مكة بالسيارات أو الجمال لكن اضطراب البحر بسبب شدة الريح قد قطع حبال الصندل فانفلت عن اللانشات التى تجره ورجع بعيداً فى عرض البحر وقد عانوا فى منع الخطر عنه طيلة النهار ولم يصل الحجاج البر إلا بشق الأنفس. وكان جديراً برجال شركة الملاحة المصرية أن يسارعوا إلى نقل الحجاج بلنشات صغيرة إنقاذا لهم من الخطر وتوفيراً لوقتهم.

وقد كان ذلك من أسباب تأخير جميع الركاب عن السفر إلى مكة. ومما

زاد الطين بلة رجال البعثة المصرية المرافقة للمحمل فقد كان عددهم كبيراً نساء ورجالا شغلوا جميع الرفاصات والسيارات فسببوا لنا عطلا كبيراً . أما المحمل فقد كان استعراضه محدوداً ، وفى حفل بسيط جداً لم يرق القوم أبداً . وسمعت الكثير حتى من الأطفال ساخطاً لأنهم كانوا يأملون أن يروا احتفالا فاخراً على أن النساء كن يزغردن ويقلن (جاء المحمل فحل الرخاء)

آويت إلى بيت المطوف وهو عتيق رطب أسفله ، مهدم منظره ، شأن سائر بيوت جدة وإن زانتها جميعاً مشربيات من خشب عتيق . ومراحيضه قذرة تعاف النفس دخولها ، ولم يرقنى إهمال الرجل شأن العناية بمن حل بيته منا أولا ، ولم نره إلا فى المساء بعد أن فاتتنا فرصة التحدث عن أمر السفر . ولا شك أن النزول فى الفنادق خير للمسافر إن أراد الراحة واتقاء شر القذارة وقد قمت بجولة ليلية فى أرجاء البلد فبدت كالمراكز الصغيرة عندنا وجل بيوتها متشابه بمشربياته الخشبية العديدة ، وأسواقها ضيقة مسقفة ، وقد رغبنا فى تناول العشاء ومررنا على بعض المطاعم القذرة ، وكان يقودنا إليها الغلام . فقال : هلموا إليها ففيها كثير من الملوخية والبامية والمختومة الشهية ، قلنا وما هى قال (باذنجان باللحم المقطع المفروم) فآثرنا أن نأوى إلى مطعم (فول) مظلم بائس وانتحينا أظلم ركن منه حتى نأمن رؤية الطعام على حقيقته ، فقدم الرجل الفول وكأنه (العدس أبو جبه) وعليه الطحينة وسمن المعيز فكان شهياً إذ أكلنا منه ثلاثة أطباق كبيرة وكان يرافقنى فى تلك الوجبة طبيب مصرى اطمأنت نفسى لوجوده وقد أكل هنيئاً وكان يعجبنى منه شدة إيمانه فى الله وإخلاصه لدينه وهو شاب لم يبلغ الثلاثين . ثم عرجنا على الناحية المستجدة ، وفيها جل القنصليات ، ونزل بنك مصر الفاخر وأجرة الدرجة الأولى فيه جنيه فى اليوم والثانية ستون قرشاً ، وكل منها فى بناء مستقل ولا يفتح النزل إلا فى موسم الحج .

بتنا ليلتنا فى حر شـــديد وقرص للبعوض لاذع لم يمكنا من النوم

إلا غراراً وإنى لأدهش كيف يعيش البعوض بتلك الكثرة فى بلاد صحراوية كهذه . ويعزوه البعض إلى عدم وجود نظام لصرف المياه من المنازل فهى أبداً راكدة تحتها لذلك كنا نرى أسفل الجدران يكاد يبلله النز رغم أنها مقامة وسط الصحراء ورغم قلة المياه ، ففى البلد بعض العيون القليلة ماؤها لا يخلو من الغضاضة ، والسقاءون يبيعون الصفيحة (التنكة كما يقولون) بقرش ونصف سعودى — والقرش السعودى كان يساوى أربعة ملليمات — وأحسن الماء وأغلاه ثمناً ماء (الكنداسة) وكنا نسمع الرجل يجر عربته وعليها برميل كبير ويصيح قائلا (ماء الكنداسة) وتلك كلمة محرفة عن الانجليزية condenser وهو المكثف لماء البحر ، والذى أنشأ المدينة سيدنا عثمان وبها زهاء ٣٠ ألف نفس اليوم وكان بها قبر ينسب لحواء أم البشر وهدمه ابن السعود ولم يبق له أثر .

وفى باكورة الصباح جاءت (اللوريات) إلى بيت المطوف وشحن بها متاعهم بعضه تحت الأرجل والبعض معلق إلى جانبى السيارة ، وقد جلس على جانبيها ستة عشر شخصاً ، وقد احتفظت أنا بمقعدى فى مجاورة السائق مقابل دفع ريالين ، ورغم أنى كنت أحمل تذكرة ركوب التاكسى فضلت أن أرافق الجماعة ، وقد رد إلى الرجل فرق الأجر إلى مكة ½ ٧ ريال سعودى — والريال السعودى ٢٢ قرش سعودى أى ٨٨ ملليما ، والجنيه السعودى يساوى ١٧٥ قرشا لأنه لا يزال على قاعدة الذهب وأجور السيارات هناك باهظة جداً فهى احتكار لشركة انجليزية وللحكومة ، ولقد قسموا صنوف السيارات درجات : التاكسى الممتاز (المقفل) ، والتاكسى العادى (مفتوح الجوانب) واللورى الممتاز (أتوبيس) ، واللورى العادى (مكشوف الجوانب) . ولكل أجر يختلف عن الآخر ، ولا تزال للجمال حركة عظيمة فى النقل وهى أرخصها وأظرف شىء بها : أنها تحمل (الشقدف) وهو هودج كأنه السرير المسقوف ، تتدلى من جانبه المجاور لبطن الجمل عصى تتصل بها



باب السلام وبداخله مقام ابراهيم ومن ورائه الكعبة الشريفة

عصى أخرى مائلة لتحمل هذا السرير ، وعلى كل جمل مسافران واحد فى الشقدف الأيمن والآخر فى الشقدف الأيسر .

سارت بنا السيارة وخرجنا من أسوار جدة تلك التى بناها قايتباى بالحجارة وأوغلنا فى الصحراء وكنت أظن الطريق مرصوفاً لكنه مهمل تبدو علامات السيارات فى رماله وكأنها المجارى الغائرة وبعض أجزائه صخرى وكثير منه رملى . وكانت الأراضى حولنا صحراوية كساها عشب مهفهف مخضر له قليل من النور ، ومن هذا يجفف دريسهم الذى يجدل فى شبه حبال سميكة يباع فى الأسواق لاطعام السائمة ، وهنا وهناك كنا نلاقى شجيرات قصيرة معوجة ،

وفى منتصف الطريق وقفنا ببلدة (بحرة) فى أخصاص حقيرة ، وهنا تناولنا فى مقاهيها الساذجة بعض الطعام ، وشربنا الشاى اللذيذ ، وبعدها أخذت الجبال تبدو فى ربى مجدبة معقدة جل صخرها نارى وتلوى الطريق بينها وبعد مضى ثلاث ساعات ونصف بدت أبنية مكة المكرمة فى شرفاتها العربية الجذابة ثم دخلنا بابها وكنا طوال الطريق نصيح جماعات بالتلبية فى أصوات خارجة من أعماق القلوب . وكان الجو عاصفاً مضطرباً على أن شمسه لم تكن ناصعة مما خفف من وهج الشمس ولفح الحر . ومن العجب أن السماء أخذت تمطرنا رذاذاً متقطعاً ، وقد كان ذلك من حسن حظنا لأن الجو اعتدل وخفت حرارته . ولم أكن أتصور أن الحرارة تبلغ هذا الحد ولما ينقضى الشتاء . وقد تساءلت ماذا عسى أن تكون الحال فى يونيو مثلا ، فقيل لى بأن الهجير يمنع الانسان أن يسير خطوات أثناء النهار وإلا أصابته ضربة الشمس فمات على الفور . دخلنا باب مكة أم القرى وسرنا فى أزقتها والجبال تطوقها من جميع جهاتها وحييناها صائحين (اللهم زد هذا البيت الخ) ثم نزلنا بيت المطوف وكأنه الفندق أو الخان العتيق جمع من الجماهير عدداً لا يحصى ، هذا جالس وذاك مضطجع ، وتلك نائمة فى ناحية من المكان ويطوف الغلام بين فترة وأخرى بكؤوس الشاى طيلة اليوم ولا ندفع لذلك شيئاً . اتصلت بفندق (أوتيل سعود) فلم أجد به مكاناً بعد أن يئست من فندق مصر لما أن اتصلت به من جدة فالتزاحم بلغ أشده وقد زاد حجاج هذا العام من الأجانب على مائة ألف ومن المصريين على ١٢ ألفا وكثير منهم من علية القوم لذلك شغلت الأماكن النظيفة كلها وزاد الأمر شدة رجال بعثة المحمل . أخيراً أخلى لنا المطوف فى ناحية من بيته المتواضع ليوانا شددنا به أربع (ناموسيات) . والبعوض هناك أضعافه فى جدة .

الحرم الشريف : سارعنا بعد ذلك إلى الحرم لنتحلل من إحرامنا ونتمتع بملابسنا العادية فأخذنا نشق طريقنا وسط أكتاف متلاصقة

من الناس فى جنسياتهم المتباينة وتقدمنا المطوف ليطوف بنا طواف القدوم. دخلنا من باب السلام أو باب بنى شيبة ومررنا على مقام ابراهيم إلى يسارنا ثم حاذينا الحجر الأسود وهو فى أحد أركان الكعبة لاصق بها وحوله اطار من فضة وضاءة عريضة فى شكل اهليلجى مستطيل يكاد يغطيه إلا فى فتحة تتسع لدخول الرأس، والحجر غير منتظم الشكل طوله يزيد عن المتر ولونه فاحم براق به بعض النتوءات الكرية وضعه ابراهيم فى هذا الركن علامة على بدء الطواف وكان قد أمر أن يبحث عن حجر مميز اللون فلم يجد بعد البحث الطويل ولما عاد ألفى الحجر مع والده ومن قائل أنه نزل من السماء فى شهاب كبير ولقد أحيط بالفضة لأن العوامل الجوية صدعته فخيف أن يتفكك . ثم أخذ المطوف يكبر ونحن نصيح من بعده وحاولنا أن نقبل الحجر بأدخال رؤوسنا فى تلك الفتحة لكن عبثاً لأن الكتل الآدمية حوله لم تسمح بالحركة مطلقاً. وكم كان بعض الحجاج الذين يسعدهم جدهم بلمس الحجر يعلقون به ويستميتون رغم ضرب البوليس ومطاردته لهم وبعضهم كان يتمسك باهداب كسوة الكعبة الشريفة حتى بدت الكسوة إلى جوار الحجر مهلهلة، لم نستطع لمس الحجر فأشرنا إليه بأكفنا مكبرين (بسم الله الله أكبر) ثم جعلنا الحجر إلى يسارنا وأخذنا نهرول والرجل يفوه بأدعية ونحن نتبعه وقد مررنا بصفحة الكعبة التى فيها بابها من فضة ثقيلة مزينة بالذهب وتعلو الأرض بنحو مترين وبين الحجر الأسود والباب مسافة صغيرة هى (المستلم) الذى يلتصق به الطائفون ويدعون ربهم كما كان يفعل رسول الله . وفى نهاية تلك الصفحة الركن العراقى وعنده سور من رخام ملون عريض فى علو قامة الرجل مقوس فى نصف دائرة نصف قطرها ثمانية أمتار أمام الوجه الثانى من الكعبة ويسمى (الحطيم) ، وكان مربط أغنام هاجر واسماعيل وقيل أنهما مدفونان به ، وكان يقوم جزء من الكعبة عليه ، أعنى أن هذا الجانب منها كان مستديراً هكذا وبينه وبينها متسع نصف دائرى هو حجر اسماعيل يكمّن

الناس فيه الصلوات ، ثم جاء الركن الشامى وعنده خففنا السير لأن الرسول مع مجاهديه فعلوا ذلك بعد عودتهم من قتال الكفار وكان الكفار يقولون (قد فتكت بجنود محمد حمى يثرب) فلكى يريهم أنهم ما زالوا أشداء رغم ضعفهم الشديد كان يركض بهم فى شدة وإذا ما وصلوا الركن الشامى حجبتهم الكعبة عن أنظار الكفار الذين أطلوا من فوق ربوة قبيس تجاه الحجر الأسود. وهنا هدأ السير ليستريح جنودهم . ثم بلغنا الركن اليمانى ومسحنا به أيدينا وعاد بنا المطاف إلى الحجر الأسود وهكذا كان الطواف سبع مرات الثلاث الأول منها هرولة والباقية سيراً هادئاً ، والمطاف بيضاوى حول الكعبة قطره زهاء ٥١ متراً من الشمال إلى الجنوب و ٤١ من الشرق إلى الغرب ، وكان هو نهاية الحرم فى زمن الرسول وفى السبعة أشواط يقطع الانسان نحو ٧٠٠ متر ولا يقل الطواف عن خمس مرات يومياً أى نحو أربعة كيلومترات وبعض الناس يطوف عشرات المرات والمغالى قد يطوف سبعين مرة فى اليوم أى نحو ٦٥ كيلومتراً وكم رأينا طفلا يحمله أحد الحجاج ويقوم بوظيفة المطوف وهو يقول الأدعية والناس يرددونها من ورائه ، ثم عرجنا على مقام ابراهيم أو حجر اسماعيل وهى قبة على أربعة أعمدة أنيقة داخلها الحجر الذى كان يقف عليه سيدنا ابراهيم يباشر بناء الكعبة وأمامها منخفض صغير يحسن أن يصلى الانسان فيه ركعتين بعد الطواف . قال تعالى (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وكان موضع هذا الحجر ملاصقا للكعبة بين الباب والحطيم فى المكان المنخفض الذى يسمونه (المعجن) وهو الذى كان يعجن فيه الملاط للبناء ثم أبعد عنها إلى مكانه الحالى وأقيمت عليه القبة وعليه أثر يقولون أنه من قدم ابراهيم ويكسى بالحرير المقصب وتلك ترد من مصر مع الكسوة الشريفة ويقال أن ابراهيم مدفون تحت هذا الحجر

وإلى يسار هذا المقام من الجنوب الشرقى للكعبة وفى ملاصقة مقام ابراهيم بناء أقامه أبو جعفر المنصور ومن تحته بئر زمزم حولها سور يعلوه درابزين

تدلى منه الدلاء لنشل الماء بالبكر وأمامها مجموعة كبيرة من مناطيل وصفائح يتزاحم القوم عليها يرتشفون ماءها شفاء ويغتسلون به تبركا. قال عليه الصلاة والسلام (ماء زمزم لما شربت له) . شربنا حتى ارتوينا وتضلعنا حسب وارد السنة الشريفة ولم يرقنى طعمها إذ به غضاضة ورغم ذلك كان هجوم الناس على الشرب منها كبيراً ومنهم من يرش ماءها على جسومهم والبعض يغسلون به أقمشتهم وثيابهم ليزمزموها وفى ذلك كل البركات : وكم غالى الناس فى وصفها فمنهم من يقول بأن ماءها أحلى من العسل واللبن فإذا ذقته كان ملحاً غير سائغ وماؤها ملوى به الصودا والكلور والجير وحامض الكبريتيك والأزوتيك والبوتاسا فهو شبيه بالمياه المعدنية وبعض المشعوذين فى مصر يدعون أن العين التى فى مسجد الحنفى متصلة بزمزم ويثبتون ذلك بفرية أن حاجاً سقطت (طاسته) فى زمزم فعثر عليها فى بئر الحنفى. ولقد ألقى هندى



تحت هذا البناء بئر زمزم وإلى ورائها الكعبة الشريفة

بنفسه فى البئر لتكون قبراً له (سنة ١٣٢٦ هـ) وفضل زمزم لا شك كبير فى أنها سبب تعمير مكة لأنها كانت أول مسعى للناس فى زمن هاجر وابراهيم وقد شحت مياهها زمناً وغاضت حتى جاء عبد المطلب فحفرها . ثم عمقها أبو جعفر المنصور ولذلك يسمونها أحياناً (المضنونة) وبلغ من تقديسها أن الناس هناك يحلفون بها فيقولون « والبيت الحرام وزمزم والمقام ما فعلت كيت » فهم يقدمونها على مقام ابراهيم . وكم هجم أعراب الغطغط أفواجاً على البئر فأتوا حوضها ونزحوا المياه بأيديهم ورشوها على ثيابهم ورءوسهم وخرجوا فرحين وسط دفع الزمازمة وضربهم وذلك يشبه ما يفعله النصارى فى نهر الشريعة والهنود فى نهر الكنج والفرنسيون فى ماء لورد Lourdes فى جنوب فرنسا

وقصة تلك البئر أن هاجر أخذت تبحث عن الماء وتجرى فى تلك البقعة حتى جاءها ملك ضرب المكان فتفجر الماء منه وشرب قومها ولما رأى ابراهيم تدفق الماء فى شدة أحاط العين وقال لها (زمى زمى) فكان اسمها . تم لنا كل ذلك فى جهد كبير ومشقة فائقة إذ كنا نشق طريقنـــا بين جماهير الحجاج المتراصة المتلاصقة ورغم أنه يكره مزاحمة الناس بعضهم لبعض كان الناس كأنهم فى يوم الحشر فى أجناسهم المختلفة ، وأشباههم الكثة الشعثة ، وكم ديست أقدامنا العارية وزل من الطائفين الكثير وبخاصة عند الحجر الأسود الذى لا يمكن لكائن من كان أن يصله إلا بالكفاح الذى لا يطيقه أمثالنا ، والعجيب أن من يصل إليه يقف إزاءه ولا يرغب فى الانسحاب حتى يطارده البوليس فى عنف شديد وهذا الحجر هو الذى قال عنده عمر أول مرة قبله : والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلتك .

وجوانب الكعبة تواجه الجهات الأربع وأبعادها غير متساوية يتراوح ذرع الجانب بين ٩,٩٢ متر ، ١٢,٢٥ وارتفاعها ١٥ مترا كلها بالحجارة الجرانيتية

السوداء التى قد يبلغ طول الحجر فوق الذراع وبابها فى الواجهة الشرقيةوهى من داخلها غرفة واحدة تتوسطها ثلاثة أعمدة من خشب العود الثمين وحول سقفها سور يكاد يقارب قامة الرجل وفى جانب الحطيم « الميزاب » فى قناة تزيد عن المتر طولا صبت من ذهب خالص لصرف ماءالمطر أرسله السلطان عبد المجيد ، ويقوى بناؤها بما يسمونه الشاذروان وهو من حجارة بيضاء أقيمت حولها إلى علو نصف متر. ويفتح بابها فى الصباح فيدخله الناس ويصلون ركعتين فى مواجهة كل صفحةمن صفحاتها وقد شعرت وأنا داخلها بالخشوع لله كاملا وكثير من النـاس يأبون دخولها لأنهم يقولون أن من يتوب وهو فى داخلهاثم يقع فى الخطيئة يخسر الدنيا والآخرة . ويقف شيخ الـكعبة على بابها يبتز الريالات من الزائرين فى غير عطف ولا رحمة — ونصعد إلى بابها بمدرج من خشب مصفح بالفضة أهداه أحد أمراء الهند وتكسو حوائطها من الداخل ستائر من حرير أحمر بها مربعات كتب عليها (الله جل جلاله) وفى مواجهة باب الـكعبة محراب كان يصلى فيه النبى داخل الـكعبة والذى بناها ابراهيم حين نزل هو وابنه هذا الوادى المجدب ورفع يديه قائلا (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) .

ولما عطشت هى وابنها تركته ثم قامت تجرى بحثا عن أحد وأخذت ترقب من فوق ربوة الصفا ثم المروة سبع مرات فلم تجد نفرا ولا ماء فلما كانت على المروة آخر مرة سمعت ملكا يضرب بقعة فى مكان زمزم حتى انفجر الماء وكان ابراهيم قد استنـكر من قومه الـكلدانيين عبـادة الأصنام وكان أبوه صانعها فقال له (وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين) وترك أباه وذهب إلى مدين حيث أمره أن يهاجر مع ابنه اسماعيل وأمه إلى بلاد العرب فأقاموا البيت الحرام (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين) وقبل بعثة النبى بخمس سنين هدم السيل الـكعبة فاقتسمت قبائل قريش بناءها ولما انتهوا إلى الحجر الأسود

تنازعوا شرف وضعه فى مكانه فدخل الأمين عليهم فارتضوه حكما فوضع الحجر فى رداء وأمر القبائل أن تمسك بأطرافه حتى إذا وصلوا الركن الشرقى من الكعبة وضعه بيده الكريمة .

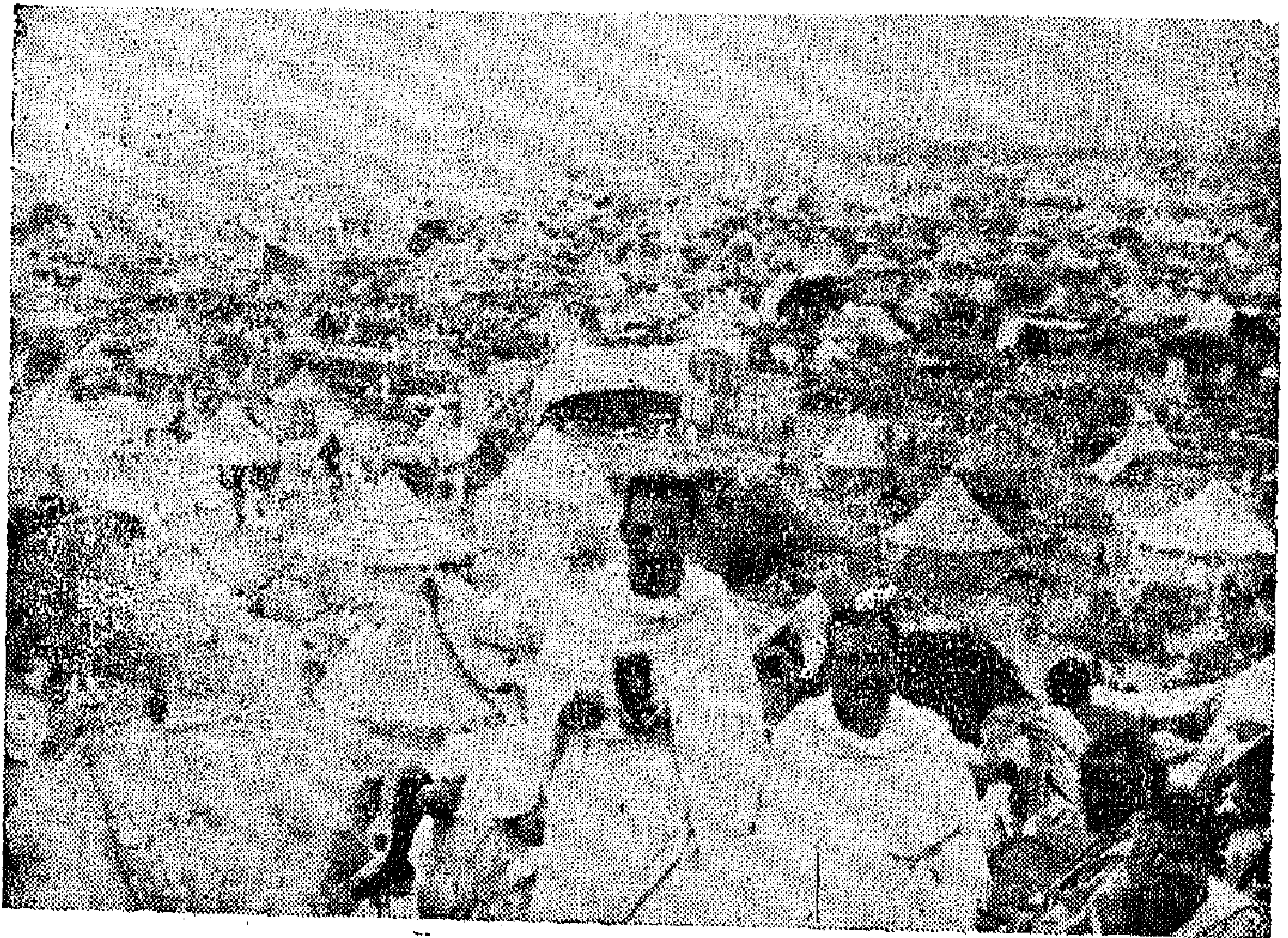
وكان الناس قبل النبي بخمسة وعشرين قرنا يضعون على الكعبة أصنامهم لتقربهم من الله زلفى وكانوا يقدسونها ويطوفون حولها ويتبركون بكتابة أسمائهم وتعليقها عليها ومن ذلك المعلقات السبع ثم اتخذت قبلة المسلمين قال تعالى :

قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره . وقد زاد النبي على الحج عرفات ويعتبر أعراب البادية اليوم الطواف بالبيت هو الحج .

وكم أراد أعداء الدين هدم الكعبة مرات لكن الله رد كيدهم وحمى بيته نذكر من بينهم أبرهة ملك الحبشة الذى دخل بجيشه وفيلته وزحف على مكة ولما أن كان قرب مزدلفة عند جبل النار أرسل الله عليهم طيرا أبابيل رماهم بحجارة من سجيل (طين) فى حجم حبة العدس كان ملوثاً بميكروب الجدرى وما كادوا يصلون الكعبة حتى فشا فيهم وفتك بالكثير منهم واضطرهم إلى رفع الحصار عن مكة والرحيل عنها وكان ذلك فى سنة ولادة النبي صلى الله عليه وسلم ويسميه العرب عام الفيل ولا يزال من طير الأبابيل بقية تسكن بعض أحجار الحرم وترفرف فى جوه وقد رأيناه وهو شبيه بعصفور الجنة الأسود ويسميه أهل مكة أبابيل للمفرد والجمع والعجب أن هذا المرض ظهر لأول مرة فى مصر ثم فى القسطنطينية فى عين السنة التى فشا فيها بين جيوش أبرهة .

خرجنا من باب الصفا لكى نسعى وانتهينا إلى ربوة حجرية هى الطرف الأسفل لجبل أبى قبيس يبدأ منها طريق معوج تؤدى وسط السوق المسقف (القيسارية) إلى ربوة المروة ، ووقفنا على درجها واستقبلنا الكعبة وكبرنا ثم تقدمنا الرجل والجماهير من ورائه يكرر أدعيته وفى منطقة تقع بين عامودين أخضرين كنا نجرى فى هرولة ثم نتم السير مشياً هادئاً إلى ربوة المروة

وهكذا ذهاباً ورجعة سبعة أشواط وذاك السعى تقليد لما فعلته هاجر وهى تبحث عن الماء جرياً هنا وهناك بين الربوتين وينتهى الشوط السابع عند المروة وهناك يتحلل المحرم بالعمرة أمثالنا من احرامه لذلك رأينا جموع الحلاقين يدعون المتحللين إلى فك إحرامهم عاجلا بقص شعرهم ولم تسمح لى النفس أن يمس أحدهم شعرى هروباً من قذارتهم وسارعت إلى البيت وخلعت ملابس الاحرام وأصبحت فى حل من كل ماحرم على وأنا محرم كالحلاقة وتقليم الأظافر والتطييب ولبس المحبوك من الثياب والأحذية ولا أخفيك مبلغ ربكتى وأنا فى ثياب الاحرام حتى أنى لم أكد أحرك رجلى إلا فى حيز ضيق ولم أجد من الجيوب ما أضع فيه شيئا مطلقا لذلك كنت أرى الجماهير يلفون على أوساطهم (الكمر) لوضع النقود والساعات وما إليها ويعلقون فى جوانبهم حقيبة لحمل ماثقل وكم من مرة سقط ردائى وسط



فى مخيم عرفات ونحن محرمون

الناس فأصبح عاريا ولا تكاد يدى تتركان الأزار حتى ينزلق إلى أسفل وينكشف أسفل الجسد وكلما هبت نسمة باردة تخللت الجسد كله فأوجست خيفة البرد ولكن الله سلم إذ كنت أشعر كل يوم براحة جسمية كبيرة وتهذيب للنفس دونه أى تهذيب وهل أبلغ فى التهذيب من أن أخدم نفسى فى كل شىء وأن أجالس أصغر الناس شأنا وأفقرهم حالا وكلنا سواسية فى ملابس إحرامنا وقد عفرها الثرى ولوثها الرمل والطين من أثر جلوسنا على الأرض وعدم الترفع عن أى شىء .

تمتعنا بملابسنا العادية وحلقنا لحانا وشعورنا و طيبنا فكان شعورنا بتقديرنا للنعمة كبيرا بعد شعث الأمس (وبهدلته) ولبثنا كذلك ليلة الخميس والجمعة ولما حل الظهر قصدنا الحرم الشريف لصلاة ظهر الجمعة فكان موقفا رهيبا حقا لم أر موطئا لقدم فى أى مكان والكل يواجهون الكعبة فى خشوع رهيب وفى جوانب الحرم أربعة أبنية كالجواسق العالية تمثل المذاهب الأربعة كان يصيح منها المبلغون فى أصوات رنانة رفيعة وشيخ المؤذنين يبدأ من البناء الذى فوق زمزم ويتبعه المؤذنون وإلى جوار باب السلام منبر من رخام نحيل سقفه مخروط مذهب أهداه سليمان القانونى وقد كتب على بابه (إنه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم) .

وقف الخطيب عليه وظهره للكعبة وتكلم فى شئون الحج وحكمته وما ورد فيه من آيات وأحاديث والحرم الشريف قريب الشبه بمسجد عمرو أو مسجد ابن طولون وعدد خدمه ٧٠٠ بين خطباء وأئمة ومدرسين وغيرهم ولقب خادم الحرمين من الألقاب المشرفة عند الناس جميعا وكانت تمنحها الدولة العلية .

وأخذ القوم بعد الانتهاء من الصلاة ينصرفون إلى منازلهم استعدادا للسفر إلى عرفات فكنت أرى شوارع مكة كلها تغص بالجمال عليها الشقادف « الهوادج » تسير فى قطر لا أول لها ولا آخر حتى تعطلت حركة المرور فى

جميع الشوارع اليوم كله والحجاج فى هرج وجلبة هذا يصيح وذاك يكبر وتلك تزغرد وهاتيك تغنى غناء مشجيا يهز القلوب ويالهول الركب ان تقابل صفان من الجمال متجاوران . هنا يشتبك هذا الهودج فى ذلك ويزيد الرعب ويعلو الصياح وقد يهوى الهودج براكبيه إلى الأرض فيقوم الرجل أو السيدة وينفض عنه ما لحقه من تراب الأرض ويصيح قائلا (الحمد لله على كل حال) فى إيمان وثيق .

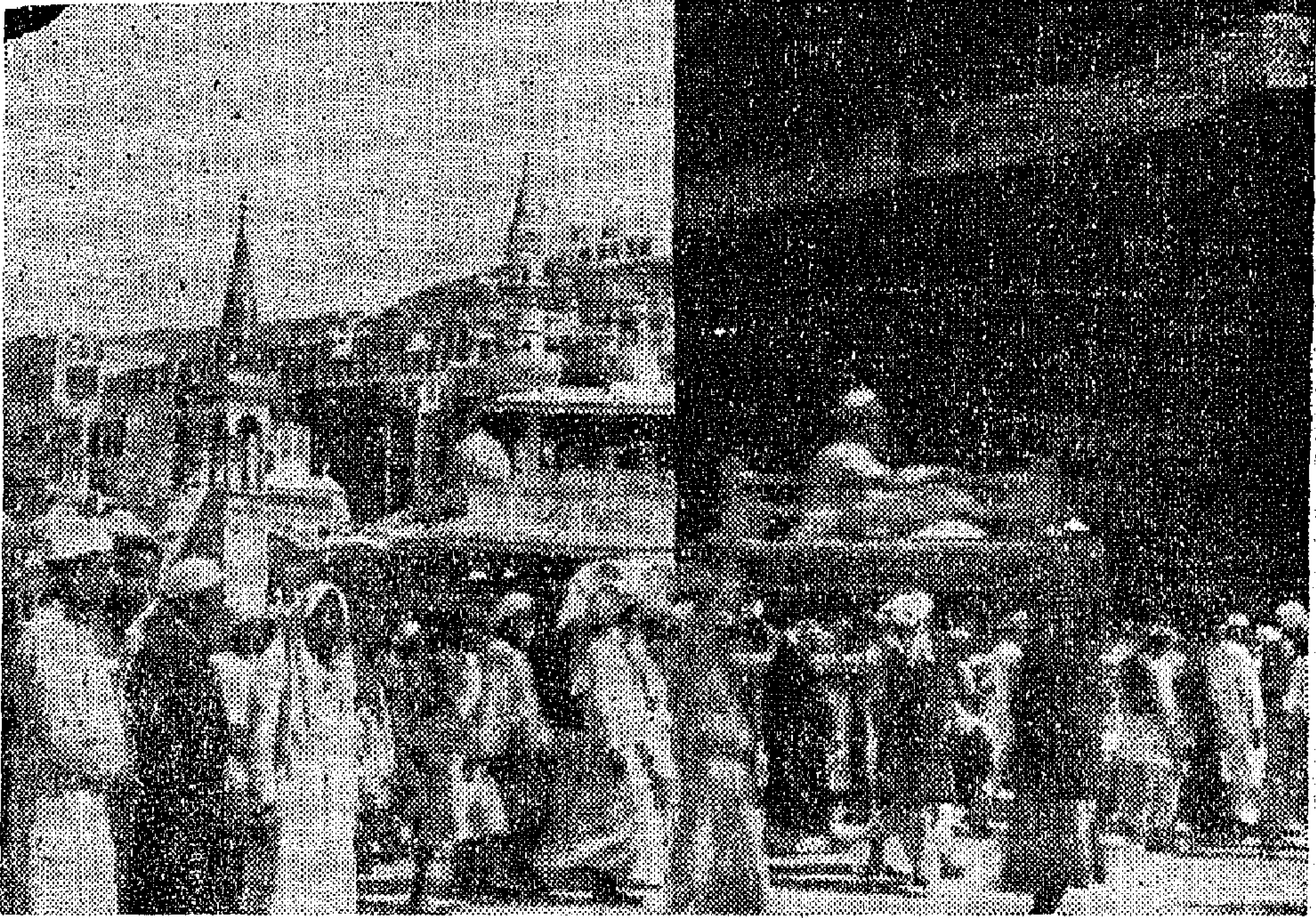
كذلك كان شأن السيارات على أختلافها . جاءنى الغلام يقول أن قد أعدت السيارة ويجب أن أحرم فاغتسلت ولبست أردية الاحرام وعدت لتقشفى الأول وحزمت بعض متاعى .

وقامت بنا السيارة صوب عرفات وخلفنا مكة وراءنا وأوغلنا فى البادية تنثرها الربى الجبلية المجدبة وكانت قطر القوافل متعاقبة إلى مد النظر وفى غير انقطاع وطريق السيارات غزير الرمل وفير التراب وكانت جماهير الناس من المشاة ترى هنا وهناك حتى فى طريقنا من جده . وبعضهم اعتزم الحج سيراً على الأقدام إمعاناً فى طلب الرحمة وكسب الثواب والبعض فعل ذلك من شدة فقره ، وكان يبدو عليهم وعثاء السير وجهد المسعى وجلهم فى حالات هى أبعد ما يمكن أن تتصوره من البؤس ورقة الحال ، أخيراً بعد سير ساعة بالسيارة أقبلنا على متسع من الرمال حوله ربى كثيرة على واحدة منها وقف رسول الله وصلى وأشار بيده حول الأفق من دونه وقال (كل هذا عرفات) هنا بدت الخيام والشقادف تملأ ذاك السفح المقدس وجماهير الناس كأنها النمل أو الدويبات الصغار . وأروع ما ترى من فوق تلك الربوة التى تسمى (جبل الرحمة) وفى حافته تجرى مياه (عين زبيدة) وافدة من وادى النعمان وهى تسير فى مجرى أقيم بالآجر الأحمر والحجر وتسامت جوانب الجبال يتلوى وكأنه مصغر لسور الصين العظيم وبين فترة وأخرى تترك فتحة صغيرة فى تلك القناة المقفلة يملأ الناس منهـا أوعيتهم وغورها زهاء متر

وإتساعها ذراع وكأن الماء المنساب فيها غزيراً سريع الجريان ولقد أوصلتها زبيده زوج هارون الرشيد لأمداد مكة المكرمة وتقوم الحكومة الحالية على إصلاحها وتتقاضى من كل حاج ضريبة للانفاق عليها — ألقينا رجالنا داخل تلك الخيام وكل مطوف قد انتحى بحجاجه ناحية أقام وسطها سرادق الاستقبال للجميع واحد للرجال وآخر للنساء يقدم لهم الشاى مجاناً فى كل آن ومن حول هذين السرادقين خيام النوم . والمطوفون زهاء ألف ومتوسط ما يصيب الواحد من الحجيج مائتان ولهم شيخ يتصل بهم جميعاً كلما جد أمر من ذلك أن الملك طلب إليه مرة — وكان يحارب الامام يحي — ٥٠ ألف جنيه ذهباً ، فقدمها له فى أقل من ساعتين ، ولأولئك المطوفين زهاء جنيه وربع على كل حاج ، هذا خلاف ما يهبه إياهم السادة من الموسرين إنعاماً قد يفوق الخمسين جنيهاً من الحاج الواحد — وكان مطوفنا (عمر المداح) واخوته يؤوون زهاء خمسمائة حاج منهم نحو ٣٥٠ بالجمال والباقون بالسيارات ، وهو الذى يعد لهم كل أولئك من مطايا ومساكن وما تتطلبه من رسميات

بتنا ليلتنا (ليلة السبت) فى دعوات وصلوات وابتهالات أن يعفو الله عنا ويغفر لنا ولوالدينا ولسائر عباده . ولقد تجلت حكمة التعارف واضحة فى تحيات القوم بعضهم لبعض وتطوعهم بالخدمة ، وبدت على وجوههم البشاشة والاستبشار . ولما أن أمضى الجوع طفت بسوق الجبل وهو شبه طريق يتوسط الخيام صفت على جانبيه المبيعات بكافة صنوفها من خبز وإدام وفاكهة وما إليها . وشريت ما ساغ للنفس قبوله من الطعام فى تقشف شديد . افترشت الأرض كما يفعل الجميع ولم تعف نفسى عن تناول الطعام من أيدى الباعة القذرين وكم اعترضت أسنانى قطع الحجارة وحبيبات الرمال لكن الجوع يهون كل عسير ، هذا إلى إيمان شديد فى الله وفضله وأن الانسان لن يمسه السوء وهو فى رحابه تعالى عند ذلك المكان المقدس . ثم كان الصباح

المنكر فقمنا نصلي الفجر في سكون الليل الرهيب ومن عجيب الأمر أن الجو كان بارداً ماطراً ، وظل كذلك الشطر الأخير من الليل وجزءا كبيراً من



نطوف بالكعبة ولمن لا يستطيع السير أن يحمل هكذا

الصباح وقد مطرتنا السماء قبل ذلك في مكة . وكان ذلك من فضل الله لأنه خفف من وهج الشمس وشدة الحر التي شعرنا بها في أيام الصحو هناك إلى ذلك فانه خير للأعراب ولماشيتهم لأنهم يرجون من ورائه وفرة في العشب والنبت .

أخذنا نتجول في رحاب ذلك الجبل المقدس جبل التعارف أو الصفاء وهل أبلغ من أن نرى الهندي بجسده الناحل الأسمر والنجدي بتقاطيعه الدقيقة وعيونه الغائرة وشعوره المضفرة الكثة . والصيني بلحيته النحيلة وشاربه الشحيح ورأسه المنبطح المحلوق ، والشامي بلهجته المعوجة ، والمصري بأرديته النظيفة ، والافغاني بوجهه المصفر المستطيل ، والجاوي بسحنته الصينية التي خالطها الدم العربي واللون الأسمر ، والصومالي بلونه الفاحم

ووجهه الوسيم . كل أولئك وغيرهم من الأجناس يخالطون بعضهم البعض ويحيون إخوانهم ولو بالسلام والاشارة دون الكلام . ثم طافت بناقطعان كثيفة من الأغنام وشرينا منهـا فديتنا وهدينا ، وكان ثمن الخروف المتوسط الحجم خمسة ريالات سعودية أى زهاء أربعين قرشاً ثم أخـذ القصاب فى الذبح (والمطوف) فى التوزيع على الفقراء وقد ذبحت أنا خروفاً لهدى التمتع وفك الاحرام بالعمرة وكانت جثث الخراف أكداساً فوق بعضها وكان الباعة يطوفون بمأكولاتهم هذا يصيح (الحبحب والبرطيخ) أعنى البطيخ وهو من نوع فاخر اللون والمذاق ، وذاك ينادى برمانه اليابس من ظاهره الحلو الشهى من داخله وثالث بالتمر المكشكش كأنه الحشف الذى جرد من النوى ونظم فى عقود من حبال وطعمه لذيذ .

أخذ القوم يزحفون صعودا فوق جبل الرحمة ويتضرعون إلى الله أن يغفر لهم وماقرب الظهر حتى أخذ البوليس النجدى الذى أحرم مثلنا وعلق بندقيته إلى جانبه يطاردهم إلى أسفل الجبل ولما صلينا الظهر بدأ وقت عرفات الحقيقى وفيه يبالغ المرء فى أدعيته ويطلب إلى الله مايشاء وينأى عن القبيح ولا يذكر أحدا إلا بالخير ولا يجادل فى شيء ويظل كذلك إلى فجر الغد قال تعالى (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج) وكم من مرة فاجأنى حاج يقول لا تقلع هذا العشب (ياخويا) لأن قطف النبات كائنا ما كان محرم وكذلك قتل الحيوان حتى البعوض والذباب الذى يجب أن نهشه فى رفق والا وجبت الفدية . موقف رهيب يتجرد فيه المرء عن كل شيء إلا العبادة والتسبيح والتكبير لاترى إلا متوضئا ومصليا فى زيه الأبيض الفضفاض البسيط حتى الأطفال الصغار ، وها قد حلت صلاة العصر وبعد أن سلم الامام أخـذ المطوف يصيح بدعوات قوية ونحن نكررها وراءه فى صيحات كانت تتردد فى جوانب الربى بهزيم كالرعد وتسلق أغلب الحجاج الربى المجاورة وبخاصة الصخرات الكبار أسفل جبل الرحمة وهى التى وقف عليها رسول الله فبدا

سفح الجبل وكأنه خلايا النحل أو جحور الدويبات يموج بهم فى كثافة كبيرة وصياح الكل بالدعوات يصم الآذان ويرج الآفاق . وذلك استعداداً للنفرة التى تحل من بعد غروب الشمس وبعده بقليل ينفر الحجاج من عرفات إلى مزدلفة لجمع الجمار

أعدت السيارات عند الأصيل وحملت الخيام والمتاع وقامت بنا مسرعة إلى حدود عرفات على مقربة من مسجد نمرة الذى صلى فيه رسول الله صلعم . وقد صلى به آدم وحواء ثم ابراهيم عليه السلام ، وهنا وقفت المطايا جميعاً وما كاد يحل غروب الشمس حتى اندفعوا مسرعين إلى مزدلفة فكانت السيارات تسد الآفاق وأضواء مصابيحها بدت وكأنها مشاعل متلاصقة وراءنا أو كواكب ذوات أذناب متوهجة ، أما الابل والمشاة فكانت وكأنها استعراض لجيوش من الهجانة لا حد لها . كل أولئك خرجوا من عرفات ذاك الجبل المقدس الذى تعارف فيه آدم وحواء وتلاقيا بعد خروجهما من الجنة . خرج الناس نافرين مندفعين إلى مزدلفة وبمجرد خروجنا من حرم عرفات أوغلنا فى المشعر الحرام . قال تعالى (وإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله فى المشعر الحرام) وهو تلك الأرض الجبلية الصحراوية التى تقع بين عرفات ومزدلفة أخيراً بدت أنوار مزدلفة منثورة فى حجر الجبال وجلها من أنوار الباعة وقد أضيئت الآبار العديدة ومنارة أنيقة لمسجد صغير بدا فى تلك الساحة القاحلة المنبسطة الرملية اللانهائية . وصل الركب جميعاً فى غير خيام وافترش أغلبهم الرمال والمرفهون منهم البسط والمفارش المختلفة وسرعان ما قام الجمع العظيم والحقير والكبير والصغير ، ذكراً كان أم أنثى نهضوا ينبشون فى الرمال للبحث عن الجمرات وعلى كل حاج جمع سبع جمرات أو ٤٩ جمرة لنرجم بها إبليس إذا أتينا (منى) وما ألذ مشهد الجمع وهم عاكفون على عملهم هذا ، وكم سأل أحدهم أخاه (تنفع تلك الحصوة) . فيقول كلا لأنها ليست كاملة التكور أو أنها أكبر من الحمصة وذلك لا يجوز عند

الشافعية أو أصغر من الفولة وذلك لا يصح فى مذهب المالكية ، وكم خاب الظن عند ما كانت تقع فى اليد حصوة مستديرة يظهر أنها (زبلة شاة أو بعير) مشهد رائع خصوصاً عند ما جن الليل وجلس الجميع منتشرين على الثرى بعد أن لوثوا أيديهم من الأرض والنبش فيها طويلا . أليس فى ذلك ترويض للنفس وإذلال لكبريائها ، وقد تساوى فى هذا العمل العظيم والحقير . ظل الحجاج يفدون من عرفات إلى الهزيع الأخير من الليل ، ذلك على سيارة ، وهذا على جمل ، وآخر ماشياً وقد افترشوا جميعاً أرض مزدلفة وما كاد الليل ينتصف حتى اشتد عصف الريح وزاد بردها فأصبحنا معرضين للبرد القارس وليس لدينا من غطاء كاف

وبينا نحن جلوس نخشى وطأة البرد ونسأل الله أن يرد سوءه عنا ، وألا يعرضنا المطر وإذا بسيدة تنتفض صارخة. فقلنا لها ما الخبر قالت : أنى أرى دويبة تجرى على غطائى فسارعنا إليها وإذا به عقرب كبير يجرى مرفوع الذنب فتردد القوم هل يحل قتله أم لا لأن القتل فى تلك الأيام وعند هذه الأماكن المقدسة محرم ، فغلب الرأى القائل بأن قتل الحيوان الضار مباح إن لم يكن واجباً ، وكم من عقارب أخرى قتلها آخرون بعضها فى تلك الأرض والبعض فى ساحة عرفات نفسها . بزغ الفجر وأذن لنا بالسير إلى منى فحملتنا إليها السيارات مسافة تزيد على نصف ساعة فى وديان تحوطها ربى مجدبة وأخيراً بدت أضواء عديدة وخيام لا حصر لها ثم دخلنا شارع البلدة الرئيسى وتقوم على جانبيه مبان متهدمة وبيوت بائسة ، وعلى حافتى الطريق نشر الباعة سلعهم المختلفة وجلها من الطعام ، وأخيراً أدت بنا السيارة إلى خرابة مسورة هى أشبه شىء بمربط البهائم أو مبرك الجمال أرضها قذرة ورائحتها نتنة وقيل لنا هنا تضرب الخيام بعد برهة ، فصاح الكثير وغضبوا كيف ينامون فى مثل هذا المكان ومنهم البيك الكبير والهانم المرفهة وبعد مشادة كبيرة هدأ الكل وقنعوا بما قسم الله لهم فكنت أراهم مستلقين على

الأرض متكئين على متاعهم . وبعد زهاء ساعة أقيمت الخيام ودخل كل فريق خيمة منها . أما أنا فقد غلبني النعاس ، فحشرت نفسي وسط رهط من



مكان بيت رسول الله الذي ولد فيه بمكة المكرمة

النائمين لم أدر شخصياتهم حتى الصباح ، ولم يكن لدى فراش ولا متاع لأني كنت أعتمد في مقامي على نزل بنك مصر والاوتيل السعودي في مكة . وعبثاً حاولنا أن نجد بها مكاناً ولو تم ذلك لاستعرنا منها فراشاً لعرفات ومزدلفة ومنى . على أني ألفيت في زميلي الكريمين الحاج عبد الجليل الأشرم والدكتور الحاج صادق عبد الفتاح نعم الصديقين فقد تبرعا لي ببعض الفراش وكانا يزوداني ببعض الطعام المجفف وقد ثبت لي بالتجربة أن (الزاد والزواد) الذي كنا نسمعه في سفر الحجاج أمرهما ضروري جداً في تلك البلاد المقفرة التي لا يطمئن المرء فيها إلى فراش أو طعام . قيل لنا أن رمي الجمار يجب أن يكون هذا اليوم إلى ما قبل الشروق وهي جمرة العقبة فقمنا وقادنا الغلام إلى حائط يقوم أمامه نصف عمود من حجر طلي بالجير وقيل لنا هنا الشيطان الأكبر فارموه بالجمار

السبعة واحدة فواحدة وعلينا أن نقول قبل كل رمية (بسم الله الله أكبر) .

أما تزاحم الناس على اختلاف أجناسهم ، فى ذاك الصباح المبكر فأمره من الأعاجيب لم أكد أستطيع أن أشق طريقى وسط جموعهم الكثيفة إلا بشق الأنفس وهنا أخذت أرمى الجمار ويجب ألا تقصر الجمرة عن ذراع ويحسن أن تضرب فيه وتسمع رنينها وكم رأيت من الناس من يحمل قطعة حجر كبيرة ويرميها على إبليس فى عنف شديد أذكر أن صديقى الدكتور صادق بينما كان يرجم أصابته رجمة من رام كان يلقيها فى غل شديد فصاح فى وجهه قائلا ما أنا بالشيطان ياشيخ . أخذت أطوف بأرجاء تلك الناحية واذا معظم مبانيها كالزرائب القذرة وجل الخيام أقيمت فى المتسعات الصحراوية حولها ومن بينها خيام بنك مصر التى بدت نظيفة جديدة براقة وقد زودها طلعت باشا بمولد للكهرباء على سيارة كبيرة ومدت منها الأسلاك فأضاءت كل الخيام وما أحاطها . ومن الخيام الممتازة خيمة استقبال الحكومة المصرية وخيمة ابن السعود إلى جوار قصره هناك وقد جلس علية الناس من مختلف الأجناس يحيونه بالعيد الأكبر فى جموع كثيرة وكثير منهم كان يقوم متكلما . وكان يقدم للأضياف فناجيل فى قعرها قطرات القهوة السادة ثم يعقبها من الشربات ويمر رجل (بفوطة) حمراء يمسح جميع الناس فيها أفواههم . هنا فرض علينا أن نقيم ليلتين ان تعجلنا أو ثلاثا إن لم نتعجل قال تعالى (فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى) وفى كل يوم نرمى الجمار فى ثلاث بقاع عند كل بقعة سبع جمرات نجمعها من الوادى المؤدى إلى منى ولا يجوز الجمر إلا بعد الظهر . وفى تلك المواضع الثلاثة تقام أنصاب حجرية كالعمود القصير تمثل إبليس وحولها سور دائرى ولا تسأل عن مبلغ التزاحم حول هاتيك آناء الليل وأطراف النهار .

لم أطق صبراً على ملابس الاحرام فآثرت أن أتحلل منها فركبت عربة (ذات عجلتين يجرها حصان) إلى مكة فى نصف ساعة ودخلت الحرم الشريف

وطفت طواف الإفاضة (سبع مرات كما حصل فى الطواف الأول) ثم خرجت للسعى بين الصفا والمروة وهنا كان الجهاد بين آلاف الناس عنيفا قاسيا فكم ديست أقدامى وضربت أكتافى ووكزنى من الخلق الكثير وبخاصة جماهير النجديين أنصار ابن السعود وهم كالوحوش شكلا وخلقا شعرهم منفوش هادل وجسومهم عارية إلا فى الازار الأسفل القذر وجلودهم تطلى بالأدهنة المنتنة يهاجمون الناس فى سعيهم فى شدة كبيرة وهم من قبيلة الغطغط كان الرجل إذا اصطحب زوجه أو أمه أمسك بها من جانب وأخ له من جانب آخر ودفعاها فى الطواف أو السعى حتى إذا وصلا الكعبة أو الصفا والمروة صاح قائلا :

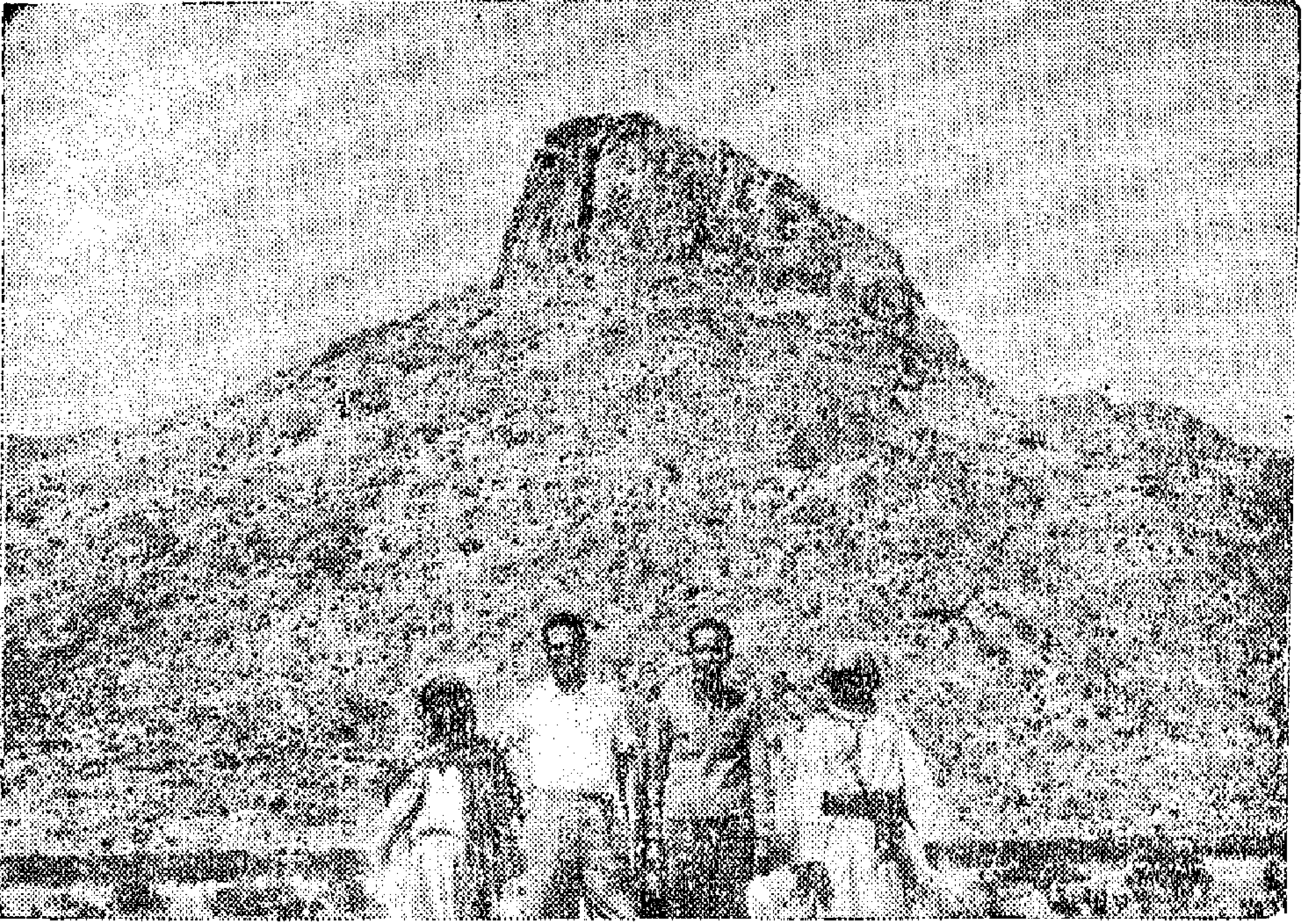
يارب البيت جبت المرة وجيت . ثم يمسك برأس المرأة ويضربها فى الجدار قائلا حجى يامره حجى فى شكل مزعج .

وبعضهم كان يقول لها « حجيتى ياحاجة ؟ فتقول حجيت حجيت » ثم تخاطب الحجر الأسود قائلة : خبر ربك أنى حجيت » . وتخاطب السماء قائلة « تقبل أو لا تقبل حجيت إلا غصباً تقبل» .

فكان مظهر هؤلاء الاعراب قذرا منفرا وقد سدوا أنوفهم بصمامين من قطن غمسا فى دهن المر وربطا بخيط فى الرقبةويسمونها الصمائم وذلك ليدفع عنهم أخطار الروائح الكريهة ، مع أنهم هم مصدر تلك الروائح أما وجهاؤهم فيلثمون أفواههم وأنوفهم «بالكوفيات» لهذا الغرض . وغيرأولئك حشد من مختلف السحن والأزياء والأخلاق فى العالم الاسلامى فمن التركى بتفاخره إلى الجاوى باستكانته والفارسى بكبريائه والمصرى بلينه وظرفه والشركسى بصلابته والصينى بسكونه والمغربى بحدتهوالهندى ببساطته واليمنى بمكره والسورى بنشاطه والزنجى بخموله .

سعيت فى وسط كل أولئك وزاد الطين بلة شدة الحر وعفرة الترابأما عن قذارة حذائى وشعث شعرى وانهيار قواى فذاك ما لم أقاسه من قبل

حتى فى أشق رحلاتى السالفة . عدت واغتسلت وحلقت اللحية ولبست جلبابا وآثرت أن أترك المعاطف كلها وقمت أسارع فى العودة إلى منى . بعد أن نمت زهاء ساعة ولم أذق النوم ليلتى الفائتة ليلة مزدلفة القاسية — بحثت عن مطية أركبها فلم أجد مكانا خاليا فى سيارة أو تاكس أو عربة وبينا أنا حائر قلق — لأنه يجب دخول منى قبل الغروب وإلا لزمت الفدية — وإذا بسائق الجمال يقول (اركب ياحاج) فقلت بكم ؟ قال بربع ريال فأناخ الناقة وركبت وظلت تهتز بنا وتتهادى فى مشيتها حتى دخلنا منى فى ساعة وربع وكان قد بقى على المغرب خمس دقائق، أمضنى الجوع أنا وزميلى الدكتور صادق فأخذنا نطوف بالمأكولات ولا تسيغ لنا النفس تناولها لقذارتها وأخيرا رأينا رجلا يعد فطيرا فى مهارة وخفة عجيبة يضرب العجينة ويروحها فى الجو حتى تكون كالمنديل ويطبقها ويضعها على النار ويعد غيرها ثم يلفها عليها ويعيدها إلى النار ويسقيها السمن بين آن وآخر وبعد أن تصبح طبقات عدة يسألك أتريد سكرا أم لحما مفروماً أم بيضاً وكراتاً وخضرة أم جبناً فسألناه أن يعد لنا خليطاً من كل هذا ففعل ثم قطعها لنا بسلاحين سلاح مستعرض يعلوه آخر رأسى فأضحت مهلهلة وقال الرجل هاكم « المهروسة » أمتع فطائر العرب فأكلناها واستمرأنا طعمها ثم عقبناها (بحبحبة أو برطيخة) شهية والبطيخ الحجازى لا يدانيه فى الطعم واللون غيره . طفنا بأرجاء البلدة وزرنا كثيرا من النزلاء أضيافها ثم آوينا إلى خيامنا وكان البرد قد نال منا فى شدة غير مألوفة والعجيب أن شدة حر النهار قد أغرتنى فتركت فى مكة معطفى ولم يكن لدى غطاء لليل . فأعارنى بعض الاخوان بطانيته وفى الصباح فاجأتنا عاصفه عاتية سح مطرها وابلا حتى أغرق كل شىء وظل كذلك إلى مابعد الظهر فبدا لنا بذلك شدة تقلب الجو فى تلك الجهات التى نخالها عديمة المطر وإذا بالسيول والعواصف تنتابها كثيرا وبخاصة فى الشتاء لذلك كادت تنتثر الأراضى بشجيرات « السنا » والعشب الخفيف وجله من الأعشاب المسهلة



جبل النور مهبط الوحى ومكان تعبد الرسول

ولذلك كان اللحم الحجازى ولبنه مسهلا من أثر ذلك فى الأغنام هناك تفتحت الشمس بعد الظهر فأسرعنا إلى رجم الأبالسة الثلاثة الأصغر ثم الأوسط ثم الأكبر . وتلك البقاع هى التى وسوس فيها الشيطان لابراهيم ألا يذبح ولده وكيف يفعل ذلك بعد رؤيا إن هى إلا أضغاث أحلام فلعنه ابراهيم ورجمه وفى مكان الشيطان الأصغر وسوس لاسماعيل أن يعصى أباه فلعنه ورجمه وفى مكان الشيطان الأوسط وسوس لأمه هاجر .

وهناك فوق الجبل صعدنا إن مغارة قيل إن ابراهيم أخذ فى ذبح ابنه فيها فحاول عبثا أن يشق رقبته بسكينه وأخذ يسن السكين فى الصخر وقد أشاروا إلى علامة ذلك فى الصخر عندئذ أنزل الله له الكبش من السماء ليفديه به ومن هنا كانت عادة الفدو فى العيد الأكبر ولم أر فى تلك المغارة ما يؤيد شيئا من ذلك إذ هى فجوة فى الصخر حولها علامات الديناميت أو الأوتاد التى يشق بها صخر الجرانيت فى المحاجر ولهذا حاول ابن السعود تحطيمها لأنه يعدها

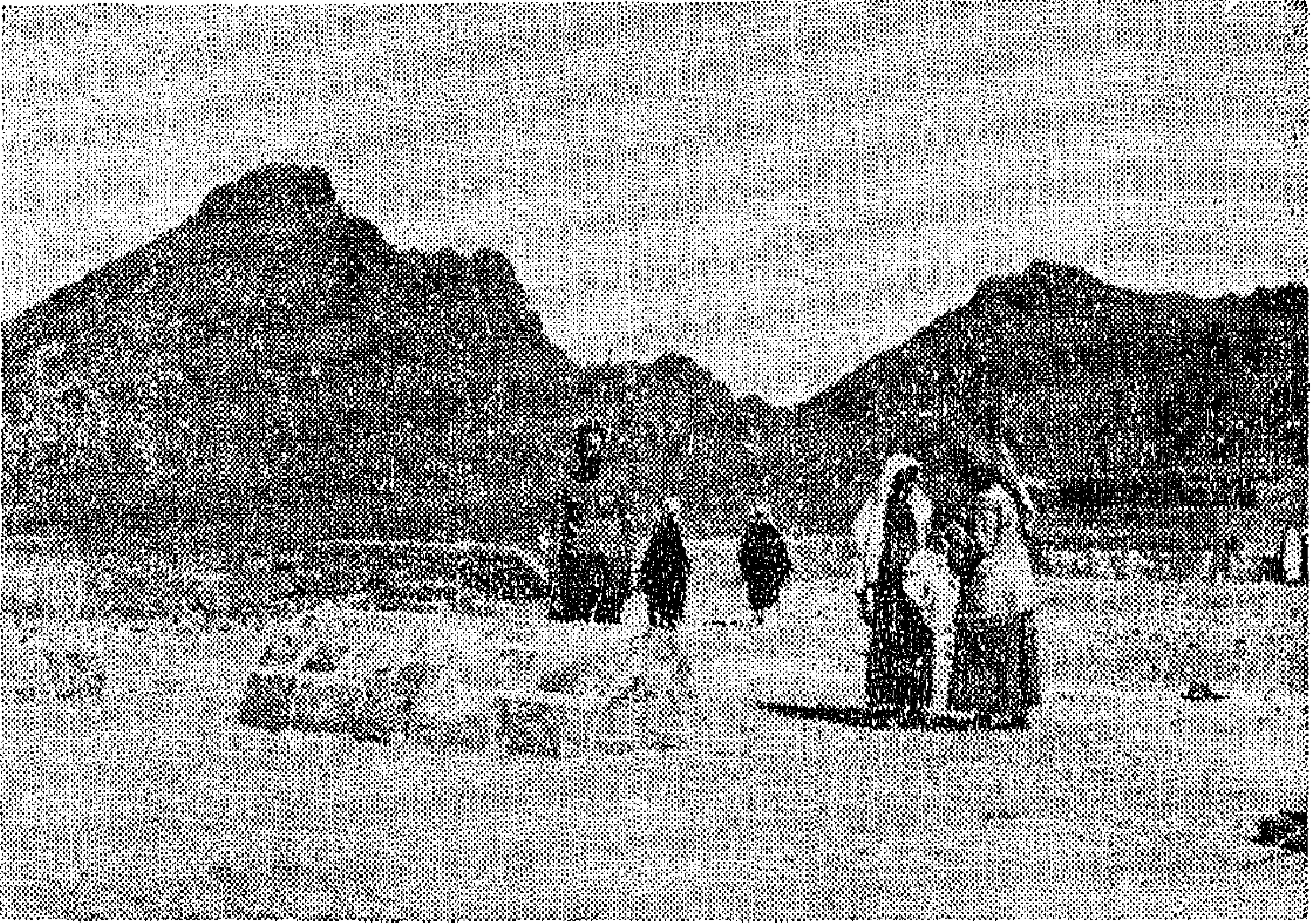
بدعة وكان التزاحم حولها شديدا وجماهير المتسولين والشباحين لاتحد . ثم كانت زيارتنا لمسجد (الخيف) بمنى وهو عظيم الاتساع مسور فى أسنان متعاقبة وعلى بابه الرئيسى مئذنة وفى وسط أرضه العارية عن الفرش قبة كبيرة تلاصقها مئذنة أخرى وهنا أقام الرسول خيمته لما أن هرب من كفار قريش وكان يصلى فى جانب من المسجد فجاء الكفار وألقوا عليه وهو يصلى حجرا كبيرا من فوق الجبل تدحرج حتى كاد يلمس النبى لكن القدرة أوقفته فى مكانه وقد أشار القوم إلى ذلك الحجر هناك ويظن البعض أن اسم المسجد مشتق من الخوف وهو المكان الذى كان يخاف النبى الكفار فيه ولقد بناه الأتراك هكذا . ومن الأماكن الجديرة بالزيارة سبيل وزارة الأوقاف المصرية قام فى بناء فاخر مزركش تزينه الآيات القرآنية وتتقدمه حديقة يانعة الزهور وفى جانب منه بهو للاستقبال فاخر ، ويستقى الناس من مائه الوفير بصنابير كبيرة صفت حوله بطريقة صحية لا يصيبها تلويث . ولعل أخطر شىء على الحجاج فى تلك البلاد كلها تلويث الماء فهناك عين زبيدة التى يفد ماؤها فى مجارى من وادى النعمان على بعد ٣٥ كيلومترا من مكة قيل لنا أن أحد الحجاج نزل فى احدى فتحاتها ليغتسل فجرفه التيار فى ثنياتها ومات وظل هناك أياما وتعفنت جثته كل ذلك وأهل مكة يستمرئون تلك المياه ويخالونها طاهرة نقية — فماذا عليهم لو سدوا منافذ تلك المجارى واستعاضوا عنها بصنابير يستمد القوم منها الماء دون أن يصيب المياه خطر ؟ إهمال شنيع يعرض الكثير لفتك الأمراض فى غير رحمة . ويزيد خطر تلك الأمراض كثرة اللحوم التى كنت أراها ملقاة فى الطريق وعلى الجبال وعند الأزقة وأينما كنت أسير وكانت جثث الخراف كاملة وقد رأيت منها مرة تسع جثث متجاورة وأعجب كيف يعد الفدو بتلك الطريقة من أعمال الخير وفى يقينى أن الناس لا يفهمون معنى الهدى أو الفدو فليس هو فى ظنى بمجرد ذبح شاة يلقى بلحمها إلى الجو بل ليأكلها الفقراء فان زادت عن حاجتهم استبدلوا بها صدقة تعادلها

قيمة — وغالب الفقراء يأنفون من أكل تلك اللحوم ولا يقبل عليها إلا المضطر،
وكنت أرى الاعراب والهنود يقطعون بعض تلك اللحوم وينشرونها في الشمس على الصخر لتجف ثم يحفظونها ليأكلوا منها. ويحمل الهنود بعضها إلى بلادهم تبركا ولهذا سميت أيام منى بأيام التشريق أى التقديد وكان بعض مندوبى الصحة يجمعون الجثث على حمار ليحرقوها أو يدفنوها خارج البلدة ومن أكبر المنغصات فى تلك البلاد كلها قذارة البيوت وبخاصة (المراحيض) التى تكاد تنز أرضها وجدرانها رطوبة منتنة يلوثها المخاط والبراز بشكل تنفر منه النفوس فيلجأ السواد الأعظم إلى الطرقات والأزقة يبولون فيها ويتبرزون فلا عجب أن يتعرض الناس لفتك الامراض وكثر البعوض فى سحابات بشعة وقد كنت أوثر ألا أزيل ضرورتى أياماً متوالية نفوراً من تلك الأماكن القذرة. حل الظهر فسارع القوم جميعاً لرمى الحجارة على النظام السالف وجلهم يؤثرون النزول من منى عقب الرجم مباشرة ولا يرغب فى المبيت الليلة الثالثة هروباً من مشقتها ونفوراً من المقام فى أوضارها. هناك ألفيت الجموع تسد الطرق سداً فطفقت أكافح وقد اختنقت أنفاسى وأحرج صدرى الهواء الذى لوثه مثار الثرى وما تصعده الاجساد القذرة للسواد الاعظم من القوم وقد أتممت الرجم فى وقت طويل وكم أبصرت بالسيدات والمسنين فى حال يرثى لها ومنهم من سقط بين تلك الجموع فكادت تزهق روحه. ويا لهول المنظر بعد أن صلى القوم الظهر وهجموا على الأبالسة فى حشد لا يحد وما بالك بثلثى الحجاج وهم زهاء ٦٠ ألفاً حشروا فى ذلك الطريق الضيق؟ ركبنا سيارتنا ومن خلفنا مجموعة كبيرة من اللوريات وكانت قطر الجمال بهوادجها قد بدأت الزحف براكبيها إلى مكة فسدت كل طريق وحاولت السيارات السير بين تلك الجيوش وكلما نفخ صورها ذعرت الابل فهاجت وماجت وتداخل هذا فى ذاك فانقلب (الشقدف) بمن فيه وكم ديس من أطفال ونساء بعد سقوطهن هكذا. وقد مات منهم الكثير وظل ذلك طيلة اليوم، وفى جميع

الأزقة والطرقات وليس ثمة من نظام موضوع يسير الجمال أو السيارات فكل يسير بمحض إرادته حتى يتلاقى فريقان يسيران فى اتجاهين متضادين فتقف حركة المرور تماماً . ورجال البوليس وقوف لا يدرون ماذا يفعلون وكم زادوا النظام اضطراباً ، من ذلك أن الجندى أصدر أمره إلى سياراتنا بالسير من هذا الطريق وفى آخره وقف فى سبيلنا زميله يقول أرجعوا من حيث أتيتم واسلكوا سبيلا آخر والمدهش أنه يستحيل على أصغر سيارة أن تدور وترجع كما يقول وأخيراً رجعنا بظهورنا وسط جماهير القوافل فى ربكة وحذر

موقف من سوء النظام وارتباك الأحوال لم أر له مثيلا. وقد وصلنا مكة فى ثلاث ساعات و نصف مع أن المسافة العادية لا تزيد على نصف ساعة .

وكلما قرب الغروب زادت عجلة القوم فى الرحيل لأن الغروب إذا حل وهم فى حدود منى وجب عليهم قضاء الليلة الثالثة هناك . وصلنا بحمد الله مكة التى ظلت تموج طيلة النهار والقسم الأكبر من الليل بجموع المشاة والابل والسيارات . وتزودنا بالطواف حول الكعبة تطوعاً منا وتحية للحرم إذ تحية المسجد هو الطواف وكان ذلك فى وسط حشد من الطائفين وحاولنا لمس الحجر الأسود فلم نستطع أبداً فأظهرت للجندى ريالا على بعد فطارد الناس وأخلى لى مكانا رحباً وسلمنى الحجر ففحصته عن كثب وقبلته ثم صليت ركعتى الطواف — والصلاة فى الحرم المكى بمائة ألف صلاة — وجلست فى رحاب الكعبة أنظر إلى الخلق حول المطاف وقد أحيط بأطار من حديد أخضر كأنه البوابات المتجاورة ومداه من جدار الكعبة زهاء ١٥ متراً ثم يليه أرض الفناء يكسوه الحصى وتخترقه الممار الحجرية المرتفعة التى تؤدى إلى الليوانات المسقفة تحت البوائك ومعظم الناس يغتسلون بماء زمزم والبعض يطعمون حمام الحمى بأسرابه الكثيفة فينثرون له الحب ، ويلفت النظر هذا الحمام الذى يرفرف فى سحابات وكأنه يطوف بالبيت ، والعجيب أنه يندر أن يقف على بناء الكعبة فكأنه يقدسها كما نفعل ويقال أنه من نسل الحمامة التى عششت على النبى فى الغار .



قبر سيدنا حمزة عم الرسول فى سفح جبل أحد

والمدهش أن الحمام يكاد يكون مقدساً فى جميع الديانات : فهو الذى هدى سفينة نوح إلى البر وهو الذى رفرف على رأس المسيح وهو يعمد فى نهر الشريعة وهو الذى عشش على النبى فى الغار ليخفيه عن الاعداء هذا فوق ما له من خدمات فى القيام بنقل البريد وبخاصة زمن الحروب

وكان الناس ينشرون أقمشتهم بعد أن زمزموها وأنى طوحت ببصرى الفيت المصلين يولون وجوههم شطر الكعبة المشرفة وكانت تبدو كسوة الكعبة سوداء براقة وهى من صنع مصر وتتألف من ثمان ستائر من الحرير الأسود كتب عليها بالنسيج المتكرر (لا آله إلا الله محمد رسول الله) وطول الستار ١٥ متراً وعرضه خمسة ويعلق كل ستارين فى صفحة من الكعبة وترفعها حبال تمر فى حلقات كبيرة وتربط فى السقف وأخرى فى الشاذروان من أسفل الكعبة ويوضع على الكسوة فى ثلثها الأعلى حزام من المخيش المذهب — ويسمونه رنكا — فى خط عربى جميل فيه على الجانب الذى به باب الكعبة ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام

ابراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود . وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) .

وفى الصفحة التالية للحجر الأسود كتب (بسم الله الرحمن الرحيم قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين . ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم . بسم الله الرحمن الرحيم وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق)

وفى الصفحة التالية كتب : (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق)

وفى الصفحة الرابعة التى بها الميزاب دعاء لملك مصر

وكانت تكاليف الكسوة سنويا ٤٥٥٠ ولكنها زيدت اليوم ، ويتبعها ستائر باب الكعبة من الخارج وتسمى البرقع وستار الداخل ويسمى باب التوبة وكيس مفتاح الكعبة وكسوة مقام إبراهيم وستار باب المنبر وكلها من الأطلس المخيش بالذهب والفضة

وعند تمام عملها تحمل فى حفل عظيم من مصطبة المحمل إلى سيدنا الحسين حيث يسلمها مأمور تشغيلها إلى المحاملى باشهاد شرعى وتوضع فى صناديق تنقل مع ركب المحمل ومعها آنيتان من نحاس ملئتا بماء الورد لغسل الكعبة . وهناك تسلم للشيخ الشيبى باشهاد شرعى وتبقى فى منزله إلى يوم عيد الأضحى حيث ترفع الكسوة القديمة وتوضع بدلها ، ويأخذ الملك المقصب منها ويترك الحرير للشيخ الشيبى ليبيعه للحجاج . وقبيل الحج يقطع الشيبى نحو مترين من أسفل

الكسوة ويستبدل بها قماشا أبيض لتحرم الكعبة فى زعمه ويخيل إلى أن السبب الحقيقى انتهاز شيخ الكعبة الفرصة الكافية ليبيع منها الكثير على الحجاج ، وهو يتقاضى أثمانا باهظة يأخذها لنفسه مع أنها كانت تباع لينفق ثمنها فى سبيل الله وعلى البائسين .

أما المحمل المصرى فأصله هودج شجرة الدر التى ركبت فيه وهى ذاهبة إلى الحج سنة ٦٤٥ هـ ثم ظلت العادة أن يتقدم ركب الحجاج من بعدها ووراءه الهدايا للحجاز وبلغ من زركشته وثقل زيناته اليوم أن جاوز وزنه ١٤ قنطاراً ومن ورائه صناديق الهدايا . وحفلة خروجه ترجع إلى الدولة الأيوبية وكانت العادة أن يدور المحمل حول نفسه ثم يسير إلى المصطبة حيث يكون الملك أو نائبه فيسلم مأمور الكسوة زمام المحمل للملك وهذا يسلمه بدوره إلى أمير الحج ثم تطلق المدافع ويسير المحمل يتقدمه أمير الحج ومن ورائه الجمال الاخرى وجمال الطبالين ويعسكر فى العباسية ليراه من أراد من الناس ، ثم ينقل بسكة الحديد من محطة العباسية إلى السويس . وكانت تكاليف كسوة المحمل هذه نحو ١٥٠٠ جنيه وتجدد مرة كل عشرين عاماً وأكثر مابلغت نفقات المحمل والكسوة معاً فى عهد الفواطم حين زادت على مائة ألف جنيه

وكانت تركيا تتكفل بعمل كسوة الكعبة من الداخل وهى من حرير أحمر وكسوة الحجرة الشريفة النبوية فى المدينة من الحرير الاخضر

وفى الصباح قصدنا إلى ناحية من مكة يسمونها « شعب على » فيها مسقط رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ألفيناه متسعا مهملا من الأرض أنيخت به الجمال ولم تميزه أية علامة فسألنا شيخا مسنا : أهذا بيت الرسول ؟ قال جزى الله النجديين شرا فلقد هدموا البناء الذى كان يمثل ذاك المكان المقدس فلم يبق فيه سوى أثار من حجارة الأساس ولا يزال أحد جدران المسجد الذى كان يقوم هناك يستخدم جانبا من جوانب البيوت المجاورة وفى ناحية أخرى من تلك الجهة مسقط رأس على ابن أبى طالب وقد فعلوا مافعلوا

بسابقه . أسفت لهدم تلك الآثار القيمة وقلت ألم يكن جديرا بهم أن يحتفظوا بتلك الآثار الجليلة ويمنعوا العامة من البدع ومايحوطها من شعوذة كأن يقف رجال الشرطة يفهمون الناس خطأهم فى رفق واناة . وهؤلاء النجديون يذهبون بعيدا ويسارعون باتهام الناس بالكفر فاذا قلت فى التحيات :

اللهم صل على سيدنا محمد صاحوا فى وجهك ونهروك ألا تقول سيدنا بل محمد فقط ، حدث مرة أن كان زميل معنا فى الحرم وكان إلى جانبه أحد أمراء اليمن وإلى الجانب الآخر ابن الأمير فيصل « حفيد ملك الحجاز » ولما أقام الامام الصلاة وقف زميلى وقال :

يارسول الله فصاح ابن فيصل فى وجهه واستل سيفه وهدده قائلا :

يامشرك لا تقل يارسول الله وقل يا الله : فاضطرب الرجل ولولا تدخل أمير اليمن لحدث مالا تحمد عقباه . ولقد كانت العادة أن يصلى الأئمة الاربعة بالناس الواحد بعد الآخر أى كلما فرغ واحد بأشياعه قام الامام الآخر فالثالث فالرابع وبذلك كانت تعطى فرصة للمتأخرين من الناس أن يدركوا صلاة الجمعة فلما جاء السعوديون قالوا بأن ليس هناك مذاهب . وأخذ يصلى بالناس إمام واحد هو إمام الحنابلة لأنه من خلفاء بن تيمية وهو من الوهابيين ثم كان صعودنا فوق الجبل لزيارة مثوى « بلال » أول مؤذن فى الاسلام وقد أقيم حوله مسجد بمئذنة قصيرة فى نفس البقعة التى أمره الرسول أن يؤذن فى الناس بالصلاة لأول مرة فكانت ذكريات فاضلة جليلة وقد جلسنا أسفل المسجد نشرف على مكة المكرمة وبيوتها المنثورة على جوانب الوديان المجدبة تحوطها الربى وفى الوسط الحرم المصون والكعبة المشرفة ، نزلنا إلى التكية وهى من أفخم مبانى مكة أمام أحد أبواب الحرم أعدت لإيواء النزلاء من المصريين ولتوزيع الصدقات على فقراء مكة بين آن وآخر ، وبها مستشفى وعيادة طبية مجانية . جلسنا نتجاذب أطراف الحديث مع بعض المصريين وإذا بحشد هائل من الهجانة ظل يطوف بالشوارع وعلى كل هجين جندى اعرابى لم تبد عليه



أمام غار ثور حيث اختبأ الرسول وأبو بكر وأظلتهما اليمامة

من الجندية علامة اللهم إلا بندقية بالية أو سيف مفلول وغالبهم فى خرق مهلهلة وبأيديهم العصى والأعلام وظلوا يصيحون صيحات غريبة وأعقبتهم فرقة من المشاة فى أزياء الجندية وكان ذلك مظاهرة ارهاب للناس لتشعرهم باستعدادات الحكومة الحربية وقد استعرضهم الملك أمام قصره وللملك قصور كثيرة يحلها كلما سافر إلى احدى المدن وتسكنها ذريته الكبيرة فله من الأولاد الذكور نحو ثلاثة وخمسين .

ولكل أولئك القصور والمخصصات المالية والسيارات الفاخرة التى كانت تزاحم حركة المرور وتفسح لهم الطرق أنى ساروا هم وأشياعهم من زعماء القبائل النجدية ولما أن تساءلت عن ميزانية البلاد قيل لى أنها احد عشر مليون ريال سعودى (أى زهاء مليون جنيه) منها ثمانية للمخصصات الملكية والثلاثة الباقية للانفاق على الجيش وشئون البلاد . لذلك لم أعجب لما رأيته من إهمال المصالح العامة على اختلافها فالبلاد تفتقر إلى الاصلاح فى كل شىء : فى الشئون

الصحية ، والطرق والمباني والتعليم وغيرها !

ولقد نزل الملك إلى الحرم قبيل العيد ومعه أمراء الشام واليمن وصعد إلى الكعبة وشاطر فى غسلها من ماء زمزم بيده وتغسل مرتين فى العام فى رجب والحجة فى حفل كبير وكان الناس من دونها يتلقفون المياه هذا يغتسل بها ، وذاك يشربها تبركا . وقد تهدى منها قوارير للوجهاء والعظماء ، ويبيعها الشيخ بأثمان باهظة ويتخاطف العظماء المكانس الصغيرة . ولقد أحزمت الكعبة نفسها فكسى أسفلها بالقماش الأبيض . ثم ألبست ثوبها الجديد الذى بعثنا به من مصر .

قمت صباح الجمعة ومعى الأخ الدكتور صادق عبد الفتاح لزيارة جبل النور واستأجرنا (رويكب) وهو حمار صغير لكل منا بريال سعودى فسلكنا سبيلنا صوب منى إذ هو فى منتصف الطريق إليها وهناك بدا الجبل فى مخروط مفرطح تعلوه على بعد شبه قلنسوة وقد أقام كثير من الأعراب خيامهم أسفله فعرضوا علينا ماء توضأنا منه وارتوينا ثم أخذنا فى الصعود وكان الجو مشمساً حاراً متوهجاً . ولبثنا ساعتين تتلقفنا طيات الجبل ومسالكه الوعرة حتى إذا بلغنا الذروة وجدناها مسطحة يتوسطها صخر مشقوق فى اتساع قامة الرجل وحوله بقية لقبة كانت مشيدة فوقه منذ عهد الأتراك وقد هدمها السعوديون كعادتهم وإلى جانب زلق من هذا غار صغير يتسع لشخص واحد هو غار حراء الذى كان يتعبد فيه الرسول ، وهنا نزل عليه الوحى الكريم فشق صدره وناجاه أن (اقرأ باسم ربك الذى خلق الخ) ، ولهذا سماه القوم (غار اقرأ) هنا ارتعد النبى وعجل بالنزول إلى داره وقال (زملونى دثرونى) فنزلت عليه الآيات الحكيمة (يا أيها المدثر ويا أيها المزمل) . ذكريات شريفة هزت منا القلوب ونحن جلوس إلى جوار تلك البقعة الطاهرة وقد استقينا بالماء المثلوج الذى وضعه هناك كهل يمن الزائرون عليه بصدقاتهم وهناك لاقينا مراهقاً من البدو لا يزال على حالة الفطرة الكاملة

أخذ يحدثنا ولا نكاد نفهم لحديثه شيئا إذ كانت لغته محرفة وبلغت به بساطته أنه طلب إلينا أن نبيعه (الشمسية) فقلنا له مازحين بكم تشتريها قال ها كم (هللتين) والهللة تساوى ربع قرش سعودى أى نحو مليم مصرى وقد وافقناه موافقة صورية فتمسك بأخذها وقال بأننا قبلنا عقد البيع ولا يصح طبقاً للأوامر السعودية نقضه . ثم كانت دهشته كبيرة لما أن رأى الساعة فقال أهذه للصلاة ؟ وما كاد يضعها إلى جوار أذنه حتى صاح مبهوتاً يقلد صوتها ثم أبصر بعقرب الثوانى يتحرك فطار لبه فأدهشتنا بساطة البدو وجهلهم بما يجرى فى الحضر إلى جوارهم جهلا تاماً . وما أن تمخط زميلى فى منديله حتى صاح الغلام مستنكراً وضع المخاط فى المنديل وفى الجيب وقال بل افعل هكذا وضغط أنفه بأصبعه ونفر نفرتين فى شكل قذر ومسح يده فى جلبابه .

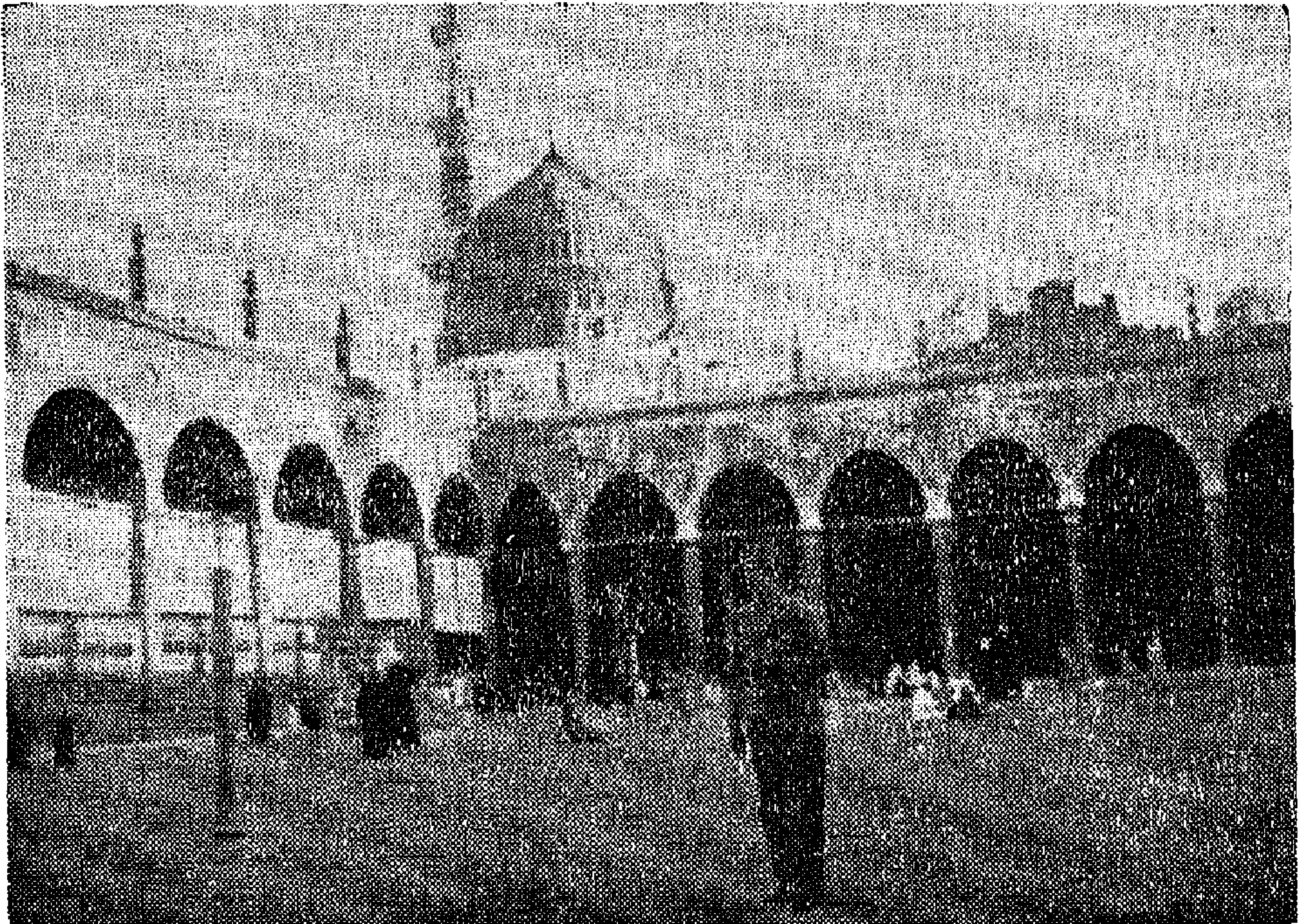
ثم كانت دعوة أمير الحج لنا فى المساء مع رهط كبير من عظماء العرب وا ين والشام والمغاربة والمصريين وتلك أشبه بحفلة تعارف وترحيب من المصريين بغيرهم وكان يتصدر المائدة الأمير محمود بسيونى بك وإلى جواره الأمير فيصل ابن الملك سعود ثم عمه ووزراء الدولة وأمامهم ابن سلطان اليمن وأعمامه وسلطان (كانو) فى لونه الفاحم وعمامته الضخمة وإلى جواره وزير ماليته ابن سليمان . وقد ألقيت الكلمات الودية بعد الفراغ من طعام العشاء وختمها أمير الحج بكلمة حماسية ولم تخل من فكاهاته الطريفة ثم كان تناول القهوة العربية فى الفناجيل الكبيرة يقدم فيها قطرات من البن المعطر بالحبهان الكثير ثم عقب ذلك الشاى . ولبثنا مؤتنسين إلى ما بعد منتصف الليل

قمنا يوم السبت نستأجر رويكبين وسرنا صوب جبل النور فطفقنا نسير سيراً حثيثاً زهاء ساعة كاملة كلها وسط جبال مجدبة حتى بدا ذاك الجبل المرهوب فخلفنا مطايانا أسفله فى مجاورة كوخ لعائلة عربية فقيرة وأخذنا فى

تسلق الجبل فكان وعرا وعورة لم يسبق لنا أن نجربها ولولا أن الجو كان بارداً منعشاً لأعجزنا الصعود وفى ساعة ونصف بالضبط وصلنا مكان الغار فى مجاورة القمة وهو فى قبو مستطيل فى علو متر ونصف طوله أربعة أمتار وعرضه متران ونصف وهو مفتوح من جانبيه وإحدى الفتحتين لا تتسع للدخول إلا حبواً والأخرى ندخلها ونحن حانو الجسوم . هنا اختبأ النبى ومعه صاحبه أبو بكر لما أن تعقبهما كفار قريش لقتلهما فاقتفى الكفار أثرهما حتى قاربوا مدخل الغار فألفوا مدخله قد خيم عليه العنكبوت الكثيف وعششت فيه يمامة فأصر رائدهم على أن محمداً لا شك قد آوى إلى هذا الكهف لكن صحبه أبوا عليه ذلك وانصرفوا . وكان النبى قد أجهد فى هذا السير والصعود الوعر فنام ووضع رأسه على فخذ أبى بكر وما كاد يستغرق فى نومه حتى أبصر أبو بكر بأفعى تخرج من جحرها ، فوضع عقبه على فتحة الجحر فأخذت تلدغه وهو يتألم لكنه كظم ألمه لكيلا يزعج الرسول وما هى إلا دقائق حتى سالت دموعه فهوت على خد النبى فاستيقظ وسأله ما الخبر فأنبأه بما كان فأمسك برجله وتفل عليها فشفيت وظلت طوال حياته تعاوده فى ذاك الميعاد من السنة . هنا دهشنا لمبلغ الجهد الذى كان يعانيه الرسول وأكبرنا تلك العظمة الخالدة وسرح الخيال وتاهت النفس ، وكيف لا وهى تنام فى المكان الذى نام فيه النبى الكريم ! قمنا وصلينا الظهر قضاء . وبعد قليل صلينا العصر ثم أخذنا فى النزول فلبثنا ثلاثة أرباع الساعة وقد استرحنا عند الاعرابى وتزودنا بالماء والشاى وتحدثنا مع الاعراب والصوماليين الذين يرعون سائمتهم حول تلك الجهات وركبنا مطايانا عائدين إلى مكة فى ساعة كاملة . وكنا نبصر من فوق الجبل بجبل النور أمامنا وبمكة إلى يسارنا وبمزدلفة وعرفات إلى يميننا . جهات كلها تقديس وطهارة رغم ما هى عليه من يبس وجدب وفقر شديد . وأذكر أنى وأنا أصعد الجبل ثارت نفسى وساورنى الشك فى احتمال وجود يمامة تظل النبى والجبل موحش هكذا ، وما كدت أنتهى من تفكيرى

هذا حتى أبصرت بعدد من اليمام والطيور تهدر وتصيح كأنها تذكرنى بان الله على كل شيء قدير .

واليوم (السبت) قابلنا سعادة وكيل الخارجية (فؤاد بك حمزه) بناء على مقابلة سابقة وتوصية من قنصلنا الهمام (عبد الحميد بك منير) ومعى كتبي التى أعددتها للأهداء لجلالة الملك وقد شرحت له رغبتى فى زيارة البلاد فى أجازة طويلة فوعد بالمساعدة وتحددت لى الســـاعة ½ ٣ عربى (أى ٩ صباحاً) لمقابلة جلالة الملك لتقديم الكتب والاستئذان منه فى زيارة الجزيرة العربية ، ولما كانت الثالثة سرت إلى القصر وهو فى خارج المدينة عن طريق (منى) يطلى باللون الأزرق فى بوائك متجاورة . هنا سألت أحد الحرس من الجند (أين باب التشريفات) فهمس وقال (أس) مشيراً بأصبعه على فمه فصحت قائلا إنى أريد دخول القصر . فأخذ يدفعنى بيديه فى رفق لأبتعد عنه ، ولما جئت أحد الأبواب قدمت ورقة (جودت بك) التشريفاتى . ولبثت زمناً فى غرفة الانتظار . ثم نقلت إلى غرفة أخرى أكثر اتساعا وأغلى



الحرم النبوى الشريف تزينه القبة الخضراء

أثاثاً . هنا تقدم إلينا أعرابى يسألنا عن الغرض من المقابلة . وقال بأنه يحسن ألا أكاشف الملك بكل شىء ويكفى تقديم الكتب وهو يوقفه فيما بعد على ما أريد ، ولما جاء دورنا دخلنا فى جمع إلى بهو قد فرش بالمقاعد الطويلة بالحرير الأخضر والاحمر . وفى الأرض بساط عادى ، والستائر تتدلى وهى من حرير المقاعد نفسه ، وفى الصدر (دكة) عالية يجلس فى وسطها جلالة الملك وتحت رجليه سلم (أشبه بسلم السرير فى غرف نومنا) وإلى يساره تليفون وفى وسط البهو منضدة صغيرة عليها مروحة كهربائية . قام الملك يستقبلنا ، ومد لنا يده نقبلها ثم أشار إلى مواضع جلوسنا وأخذ يلتفت إلينا ويقول : (مرحباً) وكانت مكاتيب البريد إلى جواره يفضها ويقرأها ، وبين آن وآخر يدخل علينا (سيافه) فى زى عربى وإلى جانبه سيف مذهب وقد استل السيف إلى منتصف الغمد ثم جال فينا ببصره وتراجع إلى البـاب ، والملك ممشوق القوام حاد التقاطيع، وحيد العين (وله عين من زجاج)، أشم الأنف، يلبس العقال والعباءة وهو عارى القدمين . هنا طاف بنا الغلام وفى إحدى يديه صف من فناجيل مخروطية كبيرة وفى الأخرى إناء القهوة النحاسى الـكبير وظل يشخشخ بفناجيله كلما قدم لواحد منا ، وقد بدأ بتقديم القهوة إلى جلالة الملك ثم ثنى بنا وهو يصب قطرات من القهوة السادة فى قعر الكاس نشربها فى جرعة واحدة ويطوف غلام آخر يجمع الـكؤوس . وبعد فترة قمت وخطوت نحو جلالته ومعى الـكتب وقدمتها قائلا له :

« لى الشرف أن أقدم جولاتى لمولاى راجيا أن يتفضل فيأذن لى بزيارة قريبة للجزيرة العربية » . فقال : نعم ، سنرى ذلك ان شاء الله . فكان جواباً ملؤه الحرص والحذر . ثم نظرنا إلى التشريفاتى فأشار إلينا بالقيـام فقمنا وقام جلالته وقبلنا يده وخرجنا شاكرين . وكنا نرى خارج البهو عددا كبيراً من الأعراب جلوسا على الأرض فى غير نظام وكثير منهم من الجند المدججين بالسلاح وكانت جلبة الصبية والأطفال من داخل القصر كأنها

صادرة من مدرسة غاصة بالطلاب ، وهؤلاء أولاد الملك وأحفـاده وهم كثيرون . ويظهر أن القوم أخذوا يحوطون الملك بالرسميـــات وقواعد (الاتيكيت) التى كان خلواً منها فيما مضى إذ كان يدخل الناس عليه فى غير وساطة ولا استئذان من قبل فى حال ديمقراطية فطرية جميلة . ولـكن المظاهر الجوفاء التى يحببه فيها رجال حاشيته من المرتزقة هى التى ستنسى الرجل جمال ديمقراطيته . عدت إلى وكيل الخارجية أشكره أن مهد لى تلك المقابلة وأوصيته بمسألتى خيراً فوعد بذلك وقال بأنه سيدرسها مع جلالة الملك وسيكتب إلى فى مصر بما يستقر عليه الرأى . عدت أفكر فى أمر السفر إلى المدينة فكانت حيرة كبيرة سببها تنافس المطوفين وقد عاكس شيخهم ورئيس شركة النقل مطوفنا (عمر المداح) حقداً عليه لأنه فاز بأكبر عدد من الحجاج هذا العام . ولم يكن سخياً معهم فى الهبات المالية التى تذلل كل أمر عسير فى تلك البلاد ، لذلك تأخر أمر سفرنا فلجأت فى المساء إلى بيت أمير الحج وهناك رجوته أن يساعدنا وصادف أن جاء وكيل المالية (الشيخ محمد سرور) وهو شاب أسود اللون ذكى القلب رقيق الحاشية بيده تصريف كل الشئون المالية فطلب إلى أن أمر عليه فى الغداة بديوانه. ففعلت ذلك وبعد جهد كبير استطعت الدخول إليه فى غرفته المتواضعة فكتب ورقة إلى المطوف يأمره بترحيلنا بالسيارات التى سمح له بها اليوم وهم لا يسيرون على قواعد ثابتة فى ترحيل المسافرين فكل من فاز بتوصية من الحجاج تيسر له الأمر وإلا لعبت به شركة السيارات وعبثت به أيدى المطوفين . وكم رأيت من الحجاج والسيدات وقوفاً بأبواب أولئك السادة حيارى ماذا هم فاعلون وأنى لأعجب كيف يترك أمر الناس لطائفة من سائقى السيارات والمطوفين وهم أشـبه شىء (بالشباحين) يلعبون بالناس ويقدمون من يسخو عليهم فى الهبـات على غيرهم . وهلا وضع نظـام هو خير من ذلك ، وأدعى لراحة النزلاء وطمأنينتهم ؟

ومن الأمور التى تسترعى نظر الغريب فى تلك الديار كثرة السود فى كل مكان ولقد عجبت لما علمت أن تجارة الرقيق الأسود لا تزال مباحة ولهم سوق خاصة تعقد كل يوم فى الصباح يفد إليها جموع السود من رجال ونساء وأطفال ويعرضون للبيع فيجيء المشترى وينتقى ما يروقه بعد أن يقلب فيه ويكشف على جسده ثم يتم صفقة الشراء ، وثمن الجارية زهاء ستين جنيها ، والصبية يتراوح ثمنهم بين ٢٠ و ٤٠ جنيها ، وأغلاهم أصغرهم ، أما الرجال فلا يزيد ثمن الواحد على ١٠ جنيه ، ولقد وافق الملك على منع جلب الرقيق من الصومال والحبشة والسودان الآن ، لكنه يباح البيع والشراء فى العبيد الموجودين فى الجزيرة العربية . وكثير من الجوارى يتخذن كزوجات كثيرات ويصبحن ممن ملكت أيمانهم . أما أهل مكة وهم زهاء مائة ألف فيبدو فى طباعهم بعض الجفاء والغلاظة وهم ماديون إلى حد كبير جداً . فأنت ترى الصرافين مثلا يعرضون فضتهم فى أكاديس أمامهم فى كل مكان يتجرون بالصرف تجارة هى أشبه بتجارة اليهود فى المال ، فاذا طلبت إليهم صرف ريال مثلا جعلوا له كل يوم سعراً فالريال يساوى ٢٢ قرشاً سعودياً لكنهم يصرفونه بعشرين قرشاً ونصف الريال بتسعة قروش . وحتى إذا اشتريت شيئاً من التجار وقدمت لهم ريالا ردوا الباقى ناقصاً

وإليك قصة عجيبة تثبت تلك النزعة المادية البشعة أن صديقاً لى قصد إلى حارس مفتاح الكعبة من بنى شيبة الذين يحتفظون بها أرثالهم — وطلب إليه أن يبيعه قطعة قماش موشاة من الكسوة القديمة فأخذ يبالغ فى الثمن المطلوب وباعه قطعة صغيرة بجنيهين بعد مساومة مزرية ولم يقطعها إلا بعد أن أبرز له صديقى الجنيهين فكأنه كان يخشى إن قطع القماش أن يعدل أخى عن الشراء وكلما فتح الكعبة — ويكون ذلك فى الصباح عادة — يتقاضى ضريبة من كل حاج يدخلها والمدهش أنك تناوله ريالا فيقول لك ليس هذا كافيا ويلح حتى تناوله غيره أمام الناس وعلى باب الكعبة الشريفة

التى لم يرع لها حرمتها وتقديسها وقد علمت أنه يتكسب يومياً فى موسم الحج بين ١٠٠ ، ٢٠٠ جنيها ذهبا والجنيه الذهب ١٦٥ قرشا مصريا وأدهش كيف تترك الحكومة ذاك الدخل له دون أن تشاطره فيه شيئا وقد سمعته يقول : ليت الحكومة المصرية تكتب الآيات بالقصب فى كلمات غير متداخلة وذلك بالطبع لكى يقص القطع المبيعة كاملة غير مشطورة الحروف وفى ذلك دخل له كبير فقلت فى نفسى والله أنى لأعجب أن يكون شيخ الكعبة يهودياً فى المال هكذا . أما أمر أجور السيارات والضرائب التى تتقاضاها الدولة فباهظة جداً فمثلا السفر إلى المدينة ذهاباً وإياباً ١٣ جنيها مصريا مع أن السيارة لورى تحمل ١٥ مسافرا فهى بذلك تتقاضى فوق مائتى جنيه من دور واحد وهو أكثر من ثمنها جديدة . وصفيحة البنزين تباع بنحو ٧٥قرشاً مصرياً والبترول بنحو ٤٥ قرشاً كل ذلك يثبت ماهؤلاء من النزعة المادية القاتلة غير المشروعة وياليت تلك السيارات مريحة فهى من خشب عار عن أى فراش ولا تكاد تسيغ للك النفس الركوب فيها لحقارة منظرها فان ركبت الأتوبيس (ويسمونه اللورى الممتاز) فلتدفع خمسة جنيهات زيادة عن الأول . وكل تلك السيارات فى يد شركة واحدة يرأسها انجليزى اسمه عبد الله فلبى وهو خبير بكل مايدور فى جزيرة العرب مطلع على أسرار القبائل ودخائل أمورهم ويخال البعض أنه جاسوس إنجليزى تخشى الحكومة الحاضرة بأسه وخطره ويغلب أن يكون إسلامه هذا زائفا يخفى تحته نفسا متجسسة حريصة . اعتزمنا شد الرحال إلى المدينة المنورة وأخذنا ننتظر الأمر بالفسح وهو إذن الحكومة للحجاج بالرحيل وهم يماطلون فى ذلك أياما وأسابيع لكى يستغلوا إقامة الحجاج فى البلدة حتى ينفقوا بها كل مالديهم من مال وإذا بدأ الفسح ظلت السيارات تقل الناس فوجا فوجا وكان السبت أول أيام الرحيل ولم يأت دورى إلا يوم الاثنين وذلك بعد مماطلة من المطوفين وشركة السيارات ولم يزلل لى القيام إلا بعد أن رجوت وكيل المالية

(الشيخ محمد سليمان الصبان) فأمر بذلك . ركبنا عربة لورى كبيرة وكان جل المسافرين من السيدات من بينهن بنات . . . . باشا وقد كن مترفعات نصف حديثهن بالفرنسية ولم تخل حركاتهن من شيء كبير من الصلف الأجوف والكبرياء الممقوت . ثم قريبة الرئيس الجليل التى ما كادت ترى السيارة حتى صاحت قائلة : (كيف تركب قريبة . . . . باشا اللورى ، هذا شيء كثير على) ورفضت وانسحبت مع أن المقام لا يسمح بتلك التفرقة وما حكمة الحج إلا فى المساواة ورفع كلف الحياة وتقاليدها . ومن الرجال عتل زنيم ثقيل الظل ضخم الجثة هو من موظفى المساحة فظ الطبع غليظ القلب رغبت فى أن أستعين برأيه فى أمر السير أو النوم وسط الطريق الوعر ليلا فهب هبة منكرة عارية عن الذوق والاحساس وكان من أمره ما استنكره الركب كله .

قمنا وكنا ستة عشر وخرجنا من أسوار مكة حوالى العاشرة مساء ولبثنا نسير إلى الثانية صباحا فى تلك الأرض الوعرة حتى دخلنا جدة وآوينا إلى بيتنا الأول فكان الناس ينامون مستلقين على الأرض . وفى كل أرجاء البيت ولم أجد سوى ثلاثة كراسى نمت عليها حتى الصباح . وفى العاشرة صباحا قامت بنا السيارة بعد أن خلف الناس كثيرا من متاعهم الثقيل لينتشلوه عند عودتهم من المدينة إلى الباخرة . سرت أزاء البحر شمالا فى طريق وعر غير معبد كان ينز من تحته ماء البحر وملحه فيجعله زلقا خطيرا وقد تلين التربة فتغوص فيها العجلات إلى نصف ارتفاعها فتقف السيارة ونعالج دفعها بشق الأنفس ثم كانت المنطقة الوسطى وكلها خيران رملية غزيرة قلما تجتازها سيارة بسلام وكم شاهدنا من سيارات غاصت فى الرمال فتعذر سيرها وتركها ذووها ملقاة وسط تلك الفيافى المجدبة وفى المرحلة الأخيرة كثرت الجبال المعقدة المجدبة وأضحى الطريق صخريا كثير الحصى والآليات وانى لأعجب كيف تستطيع السيارات قطعه بسلام وقد كانت سيارتنا أحسن حظا من غيرها إذ لم يصادفنا

سوى عطب بسيط تطلب اصلاحا فى أربع ساعات ثم تفريغ فى عجلة تطلب نصف ساعة ولبثنا طيلة يوم الثلاثاء وشطرا من المساء وكل يوم الأربعاء ولم



الروضة الشريفة بين قبر النبي ومنبره

نصل المدينة إلا عند الغروب وقد مررنا بنحو ١٢ محطة فى الطريق أذكر من بينها (دهبانة) التى أكلنا عندها سمكا شهيا وبرطيخا كأنه الشهد اللذيذ .

وقد نمنا شطرا من ليلنا فى المقاهى وهى اخصاص بائسة تحتها شـــبه (عنجريبات) عالية (كالدكة) تشد مقاعدها بالحبال نجلس عليها لنشرب الشاى ونتناول الطعام وإذا حل المساء افترشناها ونمنا إلى الصباح . أما المتسولون فلا يحصون عدا فى تلك الجهات وهم ملحفون يتعلقون بك وكأنهم الذباب الثقيل وياويلك لو قدمت (هللة) لواحد منهم ، هنا يهاجمك جموعهم ولا تستطيع الافلات . وهم يتغنون فى تسولهم بأشكال عجيبة : المسكنة والتماوت أو الرقص والغناء أو المسح بجلبابك وحذائك أو الهجوم عليك (لتكبيسك) بالاكراه وحتى فى الطريق الوعر بعيدا عن المحطات تراهم يخرجون عدوا

اليك من كهوف الجبال ويسابقون السيارة فى كثرة هالتى وأشعرتنى ببؤسهم الـكامل المبيد .

أخيرا لمحنا جبل « أحـــد » فى الأفق ثم اعتلينا ربوة اسمها (جبل التفريحات) لأننا فرحنا برؤية أول قبس من مبانى المدينة والحرم الشريف وفرّحنا سائقنا بما قدمنا له من هبات . ثم نزلنا إلى وادى العقيق الذى كان يتريض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبدت بوابة (العنبرية) وكان حظنا جميلا إذ دخلناها عند الغروب ولو كنا تأخرنا نصف ساعة لاضطررنا إلى المبيت فى العراء خارج الأسوار إذ لا يدخل المدينة إنسان خلال الليل أبدا ويحكم قفل أبوابها جميعا وذلك ما كان يفعله النبى ويتبعه القوم إلى يومنا هذا . هنا أبصرنا إلى يسارنا بمحطة سكة الحديد الألمانية فى بناء هائل جميل يسترعى النظر وقد تعطلت تلك السكة التى تربط المدينة بدمشق الشام بسبب الحرب أولا ومنع السعوديين لها أن تعود سيرتها الأولى ثانيا . هنا أحاطنا صبية المطوفين ويسمونهم هنا . بالمزورين والمُـدّعّـين يسألك الواحد منهم من أية مديرية أنت ! وما كدت أقول مصر حتى قالوا : المزور الخطيرى وهم يقسمون المصريين بحسب مديرياتهم بين طائفة من هؤلاء المدعين .

وعرضوا علينا مساكن وحجرات فآثرت الفندق الوحيد هنا (أوتيل المدينة) وأجره ثلاثة ريالات سعودية للنوم فقط وهو على حداثته بسيط يفتقر إلى كثير من وسائل الراحة لـكنه بالنسبة لما قاسيناه فى بيوت جدة ومكة نعيم لا يدانيه نعيم . اغتسلت ولبست وناديت الغلام أن هيا بنا إلى الحرم . لنزور . فقال :

لا زيارة الآن لأن الحرم تقفل أبوابه فى المساء على نقيض ما رأيناه فى حرم مكة الذى يظل مفتوحا مضيئا الليل كله وذلك لأن هذا يحتاج إلى حراسة شديدة لـكثرة ما حوى من نفائس أما حرم الـكعبة فبسيط خال من التكلف فى الفرش والزخرف . فآثرنا بعد طواف قصير فى البلدة أن ننام على أن نصلى الفجر فى الحرم .

بكر الخادم يوقظنا لصلاة الفجر فقصدنا إلى الحرم وإذا بالجماهير تسد أرجاءه سداً وبشق النفس استطعنا أن نصل إلى الحجرة الكريمة وهى فى مكان بيت النبي الذى كان يقطن به فى المدينة ودفن بها بعد وفاته سنة ١١ هجرية يوم ١٢ ربيع أول لأنه قال : (ماقبض نبى إلا دفن حيث قبض) يحوطها الوقار الشديد والجلال الذى لايحد، وقفنا أمامها داعين متضرعين باسطى أكفنا نحيى الرسول ونطلب اليه الوسيلة . هنا أذهلتنا وجاهة المكان ورواؤه وبخاصة فى الحجرة الشريفة ومساحتها تقارب ١٥×١٦ متراً فى كل من جوانبها الاربعة شباك من النحاس الأصفر دهن باللون الأخضر يزينه الذهب وتتدلى من سمائها الستائر الخضراء الثقيلة وفى ضلعها الجنوبى شباك يحلف به الناس فيقولون (وحياة شباك النبى) وكنا نحاول أن نبصر بالأضرحة من خلال شقوقها فاذا سور آخر وثالث وفى القلب مثوى سيد الخلق وإلى يساره أبو بكر الصديق الذى دفن بعد النبي بسنتين ورأسه إلى قدمى الرسول يليه قبر عمر بن الخطاب الذى دفن سنة ٢٣ هجرية ورأسه محاذ لمنكبى أبى بكر وكان هذا المكان بيت رسول الله وقد دفن فى حجرته وإلى ورائه غرفة السيدة فاطمة بنت النبي وقد حاولنا أن نطل من الأبواب فاعترضنا رجال الشرطة ويقف منهم واحد على كل باب يمنعون الناس أن يلمسوا حتى شباك النحاس بأيديهم إلا من أبرز لهم نقوده وقد علمت أن دخول الحجرة غير ميسور لكائن من كان منذ نحو ثلثمائة سنة وسبب ذلك محاولات كثيرة لبعض اللصوص من الأجانب أن يسرقوا جثة الرسول وبلغ الحال ببعضهم زمن الصليبيين أن حفروا سراديب من خارج المسجد لتوصلهم إلى مقر الجثة لذلك أحاط نور الدين زنكى القبر بالرصاص المصبوب إلى منابع الماء وأغلقوا المداخل بالشباك الثقيلة وأقيمت هذه المقصورة حول القبور فى شكل مخمس ارتفاعه ستة أمتار لكيلا تأخذ شكل الكعبة فيتخذها الناس قبلة لهم وكانت تتسع لقبر رابع قيل أنه لسيدنا عيسى بعد نزوله من السماء فى آخر الزمان

وكان فى الحجرة الشريفة ثريات من ذهب وفضة منها ٣١ مرصعة بالجواهر، وكان مجموع المصابيح ١٠٦ ، وكان فى مواجهة القبر الشريف ماسة فى حجم بيض الحمام حولها أطار من ذهب مرصع وثمنها ثمانمائة ألف جنيه وتسمى بالكوكب الدرى لشدة بريقه وبلغ عدد أحجار الترصيع الكريمة ٢٢٧ قطعة أهداه السلطان احمد خان الأول فى أول القرن الحادى عشر الهجرى . وعلق تحته كف من ذهب مرصع تتوسطه ماسة أصغر من الكوكب الدرى أهداه السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٧ هـ، ثم لوح ذهبي كبير كتب عليه بالأحجار الكريمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) أهدته بنت السلطان محمود سنة ١٢٩١ هـ، وثم عقود من اللؤلؤ والجواهر وشمعدانات من ذهب مرصع اثنان منها فى ارتفاع مترين ومكانس من لؤلؤ ومراوح ومباخر مرصعة. هذا عدا المصاحف والتحف الفاخرة الموضوعة فى خزائن الحجرة . وقد قدر مجموع ما هنالك بنحو سبعة ملايين من الجنيهات، ولا يوجد اليوم منها شيء ويتهم السعوديون فى ضياعها الأتراك تارة والشريف أخرى، وإلى يمين المثوى يقع محراب النبى ومنبره الذهبي الأنيق الفاخر وهنا قال عليه الصلاة والسلام : (ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة) لذلك كان تزاحمنا على الصلاة فى تلك الجنة شديداً ولا يكاد الواحد يجد موطئاً لقدم طيلة اليوم والصلاة هناك بألف صلاة وهناك تصف المصاحف الشريفة لمن يجلس ليتلو من آيات الذكر ما تيسر وظل الشيخ يوقد البخور الذكى الذى يعطر المكان. أما عن فاخر الزخرف فى السقوف والجدران فذلك بالغ فى الرونق والجمال إلى ذلك نظام القباب والأقبية تحملها الأعمدة فى جمال وحسن ذوق تتدلى خلالها المصابيح الزيتية وثريات الكهرباء والنجف الزجاجى اللون الثقيل وتفرش فيها الطنافس الثمينة وقد خصص الجناح الأيسر من المسجد للسيدات وأقيمت عليه الظلال الخشبية المثقبة ووراء الحجرة مصطبة الأغوات وكانت عهد النبى مجلس المتقاعدين يجرى عليهم الرسول بعض الأرزاق ومنهم أبو هريرة وكان :

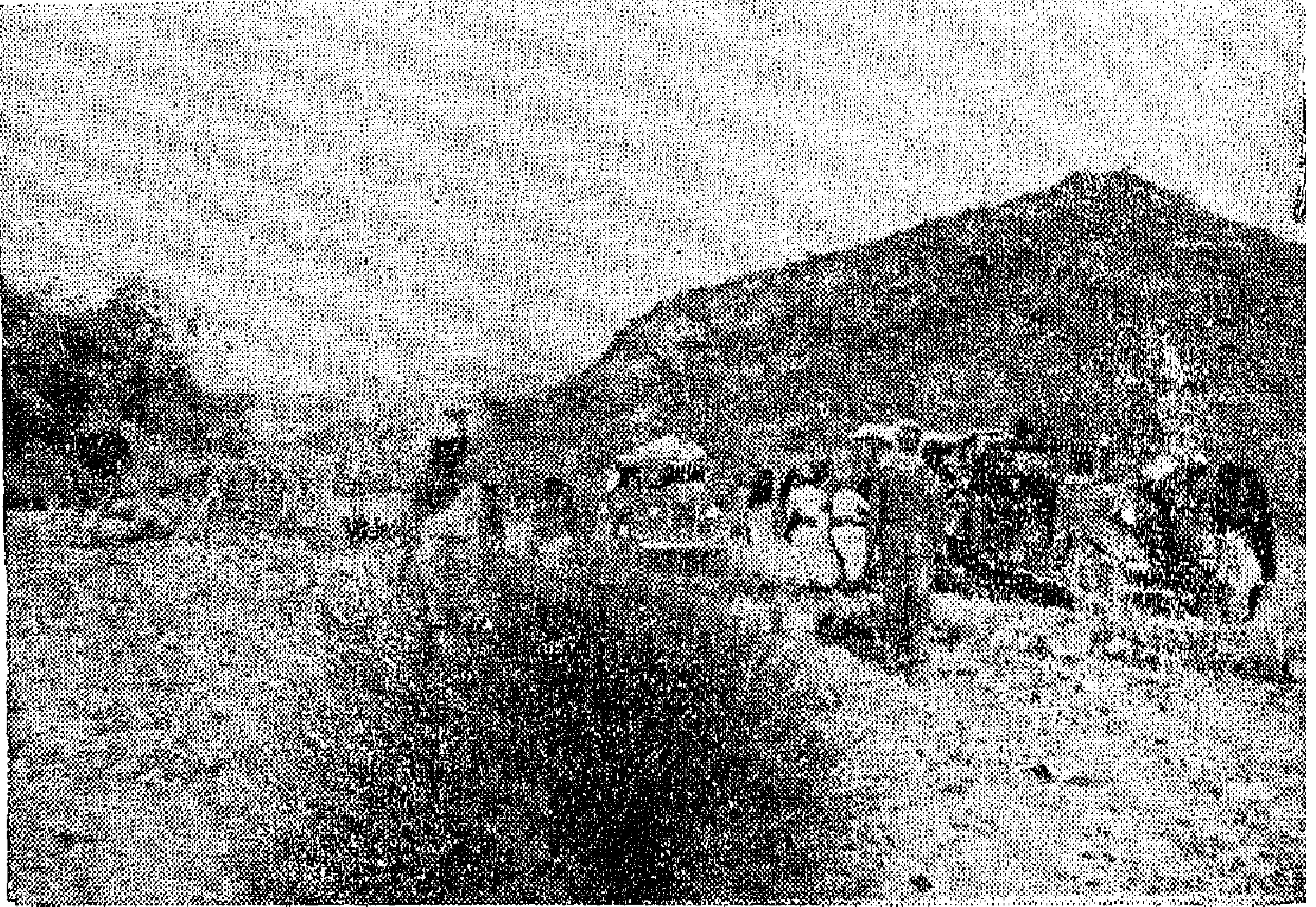
خدام الحرم من الأغوات جلوساً عليها . وللحرم أبواب خمسة كلها من الخشب الثمين طعم بالنحاس الأصفر فى نقش جميل وتزين أركان الحرم الأربعة المنارات الأنيقة وفوق المثوى الكريم القبة الخضراء التى تبهر النظر وتثلج الصدور من أقصى جهات المدينة . مكان كرمه الله وشرفه وكيف لا وهو يضم بين جدرانه أشرف الخلق وأقربهم إلى الله تعالى يدخله الواحد منا فينسى نفسه وتمضى الساعات والقلب خاشع والنفس ذاهلة وبين حين وآخر يلاقينا (المزور) أو أحد صبيته فيدعينا بأن يقف بنا أمام قبر الرسول . وله واجهة من فضة براقة — ثم نزحف قليلا إلى يساره ونحيي أبا بكر صديق المصطفى الأمين ثم عمر العادل الرحيم بالضعفاء والبائسين . وهذا المسجد بناه عمر فى عهد الرسول وكان باللبن والجريد على عمد من جذوع النخل وقد هدم وجدد بناؤه مراراً وممن عنى به قايتباى سنة ٨٨٨ أما شكله الحالى فأقامه السلطان عبد الحميد سنة ١٢٦٥هـ. ثم كان قيامنا إلى ما أحاط المدينة من مزارات أو مساكن مقدسة فركبنا عربة صغيرة بعجلتين يجرها جواد وسارت بنا إلى خارج المدينة صوب جبل أحد الذى يمتد ستة كيلو مترات وفى سفحه زرنا ضريح سيدنا حمزة عم رسول الله الذى استشهد فى واقعة أحد وإلى جانبه عقيل بن أمى ، وقد كان يحف به مسجد فاخر لكن السعوديين هدموه ولم يتركوا إلا القبر فى قبو مستطيل بالحجر الاسود وإلى جواره مثوى شهداء أحد وعددهم ٧٢ وهم الذين ماتوا فى الموقعة وإلى جوارهم العين المائية وموضع قبة (الثنايا) وهى مكان مصلى الرسول أبان الحرب ، وبعد ذلك سرنا إلى الجبل مسافة طويلة كلها حصى كان الحجاج يقيمون منه أكداساً صغيرة وفى اعتقادهم أنهم بقدر ما يقيمون منها يوفقهم الله لزيارة هذا المكان مرات فى السنوات المقبلة . أخيراً وصلنا سفح جبل أحد المغبر المجدب وتسلقنا جزءاً منه إلى المغارة التى كان يشرف منها النبى على القتال . وهى فى شق مستطيل شاهق وفى تلك الموقعة موقعة أحد هزم المسلمون وكان النبى

قد أمر الرماة بالسهام أن يظلوا فوق الجبل لا يتركون أماكنهم حتى يأذن لهم فلما رأوا إخوانهم أسفل الجبل تشغلهم الغنائم تركوا أماكنهم ونزلوا فكانت الهزيمة التى أصيب فيها النبي بشج فى فمه وكسر فى أسنانه وأشيع أن النبي قد مات فعم الأسى والهرج . .

غادرنا تلك الناحية المقدسة والناس من حولنا ساخطون لما أصابهم على أيدى السعوديين من إجحاف فلقد هدموا كل المزارات وأحاطوها بالجند كى يمنعوا الناس أن يقربوها ولقد كانت تجرى عليهم تركيا الأرزاق والمرتبات التى قطعت اليوم عنهم

ثم قمنا إلى مسجد القبلتين وهو مصلى صغير تتوسطه قبة فيها القبلة التى كان يصلى نحوها الرسول موليا شطر المسجد الأقصى فنزلت الآية أن يولى المؤمنون وجوههم شطر المسجد الحرام فأقيمت به القبلة الثانية إلى مكة المكرمة وإلى جوارها بئر تنزح مياهها بالبكر والقرب تجرها الجمال ذهابا ورجعة وفى ناحية بعيدة من المدينة زرنا مسجد (قباء) وهو أول مكان حله النبي فى هجرته إلى المدينة وافداً من مكة وأناخ ناقته وسطه وصلى فيه ، وهو أول مسجد بنى فى الاسلام ، صلينا فيه الظهر ويعد أول مساجد المدينة وبجواره قبه تحتها بئر يسمونها (بئر الخاتم) وفيها وقع خاتم الرسول من يد سيدنا عثمان مدة خلافته وكانت تختم به المكاتبات وقد نقش عليه (محمد رسول الله) وقيل أن الماء قد فار وظهر الخاتم ثانية وقيل أنه لايزال بها إلى اليوم والآبار هناك بعيدة الغور بين ١٥ و٢٠ متراً ، والمأثور عن مسجد قباء أن ثواب الصلاة فيه عظيم ، قال النبي عليه الصلاة والسلام : (من تطهر فى بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه ركعتين كان كأجر عمره) وفى الركن الايسر من المسجد محراب فارسى رأينا الفرس من الشيعة يتبركون به ويتنحون جانبا ويصلون فى معزل عن الجماعة وسط اشمئزاز الآخرين . وخلف مسجد قباء عين الزرقاء التى تسقى المدينة كلها وتنسب إلى مروان بن الحكم الذى كان يعرف بالأزرق لزرقة

عينيه وتتفرع منها المجارى إلى نواحى المدينة كلها وقد تملأ منها خزانات لا تمسها الأيدى ، لذلك قل خطر تلويث الماء فى المدينة المنورة عنه فى مكة المكرمة



وعورة المسالك بين مكة والمدينة

ثم قصدنا زيارة البقيع خلف أسوار الحرم الشريف وهو متسع من الأرض أحيط بأسوار وفيه مدافن المسلمين من عهد النبى إلى اليوم وبه قبور عشرة آلاف من الصحابة وكانت تزينه القباب الفاخرة فوق أضرحة الصحابة الأمجاد فهدمها السعوديون ولم يخلفوا ألا شواخص قائمة أمام كل قبر لا تكاد تدل على صاحبه ومن الصحابة الكرام هناك وقفنا بمثوى : سيدنا عثمان ، الخدرى المحدث وفاطمة والدة سيدنا على والسيدة حليمة مرضعة الرسول ، وشهداء البقيع الأربعة الذين جرحوا فى أحد ودفنهم الرسول ورؤوسهم تتجه صوب المسجد الأقصى القبلة الاولى وسيدنا ابراهيم بن الرسول ونافع شيخ القراء والامام مالك وعقيل بن أبى طالب وزوجات النبى التسع متجاورات وبعض بناته (زينب ورقية وأم كلثوم) وسيدنا عباس بن أبى طالب

وفاطمة الزهراء بنت النبي من خديجة وكثير غيرهم من الصالحين المطهرين ولذلك يطلقون على المكان : جنة البقيع — وقفة منا رهيبة ونحن نتبرك بكل هؤلاء المجاهدين والاطهار . والجند وقوف يقودوننا ولا يسمحون برسم ولا يبيحون دخول السيدات إلا المشيعات فقط وعند الليل تغلق الأبواب فلا يدخل المكان أحد وقد حاولت أخذ صورة للمكان فوقف الجندى فى سبيلى وقال: العكس ممنوع وحرام وهم يطلقون كلمة العاكس على آلة التصوير ثم كانت صلاة الجمعة فى الحرم الشريف وكأننا فى يوم الحشر كلنا جلوس وأكتافنا متلاصقة ومن فاز منا بالصلاة بين المنبر والحجرة الشريفة غبطه الجمع وأنس من نفسه اطمئناناً بالجنة التي وعد الله بها المتقين ولا غرو فرسول الله كان إلى يسارنا هو وصاحباه الأكرمان وكان سقاة الماء يطوفون علينا بقعابهم الفضية يحملون جرارهم مدببة الطرفين وبعض الناس يروحون على المصلين بمراوح من قماش ووددنا لو أن المقرىء قد أسمعنا بعض آى الذكر فى تجويد وصوت رخيم لكنهم لا يبيحون ذلك وقد اعتلى الخطيب المنبر وخطبنا فى صوت تعوزه العذوبة والقوة ولهجة حجازية محرفة لم يفهمها بوضوح سواد المصلين وكان جديراً بامام هذا الحرم الشريف أن يكون فصيح اللسان عذب الصوت رخيم النبرات ويا لهول المنظر والناس منفضون من الأبواب بعد انتهاء الصلاة فلقد حشرت وسطهم فكدت أختنق ولم أنج إلا بعد زمن طويل على أن أكبر ما ينغص الزائر فى تلك البلاد المقدسة وبخاصة المدينة كثرة المتسولين الذين يعترضونك أنى سرت فى جيوش لا أول لها ولا آخر وتراهم صفوفاً متصلة إلى جوار جدران الطرق ويتعلقون بك ويا ويلك لو أخرجت قرشاً لأحدهم هنا يهاجمك عدد يكاد يقتلك والعجب أنك لو منحت أحدهم سار إلى رفاقه يخبرهم فيتبعونك أنى سرت ولقد خيل إلى أن أهل المدينة كلها متسولون ، وقد تضاعف عددهم فى العهد الأخير جلهم من أعراب البدو اتخذوا التسول مهنتهم إبان موسم الحج يجمعون

خلاله ما يستطيعون ثم يعودون إلى جبالهم وهم لا يستحقون العطف ولا الصدقات لأن معيشتهم الصحراوية الفطرية لاتحوجهم لشيء من المال لكنهم منعوا بعملهم هذا خيراً كثيراً عن المستحقين من العائلات التى أخنى الدهر عليها فى تلك البلاد

والمشهور عن أهل المدينة أنهم أهل ظرف وأدب ووداعة بالنسبة لسكان مكة وإن لم ألاحظ ذلك فيهم كثيراً على أنى ألاحظ أنهم أقل قذارة وشرهاً فى المال وهم أميل إلى الصدق والأمانة مطاعمهم لا بأس بما تقدمه لك أذكر من بين صنوف الطعام التى راقتنى (المكارنه) « المكرونة » والظلاطة (السلطة) والشكشوكة (البيض باللحم) لكنى لم أمتع الفم بلذة (حبحب) مكة اللذيذ البديع والعجيب أن الفاكهة نادرة فى المدينة إذ لا تكاد ترى قط اللهم إلا البلح بأنواعه العدة ومذاقه اللذيذ وهذا يعزى إلى كثرة النخيل حولها أما فى مكة فلم أكد أرى للنخيل أثراً لكنها أغنى بالفاكهة التى تكثر فى حدائق الطائف

ولغة القوم عربية فى كثير من ألفاظها لكنها أرق سمعا من لغة الشام والعراق أذكر من كلماتها الغريبة : داحين بمعنى حالا ، غلقت أى انتهت ، حقتى أى ملكى وطاحت أى وقعت وبذورة وبذران أى أطفال ، رويكب (ركوبة حمار) ماتهرجنى (أى لاتكلمنى) ومن غرائب لغتهم : هيا صلون المغرب وفصخ حداك أى اخلع نعلك واشكل أى أعظم وإلا بمعنى نعم

وجو المدينة خير من جو مكة ونسيمها أكثر برداً وأخف روحا بسبب ارتفاعها وبعد الجبال عنها فعلوها عن سطح البحر نحو ٦٤٠ متراً وأسواق البلدة تحكى أسواق الغورية عندنا ومعروضاتها : الحرائر والعقلان والأخفاف والطواقى ثم البلح والحناء والبخور والأعطار والعقاقير التى أذكر من بينها (لبن العشار) يستمد من شجرة مشعبة الفروع سميكة الورق عريضة رأيناها بكثرة حول المدينة تدهن به المرأة الرحم فيفك عقمها .

ترقبت قيام سيارة أعود بها إلى جدة وأوصيت المطوف ولحسن حظى كان كثير من السيارات يعود فى غير حمولة لنقل الحجاج الأجانب كالهنود والمغاربة من مكة وقد حاولت حرصا على ألا تفوتنى الباخرة الثانية أن أعود بالطيارة نظير أجر قدره ١٥ جنيهاً مصرياً فلم أفلح لأن التزاحم عليها كان شديدا والحق أنها الوسيلة الوحيدة لمن أراد الزيارة إذ تقطع المسافة الجوية بين جدة والمدينة فيما بين ساعة ونصف وساعتين وهى ٢٥٠ ك . م . أما طريق البر وطوله كما قدمنا ٤٥٠ ك . م . فذلك طريق وعر محفوف بكل ضروب المخاطر فثلثه الأول من المدينة أرض مغضنة جبلية يفرشها هشيم الصخر وتنثرها الحفر وأظهر بلادها : بيار على بقرب المدينة ثم قريش فالمساجيد وهى محطة البوليس وقد وصلناها فى أربع ساعات . ثم الثلث الأوسط إلى محطة مستورة التى وصلناها فى ست ساعات وسط جبال معقدة تتشعب عندها الوديان فى غير حصر وتتقبض تارة وتنبسط أخرى ويتوسطها (الدرب الطويل) الذى كان محط فزع الحجاج قديما لأن لصوص البدو وقطاع السبل كانوا يدبرون مؤامراتهم على الناس فوق ذراها ويدهمون القوافل من مسارب تلك الجبال وطالما سفكت فيها دماء بريئة لم يخفف من وقع رزئها إلا إيمان شديد فى أن الله قد اختار أولئك الحجاج إلى جواره فى تلك الأراضى المقدسة المباركة وبرغم تأمين ابن السعود للطريق العام لم نتمالك شعور الفزع كلما أبصرنا بهيكل بال لجمل خانه الحظ أو أنقاض سيارة حطمتها وعورة الطريق وبين فترة وأخرى كان يهاجمنا من تلك المسارب جماهير البدو فى حالتهم الرثة يلحفون فى طلب الاحسان فى نغمة المتهاوت البائس المسكين وهم الذين كانوا حربا عوانا على قاصدى زيارة المصطفى عليه السلام .

بعد ذلك أنفسحت الجبال ودخلنا فى سهول أدخلتنا إلى رابغ فى ساعتين وهى حد الاحرام للوافدين على مكة من الشمال وهنا منطقة تحفها كثبان الرمل وتغوص فيها عجلات السيارات حتى تكاد تخفيها وكم (غرزت)

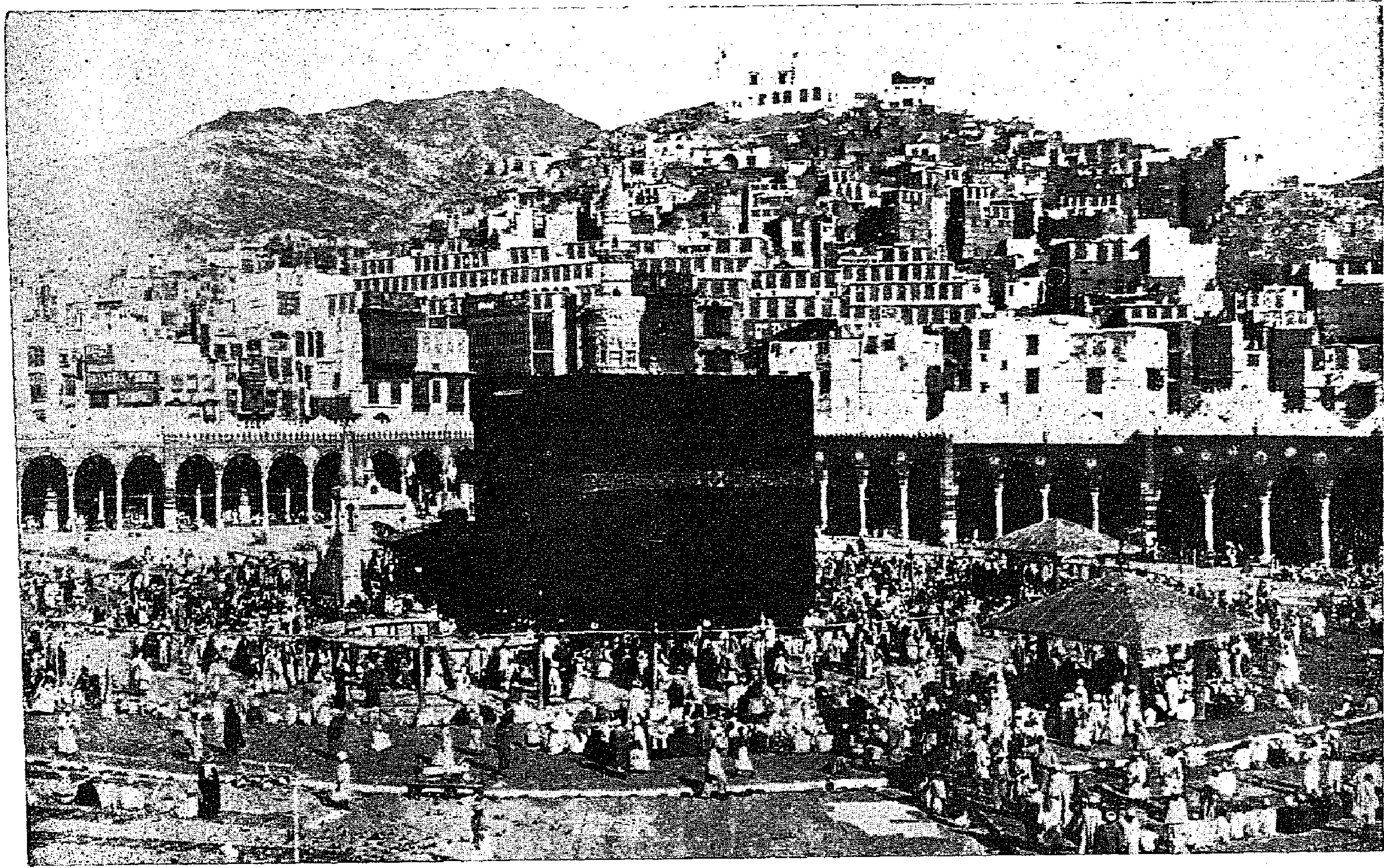
سيارتنا رغم مهارة سائقها وسقناها بأكتافنا بعد جهد طويل ثم واصلنا سيرنا إلى دهبانة وهى المحطة التى تسبق جدة بزهاء أربع ساعات وهى أحسن جزء فى الطريق لأنه بجانب البحر الذى بلل رمله فتماسك ولو لم يخل بين فترة وأخرى من الوعورة وعدم الاستواء . طريق عسير صرفنا فيه نحو ٣٦ ساعة وبتنا الليل فى رابغ فى تلك المقاهى البسيطة من أخصاص وعشش تنثرها مقاعد الحبال (عنجريبات) العالية . ولست أدرى كيف تستطيع السيارة جوب تلك المسافات على وعورتها فوالله لكأنها كانت تئن أنين الألم وكنا نسمع تصدع أوصالها ولا تكاد تمر سيارة دون أن يصيبها عطل تقف من أجله ساعات لتصلحها كل ذلك والحكومة لم تفكر فى العناية البسيطة حتى بالأماكن المخطرة فى رملها أو حفرها أما آلام المسافرين أنفسهم فيكفى لتقديرها أن نرى الناس تتلقفهم جوانب السيارة ويصدمهم سقفها وكم من سيارة أصابتها صدوع خطرة ترتب عليها موت بعض الحجاج أو إصابتهم وكان سائقنا يقول كلما علا صياح القوم من الركب بأن الذنب على الحكومة التى تستغل تلك الأجور الباهظة التى ندفعها ولا تنفق منها (هللة) واحدة على تلك الطرق وحتى أجور السائقين لا تدفع فالرجل لم يصرف له (معاشه) الشهرى خلال ثمانية الشهور الأخيرة فقلت له ولم لا تنقطع عن العمل ؟ قال من يفعل يلق به فى أعماق السجون فهم إنما يساقون إلى العمل مجبورين . وقد تأكد لى صدق قول الرجل بما علمته من أن الجند لم يمهروا رواتبهم من منذ أربعة شهور ومن تلك السيارات الحكومية زهاء خمسمائة فى تلك البلاد . لذلك لم أستغرب مالاحظته من الأثر السحرى (للريال) فى تذليل كل أمر عسير فى تلك البلاد والسائق ينفق من المنح التى يهبه إياها جماهير المسافرين .

دخلنا جده وآوينا إلى (أوتيل جده) وأجره خمسة ريالات بالدرجة الأولى وثلاثة للثانية وهنا شعرنا بشىء من النعيم بعد ذلك التقشف الطويل وأخذت أطوف بأرجائها المستحدثة وعندها بناء (فندق مصر) ودور القناصل

وبينما كان يرفرف علمنا الأخضر الجميل ويزين دار المفوضية شاب متوقد الذكاء كريم الطبع رقيق الحاشية هو (الأستاذ عبد الحميد منير) الذى كان يمثلنا فى تلك البلاد خير تمثيل. ثم أوغلت فى سوق البلدة وهو دائب الجلبة كثير الشعاب والنزعة الاستغلالية هى الغالبة على أهله يبيعونك الشىء بأثمان مضاعفة ولقد لاحظت أن الحماسة الدينية والمحافظة على مواقيت الصلاة قد أخذت تخف فى هذا البلد عن مكة والمدينة وكأن وجود الأفرنج من النصارى واليهود قد عاون على ذلك فهم ممنوعون من الدخول إلى هذين البلدين المقدسين وحتى باخرة العودة لاحظت فيها فتورا شديدا فى الصلوات والدعوات عما رأيته فى باخرة الذهاب فكأن الناس قد تحللوا من كل أولئك بعد مبارحتهم تلك الأرض الطاهرة وشرعوا يفكرون فى حطام الدنيا بعد ذاك الورع الطويل.

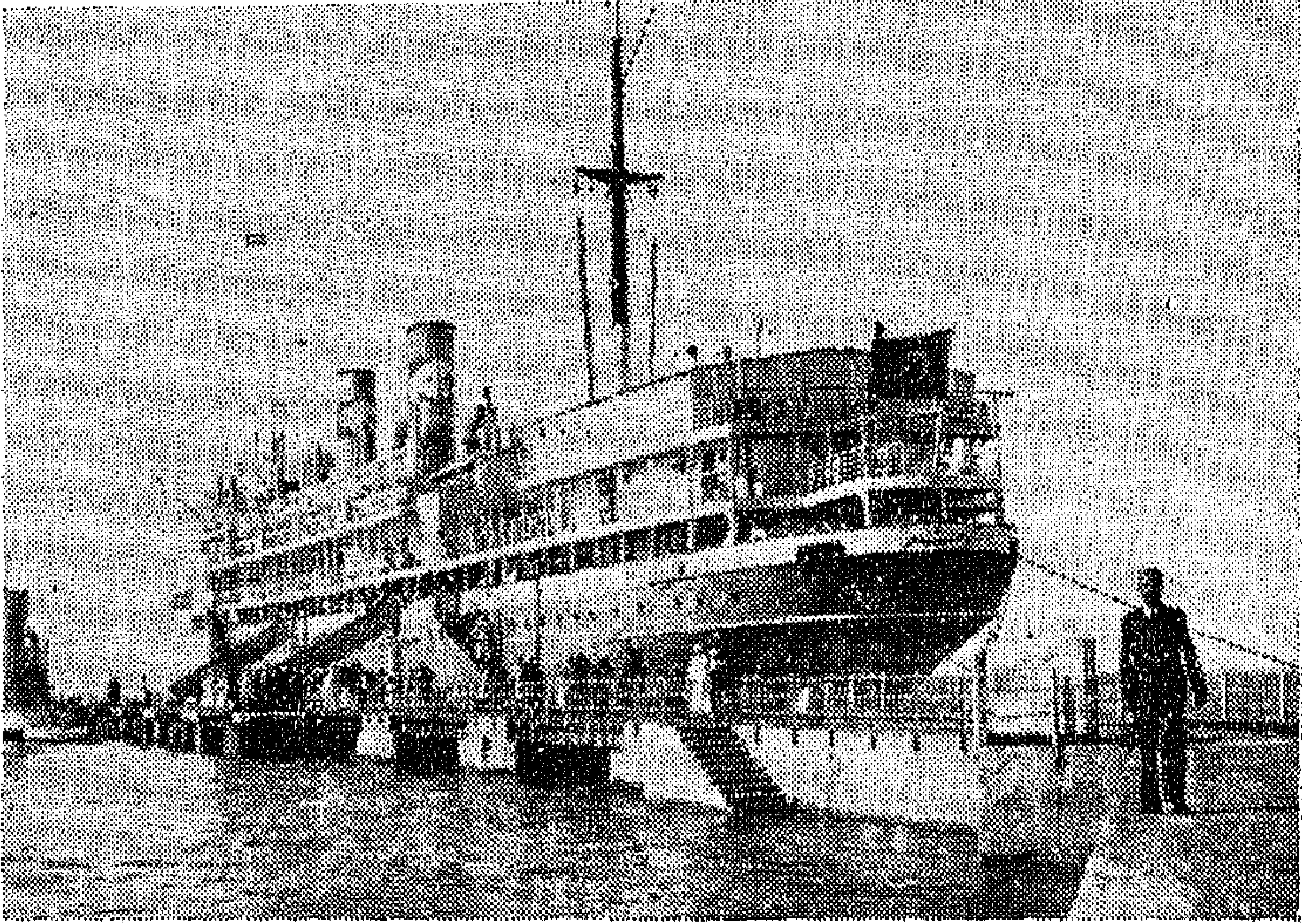
واليوم (الاثنين ٨ مارس) قابلت برفقة قنصلنا الهمام منير بك حضرة صاحب السعادة يوسف بك يس سكرتير خاص جلالة الملك ورئيس الشعبة السياسية والقائم بأعمال الخارجية وحدثناه فى أمر زيارتى فطلب إلى أن أكتب اليه بالأمر ليمهد للزيارة عند جلالة الملك. وهاهو نص الخطاب الذى كتبته لسعادته:

لى عظيم الشرف أن أقدم طلبى هذا راجيا أن يتفضل حضرة صاحب الجلالة السعودية الأفخم بالترخيص لى فى زيارة الجزيرة العربية فى صيف هذا العام. تلك البلاد التى تربطنا بها أوثق الروابط والتى نحرص على خيرها الحرص كله. ونود أن نقوم ببعض الواجب من دعاية طيبة لها. ولنظهر للعالم مبلغ الجهود الصادقة والاصلاحات الكبيرة — دينية واجتماعية واقتصادية التى يقوم بها حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة السعودية الموفق وحكومته السنية والله أسأل أن يديمه ويعز ملكه



البيت الحرام تزينه الكعبة الشريفة

حمل الغلام حقيبتى وسرت صوب الميناء وهناك أقلنى (اللانش)مسافة طويلة إلى الباخرة زمزم ، وقامت بنا الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الاثنين



كوثر تقف بنا فى مياه محجر الطور

٨ مارس وكان البحر هادئا والجو منعشا على أنه أخذ فى الهياج وزاد عصف الريح الشمالية فاضطربت الباخرة وتأثر كثير من المسافرين ولزموا فراشهم وقد ضوعف هذا الارتجاج طول الليل على أن البحر عاد إلى هدوئه فى الصباح وظل كذلك طيلة الثلاثاء وبتنا ليلتنا مبكرين كى نستقبل ثغر(الطور) فى الصباح وقد كان ذلك فى السابعة صباحا حين بدت الميناء صغيرة أقيم بها بعض الأرصفة الحديثة ترسو السفن عليها مباشرة وعلى واجهة الميناء مبانى المحاجر التى تمتد فى ذاك السهل الرملى بعيدا إلى الداخل وإلى شمالها قرية الطور الصغيرة وهذا المحجر يعد أكبر محاجر الدنيا وأحدثها نظاما وأوفاها استعدادا وهو دولى ظلت الباخرة تقترب من الأرصفة فى بطء شديد استغرق فوق الساعتين . ولقد بدأ نزول الحجاج من الدرجة الثالثة وساعدهم على حمل

المتاع حمالو المحجر على نفقة الحكومة يصفون الأشياء على عربات (الترلى) التى تجرى فوق الأرصفة إلى عنابر التطهير ولقد لبث ذلك حتى الساعة الثالثة بعد الظهر .

ولقد فتش الرقباء متاعنا ليبحثوا عن ماء زمزم الذى لا يسمح بدخوله إلا بعد تطهيره . كذلك بخروا بعض حزم الفراش وبخاصة التى بدت قذرة أما نحن فقد دخلنا من ممر الأدشاش وهى مصفوفة على الجانبين يقف الرجل على الخشب أسفلها فيفتح عليه الدش ليطهر جسده وقد فعلوا ذلك مع جل المسافرين أما نحن من ركاب الدرجة الأولى فقد أعفينا من ذلك . بعد ذلك سار كل منا إلى (حزاه) وهو صفان من البنيان مقسمان إلى حجرات بها أسرة ومن هذه الحزاءات عشرة يتسع الواحد لنحو ٢٥٠ نفسا وهى مسورة بالأسلاك وكان نصيبى فى (حزاء رقم ٢ وغرفة رقم ٤) وبها ثلاثة أسرة دفع كل منا جنيها أجر الليـالى الثلاث التى يقيمها المسافر فى ذاك المحجر وللمكان فناء متسع تتوسطه صنابير المياه النقية فى جانب منه مقهى ومطعم وبمجرد دخولنا إياه لا يباح لنا الخروج منه إلا بعد انتهاء مدة الحجر ولا يباح لنزلاء (الحزاء) مخالطة جيرانهم من الحزاء الثانى فكأننا أصبحنا فى سجن منعزل وذلك اتقاء انتشار عدوى (الكوليرا) فأن ظهرت فى واحد من الحجاج عند ذلك تتخذ الاحتياطات الصحية مع نزلاء هذا الحزاء ويسرح الآخرون ومدة تفريخ هذا المكروب خمسة أيام صرفنا منها يومين على الباخرة بين جدة والطور وكان لزاما أن نبقى ثلاثة أيام أخرى وقد يظهر المرض فى حالتين فى رجل مريض يقاسى منه أو رجل يحمل المكروب فى أمعائه وينقله لغيره دون أن يتأثر به وهذا أخطر من الأول . وبعد أن عرف كل غرفته مر الغلمان يوزعون على كل منا (القصرية) وقد علقت بها بطاقة بنمرة كل واحد منا وكلفنا أن نتبرز قليلا كل فى قصريته ونقدمها للفحص . وقد جاهدت كثيراً فى الحصول على ذلك لأن الأمساك يصيبنى فى أغلب أسفارى .

أخذنا نطوف بجوانب عنابرنا وجلسنا فى المقهى البلدى البسيط وتناولنا منه بعض الطعام والشاى والقهوة فظهر الفرق الشاسع بين نظافة ماقدم لنا هنا على سذاجته وما كنا ننفر منه فى بلاد الحجاز وكان الجو رائقا صافيا جميلا أذكرنى برحلات الصحراء الجميلة فالبحر أمامنا تزينه زمزم التى ستعود الى جده مساء اليوم وكوثر التى تقف مكانها حتى تنقلنا إلى السويس وإلى ورائنا البادية تحفها جبال طور سيناء المقدسة والسكون شامل فى غير وحشة وبينا نحن جلوس نتجاذب أطراف الحديث وإذا بناعورة تصيح مرارا فأسرع الناس اليها فأذا هى تنبيه رسول البرق ينادى القوم ليسلمهم برقيات التهانى لوصولهم سالمين من أقربائهم الذين وردهم نبأ حلولهم محجر الطور بمجرد أن رست الباخرة فى الصباح وقد بتنا ليلتنا على أسرة وثيرة نظيفة وبكرنا نتناول الفول الشهى وفى نحو الساعة التاسعة نبه الخدم الحجاج أن يلزم كل منهم مقره من الحجرات انتظارا لمرور الطبيب .

وقد مر بنا متفرسا فى كل منا متحدثا اليه قليلا فى بشاشة وظرف وقد استأذناه فى شىء من المداعبة أن يفك عقالنا فيسمح لنا بالتريض خارج شباك السلك التى تحوطنا فقال فى رفق بأن ذلك غير ميسور . ومن تلك الحجرات ما فرشت به الأسرة لمن دفع الجنيهين والبعض فى عنابر تتسع لعدد كبير يفترشون بسطهم وينامون متجاورين دون أن يدفعوا لذلك أجرا وبين فترة وأخرى كنا نرى الخدم وافدين وعلى كواهلهم شباك ملئت من متاع الحجاج بعد تبخيره فى الأفران منذ الأمس وبينا نحن جلوس صباح اليوم الثانى واذا بالرجل يتقدم الى غرفتنا وبيده (قصرية) فذعرنا وقلنا ما الخبر فقال هى لواحد منكم سنعلنكم باسمه قريبا فاضطرب كل منا وساورته الهواجس حتى جاء المراقب وقال ها هى لك يا أستاذ عسكر . فكانت مفاجأة ارتبك لها الأخ وشغلنا نحن معه وتسلم قصريته وانتحى ناحية من المراحيض وزودها بما تيسر وقد امتقع لونه وخشى أن يكون فى الأمر شىء والناس من حولنا

يتساءلون ويرمقوننا بنظرات ملؤها الحذر والخوف على أن الطبيب قد طمأننا فقال بأنهم ينتخبون عددا من (الحزاء) يعيد عليه الكرة فى التحليل زيادة فى التأكد من طهارة الحجاج من ميكروب الكولرا عندئذ انبسطت أسارير وجهه وعاودته الطمأنينة قليلا . وذلك لاشك أمر يهمنا جميعاً لأنه إذا ظهر فى الأمر شيء طال علينا الأمد فى هذا الحجر المنعزل وتأخر سفر هذا الفريق من الحجاج . وقد شكت سيدة ألماً بسيطا فسألها الطبيب مابها — وهو يمر علينا مرتين فى اليوم :

فقالت مغص بسيط فأمر بعزلها فى الحال فى المستشفى فارتج الحجاج وخالوها مصابة ولبثوا يتساءلون ويوجسون خيفة التأخير ، ولقد أمضينا أيامنا الثلاثة فى هذا المكان خفيف الروح نقى الهواء وود كثير منا لو طال مكثنا به فى غير مرض وخارج تلك الأسوار التى رغم وهنها أشعرتنا بحبس حريتنا التى تعودناها أنى سرنا ولكن ذلك كان درساً زاد فى قيمة الحرية وقسوة القيود مهما خفت ثم كان صباح السبت ١٣ مارس حين ظهرت العربات أمام الابواب ففرح الجمع وحملوا متاعهم ولم يصبروا حتى يجيئهم الحمالون بل أخذوا يكدسونها فوق العربات إلى الباخره وكانت كوثر تزين الميناء وحدها كالعروس الحسناء يرفرف عليها علمنا الاخضر ثم أقلعت بناعصرا تتمايل فى خيلاء وهى لاشك خير من أختها زمزم فى كل شيء فى وجاهة الدرجات ونظام الخدم والنظافة ولا عجب فهى التى تسير بين أوربا ومصر إلا زمن الحج لذلك حاولت أن تزاحم السفن الاجنبية أما زمزم فيعوزها النظام فى كل شيء .

ولبثنا نسير فى بطء شديد كى نقطع المسافة إلى السويس فيما يقارب اثنتى عشرة ساعة لنصلها باكورة الصباح ولو أسرعنا لوصلناها منتصف الليل وكان يؤنس مجلسنا رهط من عظماء المسلمين مختلفى الجنسيات أذكر من بينهم أمير كانو ووزيره من نيجريا ومفتى القدس أمين الحسينى بك وثلاثة من مسلمى اليابانيين . وبشير بك الطرابلسى ورياض بك السورى وماضى محمد اسماعيل

من بلوخستان وأمير حلب من لابسى العقال ومن كبار المصريين عبد الهادى بك الجندى والدكتور رضا والدكتور ناجى ، فكنا كعصبة أمم إسلامية مثقفة راقية ولقد أخذت صورة تذكارية لجمع منهم على ظهر الباخرة لاحتفظ بتلك الذكرى البديعة . وما أن رست الباخرة على رصيف السويس حتى اختلط الحابل بالنابل وسار كل يعانق أهله ومستقبليه وانصرف كل إلى عربته ولسانه يلهج حمداً لله وشكراً أن وفقه للقيام بأداء أحد أركان الدين الحنيف وسرعان ما نسى ماقاسى من متاعب وراح يدعو الله أن ييسر له الحج فى أعوامه المقبلة حتى تستزيد نفسه من المتاح الروحى الذى يحسه الانسان وهو يستظل بسماء تلك الأراض المقدسة الطاهرة ؟

إلى فلسطين الأرض المقدسة

كنا فى القنطرة السادسة مساء وعبرنا قناة السويس فى سابحة بخارية صغيرة أعدتها الشركة ليعبر الناس عليها القناة إلى أرض طور سيناء ، وفى القنطرة الشرقية أقلنا القطار فى منتصف الليل وأوغل بنا فى الصحراء ، وفى باكورة الصباح تفتحت عيوننا على :

غزة : مولد الامام الشافعى وهى بلدة صغيرة قامت حولها بعض المزارع الفقيرة ، ثم أخذ الزرع يتزايد فى بقع متناثرة فى الصحراء حيث تكثر العيون وخصوصاً على المنحدرات التى كان يكسوها شجر الفاكهة فى صفوف منسقة بديعة تمر خلالها مجارى الأسمنت للرى ، وقد كانت كثرة الشجر خير مؤيد لما نعرفه من شهرة المكان بالفاكهة . ثم وصلنا محطة :

اللد : وكان الشجر حولها وفيراً وهنا غيرنا القطار الذى قام بنا صوب القدس فأخذنا نوغل فى وديان ملتوية معقدة آخرها بالغ الامتداد غير ذى زرع ، وكان القطار يجد صاعداً خلال كل أولئك فى جهد كبير ، وقد زود بقاطرتين معاً ، وفى منتصف العاشرة دخلنا :

بيت المقدس : فآويت إلى نزل (أوليفيت) الجميل يديره صاحبه الوطنى الذى شراه من الانجليز ويقوم عليه خير قيام . أما القدس فبلد كأنه أقيم على مجموعة تلال فى ارتفاع ٢٤٠٠ قدم ، طرقه تسير فى ليات عجيبة وتهوى آناً وتصعد آناً فى منحدر وعر ، وقد يرتقى الواحد من طريق إلى آخر بدرج مرتفع يناهز الخمسين سلماً ، والمدينة جد نظيفة وساعد على ذلك أن تربتها صخرية مجدبة لا تكاد تجد أثراً للتراب فى أرضها وبيوتها من صخر الجير يبدو فى ألوان طبيعية أبيض وأحمر وأخضر ، وللقوم مهارة خاصة فى نحته وإقامته بحيث يبدو فخما جذاباً رغم أنه لا يغشاه فى ظاهره ملاط ، وغالب المساكن

جولة في ربوع الشرق الأدنى

من طابقين إلا بعض المنشآت الحديثة . وكم كان يدهشني اختلاف الأزياء والأجناس بكثرة لم أعهدها في أي بلد آخر مما أيد أن ذاك المكان المقدس . أضحى بلداً عالمياً ، فالناس من مذاهب شتى وديانات مختلفة ولكل زيه الخاص فالعربي القح يلبس الصوف وعلى رأسه العقال وسواد الناس يلبسون الطربوش وسراويل تحبك حول الساق وتنتفخ حول العجز ، والبعض يلبس القفطان وعليه الحزام المعوج الجذاب نساء ورجالا ولعل أعجب الأزياء تبدو في طائفة من اليهود الرجعيين فتراهم يرسلون لحاهم وشعر رؤوسهم ويدلون منه ذؤابتين طويلتين أمام الاذنين في شكل يسترعي الانظار ، والنساء يخرجن وعلى وجوههن قناع أسود ثقيل ، ومن أخص ما ترى فتيانهم الذين يحملون وراء ظهورهم سلالا كبيرة تكاد تخفي قامة الغلام منهم ويسيرون على غير هدى علهم يجدون مرتزقا في حمل متاع الغير في تلك السلال ، ونغمة الحديث عجيبة قد تثير الضحك إذ يميلون الحروف ويمدونها ويتصرفون في حروف الجر تصرفاً مدهشاً وبخاصة (الباء) فيقولون مثلا إن فلاناً نزل بيافا ، وسمعت أحدهم يقول لرجل زلت قدماه أمام حانوته : (ليش بتوقع بيمكن العمى بيصيبك) في مد عجيب فتقبلها المخطيء ومضى في سبيله لأني لاحظت أنهم لا يميلون إلى النزاع والمشاكسة. وهم كرام النفوس وديعون مؤدبون فما سألت أحدهم شيئاً إلا وحاول أن يهديني في رغبة وبشاشة فإن قلت (متشكر) أسرع قائلا (أستغفر الله) ، وهم يودون المصريين ويذكرونهم بخفة الروح حتى سمعت أحدهم يقول لجاره : (أين خفة الدم المصري تجتمع إلى الجمال الشامي) .

بدأت زيارتي بباب الخليل وهو أجمل أبواب أسوار القدس وسمي كذلك لأن الطريق إلى الخليل يبدأ منه ، وقد كتب على مدخله (لا إله إلا الله ابراهيم خليل الله) وكان يسمى قديماً : باب المحراب ، أي محراب داود ، ويعتقد الكثير أن المسيح الدجال سينهزم ويذبح تحت هذا الباب . وبعد أن جزت الباب سرت في دهليز حجري منحدر كثير اللياب يسمونه (سوق

البازار) ويحكى أسواق الغورية عندنا إلا فى أرضه الحجرية المدرجة ومنه عرجنا على :

طريق الآلام ويقولون أن المسيح حمل الصليب الكبير وقطع به الطريق كله وقد أعياه ثقله فوقف اثنتى عشرة مرة متوجعاً ، وقد عرف القوم تلك النقط ووضعوا علامات تميزها ، وفى الموقف الرابع قابلت العذراء ابنها المسيح وهو يسير إلى القتل ، وفيها أقام الأرمن كنيسة ، وفى المحطة السادسة تقدمت القديسة فيرنوشيا فمسحت عرق المسيح وفازت بطابع وجهه المقدس على منديلها ، وفى الثامنة خاطب المسيح بنات القدس قائلا : لا تبكوا علىّ بل ابكوا ضحايا القدس من الشباب ، وفى الحادية عشرة أمر المسيح أن يخلع ثيابه قبل الصلب ، ثم وثق إلى الصليب ودقت فيه أطرافه ، وفى الثانية عشرة رفع الصليب وثبت فى الحائط بثقوب رأيناها واضحة وإلى يسارها شق طويل ملىء بالنحاس ويقولون أنه من أثر الزلزال الذى هز العالم عند ذاك ، وفى الثالثة عشرة أنزل الصليب وتسلمت مريم جثة ابنها وآخر النقط وهى الرابعة عشرة فى قلب كنيسة القيامة حيث دفن المسيح ، ومدخلها ناعم زلق من كثرة ما لمسها من أرجل الحجاج على كر السنين وحارس الأبواب مسلم بيده مفاتيحها ليحسم النزاع بين الطوائف المسيحية المختلفة التى تنازعت الأمر طويلا ، وقد شاهدنا داخل الكنيسة الصخر المقدس الذى غسلت عليه جثة المسيح ، وفى مقصورة إلى جواره يضيئها خمسة عشر مصباحاً من فضة حجر الرخام الذى كان يغطى القبر فدفعته الملائكة إلى مكانه هذا وإلى يمين ذلك المقبرة يغطيها حجر يستخدم الآن مذبحاً للقرابين ، وثم هيكل النشور الذى تجلى فيه المسيح ومما راعنا منظر مغارة غائرة يسمونها : سجن المسيح قيل أنه سجن فيه وأجلس فوق صخرة بها ثقبان أدخل الفخذان منها ووثقا ، ثم شحذ الذراع إلى ثقبين رأيناهما وراء ذلك ، وبعد تلك المغارة مغارات عدة سجن فيها أتباعه وكلها مرطوبة مظلمة رهيبة ، وهناك هيكل السخرية ، سخر الجند

عنده من المسيح وتوجوه بتاج من شوك تهكماً وتقريعاً . ويزين المدينة :

الحرم الشريف : أو مسجد عمر ، أقيم على أنقاض مسجد سليمان فوق تل زيون الشهير وفوق أطلال قصر هيرود الأكبر ، والمسجد فى متسع ذرعه ١٤٥ الف متر مربع على جبل (مورياه) الذى كان ملكاً لأروانا ، ومنه شراه داود ، وهنا شرع ابراهيم فى ذبح ابنه ضحية على الصخرة الموجودة هناك ، وقد بنى الهيكل داود بأمر سليمان وإرشاده حوالى سنة ٩٦٦ ق م ، واستحضر له المهندسين والأخشاب من لبنان وتم بناؤه فى سبع سنوات ونصف وقيل أنه كلف خمسين مليون جنيه ، وفى سنة ٥٨٨ ق م خربه بختنصر ، لكن اليهود أعادوه لما أن عاد لهم الأمر سنه ٥٣٠ ق م ، ثم حوله جستنيان إلى كنيسة وأقام المسلمون عليه بعد ذلك المسجد الأقصى ، ولما دخل عمر القدس كان موضع المعبد أطلالا مطمورة ، فأزاحها وأقام مسجداً مؤقتاً للعبادة أعقبه مسجد الصخرة . وللحرم الشريف سور يطوقه (١٦٠١ قدم فى ١٥٣٠ فى ١٠٢٤ فى ٩٢٢) ، وفى داخله رأينا ثلاثة أبنية رئيسية : قبة الصخرة وقبة السلسلة والمسجد الأقصى ، وهناك كثير من الأسبلة والمصاطب والمحاريب والقباب منثورة فى غير نظام .

قبة الصخرة : تقام على مثمن قطره ١٧٧ قدما ولها سبعة أبواب تولى شطر الجهات الأربع ، والغربى منها يسمى باب الجنة ويصلى على الأموات فيه عادة . بناها مروان خليفة دمشق ليظهر على خلفاء مكة منافسيه سنة ٦٩١ . وقيل إنها كلفته سبعة أضعاف خراج مصر ، أما صفحات ذاك المثمن من الخارج فيكسى نصفها الأسفل بالرخام المجزع والنصف الأعلى بالقيشانى فى ألوان عدة أظهرها الأزرق والأخضر فى إبداع دونه كل وصف ، وتزين الأعلى آيات الذكر الحكيم بالخط الكبير وبخاصة سورة (يس) ، وقد جمل ذاك القيشانى سليمان القانونى ، وأقام القبة نفسها الحاكم بأمر الله سنة ١٠٢٢ من خشب مرصع علوه ٩٦ قدماً وقطره ٧٥ وتكسى من خارجها بالرصاص وترفعها من داخلها

أعمدة تيجانها ورؤوسها بيزنطية ونوافذها مخرمة فى أشكال هندسية جذابة يغشاها الزجاج بألوان تبهر النظر تتجلى من الظلام الرهيب الذى يسود داخلها . وفى جانب منها كتب بالخط الكوفى أن مؤسسها هو هرون الرشيد سنة ٧٢ هجرية مع أنه حكم بين سنتى ١٩٧ و ٢١٨ ولذلك ظن أنه محا اسم مروان بانيها الأصلى ونقش اسمه وغفل عن التاريخ

والصخرة المقدسة ذات شكل غير منتظم طولها ٥٨ قدماً وعرضها ٤٤ . ويقال أن النبى لما عرج إلى السماء على البراق من فوق تلك الصخرة التصقت بحوافر جواده وأخذت تصعد معه حتى جاء جبريل ودفعها إلى الوراء ، وقد أشار الدليل إلى موضع أصبع جبريل واضحا هناك وإلى جوارها صخرة عليها طابع قدم الرسول وفوقها شعرتان من لحيته ، وبجوار ذلك سيفه وعلمه وعلم من أعلام عمر . نزلنا تلك الصخرة فبدا جوفها كأنه مغارة مظلمة فى تجويف وسط الصخرين عاليا إذا ضرب باليد ويخال القوم أن ذاك المكان ملتقى الأرواح بعد الموت ، ومن ثم أسموه بئر الأرواح

وبناء قبة الصخرة فوق مرتفع من الصخر نعلوه بدرج محيط بها من جميع نواحيها ، وفى أعلى كل درج أقواس الموازين ، ويقولون إنه فى اليوم الآخر ستعلق الموازين فيها لتزن أعمال الناس جميعا ، فمن رجحت موازينه فهو فى عيشة راضية .

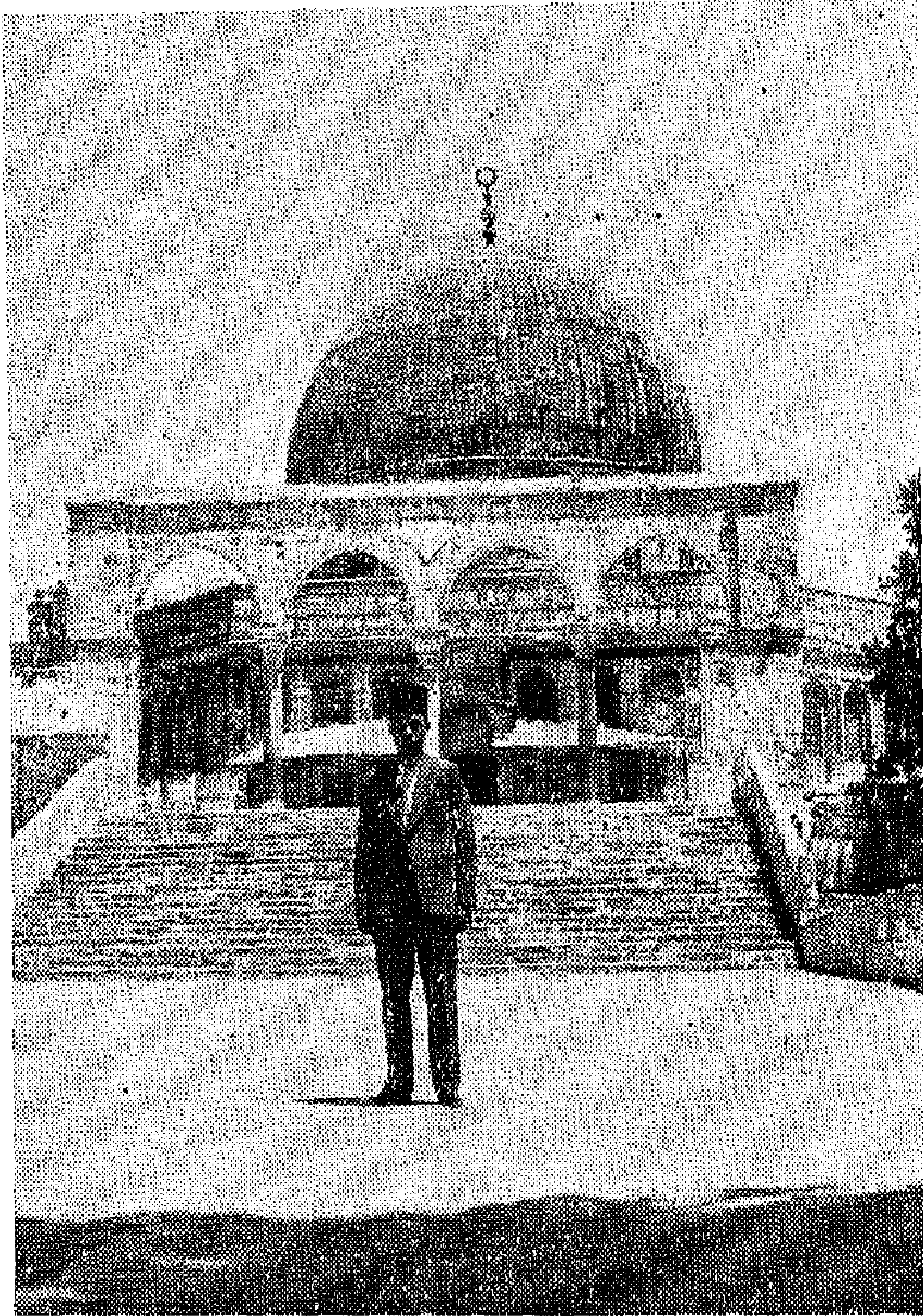
أما قبة السلسلة فتجاور قبة الصخرة بناها مروان كأنموذج للقبة الكبرى ، وهى تقوم على سبعة عشر عاموداً رتبت فى دائرتين متحدتى المركز بحيث يمكن أن ترى كل الأعمدة فى وقت واحد ، ويقولون إن سليمان الحكيم علق فى هذا المكان سلسلة لكشف شهود الزور الكاذبين ، فالصادق يستطيع أن يمسك بها ، أما المزور فلم يكن يمكنه ذلك ، ومن ثم سميت قبة السلسلة .

وذاك النجد الذى أقيمت فوقه القبتان لا شك كان موضع ضرب الغلال (لاروانا) وفوقها أقام داود مذبحة وأعقبه سليمان ، وهى مقدسة عند اليهود

والمسيحيين والمسلمين معا ، وقد شراها داود بخمسين (شكلا) من فضة من أروانا الجبوسيتية ، والجبوسيت أول قوم حلوا القدس ، وقد بنى داود مذبحه فوقها شكراً لله الذى دفع عنهم شرطاعون كاد يودى ببنى إسرائيل ، وقدأرسل سليمان إلى حيرام ملك صور فأمده بمهندسين من فينقيا وزوده بالأحجار وخشب الأرز ، وأقام أول معبد ثابت لليهود كان آية فى الفخامة يمثل حقا عظمة سليمان ، وظل حتى كانت سنة ٥٨٦ ق م حين أغار على القدس ملك بابل بختنصر فأحرقها ودمر المعبد عن آخره ونقل نفائسه غنيمة إلى بابل ، وممن أسر من أنبياء بنى اسرائيل (عزقل أو ذو الكفل) ، وبعد خمسمائة سنة سمح كورش لليهود أن يعودوا إلى القدس ويحملوا نفائس معبدهم القديم ويقيموه من جديد ففعلوا ، وفى سنة ٤٠ ق م جاء هيرود ملكا على أرض يهوذا من قبل أنطونيوس وأقام المعبد ثانية إرضاء لليهود ، واستغرق إتمامه ثمانين عاما ، وفى سنة ٦٦ م قامت ثورة هائلة فى القدس ، وفى سنة ٧٠ أحرق المعبد ودمر عن آخره فى نفس اليوم الذى دمر فيه معبد سليمان من قبل

المسجد الاقصى : إلى جنوب قبة الصخرة زرنا قبة أخرى دخلناها فى بهو من أعمدة عظيمة الامتداد أدى بنا إلى قبة فاخرة مزركشة تحتها محراب هو آية فنية ، ويسمونها المسجد الأقصى لأنه أقصى مكان وصله الرسول بالبراق ، وصعد إلى السماء وافداً من مكة إلى الأراضى المقدسة ليلا ، وذاك المحراب مطعم بالعاج ترصعه اللآلىء أقامه السلطان نور الدين سنة ١١٦٨ وجمله صلاح الدين وإلى جانب من المنبر قبلتان : واحدة للمسيح ويظهر فيها أثر قدمه ، والثانية لموسى عليه السلام ، وعلى كل جانب من مدخل المنبر عمودان قريبان كان يعتقد الناس أن من يمر بينهما يدخل الجنة وإلا فهو من أهل الجحيم ، وحدث مرة أن جاء رجل بدن كبير الجثة وحاول المرور من بين العمودين فحشر ومات ، ومن ثم سد ما بين الأعمدة ليمتنع وقوع ذلك .

وإلى جوار الأسوار فى الجنوب الشرقى اسطبل سليمان نزلناه بدرج تحت أرض الحرم واذا به مجموعة من أبهاء وأقبية تقوم على أعمدة كان سليمان يربط



قبة الصخرة فى المسجد الاقصى ومن فوقها كان معراج رسول الله إلى السماء

خيله فيها ، وقد قلده الصليبيون ففعلوا ذلك فيما بعد ، ويخال البعض أن البناء من عهد هيرود الأكبر ، وفى غرفة مجاورة مهد المسيح قيل ان مريم عرضت ابنها فى المعبد عليه ، وإلى جانب الاسطبل فيما جاور قبة الصخرة : الباب الذهبى أو محبس الجن ، كان يحبس سليمان فيه الجن متى شاء ، ويظن أنه أقيم فى مكان باب شوشان الذى بناه هيرود ، ولقد سده المسلمون لأن هناك خرافة تقول بأن

النصارى سيغزون الحرم يوما ويدخلون من ذاك الباب ، ويجاور ذلك عرش سليمان الذى كان يجلس عليه ، وقبالته من الخلف جبل الزيتون الذى كان يأوى إليه المسيح للتعبد بين أشجار الزيتون ، ويقول الناس إن السراط سيمتد يوم القيامة بين هذا المكان وبين قبة الصعود قبالته فوق جبل الزيتون ، وسيمسك النبى بطرف السراط من فوق صخرة رأيناها بارزة على سور الحرم ، والطرف الثانى للسراط سيمسكه المسيح ثم يمر الناس جميعاً من فوقه فمن جازه نجا وإلا فالويل لمن هوى .

مبكى اليهود : ويسمونه أحياناً البراق . حائط هائل خارج الباب الأوسط للحرم الشريف ، أقيم من كتل الصخر الكبيرة ، ينبت العشب خلال شقوقها ، وهو الحائط الوحيد الذى بقى من معبد داود القديم ، لذلك يتخذه اليهود مبكى لهم يأوون إليه ، وبخاصة يوم السبت والجمعة عند الغروب ، وكذلك فى أعيادهم ، ويقف الرجال فى ركن والنساء فى الآخر وهم يبكون ويرتلون ويندبون ملكهم القديم الزائل ، ويسألون الله أن يعيده إلى مجده السالف ، ومنظرهم وهم خشوع رهيب ، ويزيدهم رهبة أن غالب القوم يلبسون قبعات من وبر أسود فاحم كأنها حلقات غليظة ، وتتدلى شعورهم من رؤوسهم ولحاهم فى جدائل تسترعى النظر ، ويقف جندى البوليس هناك ولا يبرح المكان لا ليلا ولا نهاراً لأن الحائط مبعث نزاع متواصل بين المسلمين واليهود ، إذ كل فريق يدعيه لمذهبه ويقدسه .

بيت لحم : قمت إليها فى سيارة لأرى قرية المسيح التى ولد فيها هو وسيدنا داود ، أهلها جلهم من النصارى الذين يفاخرون بأنهم يمتون بصلة القرابة إلى المسيح نفسه ، وبيت لحم قرية صغيرة وسط الجبال ، تقوم بيوتها من حجارة بعضها فوق بعض ، وأقدس مكان بها كنيسة مريم أقدم كنائس الدنيا مدخلها وطىء لا يكاد يسمح بالدخول إلا فى انحناء شديد وذلك اتقاء هجمات العرب والأتراك الذين طالما دخلوها بخيلهم ودوابهم ، وفى قلبها مغارة تجانبها صخرة

مثقوبة فى شكل نجم كبير وتضىء من فوقها المصابيح أبداً وهو مكان ميلاد المسيح عليه السلام ويراقب هذا الموضع حارس مسلم ليمنع تعدى الطوائف المسيحية بعضها على بعض إذ كثيراً مايشجر النزاع بينهم . هنا عطرنا القسيس بماء الورد المقدس الذى تبركنا به وأنعشنا فى ذلك الحر اللافح ، وإلى جانب المكان بئر كانت تستقى منها العائلة المقدسة ويقولون أن النجم الذى هدى مريم إلى هذا المكان هوى إلى تلك البئر ! وإلى اليمين رأينا درجاً نزلناه إلى هيكل الأبرياء حيث ذبح هيرود أطفال بيت لحم جميعاً . وإلى اليسار الغرفة التى تلقى فيها يوسف الوحى ليهرب بالمسيح إلى ديار مصر .

وفى طريقنا إلى بيت لحم زرنا مقبرة راحيل أم سيدنا يوسف الصديق التى شراها اليهود من المسلمين وهى المكان المقدس الوحيد الذى ظل فى أيدى اليهود إلى اليوم .

وعلى بعد عشرين كيلو متراً من بيت لحم بلدة الخليل ، وفيها مدفن ابراهيم الخليل وزوجه وأولاده يوسف الصديق وكثير غيرهم من الأطهار ، على أن البلدة ألفيناها قذرة متربة ، ومدفن إبراهيم داخل المسجد الذى لم يكن يدخله غير المسلمين إلى أمد قريب لكنهم اليوم أباحوا للنصارى الدخول مقابل رسم يدفعه الزائر قدره نصف جنيه . أما اليهود فممنوعون من دخوله رغم أن البلدة كلها من بلدانهم المقدسة .

جبل الزيتون : أحد الجبال التى تحيط بالقدس . ويقع شرقها ويبلغ علوه ٢٦٨٠ قدماً كان المسيح يتريض فيه ويخلو بنفسه ليتعبد ويناجى ربه ، ومنه دخل بيت المقدس يمتطى حماره فانتصر وتوج ملكاً ، وفى حدائق الجبل خرج عليه تابعه (يهوذا) ودل اليهود على المسيح سيده ، ومن ذروة هذا الجبل صعد المسيح إلى السماء . سرنا إلى ذاك الجبل المقدس صعداً على أقدامنا ، وفى طريقنا إليه زرنا مقبرة مريم أم المسيح فى مغارة سحيقة نزلنا إليها بدرج عظيم رهيب ، وقد أقيمت فوقها كنيسة ، وقد شربنا هنالك من مياه بئر مريم الطاهرة . ثم

مررنا بعد بمقابر لثلاثة آلاف جندى بريطانى ماتوا فى الحرب الكبرى ، وبعدها زرنا كنيسة ألمانية فاخرة حديثة البنيان ، وفى ذروة الجبل وصلنا إلى مسجد صغير إلى جواره قبة تحتها موطىء قدم المسيح يوم صعد إلى السماء من هذا المكان وتصف خارج القبة مذابح متعددة للطوائف المسيحية المختلفة يتسلم مفاتيحها حراس مسلمون خشية النزاع الطائفى ، وفى هذا المكان يقيم النصارى شعائر (تقديسهم) وينصبون خيامهم فى الموسم ويقيمون فيها حول القبة أياماً ولن أنسى مشهد مدينة القدس كلها من خارج تلك القبة ، ومن قمة مئذنة المسجد إذ تجلت فى رواء وروعة دونها كل وصف ، وفى أسفل القبة على منحدر الجبل بستان ناجى فيه المسيح ربه وتعبد بينما كان صحبه نياماً ، وهنا قبض عليه اليهود وتكاد تكسو الجبل غابة من شجر الزيتون العتيق المتفرق ، وقد وقفنا تحت شجرة منه يقولون عنها أن عمرها يزيد على تسعمائة سنة وتسمى شجرة الآلام ، وفوق الجبل عدة كنائس فاخرة لم يتح لى الوقت لزيارتها

إلى البحر الميت — أو بحر لوط : أقلتنا إليه سيارة الأمنيبوس فأخذنا نسير فى طرق ملتوية تعلو وتهبط فى مهاوى مخيفة ، وكانت تحوطنا الربى المجدبة إلى الآفاق وبعد أكثر من ساعة ونصف بدا البحر الميت على بعد تحده من شرقه جبال (مواب) المقدسة . تجلى فى بساط أملس من الماء الأزرق القاتم ، وكان الاغريق والرومان يسمونه بحر الأسفلت لكثرة ما أمدهم من تلك المادة إمتداده ٤٨ ميلا وعرضه عشرة بحيث يعادل فى مساحته بحيرة جنيف ومستوى مائة دون مستوى البحر بمقدار ١٣٠٠ قدم ، فهو بذلك أحط منخفضات العالم أجمع .

نزلت البحر لأسبح قليلا فكان يضايقنى ملح الماء جدا . إذ كان كأنه مادة كاوية فى العين والفم وكلما حاولت الغوص لم أستطع بل كان يدفعنى الماء إلى سطحه ، ولما شحذت جسدى لبثت طافياً فوقه زمناً طويلا وكلما حاولت السباحة مالت رأسى إلى الغوص وظل الجسد طافياً ، وهذا خطر السباحة فيه

ويحق لهم تسميته بالبحر الميت لأن الحياة لا تكاد توجد به قط ، فبمجرد دخول السمك من نهر الشريعة إليه يموت ويجده القوم طافياً ، ونهر الشريعة ينبع من جبال لبنان ويدخل فى طريقه بحيرة جليلى ثم يخرج منها ليصب فى البحر الميت وفى هذا النهر عمد يوحنا المعمدان المسيح عليه السلام ، ويوحنا هذا هو المعروف عندنا باسم يحي بن زكريا عليهما السلام .

وماؤه كدر اللون مبيض حتى بعد ترشيحه وطعمه لا بأس به ، سقانا غلام المقصف منه ماء مثلوجاً ، وقد أقمت على ضفاف ذلك البحر ، وفى جوار نهر الشريعة نهاراً كاملا استمتعت خلاله رغم شدة القيظ ووهج ضوء الشمس المحرقة حوله فهو من أشد بقاع الدنيا حرارة فى الصيف .

عدت إلى القدس وقد عرجت على مدفن داود فى مقبرة غائرة تحت الأرض وسط مسجد داود الذى لا يدخله إلا المسلمون. ويقال أن سليمان مدفون معه . وقد نقشت حول القبر الآية الشريفة (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض) .

ومن أعجب ما أذكره للقدس شح مائها وندرته فأهم مستمد للماء هناك أحواض يستقبل فيها مطر الشتاء لامداد البلدة، فاذا ماأقبل الصيف نضبت تلك الأحواض، فكان المستمد الوحيد (بركسليمان) إلى جانب بيت لحم تطلق منها المياه مرتين فى اليوم لتسير فى أنابيب تؤدى إلى صنابير الطرق فى القدس، وكنت أدهش لتزاحم القوم حولها قبل ميعاد فتحها بساعات وبيد كل منهم (تنكه) ينتظر ليملأها بثمن يكاد يفوق ثمن النبيذ الرخيص هنالك ، وكثيراً ماسمعتهم يقولون إن النبيذ أرخص لديهم من الماء العذب ، وفى كل بيت تجد موضعاً لادخار ماء المطر شتاء ، وفى البيوت الكبيرة يبتاعون الماء بسعر المتر المكعب ثمانية قروش ، لذلك اعتاد القوم الشح الشديد فى الماء وعدم الاسراف فيه حتى أن متوسطيهم لا يغتسلون إلا مرة فى كل شهر مما جعل رائحة سوادهم منفرة .

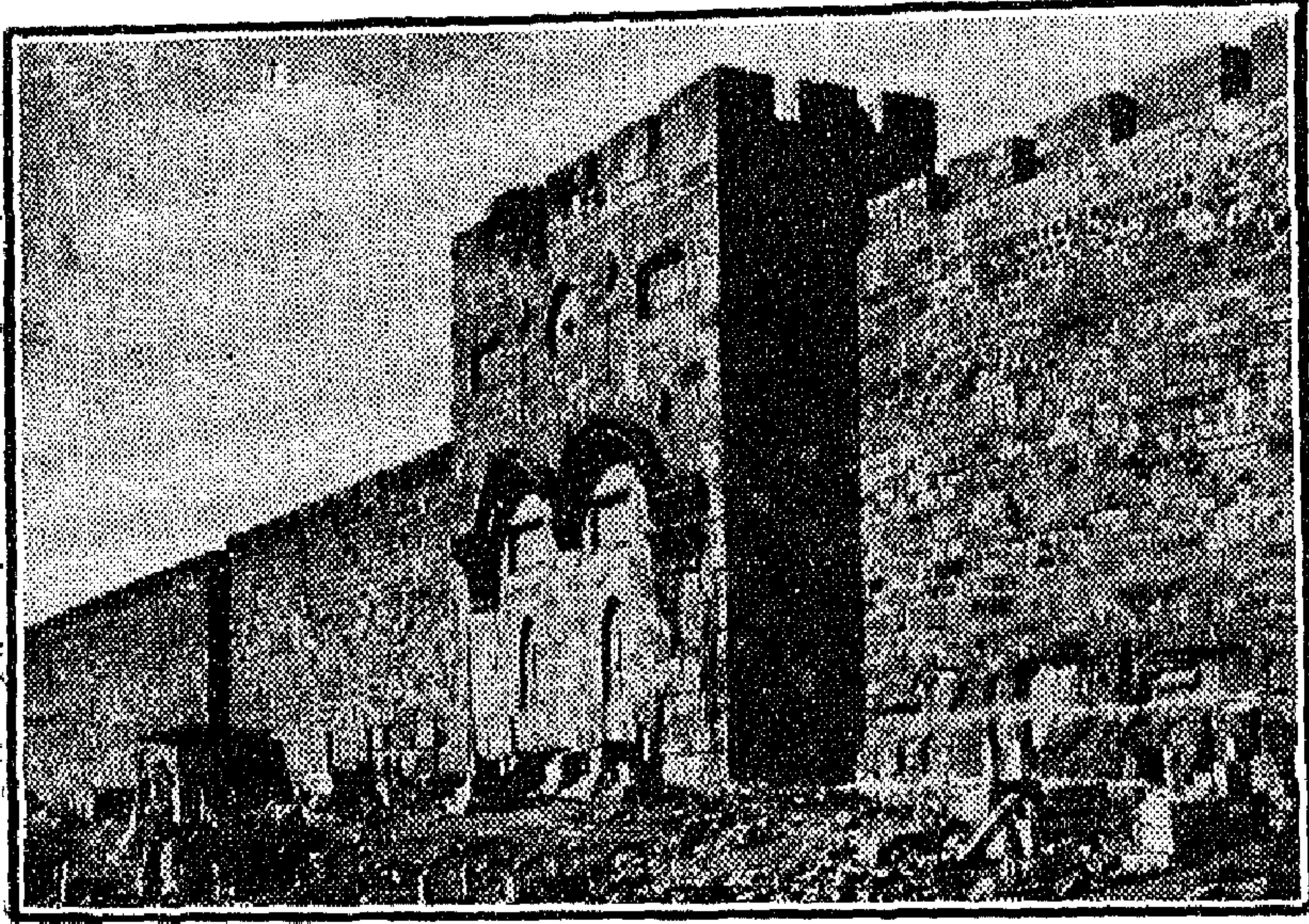
إلى يافا : أقلنى إليها الأوتوبيس فى نحو ساعة ونصف أو يزيد فسرنا فى طرق معبدة جميلة تلتوى فى صعود وهبوط لا يكاد يتصوره العقل ، والطريق رغم طوله الهائل ولياته التى تكاد تكون معقوفة على بعضها فى مواضع عدة كله بالأسفلت وجوانبه بالحجر ، وله حواجز بالبناء مما يشهد للانجليز بالفضل الكبير والعناية الفائقة فى تعبيد الطرق فكأنهم الرومان فى زمانهم حين عرفوا أن الطرق خير وسيلة ترتبط بها أطراف امبراطوريتهم وبخاصة فى زماننا الذى سادت فيه السيارات ، ولما أن قاربنا جانب يافا كثرت منابت الزيتون والفاكهة وبعض الغلال كالذرة والشعير الذى يرويه القوم من مياه الأمطار والينابيع . وكنا نشاهدهم يدرسون الغلال على الطريقة المألوفة عندنا ، وكانوا أحياناً يسوقون طائفة من البهائم تدور حول الجرن وهى تدوس السنابل بحوافرها .

واسترعت أنظارنا بلدة (الرملة) الكبيرة ، اسمها القديم (أرام) ويقال إنه مدفون بها ثلثمائة من الأنبياء والصديقين ، وبعدها غصت المزارع بأشجار البرتقال فى كثرة هائلة أيدت شهرة يافا به ، وأخيراً دخلنا المدينة وإذا بها ربوة مشرفة على ميناء آمن لكن تعوزها النظافة والجمال ورغم قدم البلدة لم يبق الزمن بها من أثر ، وهى فى الأقاصيص المكان الذى ابتلع فيه الحوت سيدنا يونس ، وهى التى وهبها أنطنيوس لكليوباترة دليلا على حبه لها ، وكان لها شأن مع صلاح الدين وقلب الأسد ، وكذلك مع نابليون بونابرت .

وجل سكانها من المسلمين ، وتجاورها ضاحية جديدة تسمى « تل أبيب » فى فلات أنيقة ، وتؤدى طرقها فى منحدر خفيف إلى البحر حيث أقيمت الحمامات وكل سكانها من اليهود ، ولقد طنطنوا فى وصفها فخلتها جنة نادرة المثال ، على أنى ألفيتها عادية .

ولقد استرعت نظرى حركة هجرة اليهود إلى أرض فلسطين ونشاطهم فى إقامة مستعمرات فى كل مكان هنالك حتى قارب عددهم اليوم هناك

نصف مليون مع أنهم منذ مائة سنة لم يزيدوا على ثمانية آلاف ولقد نبتت فكرة الوطن القومى لديهم منذ ذاك الحين ، فأخذت الهجرة تزيد إلى فلسطين



الباب الذهبى أو محبس الجن بجواره عرش سليمان الحكيم
وبينه وبين جبل الزيتون قبالته سيمد السراط يوم القيامة

من جميع الآفاق وساعدهم كثير من مموليهم أمثال رتشلد على شراء متسعات من الأرض الزراعية حتى زادت مساحتها اليوم على مائة وعشرين ألف فدان فى الريف ، لكن لا يزال سوادهم فى المدن الكبيرة وبخاصة القدس ويافا وكثير منهم فى حيفا وطبرية وصفد والخليل ، وفى تل أبيب وحدها أكثر من عشرة آلاف ، على أن اليهود لا يكونون أغلبية إلا فى القدس فقط أما فى سائر البلاد فهم أقلية بالنسبة للمسلمين ، وإنجلترا اليوم جادة فى خدمتهم ومعاونتهم على جعل البلاد وطناً لهم ، لكن ذلك دفع المسلمين والمسيحيين أن يتضامنوا لمقاومة ذلك وكانت روح الكراهية والأهبة للقتال بادية لنا هناك ، وقد تجلت لنا فى مقاطعة اليهود للمعرض العربى الذى أقيم هناك ، وكانوا معتمدين على الحرب الإنجليزية لذلك لم أعجب لما قرأته عن الانفجار الأخير الذى رج البلاد وهدد بمتابعة الثورة حتى توقف حركة اليهود ، لكنها سياسة التفريق والتظاهر بمعاونة

الأقلية هي التي تلعب دورها في الشرق الأدنى كله، خصوصاً وأن أمل انجلترا معقود على المقام في فلسطين بعد أن بدا الضعف في مركزها بمصر والعراق فقامت تشيد الحصون. وتقيم المين للأساطيل وبخاصة في حيفا، وتحرض اليهود على الهجرة إلى هنالك لأنهم أطوع لها من الأعراب الذين أوتوا من من العصبية وروح المقاومة شيئاً كثيراً. ولقد اتبعت الحكومة خطوة إجلاء الأعراب عن أملاكهم بالقوة، وهم يبيعون أطيب الأراضي لليهود بثمن بخس. وكانت تلك المستعمرات تبدو في حدائقها ومزارعها اليانعة طيلة طريقنا إلى شمال فلسطين، والحكومة تأمن اليهود وتطمئن لهم في غالب الوظائف والشئون الحربية، وهي لا تتوانى في منحهم كثيراً من الامتيازات المالية والتجارية وساعدهم على ذلك كثرة أموال اليهود واستعدادهم لانفاقها في هذا السبيل، ولكن المسلمين والنصارى حانقون جد الحنق على ذلك والحكومة تحاول إغراء العرب أن يتوطنوا في شرق الأردن، تلك الجهات المجدبة التي هي إلى البادية القاحلة أقرب.

سوريا ولبنان

الى دمشق الشام : قمت إليها فى سيارة قطعت بنا ٣١٥ كيلو متراً فأخذنا نسير فى طرق معبدة جميلة وسط الربى اللانهائية ، وقد وقفنا زمناً فى نابلس تلك البلدة ذائعة الصيت فى صناعة الزيوت والصابون بفضل كثرة أشجار الزيتون التى بدت لنا كالغابات حولها وكذلك لان تربتها غنية بالصودا وهى بلدة كبيرة تقوم مبانيها بالحجارة كسائر مبانى فلسطين ، والمدينة إسلامية بحتة إلا أن بها طائفة من اليهود هم السامريون عددهم لا يزيد على مائة وخمسين وهم أقدم الفرق الدينية فى العالم عهداً .

عرجنا بعد ذلك على الناصرة وهى البلدة التى مضى فيها المسيح طفولته لذلك كانت مقدسة عند المسيحيين ، وكثرت فيها الكنائس ، وكان سواد سكانها منهم ، وبعدها أخذنا نتسلق ربى كانت تشرف على البحر الجليلى العذب ، وفيه يصب نهر الشريعة من جانب ويخرج من الآخر وهو النهر الذى عمد فيه المسيح عليه السلام . هوينا إلى ذاك البحر ويسميه بعضهم بحر طبرية ودخلنا طبرية التاريخية التى تقع عليه ، وهى مدينة رومانية أقيمت على تلك البحيرة وغالب مبانيها من الحجر الأسود الذى يكثر حولها ، وكانت من الحواضر الرومانية وبها قلعة قديمة رأيناها مشرفة . ولقد تناولنا الغداء على ضفاف ذاك البحر التاريخى المقدس . ثم قمنا مودعين أرض فلسطين تلك البلاد المقدسة التى لا يكاد يمضى فيها أسبوع بدون أن تقام بها حفلة دينية للمسلمين أو المسيحيين أو اليهود وبعض تلك الأعياد مشتركة ، أذكر من بينها زيارة النبى موسى الذى يحج أهل جميع الأديان إليه فوق التلال شمال البحر الميت حيث مات سيدنا موسى ، والبلاد لا تكاد تخلو يوماً من الغرباء الذين يحجون إليها من كافة الأديان حتى عاون ذلك كثيرا على ماليتها الفقيرة .

وأول ما عرف الانسان تلك البلاد التي كانت تحمل اسم (بليشيت) فى نطاق ضيق بين جبل الكرمل (شرق حيفا) والساحل وحدود مصر ، وكان يقطنها شعب غير سامى اسمه فلشتم أو فلسطين ، ثم أطلقت الكلمة على البلاد التى نزلها اليهود .

اجتزنا نهر الشريعة عند منطقة الحدود بين فلسطين وسوريا ، والنهر نحيل ماؤه ضحل ، جلسنا على ضفافه حتى فتشت أمتعتنا وفحصت جوازاتنا وبعدها كنا نسير فى أرض سوريا شبه الصحراوية التى كانت تنتثر بالحصى الأسود ولا يكاد ينبت بها زرع ، لذلك بدا الإقليم أكثر جدباً من سابقه ، وهنا أخذنا نجوز تلال حطين التاريخية ثم تلال :

الدروز : وتزينها قراهم الفقيرة وهم قوم شداد البأس غالبوا الفاتحين وآخرهم الفرنسيون ، ويقال أنهم يعبدون الشمس ، ويعتقدون فى تناسخ الأرواح ، وأن روح القتيل تدخل جسد غيره ، وهذا ما شجعهم على لقاء الموت ، وقد حدثنى القوم أنهم كانوا يهاجمون المدافع ويمسكونها بأيديهم مستهينين بالموت ، وهم لايحزنون عند موت أحدهم لاعتقادهم فى بقاء روحه ويقول البعض أنهم يعبدون الحاكم بأمر الله ، ويرون أن الله خلق عدداً محدوداً من الأرواح الآدمية تحل بعد الموت أجساد المواليد الجديدة ، ولا يشربون إلا الماء واللبن ، ولا يأكلون إلا ما ينتجونه من أرضهم وقطعانهم ، ويلبسون من غزل أيديهم ، وهم يتعبدون خفية فلا يراهم أحد ، وينتشرون فى قراهم الممدودة بين جبل الكرمل والبحر الجليلى .

بدا الطرف الجنوبى لجبال لبنان فى ربى جافة مغبرة وقد لمحنا بقعاً منثورة من الثلج الأبيض فوق الذرى وهو الذى يغشى الجبال كلها فى الشتاء ، ومن مصهور الثلج لاقينا جدولا نحيلا كأنه الثعبان فى لياته المعقوفة ، وهنا بدأت الخضرة وعمت المزارع ثم باغتنا منظر دمشق إلى شرق الجبل وكأنها غابة

مغلقة فى وهدة تقوم من حولها النجاد الجافة وبخاصة من الغرب .



الامام عبد الله أمير شرق الاردن

دمشق : دخلنا الشام كما يسمونها وهى أقدم مدن الدنيا إذ لا يعرف متى بدأت ويرى القوم أن عاداً أول من نزلها ، وأنها إرم ذات العماد ، ومنهم قائل بأن منشئها نمروذ أو دمشاق بن كنعان وبعضهم قال أن أول من بناها دمشقس مولى الاسكندر ، وبعضهم ينسبونها إلى الروم وهذا يكذبه ورودها فى التوراة على لسان موسى الكليم على أنهـا قديمة صحبت ملوك كنعان والروم وآل جفنة وبنى أمية وقد هدم أبو جعفر كل مخلفاتهم فيها فلم يبق إلا النادر .

وأول ما استرعى أنظارنا فيها كثرة المعسكرات الفرنسية التي تحوطها هذا إلى كثرة أنواع الجند ففضلا عن أبناء البلاد رأينا جنود الفرنسيين والسنغاليين والمغاربة مما يشعر بأن فرنسا لا تزال قلقة على مركزها فى تلك البلاد المضطربة يؤيد ذلك ماعلمناه مراراً من أن فرنسا تفكر فى التنحى عن الانتداب لأن بقاءها يكلفها كثيراً فأغلبية البلاد الساحقة تقاوم الانتداب ولا ترغب إلا فى الاستقلال ، ولقد انفجرت البلاد فى سنة ١٩٢٢ محاولة طرد الفرنسيين فأعمل الفرنسيون قنابلهم فى البلاد وهدموا منها الكثير ، وفى دمشق حى كامل متهدم يسمى (الميدان) كان مخبأ الدروز والمسلمين ، وقد اتفقوا على محاربة الفرنسيين ، وظلوا يقاومونهم أربع سنين كلفت فرنسا مائة ألف جندى ومبالغ طائلة من المال ، وقد قص القوم على عجباً فى مقاومة الدروز لفرنسا. حدث مرة أن القائد الفرنسى قام بعشرين ألف جندى ليؤدب الدروز فى جبالهم فلم يرجع من الحملة جندى ولا دابة ولم تستطع فرنسا أن توغل فى البلاد بعض الشيء إلا باستهواء طائفة من المارقين وجلهم من غير المسلمين ، وأخذت تساعد على نشر الملاهى ، وتستميل القوم بالمال والنساء ، ولقد حدثنى شيخ عن مبلغ الفساد وانتشار الرشوة ، وقال بأن صاحب الحاجة لا يقضى طلبته إلا بأحد أمرين : المال والنساء ، وقد لاحظت كثرة المراقص ودور الملاهى الفرنسية فى كل أرجاء البلاد .

والشبان مندفعون فى تيارها وتلك طريقة لا شك تنال من الأخلاق كثيراً وتنسيهم واجبهم القومى ، ولقد بدا الفرق عظيما فى تلك الناحية بين دمشق والقدس ففى القدس لا يباح التبرج ولا البغاء مطلقاً ، ودهشت مرة لما رأيت دلالا فى سوق البلدة يطوف (بفنوغراف) ليبيعه فاستوقفه رجل البوليس وخبره أن إدارته فى الطريق غير مباحة فى ذاك البلد المقدس .

حللت نزلا وسط الميدان الرئيسى لدمشق يسمونه (ميدان مرجه) يتوسطه عامود تذكارى وإلى جانب منه نهر صغير يسمونه بَردى أو (أبانا)

ماؤه ضحل آسن ولا يلبث النهر أن يختفى بمائه الضئيل منساباً تحت أرض المدينة وشوارعها مسافات طويلة وقد رصفت جوانبه الظاهرة بالحجارة وأطلت عليه أفخر المبانى وبخاصة الحكومية ، والميدان يعد مركز حركة النقل من ترام وغيره ، وإلى ورائه شارع النصر، وكان اسمه من قبل شارع جمال باشا يتوسطه متنزه مزدوج تصف فيه المقاعد، ويؤدى أحد طرفيه إلى سوق الحميدية ، ولعله أجمل نواحى المدينة ، وأكثرها حركة يحكى الموسكى عندنا ، وسقفه مقبى فى بوائك من حديد يكسوها الزنك وقد عرجت هناك على فرع بنك مصر لأصرف بعض النقود والسوق ينتهى ببعض البوائك الأثرية فى الهندسة البيزنطية التى أدت بنا إلى :

المسجد الأموى . دخلته فراعتنى فخامته وفسيح أبهائه ودقيق نقوشه فهو حقا مفخرة إسلامية تتوسط فناءه الرئيسى نافورة أنيقة للوضوء ، وفى جانب منه مدفن رأس الحسين تجاورها شعرتان من لحية الرسول ، وخارج الحجرة طاقة من فضة مزركشة يسمونها خزانة يزيد بن معاوية ، وما أن دخلت الليوان الرئيسى الداخلى حتى وقفت مبهوتا من عظمة ما رأيت : بوائك شاهقة تتوجها أقبية أخرى صغيرة كسيت بالقيشانى الأزرق البديع، تمتد إلى قصارى مسارح النظر ، وتزين الجدران نقوش يحار فيها اللب ، أما المحاريب والمنبر فمن مقصوص الرخام المطعم فى إسراف كبير ، وفى وسط كل هذا مدفن سيدنا يحيى ، والمسجد أصله معبد رومانى حوله المسيحيون كنيسة مارى حنا ثم جاء المسلمون فأقاموه مسجدا تزينه عدة منارات مختلفة الهندسة وكان ذلك فى خلافة الوليد بن عبد الملك كلفه ١٤٤ قنطارا من الدنانير أى نحو عشرة ملايين دينار ، وكان المتولى على النفقة عمر بن عبدالعزيز قبل أن يلى الخلافة ، وكان فى ذلك المسجد ستمائة سلسلة من ذهب تعلق فيها المصابيح وزينت جدرانه بالفصوص والذهب الخالص وقد كتب عليه بالذهب على اللازورد: (ربنا الله لانعبد إلا الله أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التى

كانت فيه عبدالله الوليد أمير المؤمنين فى ذى الحجة سنة سبع وثمانين) ويقولون إن الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة .

قبر صلاح الدين : فى ناحية منزوية من الحى الذى بجانب المسجد الأموى ، قادنى الغلام وسط أزقة حقيرة إلى قبة غير ذات بال حولها مجموعة من شجر فى غير تشذيب لاتكاد تسترعى نظر المارة قط وقال : هنا مقر صلاح الدين بجانبه قائده نور الدين ، فوقفت خجلا مبهوتاً وقلت فى نفسى : أهذا الضريح يناسب مقام بطل الاسلام الذى اعترف له بالفضل حتى ألد أعدائه وضربوا المثل بعظمته وشهامته ؟ إنها والله لوصمة عار فى جبين الاسلام أن يكون جزاء حاميه هكذا ، وممن يدفن فى دمشق معاوية نفسه .

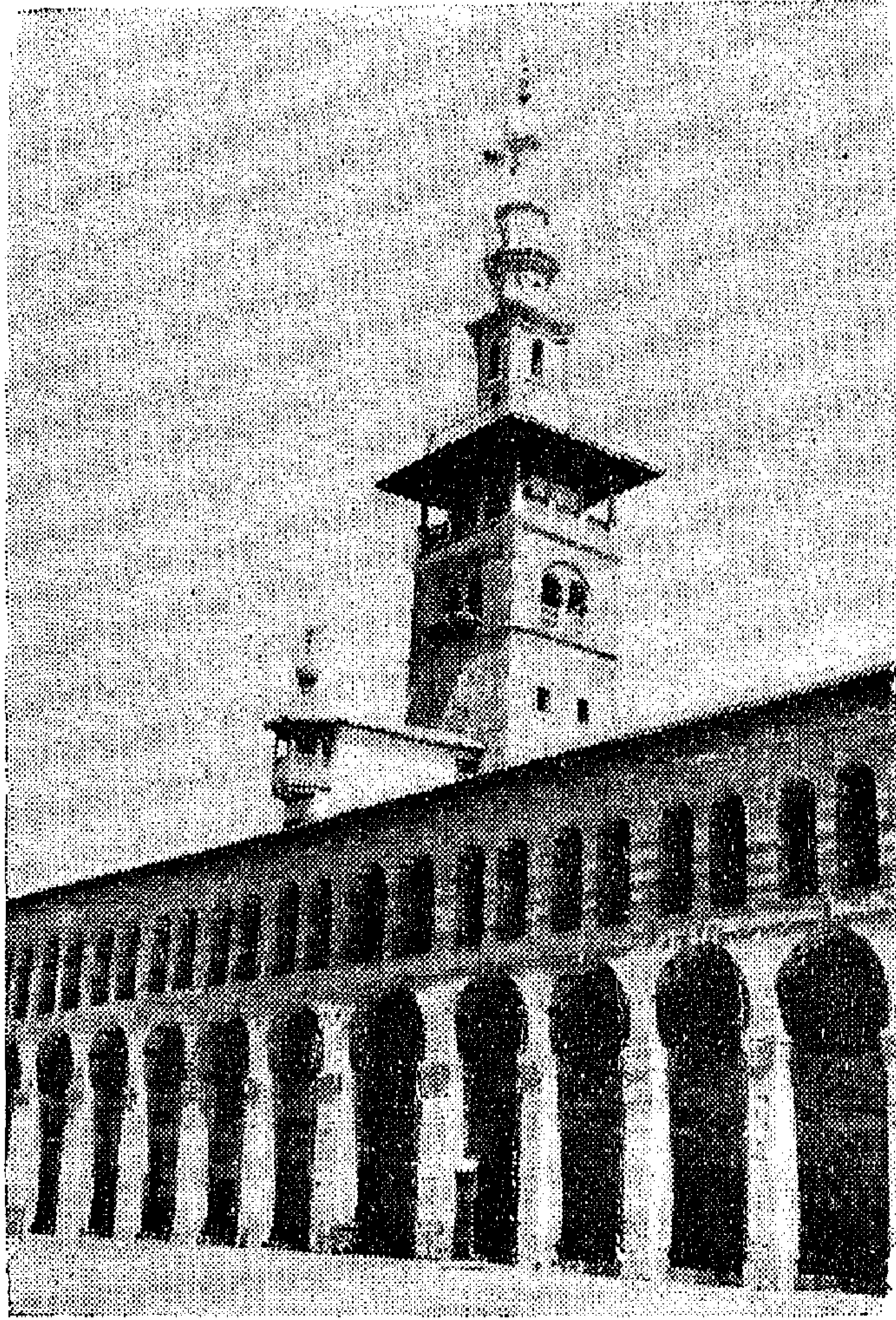
المتحف : وإلى جوار المسجد الاموى دار قديمة أقيم بها متحف الآثار وهو على صغره مقسم إلى ثلاث غرف : الأولى للآثار العربية وبها مجموعة قيمة من أسلحة وأحجار ، ولعل أجمل ما بها مجموعة النقود التى أهداها تيمور المصرى وتحوى نماذج من أغلب نقود الخلفاء كلهم ، وقد استرعى أنظارنا دينار هرون الرشيد وصلاح الدين وعبد الملك بن مروان ، وأعجبها دينار فيصل الذى سكه يوم حكم سوريا وظن أن ملكه سيدوم ولم يظهر من هذا الدينار سوى أحد عشر فقط ، إذ لم يدم ملكه أكثر من ستة أشهر .

وفى الغرفة الثانية مجموعة من الآثار الاغريقية والرومانية ، وفى الثالثة خليط من آثار بابل وأشور والكلدانيين وغيرهم ، وأمام المتحف دار الكتب العربية . وبها مجموعة قيمة من المخطوطات رتبت فى صنوف مختلفة من التفسير والتوحيد والحديث والجغرافيا والكيمياء الخ ، وبها حجرات أعدت لمن أراد الاطلاع من الناس جميعا .

وفى المدينة كثير من البيوت الأثرية القديمة على الطراز العربى والتركى أجملها دار العظم ، فناؤها فسيح تتوسطه نافورة جميلة ، وتطل عليها حجرات

وليوانات من رخام رصع فى نقوش عربية ساحرة .

ومن الطرق التى تروق السائح كثيرا الشارع المستقيم ، سمى كذلك لأنه



مئذنة المسجد الاموى فى دمشق

يمتد وسط البلدة القديمة كلها من باب الشرق ، وهو جزء من السور القديم إلى مايجاور سوق الحميدية ، ولكنك تدهش إذ تجده ملتويا وفى غير استقامة ويسميه الناس أحيانا شارع مدحت باشا ونصفه المجاور لسوق الحميدية شبيه بالسوق فى تقوس سقفه وانتظام المتاجر حوله ، أما باقيه فأزقة لاشأن لها . على أنه يروقك مافيه من بيوت قديمة وصناعات يدوية دقيقة . وفى آخره زرنا مصنع النحاس (للنعسان) وهو أشهر مكان فى دمشق فى أشغال

النحاس المثقل بالفضة فى نقوش ومخطوطات جميلة ، وتلك شهرة لدمشق من قديم ، وغالب طرق البلدة ترصف بالحجارة الصغيرة التى تؤلم الأقدام فى السير وهى حجارة من بازلت أسود عظيم الصلابة يكثر مستمده حول المدينة

وفى دمشق خمسة خطوط للترام واحد يؤدى إلى الميدان ، وهو اليوم مكان خرب من أثر قنابل الفرنسيين وآخر إلى ناحية يسمونها (دوما) على بعد خمسة كيلو مترات نصفها الأخير بساتين يانعة ممدودة ثمارها دانية تتوسطها المقاهى ، ولك أن تتناول من الفاكهة بدون حساب أو رقيب ، وكان شجر المشمش إذ ذاك مثقلا بثمره فى أنواع قد تفوق الاثنى عشر فى حلاوة ومذاق شهى ، ولعل أجمل ناحية : (المهاجرين) وهى على ربوة تشرف على دمشق كلها فيبدو المنظر ساحرا ، هناك جلست على مقهى فأسرع الرجل إلى يقدم كوب ماء مثلوج وإلى جانبه كأس صغيرة (بيشة) فى قرارها قطرات من القهوة (السادة) وتلك من آدابهم فى تحية القدوم ، ثم طلبت الشاى الذى أنعشنى وسط تلك الجنة الخلابة ، والحى مسكن الطبقات الراقية كله بيوت مشيدة من الأحجار فى جمال وجدة والمارة يسيرون فى وقار ، والنساء محجبات بقناع أسود ثقيل ويرتدين ملاءات على النظام المصرى السابق . والرجال مختلفو الأزياء : المتقدمون فى السن مطربشون يلبسون (القفاطين) عليها (الجاكتة) ، والشبان فى حللهم الغربية بعضهم بالطرابيش والبعض بالقبعات والعامة فى سراويلهم الثقيلة المنتفخة ، والأحزمة العريضة ، والكل مؤدبون يحبون المصريين إلا أن فى حديثهم شيئا من الجفاء ، فمثلا سألت أحدهم عن ترام لجهة خاصة وكان قريبا فنظر إلى مقطبا وقال : هيك بتشوف الرقعة ! بتشوف الرقعة ! فى نغمة آلمتنى .

ومظهر دمشق بل وبلاد الشام جميعا إسلامى بحت ، إذ اغلب القوم من المسلمين وقد تجلى هذا المظهر ليلة مولد النبى ، فلقد قصدت المسجد الأموى لصلاة العشاء فكان غاصاً بالناس على سعته ، وبعد الدعاء خرج الجميع فى

مظاهر يتقدمها الشباب يحملون السيوف والأعلام والعصى ، وكان بعضهم يصيح بالأدعية الدينية والبعض بالنداءات الوطنية مثل (ابن سوريا مابيهان ! الحرية والاستقلال !) وانتهوا الى ميدان مرجة ووقفوا يهتفون طويلا أمام دار الشرطة ثم ساروا إلى دار مجلس الوزراء وهتفوا طويلا ولم يتدخل البوليس حتى انصرفت المظاهرة بسلام وكانت تزين أضواء الكهرباء دور الحكومة كلها . وتطوق أبواب المتاجر أقواس من أغصان الشجر وسطها الثريات وتكسى الجدران كلها بالبسط (السجاد) فى كثرة تسترعى النظر وفى التاسعة مساء آويت إلى النزل وإذا فيه مهرجان لقراءة قصة المولد وكان يحضره حفل حاشد ، وتلك عادتهم فى كل بيوتهم وغالب فنادقهم ، فأعجبنى ذاك المظهر الإسلامى وشدة محافظة القوم على تقاليدهم أكثر مما نراه عندنا ، وفى آخر الحفلة طافوا علينا يرشون ماء الورد ويقدمون أكياس الحلوى .

ومن المسلمين هناك أقليات غير سنية ، وبخاصة طوائف الشيعة الدينية رأيت بعضهم هناك ، وعلمت أن جلهم يقطنون قرى الجبال الغربية ، وجلهم من فلول طائفة الاسماعيلية ، وهم من غلاة الشيعة قاموا لهدم الإسلام فى فارس ، وامتدوا إلى جميع العالم الاسلامى ، أساس مذهبهم أن الغاية تبرر الواسطة ، وأن كل شىء مباح ، ويرون أن الله روح عليا ويشكون فى وجود الله ، وكان الاغتيال المنظم مرماهم يدبرون لقتل الخلفاء وذوى النفوذ والسلطان من المسلمين ، وهم الذين نظموا طائفة (الباطنية) نسبة إلى الامام الباطن المستور وفئة (الفدائية) يلقون فى أفهام بنيهم أن الدين يأمر بالاستهانة بالحياة نظير المتاع الكامل فى الآخرة فكانوا يربون الأطفال على المخاطرة والقتل فى غير خوف ، وكان لهم معاقل فوق رءوس الجبال يحوطونها بالحدائق الغناء بشلالاتها وجداولها وقطوفها وزهورها ، ويدعى الفتيان إلى حضرة شيخ الجبل ، وهناك يسقون الخمر والمخدرات ، فاذا ما غاب لبهم نقلوهم إلى تلك الحدائق ومقاصيرها التى زودت بالرياش الفاخر ، وهناك تشجيهم أنغام

الموسيقى ، فاذا ما أفاقوا لمسوا نعيم الجنة فى القطوف الدانية والكؤوس الذهبية والغيد الحسان ، وبعد أخذهم بقسط من هذا المتاع يسقون المخدر ثانية فتغيب عقولهم ثم ينقلون ثانية إلى حيث أتوا ، ويوهمون أنهم لم ينقلوا من مكانهم ، وأن ما رأوا طيف الجنة التى وعد الله بها من ضحى بنفسه ، ولقد قال البعض بأن الذى كانوا يسقونه هو (الحشيش) يزرعونه بكثرة فى تلك الجهات ، ولقد أطلق الاوربيون على تلك الفئة من السفاحين الذين كان لهم شأن فى الحروب الصليبية فئة الحشاشين (Assassins) ولا تزال منهم بقية فى جبال الشام ، ومعنى تلك الكلمة الافرنجية اليوم (السفاحون) .

والمعيشة فى بلاد الشام رخيصة ، ولعل الأجنبى يلاحظ ذلك أكثر من ابن البلاد ، لأن الجنيه الانجليزى كان يساوى ٤٣٠ قرشاً سورياً ، أى نحو أربعة ليرات سورية وربع . ووجبة الطعام التى كنت أدفع فيها عشرة قروش مصرية من أفخر الأكلات الشهية ، حدث مرة أنى اشتهيت (الكباب) فدخلت أحد المطاعم وجاء الغلام يقول : طلبك خيو ، فقلت : كباب وكفته ولعل الكفتة عندكم شهية . قال : إكتير شلبية ! قلت هات لى نصف رطل ، فوقف الرجل دهشاً ، فكررت عليه الطلب ، فجاءنى يكدس أمامى مقداراً هائلا من اللحم هو رطلان ونصف ، فقلت : ما هذا كله ؟ قال : نصف رطل خيو ! وعلمت أن الرطل السورى يقارب خمسة أرطال مصرية ، فأكلت ما يقارب أوقية على حسابهم وتركت الباقى وهو ثلاثة أرباع ما قدم لى ، ولم يكن ثمن كل هذا كبيراً إذ طلب منى إثنى عشر قرشاً مصرياً .

وفى مطعم آخر قرأت قائمة الأطعمة ، فتخيرت الأسماء الغريبة التى لا أعرفها كى أجربها ، فكان الصنف الأول (مألوبى شامى) ، أى مقلوبة شامى ، فجاءنى الرجل بطبق من الرز أغرق فى لبن حامض ، وفى وسط ذلك نثير اللحم ، فذقته وإذا به منفر ، وكان الصنف الآخر (بقلى) ، وإذا بها الباقلة

الحمقاء : (الرجلة) التى لا أحبها ، فوليت صوب الحاوى وطلبت صنفاً اسمه (بوظة شامى)، فأسفرت عن (دندرمة) من الفستق والشمام والبطيخ



مسجد تكية السليمانية فى دمشق

مختلطة . فكانت منعشة نوعا ، ولو أنى لا أشتهى (الدندرمة) كثيراً ، فقلت فى نفسى : كفانى فأنا اليوم غير موفق فى الطعام فلأطلب بعد اليوم من الأصناف ما أعرفها .

غادرت دمشق تلك البلدة التى تموج بنحو ربع المليون من السكان فى أزيائهم المختلفة ، وسحنهم الجميلة ، وإن أفسد من هذا الجمال منطق منفر ممطوط وروح تعوزها الرشاقة والخفة . فممنا صوب :

بعلبك : مسيرة مائة وعشرين كيلومتراً بالسيارة سلكناها فى طرق ملتوية واسترعى نظرنا فى الطريق قبر (العظم) من قواد السوريين الذين قتلوا فى الحركة الوطنية فى هذا المكان ، هنا دخلنا حدود لبنان الكبير ، وفرنسا تقسم إدارة البلاد قسمين : سوريا وهى جمهورية لها رئيس وطنى تحت إشراف فرنسا ، وتلك خطوة أرغمت عليها فرنسا لما رأت من شدة مقاومتهم لحكمها . أما الثانى فلبنان وعاصمته بيروت ، وتلك ولاية فرنسية لم تعط من المنح ما أخذته سوريا ، وفى أكثر من نصف الطريق مررنا بزحلة إحدى المصايف الهامة ، وكانت تكثر حولها المزارع الوفيرة الثمر ، فأرجأنا زيارتها حتى نعود وأخيراً دخلنا

بعلبك : آخر الآثار العظيمة لروما الوثنية ، وعلى مقربة من نهر العاصى وهى قرية قديمة ليست بذات بال اتخذها الروم محلة لأن موقعها صحى إلى جانب نبع ماء كبير يتفجر من تحت شرفات الصخر فى غزارة هائلة ، فيجتمع فى نقيعة ممدودة أقيمت عليها المطاعم التى تناولنا فيها الغذاء الشهى ، واستمتعنا بهوائها البارد المنعش العليل ، لأن البلدة تعلو البحر بنحو ١١٢٠ متر تقريبا ، وأجل ما يزوره المرء بها الآثار الرومانية التى أقاموها فى هندسة خليط من الرومية والبيزنطية ، ويقولون إن الذى بنى المدينة فى الأصل سليمان بن داود ولما جاء الروم جددوها ، وكان (بعل) معبوداً فيها من الصابئة الذين بنوا هذا الهيكل ليدلوا على اقتدارهم ، وهو الذى يقول الله تعالى فيه : « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » ولما ظهرت المسيحية وأيدها الروم أخذوا فى تخريبه مخافة أن يفتن الناس به لأنه كان أفخم من كنائسهم ، رأيناه فراعتنا فخامته وبخاصة معبد (جبتر بعل) بقى من عمده الأربعة والخمسين ستة فقط تشمخ فى الجو فى علو ستين قدماً ، ومحيط تيجانها ٢٢ قدما ، وقد نقلت صخورها من محاجر البلدة التى تبعد عن المكان بنحو كيلومتر . وهناك بعض أعمدة من رخام استحضرت من مصر مما أيد مبلغ جبروت القوم وتقديسهم لآلهتهم ،

وكم قاست المعابد من مغيرين حاولوا تدميرها ، وزلازل أوشكت أن تدكها لكن ما بقى من تلك الآثار يؤيد صمودها لمختلف الديانات التى تعاقبت عليها فى أزمنة كانت العصبيات الدينية آخذة من الناس كل مأخذ ، ولقد أشار قدماء المصريين والآشوريين إلى بعلبك فى آثارهم وأسموها (بلبيكى) مقر عبادة (بعل) ، وجاء الأغريق وألفوا بين الإله بعل وآلهتهم (هيليوس) وأسموها : (هليوبولس) ، ولما تملكها الروم ألفوا بين (هيليوس) ، (جوبتر) ، ومن ثم خصوا المعبد الرئيسى بجوبتر آله هيليوبولس وانتشرت عبادته حتى فى إيطاليا نفسها ، والذى شاد تلك المعابد التى أثارت إعجابنا هو (أنطونيوس بيوس بين ١٣٨ ، ١٦١ م) ، ولقد أذكرتنى تلك الآثار الشامخة بمخلفات أجدادنا التى نطاول بها الأمم ، ففى جدران البناء رأينا صخوراً هائلة طول الواحد ٦٤ قدماً رفعت إلى علو ٢٣ قدماً ، فعجبنا كيف أمكنهم رفع هاتيك ، وفى المحاجر المجاورة للبلدة رأينا صخراً قُدَّ فى الجبل كأنه المسلة العظيمة ، لكن لم يتم القوم استخراجه كالمسلة التى رأيناها فى محاجر الجرانيت بأسوان ، وطول هذا الصخر سبعون قدماً ، وزنته ألف طن ، ولما جاء العرب أقاموا بالمدينة عدة مساجد من الصخور والاعمدة التى انتزعوها من تلك المعابد ! ولا يزال جانب من المسجد الكبير يرى ببوائكه وأعمدته إلى جوار تلك الآثار ، وفى قرية بجوارها اسمها (كرك نوح) قبر سيدنا يعقوب .

زحلة : مدينة أنيقة من أشهر مصايف لبنان تحل مأزقا من وادى تحوطه الجبال وتتدلى منها سيول الماء فى كل مكان ، وتقوم على المنحدرات القلات البديعة بسقوفها الحمراء المنحدرة ، ويتوسطها النبع الرئيسى ، وقدت فى الجبال طرق ملتوية بعضها يعلو البعض حتى يبلغ بنا الذرى ويكاد الشجر والنبت يسد الوادى سداً ، وأينما سرت أو جلست أطربك خرير الماء وراقك منظر هداراته ، ومن النبت البرى ما له زهور جذابة ورائحة عطرية ، واسترعى نظرى شجر الجوز الضخم عريض الورق ، الذى كان يحكى شجر المطاط ، وكان

يحمل وسقا ثقيلا ، وإذا نضج أزاح القوم قشره الخارجى لتتخذ منه الأصباغ وما بقى هو الجوز الذى يباع فى أسواقنا ، ولورقه رائحة عطرية هادئة تعطر اليد إذا لمسته ، وتعبق المكان إذا وضعت فيه ، وقد نسق القوم جوانب الوادى وضفافه وأقاموا عليها الأنزال التى يبلغ عددها أربعة عشر ، والمطاعم والمقاهى التى لا يحصيها العد ، وتفننوا فى حبس الماء الدافق وتحويله إلى قنوات تسير يمنة ويسرة . فأينما جلست كانت المساقى تنساب تحت قدميك وطعم مائها لذيذ كأنه مثلوج ، وأنت تشرب منه المرة تلو الأخرى دون أن تشعر بامتلاء ، ويقولون أنه مصلح للمعدة لما حوى من المركبات الجيرية المفيدة ، وكم أعجبنى نشاط القوم وعصبيتهم . فكل المشروعات فى أيديهم ، قاموا فحبسوا الماء فى جهات عدة وأداروا به الهدارات المولدة للقوة بعضها يستخدم لطحن الغلال ، والبعض للاضاءة الكهربائية ، والبعض لعمل الثلج ، والبعض للسقى ولا تكاد ترى وسطهم أجنبيا ، وقد كان الوادى مهملا ، وهو من أملاك اليسوعيين شروه بجنيهات قليلة ، لكنهم اليوم يستغلونه استغلالا مدهشا فايجار الفندق الواحد قد يناهز ألف جنيه فى العام ، وغالب سكان البلدة من المسيحيين ، والتعليم فى أيدى المبشرين . وجو البلدة منعش أميل إلى البرودة ، حتى كنت أشعر وكأنى فى شتاء مصر ، لأن علو البلدة فوق تسعمائة متر ، والمعيشة فيها رخيصة ، فلو أنى أرغب فى مقام هادىء لما آثرت على زحلة غيرها لما فيها من طبيعة غنية وهدوء شامل وجمال ساحر وهواء منعش وماء شاف سلسبيل ولرواد الجبال هناك مجال عظيم ، فللتسلق غرام لا يقدره إلا هاويه . علمت بأن النبع الرئيسى للجدول (ويسمونه أم العين) يهوى فى شلال علوه ٢٤٠ متراً فقصدته وإذا المرتقى إليه وعر يكاد يكون عموديا ، لكن منظر الماء وهو يهوى ويتعثر على نواتىء الصخر فى شلال هائل أغرانى أن أصعد وبعد لأى كنت فى ذروته ، وإذا به يخرج من قلب الصخر السماوى فى اندفاع مخيف .

إلى حلب : غادرنا زحلة بالقطار الساعة العاشرة صباحا صوب حلب فوصلناها فى ثمان ساعات ، وكانت الطريق أشبه بسهل جاف إلا فى بقاع نادرة يزرع القوم فيها الغلال وبخاصة الشعير والقمح . وأكبر البلدان التى مررت بها حمص : وهى مدينة كبيرة متحضرة بها مسجد عظيم بناه خالد بن الوليد ، والسهل حولها خصب كثير المنابت ، وبجوارها قبر خالد بن الوليد . ثم تبعتها فى الأهمية : حما : وتقع على نهر العاصى الذى يصب فى البحر الأبيض عند انطاكية ، وقد بدا جدولا صغيرا كان يتلوى أمامنا فى ليات عجيبة ، وقد أقيمت عليه النواعير التى تدور بدفع التيار لرفع المياه إلى الأراضى المجاورة ، ويرجع بعضها إلى زمن الرومان وفى المساء دخلنا :

حلب : فجبت بعض أرجائها فبدت مدينة كبيرة ، صبغتها إسلامية بحتة ، بمساجدها المتعددة غالبها على الطراز التركى بمنائره الدقيقة ، وقبابه المتكررة .

وقد زرت من بينها المسجد الجامع ويعدونه المسجد الخامس فى الشرق الأدنى وهو عظيم الامتداد ترصف أرضه بألوان الرخام المنسقة . وتحوطه البوائك . ويضم رفات سيدنا زكريا أبى يحي عليهما السلام ، وأعجب ما فيه مئذنته المربعة ، ويرجع عهده إلى بنى أمية .

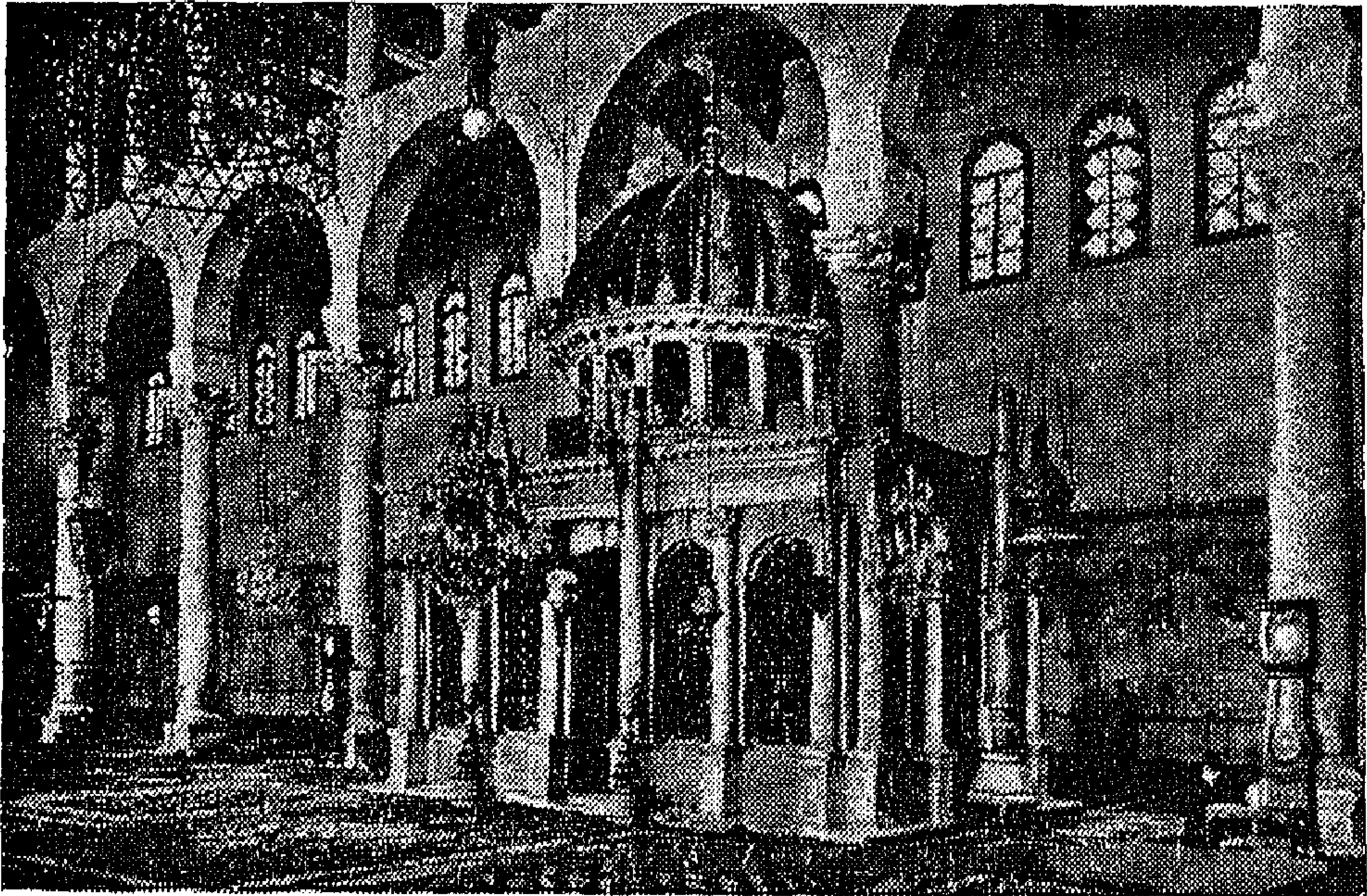
والمدينة قلعة قديمة تشرف من ربوة شاهقة بنيت فوقها من أحجار ضخمة وحولها حفرة كأنها الخندق العظيم نجتازه بقنطرة ، ويحتل القلعة جنود فرنسا ، وفى أقاصيص العرب أنها أقيمت على ثمانية آلاف عمود ، ولعل أعجب شىء فى البلدة أسواقها فهى واطئة مغلقة تحت قباب حجرية كأنها السراديب المشعبة ، وهنا قلب المدينة النابض من الناحية التجارية إلا فى بعض الحوانيت الحديثة التى صفت على جانبى الشارع الجديد ، وهو يصل المدينة بمحطة الشام ، وهو أكبر الشوارع وأجملها . وكثير من الدور أقيم على النمط التركى يبدو كالمساجد ، وتطل منه المشربيات العديدة . ومياه حلب رديئة

شحيحة غالبها من الآبار تباع بسعر قرش (للتنكه) ويشق البلدة نهر جاف ويسمى نهر قويق تقوم عليه القناطر العدة، وكان غامراً بالماء ابان حكم الأتراك ثم قطعوه اليوم عن البلاد وحولوا ماءه إلى بلادهم، والمدينة غاصة بالمقاهى ودور الملاهى فى قسمها الجديد، وغالب الملاهى مراقص بعضها عربى، والبعض فرنسى، ويظهر أن موارد البلاد محدودة لدرجة أن الحكومة توقفت قليلا عن دفع المرتبات أول هذا الشهر (يوليه) على الرغم من أن أنواع الضرائب كثيره متعدده، ومن أعجبها ضريبة المتعة وهى ليرة وربع فى العام على كل راشد بين ١٦ و ٦٠ سنة فقيرا كان أو غنيا، وكذلك ضريبة النشر فكل إعلان يخرج للناس يلصق عليه طابع الضريبة حتى إعلانات السينما ترى طابعا بربع قرش سورى عليه

ويظهر أن العصبية الدينية شديدة هنالك فكل طائفة تحاول الاضرار بغيرها، وهم متفرقون يكيدون لبعضهم، على أن العنصر الإسلامى هو السائد وفى البلاد حركة للتخلص من كل ما ليس سوريا فى الوظائف، والأعمال الحرة، والجرائد ناشطة فى الكتابة تشجيعا لتلك الناحية، ولو أفسدها اتهام كل حزب الآخر بالتعصب

تركيا

إلى الأناضول: قمت من حلب مبكراً فى قطار ٦,٤٠ صباحاً إلى انقرة فسار بنا القطار وسط سهول ممدودة غالبها صخرى شبه صحراوى مهمل ، ولما دخلنا الحدود التركية بدأت الجبال والربى المعقدة وأخذت تتلوى سكة الحديد ، ودخلنا أنفاقاً لا حصر لها ، وكلما واصلنا السير أخذنا فى الصعود لنغالب ليات الجبال وارتفاعها المتزايد وأخذت تكسوها الشجيرات ، ثم أوغلنا فى تيه من الانفاق ، بعضها كان القطار يستغرق فى اختراقه ربع الساعة وكانت المناظر حولنا ساحرة ؛ خصوصاً كلما فاجأتنا الوديان السحيقة تتلوى فى قيعانها الغدران النحيلة . أما الأهلون فنادرون فى تلك البقاع . فلا يكاد البصر يقع على القرى إلا الصغير النادر ، وتلك هى مجموعة جبال طوروس بصخورها الجيرية ، وبين آونة وأخرى كانت طيات الصخر تبدو فى ألوان



قبر سيدنا يحيى فى المسجد الاموى بدمشق

قاتمة أو براقة مما يشعر بقدم الصخر،وكثرت رقائق الشيست ، ولذلك لم نعجب لما سمعناه عن كثرة المعادن هناك مثل : الحديد ، والنحاس ، والفضة ، والكروم ، والميكا .

وحوالى الرابعة مساء دخلنا سهولا اختفت من حولها الجبال ، وزاد النبت ، وكثرت مسايل الماء على أن ماءها كان ضحلا شحيحاً ، فكان المنظر شبيهاً بمصر المحبوبة ، وفى وسط هذا السهل وقفنا على :

أدنا : من كبريات مدن جنوب تركيا ، وبعدها عادت الجبال وأنفاقها ومناظرها الساحرة ، والحق أن سكة الحديد هناك تدل على مبلغ جبروت القوم فى مغالبة القوى الطبيعية الهائلة ، ويفاخر الأتراك أن هذا الجزء المعقد كله أقيم بجهود أبنائهم ، ولم يكن للأجانب فيه دخل قط ، وسكة الحديد كلها بيد الحكومة التركية ، بعد أن كان جلها لشركة فرنسية ، وقد شروا كل المشروعات الأجنبية فى سائر بلاد الأناضول فأضحت تركية بحتة . ظل القطار فى صعوده ولياته وأنفاقه حتى أقبل على سهل فسيح تتوسطه قونية ، وكان وقوفنا بها الثانية صباحاً فبدت مدينة ممدودة هائلة تحكى إحدى البنادر الرئيسية عندنا ، وكانت أضواؤها الكهربائية منثورة وضاءة ، وقد علمت أن فيها مدفن أفلاطون الحكيم ، وقبر جلال الدين الرومى المعروف بمولانا ، وإليه تنسب طريقة (المولوية) ، ولبثنا نسير فى تلك السهول الغنية طويلا ، وهى تزرع على المطر،ويعوزها المران المصرى الزراعى كى تغل أضعاف ذلك،فمشروعات الرى تكاد تكون معدومة،والأيدى العاملة نادرة ، وأدوات الزراعة عتيقة : كالمحراث المصرى يجره البقر،والشادوف ينزل دلوه إلى الآبار الغائرة وينتشل منها باليد أو الدواب ، ومظهر البلاد كلها يبدو إسلامياً بحتاً ، ففى كل القرى تبدو المآذن التركية الدقيقة ، ولم نلمح كنيسة واحدة فى كل تلك البلاد إلى أنقرة ، وكثيراً ما كنا نمر بالناس يقيمون الصلاة فى حقولهم وعلى رؤوسهم قبعاتهم فى كثرة أشعرتنى بأن النزعة الدينية مازالت قوية ، وكانت تحصد

الغلال كالقمح والشعير ، أما المراعى من البقر والضان فلا حصر لها إذ هى المورد الرئيسى ، وكان اللبن والجبن يبيعه الصبية فى كل المحاط ؛ وبخاصة اللبن الحامض الذى يشربونه بدل المرطبات جميعاً ، والخيل مطيتهم الرئيسية ، وبيوت القرى بالحجارة الصغيرة منحدرة السقوف ، لكن طرقها ضيقة مهملة رديئة والأهلون يرتدون حللهم الأفرنجية وعلى رؤوسهم القبعات (فى شكل الكسكت) ، والنساء سافرات لا يفترقن عن الأفرنجيات ، وقد ساغ هذا الانقلاب الاجتماعى اليوم للناس بعد أن كان معارضوه كثيرين فى بدئه شأن كل جديد ، وشتان بين حالتهم يوم زرتهم فى اسطنبول سنة ١٩٣٠ وبينها اليوم . دخلنا أفيون قره حصار ، ومعناها : (قلعة الأفيون السوداء) لأن أحسن منابت الافيون تقوم حولها ولأنها تعلو فوق ربوة سوداء هائلة (٨٠٠ قدم) جعلتها منيعة والمدينة كبيرة، وتقوم وسط سهل تربته مختلفة بعضها فى لون أسود والبعض أصفر والبعض جيرى يكسوه الحصى ، ولا تقوم المدن الكبيرة هناك إلا وسط الوهاد المبسوطة التى تنأى عنها الجبال ، وعندما وصلنا اسكى شهر : أخذت سكة الحديد تتفرع إلى عدة نواح وهى مركز زراعى وتجارى هام، وبها مصنع لسكر البنجر يمون قسما كبيراً من البلاد ، وبيوتها حجرية ومن طابق واحد ، وبجوارها رأينا مدرسة الطيران ، وفى جوار المطار هناك استشهد فى حرب الاستقلال خمسة آلاف تركى سفك اليونان دماءهم ظلماً ، فأقامت الدولة لهم مدفناً فاخراً كتب عليه (مدفن شهداء الوطن) وكان يرمقه المسافرون جميعاً بنظرات الاكبار ، وعند الأصيل قبيل دخولنا أنقرة بساعتين وقفنا بمحطة كبيرة اسمها : بولاتلى ، وهنا كانت الموقعة الفاصلة بين الأتراك والاغريق الذين اجتاحوا البلاد من أزمير إلى هنا ، وكانوا يطمعون فى احتلال أنقرة ومحو تركيا من الوجود . وكانت تعاونهم على ذلك بعض الدول العظمى، وأمدتهم بالمال والأسلحة ، ولكن بفضل وطنية الغازى وسحر بيانه استحث الحماسة التركية فاستمات الأتراك فى الدفاع عن حوزة الوطن نساء ورجالا ، فسحقوا فى هذا

المكان الجيش اليونانى عن آخره ، وقد حفزهم على ذلك ما كان يأتيه اليونان من الفظائع فى قتل أهل القرى وإحراقهم ، وهناك أيضاً أقاموا مدفناً فاخراً للشهداء سرت اليه وانحنيت إكباراً وقرأت لأولئكم الأبطال الفاتحة ، وقد نزل من القطار معى أغلب ركابه وهم يشيرون اليهم قائلين هؤلاء بقيادة الغازى هم الذين طاردوا العدو واكتسحوه ، حتى ألقوه البحر وراء أزمير ، وطهروا البلاد منه ، وكان العدو الذى هلك ٢٤٠ ألفاً مع أن عدد الأتراك لم يزد على ٤٥ ألفاً . ذكريات خالدة ،كان يقصها علىّ بعض أبناء الأتراك والوطنية تكاد تتفجر من وجناتهم ، وكان الغازى يأخذ أملاك الناس ومتاعهم للانفاق على الجيش ، على أن يردها اليهم بعد النصر ، وكان القوم يقبلون ذلك قبولا حسناً ، ولا تزال الدولة تسدد لهم ديونهم هذه إلى اليوم ، وبعد أن أجلوا الاغريق ومكنوا لأنفسهم فى الجهات الغربية ولوا وجوههم صوب الحدود الداخلية « فطاردوا الأرمن إلى ماوراء أرضروم وبحيرة ڤان ، وأخذوا بلاد الأكراد وأعادوها لحظيرتهم ، وانمحت دولة كردستان من الوجود ، ثم طاردوا الفرنسيين وألزموهم حدود سوريا الطبيعية وراء جبال طوروس . دهشت من هذا الفوز فى أناس يكادون يكونون عزلا وكان يطوقهم العالم من جميع جوانبهم ، ولكن كيف يكون أعزل من صح عزمه وصدقت وطنيته ، وجعل نفسه فداء لوطنه . كانوا يحاربون العدو بقلوبهم الراسخة وإيمانهم الوثيق نساء ورجالا ، وبعد أن استتب لهم النظام العسكرى قام الغازى العظيم يصلح البلاد من وجوهها الأخرى اجتماعياً واقتصادياً فبدأ سياسة الانشاء والتعمير ، وأخذ فى تعبيد الطرق ، ومد سكة الحديد ، وهى فى نظرى تعادل أرقى الخطوط الأوروبية نظافة ودقة يديرها الأتراك فى نشاط حميد ، ثم أخذ يمهد للشركات الوطنية ويعاونها بالقروض والتسهيلات ، حتى كثر عددها جدا وأسس المصارف الوطنية ، وأخذ يقيم الأبنية فى البلدان الكبيرة . وبخاصة أنقرة ، على أحسن طراز ، ثم أنه لم يغفل حالة الفلاح ،

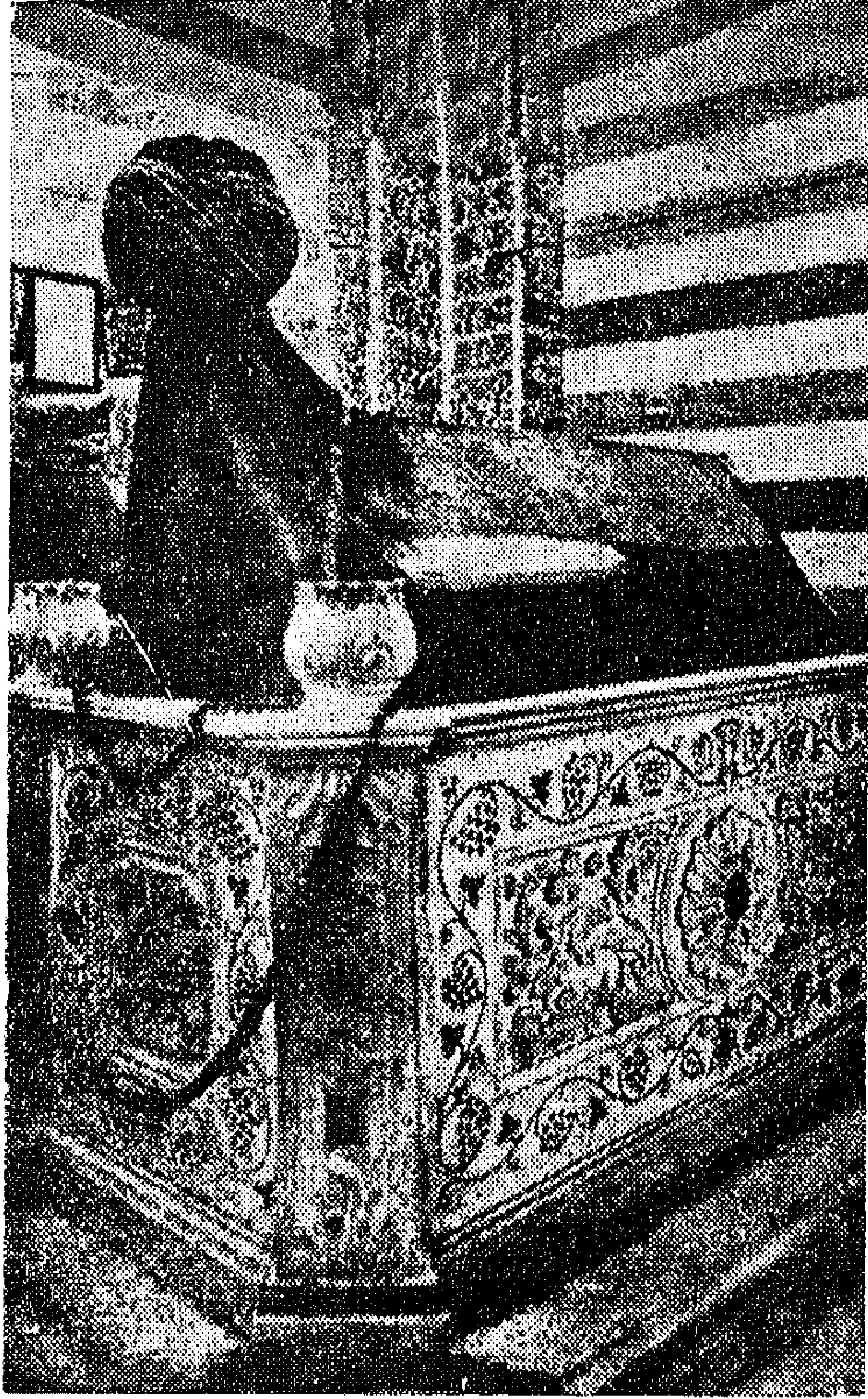
فقد كانت الأراضى ملكا لطائفة قليلة من الأغنياء . فمثلا كانت سهول دنا ملكا لعائلة فابتاع كل المساحات الشاسعة وقسمها قطعاً صغيرة ، باعها لصغار الفلاحين بشروط سهلة ، واتخذ من نفسه مثلا حسنا ؛ إذ وهب من أرضه الكثير وأعلن أن أملاكه جميعها لن تورث أحداً من عائلته ، بل سترثها الدولة وهو يكاد يكون معبود القوم جميعاً كلما حدثك أحدهم عن البلاد ذكره بالخير وفاخر باسمه ، وحتى معارضوه قد قل عديدهم جداً ، وذلك شأن المصلح الذى يغامر ويخدم مبدأه دون خوف وكلما ظهرت ثمرات أعماله أحبه الناس وأيده خصومه ، ويكاد يتفق الجميع على أنه ليس فى البلاد سواه ، هو ووزيراه : عصمت ورشدى ، فهم القوة المنشئة المنفذة يرتب الغازى الفكرة ويغامر بتنفيذها واثقاً من النجاح ، وفى شئون التعليم قام بقسط من الاصلاح كبير فأدخل فى المدارس أحدث النظم ، ومحا العتيق ، وسهل اللغة بالحروف اللاتينية التى تعلمها الجميع وقد فرضها على الناس إلى الأربعين نساء ورجالا ، ومن زادت سنه فله الخيار ، وقد علمت أن الجميع حتى الشيوخ يقرأونها اليوم بسهولة يؤيد ذلك كثرة الجرائد التى كان يقرأها الفلاحون ويتخاطفونها من القطار على سذاجة منظرهم ورث ثيابهم ؛ ولقد جعل التعليم إجبارياً ، وقسم المدارس إلى ابتدائية وثانوية ، وعليا ، وجعل برامج التعليم قومية وطنية لا يتعلم الطالب اللغة الأجنبية إلا فى المدرسة الثانوية ، ولم يختصها بلغة معينة فبعض المدارس تعلم الانجليزية ، والبعض الفرنسية ، وهى الغالب ، والبعض الألمانية وهلم جرا ، وهو لا يحتم على الطالب إضاعة جل وقته فى اللغات الأجنبية ، كما نفعل فى مصر ، لأن ذلك لاشك سيكون على حساب التوسع فى العلم نفسه ، فهو يعلمهم مبادىء اللغة ، ويترك التبحر لمن تخصص بعد ، وهناك قسم لترجمة مستحدثات العلم إلى لغة البلاد ، لذلك وجدنا صعوبة كبرى فى التفاهم معهم لأن من يعرف الفرنسية أو الانجليزية لا يجيدها قط ، بل لا يكاد يتفاهم بها ، وهم متعصبون للغتهم جدا ، لا تراهم يكتبون

بطاقاتهم ولا عنوانات متاجرهم إلا بها فى حروفها اللاتينية ، والغازى يتعقب بنفسه الكلمات التى من أصل عربى ويمحوها ويمنع استخدامها منعاً باتاً ، ويحل محلها كلمات تركية صميمة ، وقد كانت الألفاظ العربية شائعة بين الطبقات الممتازة وفى اللغة الرسمية من قبل . أما اليوم فيحاول محوها .

أنقرة : دخلناها ليلا فبدت أضواؤها خاطفة وثريات الكهرباء بها منثورة على الربى ، وفى السهول فى مشهد جميل ، وقد أقيمت قبيل أنقرة مباشرة ضاحية (الغازى) حيث يقوم قصره ، وتمتد حدائقه المنسقة امتداداً فسيحاً ، وهى تكاد تلتهب ضوءاً . حللت نزل (أناضول) وقمت فى الصباح أجوب أنقرة ، وإذا بها قسمان : قديم وحديث ، فالقديم فى أزقته الحجرية المتحدرة ، وبيوته المكتظة الصغيرة المطلة بشرفاتها نصف العربية ، ولياتها غير المنظمة تشرف عليها قلعة المدينة فى ربوة شاهقة ويقوم كثير من الأبنية على منحدراتها وتعوزها النظافة وحسن البناء ، وفيها يدفن امرؤ القيس ، وقد فتحها المعتصم الخليفة العباسى ، وفيها وقع السلطان (بلدرم بايزيد خان) أسيراً فى يد تيمورلنك سنة ١٤٠٢ . والقسم الحديث يعادل أرقى البلدان نظاماً ، قصوره فاخرة بولغ فى ضخامتها وتجميلها ، والطرق به فسيحة ومنابت الكلأ تحفها الأشجار فى امتداد رائع ، وفى وسط غالب الميادين تقوم تماثيل الغازى ، ولعل أجملها ميدان (ملت ميدان) والغازى يمتطى جواداً ووراءه تركيا فى امرأة عجوز تحمل قنبلة ووجهها مقطب كئيب ، وقد أعياها التعب وإلى جانبها الأمامى جنديان بأسلحتهما يكشفان الطرق ، ويتأهبان للفوز .

والمدينة على صغرها كثيرة الحركة ، أهلها أهل نشاط وشعور عجيب بالعزة القومية شأن كل أبناء الأتراك ، وهم جميعا مؤدبون كريمو الطبع ، يزين ذلك وقار ورزانة جعلت لهم مهابة وأنفة وهم فخورون بفوزهم ، لا يفتأ الواحد يقص عليك نبأ حرب الاستقلال ويمجد لك فى تركيا وما فيها ، ويعتذر عن بعض النقص والتأخر فى البلاد التركية . فحركة الاصلاح لم يمر عليها عشرون

سنة ، وقد خلفت الحكومات الماضية للحكومة الحاضرة تراثاً موبوءاً ثقيلا يتطلب الاضطلاع به وإصلاحه مجهود الجبابرة وأموال الملايين ، وكم كان



ضريح صلاح الدين بطل الاسلام

عجبي عظيما عند ما كنت ألمس حركة النهوض فى كل شىء ، وفى سرعة عجيبة رغم عوز البلاد المالى الشديد ، لكن الاخلاص وخلو البلاد من الدخيل هو الذى أكسب القوم قوة تدفع بهم إلى النجاح المتواصل وحتى فى الناحية الدينية هم يمتدحون للغازى تصرفه ، فقد أوقف كل الترهات والشعوذة التى تحط من شأننا وشأن ديننا كثيراً ، وحرم الزواج بغير واحدة وأباح للشاب انتقاء خطيبته وحتم على المرأة التعليم على قدم المساواة مع الرجل فما دخلت

مكتباً أو متجراً إلا وكان للنساء فيه عمل واضح وحتى فى الصلاة تقام الشعائر الدينية ، ويدخل الناس المساجد بالقبعات إن شاءوا خلعوها ووضعوها على الحمالات فى جوارهم ، وإن شاءوا أداروا أفاريزها إلى أقفيتهم وأدوا الصلاة مثبتاً بذلك أن الدين لا يحتم زياً خاصاً قد يقعد بتقدم الشعب حتى عن الحركة والنشاط ، وكنت كلما جلت فى البلدة وتفقدت مختلف نواحيها زادنى الاصلاح الذى يجرى بها سراعا دهشة وإعجابا . صعدت الربوة المشرفة على أنقرة حيث القلعة القديمة ونقبت فى أزقتها التى تضم طائفة من الأهلين فى أكواخ بائسة ، وكان يبدو على الناس الفقر وهم فى أسمالهم المهلهلة ، ولكنهم كانوا رغم ذلك فخورين بتركيتهم واستقلالهم ، وما فائدة الغنى فى الاسر والأغلال ؟ وكانت تتجلى من دوننا أنقرة الجديدة فى طرق فسيحة وقصور مشيدة بولغ فى تنسيقها وتضخيمها وبخاصة دور الحكومة ، والدولة آخذة فى إقامة العمارات فى كل مكان ، وفى تنسيق المتنزهات للشعب تفتح أبوابها دائما وتعزف فيها الموسيقات كل أصيل وبخاصة فى متنزه البرلمان الذى تزينه الأبنية وأحواض من الماء مدرجة صفت المقاعد حولها فكنت أرى الجماهير يغص بهم المكان ، والنساء سافرات يختلطن بالرجال فى رزانة وصمت وهدوء حتى كان يخيل إلى أنى فى مونت كارلو تماما .

والدولة تقصد بعزف الموسيقى هكذا أن تدرب آذان الناس على الأنغام الغربية فاذا طوحت ببصرك لمست اخلاص الدولة وتفانيها فى النهوض بكل شىء ، وكنت أتساءل من أين لهم تلك الأموال ونحن رغم توافر مواردنا لا نفى بالواجب ؟ حقا أن كل قرش هنالك يدخل خزانة الدولة ينفق فى التعمير والانشاء . ويزيد اعجابنا إذا علمنا أنهم ينفقون على جيش كبير بمعداته وطياراته وبواخره هذا إلى الهمة المدهشة التى يبذلونها فى ربط أطراف البلاد بسكة الحديد رغم تكاليفها الباهظة فى تلك البلاد الجبلية الوعرة ، فالخط إلى البحر الأسود مد إلى طربزون ، وفى شرق أنقرة يصل إلى أرضروم ،

وفى الجنوب وصل البحر الأبيض ، وفى الجنوب الشرقى وصل إلى نصيبين . كل هذا كان يدهشنى والحكومة فقيرة والنـــاس معوزون ولكن كفى بالاستقلال معينا على ذلك فغياب الأجنبى من المجال الاقتصادى أفسح المجال لأبناء البلاد فعدوا إلى التقدم سراعا ، وأنت لا ترى اليوم للأجنبى فى بلادهم من أثر قط .

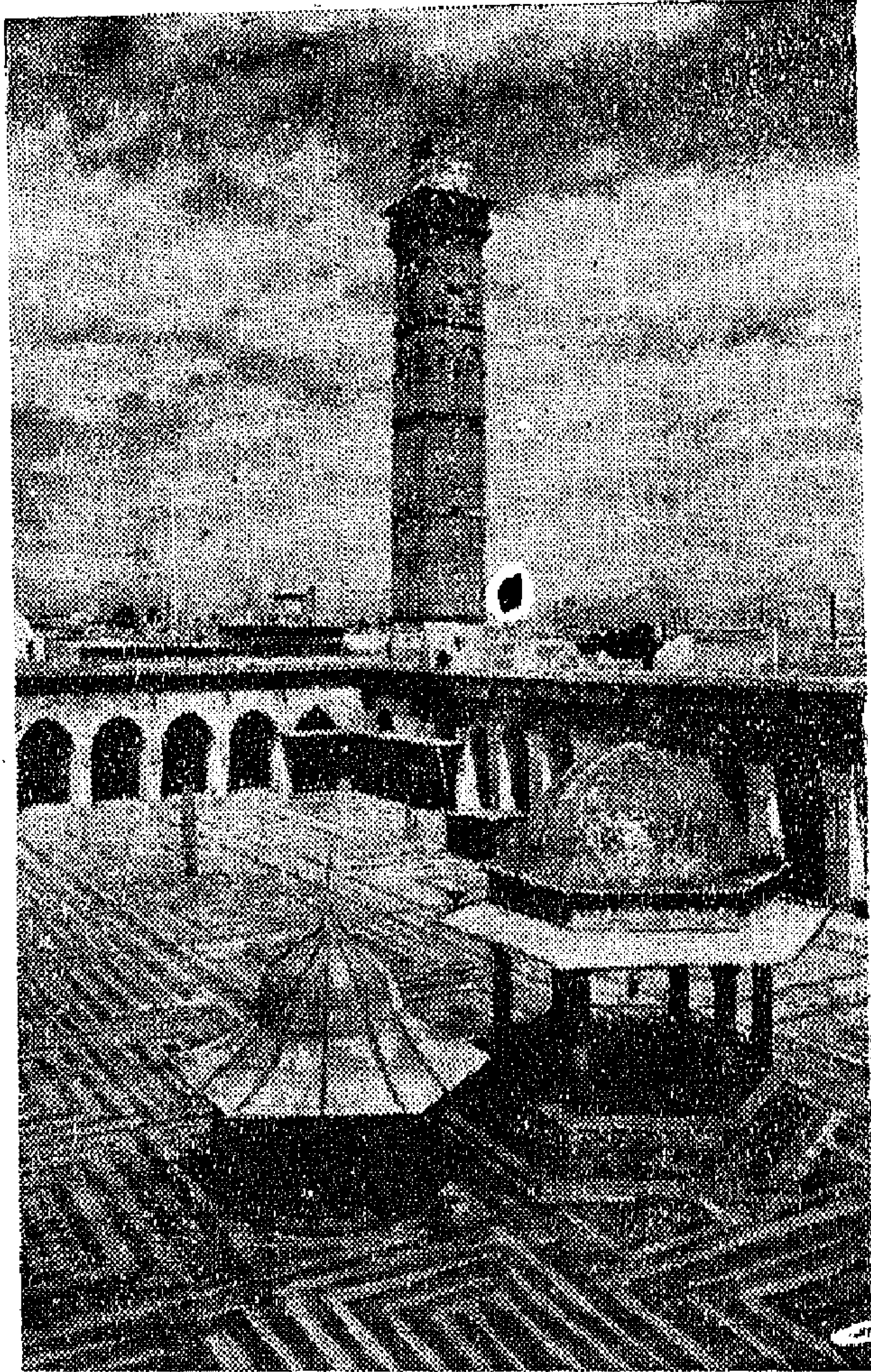
ونساء الأتراك رغم سفورهن بعيدات عن الخلاعة والاسراف فى التزين ، فهن يسرن فى وقار وهن فى نظرى لسن ساحرات فى الجمال ، والجمال الفاتن نادر بينهن فالشاميات أوفر جمالا ، كذلك تعوزهن الرشاقة ولم يقع نظرى على سيدة تحكى (كرمان هانم) ملكة الجمال لديهم ، ولذلك لم أعجب لانتخابها رغم أنها دون ذاك المقام فى ظننا ، لكنى أعود فأمتدح فيهن هذا الاتزان والوقار . فالتركية زوجة فاضلة لامحالة ، وكنت ألاحظ كثيرين منهن يلبسن ملاءات وفوق الرأس قناع أسود كالستار لكنه بدل أن يسدل على الوجه يرفع فوق الرأس فظننت أن هذا من أثر الرجعية الأولى .

وتكثر هنالك المقاهى والمقاصف ، وفى غالبها تسمع الحاكى بأنغامه التركية ، وأغانيها الشجية ، ويظهر أن الكثير منهم ميال إلى المسكرات ، وبخاصة (العرقى والزبيب) فما يكاد الليل يقبل حتى تراهم عاكفين على شربه ، ولا يخف قرع النرد ليلا ولانهاراً ، دخلت مرة مغنى تركياً شرقيا على نمط (ألف ليلة) فى مصر فكانت الآلات الموسيقية : الكمان والعود المعدنى والقانون يعرف بالمضارب لا بالأصابع ثم الرق والناى وأمام كل أولئك سيدتان فى حشامة ووقار ، وكانت الأغانى مقطوعات على نمط الموشحات تتقدمها الموسيقى الصامتة فى مقطوعات قصيرة مثل (اللونجا) ولم ألاحظ بينهم عادة التقاسيم الفردية من العود والكمان وغيرها ، أعقب ذلك فاصل آخر عرض فيه العازفون بعض الموسيقى الاسبانية فى شبه طنبور ومزمار طويل ودف ، وكان العازفون يلبسون أردية عجيبة من سراويل ضيقة (وجكتات) زرقاء ،

ورئيسهم فى معطف أخضر طويل ، وأمام أولئك صف من السيدات تغطى رؤوسهن نطقة بيضاء ، بدأوا العزف فى دور موسيقى صامت، ثم أعقبه مغنى حماسى ، ثم رقص اسبانى يصحبه تصفيق من الفتيات ، وصيحات من الرجال فيما يحكى (الرقص البلدى) عندنا ، فكان الطرب آخذاً منا كل مأخذ ، فقلت فى نفسى لم لايحاول معهد موسيقانا عرض مثل هاتيك الشرقيات ، فيعطينا فكرة عن موسيقى جيراننا : الأندلس ، والمغرب، والشام، والترك ، والعرب ، وهى أقرب إلى أسماعنا من موسيقى الغرب التى لاتروقنا كثيراً ؟

قصدت إلى مقر الغازى حيث قصره المنيف يشرف على ربوة حولها حدائقه ودونها حى (تشان كايا) الحديث فى طرقه الممدودة وقصوره الفاخرة، وهى مسكن الطبقات الارستقراطية ، ودور السفارات ومن بينها سفارتنا ، وكنت أعجب لاختيارهم أنقرة فى ذلك الموقع المجدب الجاف تحيط به الربى التى عريت عن النبت فى منظر غير جذاب ، على أن موقعها المتوسط من هضبة الأناضول وسهولة تحصينها بسبب ما يحوطها من ربى يبرر فى نظرى هذا الاختيار ، إذ لو أقيمت فى أطراف الدولة وهى أوفر خصباً لتعرضت لهجمات العدو ، والقوم مبالغون فى نشر المتنزهات ووسائل التجميل فى كل ناحية ، وترى أفراد الشعب يدخلون بدون قيد متنزهات دور الحكومة وقصور الغازى ، وكنت أرى ديمقراطيتهم بادية فى تجاور الفقراء بأسمالهم الرثة وهم الأغلبية إلى جانب الأغنياء ، وعناية القوم بأطفالهم زائدة ، فكنت أرى الأب المدقع فى ثيابه البالية يحمل طفله فى هندام نظيف ، ووجه أبيض ناصع لاتشوبه قذارة قط ، والرجال يعنون بأطفالهم ونسائهم فترى زوجة هذا الفقير فى أردية نظيفة ، فلا تكاد تصدق أنها زوج ذاك الصعلوك ، وأجمل مايروقك هندام الضباط من الجيش والبوليس ، مظهرهم مهيب فى ملابس أنيقة على نقيض الجنود ، فأرديتهم رديئة مهلهلة ، والغريب أن كل أولئك الأفراد ، على مظهرهم الرث ، يقرأون ويكتبون ، وقد علمت أن نسبة من يعرفون القراءة من عامة

الشعب ٨٩٪ بعد أن كانت لا تزيد على ١٠ ٪ من قبل ، وذلك بفضل الجهود الجبارة التى بذلها الغازى منذ افتتح المدارس الشعبية والليلية فى جميع



المسجد الجامع فى حلب بمئذنته المربعة

القرى ، وأجبر الأميين أن يحضروها إلى سن الستين ومن تخلف عوقب فهل هذه جهود سنوات عشر ؟ ونحن فى مصر الغنيـــة الموارد لبثنا فوق عشر سنوات فى نهضتنا ، ولم نستطع رفع نسبة القراءة إلا قليلا ؟ فهم لم يشترطوا للتدريس مكاناً كامل العدد ، والشئون الصحية كما نفعل ، ولم يحتم أن يكون المدرسون ممتازين فإن ذلك يصعب توافره فى البدء ، فالأمر الهام لديهم أن يصبح جميع الناس ممن يستطيعون القراءة ، أما المثل العليا فسبيلنا إليها لا يكون

إلا بعد محو الأمية كلها .

ويحرم القانون التركى الكتابة بغير الحروف اللاتينية وهى أسهل على الناس كثيراً من الحروف العربية كذلك الصلاة لا تكون إلا بالتركية فلا يقول المؤذن (الله أكبر) ، بل يصيح بمعناها التركى ، وقد ترجم القرآن وتلك الترجمة تدرس فى المدارس ، ولمن خالف ذلك وقرأ أو صلى بالعربية سجن ثلاث سنين .

والمعيشة فى أنقرة أغلى منها فى البلاد الأخرى ، لأنها تقع وسط إقليم جاف قليل الإنتاج ، وغالب حاجاتها ترد منقولة من الخارج ، أما الطعام التركى فشهى لذيذ يفوق كل ما تناولته من أطعمة فى البلدان التى زرتها فى جميع جولاتى ، وللترك شهرة قديمة فى الطهى ، على أن الغريب بينهم يصعب عليه التفاهم معهم . لأنهم لا يكادون يتكلمون سوى التركية وطالما تورطت فى مطاعم كانت تقدم إلى قوائم الطعام بالتركية ، والخدم لا يفهمون غيرها فكنت أتخير الأصناف مصادفة ، حدث مرة بعد أن كدت أفرغ من الطعام أن طلبت صنفاً كتب هكذا : Cirez Salaten فخيل إلى أنه خشاف فاكهة الكريز فجاءنى الغلام به دهشاً فنظرت وإذا به مجموعة من السردين والفجل والزيتون ، ومواخ أخرى لم أعرف اسمها ، فأكلته ايهاماً بأن أكل الحوامض عندنا فى آخر الطعام ، ثم تخلصت من الموقف بطلب القهوة ، أما فى النزل فكانت حيرة التفاهم أدهى وأمر ، وكل يوم كانت لنا فصول كلها كانت تزيد الموقف لذة وتفكهة .

والعاصمة الثانية للبلاد اسطنبول التى زرتها فى رحلة أخرى وأقبلت عليها من طريق البحر :

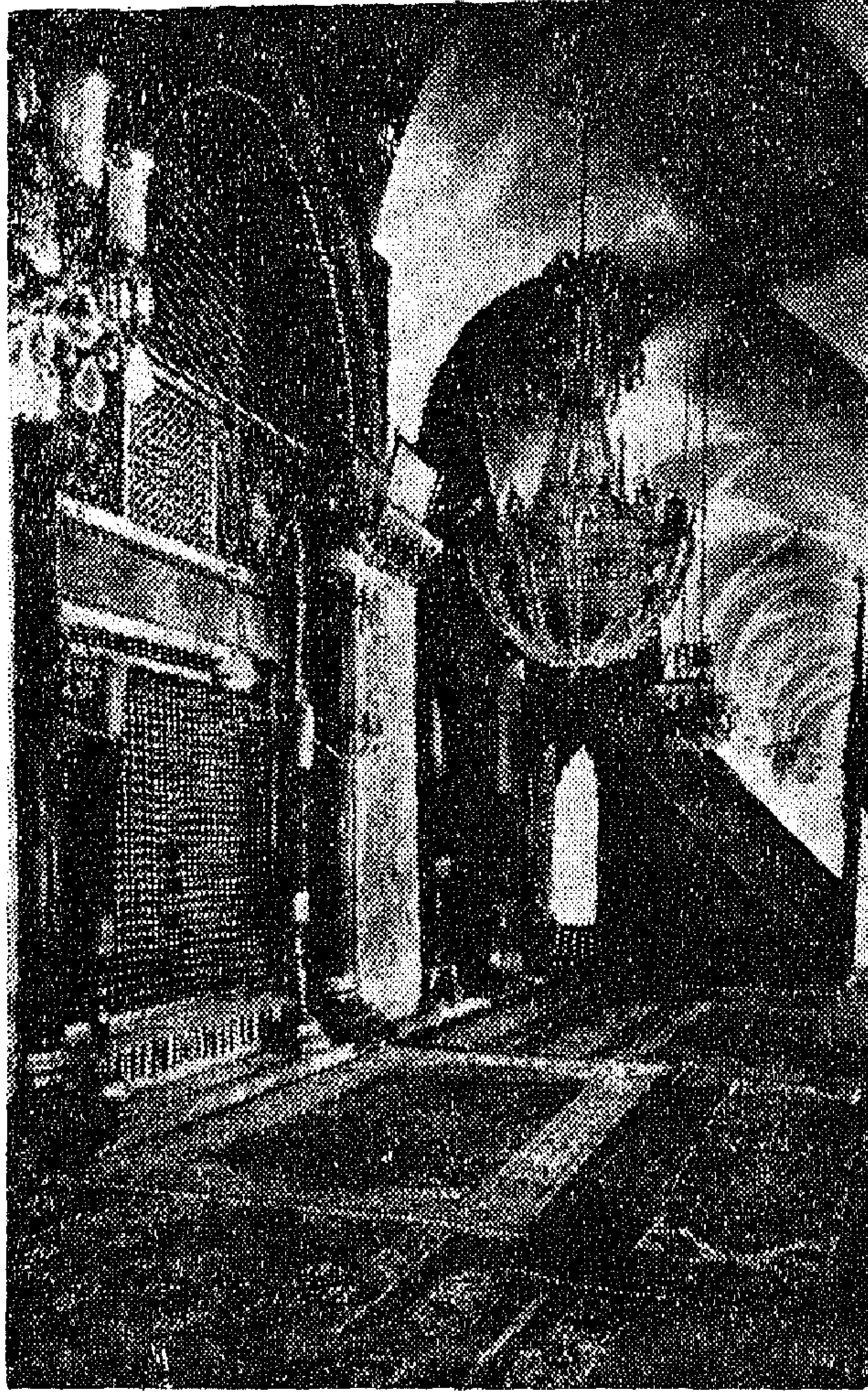
حين أصبحنا بين ربوتين ، هما مدخل الدردنيل ، عليهما أطلال حصون قديمة ، ومنارات مشرفة أذكرتنى بما كان لهذا الموقع المنيع من الجبروت إبان الحرب الكبرى ، وبعد انقضاء ساعة بين تلك الربى ظهرت على الجانبين

أبنية منسقة نظيفة، بينها مآذن لمساجد عدة ، وقد أقيم على شطوط كل منها حصن جبار ، وتسمى هذه البقعة (شنل قلعة) يقطنها عدد كبير من الأتراك ، وهنا جاء زورق مصلحة الصحة التركية للتفتيش الصحى ، ثم بدأ بعدها منعطف شديد إلى اليمين سلكته السفينة بين تلك الربى اللانهائية التى تكسو غالبها الأعشاب أو الأشجار ، وبخاصة على الجانب الأوروبى ، وفى المنخفضات يستنبت القوم القمح والشعير على المطر ، أما الشجر فغالبه من الزيتون القاتم ، وكان اتساع الدردنيل يختلف انفراجاً وانقباضاً ولبثنا نسير فيه ست ساعات كاملات ، بدأ بعدها على بعد منا بحر مرمرة ، وقد أخذت تنفرج سواحله وتنأى عنا ، بحيث لا تكاد ترى إلا فى طيف ضئيل ثم ظهرت أطراف البسفور الجنوبية على بعد فى شكل اهليلجى يرى مغلقاً ولا يستبين المرء له منفذاً ، وعلى جوانب القوس أقيمت المساكن ذوات السقف الحمراء مدرجة على جوانب المرتفعات ، وأخـــذنا نتبين مآذن المساجد الفخمة وقبابها وكلما قاربنا المكان زادت تفاصيله فى جمال رائع إلى يميننا جانب اسكدار الاسيوى وإلى يسارنا اسطنبول ، وبجانبها القرن الذهبى الذى تعبره قنطرة جالاتا . وتصل بين حى بيرا الأوروبى الحديث شمالا ، واسطنبول القديم جنوباً ، وتلك البلاد التى تكون فى مجموعها القسطنطينية مقامة على سبعة تلال تكون مثلثاً ، وهى فى الواقع قطعة من آسيا فصلتها عوامل الرفع التى أحدثت شقاً هو البسفور ، وقد صار طوله تسعة عشر ميلا وعرضه ميلان ، ويسير فى اتجاه من شمال الشمال الشرقى إلى جنوب الجنوب الغربى عمقه بين ٣٠ و ٢٠ متراً ، وبه تيار دافق من البحر الأسود غالبا بسرعة عقدتين ونصف فى الساعة إلا حيث يختنق جداً ، ويحدث دوامات مروعة ، ويعزى إلى الرياح الشمالية الشرقية السائدة

رست السفينة فى مدخل القرن الذهبى قرب قنطرة (جالاتا) ، ودخل البوليس لفرز جوازات السفر بدقة متعبـة ، والمسافرون الذين أغفلوا

التأشير على جوازاتهم لم يسمح لهم بالنزول إلى البر ساعة واحدة إلا بعد دفع رسم قدره جنيه مصرى ، حللت أرض المدينة الاوربية (بيرا) ولا بأس بمبانيها ونظافتها ، على أن طرقها ضيقة ترصف بالأحجار الصغيرة ، وتعلو آونة وتهبط أخرى ، وهى غاصة بالحركة التجارية والترام يتلوى فيها ليات مدهشة ، ويتسلق ربى ثم يهوى بانحدار مخيف مما يؤيد أن البلد مقام على تلال وبها حى كثير الملاهى اسمه (Taxim) ، تتعدد به المتنزهات والمقاهى ودور الموسيقى والغناء التى تحكى (ألف ليلة) عندنا ، وفيها نسمع أنغاماً شرقية جميلة (والعود) ، (والقانون) ، من الآلات الموسيقية الهامة لديهم ، ثم عبرت قنطرة جالاتا إلى اسطنبول ، الحى الشرقى البحت بأزقته المختلفة ، وحوانيته التى تحكى جهة (خان الخليلى والخيمية) عندنا وأجمل ما زرنا بها مساجدها الفاخرة المتعددة التى تشمخ بقبابها ومآذنها العديدة ، وفى مقدمتها : (مسجد أيا صوفيا) وهندسته تدل على أنه كان كنيسة لأنك ترى الصلبان بادية فى بعض نقوشه وفتحاته ، بل وفى مجموع شكله من الداخل ، ذاك الذى يعجز القلم عن وصف إبداعه الفنى ؛ وزخرفه الجذاب فى القبة الفخمة والأعمدة الشاهقة والفناء الرحب ، وأينما طوحت ببصرك ألفيت المخطوطات القرآنية صيغت بالذهب، وتعلق أطر مستديرة كبرى فى الأركان تحمل الأسماء الكريمة المقدسة ، ومن محتوياته القيمة مجموعة من عمد خضراء ، نقلت من معبد ديانا فى افيوس ، وأخرى حمراء ، جىء بها من معبد الشمس فى بعلبك ، وهناك سجادة تنسب للنبى صلعم ، ومهد المسيح وحوضه نقل من بيت لحم . وعمود يرشح منه الماء الذى يبرىء المرضى ، وفى أبهائه الخارجية عدة أسبلة عربية أنيقة ، وقد أقامه جستنيان سنة ٥٣٢ م ليكون كنيسة، ثم حوله الأتراك مسجداً بعد ذلك بنحو تسعمائة سنة ، وقد حوله أتاتورك متحفاً اليوم ، وأمامه ميدان فسيح يزينه من الجانب الآخر (مسجد السلطان احمد) بمآذنه الست الدقيقة وقبته الكبرى التى ترتكز على أربعة أعمدة تفوق فى ضخامتها عمد

الكرنك وتحتها أربع قباب نصفية تحت كل ثلاث صغيرة ، والنقوش هناك رائعة ، وغالبها بالقيشانى الأزرق الجميل . ولذلك يسمى بالجامع الأزرق



قبر سيدنا زكريا داخل المسجد الجامع فى حلب

أحيانا ، ويتقدم المسجد مسلتان إحداهما مصرية ؛ هذا وتقام كثير من مبانى المدينة بالخشب ، ولذلك كثيراً ما تشب النيران فيها فتحدث أضراراً جسيمة وقد حدا بهم هذا إلى إقامة برج شاهق على ربوة كان يقف فيها الحرس لتعرف مواضع النيران عند شبوبها ، أما الأتراك فيبدو عليهم النشاط جميعاً وتفيض نفوسهم بالحماسة الوطنية فالكل يتعصبون لقوميتهم إلى درجة الجنون لبسوا القبعات جميعاً وأسفر نساؤهم بحيث لا يفرقهم المرء عن سائر

الاوربيين ، والمحال التجارية تكتب عنواناتها بالتركية في حروفها اللاتينية الجديدة ، ولا يسمح لاحد أن يكتبها بغير لغة البلاد ، مظهر للقومية جميل لا نراه في مصر مع الاسف الشديد وكان الغازى مصطفى كمال يجوب الطرق في سيارة عادية من غير حراس وكان كلما تعرفه القوم على بعد هاجوا وصاحوا قائلين (الغازى الغازى) مهللين مبتهجين ، وهو محبوب منهم إلى حد التقديس ولقد بدا ذلك في الاحتفال الشعبي النادر بتشييع رفاته عند وفاته في الشهر الماضى ، على أن القوم يعوزهم المال على ما يظهر من الحالة الرثة لكثير من أبنائهم فهم لا يزالون يعانون من ألم ما عقبته الحرب من سيئات ومما يذكر لهم بالفخار جامعة اسطنبول في بنائها الفخم ونظمها التى ألفيناها تناظر أرقى جامعات أوربا .

قامت الباخرة تشق عباب القرن الذهبى ، وإلى يميننا مدخل مرمرة ، وأمامنا مدخل البسفور ، فكانت الطبيعة تتجلى في جمال فتان من ربى ووهاد تكسى بأشجار الفاكهة والزيتون في خضرة قاتمة . وفلات أقيمت على درج المنحدرات بسقفها الحمراء ، ومآذن المساجد تناطح السحاب ، وكان البسفور آونة ينقبض ويختنق ، وآنا ينفرج وينبسط في تعرج خفيف ، وعند كل اختناق أقيمت القلاع ، وقد بدا عليها القدم والتهدم . ولبثنا في تلك الجنة الخلابة عشرين ميلا ، وبيوت الاستانة تمتد على الجانبين الاوربى والاسيوى ، وألفت نظرنا القصر الشاهانى المشرف على الماء في الجانب الاوربى ، ومعسكر قيل إنه أكبر معسكرات الدنيا في الجانب الاسيوى ، والحق يقال أن هذا المنظر لا يعدله منظر في العالم أجمع ، فهو يفوق سويسرا وجبالها جمالا وروعة

كردستان والعراق

اعتزمت السفر إلى نصيبين فالموصل مخترقا بلاد كردستان ولم أكن قد بدلت نقودى ، فقمت مبكراً يوم الجمعة (١٤ يوليه) ، وإذا بالبلدة كلها مغلقة ذ هو يوم العطلة الاسبوعية ، وكنت أخاله من قبل يوم الأحد ، ولم أجد حتى صرافا ، فحرت فى أمرى واضطرنى ذلك أن أسافر فى الدرجة الثالثة ، حيث لم يكف ما كان معى من نقود ثمنا لتذكرة الدرجة الثانية ، والحكومة تحتم على الناس جميعاً أن يغلقوا متاجرهم كلها إظهارا لقوميتهم ، وحتى محال البدالة والفنادق كانت تغلق أبوابها وتعلق عليها الأعلام ، وفى الحق لم أتمالك أن أحترم الاتراك ، ففيهم وحشية الطورانيين ، تلك التى هذبها الاثر العربى والدين الاسلامى فالتركى فى أرضه عامل مجد صادق رزين شريف غير منافق متقشف يقطن أكواخاً فقيرة من طين ، ليس بها من وسائل الراحة شىء ، مظهره جدى مقطب ويكاد يكون فدائيا ، ورغم حكوماته السالفة التى كانت تستبد به ظل التركى ديمقراطيا فى مجتمعاته ، وبعيداً عن الاجرام كل البعد ، وأنت تراهم فى الطرقات يسيرون فى نظام وفى غير جلبة ولا ضحك ، ففى أخلاقهم شىء كبير من الخلق الانجليزى واليابانى ، وهم مؤدبون فى الحديث ، فبدل أن يقول لك الواحد عند لقائك مثلا : (مسرور بلقياك) يقول : (إن أسعد ساعات السعادة ساعة ألقاك فيها) .

قام بنا القطار ووقف على محطة الغازى حيث مزارعه الشاسعة ، فكان سيل المتريضين دافقا من كافة الطبقات ، فكنت أرى الفقراء المدقعين مسافرين إليها بعائلاتهم ليمضوا فى الخلاء وسط تلك المناظر الساحرة سحابة يومهم ، والغازى يشجع ذلك تشجيعا للديمقراطية وإصلاحا لصحة بنى قومه . بعد ذلك سار بنا القطار وسط تلك الهضاب الفقيرة التى لا يكاد يكسوها سوى العشب

القصير ، إلا فى بقاع نادرة ، كان بهـــا نبات القمح ، والشعير ، والطباق ، والافيون ، ومررنا ثانية بأسكي شهر وأفيون قره حصار وقونية ، وبعدها أوغلنا فى عقد الجبال ، وتحسن المنظر لما أن دخلنا عقد جبال طوروس بلياتها وانفاقها المدهشه ، ثم كساها الشجر ، وكانت بقع الثلج تكسو ذراها وتنزل منها مسايل الماء ، وقبيل آدنا بدا خانق كيلكيا المنيع الذى هزم الاتراك فيه الجيوش الفرنسية هزائم سجلت لهم بالفخار ، وكنا نشاهد الأخشاب التى تقطع من تلك الغابات توسق فى تلك المحاط ، وأخيراً وصلنا أدنا وبعدها (فوزى باشا) حيث غيرنا القطار صوب حلب ، ثم اخترقنا جبال (انتى طوروس) وهى أقل من جبال طوروس روعة . وفى حلب غيرنا القطار ثانية بعد أن مضى علينا ٤٨ ساعة من أنقرة وقمنا إلى نصيبين فدخلنا الحدود التركية كرة أخرى :

فى أرض كردستان : بعد أن قطعنا ثلث المسافة إلى نصيبين (مسافة ٤٠٠ ك م) دخلنا أرض كردستان فغابت الجبال إلا فى شبح فاتر عند الأفق الشمالى وهى الحافة الجنوبية لهضبة الأناضول ، وكانت السهول مهملة تكسوها أعشاب برية يابسة ، وعند بلدة اسمها جرابلس ، عبرنا نهراً باسمها عظيم الاتساع ، وإن كان ماؤه شحيحاً آسنا ، إذ هو موسم الجفاف هناك ، وكان الاقليم شبه صحراوى حره لافح ممض ، ولم نستطع شراء شىء من المرطبات على المحاط سوى القثاء ، والبطيخ ، وكدت أسمى تلك الجهة ببلاد (البراغيث) نسمع تلك الكلمة على لسان الجميع ، والبرغوث عملة البلاد الرئيسية ، وهو من بقايا النقود التركية القديمة ، لذلك كنا نراه ذائعاً فى شمال سوريا أيضاً ، وهنا تغيرت القرى فأضحت بالطين بدل الحجارة ، وكان المنظر شبيهاً بمصر فى انبساطه إلا فى عدم وجود شجرة به قط والناس هناك يتكلمون أربع لغات التركية (ثلثها عربى وثلثها فارسى وثلثها تركى) والكردية (غالبها فارسى) والأرمنية والعربية ، وفى باكورة الصباح وصلنا نصيبين أى بعد سبع عشرة

ساعة من حلب فإذا هي قرية كبيرة ليس بهـا ما يذكر سوى حصن قديم وفيهـا يقيم جيش الحدود التركي ، وفي ملاصقتها تماماً يقف جيش فرنسي لأن حدود سوريا تبدأ بعدها مباشرة ، والناس هناك خليط عجيب من الأرمن والكرد والعرب والشوام في أشكال قذرة ، ومظهر مخيف فكأنهم جميعاً من قطاع الطرق ، وكان يسترعي النظر الكردي بعيونه السوداء البراقة الواسعة ، وأنفه الأشم ، وقامته الطويلة ، وشعره الأسود الغزير ، ونساؤهم يلبسن خرقا مرقعة ، ويدلين من الصدغين خصلتين ثقيلتين طويلتين من الشعر ، وتربط الجبهة بمنديل ملون ، وكأنهن (الغجر) والبلاد يظهر عليها الفقر والجوع بشكل مخيف

إلى الموصل : قمنا بالسيارات مسافة (٢٠٥ ك م) قطعناها وسط سهول ممدودة إلى الآفاق ليس بها نتوء واحد تربتها سوداء يعوزها الماء ، وتزرع بقاع غلالا وأعشابا ، وفي نحو نصف المسافة دخلنا حدود العراق دون تغير في تلك المناظر المملة ، وكم كان يضايقنا في تلك البلاد كلها تشديد البوليس في مراقبة جوازات السفر ، ففي تلك المسافة فحصت ست مرات مما أشعرني باضطراب الأمن فيها ، وأخيراً بعد الجهد أقبلنا على :

الموصل : مثوى أبي تمام الطائي ، ومنها الطغرائي صاحب اللامية المشهورة وأبناء الأثير الثلاثة ، وكانت عاصمة بني حمدان ، ثم عاصمة الدولة الزنكية ، لذلك كنت أحسبها بلدة مشيدة جذابة ، فاذا بها مجموعة من أبنية تحكي أبنية القرون الوسطى ، كلها أقبية فطساء كالسجون ، والبلدة قذرة مهدمة ليس فيها حي واحد يمتدح ، فكأنها بلدة أثرية ، وحتى نهر دجلة التي تقع عليه تراه قذراً منتنا وتطل عليه البيوت القديمة في غير نظام ، وأسواقها أحجار صغيرة ، وأنت أينما سرت اشمأزت نفسك من الروائح الكريهة التي تنبعث من كل مكان ، وزاد الطين بلة جوها اللافح المحرق ، فأنت لا تكاد تبصر من كثرة الدخان والتراب الذي يخيم في هوائها ، ويحرج الصدر ، ولقد أذكرتني

بهجير بلاد الهند ، وعلى ضفاف دجلة يلقى القوم قاماتهم وأقذارهم ، وترى جميع النساء يغسلن ثيابهن ، وبيد كل مطرقة لدق الثياب، والبلدة غاصة بالمقاهى الوطيئة ، ترى الناس قعوداً بها كأنهم الذباب ، والمساكن كأنها الجب تنظر فترى أهلها نياما على الأرض داخل ذاك الظلام فى خمول منكر، وهناك معبر لدجلة بقنطرة تحملها الزوارق وتكملها قنطرة من حجارة إذا طما الماء مرخلال عيونها ، وقد كان النهر إبان جزره إذ لا يفيض بالماء إلا فى الشتاء .

وأهل البلدة أخلاط من أجناس لا عدّ لها من بينهم الأكراد بأرديتهم الفضفاضة يحملون أسلحتهم معهم دائما ، واليزيديون فى مظهرهم الوحشى بقمصانهم الحمراء الغريبة ، والأشوريون من الجبال وسحنهم تدل على أنهم من قطاع الطرق ، والكلدانيون فى سراويلهم ، وقد وفدوا من القرى المسيحية ، والبدو بوجوههم التى كادت تحرقها الشمس وكثير غير أولئك . والعراقيون قوم نحاف طوال القامات ، أنوفهم منقارية سامية كأنوف اليهود ، ويلبسون اليوم فوق رءوسهم (الفيصلية) فى ألوان مختلفة وشكل مضحك يذكر المرء بعرف الديك ولا أرى فيها وقاية من شمس أو مطر ، أما المحافظون فيلبسون العقال ، ونساؤهم أكثر رشاقة من التركيات ، وأعجب شىء فى هندامهن المعطف الخارجى (العبا) ؛ فهو كالعباءة من الحرير الأسود يرسل من فوق الرأس ، فيرفرف فى حرير مهفهف فضفاض وشكل أنيق .

والبلاد رخيصـــــة ، فالفندق الكبير لم يزد أجره على عشرة قروش ، ووجبة الطعام الفاخرة كذلك ، غير أن الطهى هناك دونه فى تركيا بكثير ، وأساس نقودهم (الفلس) ، والدينار يساوى ألف فلس ، وهو يعادل جنيها انجليزيا ، وأنت لا تكاد تسمع من القوم إلا حديث (الفلوس) . فكأنى قد انتقلت من بلاد (البرغوث) إلى بلاد (الفلس) ، وهم يعطون صنوف الطعام أسماء غريبة لا نفهمها . فالبطيخ مثلا يسمونه (شمزى) .

والموصل محرومة من السكة الحديدية ، مع أنها كانت فى الزمن الغابر

أكبر مركز تجارى وصناعى ، وكانت تتوافر بها الغلال ، وكانت تقع على الطريق التجارى الهام بين حلب وبغداد إلى الشرق ، وفى زمن العباسيين



عصمت اينونو خليفة أتاتورك ورئيس الجمهورية التركية

كانت تشتهر بنسيج من القطن الناعم سمى (موسلين) ، أو (موصلى) وهو لا يزال يحمل هذا الاسم فى الدنيا رغم أنها لا تصنع منه شيئاً اليوم ، وحولها منطقة عظيمة الخصب ، وتجاورها منابع البترول ، كل ذلك يجعل الزائر يدهش لعدم وصلها بسكة الحديد ، وحول المدينة بقايا سور زرنا منه جزءاً ، بجانبه مدفن المؤرخ العربى (ابن الأثير) ولم تكن الموصل منطقة صالحة للسكنى فى الحرب الكبرى ، إذ داهمتها التيفوس والطاعون الذى دفع بالسكان هناك أن

يأكلوا اللحم الآدمى وكان يباع خفية ، وقد ضبط بعضهم وشنق فى الميدان الرئيسى ؛ ولعل أحسن ما يزار فيها المسجد الكبير الذى زاره ابن بطوطة فى رحلته وكتب عنه .

نينوى : أقلتنى من الموصل (عربانه) إلى نينوى فى مواجهة الموصل من الضفة الأخرى لدجلة ، وفى نحو ثلث ساعة بدت كومة كبيرة من الثرى والطين المتماسك فى ارتفاع كبير . تسلقتها فتجلت الموصل على بعد وراء النهر فى مشهد جميل بمآذنها العديدة ، أما ذاك الطلل فلم أر به إلا سراديب ومغائر لم تنم عن شىء من العظمة البائدة .

نزلت من ذاك التل الخرب صوب تل آخر يقع إلى جنوبه بقليل ويسمونه (النبى يونس) وهو أيضاً من بقايا ضواحى نينوى ولم يتعرض للتنقيب فيه أحد لأن رفات النبى يونس الذى ابتلعه الحوت تدفن فوقه فى مسجد ذى مئذنة مشرفة دقيقة ، وفى داخل الحجرة الوسطى رأيت قطعة من سمكة كبيرة من ذوات السيف ، يقول القوم عنها أنها السمكة التى ابتلعت يونس عليه السلام ، وقد استرعت نظرى البسط الثمينة التى يفرش بها المسجد والضريح ، وقد أهداها إليه سلاطين آل عثمان : ويقول البعض إن ذاك المدفن لايحوى عظام سيدنا يونس بل عظام قديس مسيحى كان يقوم حوله دير قديم ! وفى جوانب ذاك التل عثر بعض علماء الألمان على المكتبة الملكية لنينوى فى الألواح الطينية التى بحثت فى مختلف العلوم التى نقلها ملوكهم ، وبخاصة (أشور بانيبال) من مختلف بلدان العالم ونقشها على الطين كتاب إخصائيون بالخط المسمارى ، ومن أشهر ما ترجم منها قصة الطوفان ، والبطل (جالجاميش)

الى كركوك ومنابع البترول : قمت مسرعاً من الموصل تلك البلدة التى استقبلنا جوها اللافح أسوأ استقبال ، ولم تترك البلدة فى ذاكرتى فضيلة أذكرها بها ، اللهم إلا كرم أهلها ، والعراقيون قوم كرام بحق ، فقد

جمعوا بين كرم الخصب الزراعى وكرم عرب البادية ، حدث أنى كنت أتناول الغذاء فى أحد مطاعم الموصل ، وكان يجلس قبالتى عراقى . فجرتنا مناسبة شدة الحر إلى طرف من الحديث ، وما كدت أستأذن بعد انتهاء الطعام حتى قال لى : تمهل حتى تتناول البوظة (أى الدندرمة) ، وكان قد طلبها لى ودفع ثمنها ، وحاولت الاعتذار فأبى علىّ ذلك ، وقد كان يزاملنى فى السيارة إلى كركوك طائفة منهم كانوا كلما وقفنا نستريح فى فندق على الطريق — وقد فعلنا ذلك مرات — ألزمونى بشرب الشاى وأكل المرطبات على حسابهم ، ولم أستطع دفع شىء قط . قمت إلى كركوك فى سيارات للبريد منتظمة تقوم يومياً فى الصباح مقابل ثلاثين قرشاً ، فاخترقنا دجلة ، ومررنا بمتنزه كبير . أقامته البلدية ترويحاً للنفس ، وهو فسيح ، لكنه فى غير تشذيب ، ثم أوغلنا فى أرض سوداء مبسوطة إلى الآفاق . ليس بها شجرة واحدة ، ويبدو عليها الخصب على أنها لا تزرع إلا على أمطار الشتاء فقط ، ثم عرجنا إلى يميننا على نمروذ وهى إحدى مدن الآشوريين التى قامت قبل بناء نينوى كمقر للحكم .

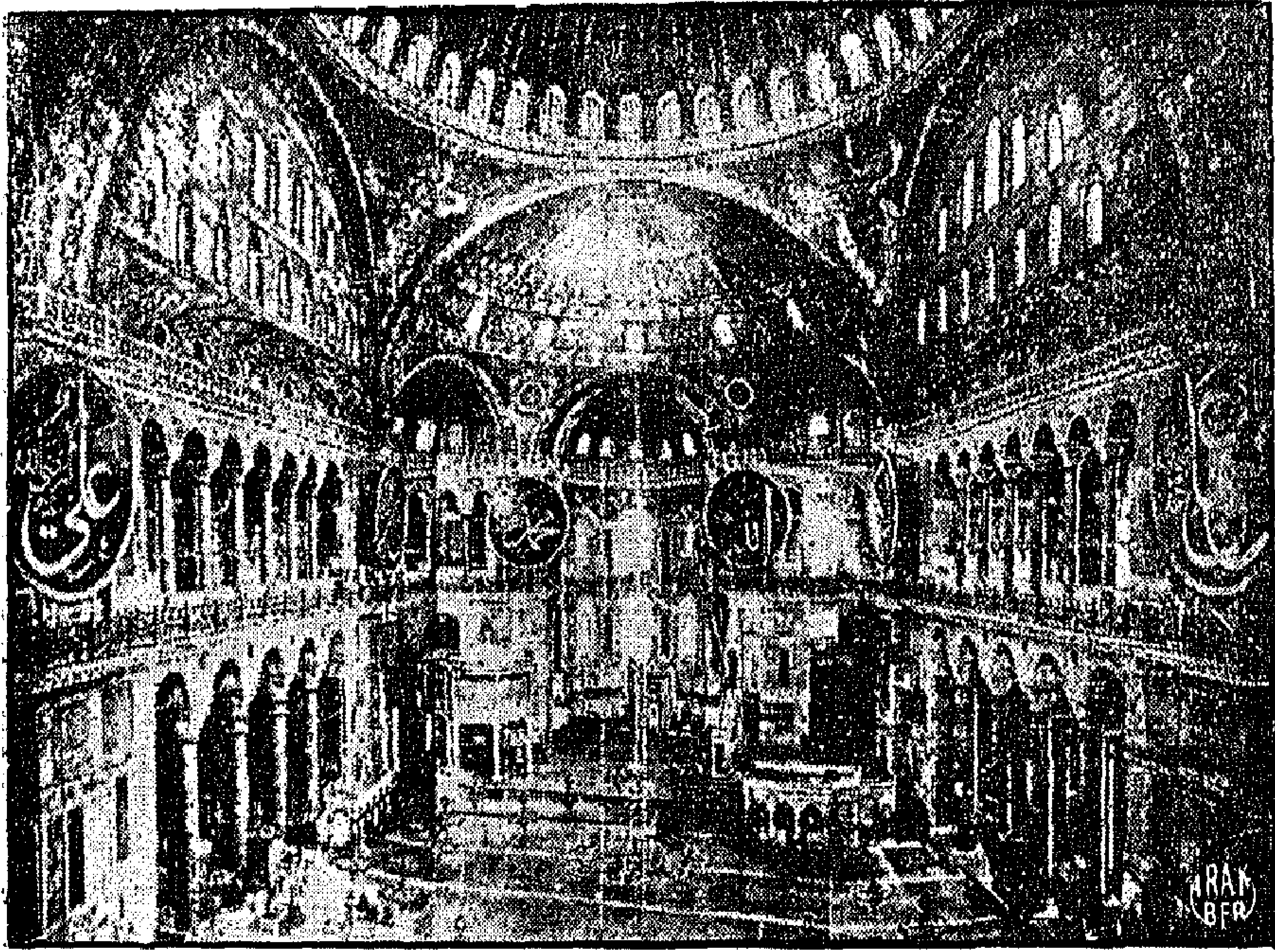
وجزنا فى طريقنا عدة أخوار جافة ، ثم عبرنا نهر الذاب الأكبر عند قرية (جوير) وهو أحد روافد دجلة تياره سريع ، وماؤه صافى الزرقة ، وكانت القرى صغيرة ، بيوتها بالطين وسقوفها منحدرة لأن مطر الشتاء كثير عندهم ، ثم عبرنا نهر الذاب الأصغر ولم نعرج بينهما على أربل التى انتصر فيها الإسكندر على دارا الثالث سنة ٣٣١ ق م ، وكانت على مقربة منا ، وكان جل الناس من الأكراد والعرب والعراقيين يتكلمون التركية والعربية والكردية ، وبعد أن قطعنا نحو مائة وسبعين كيلومتراً فى خمس ساعات دخلنا :

كركوك : فبدت على صغرها أجمل من الموصل وأعدل جوا ، بها قسم جديد لا بأس بتنسيقه ، أما المقاهى والفنادق فأقبية تحكى تلك التى فى الموصل ، وكنت أعجب لعدم سماعى العربية إلا قليلا ، فالسواد الأعظم

حتى من الأطفال يتحدثون بالتركية أولا والكردية ثانيا فهاتان اللهجتان تكادان تكتسحان العربية ، وغالب الناس مسلمون لكنهم فى جهل عميق ، وسذاجة بادية ، وتعوز جسومهم النظافة ، وهندامهم التنسيق ، والتوحيد .

أقلتنى (عربانه) إلى بابا جرجر ، حيث توجد آبار البترول الشهيرة فوصلتها فى نصف ساعة ، وهناك بدت ميادين البترول فى سهول ممدودة إلى الآفاق يكاد ينز البترول الأسود من كل أرجائها ، وقد حفرت الشركة — وهى انجليزية فرنسية ألمانية — ٣٦ عيناً أقامت على كل شباك الحديد (والفناطيس) والسيارات ، والمضخات ، وكلها تتصل بأنابيب ترى ملقاة على الأرض ، وكأنها الشباك تجمع البترول فى المركز الرئيسى ، حيث يكرر تكريراً جزئياً ويدفع بمضخات فى أنابيب تمتد إلى ثغر بيروت . وفى كثير من الحفائر كنا نرى سيل البترول الأسود الفاحم يتدفق ويسيل مختلطاً بالماء ، وهذا يخول لمن أراد أن يملأ صفائحه منه ، وهو يستخدم فى الرصف ، وفى بعض البؤرات وبخاصة المسماة (بابا جرجر) — ومعناها أرض النار — يشتعل لهيب من مسارب وفوهات فى الأرض ، ويظل متقداً صباح مساء ، وأنت إذا حفرت بؤرة وأشعلت بها عوداً من ثقاب ظلت الأرض ملتهبة باستمرار مما يشعر بغنى الأرض المفرط فى الزيت ، وفى مناطق الآبار نفسها يحرم القانون إشعال النار أو التدخين ، وقد وقفت وسط هذه الفوهة الكبرى وكأنها كأس لبركان متأجج ، وكانت ألسنة اللهيب مندلعة من حولها وصخر الاقليم يبدو كالطفل المصفر تشوبه حمرة ونواتى الصخر خليط من الجير والخرسان ، وأينما حفرت ظهر نز الزيت ، والعيون المفتحة التى يخرج منها القار لا تدخل تحت حصر ، وقد كان للأتراك نصيب فيه ، لكنهم باعوه للشركة الحالية ، والشركة قد وضعت الطرق ومدتها هناك أميالا ، وأقامت المبانى على الربى للسكنى ومكاتب الادارة ويدلك على مبلغ عظم إنتاج هذه المنطقة أن الشركة قد أنفقت ملايين الجنيهات على أعمال التحسين والاستثمار .

إلى بغداد : قام بنا القطار إلى بغداد مسافة ٣٢٥ ك م فى عشر ساعات وسط سهول نصف مهملة منظرها موحد ممل ليس به شجر ، وكانت القرى



النقوش البديعة داخل مسجد أيا صوفيا وقد أضحى اليوم متحفا فى اسطنبول

شبيهة بقرى صعيد مصر ، وبعد نصف الطريق عبرنا رافداً كبيراً لدجلة اسمه (ديالا) بعده زادت المزارع والنخيل ، وكثرت القرى فحاكى المنظر بلادنا إلا فى ندرة القنوات ، وأخيراً أقبلنا على بغداد من مورد متهدم مترب منفرد فكنا كأنا ندخل قرية صغيرة ووقفنا قليلا على محطة (بغداد شرق) ، ثم نزلنا فى (بغداد غرب) فكانت منى خيبة أمل لأنى كنت أخال بغداد رائعة المناظر ، طلية البنيان ، تليق بعاصمة دولة ناهضة ذات ماض مجيد . نقلتنى عربة واخترقنا الشارع الوحيد فيها ، وهو شارع الرشيد الذى يقطع البلدة من طرف إلى طرف وبه كثير من المتاجر ودور الملاهى والمقاهى ، مبانيه قديمة وفى غير انسجام ، ولا تكاد الأبنية تعلو طبقتين وتمتد على جانبيه الأعمدة على نحو ما نراه فى شارع محمد على بمصر ، وفى جانب منه وقف بى السائق أمام (نزل هلال) ، وما كاد يستوى بى المجلس ويخيم الليل حتى كان الفناء

الرئيسى للفندق ، وهو الذى تشرف عليه كل الحجرات مكانا للغناء والموسيقى والرقص مما أذكرنى برفه بغداد إبان عزها البائد ، فرجال الفكر فى ألف ليلة ، وما روى لنا من أعاجيب ؛ نزلت فاذا المكان غاص بالمستمعين المترنحين ، الذين لعبت الخمر بعقولهم ، ثم خرجت إلى الطريق ؛ فاذا سيول من الناس فى لهو ومجون رغم أن هندامهم الشرقى العربى يتنافر مع كل أولئك ، وفى الصباح تفقدت كثيراً من نواحيها ، فلم يرقنى بها شىء كثير سوى جسورها التى تعبر دجلة وتصل ما بين الرصافة فى الشرق ، والكرخ فى الغرب ، وتلك الجسور تقام كلها على الزوارق ، فتراها تهتز صعوداً وهبوطا مع مد المـاء وجزره ، وأهمها جسر (مود) ؛ على اسم القائد الانجليزى ، وهو أحدث الجسور جميعاً يصل ما بين أزحم جهات المدينة ، ويؤدى فى الجانب الغربى إلى قسم جديد به المتنزهات والمقاهى ودور الملاهى ، ويتوسطه طريق فسيح به تمثال للملك فيصل يمتطى جواداً وهو فى زى عربى بالعقال ، وعند الأصيل يدهش المرء لسيل المارة الدافق فوق القنطرة ، وجماهيرهم المتلاصقة الأكتاف من نساء ورجال ، يروحون ويغدون فى نشاط وحركة كأن البلدة فى يوم عيد ، هنا يعتقد المرء أن الشعب العراقى مرح ميال إلى الرفه والمجون بشكل يفوق كل وصف ، وقد استرعى نظرى جمال السيدات ورشاقتهن يسير السافرات منهن — وغالبهن من اليهود — فى هندام أنيق عليهن المعاطف المهفهفة تتدلى من فوق الرءوس وكأنهن يفاخرن بإزارهن هذا فهو لا يقل ثمنا عن عشرة جنيهات ، وللأغنياء بأضعاف ذلك ، والمسلمات يسمونه (العبا) ويلبسه حتى صغار البنات ، وهو من حرير ينسج على اليد وبعضه تتخلله خيوط الذهب ويلفت النظر فى نساء العراق شعورهن المرسلة الغزيرة التى تزيدهن جمالا ، ويقولون إن الحناء التى يغسلون بها الرأس عند الاستحمام هى سبب ذلك ، ولعل نقطة الضعف فى جمال النساء طول الأنوف ودقتها ، ويندر أن ترى بينهم القامات الطويلة والأجسام الممتلئة السمينة بين كلا الجنسين ، على أن منطقهم جميعا منفر غير موسيقى .

وفى المدينة مجموعة من مساجد على الطراز الفارسى بمناراتهـا الدقيقة والقباب التى يكسوها القيشانى الأزرق . وقد بدأت زيارتى بمسجدالأعظمية وفيه يدفن الامام الأعظم أبو حنيفة شيخ المشرعين ، وكان مولده سنة ٨٠ ووفاته سنة ١٥٠ ه ، والضريح تحيطه شباك الفضة الثقيلة ، وفى أطرافها زينة فى شبه حراب ذهبية ، وقد كتب حولها بالفضة كثير من آى الذكر ، والحكم المأثورة والقبة يغشاها القيشانى من داخلها ، والنحاس الأصـفر البراق من خارجها ، وقد جدد طلاؤه بأمر صاحب الجلالة الملك السنى فيصل الأول ، وفيه دفنت رفاته بعد زيارتى بأيام قليلة ، ولم يكن بالمسجد منذ زيارتى أحد سوى خدامه . بعد ذلك عبرت النهر إلى الضفة الغربية صوب الكاظمية وهى بلدة عتيقة يقدسونها لأن بها مدفن الأمام موسى الكاظم من قادة الشيعة ، والمسجد فاخر يأخذ بالألباب أقامه نادر شـاه من ملوك فارس ، وزاد فيه سلاطين الفرس بعده ، وقد أمر أحدهم بعد زيارته للحرم أن تـكسى مناراته بطبقة من ذهب خالص ، ثم زاد فيه الترك بعد ذلك ، وفيه جانب أقامه سليم الأول ، والمدفن تعلوه قبتان وتحوطه أربع منارات بريق الذهب الأصفر الذى يكسوها جميعا يخطف الابصار وحول القباب فنـاء مفتوح تحوطه البوائك التى يزينها القياشنى ، وتحتهـا غرف للطلاب والزهاد ، وأنت ترى الاركان والزوايا والاقبية معقدة ترصع بقطع المرايا ، وتحوط الضريح شباك الفضة الثقيلة ، وما كدت أدخل الباب حتى أسرع إلى رهط النقباء المشعوذين بأرديتهم المميزة : طربوش عليه نصف عمامة خضراء ، وعباءة سوداء فتسلمنى واحد منهم بالقوة . وأخذ يصيح صيحات ويقرأ تعاويذ وعبـارات توسل وطاف بى وهو يأمرنى أن أقول أدعية خاصة وراءه ، ولما كنا أمام باب الضريح قال : اركع وقبل الأعتاب فأبيت ، وقلت : كفى فقد قرأت الفاتحة . أما سيل الناس فى داخله فحدث عنه هذا يقبل ، وذاك يمسح ، وتلك تصيح ، وأخرى تبكى فى مشهد رهيب . هنا بدت لى ترهات البسطاء ومدى سيطرة

الخزافات عليهم وأغلبية البلاد من الشيعة ومن السذج ، غير مثقفى العقول ، وكم من أناث يحضرن إلى الضريح ؛ ويلقين فيه من الحلى والجواهر ، وقد حدث مرة أن ضحكت سيدة وهى داخلة ، فأعقب ذلك أن سقط ازارها واعتراها دوار ، خرت من أثره على يديها ، ولم تسطع الخروج إلا على أربع كأنها الكلبة المهينة ، كذلك قيل إن اللصوص إذا أحضروا إلى المقام وجب أن يعترفوا وإلا التصق بدنهم بالجدران فلم يستطيعوا الحراك !

ومما راقنى فى بغداد أسواقها الضيقة الملتوية ، يعلوها سقف منحدر تقوم تحته المتاجر وأغلبها فى أيدى اليهود والأرمن ، وجماهير المارة متلاصقة مائجة طيلة اليوم والمقاهى (البلدية) فى كل مكان تجلس فيسرع صاحبها بتقديم قطرات من القهوة السادة فى (فنجال بيشة) تحية للقدوم ولا بد أن يقدمها صاحب المقهى بنفسه زيادة فى الترحيب ويكرر ذلك بين آن وآخر، وبغداد كلها فيما عدا شارع الرشيد الوحيـــد أزقة نظيفة أرضها مرصوفة يتوسطها مجرى صغير لصرف المياه ، وتكاد الشرفات (المشربيات) المتقابلة تتلاصق فتحجب الطريق عن الشمس والنور ، والبيوت جلها فى هندسة شرقية ذات فناء سماوى تطل عليه نواحى البيت الأخرى ، ويتوسطه حوض الماء ، وأبواب البيوت مثقلة بالحديد والنحاس كأنها أبواب القلاع فى نظام شرقى بحت ، هنا ذكرت المجتمع عهد أبى جعفر المنصور وهرون الرشيد ؛ فلقد بناها المنصور ووضع أو لبنة بيـــده سنة ١٤٠ ه بغضاً بأهل الكوفة وتجافياً عن جوارهم . وكان ثلثها على الضفة اليمنى لدجلة ويسمى الكرخ والثلثان على اليسرى ويسمى الرصافة ، وقد أطلت البحث عن أثر يرجع إلى ذاك العهد فلم أجد إلا حائطاً مطلا على دجلة على مقربة من الجسر القديم نقش عليه : بنى فى عهد أبى جعفر المنصور . بالخط الكبير ، وكان معهداً علمياً يسمى المستنصرية لكنه اتخذ اليوم مكاناً للجمرك رغم أنه جدير بالرعاية والحفظ لأنه الوحيد من نوعه « وهناك بقية للسور القديم وحولها

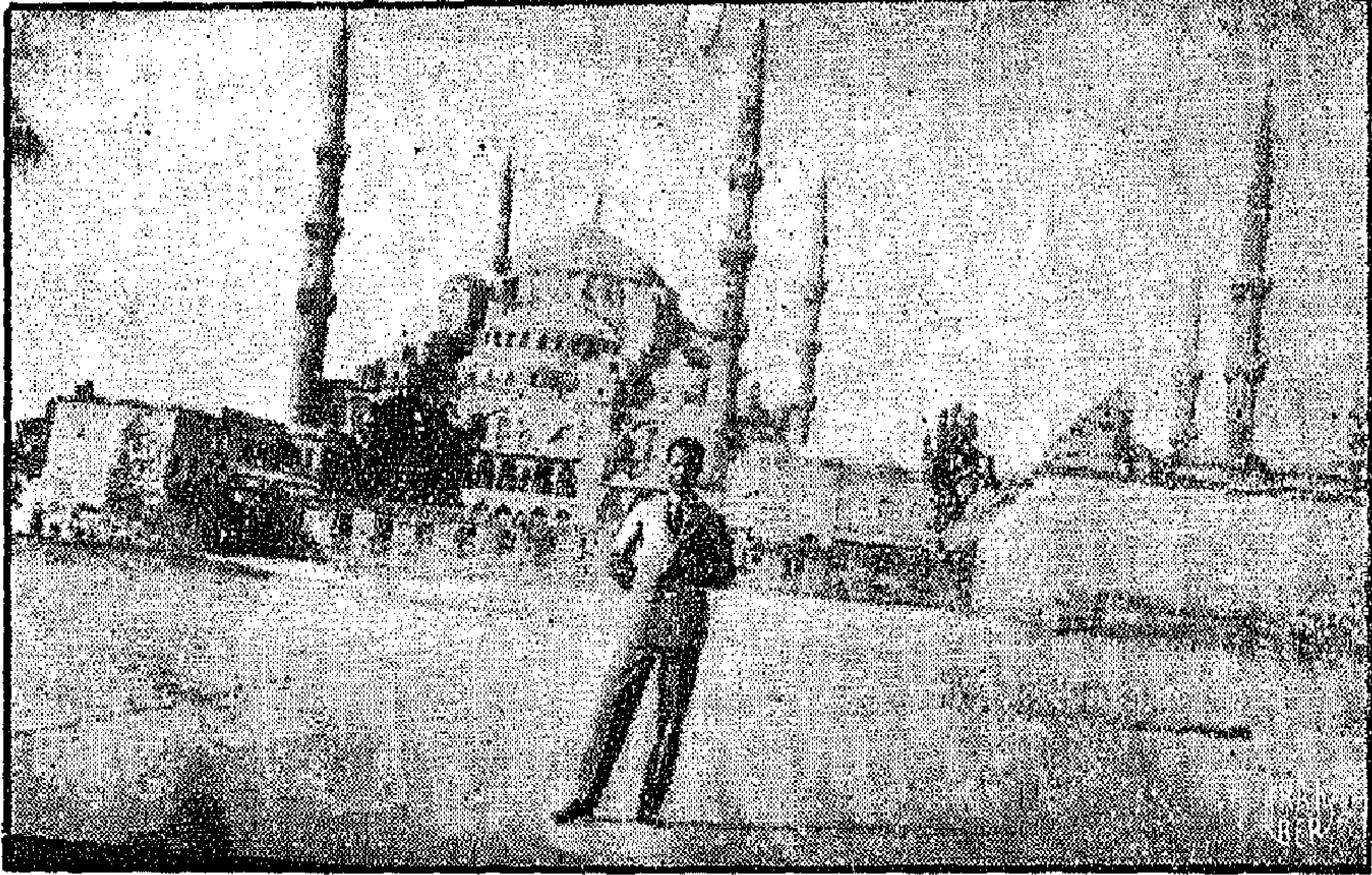
أقيمت دور الحكومة ، وقصر الملك يطل على ماء دجلة فى تواضع كبير ، ومن المساجد القديمة تبق مئذنة متهدمة . ذلك كل ما تخلف من عصر العظمة الأولى . وقفت أسائل نفسى عن الزوراء ودار السلام بلد المنصور والرشيد الذى أنفق عليها أبو جعفر فوق أربعة ملايين دينار وطوقها بسورين ، وكانت أبواب السور الداخلى مزورة ، ومن هنا سميت المدينة الزوراء ، وفى عهد الرشيد أقام سراة القوم الجانب الشرقى قصوراً فاخرة وأسموه الرصافة وأصبح الحى الارستقراطى الحديث ، وقد بلغ سكان بغداد إذ ذاك مليوناً ونصفاً . وكان الترف آخذاً كل مأخذ فكان الرشيد ينفق على طعامه كل يوم عشرة الاف درهم . وعلى السماط ثلاثون صنفاً من الطعام تقدم فى أوانى الذهب والفضة ، وقد أقام وليمة لزبيدة كلفها خمسة وخمسين مليون درهم وكان يقدم للناس أطباق الذهب تملأ بالنقود الفضية وأطباق الفضة تملأ ذهباً وقد أثقل زبيدة بالحلى حتى أنها لم تستطع النهوض والسير خطوة ، ولقد كانت زبيدة مسرفة ، من ذلك أنها صنعت بساطاً من الديباج جمع صورة كل حيوان وكل طائر : الأجسام بنسيج الذهب والعيون باليواقيت والجواهر ، وقد كلفها مليون دينار ، وكان ثمن الواحد خمسين ألف دينار . هنا ذكرت أيضاً البرامكة وما وصلوا من رفه وسلطان فقد كانوا أكثر ترفا . مجالس الترف فى دورهم كل ليلة . والراقصات من الغوانى أمثال (فوز وفريدة ومنة) لا يغبن عن تلك المجالس . وقد كانت تعرض الغانيات من كافة جهات الدنيا للبيع فى سوق النخاسين . وكان الدلال ينادى ويصف الجوارى ويعدد فى جمالهن ومحاسنهن فساق الله عليهم زبيدة . وقد أسلم الرشيد لها كل شىء حتى مالية البلاد فاخذت تنفق عن سعة واسراف فاحصوا لها أنها انفقت وحدها ثلاثين مليون دينار . وبنت مسجداً على دجلة باسمها . وأنشأت عين زبيدة فى الحجاز واوصلت ماءها إلى مكة وكلفتها مليون دينار . ولقد بلغت موارد بيت المال فى عهدها خمسمائة مليون

درهم من فضة وعشرة ملايين دينار ذهبا . وهى اوفر ما حصل فى دول الاسلام جميعا . ولما مات ابو جعفر قال للمهدى فى وصيته : انه خلف له من الأموال ما إن كسر عليه الخراج عشر سنوات كفاه لأرزاق الجند ومصلحة البعوث وغيرها !

وقفت أتلمس من كل هذا بقية ، لكن يد الزمان قد أتت على كل أولئك لكثرة من أغار على بغداد ، وأعمل فيها حرقاً وتدميراً ، نخص هولاكو التتارى الذى اجتاحها فى القرن الثالث عشر ، وأحرقها وسلب قصورها . ورمى بذخائر مكتباتها فى دجلة ، وهدم قناطرها التى ظلت من قبل آلاف السنين تنشر الخصب وتروى المساحات الشاسعة فاستحالت تلك السهول اليوم إلى قفار مهملة أو مناقع يربى بها البعوض والملاريا ، وبعد هذا العهد قامت بغداد ثانيـــة على الأنقاض الأولى وماكادت تظهر حتى فاجأها تيمورلنك الأعرج فى القرن الرابع عشر وتركها أطلالا ، وفى ١٥٢٤ دمرها للمرة الثالثة الشاه اسماعيل ، وكذلك فعل الشاه عباس فى القرن الرابع عشر ، وفى سنة ١٦٣٨ أخذها مراد الرابع التركى من الفرس ، وبدأت تنشأ من جديد . إلى ذلك فكم قاست من هجمات فيض دجلة الذى طالما اجتاحها بأكملها . وفى سنة ١٨٦٠ جاء مدحت باشا حاكم بغداد ؛ فهدم سورها ، وباع أنقاضه الهائلة لينفق منه على مشروعاته الإصلاحية العدة ، ولم يترك سوى مابين (الباب الوسطانى وباب الطلسم) وكان السلطان مراد دخلها من باب الطلسم لأن الرواة قصوا أن منقذ بغداد سيدخلها منصوراً من هذا الباب .

خرجت يوماً إلى مقابر بغداد ، وزرت قبر زبيدة زوج هرون الرشيد ، ويمتاز عن باقى القبور حوله بأنه تحت مثمن ، تعلوه قبة فى شكل مخروط مجزع ، يسترعى النظر ، وحولها مدافن أخرى ممدودة أهمها مدفن :

بهلول : سمير هرون الرشيد يؤمه كثير من الناس ، وبخاصة السيدات يوم الاربعاء ، دخلته فاذا فى فنائه عدة مبان نموذجية صغيرة من القش



أمام مسجد السلطان احمد بمآذنه الست فى اسطنبول

والخرق وتسد منافذها بالحناء ، منها واحد وضع داخله مهد طفل أقامته سيدة لا تلد . رجاء أن يمن الله عليها بمولود ، وآخر داخله سرير تنام عليه دميتان متجاورتان وضعته فتاة تطمح إلى الزواج ، فاذا ما أجيب السؤل ذهبت صاحبة البيت وهدمته وقدمت القرابين .

إلى طاق كسرى : (أيوان كسرى) أقلتنى إليه سيارة فى ساعتين فبعد أن خرجنا من بغداد قليلا مررنا بناحية تسمى (هنيدى) مقر المعسكرات الانجليزية وبعد مسيرة أكثر من ساعة فى أرض خصبة بدا قصر كسرى على بعد كالطود الشامخ ، ولما جئناه كانت الحفائر حوله ممتدة إلى مسافات وهو يقوم فى حائط شاهق لا نوافذ فيه لكنه نقش فى شبه أقبية سدت بالبناء بعضها فوق بعض ، وإلى جانب الحائط قبو لا تكاد تدرك العين مداه وقفت تحته وتخيلت كسرى إبان صولته يجلس فى كمال أبهته فى هذا

الايوان الذى أصبح قاعاً صفصفاً لاتجانبه إلا قرية صغيرة يزورها القوم لأن فيها مدفن أحد الصحابة هو سليمان باج الفارسى تحت قبة صغيرة . وطاق كسرى أقيم بالآجر المصفر فى متانة غالبت الزمن طويلا ، وقد انهدم أحد جانبيه أثر زلزال هائل ومابقى منه مصدع الجوانب مائل الجدران ، وقد لبثت أطوف بالمكان إلى الغروب حين بدا القصر شبحاً قاتماً فى ضوء الشفق الضئيل الذى أكسب المكان رهبة وأعاد إلى المخيلة ذكريات الماضى المجيد لتلك الناحية المنبوذة اليوم .

وكم ضم القصر من آيات البذخ والغنى لملوك فارس الأقدمين ، وقعت كلها غنائم للعرب على يد سعد من أكداس الذهب ، والفضة ، والملابس الموشاة ، والاحجار الكريمة والأسلحة المرصعة

كان يحمل قبو سقفه مجموعة من نجوم الذهب والكواكب السماوية تبدو فوق الأفق . هنا كان يجلس على عرش من ذهب يستمع للشكاوى ويقيم العدل . وقفت أستظل بذاك القبو الهائل وسرعان ماتوالت ذكريات العظمة البائدة فكنت أنظر فلا أرى لها أثراً ، وكان حفيف الريح فى أوراق الغاب البرى الذى أحاط بتلك الخرائب كأنه صـــوت ينعى أولئك الجبابرة فسبحان مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء

عدت فى المساء وقبيل بغداد عبرنا نهر ديالة رافد دجلة ، وقد دفعت سياراتنا رسم عبور القنطرة سبعة قروش ونصف (روبيـة) وتلك قاعدة متبعة فى كل قناطر العراق .

الى الحلة : قمت إليها فى القطار وهى من مدن الكلدانيين وإن لم يبق لهم فيها أثر اليوم . وهى وسط إقليم خصيب يستفيد من سد الهندية أكبر وسائل الرى فى العراق كلها وهو يروى ثلث مليون فدان ويقول الناس إن مياه الفرات أكثر خصباً وأغزر فيضاً من دجلة وهو أعذب شرباً وأصلح للصحة ، ولقد أقام الإسكندر المقدونى أبنية ليسيطر على مياه شط الهندية

إلى الغرب وشط الحلة إلى الشرق وهما شعبتان للفرات ، وقد أعاد الانجليز اليوم بناء سد الهندية لامداد فرع الحلة الذى كادت تسده الرواسب ، بينما فرع الهندية كان يتعمق حتى كاد يودى بالمياه سدى . قمت فى سيارة مسيرة ساعة إلى :

بابل : التى بناها الكلدان على الضفة اليمنى للفرات فاذا بها تل من الطين حوله المزارع ، وفى وسط ذلك التل رأيت بعض أطلال يقولون أنها مقر الحدائق المعلقة وقصور بابل ، وهنا جرت أكبر موقعة بين سعد بن أبى وقاص وجيوش الفرس سنة ١٦ هـ حين فتح المدائن .

الى الكوفة : قمنا فى سيارة وأخذنا نسير وسط تلك السهول المملة ، ولم يكن يسترعى النظر فيحدث بعض التغيير فى المنظر سوى التلال العدة التى كنا نراها فى أطلال بقايا القدماء ، ومن أهمها : قلعة نمرود ، وتل أور عاصمة السومريين .

أخيراً بدت الكوفة فى قرية صغيرة وقفت بمسجدها الجامع حيث وقف الحجاج الثقفى يتوعد أهل العراق فى خطبته المشهورة (يا أهل العراق الخ) ، وكان طاغية مستبداً مقره واسط التى تقع بين دجلة والفرات وسط الجزيرة ، وفى منتصف المسافة بين بغداد والبصرة وهناك كان قصره ، وقد قتل نحو ١٢٠ ألف نفس وكان فى السجون عند وفاته نحو خمسين ألفاً ولم يكن للناس حديث عهده إلا من قتل اليوم ومن قطع أمس ، ومن شدة ظلمه فى جمع الخراج كان يتنحى الناس عن ولاية الخراج لأنهم لا يمكنهم أن يجمعوا منه نصفه رأفة بالناس ، ويظهر أنه كان يجد لذة فى سفك الدماء ، أرسله عبد الملك بن مروان ليثبت لبنى أمية الملك فى العراق فقام على الظلم حتى انقرضت دولتهم فى المشرق . وكان زياد بن أبيه فى البصرة .

والمسجد محفوظ على شكله القديم يبدو كأنه القلعة بتكأته الاسطوانية

الخارجية ومنارته الوطيئة . فناؤه فسيح تشرف عليه قبتان : إحداهما لضريح مسلم بن عقيل والثانية لهانىء بن عروة ، وفى وسطه فتحة تحتها سرداب يعتقد القوم أن الطوفان نبع من تحتها ، وإلى جانبها عمود من رخام يستخدم مزولة كانوا يعرفون به مواقيت الصلاة ، وفى الركن الأيمن مقصورة مغلقة فى مكانها قتل سيدنا على رضى الله عنه ، وفى خارج المسجد من ورائه كانت تقوم قصور الامارة والخلافة الأموية ولم يبق منها شىء اليوم (والحمد لله كما يقول الشيعة هناك) ، فالكوفة فى نظر الشيعة بلدة ملعونة وهى أكثر بلاد العراق بل والعالم نحساً ونكداً يرمى أهلها بالغدر والجبن وضعف النفس ، ففيها قتل على وأهلها هم الذين أغروا الحسين أن يخرج فى عائلته ، وفى وسط الصحراء تخلوا عنه فى جبن وخسة وقتل أمام أعينهم ، وهنا أيضاً غدروا بزيد حفيد على فهم الذين حضوه على مقاتلة الخليفة الأموى ولما هم بذلك تخلوا عنه فقتل مع الفئة القليلة التى ناصرته .

الى النجف : معقل الشيعة ، أقلنا إليها ترام من الكوفة يسير على قضبان تجره الجياد فى ثلث ساعة وأبصرنا على بعد فى مجاورة الفرات : الحيرة حيث حارب ملكها النعمان بن المنذر جيوش كسرى وحيث كانت قصة عنترة العبسى بن الأمير شداد العربى والأم الزنجية وقد نال إعجاب عبلة من الأميرات بنات عمومته وذلك بفضل ما أوتى من شجاعة فائقة .

وكانت بلدة الحيرة أسبق من الكوفة شأناً بنى فيها المناذرة بعد تنصرهم القصور والكنائس ، ولما فتحها خالد تحول عزها إلى الكوفة ، والمناذرة عمال فارس على العراق كما كان بنو غسان عمال الروم على العرب ، وفيها بنى النعمان بن المنذر قصر (الخورنق والسدير) .

بدت النجف وضاءة وسط البادية فى رواء وبريق يراه المشاة من الحجاج محط آمالهم وموضع عقيدتهم وفخارهم — وكثير منهم يقوم من بغداد على الاقدام وكم أجهد منهم الاعياء والجوع فماتوا فى الطريق — ويقول القوم

ان قباب الحرم ترى من أربعين ميلا إذا صفا اليوم وراق هواؤه لانه يقوم على ربوة وسط صحراء ممهدة لا حزون فيها وكيف لا يراها الاتقياء محط آمالهم ، وهى مقر أول خليفة للنبي صلعم ، وفى زعم بعضهم هى مقر من كان أحق بالرسالة من النبى نفسه ! وللقوم قصة يروونها عن نشأة النجف هى أنه لما قتل على فى الكوفة حملت جثته على جمل أطلق فى الصحراء ، فأخذ يسير على غير هدى ، حتى وصل ربوة تطل على بحر النجف على مسيرة ساعة من الكوفة فبرك الجمل ، وهنا دفن القوم الجثة الطاهرة وأخفوها خشية أن يعلم بها أعداؤهم . ومضت السنون حتى جاء هرون الرشـــيد لصيد الغزال وتعقب فريسته وكاد يرديها لولا أن ارتقت تلك الربوة وهناك وقف الغزال متحديا فى غير حراك ولا خوف ، فنزل الرشيد وشحذ قوسه فخانته ذراعاه ولم يستطع الحركة ثلاث مرات متواليات ، فذعر الرشيد وأبصر برجل كهل فسأله عن المكان ، فقال : إن بحت بالسر نالنى الضر يا أمير المؤمنين ، فأقسم الخليفة أنه لن يصيبه بأذى ، فقال الرجل ها هنا مقر الامام على . عرفه الغزال مأمنا ولا يجرؤ أحد أن يصيبه بسوء وهو فوق العظام الطاهرة فنقب الرشيد الارض حتى رأى عظام سيدنا على تحت لوحة من رخام فتركها وأقسم ألا يبوح بسر تلك البقعة حتى أقام عليها المسجد ثم أخذت مبانى النجف تحوطه إلى أن بلغت شكلها الحالى .

اخترقت سوق النجف المسقف فأدى بى إلى باب المسجد الذى بهر أنظارنا بزخرفه وطلائه ، هندسته فارسية ، ومآذنه وقبابه تكسى بالذهب الخالص فى بريق خاطف . جزت الباب إلى الفناء السماوى المربع تطل عليه الحجرات المتجاورة ثم دخلت باب الضريح وأنى لقلمى الكليل أن يصف إبداعه من نقوش وتطعيم بالذهب والفضة ، وزخرف بالبللور والزجاج والقيشانى فاق فيه جميع المساجد الأخرى . نظرت فاذا أصوات البكاء وولولة النادمين وتقبيل المتبركين ، واستلقاء المنتحبين على الأرض تثير الشجن وتهز القلب ، أصوات تشعر

بمأساة قتل الامام مجسمة فلا يتمالك المرء نفسه من البكاء ، وطائفة النقباء من الأشراف يقرأون أوراداً بعضها من الكتب والبعض من الذاكرة ، ويقودون الزوار ويتكالبون على مصاحبتهم مقابل أجر يتقاضونه جبراً .

وبعد أن أديت الزيارة خرجت أطوف حول الحرم ، وإذا بالمقابر تمتد إلى الآفاق من قباب فاخرة إلى أضرحة بسيطة لايواء آلاف الجثث التى كنت أراها تنقل على السيارات أو الأكتاف من الآفاق الاسلامية وبخاصة العراق وفارس ، ويقول العلماء هناك إن المدافن عشرة آلاف لا تزيد ولا تنقص ، لأن سيدنا علياً يرسل مازاد من الجثث بعيداً ؛ فلا يعرف أحد مقرها ، والمقابر تباع بأثمان هى من الموارد الرئيسية للحرم ، وتختلف قيمتها حسب قدسية الموقع ، فهناك مدفن عام (فى وادى السلام) ثمن الدفن به نحو أربعين قرشا وفى المدافن الخاصة نحو جنيهين ، أما فى الحرم وما يلاصقه من أراض فلا تقل القيمة عن ستين جنيها ؛ هذا فوق ما يستفيده أهل النجف من مستلزمات الدفن ، وكم من جثث كانت تحملها السيارات وافدة من كل فج ، وبعد الغسل يطاف بها حول الحرم ، وبعد الصلاة عليها تدفن وتظل كذلك حتى يتراءى لسيدنا على أن يكشف عن مكنونها فتختفى ويدفن فى مكانها غيرها !

وفى النجف فئتان من الأهلين متباغضتان : حزب السجورت وهم الفقراء ، وحزب الشمورت وهم الأغنياء ، والكلمتان من أصل تركى ولقد أثارهما الأتراك يوم أن كان حكمهم السنى مبغضا لدى الشيعة هناك فلجأوا إلى سياسة الأحزاب والتفريق بينهم كما يفعل المحتلون اليوم لكن فى مكر سيء ودهاء كبير ، ولكل فئة أشياع من العشائر فى الخارج ، وكثيراً مايقتتلون تحت أمرة مجتهديهم ، وتعد النجف مصدر جميع الثورات والاضطرابات التى تحدث فى العراق ، ومنها ثورة سنة ١٩٢٠ الشهيرة ضد الانجليز ، ويلى المجتهدين فى النفوذ طبقة (الكلدار) وبيدهم ثروة الحرم وهى لا تقدر وكلها من فيض إحسان الزائرين ، حتى قيل إن الصندوق لما فتح عقب زيارة نصر الدين شاه

كان وزن الذهب والفضة سبعة أطنان إلى ذلك مصباح نحت فى زمردة واحدة وماثلة (شمعدان) للشمع من ذهب ترصعها اليواقيت وبساط تزينه اللآلىء ،



صاحب الجلالة غازى الأول ملك العراق

وقد أمر أن تكسى القباب والمآذن من ظاهرها بالذهب الخالص ، لذلك ليس بعجيب أن نرى البلدة كالحصن حولها سور عتيد وخندق عميق كأنها من بلدان القرون الوسطى ، كذلك فانك ترى نصف البلدة تحت الأرض فى سراديب بعضها تحت بعض فى طبقات قد تفوق الخمس ، نزلت بعضها فبدت كالتيه لا يعلم لها أول ولا آخر ، وهم يختبئون فيها من وهج الصيف ، ويدبرون فيها ثوراتهم ويكتمون أسرارهم ، وقد رأيت حول البلدة مجموعة

من تلال تراكمت من الثرى الذى استخرج من تلك السراديب ، ومن فوقها بدا (بحر النجف) فى مشهد جميل وسط وادى سحيق تزينه المزارع ويصله الماء عن شعبة من الفرات ، ومن ورائه تمتد بادية العرب إلى الآفاق وهى موضع فزع النجفيين ، إذ منها يتوقعون غارات الوهابيين من غلاة السنيين ، وكنا نشاهد قطراً من حمير تثقلها قرب الماء ، تسير صعداً فوق تلك التلال لامداد النجف بالماء من ذاك البحر ، وقد خيل إلى أن أهل النجف كلهم من العلماء يسيرون وحول طرابيشهم العمامة الخضراء ، ويعيشون عالة على أموال الصدقات والحجاج ، وفى البلدة من المدارس الدينية أكثر من ثلاثين مدرسة تؤوى فوق ستة آلاف طالب ، زرت إحداها وهى فى داخلها تحكى المسجد ويقرأ الطلبة على مشايخهم ، ثم يأوون إلى سراديب ومفارق لطرق كلما سلكنا سبيلنا فى إحداها مررنا بغرف بها مناور ضيقة ويجلس فيها طالب أو اثنان وسط ظلمة موحشة وسكون رهيب ينكبان على التحصيل والدرس ، وهذه السراديب من أخص مميزات النجف توجد فى المساجد والمدارس والبيوت يختزنون فيها متاعهم كيلا تفسده الحرارة ، وقد دعانى أحد كرامهم إلى بيته ونزلنا بعض سراديبه ، وكان هجير اليوم لافحا فشعرت ببرودة ورطوبة نقلتنا إلى المنطقة الباردة تماما فى دقيقتين ، وهناك قدم إلى بعض البطيخ ويسمونه (الرجى) : والبطيخ عندهم يطلق على الشمام ، فكان مثلجاً منعشا شهيا .

وصادف أن كانت البلدة فى هياج طائفى شديد يوم زرتها (٢٤ يولية) ، لما شجر بين الشيعة والسنيين إثر كتاب أخرجه بعض السنيين ، وأسماه : (العروبة فى الميزان) طعن فيه الشيعة ، فاهتاج أولئك وقام شيعى يخرج كتابا آخر للرد على أهل السنة فطالب الناس بمصادرة الكتاب الأول ، فصودر وطالب السنيون بمصادرة الكتاب الثانى ، فحاولت الحكومة ذلك ولم تستطع لأن الهياج هناك بلغ أشده ، وقد تشكلت هيآت ولجان طالبت

الحكومة برد حقوق الشيعة وهم أغلبية السكان وإن كانوا أكثر جهلا ، أما الحكومة فتعاضد السنيين لانهم أكثر ثقافة من جهة ، ولأن الانجليز أميل إلى معاضدة الاقليات من جهة أخرى ومنهم المديرون والوزراء من السنيين ، وكان المغفور له الملك فيصل فى أوربا ، فأبرقوا إليه فبعث إليهم يطمئنهم ويوصيهم بإيقاف كل شىء حتى يعود ، وكم كان ألمى شديداً لهذا الشقاق الذى لا شك يضعف مركزهم أمام الغاصب ، وينال من استقلالهم كثيراً ، على أنى علمت أخيراً أن حركةمذبحة الاشوريين ، وتصرف الامير غازى الجرىء ، وكذلك موت الملك فيصل ؛ كل ذلك قد ألف بين القلوب فتناسوا الاحقاد ولو إلى حين .

الشيعة : لما مات النبى صلعم فى غير خلف من الذكور قام أبو بكر وأوقف المرتدين وحمل لواء الاسلام إلى الجزيرة ولما عاد عمر بن الخطاب واصل دعاية الاسلام بفضل قائديه خالد ومعاوية فحنق عليه قوم واعتقدوا أن الخلافة يجب أن تكون فى سلالة الرسول لكن كظموا غيظهم حتى مات عمر ، ثم جاء عثمان وقتل عاجلا ، وقام على زوج فاطمة بنت النبى صلعم وأب أحفاد رسول الله وكان الخوارج هم الذين حرضوا على قتل عثمان وأيدوا علياً ، لكنهم خرجوا عليه هو أيضاً لما رضى بمهادنة خصومه (ومن ثم سموا الخوارج) ودبروا مؤامرة لقتل على ومعاوية وعمرو بن العاص فى وقت واحد ، فقتل على بيد عبد الرحمن بن ملجم وهو ينادى للصلاة . إذ جرحه جرحاً بليغاً فى رأسه مات بعده بيومين . وقد مثل الناس بابن ملجم فعذبوه وقطعوا أطرافه . بايع الناس الحسن بن على وكان معاوية قد بويع فى الشام فزحف لقتال الحسن ، وتأهب الحسن للقتال فى العراق ، لكن ثار عليه جنوده وانفضوا من حوله فهادن معاوية وتنازل له عن الخلافة وفر وقتل ، ثم بايع الجميع معاوية إلا الخوارج والشيعة (شيعة آل البيت أو آل على) وقد اجتمعوا حول الحسين ابن على فى مكة فقتله جنود معاوية

فى كربلاء هو وأفراد أسرته وأتباعه جميعاً إلا ابن واحد للحسين أمكنه الهرب ، ولقد جعل معاوية الخلافة وراثية فى أولاده وعين ابنه يزيد خلفاً له ، لكن ظل الخوارج يناوئون بنى أمية ومن بعدهم العباسيين ، وفى رأيهم أن الامامة والخلافة لا يشترط أن تكون فى قريش ويجب توافر الكفاية والعدل فان حاد الخليفة عن الصواب وجب عزله فهم أبغض الفئات الاسلامية للحكم الوراثى ويعدون نصراء الحكم الديمقراطى ، كذلك قام الشيعة يناهضون بنى أمية لكن لما قويت الدولة الأموية واتسع نفوذها اختفى الشيعة وظلوا يعملون سراً حتى بدأ اضمحلال دولة بنى أمية فظهروا ثانية وعاونوا العباسيين فى خرسان تحت أبى مسلم الخرسانى على أن العباسيين لما تملكوا اخذوا يطاردون الشيعة .

وأخذت طوائف الشيعة تتشعب وعاونها الفرس سراً على ذلك لأن فارس رأت فيهم خير هادم للاسلام وللملك بنى العباس أولئكم الذين قضوا على استقلال فارس وحاولوا القضاء على قوميتها ، ومن فرق الشيعة من يقول بأن الصحابة كلهم كفروا بعد موت النبى إذ جحدوا إمامة على وان عليا نفسه كفر لتنازله لأبى بكر لكنه عاد له إيمانه لما تولى الامامة وهذه فرقة (الأمامية) ، ومن الشيعة قسم اوجب النبوة بعد النبى فقالوا بان الشبه بين محمد وعلى كان قريبا لدرجة ان جبريل اخطأ وتلك فئة (الغالية او الغلاة) ، ومنهم من قال بان جبريل تعمد ذلك فهو إذن ملعون كافر .

ومن الشيعة طائفة (الاثنى عشرية) الذين يقدسون الأئمة الاثنى عشر وهم : على فالحسن فالحسين فابنه زين العابدين فابنه محمد الباقر فابنه جعفر الصادق فابنه موسى الكاظم فابنه على الرضى فابنه أبو جعفر محمد . فابنه على فابنه محمد الحسن العسكرى فابنه محمد المهدى الذى اختفى فى مغارة سامرا وسيخرج اخر الزمان ليهدى الناس ويطهر العالم من الرجس والجور ، ومنهم الاسماعيلية والباطنية الذين مر الكلام عليهم فى الشام ، ثم القرامطة

الذين تقووا حول الخليج الفارسى ويعرف عنهم الاباحة فى النساء وقد أحلوا أنفسهم من كل عبادة واستحلوا النهب والرذائل وتركوا الصلاة والصوم وكانوا ممن يعملون على هدم الاسلام ، وفى مصر قام الحاكم بامر الله بعد المعز ينشر مذاهب الشيعة ويدرسها فى (دار الحكمة) وكان أساسها أن الشرائع خاضعة للعقل والعلم ، وأن الأنبياء هم رجال عاديون ، وغاية ما فى الأمر أنهم فلاسفة وقد الهه الدروز وقالوا بأنه رفع إلى السماء وسيعود لتطهير الأرض كما اسلفنا ، ويرى جميع الشيعة ان الامامة ليست مصلحة عامة تناط باختيار الناس بل هى ركن من اركان الدين

زواج المتعة : ولقد استرعى نظرى فى النجف كثير من الأطفال الذين يلبسون فى آذانهم حلقات خاصة هى علامة أنهم من ذرية زواج المتعة المنتشر بين الشيعة جميعاً وبخاصة فى بلاد فارس . ففى موسم الحج إذا ماحل زائر فندقا لاقاه وسيط يعرض عليه أمر المتعة مقابل أجر معين فان قبل أحضر له الرجل جمعاً من الفتيات لينتقى منهن وعندئذ يقصد معها إلى عالم لقراءة صيغة عقد الزواج وتحديد مدته وهى تختلف بين ساعات وشهور وسنوات ، وللفتاة أن تتزوج مرات فى الليلة الواحدة ، والعادة أن يدفع الزوج نحو خمسة عشر قرشاً للساعة وخمسة وسبعين قرشاً لليوم ، ونحو أربعة جنيهات للشهر ، ولا عيب على الجميع فى ذلك العمل لأنه مشروع ولا يلحق الذرية أى عار مطلقاً . وعند انتهاء مدة الزواج يفترق الزوجان ولا تنتظر المرأة أن تعتد بل تتزوج بعد ذلك بيوم واحد فان ظهر حمل فللوالد أن يدعى الطفل له ويأخذه من أمه إذا بلغ السابعة . ويرى أهل السنة فى ذاك الزواج وزراً كبيراً إذ حرمه النبى صلعم ، وكان مباحاً فى الجاهلية وفى الحروب فى الاسلام ، ويخال البعض أن منشأ تلك العادة بابل يوم أن كان الفتيات يستأجرن للحجاج فى معابد (اشترومردك) ولا تزال

لها بقية فى (عاهرات الآله) بين الهندوس وقد أشرناء إليها آنفاً (فى جولة فى ربوع آسيا) .

ويكاد يسود الشيعة فى جنوب العراق بين بغداد والبصرة وإن كان أغلب الملاك والوجهاء والموظفين والبدو من السنيين ، أما الفلاحون المستقرون الذين تجرى فى عروقهم بقية من دماء زراع بابل القديمة فكلهم من الشيعة البسطاء الذين يبتغون فتاوى المجتهدين وهم الذين أوتوا حق تفسير القرآن وفق ماقرره الأئمة ولعل تعصبهم الشديد راجع إلى خضوعهم طوال السنين الغابرة لسلطان الأجنبي من غير دينهم فهم أبداً ضد كل حكومة ، ويرون كل السلطان والنفوذ فى طائفة مجتهديهم ليس غير وجل أولئك المجتهدين يرجعون إلى أصل فارسى ويطمحون الى ضم العراق لحظيرة فارس يوماً ما، وحينذاك تتولاهم حكومة شيعية وقد بلغ بهم شكهم فى الغير انهم يحتمون غسل كل شىء دخل بيتهم ثلاث مرات خشية أن يكون قد لمسه غير شيعى . وهم يغيرون ملابسهم قبل الصلاة وقد حدث أنى لما قمت من خراسان عائداً إلى العراق كان يرافقنى شيخان شيعيان من العراق ، وكان معى بعض الحلوى والفطير قدمها إلى صديق مسيحى فدعوتهما أن يأكلا منه شيئاً فابتعدا لأنه من يد كافر !

إلى كربلاء: قمت من النجف مبكراً إلى كربلاء فوصلناها بالسيارة فى ثلاث ساعات فكانت تحكى النجف تماما فى أزقتها الملتوية تطل عليها شرفات متقاربة متقابلة تكاد تظل الطريق وهى ثانية معاقل الشيعة فان قلنا إن النجف هى الرأس المفكرة للشيعة ، فكربلاء قلب الشيعة النابض فهى أكثر قدسية لديهم من النجف . هنا يبكى القوم نساء ورجالا وأطفالا موت الحسين الذى تثير ذكرى فاجعته لديهم حماسة فائقة أشبه بحماسة أهل بابل وبكائهم على موت (تموز) هنا زرت مدفن الحسين تحت قبة من ذهب يسمونها (الحضرة الكبيرة) يؤمها خلق كثير وبخاصة فى محرم شهر الحج ، وهناك مسجد آخر يدفن فيه العباس وكان أخ الحسين من أبيه ، وكان يعرف القوم عن

الحسين رقته وتسامحه ، وعن العباس دقته وقسوته فى الحق ، لذلك قد يحنث الواحد هناك فى يمين الحسين ، لكنه لايحنث قط إن أقسم بالعباس ، وقد



نبي الله يونس فوق أطلال نينوى

أبصرنا بصورة لرأس رجل فى سقف مسجد العباس قالوا لنا إنه حنث فى يمينه بالعباس فطارت رأسه إلى هناك ويعتقدون أن من يأتى ذلك تطير رأسه هكذا

عدت إلى بغداد وزرت المتحف العام وهو على صغره يحوى مجموعة قيمة من مخلفات بابل وأشور وبخاصة من العهد السومرى منذ سنة ٣٠٠٠ ق م وفيه من صياغة المعادن والحلى من ذهب ونحاس وحديد شيء كثير ،

ومجموعة من أحجار كريمة حفرت حفراً دقيقاً جدير بكل أعجاب ، وقد استرعى نظرى خاصة غطاء للرأس من نحاس يحكى التمثال بشعره الجعد ، وآخر لسيدة تلبس الحلى الفاخر من ذهب مصمت ، وعند الرأس والذنب تقوم شعبتان منعرجتان تشد عليهما الأوتار ويطعم كله بالخشب والعظم والصدف ، والمتحف منسق خير تنسيق .

الى البصرة : مدينة السندباد : أرجأت زيارتى لها إلى آخر الرحلة بعد عودتى من بلاد فارس خشية حرها اللافح فدخلتها وافداً من الخليج الفارسى فأخذت باخرتنا تشق عباب مياه شط العرب الذى كانت تنأى ضفافه لعظيم اتساعه وكانت غابات النخيل تسد الآفاق سداً تتخلل تلك الغابات مسايل للمياه لا تدخل تحت حصر وهى بعض شعاب شط العرب اللانهائية ، وقد أقيمت عند مصابها مراس صغيرة مدت حولها مساطح البلح يجهز فى صناديق خشبية للتصدير وغالب البلح من نوع أصفر اللون مكور الشكل نواه صغير للغاية وطعمه لذيذ سائغ شهى وهو أخضر فان زاد نضجه أضحى رطباً غزير العسل بحيث يفوق بلح الواحات عندنا ، ولا عجب فالبصرة من أغنى بلاد الدنيا بالتمر الذى يصدر منه بما لا يقل عن مليون جنيه فى كل عام ، ويجرى القول على لسانهم أن النخلة يجب أن تغمر جذورها فى الماء ورأسها فى النار والهجير وتلك الظروف متوفرة فى البصرة بنقائعها الممدودة وحر صيفها المحرق ، ومن البلح يتخذون بعض الكحول والخمر ، ظلت الباخرة تسير طويلا وأرصفة الميناء ممدودة على الجانبين وبخاصة الجانب الغربى وكانت حركة البواخر انجليزية وغير انجليزية صاخبة أشعرتنى بأهمية ذاك الثغر الذى خلته من قبل أقل شأناً ، والأرصفة كلها زودت بأحدث وسائل النقل من روافع تجانبها سكة الحديد وتتجه عناية الانجليز إلى هذا الثغر اليوم وسيتخذون منه قاعدة تجارية وحربية هو وثغر حيفا الذى رأيت العمل قائما فيه وبهمة نادرة وذلك تثبيتاً لمركزهم وتأميناً لطرقهم إلى مستعمراتهم فى الشرق .

حللت الثغر ونقلت المتاع إلى الجمرك ، وهنا وقف رجاله يتيهون على الناس عجباً بما أوتوا من سلطة فلم يبدأوا التفتيش إلا دفعة واحدة ، فضاع من وقتنا ساعات رغم تكرير الرجاء لهم أن يعنوا بذلك . ثم أقلتني سيارة إلى البصرة فاذا هي بعيدة عن الميناء بنحو عشرة كيلو مترات ، وتلك المسافة تخطها أيدي المهندسين اليوم في طرق مرصوفة ومبان حديثة ، ويظهر أنها ستكون غداً حي طبقة الأجانب والانجليز والأغنياء ، دخلنا البلدة وإذا بها أزقة ضيقة قذرة لا نظام فيها ولبثت أعاين النزل تلو الآخر فلم يرقني بها شيء قط لشدة إهمالها وفساد هوائها ، وبعدها انتقلت إلى حي (أشار) الحديث وحللنا نزل (بيكادلي) وهو أفخم أنزالها رغم أنه بسيط البنيان والأثاث لا يعادل أصغر نزل عندنا ، ولم يقبل أجر الليلة الواحدة أقل من ثلاثين قرشاً للنوم فقط ، وهو يقوم على ميدان جديد لا تزال تشق الطرق منه إلى جهات متفرقة مهملة . والبصرة أشبه ببلاد المراكز الصغيرة في مصر ليس بها ما يروق الزائر سوى غابات النخيل الكثيفة التي تحوطها ، وشعاب شط العرب التي تلاقيك أني سرت بلياتها المدهشة ، على أن غالبها قذر مهمل ، وإن قامت البيوت مطلة على الماء في هندسة عتيقة ، ولكل بيت زورقه (ويسمونه البلم) وحتى جانب الشط الرئيسي لا تقوم عليه سوى الأكواخ الحقيرة رغم اتساعه العظيم ومنظره الطبيعي البهيج وبخاصة إذا ركبت متنه على (بلم) وهو زورقهم النحيل الأنيق في أطراف معقوفة تطلى باللون الأبيض ، وهو أجمل مظاهر البصرة مطيتهم الرئيسية يشقون به أرجاء البلدة ، لأن المجاري المائية تكاد تجانب الطرق جميعاً . أما المقاهي (البلدية) على نظام نظيراتها في بغداد ، فهي تغص أبداً بكسالى القوم ليلا ونهاراً وجلهم من لابسي العقال ، وفي كل مقهى (حاكي) يردد الأنغام المصرية والعراقية .

قمت بسكة الحديد إلى حي الزبير الذي مات فيه ذلك الصحابي الكريم ، وهو مكان البصرة القديمة ، ويقع إلى غرب بصرة الحالية ، أنشيء يوم بعث

عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان سنة ١٥ هـ ، وأمره أن ينزل مكاناً قريباً من الماء والمرعى والمحتطب ، فتخير هذا وشاد فيه البلدة والمسجد الجامع الذى قواه فيما بعد أبو موسى الأشعرى . ثم جاء على وأقام مسجده وكان أكبر مساجد الإسلام طراً بمآذنه السبع ، وكان فيه مصحف شريف عليه قطرات من دم ظن أنه المصحف الذى كان يقرأ فيه عثمان حين قتل . على أنى لم أجد للمسجد من بقية تدل حتى على مكانه . وقد اختط العرب البصرة نكاية فى الفرس لتحويل التجارة من سواحلهم اليها ، وكان تعدادها إذ ذاك نصف مليون نفس بدليل أن أبا جعفر لما فرق مليون درهم على أهلها لم يصب الفرد منهم سوى درهمين ، ولقد لاحظت على أهلها ضعف البنية وشحوب اللون لرداءة جوهم كثير النقائع والعفونات ، شديد التقلب فى الهواء ، حتى كان العرب يسمون البصرة (بالرعناء) . وفى طريقى إلى الزبير مررت ببقايا برج متهدم يسمونه : (برج سندباد) ، وأشار القوم إلى مكان قالوا إنه كان منزل واصل ابن عطاء الذى اعتزل مجالس الحسن البصرى ، ولذلك سمى أشياعه بالمعتزلة خصوصاً وأنهم اعتزلوا جانباً ، فلم يكونوا مع على ولا مع خصومه وفى البصرة كانت واقعة سنة ٣٦ هـ ، وفيها اجتمع إخوان الصفا أصحاب الرسائل المشهورة ، ومنها بشار بن برد وسيبويه والحريرى والأصمعى والجاحظ ، وكثير من أهل الفضل والأدب .

إلى القرنة جنة عدن: طالما حنت نفسى أن أرى جنة عدن التى وعد الله المتقين ، فقمت اليها فى زورق سار بنا صعدا فى شط العرب ومناقعه اللانهائية : حتى رسا بنا عند ملتقى النهرين : دجلة والفرات عند بلدة اسمها القرنة وإذا بها قرية هى أبعد من البصرة حقارة ، وأمعن قذارة ، ويظهر أنها كانت فيما مضى مجموعة من جنات خصبها وافر ، وزرعها عميم ، وقطوفها دانية ، تجرى من تحتها شعاب النهرين . أما اليوم فلم أر سوى نقائع على مد البصر يؤمها البعوض وأهلها مائيون بالمعنى الصادق ، تقوم قراهم وسط المياه فى

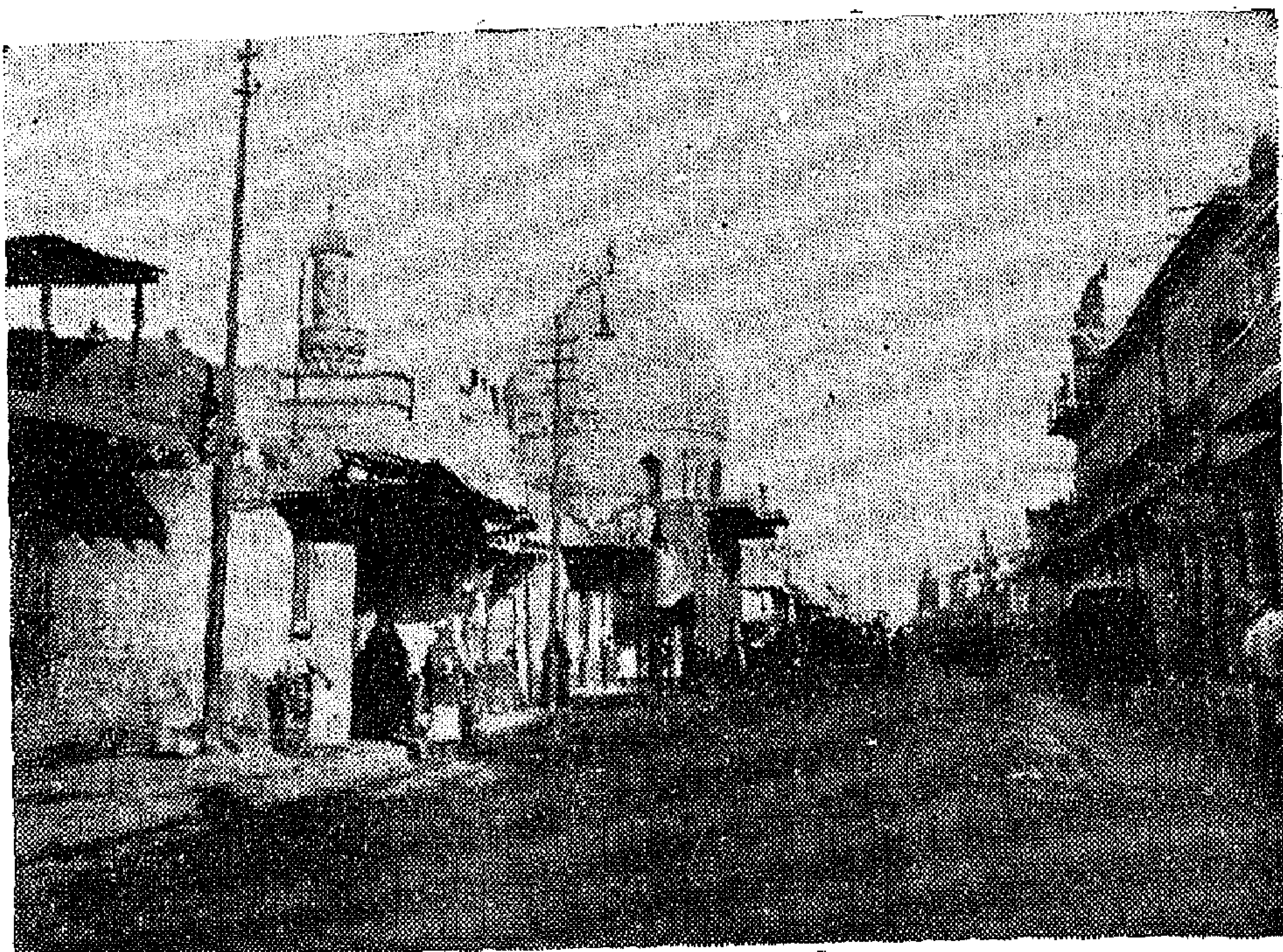
بيوت من غاب ، ويسمونها (بيوت القصب) ، ويتصلون بالزوارق ؛ والناس عوامون مرحون لا يكادون يلبسون شيئاً حتى فى الشتاء ، وقلما ترى بينهم مريضاً بالعين أو الساق على أنى سمعت عنهم انحلالا كبيراً ، وتلك نتيجة لازمة لشدة تجاورهم وقلة وسائل الترف والسرور لديهم ، غالب أرضهم اليوم تزرع أرزاً ، وهى ملك للحكومة تؤجرها مساحات كبيرة لا تقل عن خمس سنين ، وغذاؤهم الأرز ، والسمك ، وبعض اوراق الغاب ، وكلهم كلف بالوشم حتى على الخصر ، وفى داخل الجسد ، واظرف ما فى مسا كنهم انها سهلة النقل ، فقلما يستقر البيت فى مكان واحد ويتخيرون من أعشاب الماء الطافية دواء لأمراضهم هم وماشيتهم ، وقد لاقيت رجلا من الصابئة الذين يقطنون حول دجلة إلى شمال القرنة وحول عمارة . ولما كانت الحرب الكبرى وتهدد إقليمهم هذا نزحوا إلى بغداد وقد ساعدتهم الحكومة على ذلك وانتحوا ناحية من السور القديم يقومون فيها بأشغال النحاس الدقيقة ، وقد زرت بعض متاجرهم عند عودتى إلى بغداد .

والصابئة يخالهم المسلمون (أهل سبأ) ويقال لهم أحيانا عبدة النجوم وهم أهل كتاب يخالهم النصارى من شيعة القديس حنا .

قمت عائداً إلى البصرة ، ومنها أقلنى قطار بغداد مسافة ٥٥٠ كيلو متراً قطعناها فى يوم كامل ، فلبثنا نسير وسط سهول رملية مهملة لم يتخللها شجر ولا عشب ، ولبثنا الليل كله وسط تلك الرمال التى كان هباؤها يتطاير فيدرك كل شىء ، وفى الصباح كنا فى : (أور) الكلدانية التى ولد فيها سيدنا ابراهيم ، وعندها شعبة للسكة تؤدى شرقاً إلى الناصرية ، ومن هنا بدأت المزارع تتزايد فى بقع متناثرة ، وكانت القرى نادرة صغيرة فى بيوت من الطين ، وكلما تقدمنا زاد خصب الأرض وكثر عدد القرى ، وفى نحو نصف الطريق وقفنا ببلدة السماوة وتمتد إلى غربها بادية السماوة المشهورة ، وعندها عبرنا الفرات إلى الديوانية فالحلة وعند الغروب دخلنا بغداد .

قمت باكورة الصباح (الاثنين ٢٥ سبتمبر) عائداً إلى الشام مودعا بلاد العراق تلك التى كانت مهد الانسان الأول والتى فاخرت بمدنياتها القديمة وبأنها مقر جنة عدن ومدفن كثير من الأئمة الأطهار وموطن هرون الرشيد والسندباد البحرى ، على أن تلك الظروف الطبيعية الجميلة التى جعلت الجزيرة مهد الانسان الأول هى التى كانت عوامل هدمها إذ أطمعت فيها من حولها فغزاها جنود أشور وميديا والاغريق والفرس والروم ثم الساسانيون من الفرس ، وهم بناة إيوان كسرى . ثم المسلمون وأخيراً الانجليز . قمت وذكريات ذلك الماضى خالدة مجيدة . يراها الزائر ماثلة فى خياله فحسب ، ويزيدها إمعانا فى الخيال ما رأيته من اعتقاد القوم إلى اليوم فى السحر والسحرة مما أذكرنى بسحر بابل وهاروت وماروت ، ولا يزال كثير من الناس يسمى العراق ببلاد السحر ، لأن خرافاتهم لا حد لها ، رغم أن الاسلام محا منها الكثير ، من ذلك اعتقادهم فى الحسد وأثر العين الخبيثة ، فبعض الناس حساد بفطرتهم تؤثر عيونهم فى الغير أثراً سيئا ولو كان ذلك خارجا عن إرادة أولئك الحساد والويل لمن عرف عنه ذلك ، وكم من مرة طلق الزوج زوجته لاعتقاده أنها حاسدة وهم يتقون العين بلبس اللون الأزرق وتعليق الخرز الأزرق فى بيوتهم وزوارقهم وسياراتهم ، ويظهر أن تلك العادة أثرت حتى على بعض بلاد أوروبا ، لذلك كنت أرى لون القيشانى بالمساجد جميعا فى لون أزرق وحتى السيدات يحكن فى طرف إزارهن بقعة زرقاء ، كذلك كنت أرى كثيراً من أبواب البيوت قد دق عليها حذاء قديم وأنت تسمع دائما عبارة (ما شاء الله) يقولها الناس جميعا ، ويتركون عيون الأطفال قذرة وأرديتهم مهملة مخافة العين وقد تطوف الام على سبع فتيات عذارى فى بيوتهن وتعطى كل واحدة قطعة من رصاص تضعها فى فمها وتبصقها بين ثوبها وجسدها حتى تسقط على الارض ، ثم تأخذها الام وتصهرها فى روث البقر ويوضع ذلك على رأس الطفل ، وكثيراً

ما كنت أرى الطفل يرسل شعره ويلبس لباس الفتيات خشية أن يحسده الناس لان الفتيان مفضلون على الفتيات .



شارع ابن الرشيد من أمهات طرق بغداد

وكثيراً ما يلجأ الزوج إلى (فتاح الفال) فيكتب له ورقة يضعها على رأسه ثم يقرأ تعاويذ ويأمره أن يذيبها فى الماء ويشرب بعضه ويحاول أن تشرب زوجته الباقى ثم يعطيه بخوراً يحرقه عند الغروب ، وبعد ذلك تحبه زوجته ، ورأيت رجلا يغسل يده من دجلة ثم رمى فيه بيضة وعقب وراءها بحجر وذلك لكى يحبب فيه من يريد ، ولشفاء السعال الديكى الذى يسمونه هناك (حمارة أو خنزيرة) يذهب الرجل إلى بائع أحذية ويفاجئه قائلا : (يا كلب سوى لى كلب خاطر الكلب ابن الكلب) فيسلخ له قطعة جلد يحملها الطفل المصاب فيشفى ! وبعضهم يسقى الطفل ماء ولغ فيه كلب أو خنزير .

ويجب أن تحبو المرأة العقيم تحت جمل واقف لينفك عقمها ، والمسيحية

تركع تحت نعش فى الكنيسة ، وكل النساء من مختلف الديانات يعلقن خرقا حول مدفع قديم يسمونه (أبا خزامه) رأيته عند القلعة القديمة فى بغداد وقد رأيت سيدة تضع رأس طفلها فى فوهة المدفع ليعيش طويلا ، وروى لى البعض أن سيدة من الاغنياء مرض طفلها فلبست خرقا مقطعة ، وخرجت بها وهى عارية الاقدام تستجدى من سبعة بيوت بقولها (من بركتكم) ، وابتاعت بما تجمع لديها قطعة ذهب وكتبت عليها (يعيش) ، ثم لبسها طفلها وقد تستجدى من سبعة أطفال باسم محمد ثم يصهر ما جمع ويعلق فى رقبة الغلام ليعيش طويلا .

وإذا خشيت فتاة ألا تتزوج أدت فريضة الحج إلى الكاظم أربعين يوما تخرج كل يوم مبكرة عارية القدم ولا تكلم أحداً ، وإذا وصلت الضريح قرعت بابه ونبهت الامام أنها حضرت إليه ، وبذلك تضمن زوجا سريعا كذلك يهتم فتيات العراق بأخذ نصيب من الحلوى التى توزع فى الأفراح ويأكلن منه ، لان ذلك يعجل بزواجهن ، والشيعة يعدون الايام الاولى من محرم شؤما ، لان الحسين قتل فيها ، وكذلك أيام صفر لأن النبى مات فيه ، ويوم السبت والخميس أسعد الايام ، وإذا القمر خسف فى رمضان وجب ازعاج الحوت الذى يقترب من القمر — فى زعمهم — وقد يبتلعه . لذلك يعمدون إلى الطبول والصفائح يقرعونها إرهابا له ، وفى تقليم الاظافر يجب البدء بالخنصر ، ثم الوسطى ، ثم الابهام ، ثم البنصر وأخيراً السبابة هذا فى اليد اليمنى ، أما فى اليسرى فيبدأ بالابهام ، فالوسطى ، فالخنصر ، فالبنصر فالسبابة ، وكثيراً ما يلجأون إلى سيد من سلالة الرسول — حتى اليهود والمسيحيين — لطرد الجن من الاطفال ، واكل قلوب الصبية الصغار شفاء لبعض الامراض ، لذلك يحاول الكثير اختطاف الصبية وقتلهم لهذا الغرض ويعتقدون أن الجن قد يحب فتاة آدمية قد يناديها فتقوم وراءه ليلا إلى سراديب الدار ؛ ثم تعود ، والجن — فى زعمهم — لا يتعرض لمن يحمل طفلة صغيرة

باذى قط . لذلك لا تجرؤ امرأة أن تمر فى مكان مظلم موحش إلا وهى تحمل طفلة ، والبيوت لا تسكن إلا إذا شاع عنها الخير ، وقد يبقى البيت الجديد طويلا دون أن يستأجره أحد خشية أن يكون مجلبة للنحس ، وكثيراً ما يسمون الأطفال : (مش عاوز) أو (وحش) أو (حصبة) خوفا عليهم ، وإذا سقط إناء ولم ينكسر وجب كسره وإلا كان شؤما ، وإذا طارت بومة فوق النائم صاح قائلا (ملح وسكين) ، وإلا حل النكد لا محالة ، ومن أمثال تلك الخرافات شىء لا يحصى ، ويخيل إلى أن كثيراً من خرافاتنا وصلت الينا عن طريق الجزيرة وبابل وما فيها من تخمين وأوهام وسحر .

بلاد ايران الناهضة

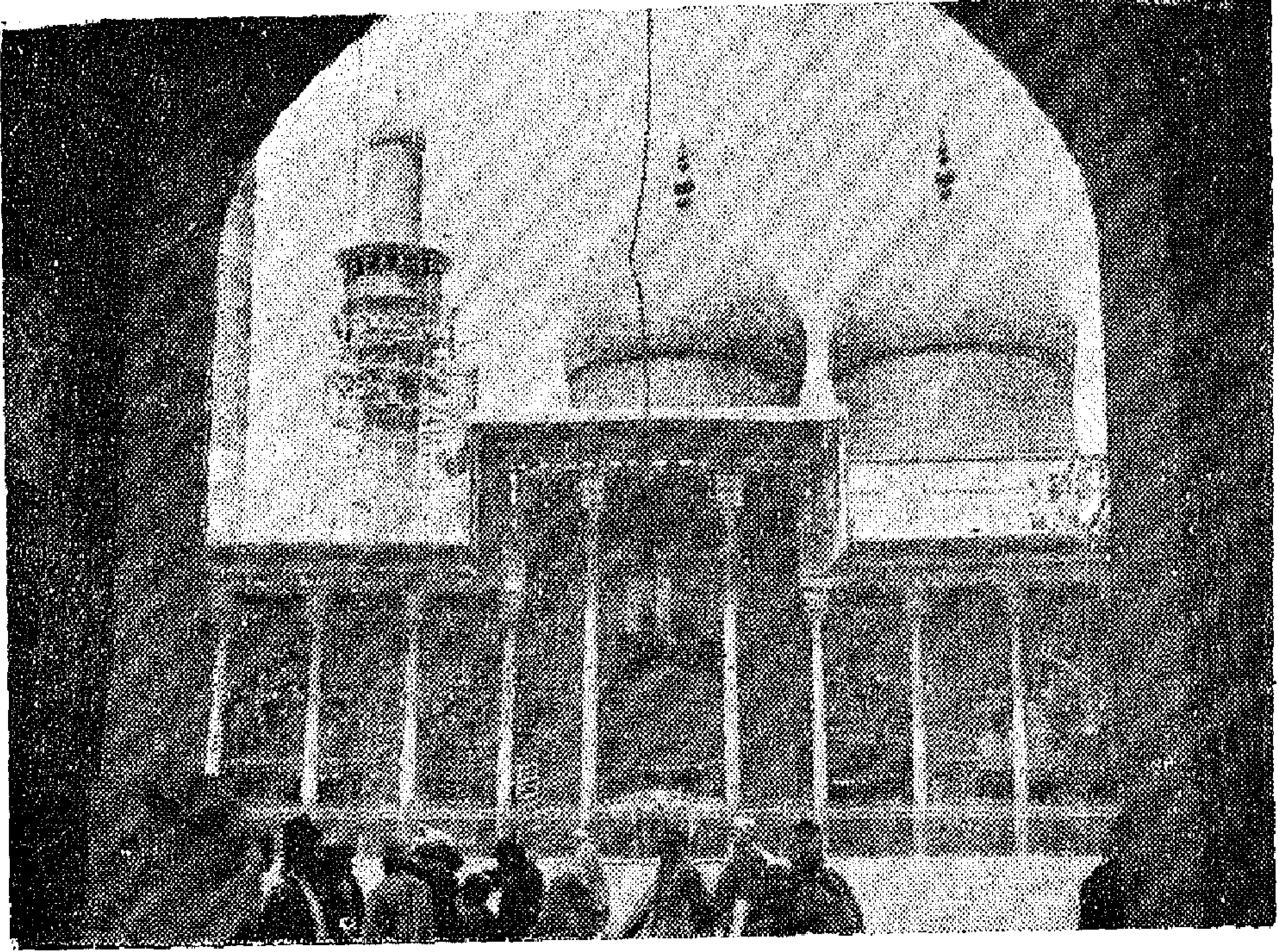
إلى كرمان شاه : قام بنا قطار صوب بلاد العجم ؛ فقطع المسافة بين بغداد والخانقين عند حدود العراق فى نحو عشر ساعات ، وكنا نسير فى سهول العراق العادية شبه الصحراوية المهملة ، والأراضى غالبها ملك للحكومة ولا تزيد ملكيـــة الأهالى على خمس مساحة العراق كلها ؛ وذلك فى ظنى أكبر سبب فى أنها مهملة ، ولا أدرى لم لا تقطعها الدولة للناس كى يخدموها ويزيدوا فى موارد البلاد ، والخانقين بلدة كقرى الريف عندنا استأجرنا بها السيارات لنوغل فى بلاد العجم ، وكان حظى أنا فى سيارة كبيرة من نوع (اللورى) ، وتلك أكثر السيارات ذيوعا هناك . فأخذت تسير بنا فى أرض مغضنة تزيد جبالها تعقيداً كلما تقدمنا ، وكنا نرتقى هضبة ايران تدريجاً ، وعلوها يتراوح بين ثلاثة آلاف قدم وخمسة آلاف . وكانت مناظر الجبال جميـــلة ، لولا أنها لا يكاد ينبت بها زرع ، وهى أجمل من مناظر العراق المبسوطة المملة ، ولو أعوزتها روعة الجبال المنزرعة التى تتوجها الثلوج ، على أنا كلما أوغلنا فيها زادت الشجيرات وكثرت المسايل السريعة ، وفى منتصف الطريق تعطلت السيارة وكسر محركها ، فنزلنا نترقب سيارة أخرى ، ولبثنا كذلك وسط تلك الصحراء الجبلية المخيفة ست ساعات حتى وفقنا إلى (لورى) عائد فنقلنا ، ثم واصل السير بنا ، ولقد بدأ الفرق جلياً بين أهل العراق الكرماء وبين أهل العجم ، فمثلا كنت أنا الذى أدعو رفقاء السيارة إلى تناول الطعام . أو المرطبات ، ولم يحاول أحدهم ذلك ، عكس ما رأيت فى تنقلاتى ببلاد العراق ، وأول ما آلمنا من أهل فارس المعاملة السيئة التى لاقيناها فى الجمرك ، حيث كان التفتيش شديدا شدة غير معقولة ، فقـــد أخرنا عمال الجمرك سبع ساعات فى غير ضرورة ، وكنا

كلما حللنا محطة جديدة طلبت جوازات السفر وفحصت ووقفنا ننتظر التاشيرات طويلا وبعد تمام أربع وعشرين ساعة دخلنا :

كرمان شاه : وهى مدينة أشبه بالمراكز المتأخرة عندنا ، حللت بها نزل (فرنسا) أجمل فنادق البلدة ، والطعام فيه شرقى شهى ، ولقد مكثت فيه يومين لأستعيد قواى بعد عناء اليومين السالفين . أخذت أجول فى المدينة ، وإذا سيل المتسولين دافق بحيث لا تمضى دقيقة دون أن يتوسل اليك أحد طالباً الاحسان وكثير منهم يتخذون الأمر حرفة ، وما كاد الأصيل يقبل حتى أدهشنى سيل السيدات يختلطن مع الرجال ، وهن نصف محجبات يلبسن إزاراً شبيهاً بإزار أهل العراق ، لكن النقاب شبكة من قماش أسود مقوى تقف مائلة أمام الوجه ، وما كان أشد دهشتى عندما علمت أن جل أولئك من المبتذلات ، ولعل سبب ذلك الفقر ، والعوز المالى ، وزواج المتعة المنتشر فى فارس كلها ، وضعف صحة الرجال لادمانهم الأفيون . مما جعل ألوانهم شاحبة ، وجسومهم ضامرة ضعيفة ، وقد ساعد ذلك على عجزهم حتى عن العمل ، فزاد فى فقرهم ، وفى عدد متسوليهم وكم كنت أرى من الشبان من لا يكاد يسير على قدميه فى تقاطيعه الغائرة ، ولونه المصفر ، وكثير منهم يبدو فى هياكل عظيمة ، وقد علمت أن الحكومة قد أباحت شرب الخمور بعد أن كانت محرمة كى يقبل الناس عليها ويغفلوا الأفيون . لكنى لاحظت الكثير منهم يدمن النوعين معاً ، وزراعة الأفيون فى بلاد فارس قديمة ترجع إلى عهد سومر وبابل منذ ستين قرنا قبل الميلاد وتنتشر فى نحو ١٨ مديرية من ٢٦ ، ويقدر انتاج البلاد منه بنحو مليون ونصف مليون رطل ويعيش على تجارته خلق كثير ، فمثلا ربع سكان أصفهان يشتغلون به وهو ثانى الصادرات (بعد البترول) ، ويصدر ثلثا محصوله بعد أن تتسلمه الحكومة لأنه حكر لها ، وقد بلغ الصادر منه سنة ١٩٣٠ بنحو ١٫١٥٠٫٠٠٠ جنيهاً ، وغالبه يصدر إلى الشرق الاقصى عن طريق سيبريا ، والأفيون

الفارسى من اجود الأنواع فى العالم ، ويستهلك ثلث المحصول فى فارس نفسها ، وجزء كبير يباع فى البلاد تهريباً ، فهو يدر على الناس ما لا يقل عن ربع مليون جنيه من الأرباح ، وتدخينه منتشر فى كل البلاد خصوصاً الجنوبية ، وفى طهران نفسها ، فمن سكانهـــا الذين يبلغون ربع المليون أكثر من ٢٥ ألفاً يدمنون تناوله . أما فى كرمان من بلاد الجنوب فيتناوله ٢٥ ألفا من ستين ألفا مجموع سكانها حتى يقول الفرس وهم يمزحون (فى كرمان يدمن الأفيون أربعة أشخاص من كل ثلاثة من السكان) ورغم أن عصبة الأمم لا تبيح أكثر من أستهلاك ١٢ رطلا لكل عشرة آلاف نسمة ففى فارس يستهلك كل عشرة آلاف ٤٥٩ رطلا ، أى ثمانية وثلاثين ضعفاً ، ويساعد نشره هناك ويبرر تدخينه بعض الشيء أنه مورد كبير لهم ، وأن له بعض الفوائد ، فهو ينفع ضد قرصة البرد التى تصيب القرى الجبلية شتاء وقد عرفت فائدته فى التخـــدير ، وكان يضاف إلى لحوم بعض الأفاعى وسمى (تيريس) أو (تريا كا) ، والفرس يسمونه ترياكا والمدمن له ترياكيا ، ورغم أن الحبة الواحدة منه تضر ضرراً بليغاً ، فان الفارسى يبتلع حبات عدة ولا يموت لكن ذلك قد سمم جسمه ، ومن أخطر أضراره : انحلال الجسم ، واكتئاب الفكر ، وغباء العقل ، وهم لا يكتفون بتناوله أو تدخينه كباراً بل يعطونه مخففا للأطفال . فالأمهات يسقين الأطفال منقوع قشر الخشخاش لينيموهم ، ويسمونه هناك (شربات باشا) أى شراب الأطفال ، وبعضهن يضع حبة منه تحت ظفر الأصبع ويتناوله الطفل ليرضع منه وينام . أليس فى ذلك أكبر الخطر على أجيال الفرس المقبلة من الوجهـة الصحية والعقلية ؟ ويبلـــغ من قوة تأثير الأفيون أن الحيوانات التى تعيش فى حجرة تدخين الأفيون تعتاده فتضطرب إذا منع عنها ، فكأنه أثر حتى على حيوانهم فأضحى مدمناً ؛ والحكومة هى التى تبيعه اليوم فى أصابع تلف فى ورق وثمن الواحد قران ونصف — والقران اثنى عشر مليما — وكنت أرى

رفقاء السيارة أينما سرت يدخنونه فى دواة اسطوانية مغلقة تماماً إلا فى ثقب يضعون فيه نصف هذا الأصبع أو ثلثه وللدواة (مبسم) فى طول



قباب مسجد الكاظمية يكسوها غشاء من الذهب الخالص فى بغداد

الشبر يضعونه فى الفم ، ثم يعمدون إلى قطعة من الجمر فى ملقط ويقربونها من قطعة الأفيون حتى تنفد ، ولا يضعون الأفيون فى (التمباك) أو التبغ كما كنت أظن من قبل .

وكنا نرى طوال الطريق الناس يحمل كل رغيفاً من الخبز يكاد يبلغ نصف قامته طولا ، والخبز هناك رقيق ممطوط كأنه الفطير يشوى على الجمر فيبدو أسمر محبباً .

الى طهران : قمت أغادر كرمان شاه تلك البلدة الفقيرة بمناظرها الفنية بيؤسها إلى طهران مسيرة ٤١٤ ك . م . بعد أن تعطلت يوماً آخر ، وذلك لأن المسافر مضطر أن ينتظر السيارات المسافرة إن لم يرد استئجار سيارة خاصة وهذه تكلفه كثيراً ، وكانت السلطة العسكرية إذ ذاك تسطو على سيارات

الناس لتضع فيها جنودها ومؤنها عنوة وبدون أجر وتقوم بها صوب الحدود التي كانت ثائرة هنـــاك ، لذلك كان كثير من أصحاب السيارات يخفونها فيفتش المسافر سراً حتى إذا ما تكامل عدد الركاب قامت بهم السيارة ، وفى طريقنا مررنا بآثار منقوشة على الجبل فى فتحتين ينبع من تحتهما ماء مثلوج وهى لدار يسمونهـا (طاق بستان) أو (بسيتون) وبجوارها صخر نقش بثلاث لغات منه أمكن العلماء فك طلاسم التاريخ القديم على نحو ما خـدمنا حجر رشيد فى مصر ، ثم مررنا بقرية (أسد أباد) الصغيرة وهى موطن السيد جمال الدين الأفغانى ، وقد لقب بالأفغانى خطأ فأثار المكان على صغره فى نفسى أجل الذكريات . وكانت سيارتنا (فورد) عتيقة بدا عليها الضعف ، فتعطلت بنا مراراً حتى انا قطعنا المسافة إلى همذان فى ثمان ساعات ، وزاد الطين بلة أن زملاء السفر بينهما اثنان ممن تأخـذ الخمر بلبهما ويدمنان الافيـون ، فكلما مررنا بمقهى أو (شاى خانة) ، وتلك كثيرة على طول الطريق ، أوقفوا السيارة ونزلوا يشبعون أمزجتهم ، أما أنا فكنت أطلب الشاى يقدم لنا بدون سكر ويضع الرجل فى يدك بعض قطعه الصغيرة ، تلقى بالقطعة فى فمك وتشرب عليها الشاى وتلك طريقتهم فى شربه فى بلاد فارس كلها ، وكان من الرفقاء واحد يعرف قليلا من العربية ، فأخذ يحدثنى عن بلاده فى نغمة المبالغة ويحاول اظهار كل شيء بمظهر الفخامة والعظمة فتعرض للتاريخ، وأشاد بماضى فارس المجيد ، وثنى على الانجليز والروس ، وأخذ يلعن ويطعن ويقول بأن الفرس نجحوا تماماً فى طرد هذين الـكابوسين وكلاهما مبغض لجميع أهل فارس ، كذلك فهم يبغضون أهل العراق ويطمحون إلى تملك بلادهم يوما وهم جميعاً يمقتون العرب المقت كله ويتبرأون منهم ويقولون بأن العرب رغم أنهم أدخلوا الاسلام فى بلادهم واحتلوها طويلا ، فان فارس حافظت على شخصيتها ولغتها ، وهم ينظرون إلى العرب نظرة احتقار ويفاخرون بأنهم من أصل آرى لاسامى ، ولعل ذلك راجع إلى أنهم يثأرون

لماضيهم الذى هزه العرب يوم فتحوا بلادهم . حدث أن عرفنى هذا الرفيق بآخر لاقيناه فى نزل فى همذان وقال له بأنى مصرى أتكلم العربية ، فكان جوابه فى غير ذوق ولا أدب : إنى أمقت العرب مقتاً .

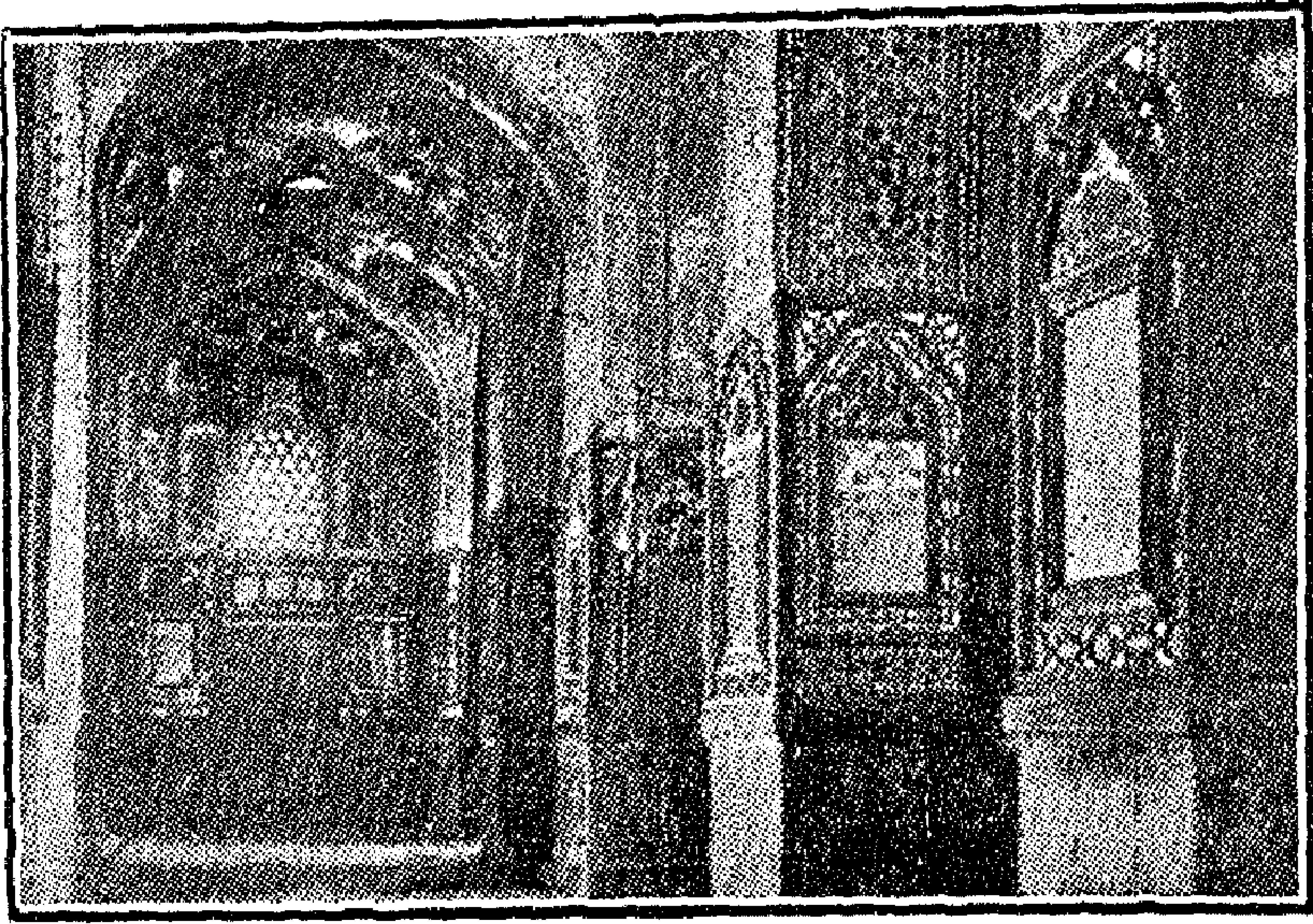
ومن مبالغات صاحبى هذا : أنه قال بأن طهران تحكى فى عظمتها برلين وباريس . فلما جئتها لم أجدها شيئاً يذكر إلى جانب أسيوط مثلا . ونغمة التفاخر وحب الفخفخة طبيعية فى أهل فارس جميعاً ، ورغم أن ذلك ضعف خلقى فانه فضل من جانب العصبية القومية والاعتزاز بها .

وكنت أعجب لتلك الوحدة القومية التى كنت أشاهدها تسود أهل فارس جميعاً رغم شقة الخلاف الجنسى واللغوى هناك ، فالتقاليد الفارسية لا يكاد يكون لها وجود بينهم لكثرة الامتزاج الجنسى ، ومع ذلك كانت الوحدة القومية قويه جداً ، وهم كالانجليز من أكثر الشعوب اختلاطاً ، فأول من نزل بلادهم القاطنون حول بحر الخزر ، ثم دخل الآريون النورديون من شرق الروسيا ، والطورانيون المغول من غرب سيبيريا منذ ٢٠٠٠ ق م ، وقد قيل إن بلاد العرب خضعت لثلاث قوى جعلت منها وحدة سياسية : اللغة ، والدين والتقاليد ، وهى أكبر مساحة فى الدنيا حل بها هذا ، وساعده تشابه البلاد فى الظروف الطبيعية ، أما فارس فعلى نقيض ذلك ، تقوم بها نحو ست لغات مختلفة ، تنقسم كل منها إلى لهجات عدة — وان أخذت تسود اللغة الفارسية اليوم بفضل انتشار المواصلات والتعليم والخدمة العسكرية ، فنحو ثلاثة أرباع الناس يتكلمونها اليوم — كذلك فى الدين ترى شيعاً مختلفة هناك ، وإن كان غالب السكان من الشيعة الذين يفوقون عشرة ملايين ، ولا يزيد السنيون على ثلاثة أرباع المليون ، ويحلون نواحى كردستان ، وأذربيجان ، وبلوخستان ؛ ومن الأقليات المسيحيون ، والبارسى عبدة النار ، والصوفية ، والبهائية التى أثرت على العقول المثقفة هناك زمناً ، وبدرجة قد تفوق أثر الاسلام ، ولقد قاومت الفلسفة الزردشتية هناك الاندماج فى

العرب ، ولذلك لا يعد الغزو الاسلامى نصراً من هذه الناحية ، ويخال البعض أن سبب ذلك يرجع إلى أن جنود العرب لم يصحبوا نساءهم معهم فتزوج غالبهم من الفرس ؛ فتبع الأبناء أمهاتهم ووعوا مالقنوهم من تقاليدهن الفارسية ، فخرج من ذلك نشء جديد يغاير الحاكم والمحكوم ، ويقول المستشرقون إن الفرس كانوا أرجح عقولا وأكثر مغامرة ونشاطاً من العرب سادتهم ، ولما اجتاح بلادهم المغول عهد هولاكو وتيمور لنك استخدموا موظفين من الفرس ، وأبقوا القوانين الفارسية ، ولما جاءت أسرة الصفويين وحدت البلاد . ولما انقضى عصرهم فى منتصف القرن الثامن عشر كانت العناصر الفارسية هى السائدة فى البلاد . فأهل فارس وحدة قومية قوية تفوق فى عصبيتها شعوب آسيا جميعاً ، وكثيراً من شعوب أوروبا ، والفارسى رجل اجتماعى فى مجموعه ، يفوق فى تلك جميع الشرقيين وأكثر الفئات ميلا للاجتماع فى الشرق عادة الطبقات الارستقراطية الراقية فقط ، أما فى فارس فترى حتى عامة الناس والطبقات الوضيعة كذلك ، والفارسى أكفأ من العربى فى الصناعة وأقدر على إدارة الاعمال ، والظهور بمظهر الرآسة ؛ لذلك كنا نشاهد كثيراً من رؤساء البوليس فى الأفغان والعراق وفى الهند من أصل فارسى ، فالفارسى قوى الملاحظة سريع التعلم ، وإن مال إلى النظريات الفلسفية أكثر من ميله إلى العمليات . وهو مرح يحب الشعر وأوتى قدرة مدهشة على استظهاره ؛ فبعضهم يحفظ ديوان سعدى وحافظ ، وقصص زهراب عن ظهر قلب ، والفرس كسائر الأمم الاسلامية ليس بينهم نظام الطبقات ، وفى تقديره للجمال يفوق الكردى والعربى والأفغانى ، وهو يخلق لنفسه السرور مما حوله من ظروف ولو كانت شديدة وقدرته العسكرية يؤيدها التاريخ منذ زمان بعيد

أمضينا ليلتنا فى همذان : فى نزل جميل وتجولنا بها فى الصباح فظهرت تفوق كرمان شاه عمرانا وامتداداً تحفها البساتين اليانعة ، وارتفاعها ٦٠٠٠ قدم

يشرف عليها جبل ألوند (Alvend) وموقعها جميل جذاب ، وهى وطن بديع الزمان وبها مات ابن سيناء .



الاسراف فى الزخرف داخل مسجد الكاظمية ببغداد

وفى الميدان حركة هدم للقديم وانشاء جديد وهى السنة التى يسير عليها شاه أيران المصلح اليوم ، ولذلك أحبه الناس حبا جما وزينوا دورهم ومتاجرهم بصورته ، ولا يستطيع أحد التعرض للأحزاب والسياسة ومن فعل لاقى حتفه وقد أقام من الناس عسسا على بعضهم ، وهؤلاء يجزون خيراً على تبليغاتهم والنزعة العامة الأصلاح ورفع شأن البلاد وايقاظها من سباتها الذى غطت فيه أجيالا .

قمت من همذان الحادية عشرة صباحا إلى طهران ومررنا بمساحة شاسعة من سهول كثرت بها المزارع ، وفى السادسة مساء دخلنا بلدة قزوين أى بعد سبع ساعات رغم جودة السيارة ومهارة السائق ، فعجبت كيف كان القوم ينتقلون قبل مجىء السيارات — ولم تستعمل لديهم إلا بعد الحرب العظمى — كانت تنظم القوافل بالدواب من بغال وحمير لنقل المتاع فكانوا يقضون فى طريقهم شهوراً متعبة مضنة وهم معرضون لخطر هجمات اللصوص ولم يكن

الأمن منتشراً كما هو اليوم ، ولا نزال نرى لتلك الحيوانات بقية فى كل مكان خصوصا فى الريف ، والقوم جميعهم مهرة فى ركوب الخيل فهى مطيتهم الرئيسيه إلى اليوم ، والحق أن السيارات تلعب دوراً هاما فى تطور البلاد يشتغل بها نفر عديد ، وأينما حللت وجدت (الجراجات) تلحق بها (المسافرخانات) لنزول المسافرين ، وقزوين بلدة صغيرة ولكنها أجمل من همذان لأنها كانت يوما ما عاصمة الشاه عباس ، يسترعى النظر بها دار النظمية فى بواباتها الشامخة يزينها القيشانى الأزرق البديع ، وآى الذكر الحكيم كذلك مسجدها الجامع بقبته الزرقاء الجميلة ، وقد أقام الصلاة فيه خالد ابن الوليد والحسن بن على الذى كان يصحبه فى الفتح الاسلامى ، وكثير من أحياء البلدة قديم أقيم فى سراديب ضيقة محجبة عن وهج الشمس ، وبخاصة الأسواق الملتوية ، وقد لاحظت جودة الطرق ورصفها على جانبى همذان وعلمت أن الفضل فى ذلك يرجع للانجليز والروس إبان الحرب ، فكل فريق كان يخشى الآخر ، الروس زاحفون على همذان من الشمال والانجليز من الجنوب . واصلنا سيرنا صوب طهران وسط الربى الجافة ، وفى بلدة كرج التى تبعد عن طهران بساعة واحدة عجز السائق عن السير وقد دارت رأسه ولعب الافيون بعقله ، فأصر أن ننام ليلتنا هناك فخضعنا لامره ، وفى الصباح كانت البلدة وسط مزارع غنية وشجر كثيف ، وهى من أشهر الاراضى الزراعية فى إيران كلها ، لذلك أقيمت بها مدارس الزراعة ومصانع لسكر البنجر الذى يزرع حولها ، وفى ضحى الخميس ٣ أغسطس دخلنا :

طهران : فأخذنا نمر وسط بلدة مخربة متهدمة من أثر معاول الاصلاح الجديدة التى بدأت تحاول القضاء على القديم ، وتقيم العمران على أحدث نظام فالطرق زيد فى اتساعها ، وبدىء فى رصفها بالاسفلت بعد أن كانت أقبية وطيئة مغلقة وكانت تبدو على بعد جبال (دماوند) أعلى ذرى فارس (١٩٫٤٠٠ قدم) وأروعها تكسوها عمائم الثلج الابيض الوضاء ، وخلف

القمة تمتد جبال البرز وبلاد طبرستان القديمة. حللت بها نزل (جراندأوتيل) من أكبر فنادقها فى شارع (لالزار) أحدث الطرق التى تم تنسيقها عندهم ، ثم طفت بأرجاء البلدة فراقتنى بواباتها العالية المزدانة بالقيشانى والنقش البديع وهى من أخص مميزات طهران أذكرتنى بعاصمة الصين : بكين وبواباتها أما أسواق البلدة فحدث عن جاذبيتها شعابها لا تدخل تحت حصر وكلها مغلقة بالاقبية وجماهير الناس بها متلاصقة وأصواتهم لا تخبو قط ، وغالب البيوت ذات مدخل مزركش بالقيشانى يؤدى إلى فناء يتوسطه حوض ماء كبير يغتسل فيه القوم ويغترفون ما يحتاجون من ماء والحجرات تطل على الفناء فى مربع ذى شرفات جميلة ويغلب أن تزينه حديقة بسيطة ، والفرس مشهورون بميلهم للحدائق مثل اليابانيين وإن أعوزها التنسق وكمال الذوق وبالمدينة عدة مساجد فارسية الهندسة قصيرة المآذن نحيلتها ، والمقاهى هنالك قليلة بالنسبة لما رأيته فى العراق ، وأحب وسائل اللهو دور السينما .

والنساء نصف سافرات يلبسن الازار المهفهف وعلى الوجه ظلة مخرمة أفقية ، وقليل من لبس الزى الأفرنجى . وهن أكثر حرية من نساء العراق ، وجمالهن فائق لولا طول الانوف وتحديبها .

قمت يوم الجمعة متعباً ، لأن شدة الحر لم تمكنى أن آوى إلى مضجعى إلا فى ساعة متأخرة من الليل ، والجو هناك أميل إلى الحرارة لكنه أرحم بكثير من بلاد العراق ، والسماء تغشاها الغيوم المتقطعة مما يخفف من وهج الشمس بعض الشىء ، خرجت أجوب أرجاء البلد ، وإذا المدينة هادئة الحركة ، مغلقة المتاجر ، لأن يوم الجمعة هو يوم العطلة العامة ، وغالب أصحاب الأعمال يحترمونه فيوقفون أعمالهم ، والناس هناك أنظف من أهل الريف وإن كثر بينهم المتسولون كثرة مروعة ، فالتسول والفقر آفة مهلكة ، وإن وجد من بين الفرس أفراد مفرطون فى الغنى ، ومن العادات المنفرة بينهم جميعاً : التجشي ، والبصق ، والتمخط أينما وجدوا ؛ وحتى المهذبين منهم

ترى الواحد لا يمسح أنفه بمنديله، بل يضغطه بين إصبعيه، وينفر نفرة تشمئز لها النفوس، على أنهم مؤدبون تسمعهم يرددون (خليلي ممنون) ومعناها : (عظيم الشكر) دائماً، وإن أرادوا الاستفهام. أو النداء أو الرضى بما يقال صاحوا قائلين (بلى) بإمالة اللام فى رقة وأدب، ويبدأ الكبار بقولهم (سلام عليكم) والصغار بقولهم (سلام) فقط سواء أعرفوك أم لا، وأزياؤهم اليوم تكاد تكون موحدة، فكلهم يلبسون الحلل الافرنجية وعلى رؤوسهم القبعات (البهلوية) وهى المميز الواضح لهم جميعاً، ولا تكاد ترى للزى القديم اليوم من أثر وهو العمامة أو (القاووق) والعباءة من الصوف، وقد استثنى الشاه من ذلك رجال الدين يظهرون فى عمائمهم السوداء وقليل ماهى.

ويخيل إلىّ أن مستقبل طهران بل وإيران كلها سيكون عظيما بفضل مجهود الشاه الحالى، فهو يريد أن يرى بلاده تناظر فى القريب بلاد الغرب رونقاً ورواء، لذلك أخذ يهدم القديم وينشىء الحديث بسرعة عجيبة فى كل البلاد، ولقد أعاد لبلاده هيبة فى قلوب الأجانب انتزعها منهم انتزاعاً، وقد كان مركز البلاد مهدداً باعتداء الروس من الشمال، والانجليز من الجنوب، وزاد ذاك الخطر منذ سنة ١٩٠٦ حتى كانت الحرب الكبرى فتقدموا داخل البلاد بحجة مطاردة الأتراك، ولما أن انسلخت الروسيا عن الحلفاء خشيتها انجلترا واحتلت بلدة (قزوين) وما جاورها، خصوصاً وقد نشطت حركات البلشفيك عند بحر الخزر وفى أذربجان، وأخذت شروط ولسون تلعب بلب الناس فى فارس تحت زعامة رضا خان، فعرض الروس تنازلهم عن معاهدة ١٩٠٧، واستعدادهم للتنازل عن جميع الامتيازات التى كانت للروسيا فى فارس. وفى يونية سنة ١٩١٩ قدم ممثل السوفيت فى فارس التصريح التالى :

(١) التنازل عن الديون الروسية فى فارس.

(٢) التنازل عن التدخل فى شئون فارس.

(٣) إلغاء الامتيازات والمنح الروسية هناك.

(٤) التنازل عن البنك الروسى فى فارس .

(٥) ترك الطرق والسكك الحديدية الروسية للحكومة الفارسية :

(٦) التنازل عن كل أملاكهم هناك ، وكان غرض الروسيا من ذلك إحراج انجلترا ، ولقد اعترفت روسيا باستعدادها لمساعدة فارس عسكرياً ضد أى اعتداء وجعل بحر الخزر بحراً حراً لها ، وبذلك أضحت العلاقة بين الدولتين وثيقة جداً لكن العلاقة ضعفت قليلا لما حاولت الروسيا بلشفة فارس وكانت على وشك الزحف لولا أنها خشيت انجلترا من الجنوب ، وكان الفرس مهرة فى انتهاز الفرص ، وأتاحت لهم الظروف قائداً عظيما هو (رضا خان) من عائلة متوسطة حارب مع الروس وأحبه جنوده فزحف بهم على طهران سنة ١٩٢١ وأصبح القائد العام ووزير الحربية ، وفى اكتوبر سنة ١٩٢٣ أضحى رئيس الوزراء ، ثم اعتلى العرش فشابه مصطفى كمال فى أنه رجل سياسة ورجل سيف معاً وهو محب للنظم الأوربية لكن يظهر أنه كان أحكم من مصطفى كمال لأنه أدخل إصلاحاته دون أن يغضب رجال الدين ، ووجه أول اهتمامه لاصلاح الجيش فأعد جيشاً محترماً من أربعين ألف مقاتل وبينا السلطان احمد شاه يتريض فى الرفييرا كعادته قام رضا خان وكاد ينتخب رئيس المجلس لكنه قال بأن النظام الجمهورى يتنافى مع أصول الدين الاسلامى فتوج ملكا سنة ١٩٢٥ . وأجلس على عرش المغوليين فى قصر جولستان ، وكان قد اغتصبه نادر شاه من الهند قديماً ، ثم عدل الدستور ، وتم ذلك دون إراقة قطرة دم واحدة ، وأخذ تواً فى إعادة النظام وأصلح الضرائب والمالية بمعاونة بعض الأجانب من أصدقائه ، وفى ١٩٢٨ فتح البنك الملى (الأهلى) ووطدت علاقاته السلمية مع جيرانه ، وفى ١٩٣٢ أصبحت بلاده عضواً فى عصبة الأمم ، وطالبت بما يأتى :

(١) إلغاء اتفاق الروس والانجليز سنة ١٩٠٧ وإلغاء المحاكم القنصلية والحرس القنصلى .

(٢) تعويض عن المناطق التى خربت خلال الحرب وإلغاء المنح المالية لتستقل البلاد مالياً .

(٣) تثبيت الحدود الفارسية ، لكن الانجليز اشترطوا أن تتعاون فارس مع انجلترا وأن تقبل مستشارين منهم ومدربين للجيش الفارسى فكان رد الشاه على ذلك الرفض فى إباء والتهديد بالحرب فكأنهم اعتمدوا على نفوسهم وأزاحوا الكابوس الأجنبى ، وألغوا الامتيازات التى كانت تفت فى عضدهم ، وأضحى بغضهم للأجانب شديداً ، وبخاصة الانجليز ، والشاه والشعب الفارسى يتصرفون فى كل ما له علاقة بالأجانب فى شدة وصرامة لا تقبل هوادة . بلغنى أنه حدث مرة أن أحد الألمان زار طهران ، ولما عاد لبلاده كتب نقداً لفارس عموماً ، ولاستبداد الشاه خصوصاً ، وكانت الكتابة ماسة بكرامة البلاد ، فعرض سفير الفرس فى برلين الأمر على القضاء فحكم ببراءة الكاتب ، وبمجرد وصول الخبر لمسامع الشاه أصدر أمراً بالاستغناء عن جميع الموظفين الألمان فى بلاد فارس كلها — وقد كان جل الخبراء الأجانب الذين تستعين فارس بخدمتهم من الألمان والفرنسيين — فكانت تلك مباغتة قاسية عاد الألمان يصلحون مركزهم بعدها من جديد ، وقد لاقانى عالم ألمانى فى مشهد : (الدكتور پاسوفبس) ، وهو ممن يقومون هناك باصلاح ذات البين ، وإرجاع المركز الألمانى لما كان عليه لدى الشاه . تصرف حازم يدل على مبلغ احترام القوم لأنفسهم والمحافظة على قوميتهم .

دهشت كيف تكون بلاد كهذه نحن نفوقها فى التقدم بخطى واسعة قد تحررت من الامتيازات الأجنبية ، ونحن نرسف فى أغلالها ؟ أليس الأمر مجرد جرأة فى الاقدام على إلغائها فى غير تردد فنحفظ بذلك كرامتنا وندل على أنا شعب جدير بالاحترام ؟

بعد أن اطمأن لالغاء الامتيازات وعدم تدخل الاجنبى ، بدأ باصلاحاته

الداخلية ، فمن الوجهة المالية اتخذ الذهب معياراً للنقود ، بعد أن كانت الفضة من قبل ، وجعل التجارة الخارجية احتكاراً حكوميا ليقاوم زيادة الواردات



مسجد الاعظمية فى بغداد وفيه يدفن الامام أبو حنيفة

ومنع دخول الفضة بتاتا ، وعدل الضرائب ، فبلغ الدخل خمسة ملايين جنيه. يضاف إليه ضريبة السكر والشاى ، وهى حول مليون جنيه ، وضريبة الطرق حول ستمائة ألف جنيه ، وضريبة البترول ، وهى ١١٥١٩٧٩ جنيها ، وقد نفذت ضريبة الدخل — ولا نستطيعها خوفا من الاجانب — منذ ابريل سنة ١٩٣٠ وتشمل ٣ ٪ من أرباح الشركات ، وبين ١ و ٦ ٪ ممن زاد دخلهم على ٥٠٠ تومان (والتومان اثنى عشر قرشا) والجمارك أهم موارد الدخل

العام وهو ينفق على الجيش ٤٤ ٪ من مجموع الدخل .

ولقد بدأ إصلاح الجيش بمعاونة مدربين من السويد ، وفى سنة ١٩٢٦ جعل التجنيد إجباريا ، فخريجو الجامعة لا بد أن يخدموا فى الجيش سنة واحدة ، وطلبة المدارس الثانوية سنة ونصفا . ومن يعولون أسرة يخدمون أربعة شهور ونصفا ، ويشرف على وزارة الحربية الشاه نفسه ، ومجموع الجيش النظامى كامل العدد اليوم ثمانون ألفا ويحاولون إبلاغه مائة ألف ، وفى طهران مدرستان حربيتان يدخلهما الحاصلون على الشهادة الثانوية فضلا عن البعوث الحربية الكثيرة إلى ألمانيا وفرنسا ، وقد بدأ نواة الاسطول البحرى والجوى ، والحربية غير مسئولة أمام البرلمان بل أمام الشاه وحده .

أما فى التعليم فقد عمم المدارس القروية ومدتها أربع سنين ، ومدارس المدن مدتها ست . ثم المدارس الثانوية ست أخرى وبعدها المدارس العليا وهو يحاول جعل التعليم إجباريا ، وأهم ما يرمى إليه التعليم هناك الاعتزاز بالوحدة القوميه ، وتمجيد ماضى البلاد وتثقيف العقل والجسم والتربية الدينية .

ويعنى الشاه اليوم بالطرق العناية كلها . حقا شهر الفرس بذلك من زمان بعيد حتى قيل إنهم أول الأمم فتحا لها ، فقد عبدوها منذ سنة ١٧٠٠ ق . م وكنا نشاهد بعض أطلال من القناطر والجسور القديمة لا تزال باقية . ولقد كانت شهرتهم تفوق فى الطرق شهرة الروم . ولقد كان النقل إلى الحرب الكبرى بالدواب ، لكن تدخل الانجليز والروس ساعد على العناية بالطرق وربطت أطراف البلاد بالسيارات ، كذلك شجعت الظروف الحربية إقامة المطارات ، وقد تسلمها الفرس اليوم ، وبفضل العناية بالطرق زاد نفوذ الحكومة المركزية ورخصت اجور نقل السلع التجارية ، وخفت ويلات المجاعات وقد أمن الشاه تلك الطرق باقامة المخافر على امتدادها فى فترات قصيرة وحتى وسط الجبال المقفرة التي لا يقطنها أحد إلى ذلك الا كثار من (المسافرخانات)

او (كرافان سراى) فى كل مكان ، ومن أول مايشغل اهتمام الشاه السكة الحديدية التى يفكر فى نشرها جديا ، وقد بدأ العمل فى وصل البحرين : الخزر والخليج الفارسى بخط حديدى لكى تستقل البلاد عن جاراتها فى أمور النقل والتجارة ، وهو ماض فى مدها رغم كثرة الصعوبات التى تواجههم كرداءة الثغور فى البحرين وكثرة الجبال فبين طهران وبحر الخزر ما لا يقل عن ٢٥ ميلا من الانفاق ، لذلك ستكلفهم السكة غاليا ، ويرى البعض أنه يفضل مد الخط بين طهران وبغداد ، ولم يقبل الشاه أن يعرض الأمر على شركات أجنبية بل يعتمد فى النفقات على ضرائب السكر والشاى التى تزيد وحدها على مليون جنيه كل عام ، ويخال بعض الاقتصاديين أن فى ذلك خطرا على ثروة البلاد وتعطيلا لأموالها التى هى فى حاجة اليها فى أمور أخرى ، على أن ما قاسوه من عبء التدخل الأجنبى الممقوت جعله ينأى ما استطاع عنهم وعن رؤوس أموالهم . وقد جاءت الأنباء منذ شهرين بأن الخط قد تم وافتتحه جلالة الشاه .

على أن البلاد ينقصها الشىء الكثير ، من ذلك الشئون الصحية والعناية بها ، فمياه الشرب مثلا من المشكلات هناك حتى فى طهران نفسها فهم اعتادوا من زمان بعيد أن يتعقبوا منابع العيون ويخضعوها لحفائر تسير منها سراديب إلى أحواض تختزن فيها وكلما طغت سال الماء الزائد إلى المجارى التى تسقى البلدان وتراها تجرى على جوانب الطرق مكشوفة لكل عابث ، فترى هذا يغتسل وبعده آخر يستق ، ثم ثالث يبصق ورابع يلقى بالماء القذر فيها ، وقد شاهدت فى طهران قوما يغسلون وجوههم من ماء يجرى بعد أن غسل به الطريق ولما وقفت مدهوشاً قالوا أليس ماءاً جارياً ؟ لذلك يشترى غالب الأجانب ماءهم من السفارة الانجليزية التى أقامت لها مضخة ومرشحا خاصا ، فليس بمستغرب إذن أنك ترى الأمراض منتشرة وبخاصة الجدرى الذى يشوه وجوه الكثير وتشويه العيون والقرع منتشر حتى بين الطبقة المثقفة ، فيندر

أن ترى رجلا من الطبقات الفقيرة سليم الرأس ، ويزيد ذلك سوءاً عدم صرف القاذورات ، فكثير من بيوتهم تخلو من (الأدبخانات) وغالبهم يقضى حاجته فى الخلوات ويغتسلون على مجارى المياه التى يستمد منها غيرهم ، والأطباء هناك قليلون ولذلك كان متوسط المتاع الصحى فيمن تتراوح سنهم بين ٢٥ و ٥٠ سنة أقل من نظرائهم فى البلدان الراقية بعشرة أضعاف .

إلى خراسان : اعتزمت القيام إلى أرض خراسان حيث مقر الامام الرضى أحد أئمة الشيعة وابن الامام موسى الكاظم فى بغداد وضريحه فى مشهد ثانية مدن فارس وأولى البلاد المقدسة فهى كعبتهم تبعد عن طهران مسافة نائية هى فوق مائة وستين فرسخا ، والفرسخ وهو وحدة قياس المسافات عندهم نحو ستة كيلو مترات أعنى نحو ألف كيلومتر أو يزيد كان القوم يقطعونها على متون الابل والبغال والحمير فيما بين أربعين يوماً وستين ، وهى بالسيارة اليوم بين يومين وثلاثة . أخذت مكاناً أمامياً فى سيارة كبيرة من ذوات العجل المزدوج برفقة ركب من الحجاج يناهز الخمسة والعشرين عدا بين نساء ورجال وشيوخ وشبان وبدأنا السير ليلا وكلهم إيمان صادق لا يبتغون من وراء كلفهم تلك ونصبهم هذا إلا زيارة قبر الامام ومعهم زادهم ، أما أنا فكنت أعتمد على المحاط ومافيها من وسائل ساذجة للنوم والطعام ، وبين آونة وأخرى كان يصيح الجمع فى ابتهال قائلين : (لاهم سل ألى مهمد آلى مهماد) .

وأخذنا نمر بالمحاط التى يسميها القوم مسافر خانات أو كرفان سراى ، وهناك نجد أمكنة تحكى الخان بها حجرات فقيرة الأثاث وغذاء بسيط كنا نتزود منه ونأخذ قسطاً من الراحة ثم نستأنف السير ، ولم تكن تقوى القوم لتنسيهم ملاذهم فقد كان الفريق الأكبر منهم يحمل الغلايين لتدخين الأفيون فينتحون جانباً من المكان ويمر الغليون عليهم جميعاً ، وكان فى جوارى إلى جانب السائق أحد علماء كربلاء بعمامته السوداء الضخمة ولحيته المرسلة وسحنته الناحلة وكان يتيه على الآخرين بعلمه وبأنه من سلالة هاشمية ومن

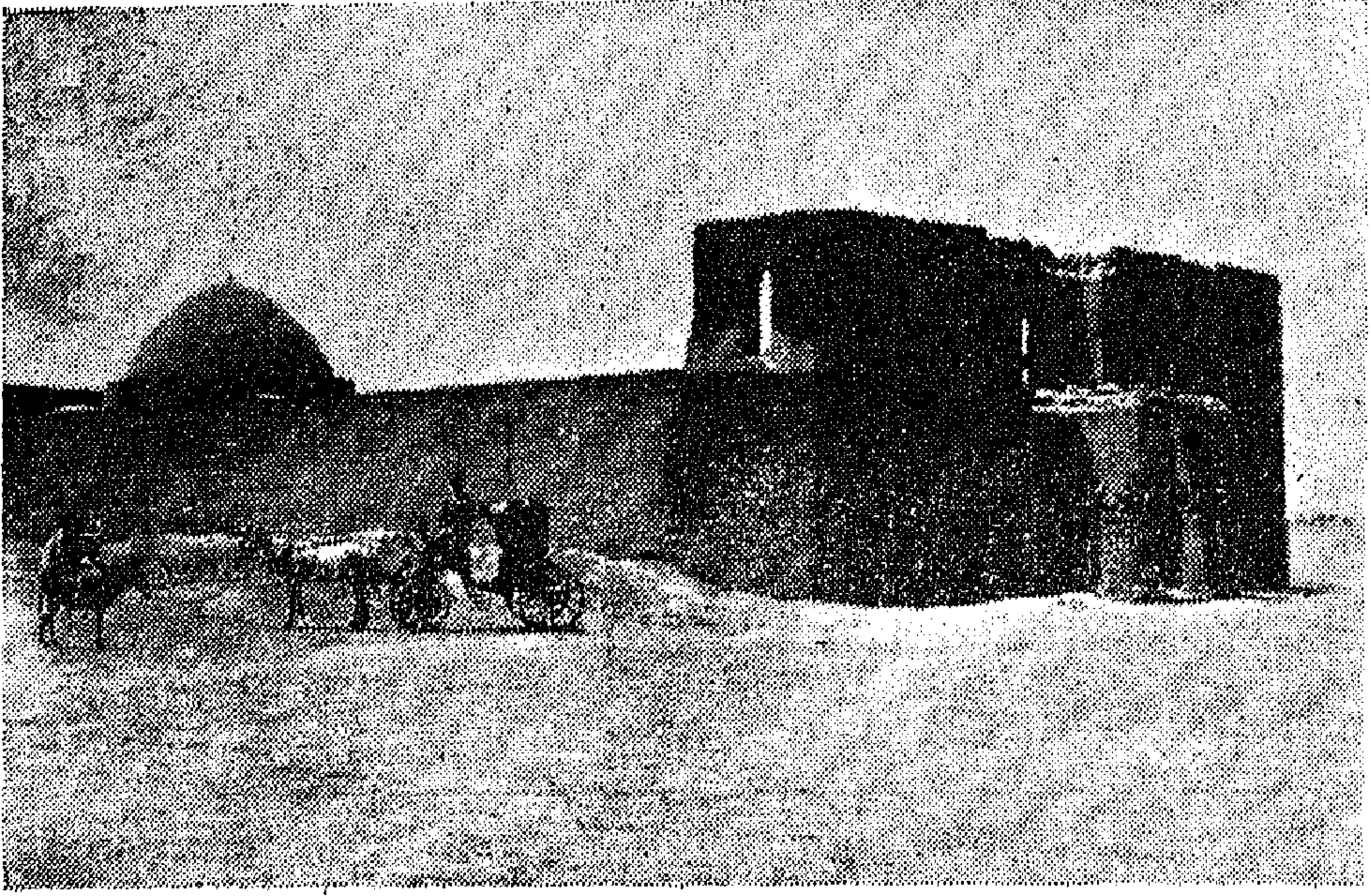
نسل العلم والعلماء ، ولأولئك على الناس حق العطاء . ويسمونه (حق الخمس) يقصدون الأغنياء كلما أعوزهم المال ليأخذوا منهم حقهم هذا لأنهم من السادة سلالة الرسول ، ولما علم الشيخ بأنى سائح سأكتب عن رحلتى قال لى أكتب عنى (أنا العلامة حجة الاسلام وفخر الملة والدين السيد . . . .) على أنى لما تحدثت إليه لم أجد من علمه مايؤيد تلك الألقاب إلا أنه رجل طيب القلب وديع الخلق كريم الطبع .

جد السائق فى السـير على ضوء القمر وقبس مصباحه فخانه نظره وما نشعر إلا والسيارة تنحدر بنا عن الطريق وتنزل هوة من دونها وادى سحيق ، فكادت تنخلع لرجاتها قلوبنا وصاح الجميع وارتطم هذا بذاك وذاك بجانب من السيارة ، ثم كانت صدمة عنيفة وفرقعة أصمت آذاننا وإذا هى صخرة كبيرة ناتئة فى منحدر الوادى توقف السيارة قبل أن تنقلب وقد أصيب من الركاب كثير ، ونالنى من ذلك شج بين العينين سال منه الدم سيلا ، وصدمة شديدة فى الركبة اليمنى أحدثت بها كسراً لبثت زمناً أعانى منه ، فقفزت من السيارة ونمت على الصخر تائهاً حتى الصباح حين رأيت العجلة قد كسرت من أساسها ، ولولا لطف الله لكنا اليوم فى عالم غير الذى نحن فيه . أمضينا يوماً كاملا فى تلك البرية المقفرة ولم يكن لدى زاد ولاقوت فتبلغت بكسرة أعارنيها أحد الحجاج حتى عاد السائق ومعه بديل عما كسر ، وكان قد رجع إلى طهران ثم عاد إلينا وأصلح ما أفسدت غفلته وأستأنفنا سيرنا حامدين شاكرين الله أن أنجانا من خطر الموت فى تلك الناحية النائية ، وكم من سيارة خانها الحظ العاثر فهوت وهلك من ركابها الكثير فى تلك الطرق الوعرة . ولقد عزا القوم سلامتنا إلى رضى الامام عنا ، وما كدنا نسير بعيداً حتى وقفت السيارة فجاءة وتبين أن البنزين قد نفد ولم يكن لدينا منه شىء فلبثنا مكاننا حيارى ساخطين جزعين أربع ساعات حتى مرت بنا سيارة أخرى أعارتنا بعض البنزين ، والسيارات الكبيرة تمر تباعا ذهاباً ورجعة فى كثرة هائلة كلها

تحمل جماهير الحجاج ، ويقولون بان هذا الخط على وعورته أكثر الجهات حركة فى نقل المسافرين لأن مشهد خير لديهم من مكة المكرمة تغنيهم عن بيت الله الحرام فى زعمهم ، فترى الفانى منهم والفقير المدقع يدخر أجر السفر ليصل إليها ، ويود لو يموت بها ليدفن فى أرضها الطاهرة .

لبثنا نسير وسط الربى وصعدنا ماهو بالغ الوعورة فى طرق لياتها المتعاقبة من الأعاجيب وكلها مجدبة عريت عن النبت إلا فى بعض بطون من الأدوية حيث كنا نرى سيلا من الماء يتلوى ، وتقوم القرى على جوانبه بأبنيتها الوطيئة من الطوب واللبن ، وبعد يوم ونصف دخلنا سهولا غالبها صحراوى ، وتلك بداءة أرض خراسان التى بدت أكثر جدبا من سابقاتها ، ومن البلدان الكبيرة التى مررنا بها (سمنان ودمغان وشاروت وسابزوار) ثم نيسابور وكلها كمراكز الصعيد عندنا حولها تكثر البساتين والمزارع ، وعجبت لأنى رأيت القطن يزرع هناك بكثرة ويؤتى محصولا لابأس به ، وقد أقاموا له بعض المصانع التى تستهلك غالب الخام ، وقد بلغنى أن ثمنه قد انتعش وأنا هناك فبلغ ١٢٠ قرشا للقنطار بعد أن هبط هبوطاً مخيفاً ، وزراعة الحبوب خصوصا القمح والشعير منتشرة فى كثير من بلاد فارس خصوصا خراسان ، وقد يزيد المحصول على حاجة الناس لكن رداءة طرق المواصلات وغلوها توقف تصديره وتجعله كثيراً رخيصا فى بلد وشحيحاً غاليا فى مكان آخر أهله يتضورون جوعا ، لذلك اضطرت الحكومة أن تحتكر الحبوب فى بعض الجهات ، وهى تتقاضى ضرائب الأرض حبوبا فى بعض الأحيان وبذلك حفظت أثمان الحبوب عند حدها المعقول ، وقاومت المجاعات التى كانت تفتك بالناس من قبل فتكا ذريعا ، وقد أقامت مخازن القمح فى البلدان الكبيرة لمقاومة ذلك ، والعادة أن الناس هناك يأكلون خبز القمح ممزوجاً بالشعير أما فى مناطق الشمال على مقربة من بحر الخزر فالأرز عمادهم ، ومن النبات الكثير النمو هناك الطباق والفاكهة والتوت لتربية دود القز ، ويزرع

قصب السكر حول بحر الخزر ، والبنجر فى جهات عدة ، فالزراعة الآن هى عماد البلاد ، والصناعة فى بدء ، وتحاول الحكومة رغم فقرها إقامتها مقتفية



نبي الله يوشع فى بغداد

أثر اليابان فى ذلك خصوصاً مصانع النسيج وتجفيف الفاكهة والسكر ، ولا يزرع من أراضى العجم أكثر من عشرها فقط ، وفوق نصف المساحة كلها لا يصلح حتى للمراعى الفقيرة إذا فرضنا أن رأس الغنم يحتاج إلى ثلاثة أفدنة فقط . أما الأغنام ذوات الذنب المنتفخ الغليظ الذى يزيد وزن الواحد على ثمانية عشر رطلا أواخر الربيع ، فيلزم للرأس منها عشرة أفدنة فى العام ومع ذلك ترى الأذناب ضامرة جدا فى فصل الشتاء وكنا نرى من هذه الكثير فى سيرنا . والرعاة ربع سكان العجم وهم طبقة مغيرة يخشى بأسها وبخاصة أهل خراسان ، ومثلهم مع المزارعين مثل الذئاب مع الحملان والأراضى غالبها فى ملكية طائفة قليلة من الملاك ، لكنهم يحسنون معاملة المستأجرين لقلة الأيدى العاملة ، والملاك هم الذين يقدمون الماء والبذور ويدفعون الضرائب مقابل استيلائهم على نصف المحصول ،

والزراعة على قلتها عماد ثروة البلاد رغم أن المزارع يغالب الطبيعة القاسية .

فمطر البلاد نادر وثلجها لا يسقط إلا فى الشتاء والربيع ، وبفضله أمكن الزرع ولما كان المطر غير ثابت أثر على الينابيع والمجارى فى الجهات الخصبة ، لذلك لا تكاد تزرع الأراضى الصالحة إلا مرة كل خمس سنين فى المتوسط ، ويخال البعض أن طريقة الزراعة (البعلى) تفيدهم كثيراً لو لجأوا إلى استخدامها .

وحالة الفلاح هناك لا بأس بها يسكن بيوتا من الطين وغذاؤه القمح والجبن واللبن الحامض ويسمونه (دوك) وفى الصيف يستهلك قدراً كبيراً من الفاكهة والخضر ، أما اللحم فمرة كل أسبوع فى الشتاء فقط . وأحسن الطبقات حالا التجار وهم معروفون بالمكر والدهاء حتى جرى المثل قائلا : أرمنى واحد يغلب عشرة من الأغريق ، لكن فارسياً واحداً يلعب بعقول عشرة من الأرمن .

استوقفت السيارة قليلا فى نيسابور مثوى رفات (عمر الخيام) الذى عاش فيها فى الربع الأخير من القرن الرابع عشر ، وأوصى أن يدفن فى بقعة تظللها الأشجار ويكسوها ورقها الذابل مرتين فى كل عام . زرت قبره وسط الحقول تظلله حقاً أدواح عالية قديمة ، وبجانبه قبة أنيقة عنى بإقامتها ونقشها العناية كلها فخلتها له وإذا هى مدفن محمد المحروق من سلالة الحسين ، وقد أسموه بالمحروق لأنه نزل ضيفاً على أحد سراة القرية ولما أن خيم الظلام اعتدى على بنت مضيفه فأحرقه الناس فى مكانه هذا ، ورغم جرمه هذا شيد قبره وقدسه الناس لأنه من سلالة طاهرة ! ويزور عمر الخيام من الأجانب خلق كثير لأنه قد خلد ذكراً بما كتب فى رباعياته التى ترجمها الناس إلى جميع اللغات ، ولقد أبى عليه علماء الدين تشييد مدفنه لاتهامهم إياه بالزندقة لأنه كان إباحياً فى شعره ، والحكومة تنوى إقامة بنيان يليق بمقامه ، لكنها لا تزال تخشى

غضب رجال الدين . عادت الربى فتسلقناها ثم أشرفنـا على مشهد وهى فى حجر الجبال بعد أن لبثنا فى الطريق ثلاثة أيام وأربع ليال كاملات قاسينا خلالها كثيراً . وهنا وقف السائق ونبـه القوم أن هاهى مشهد فارقبوها تبركا ، فأخذوا يحاولون رؤية القبة وسط الضباب والدخان المنبث ، وكل من لمح منها قبساً قرأ آيات التبريك وعمد إلى قطع الأحجار يجعلها فى كومة ثم أقبل على السائق يهبه من أنعامه ما تيسر .

مشهد مقدس : (طوس قديماً) دخلنا مشهد تحفها المزارع والبساتين وهى فى منطقة غنية بالفاكهة وبناصـة العنب ويسمى (أنجور) والخوخ واستوقفنا البوليس لفحص الجوازات ، وقد تكرر ذلك فى الطريق أكثر من عشر مرات ثم أخذنا نخترق طرقاً فسيحة يحفها الشجر وتقوم عليها المبانى الحديثة الوطيئة ، وقد كانت من قبل أزقة مختنقة كسائر بلاد فارس لـكن يد الاصلاح تناولتها اليوم على نحو مافعلت فى طهران ، وقد حللت نزل (مهمانخانة ملى) وهو جميل نظيف وقد استرعى نظرى بناء القنصلية البريطانية بعظيم امتداده وهو أثر من آثار النفوذ الانجليزى الذى كان يسيطر على البلاد حتى قال القوم بأنه حدث مرة أن حاول بعض الناس أن يعلو ببناء بيته الملاصق لها فمنعه القنصل إذ لا يجوز كشف حرمة الدار الانجليزية ، وقد كانت هذه البلدة داخلة فى النفوذ الروسى يوما ، لذلك لاقيت من الروس هناك الـكثير وغالب الأهلين يتكلمون الروسية . أما النفوذ المطلق اليوم فللفرس وحدهم.

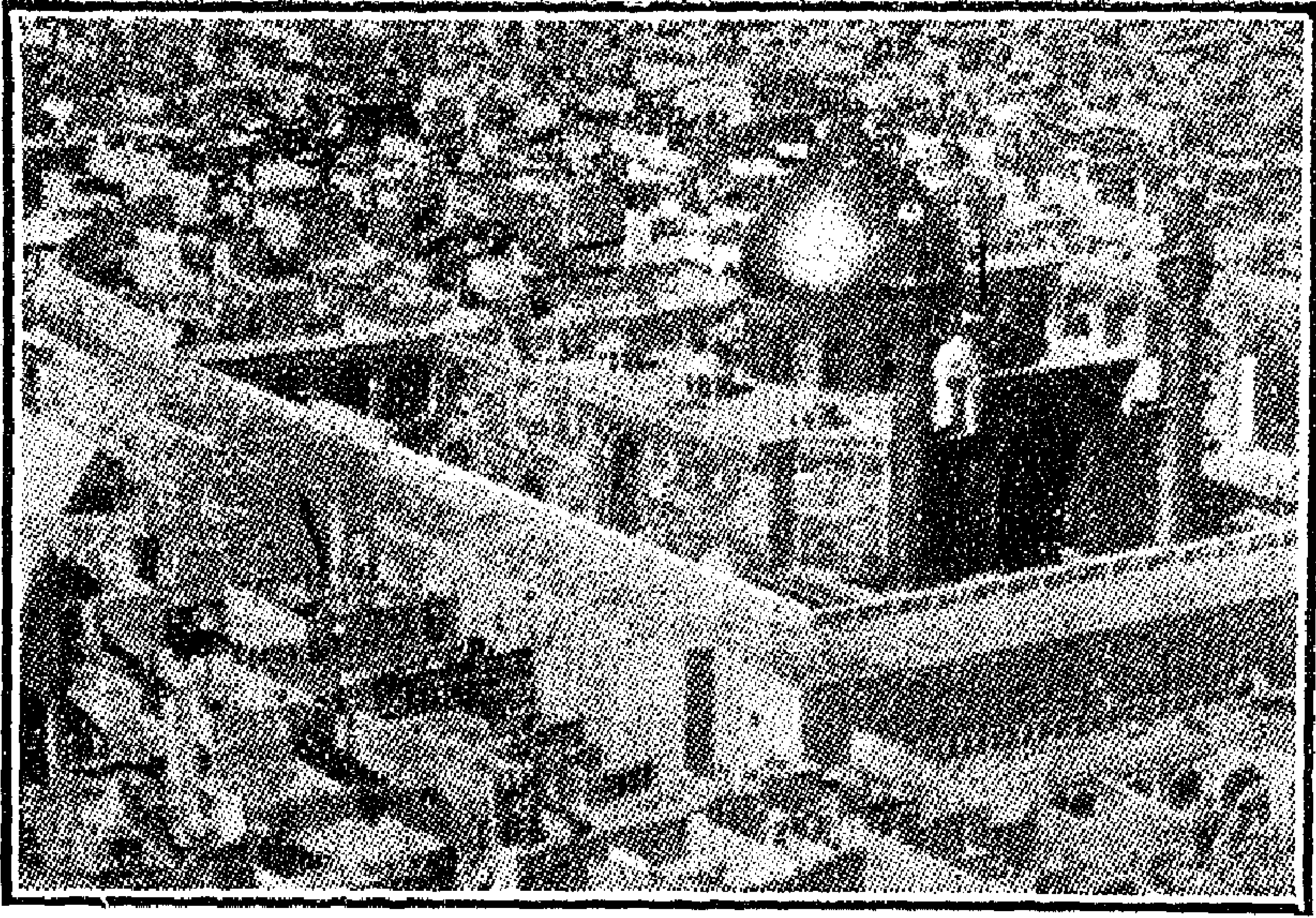
قصدت زيارة :

ضريح الامام الرضى : الذى بدت لنا قبته الذهبية البراقة من أميال وإذا المسجد والحرم فاخر إلى حد كبير مداخله عدة الباب تلو أخيه فى زخرف جذاب وفن شرقى بديع بالقيشانى والبللور والمرمر والرخام ، وأمام كل واجهة رئيسية بهو أو (صحن) مربع تحفه الحجرات المزركشة أقيمت لطلاب العلم فى طابقين وتتوسطه قناة الماء يغترف منها الجميع للشرب والغسل وتنظيف

الملابس والأحذية ومآرب أخرى ، والباب الرئيسى للضريح يكسى كله بالذهب الخالص فى فجوات وتعاريج جذابة ، وفوق الضريح قبة تكسى بالذهب الخالص ، وللمسجد مئذنتان دقيقتان عليهما غشاء من ذهب إلى ذروتيهما . أما عن العالم المتراص كالموج المرتطم هنا وهناك فحدث فى دهشة فائقة ، كنت أسير ولا أكاد أشق لى طريقاً بينهم ، ومنهم المثقف أنيق الهندام ، والمتسول البائس فى الخرق البالية والأقذار التى يشع منها الوخم وينبعث منها مكروب المرض ، فيوشك أن يحترق أجسادنا . هذا إلى العلماء فى عباءاتهم وعمائمهم السوداء للشرفاء منهم والبيضاء لغير الشرفاء يخضبون لحاهم المرسلة بالحناء ، ومن زوار الأجانب خلق كثير عراقيون وهنود وأفغان ومن كافة العالم الاسلامى ، وإلى جوانب الجدران كلها يرتمى الكثير فى خمول زائد ، وجلهم ممن أضناهم المرض وشوه البؤس أجسادهم ويتوسط أحد الأفنية سبيل مذهب أنيق فى داخله نافورة حولها السلاسل تحمل القعاب للمحتسين ، ويشرف عليهم كهل توقد حوله الشموع صباح مساء . وبين آونة وأخرى يمد (مغرفة) يحرك بها الماء ، والسعيد من استطاع أن يتذوق هذا الماء الطاهر ويسد الجماهير المكان سداً .

أخيراً دخلنا باب الضريح الفضى وإذا المدفن وسط شباك الفضة والذهب ترصعه الجواهر الثمينة ، وقد أتممت طوافى حوله فى ثلث ساعة كدت أختنق خلالها من كثرة الزحام ، وهنـــا رأيت عجباً نواح وصياح ولطم وتقبيل واستلقاء على الأرض ولمس للأعتاب بالخدود ، وما إلى ذلك مما تقشعر له الأبدان . هنا أسرع شيخ يطوف بى وناولنى أدعية مطبوعة يجب أن أقرأها وأركع وأسجد وأقبل ، فأسرعت بالتخلص منه بفضل زميل فارسى عرفته فخاطب المطوف قائلا : بأنى عالم قارىء خبير بكل أولئك ، وقد علمت بعد أنى لو رفضت الاذعان للأمر وحدى لظن أنى ملحد ولكان ما لا تحمد عقباه خرجت إلى الفناء وإذا فى كل ركن من أركانه عالم يرتقى منبراً وحوله خلق

كثير جلوس على الأرض فى ذهول ، وهو يقص عليهم أنباء على والحسن والحسين والأسرة الشريفة كلها وجميعهم يبكون ، وكلما أشار فى قوله إلى



منظر النجف من السماء ويبدو مدفن الامام على واضحا

الفاجعة صاحوا عالياً ولطموا جباههم وخدودهم فى فرقعة مؤلمة ، ومنهم الطفل والمراهق والسيدة والعجوز ، والكهل الفانى والمثقف والأمى الجاهل ، وكنت أعجب لسيل دموعهم وبكائهم المر وذاك التبشير يظل طوال اليوم فى جميع أركان الأفنية ، وما أن أوشك الغروب حتى سمعت من شرفة الباب الأوسط طبولا تقرع فى نقرات مثلثة ، ثم أعقبها صياح ، وتلا ذلك نفخات من أبواق طويلة مزعجة ، وظل ذلك حتى غربت الشمس ، فكأنهم يودعونهـــا كما يفعل المجوس بذاك الذى يدخل الرهبة ويلقى الرعب فى القلوب ، وفى وقت الأذان ترى عددا كبيرا كل يصيح فى ناحية ، ثم تقوم الصلاة ويجلس صبيـة صغار على المنابر يصيحون بعبارات التبليغ والقوم يصلون . جهل فادح واعتقاد فى الترهات والبدع ما كنت إخاله بلغ هذا الحد ، فكأنهم يعبدون الرضى من دون الله ، فما مر من الأبواب فرد كائنا من كان إلا واجه الضريح وانحنى وتمتم ثم قبل الباب وانصرف وهم

يرمقون شذراً كل من جاز الباب من الغرباء ولم يفعل ذلك . فقلت فى نفسى أهكذا يعبث رؤساء الدين بأذهان البسطاء من أفراد الشعب لا ابتغاء مرضاة الله بل لملء جيوبهم هم وذراريهم الذين لا يحصيهم عد ؟ وهل خلقنا للبكاء والعويل وإهاجة الشجون بتكرار أقاصيص ما أنزل الله بها من سلطان ؟ تأخر معيب وتدهور يعطى الأجنبى عن البلاد أسوأ الفكر ، وحتى تقضى حكمة الشاه على كل أولئك سيظل حجر عثرة فى سبيل تقدم البلاد .

وبجوار المسجد مكتبة حوت مجموعة قيمة من المخطوطات فى سائر العلوم الاسلامية حتى قالوا إنها أكبر مكتبة إسلامية فى الدنيا وفيها بعض المصاحف بخط سيدنا على نفسه . وفى وسط أحد الأفنية مصلى يسمونها جوهر شاه ، وكانت بيتاً لسيدة اسمها جوهر ، فلما أراد الشاه إقامة المسجد رفضت أن تبيعه إياه فتركها وأقام مسجده حوله . وبعد إتمامه أقامت هى فى مكان منزلها مصلى ولذلك سميت (جوهر شاه) . ويؤدى كثير من أبواب الحرم إلى أسواق مشهد المسقفة الملتوية وهى أجمل أسواق فارس ويحرم على غير المسلمين دخولها لأنها داخلة ضمن الحرم المقدس وأرضه مقدسة ، ولمجرد الشك فى شخص غريب ينهالون عليه ضرباً مبرحاً . وكثيراً ما مات من الغرباء لهذا السبب ، وكم من مرة سئلت إن كنت مسلماً ومن أية ولاية جئت ؟ فكنت أجيب (بلى مسلم) ، وكان بعضهم يعود فيسأل (مسلم شيعى ؟) فأعيد الجواب (بلى مسلم) وهم يمقتون السنيين مقتهم للكفار ، وكلما شرب أحدهم قال : (لعن الله عمر وبنى أمية) إذ يكرهون اسم عمر جداً ، وأكثر الأسماء بينهم ذيوعاً حسين ثم حسن ثم على ثم محمد . عصـــبية عمياء وإيمان فى غير تفكير ولا تعقل ، ويناهز الحجاج إلى المكان سنوياً الملايين وبخاصة فى شهر رجب ، وعربات نقل المسافرين لا تغيب عن العين ساعة واحدة .

أخذت أتجول فى القسم المستحدث من المدينة وهو جميل طرقه فسيحة بجانبها الشجر وتجري إلى جوارها قنوات الماء ، وتقوم عليها المباني الوطيئة ،

وهناك بعض متنزهات لا باس بتنسيقها تكتظ بالمتريضين فى كثرة هائلة ، ومن بينهم كثير من الأرامل طالبات زواج المتعة ويغلب أن يكن من الفقراء ، يقصد الرجل وإياها إلى الفقيه العالم معلنين إياه أنهما يريدان زواج المتعة (أو الصيغة) ليلة واحدة أو اثنتين مقابل كذا فيقرهما ويعد الأمر بعد ذلك مباحا ، والامراض السرية لا يكاد يخلو منها أحد وجل موتى الغرباء بسبب (الزهرى) وقد حاولت الحكومة جعل البغاء رسميا فى مناطق معينة لتخفف من ويلات تلك الاباحة فلم يقبل علماء الدين ذلك .

قصدت زيارة الحضرة يوم الجمعة فكان الزحام فوق كل تصور، وحاولت دخول الضريح فلم أستطع لان أرضه فرشت بالزائرات حيث لم يبق موطىء قدم وكان يسير فى الطرقات كثير من المهرجانات يصيح الصبية حولها إحياء ليوم الجمعة وبأيديهم الاعلام وبعد صلاة الغروب أخذ العلماء يقصون على الناس نبأ فاجعة على والحسين والجماهير حولهم عرايا الصدور يضربونها بأكفهم تارة وبسلاسل ثقيلة تارة أخرى وفق نغمات موحدة فى شكل بشع مرعب، وهكذا تتحكم الشعوذة فى قلوب القوم تحكما معيباً ، حاولت دخول الضريح رغم الزحام الكثيف لأرى قبر هرون الرشيد الذى علمت أنه بجانب قبر الرضى نفسه غير أنى رأيته منبوذاً فى ناحية غير ظاهرة حتى أنى لم ألاحظه فى المرة الاولى وقد وضعوه بحيث يلمسه الزائرون بأدبارهم عند مايطوفون حول الرضى وذلك احتقاراً لشأنه وكثير منهم يلعنه بعد الزيارة ويرفسه برجله ووجهه مقابل للامام ويقول : (لعن الله المأمون وأباه) وذلك لانه سنى أولا ، ولانه والد المأمون الذى اتهم فى دس السم فى العنب للامام ثانيا وقد سافر الرشيد إلى هناك فى حملة ضد أحد الحكام الذين مالأوا بنى أمية فوافته منيته هناك فأوصى بأن يدفن فى هذا المكان الذى أقام عليه الاسكندر المقدونى علما وتنبا بانه سيكون مدفن عظيم ، ولما جاء المامون ولى الرضى حاكما على تلك البلاد من قبله ولما عاد إلى بغداد وهزم أخاه الامين وتم له الامر دس للرضى

فمات ودفن إلى جوار الرشيد .

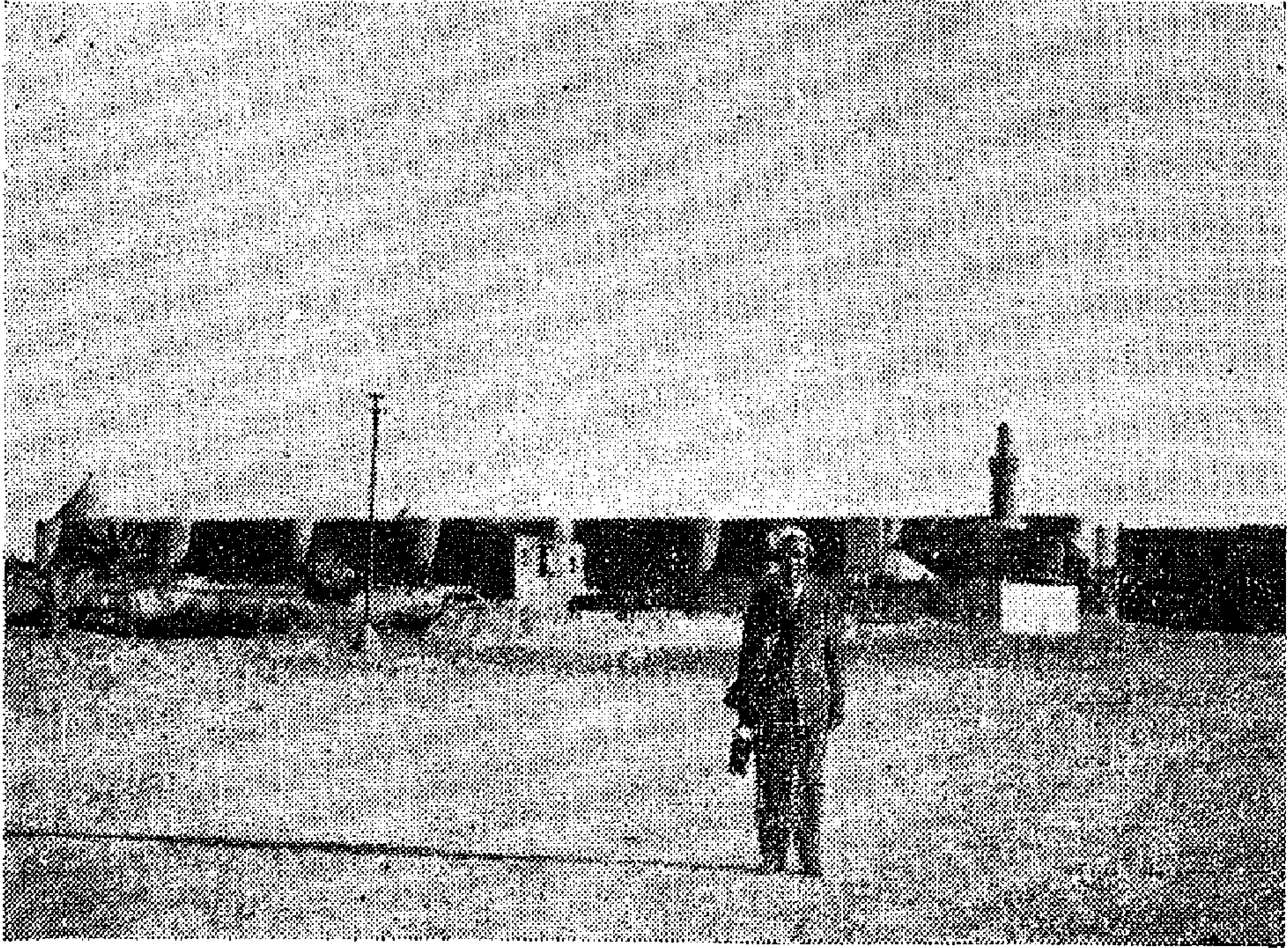
وعند مدخل المسجد مكان القصاص لمن أذنب داخل أرض الحرم والحكم لرئيس الحرم فكأنها حكومة وحدها ، وفى خارج الباب مضيفة يعد فيها رئيس الحرم طعام الغداء يومياً لمن طلب من الغرباء ذلك . وقد مات أحد العلماء ويسمونهم (مولاه) فكانت جنازته مهيبة ، وفى صباح الجمعة قام عالم يؤبنه ومن دونه الجموع المحتشدة جلوس على الأرض يبكون وكانت عبارات التأبين من قصة الحسين أيضاً وعلمت أنه منذ خمس سنين فقط كان إذامات أحدالعلماء وجب تعطيل مصالح الحكومة وأغلاق المتاجر والبنوك ثلاثة أيام كاملة .

وللأمام الرضى من الاوقاف شيء كثير فكل المبانى التى تقع فى الحى كله ملك له ، هذا غير الاراضى الزراعية والهدايا الثمينة التى تقدم إليه فكلما مات غنى أوقف جل ماله عليه ، وفى أحد أبواب المسجد فيروزة معلقة فى حجم بيض النعام يقولون بأنها لا تقوّم ويقصون عنها فى الخرافات ما لا يقبله العقل ، فمثلا لما احتل الروس البلدة إبان الحرب الكبرى ربطوا خيولهم داخل (الصحن) وضربوا القبة بالقنابل فلم تصبها وحاولوا ضرب تلك الفيروزة مرات فطاش سهمهم ، وحجر الفيروز كثير هناك ومناجمه فى قرية فيروز أباد فى جنوب شيراز ، وفيها جبل جل كتلته من الفيروز على اختلاف طبقاته .

والحى الذى حول الحرم كله محرم على غير المسلم تطوقه السلاسل عند مداخله وكثيراً ماكان يلجأ إليه المجرمون والقتلة والمدينون ليحتموا فيه فترفع عنهم العقوبة ما داموا داخله .

والذى شجع الفرس على اتخاذ مشهد كعبة مقدسة الشاه عباس أكبر الصفويين هناك وعاش أوائل القرن السابع عشر ، وكان عصره ثالث العصور الذهبية فى تاريخ فارس كله . صرف قومه عن زيارة مكة المكرمة لكراهتهم

للعرب ولكى يوفر على قومه ما كانوا ينفقون من أموال طائلة فى بلاد يكرهونها وكثير من الحجاج كانوا من السراة . فاتخذ مشهد كعبة وجه إليها



مسجد الكوفة وفيه ألقى الحجاج خطبته الشهيرة

الشعب ولكى يزيدها قدسية حج إليها بنفسه ماشيا على قدميه مسافة تفوق ١٢٠٠ كيلومتر فتحول إليها الناس جميعا ويندر من يزور الحجاز اليوم ، وهم يحترمون كلمة (مشهدى) عن كلمة (حجى) لان من زار مشهد لا شك أكثر قدسية واحتراما ممن زار مكة ! وكم كنت أسمعهم ينادون بعضهم باسم (مشهدى فلان) حتى فى مشهد نفسها .

وقد لاحظت من بائسى الروس هناك عدداً كبيراً رجالا ونساء وأطفالا وكلما دخلت (النظمية) مقر البوليس وجدت مهاجرين منهم وافدين من بلادهم هروبا مما يقاسونه من مضض الجوع والبؤس وأنت ترى الفتيات يجلسن على جوانب الطرق تفرش كل واحدة منديلا أمامها لتستجدى المارة وكثير من الفرس يتزوج من الروسيات وغالب خدام النزل منهن . وقد زرت

مدفن (نادر شاه) الذى مد نفوذ بلاده ، وفتح الهند وأخذ من الاسلاب القيمة شيئا كثيراً من بينها عرش الطاووس الذى لا يزال يعرض فى قصر جولستان فى طهران وعليه توج الشاه الحالى ، والمدفن يقوم وسط حديقة تكسوها الادواح الكبيرة . وملاهى القوم قاصرة على المقاهى ودور السينما ، أما الراديو والتمثيل فنادرة ، وموسيقاهم شرقية بحتة وهى أقل تشذيبا من الموسيقى التركية وأحب الغناء ما كان صيحات أشبه بأغنية الفلاح المصرى وهو يسقى زرعه بالعود فى صعيد مصر ، وغالب الانغام من (نغمة العجم) مما يويد أن هذه البلاد هى أصل تلك النغمة ، وأحب الآلات الموسيقية لديهم عود يسمونه (تارة) ذو أربعة أوتار مزدوجة من السلك الرفيع ولا تشد عاليا ، ورقبته بالغة الطول وهى مقسمة باربطة ، وبطن العود (القصعة) دقيقة الوسط منتفخة الجانبين ، وهى أصغر من (قصعة) عودنا ، ونغمته مطربة بين (المندلين) و (الطنبور) ، والدف والناى مستعملان بكثرة والكمان على قلته .

وحساب الايام عندهم شمسى يقسمون السنة إلى اثنى عشر شهراً كل شهر من الستة الاولى واحد وثلاثون يوما ، ومن الثانية ثلاثون ، وعامهم هذا هو سنة ١٣١٢ ، وبدؤه الهجرة النبوية . على أنه افترق نحو أربعين عاما بسبب زيادة أيام السنة القمرية ، وأسماء الشهور متفقة مع البروج الفلكية (الحمل والثور والجوزاء الخ) بأسمائها الفارسية التى ترجمت إلى العربية ، ويكتبون برج كذا بدل شهر كذا ، وهم يحتفلون بأول السنة ، وهو أول يوم فى الربيع ، ويسمونه النيروز (نو معناها جديد و روز يوم) وفيه تعطل الاعمال ومصالح الدولة اسبوعا ، ويظل الاحتفال فى البلاد نحو عشرين يوما ، ويرعاه المسلمون والزردشتيون ويرجعونه إلى عهد جمشيد الاكبر الذى حكم قبل الطوفان ، ويقولون عن هذا الملك انه عاش سبعمائة عام ، وفى السنة الاخيرة من عمره بلغ قوة الآلهة ، فارسل صورا منه ونصبا له فى جميع الجهات ليعبدها القوم ، وفى العيد يلبس الناس زينتهم ويروون قصص زهراب ورستم وكوش

على مسمع من الاطفال . أما شهرا محرم وصفر فايام حداد لا يدار فيهما لهو ولا موسيقى ، ويحيون لياليها بجلسات الحداد يستمعون لقصص على والحسين وهم يبكون ، وغالب البيوت تراعى ذلك ليلة الجمعة من كل أسبوع حتى فى غير هذين الشهرين ، وفى يوم عاشوراء (العاشر من محرم) تقام حفلات فى البلاد كلها لمأساة الحسين ، فتقرع الطبول وترفع المشاعل ويسير الجماهير ويضربون صدورهم وجباههم بالسيوف والسلاسل ، وإذا سار الموكب جيء ببعض الخيل وألبست أردية بيضاء ، وجواد الحسين عليه ثوب خضب بالدماء تخترقه السهام ، ومن خلفه الحسن والعباس وباقى أفراد العائلة المقدسة على الخيل فى كامل أسلحتهم ، ومن ورائهم الناس فى أردية خضراء ، ويلى ذلك هودج يمثل حجرة الزواج لقاسم الذى كان زفافه ليلة الفاجعة ، وكان عبد الله رضيعاً لذلك يحمل فى مهده وحوله أطفال يركبون الخيل ، وبعد ذلك جماهير حملة السيوف والسلاسل ثم من ورائهم (شمر) اللعين الذى قتل الحسين ، ومعه أتباعه فى أردية حمراء ، وتنتهى الحفلة بتمثيل موقعة كربلاء والقتال بين الفريقين . ثم تحمل جثة الحسين والعباس وعبد الله وغيرهم وأيديهم وأرجلهم مطلة من ثيابهم تقطر دماً ، وترفرف على جثة الحسين حمامتان مخضبتان بدم ، وتقول خرافاتهم إن الحمام هوى على جثة الحسين يبكى فتخضبت أرجله بالدم ، ولبس الحداد فى رقابه ، ولذلك نرى أرجل الحمام حمراء ورقابه يطوقها السواد ، وإلى جانب الجثة تسير فتاة تمثل بنت الحسين ، وقد نفشت شعرها ولطخته بالعشب والوحل ، وكثير من المشيعين يحملون يدا مبسوطة هى شعار الشيعة ، لأن يد العباس قطعت وسقطت مبسوطة على الأرض — لذلك كثيرا ما كنت أرى من المتسولين المشعوذين فى فارس يحملون يداً من صفيح على عصى طويلة يستجدون بها — ويحمل رجل عصى من حديد تتدلى منها أشرطة من قماش تمثل لسان (شمر اللعين) وقد مزق كل ممزق وكل من قطع واحدا باركه الله وأجاب سؤله ، وكثيرا ما يمثلون

الفاجعة برواية تعرض على المسارح ويحضرها الأطفال جميعاً .

من خراسان إلى الأفغان : اعتزمت زيارة بلاد الأفغان رغم ماسمعت هناك عن وحشيتها وافتقارها للنظام والأمن ، وكأن الظروف جميعها تضافرت على تعطيلي فقد لبثت أربعة أيام وأنا أنتظر قيام سيارة إلى هيرات وكل يوم يرجئني صاحب (الجراج) إلى الغد حتى كان مساء الجمعة آخر ميعاد وعنده رجاني أن أظل حتى الصباح أخاطبه تلفونيا فقال : عصرا نقوم فاحمل متاعك إلينا فى الرابعة مساء فكان ذلك ، وهناك استبقانى حتى يكمل عدد المسافرين وظل ذلك إلى ما بعد العشاء ولما هممنا بالركوب اختلف أحدهم وهو أفغانى وأصر أن يجلس إلى جانب السائق وهو المكان المعد لى وله أجره الزائد وطالت المناقشات والمحاورات إلى العاشرة مساء فغضب الرحل وأضرب عن السفر فقالوا تعال صباحاً فعدت إلى النزل وآويت ليلتى ، وفى الصباح لم يكن النزاع قد فض فعرضوا على أن أسترد نقودى لأن الرجل يصر على الانسحاب هو وسبعة من صحبه فقلت هل هذا مقدار محافظتكم على عهودكم ؟ أهكذا تعاملون ضيفاً تعطل نحو أسبوعا انتظارا لسيارتكم ! فأخذت السائق الحماسة وقال انى أوثر أن أقوم براكب واحد مثلك على كل أولئك وأخيرا اتفقنا أن نحشر نحن الاثنين إلى جوار السائق رغم أن الرجل كبير الجثة عملاق القامة . تحركنا التاسعة ونصف صباحاً والمسافة كلها فوق ستين فرسخاً أى ما يقرب من اربعمائة كيلو متر قطعنا ثلثها إلى الرابعة مساء حين وقفنا نستريح فى مسافر خانة بدوية صغيرة بها حجرات مختنقة من طين أمامها بستان غير مشذب ولم نجد من الطعام إلا الخبز الأسود السميك والبيض المقلى والشمام ، فأكلنا أكلا شهياً لأن الجوع والاعياء كانا قد أخذا منا مأخذا . بعد ساعتين قلت هلم نستأنف السير ، فقال السائق : سنقف ساعة أخرى نصلح خلالها بعض ما فى السيارة ، وتلك الساعة أسفرت عن ثمان كاملات أمضيناها فى هذا المكان الموحش . فقلت فى نفسى ، ما الذى دفع بى إلى هذا السلك

الوعر الممل ! ومالى وبلاد الأفغان التى يقصون عن همجيتها ما يثبط العزم ويصرف المسافر عنها؟ لكن عدت فقلت فى نفسى ، وهل اللذة إلا فى مغالبة ذلك وتحقيق غايتى التى وضعتهـــا نصب عينى وهى أن أزور بلاد الأرض ما استطعت ، وهل المرء فى الدنيا إلا مجاهد يحاول إصابة هدف جعله قبلته فان وفق أرضى ثورة النفس وإلا فالخير قصد ؟ سأمضى مهما كان الطريق وعرا مخوفا . قطعنامرحلة أخرى إلى الفجرحين اضطرنا التعب أن نأوى إلى خان خرب نمنا فيه على الأرض حيث لم يكن ثمة فراش ، وفى الصباح لم نجد ما نسد به رمقنا غير خبز قفار أسود سميك ، وشاى يعلم الله مبلغ ماحوى من أتربة وأقذار . وقبيل الظهر كنا فى الجمرك الايرانى فى قرية كاريز ، هنا تجلى إهمال الموظفين وبطؤهم المسئم فى فحص متاعنا ، ثم جاءت الثانية بعد الظهر فذهب الرئيس للنوم تاركا إيانا فى مكان قفر ليس به ما يقى الانسان من وهج الشمس ولا غبرة الجو ، ولم تمض الجوازات إلا عند الغروب ، وكان يطالب القوم بنقود وهم يرجونه تخفيفا وأخيرا قبض منا ما تيسر من ضريبة غير مشروعة عيانا .

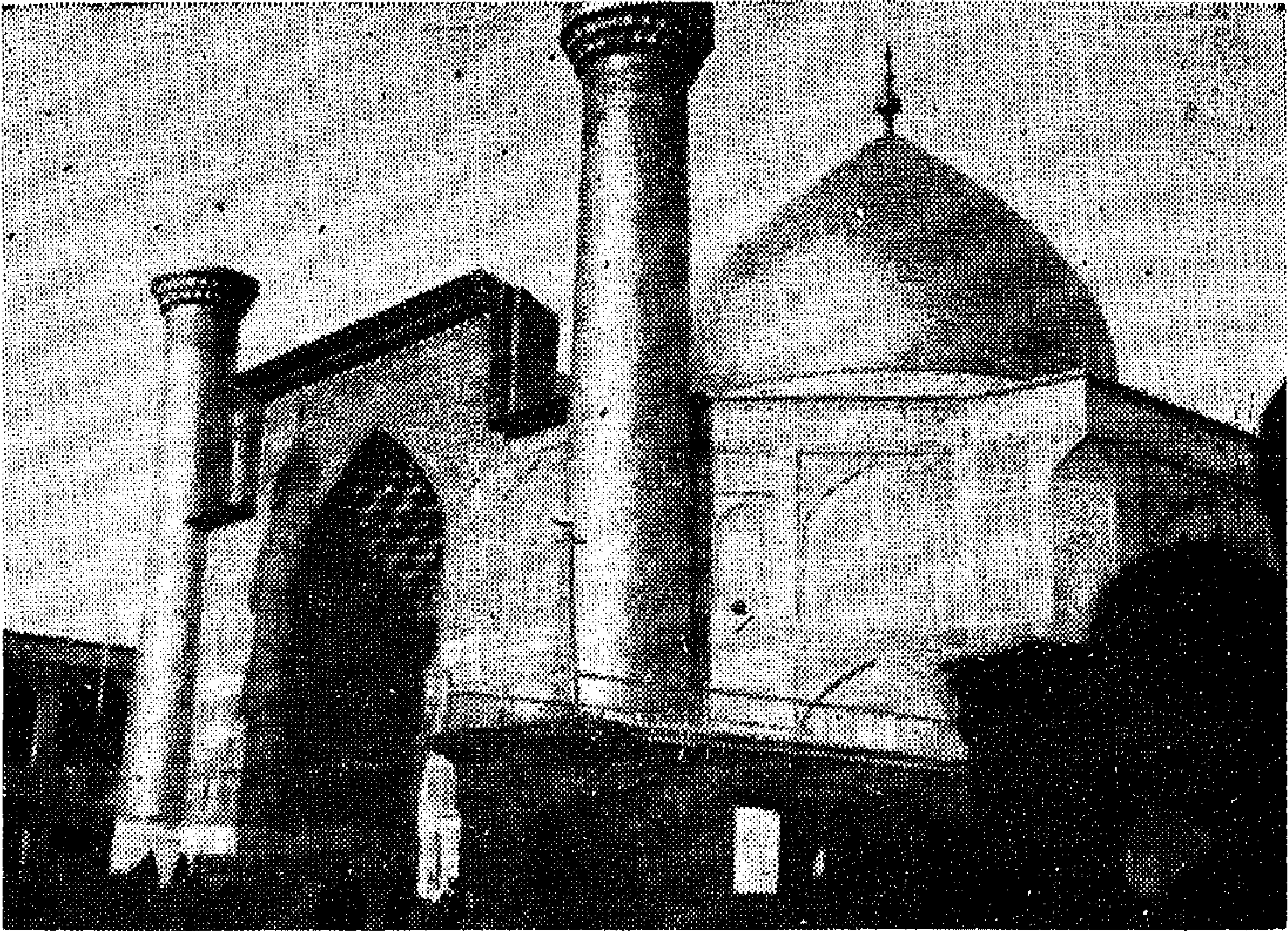
بعد ذلك تهامس السائق وبعض الركاب قائلين بان الأفضل إمضاء الليل هنا فثرت محتجا وقلت كفى ابطاء وعطلا ، فالمسافة كان مقدرا لها يومان وها قد مضى اليومان وبقى فوق ثلث الطريق قالوا ، اننا سنقضى الليل فى غير طائل على الحدود الافغانية وهى أمعن فى الجدب والوحشية وسوء المعاملة ، فأمضينا ليلتنا فى ذاك المكان القفر ورجوت صاحب الخان أن يمدنى بفراش على (مسطبة) فى الشارع لأن داخل الخان قذر لا يطاق . ونمت نوما عميقا ، وفى باكورة الصباح قمنا إلى الحدود الافغانية فى اسلام قلعة .

افغانســــــتان

أرض الجبال

اسلام قلعة : وصلنا الحدود في ساعتين ، عندها مخفر فارسي أبرزنا له جوازاتنا ، ولم تمض إلا بعد أن عززناها بقروشنا ثم دخلنا القلعة وإذا اسمها أكبر منها وهي عبارة عن بناء كبير خرب أقيم من الآجر كنت أخال حولها مدينة فاذا بها تقوم وسط صحراء مجدبة ، يكسو أرضها الحامول والعاقول والهالوك اليابس ، وقد كانت من قبل تسمى (كافر قلعة) يوم كانت ملكا لفارس ، وكانوا يطلقون عليها ذاك الاسم لاعتقادهم أن الشيعة من الفرس كفار ، ولما أن ضمها ملك الافغان السابق (أمان الله خان) لبلاده أسماها (أسلام قلعة) . وقفنا وسط تلك الصحراء أو الداشت — كما يسمونها — أمام مدخل القلعة ، وكان يتقدمها بعض الجنود في سراويلهم الفضفاضة تكسوها إلى الركبتين جلابيب طويلة وعمائمهم منتفخة في شال ممدود تترك منه ذؤابة خلفية هادلة إلى العجز . طلبت لقاء رئيس القلعة فدخلت إليه في غرفة تفرش بالبسط ، وهو ووكيله جلوس على الأرض فسلمته خطاب التوصية الذى حملته من سفارتهم في طهران ، بعد أن عاونتني في ذلك مفوضيتنا العامرة هناك ، فأشار أن أجلس وأشرب الشاى . والرئيس ذو وجه مقطب وسحنة غاضبة أمى لا يعرف القراءة لذلك ناول الكتاب لوكيله الذى أطلعه على مافيه . طاف الغلام علينا بأقداح الشاى الأخضر ، وناول كلا منا بعض فتات السكر في أيدينا كي نلقى بقطعة في أفواهنا ونشرب وراءها الشاى ، وكلما فرغ القدح عاد فملأه لنا جميعا رغم أنى كنت أشير بأنى اكتفيت ولا أستطيع المزيد ، فكرر ذلك إلى القدح السادس ، وهنا أضربت عن تناوله فبدت عليهم علامات التأثر ، وعلمت بعد من السائق أن من الواجب على أن أبقى في القدح

بعض الشاى ثم أنكسه بما فيه فوق الطبق علامة الاكتفاء . نزلنا لفحص الأمتعة فأقبل جمع من الموظفين والرقباء بعمائمهم المنتفخة وأحذيتهم الملتوية

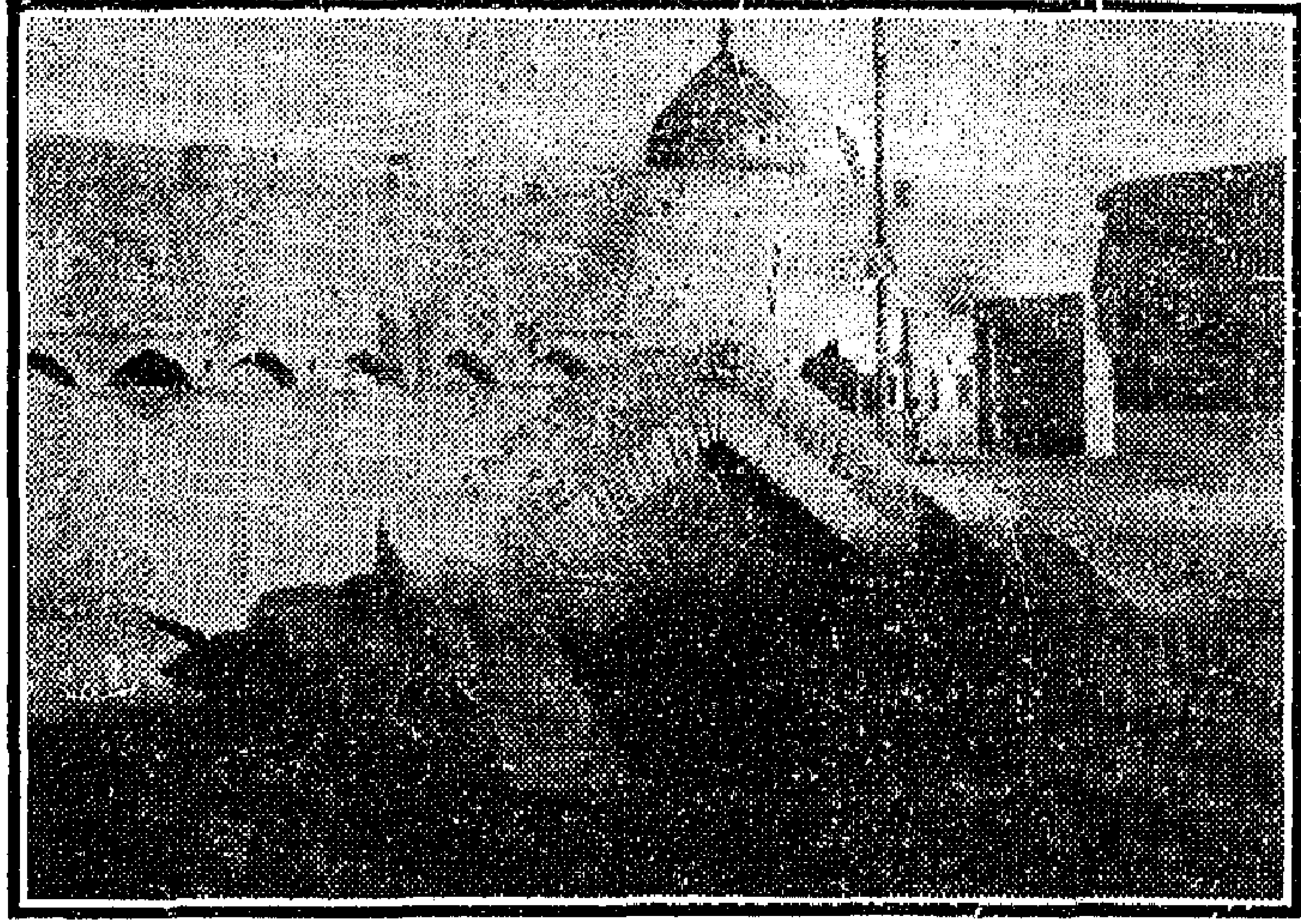


مدفن سيدنا الحسين فى كربلاء

فى ذؤابات رفيعة ومقوسة أمام الحذاء وخلفه ، وجلس الجمع على الأرض وبيد كل منهم ورقة ثم أخذ الجند يحملون المتاع من السيارة قطعة قطعة ويفتشونها بكل دقة وبطء ، وكلما وجدوا شيئا غريبا أو جديداً أمسكوا به وأداروه عليهم جميعا ، وأخذوا يقصون حوله الأقاصيص فى بطء عجيب حتى أنا لم نفرغ من هذا العمل إلا بعد ثلاث ساعات . قلت هلم فقد تم كل شيء قالوا إنا ننتظر الجوازات ولبثنا على تلك الحال النهار كله إلى الرابعة مساء ، وخلال كل ذلك كان يطالب المسافرون بنقود دفعوها أربع مرات لأشخاص مختلفين ، والجدل والمساومة والممانعة فى تسليم الجوازات كانت علانية . وكلما وجد جنودهم شيئا يروقهم فى متاع المسافرين أخذوه ثم تكون مجادلة بين الجندي وصاحب المتاع حتى يتفقا ، وقد أعجب جنديا أبريق من

نحاس لكن صاحبه استعاده وهو غاضب ، ولما وضعه فى السيارة وأوشكت أن تستأنف السير أقبل الجندى خلسة وأخذه دون أن يعلم صاحبه . كل ذلك ولم يكن لدى طعام فأمضنى الجوع حتى رجوت جنديا أن يجهز طعاما من البيض والخبز والشمام ، فكان شهيا رغم ما كان يسوده من حصى وقش ورمال . قمنا نشق طريقنا الوعر الردىء وسط تلك البـــادية ، وبعد ساعة استوقفنا جمع من الناس غفير يريدون مكانا فى السيارة لأحد (الملاه) رؤساء الدين . ولا يمكن رفض ذلك وإلا كان ما لا تحمد عقباه ، فأخلى جارى مكانه للشيخ ، وأخذ الجميع يتكاثرون على يديه تقبيلا رغم شيخوخة الكثير منهم ، وطول لحاهم التى نال منها الشيب (والمولاه) هناك هم المسيطرون على أذهان الناس ، وهم أكبر مقاما وأنفذ كلمة من الحكام أنفسهم ، وكان كلما رآنا أحد فى الطريق يحيى الشيخ ويظهر له الخضوع والاجلال ، وقد كنت أتفاهم مع الشيخ بصعوبة ، وهو من عائلة المجددى ، وطبقة (الملاه) يكادون يقسمون البلاد ، فلكل ناحيته التى يطوف عليها بين آن وآخر ليقوى علاقاته بالناس ويتقاضى حقوقه الواجبة عليهم قبله . لبثنا نسير فى تلك السهول الصحراوية تحفها على بعد سلاسل جبلية وطيئة ، ولم يتغير المنظر منذ خروجنا من مشهد إذ غالب أرضه مبسوطة وحيثما يظهر الماء القليل تقوم القرى الصغيرة وكثير منها بالطين فى صفوف من الأقبية (كالقطاطى) وكثير من سقوف الأفغان مسطحة ، وقد مررنا بقرية جل أهلها من مهاجرى التركستان الروسية هروبا من جور الروس وكان رجالهم وصبيتهم يحاولون التفاهم بصعوبة لأنهم يتكلمون الروسية فقط . كانت التاسعة مساء وبينا نحن نتحدث عما بقى من المسافة إلى هيرات مبتهجين لأنها لا تجاوز الساعة الواحدة وإذا بالسيارة تقف فجأة والسائق يعلن نفاد البنزين فكدنا نصعق لأن الوقت ليل بهيم والمكان مقفر مخيف ، والجو عاصف مترب كادت الريح أن تقلب السيارة على ثقلها — وشهور آخر الصيف وأوائل الخريف ريحها هناك شمالية عاصفة لا تكاد

تحتمل فى بلاد الأفغان جميعها — لبثنا الليل كله ولم أنتقل من مكانى بالسيارة وصفير الريح وشدة البرد وكثرة التراب لا تحتمل وزادها ضغثا أن زجاج



داخل مسجد الكوفة حيث قتل سيدنا على ومن تلك العين نبع الطوفان

نافذة السيارة كان مكسوراً وأنى كنت جائعا خاوى البطن لأنى كنت أتوقع تناول العشاء فى هيرات . أرأيت كيف يتعرض المسافر فى تلك البلاد للأخطار وضياع الوقت ؟ يعتزم السفر والعودة فى ميعاد محدود ويؤكد القوم ذلك وإذا بالساعة عندهم يوم واليوم شهر. ويخيل إلى أن وسائل النقل الرديئة هناك هى التى ولدت فيهم عدم احترام الميعاد أو تقدير قيمة الزمن ، ترى السائق منهم وأنت تستعجله السير يلاقى زميلا له فى الطريق فيقف وتبدأ الأقاصيص بينهما ، وهو لا يقدر مسئولية قط يقف بسيارته حيث كان وسط القفر من سهل وحزن ، غير أن تلك الوسائل على ابطائها الممض اليوم خير من الابل والحمير والبغال التى كانت تقطع تلك المسافات فى شهور وكنا نمر بها فى سيرها الوئيد ليلا ونهاراً فى قاطرات طويلة تحمل المتاجر وتتدلى من رقابها أجراس ثقيلة أخيراً قدر لنا أن نصل هيرات صباحاً وقد مرت بنا سيارة صغيرة حملت الينا ما أعوزنا من بنزين فاذا هيرات (أوهرات) بلدة حقيرة على عظيم امتدادها

فى حضن جبل يكاد يطوقها وتحفها المزارع الممدودة . مبانيها باللبن وطرقها مختنقة وفى غير نظام اللهم إلا بيوتات علية القوم التى أقيمت من الآجر الأبيض والأصفر ، وشارعان متعامدان حديثان صفت عليهما الحوانيت الجديدة من بقايا ماخلفه الملك السابق (أمان الله خان) لما أن حاول الاصلاح . أما عن التراب والاوساخ فحدث فهى أكداس فى كل مكان ، وأظهر مافى المدينة بقايا مسجد قديم بقبابه ومآذنه السبع التى تكسى بالقيشانى الملون الجميل إلى أعلى ذراها ، بدت مشرقة ونحن على بعد أميال من البلدة . بحثت عن نزل آوى اليه فعلمت أن ليس هناك من أمكنة معدة للنوم قط ، حتى ولامسافرخانات ، فحرت فى أمرى وقلت لصاحب (الجراج) أليس لديك مكان أنام فيه ؟ قال (ناخير) أى كلا ، اقصد إلى أحد علية القوم ليضيفك عنده فى داره قلت ألا توجد مطاعم عندكم ؟ فقادنى إلى المطعم الوحيد الذى لم يمض على وجوده فى البلدة شهران فأكلت فيه . ثم رجوت صاحبه أن يعدلى فراشاً بسيطاً لديه فقال (أنجا أغاخوب نيست) أى لا يليق هذا المكان ، قلت هو خير من لاشىء فزودنى ببساطين (سجادتين) واحد افترشته عند مدخل المطعم والثانى التحفت . واستخدمت حقيبتى وسادة ولم يكن للمدخل باب يحجبه عن الشارع ، فكنت كأنى أنام فى الطريق . وكم من مرة كنت أنظر فأرى جمعاً من الناس يقفون وهم يرمقوننى . وأنا أقرأ أو أكتب جالساً أو مضطجعاً ، وبعد يومين علمت أن الرجل قد أقام غرفا فى أعلى المطعم لم يكمل بناؤها فرجوته أن أنام فى إحداها ولما تكن قدسقفت وحولها أكداس الطوب وأنقاض البناء فآثرتها على مكانى عند مدخل المطعم وهيرات ثانية مدن الأفغان بعد كابل ، وقد علمت أن كابل نفسها وهى عاصمة البلاد ليس بهاإلا نزل صغير واحد . أماقندهار ثالثة المدن فهى شبيهةبهيرات تماما . بلاد لا تزال فى معزل عن العالم الخارجى فى كل شىء تعيش على الفطرة التى لم تفسدها المدنية فى زعمهم .

تناولت العشاء وأغرب شيء فيه أن الأرز يقوم مقام الخبز تدفن فيه قطع اللحم (الجوشت) وإلى جانبه بعض الباذنجان يسبح فى الزيت أو الروغان



مسجد العباس أخ الحسين فى كربلاء

كما يسمونه . سألت الخادم وكان اسمه (أفغان) أن يقودنى إلى المراحيض، وسرت وراءه حتى جا خرابة مكشوفة على جانب الطريق وقال : (إنجا) أى هنا قلت : كلا . فأنا أريد مستراحا ، فعلمت أن ليس لذلك وجود ! يقيمون أبنيتهم ويغفلون هذا اتكالا على الخلوات والأمكنة الخربة وسطوح المنازل، وهذا حالهم فى جل بيوتهم إلا النادر ، وفى الصباح أردت الاستحمام فقيل لى:

إذهب إلى الحمام ، وهم هناك وفى فارس كلها لا يقيمون حمامات فى البيوت مهما عظم شأنها ارتكاناً على الحمامات العامة التى لا يطمئن المرء إلى نظافتها وطهارتها أبداً ، على أنهم فى فارس يستعيضون عنها بحوض الماء الذى يتوسط فناء الدار دائماً : أما فى الأفغان فليس لذلك من وجود لأن الماء شحيح ومستمده الآبار العميقة . طفت بأرجاء البلدة وراقتنى قلعتها المشرفة التى يحتلها الجيش فى هندامه المرقع ، ومنها أوغلت فى أسواق المدينة (بازار) وهى ضيقة مغلقة مظلمة ، لكنها بالغة الطول غاصة بالمتاجر ، وهيرات أشهر بلاد الأفغان كلها فى التجارة .

والنساء هناك محجبات لدرجة مبالغ فيها ، فالأزار الخارجى يحكى (الكيس) قد زر عند الرأس بحيث يلبس فيها وهو فضفاض من أسفله ، وأمام العينين قطعة منه مثقبة بخروق للنظر والتنفس ، وتحت الأزار سروال أسود سميك يتدلى إلى الحذاء ويربط فيه ، فترى السيدة تمشى وهى تدب دبيباً فى كتلة واحدة تسترعى النظر وبقدر ما رأينا من اباحة الفرس كانت الرجعية هنا فى أشدها ، وغالب القوم هنا سنيون يمقتون الشيعة وتصرفاتهم ورغم أن الحكومة اليوم تشجع لباساً للرأس كأنه قلنسوة يكسوها وبر جديل أسود فانك لا ترى واحداً فى المائة ممن يلبسونها وكلهم يلبس العمائم ذوات الذؤابات الطويلة ، والأحذية العتيقة تنتهى بذؤابتين طويلتين معقوفتين حتى الاغنياء منهم . لذلك لم أعجب للانقلاب السياسى الذى حدث وطردوا من أجله الملك أمان الله خان فهو لم يفهم قومه قط إذ كيف ساغ له أن يلبسهم القبعات ويرغمهم على السفور ، وما إلى ذلك مما أتاه مصطفى كمال ويحاوله اليوم رضا خان بهلوى؟ هم لا يؤمنون إلا بتقاليدهم ، ويتمسكون بدينهم فى إيمان شديد ! ويكاد يحكم البلاد جماعة (الملاه) الذين يجب على الحكومة إرضاؤهم قبل الشروع فى إنفاذ شيء جديد .

ولم أكد أرى أجنبياً واحداً بينهم ولا غير مسلم ، ولذلك كانوا يرمقوننى

أينما سرت في شي من الريب ، ويسألونى (مسلمان) فأسرع بالاجابة (بلى) وسوادهم أمى وفى جهل عميق وغالبهم يتكلمون بالفارسية ، وقد ظهر لى أن جل ثقافة المتعلمين منهم فارسية يجيدون كتابتها ويروون أشعارها وآدابها ، وقد نقلوا جل آدابهم عن فارس ، وفى مدارسهم الساذجة يقرأ الصبية الأدب الفارسي إجباريا ، وتكاد تكون اللغة فى الطرقات هى الفارسية ، وكثير منهم يتكلم الهندوستانية ، ولغتهم خليط من الفارسية والهندية . لذلك كنت أتلمس فيها ألفاظا عربية كثيرة كانت هى وماعرفته من الفارسية عونا لى على التفاهم بعض الشيء ، والأفغانيـة الصحيحة يتكلمها أهل قندهار فقط . أما فى هيرات وكابل فالفارسية والهندية . وموسيقاهم خليط من الفارسية والهندية أيضا فى نغمات سائغة لآذاننا ، على أنها بدوية والغناء أميل إلى الصياح المرتفع ، وأحب الآلات الطنبور وآلة أخرى أضخم منه يسمونها (مادام) .

والحالة الاجتماعية تثير الدهشة فرغم الحجاب الذى يحوط المرأة فان الفساد منتشر سراً ، والأمراض السرية شائعة ، والعجيب أن ذلك يقع رغم إقامة الحدود فاذا ثبتت جريمته بشهادة ثلاثة شهود أو واحد يزكيه اثنان محترمان ألقى الجانى علانية من فوق قلعة البلدة إلى الأحجار المتراكمة من دونها مسافة لاتقل عن خمسة وعشرين متراً ، ويغلب أن يموت ، والزانية توضع فى كيس يحوطه الجند ويؤمر المارة برجمها إلى أن تموت ، واليوم كان موعد قصاص ثلاثة من اللصوص ثبتت عليهم جريمة السرقة فأحضروا إلى السوق ، وكان قد أعلن مناد ذلك فى المدينة ونفذ فيهم قصاص قطع اليد فتقدم رجل البوليس ولف حبلا حول ساعد الرجل وضغط الرسغ بين عضادتين من خشب كى يمنع سيل الدم ثم أمسك رجل البوليس بيد الجانى وأتى الجلاد بالسلاح الحاد ثم شرع يقطع الجلد والعروق فى احتراس وبطء شديد ثم أعقب ذلك ضربة قوية بآلة ثقيلة من حديد فانفصلت اليد بعيداً ثم غمر الجرح على الفور في زيت (روغان) يضطرب غليانا وقد نفذ ذلك

فى ثلاثة أشخاص . وهم فى تألم شديد ونقلوا بعد إلى مستشفى البلدة البسيط حتى تلتئم جراحهم وقد حاولت أخذ صورة لذلك فأبدى القوم امتعاضهم فامتنعت واعتذرت لهم ، وكان يزاملنى الدكتور باسفتس الألمانى . والعادة أن السارق لأول مرة يسجن وإذا تكررت قطعت يده ثم رجله ! والذى يحكم بذلك (المولاه) وهو مفتى الحكومة ، وطبقة العلماء هم القوام على القانون فى تلك البلاد وقد شاهدت رئيس الشرطة ونحن فى مجلسه مرة يسأل الألمانى عما يفعلون لمنع الفساد فوق ماهم فاعلون اليوم ، فقال بأن شيئا من الحرية والتسامح فى الأحكام خير وأجدى ! وقد اقترح إباحة البغاء الرسمى فى مناطق معينة ، وهو هناك لا يباح قط .

وسرنى مالاحظته هناك من عدم وجود التسول رغم فقر البلاد وعوز أهلها مما أشعرنى بأن فى نفوسهم شمما يأبى عليهم الاستجداء عكس مالاقيته فى فارس التى يرى الانسان فيها من أمر المتسولين وكثرتهم عجبا ، والحكومة الأفغانية تحرم التسول ، وقد أعدت (دار أيتام) فى البلدة يأوى إليها العجزة والمعوزون ، وهناك مستشفيان أحدهما عسكرى ، والآخر مدنى لعلاج المرضى وإيوائهم مجانا وتلك فضيلة أخرى ، ويلحظ الزائر الفرق الشاسع فى أجسام الناس فى تلك البلاد فهى ممتلئة تبدو عليها علائم القوة والصحة عكس أبناء فارس النحال الهزال من سوء التغذية والاسراف فى المسكرات والأفيون والغانيات ولأن كثيرا منهم من اللقطاء الذين أهملتهم أمهاتهم من زواج المتعة فنشئوا مفتقرين إلى الرعاية الصحية والتغذية الوافية .

زرت يوما أحد سراة القوم وهو مختار زاده من أكبر تجار هيرات ، وكان معى له خطاب توصية من بعض خلانه فى مشهد ، فدخلت داره ، وإذا مدخلها من السوق صغير لا يشعر بعظمة ، لكنى ألفيتها من داخلها فاخرة قسم الحريم منعزل فى الداخل ، والجزء الظاهر (وهو المضيفة) أعد بالبسط الثمينة والحشيات والتكآت ، ويتوسط كل حجرة مصباح فى طول قامة الرجل

يوقد بزيت البترول وقداستقبلني بعض ذويه ، وشربت شايهم الممتع ، ولبثت أنتظر حضور صاحب الدار نحو ساعتين فلم يحضر . فقمت وشكرتهم ،وتركت



جلالة رضا خان بهلوى شاهانشاهى ايران

لهم خطاب التوصية ، وأفهمتهم منزلى من المطعم السابق ذكره ، وكنت أنتظر من كرمه الذى سمعت عنه أن يزورنى فى مكانى فلم يفعل ذلك ، فقلت فى نفسى وأنا آسف أن زرته هل يقع مثل ذلك فى مصر ، وهل يجيزه الكرم المصرى ؟ وخيل إلى أن الكرم الذى سمعته عن ذاك الرجل لابد أن يكون كرماً نفعياً يختص به عملاءه ومن لهم قبله مصالح مادية ، وهيرات محط أغنى الممولين فى إيران لأنها أكبر المحاط التجارية ، وحولها مزارع غنية وأرض خصبة ، وماء وفير ، وخير ماتصدره القطن ، والأفيون ، والرعى ، والفستق

والجوز، واللوز، والبندق، على أن افتقار البلاد للتعليم. ورؤوس الأموال لم يمكنهم من استغلال أرضهم، ويخضع لولاية هيرات نحو مليونين من مجموع سكان الأفغان البالغ عددهم ستة ملايين. ووحدة النقود الأفغانية (القران)، وكان يعادل القران الفارسى سُك من معدن خفيف كأنه الألمنيوم الممزوج بالنحاس فى لون أغبر قذر، وهو أكبر أنواع النقود ولا يزيد حجمه على القرش عندنا، وله كسوره النحاسية الكبيرة وليس فى البلاد نقود ورقية (بنكنوت) قط لأنهم يحرمون إقامة المصارف، فالتعامل التجارى كله بالقران، فالتاجر يقبض دينه أو ثمن بضاعته منه مهما كثرت لذلك ترى كلا منهم يحمل آخر اليوم أكياسا ثقيلة كبيرة، يكاد ينوء الواحد بحملها، وترى كلا ينتحى جانبا، ويكدس النقود بجواره، ويشرع فى عدها، ويستغرق فى ذلك زمنا، وكان سائق السيارة التى ركبتها عائدا إلى فارس يحمل كراءه من القرانات فى أكياس ثقيلة، أعنى خمسة عشر جنيها كلها من تلك النقود المعدنية، وكانت فوق ألف قطعة، وكم كان ارتباكى عظيما عندما دخلت فارس ولم يكن معى سوى ورق فارسى قيمته اثنى عشر جنيها، فلم يقبله منى أحد اللهم سوى جمهرة من صيارفة اليهود وقد تقاضوا عليه عمولة فاحشة. وهم لا يقبلون أى نوع آخر من النقود أو الورق، أما الشيكات التى كانت معى فلم استفد بها هناك قط، لذلك اقترضت من السائق ما احتجت إليه فوق ما كان معى من نقودهم، على أن أردها إليه فى فارس، وقد أودعت معه بعض الشيكات رهينة حتى صرفتها فى مشهد وأعطيته حقه.

ويظهر لمن يزورها لأول وهلة أنها بلدة قديمة أثرية بناها الاسكندر المقدونى على نهر آريوس الصغير. المعروف بنهر هراة أو هرى وسماها آرية باسم النهر، والاسكندرية باسمه، وقد فتحها الأحنف بن قيس فى خلافة عمر وأظهر ما يرى فيها أطلال سورها القديم، وقلعتها المشرفة. وبقايا مسجدين فاخرين تقوم منائرها السبع واحدى القباب، يغشاها جميعاً القيشانى فى لون

اللازورد والفيروز ، وفى أشكال هندسية بديعة ، وقد بناها هارون الرشيد ، وفى البلدة مدافن لكثير من أولياء الاسلام وعلمائه ، أذكر من بينهم الفخر الرازى ، وعبدالرحمن الجامى ، وعبدالله الأنصارى ، والحجة عبدالله المصرى ، ويقصون عن كراماته أن ماء البئر التى فى مدفنه يرد من مصر ، ويقولون إن الأولياء الذين يدفنون حول أولئك إثنى عشر ألفا ، لذلك تسمى هيرات عندهم بلدة الأولياء وقد زرت كثيراً منها وغالبها متهدم ولعل أفخرها مدفن الأنصارى المؤرخ فى ٨٥٩ هـ ، فهو وسط مسجد فاخر حول فنائه مجموعة من الأولياء ، وبه مدرسة لحفظ القرآن ، ووقفت بقبر الفخر الرازى طويلا ، وهو من كبار مفسرى القرآن الكريم ، وصاحب كتاب مفاتيح الغيب ، وكل تلك المدافن فى حجر الجبل وحولها المزارع والأشجار ، وفى مواسم خاصة يحج الناس اليها ، وينامون فى أماكن أعدت لذلك .

وفى المدينة بعض المنشآت التى اختطها الملك السالف (أمان الله) فى شوارع فسيحة أقيمت على جوانبها المبانى المتشابهة من الآجر الأصفر الكبير ، يتوسطها بعض الشجر والزهر ؛ لكننى ألفيت غالبها متهدماً من يد الثوار . فقد كان ذلك الملك مصلحاً طموحاً إلى رفع شأن بلاده ، وكان فى أخريات حكمه ينقل نظمه كلها من تركيا وألمانيا ؛ ويجاهر بالنفور من الأجانب ، وبخاصة الإنجليز لأنه علم بمبدأ مطامعهم فى بلاده المجانبة للهند . لكن أولئك انتهزوا فرصة غيابه فى رحلته ، وبثوا الدعوة ضده ، وقام (لورنس) يهب الأموال للعشائر ويشوه سمعة الملك ، وأنه أضحى ملحداً يريد الاعتداء على الدين ، كما فعل مصطفى كمال فى تركيا بدليل أنه يريد نشر القبعات ، واختلاط السيدات بالرجال ، ومخاصرتهم إياهنّ ، ونشر بعض صور للملك وزوجته يرقصان وسط الرجال فى مراقص أوربا ، حتى قالوا إن المال الذى أنفق فى سبيل ذلك مليون ونصف مليون جنيه ، وكان (أمان الله) قد نقل كثيراً من العادات والأزياء الأوروبية حتى لبس كثير من أهل هيرات الأردية

الأفرنجية وظهرت القبعات فاهتاج الشعب الساذج وقام بالثورة وحطم كل ما أقامه أمان الله من إصلاح ، حتى آلات توليد الكهرباء التي رأيناها محطمة هي والأسلاك التي مدت في أرجاء المدينة ، على أني كنت أسمع من الكثير نغمة الندم على ما فعلوا لأنهم أدركوا مبلغ وطنيته ولاحظوا مدى بسط النفوذ الأجنبي اليوم ، وإن كان خفياً ، وكان يتفقد جنده بنفسه ويوصيهم بقوله : اعملوا لوطنكم أولا ثم لدينكم ثانياً ثم لأنفسكم ، وكان ذلك مما أهاج عليه المولاه رجال الدين لأنهم فهموا أنه يريد القضاء على شعوذتهم كما فعل مصطفى كمال .

وكان يسترعي نظري كثرة السحن الصينية وأولئك من التركمان إذ أن جزءاً من التركستان داخل في حدود الأفغان . وتركستان الروسية على مسيرة أربع ساعات من هيرات فقط ، وهؤلاء يتكلمون لغة خاصة وأعجب ما في لباسهم غطاء الرأس فهو للرجال كرة هائلة من الوبر أو الصوف الأسود المنفوش وللنساء شبه اسطوانة كبيرة القطر لكن ارتفاعها لا يعدو عشرة سنتيمترات تكسى بالقماش الملون . والأفغانيون طيبو القلب ، إلا أنهم على شيء من الجفاء في الحديث والخشونة في اللفظ وغالبهم سذج لا يزالون على فطرتهم ، ويبدو افتقار البلاد إلى المال من بساطة دور الحكومة وما فيها من أثاث لا يكاد يعدو البسط تفرش ويجلسون عليها في جلابيبهم وأمام مدخلها الأحذية الغريبة تراها تصف في شكلها البدوى وبعضها لعلية القوم ملونة مزركشة (بالقصب) كذلك رجال البوليس والجيش فهندامهم مختلف بعضهم بالجلابيب والبعض بالحلل المهلهلة ، وعلى رؤوسهم قبعات فطساء من أمام ومن خلاف ، وفي قبعة الضباط ذؤابة من جدائل لامعة تتدلى إلى اليمين من وجوههم . وقد زرت رفقة صديقي الألماني رئيس الشئون الخارجية (مأموريتي خارجي) ويجب على كل زائر أن يمر عليه ليتسلم منه جواز السفر مؤشراً عليه منه وإلا لا يسمح له بالخروج وهم هناك كثيرو الشك

فى الوافدين والراحلين تسلموا الجواز منى بمجرد دخول السيارة البلدة وحفظوه فى (النظمية) وعند السفر كان لابد من الذهاب لتسلمه من رئيس الخارجية .



جلالة محمد ظاهر شاه الأول ملك أفغانستان

هناك قدمت خطاب التوصية فأحسن استقبالنا وشربنا الشاى ، وبعد القدح الثانى نكسته فى الطبق بعد أن أبقيت فيه جانباً فسألنى رفيقى الألمانى عن سبب ذلك فأفهمته ففعل مثلى وبعد أن تسلمنا الجوازات ضرب المأمور معنا موعداً أن يوافينا عصراً لزيارة بعض أماكن هيرات بمعاونته فشكرناه وانصرفنا على أنه لم يف بوعده ولم يعتذر فلم يرقنا منه ذلك رغم ثقافته ومكانته فى بلاده .

لبثت أقيم على مضض منى فى هيرات انتظاراً لسيارة وفى كل يوم يؤكد لى

صاحب (الجراج) أن السفر (فاردا) أى غداً ، وفى اليوم الخامس قمت صوب قندهار وبعد مسيرة يوم فى تلك الأرض الجبلية المقفرة تعطلت السيارة ولم تقطع ثلث الطريق ، وفهمت أننا سنقف حيث نحن طويلا وإذا بسيارة راجعة إلى هيرات وهى تنقل سلعا تجارية ففضلت أن أعود فيها لأنى خشيت فوات الوقت على وفى هيرات مكثت يومين آخرين رفقة زميلى الألمانى وكنا نجول سويا ونجلس فى المطعم نتناول الشاى ومن حولنا بعض أهل البلدة ، وقد بلغت بهم سذاجتهم أنهم كانوا كلما رأوا معناشيئا أحبوا أن يهدى إليهم وحتى الكوث (الشبشب) طلبه أحدهم منى وأصر على أخذه ، وكانوا يسألوننا بعض صور السيدات فقط فقدم لهم (باسفتس) بعض صوره هو فرفضوا وقالوا مالنا وهذه نحن نريد صوراً لسيدات جميلات ، وكانوا يشربون جميعا (النرجيلة أو الشيشة) وبعضهم يمضغ مسحوقا أخضر من مركبات خمسة أو أكثر عرفت منها الطباق والجير والملح والزرنيخ ويظلون يبصقون بشكل منفر بصاقا أخضر كريها .

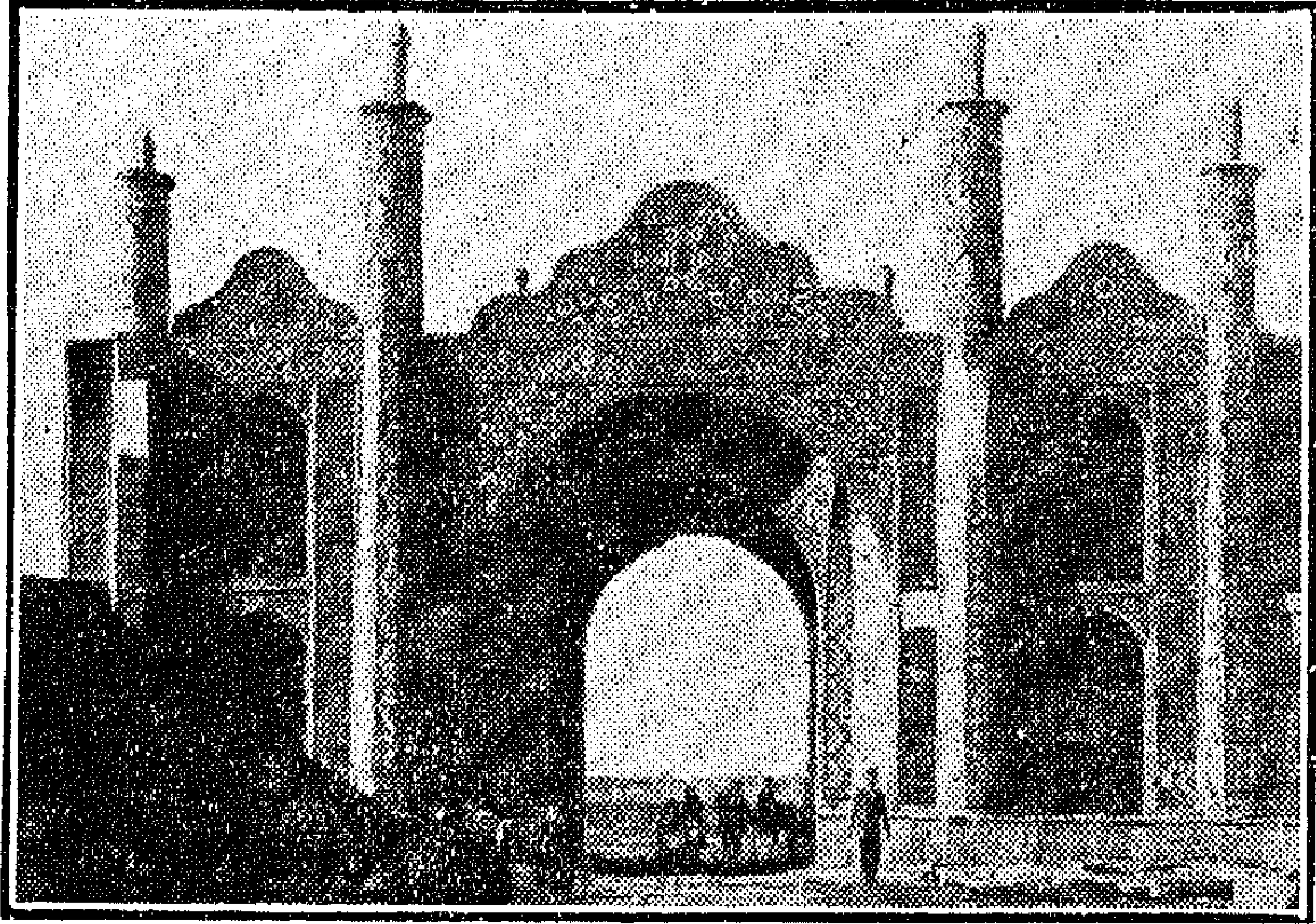
أما رفيقى باسفتس فرجل واسع الاطلاع يتجول لحساب حكومته ويعمل على توطيد العلاقات بينها وبين البلاد التى يزورها وهو يجيد عشر لغات ومعه من الآلات الكاتبة وآلات التصوير الدقيقة شىء كثير وقد قص على أنه كاد يفقد حياته لما أن دخل الحرم فى مشهد ، ولم ينقذه من المسلمين إلا شهادة ابتاعها من علماء طهران تقول بأنه مسلم ، وتلك يعطيها عالم خاص هناك لكل من طلبها مهما كانت ديانته مقابل دفع عشرين تومانا (أى نحو جنيهين ونصف) فأبرزها لهم وادعى أنه مسلم فعفوا عنه ، والأفغانيون شديدو التعصب أيضاً ، وقد حاول دخول مسجدهم الجامع فى يوم الجمعة فأبوا عليه ذلك ، وكان المسجد مكتظاً بالمصلين وكانت جميع الأعمال معطلة لأنهم يحترمون يوم الجمعة احتراماً كبيراً .

قمت صباح ٢٩ أغسطس أتوقع خبراً بالسفر من رب (الجراج) شأنى فى كل يوم ، وقد نفد الصبر ومللت البقاء هناك وإذا بسيارة كبيرة تقف أمام

المطعم يناديني صاحبها فاستبشرت وودعت الرفيق الألماني الذي كان ينتظر سيارة إلى كابل وركبت برفقة وفد من المسافرين يقصدون مشهد وفي طليعتهم (مولاه) أفغاني الأصل . لكنه يقيم الآن في مشهد وهو رجل وقور نال منه الشيب وأرسلت لحيته تحت فمه الكبير وأنفه المنتفخ الغليظ . وبعد أن قرئت الفواتح والدعوات وانهال الناس على يديه تقبيلا ، تحركت السيارة بسم الله مجراها ، وما كدنا نستغرق ثلاث ساعات حتى اعتراها عطب جوهري ، وبعد محاولة فاشلة لإصلاحها استغرقت ساعة حمل السائق محور العجلتين (الأكس) رجلا وكلفه أن يعود إلى هيرات ماشياً على الأقدام ليصلحه ويعود إلينا ، وقد قرر الجميع أنه سيعود في (بنج ساعات فقط) فقلت : أيقطع الرجل في خمس ساعات ما قطعته السيارة في ست ساعات ذهاباً وإياباً مما أثبت لي عدم درايتهم بالزمن قط ، ولبثنا ننتظر اليوم كله إلى الصباح . أي : نحو خمس عشرة ساعة ، وكان وقوفنا هذه المرة في جوار رهط من البدو ضربوا خيامهم بجانب الطريق عند مجرى الماء فأحاطوا بنا ، وسرعان ما أحضروا خيمة أقاموها للنساء من ركبنا ، ثم دعوا فريقاً منا لزيارة خيامهم . وكانت الداعية هي رئيسة القبيلة عجوز شمطاء قد أحنى ظهرها كر السنين ، وقد بدا لنا أنها صاحبة الكلمة النافذة في كل من حولها . جلسنا وسط الخيام وكان عددها يناهز العشرين أقيمت في شكل هلال ، وأخذنا نسمع جلبة في داخلها وحركة اهتمام بأمرنا ، وبعد قليل قدمت لنا (قصعة) ملئت من فطير صب عليه المسلي في كثرة عافتها نفسي ، وإلى جانب ذلك كثير من الرقاق وكعك أسمر ، تعوزكل أولئك النظافة ، ولم تكد النفس تسيغ الأكل لولا أنه فرض علينا ، وكم تعثرت أسناني في الحصى والاوساخ ، هذا إلى قذارة يد العجوز التي كنت أراها تكنس الأرض بها وبين آونة وأخرى تمخط فيها ، ثم أعدت لنا بعض الفطير بنفسها ، وقد تبين لنا أنهم فقراء مدقعون فأدهشنا هذا الكرم الذي لا يفارق البدو حتى في بلاد الافغان . وبعد أن أكلنا نحن الأضياف نقل

الاناء إلى العجوز جوارنا فأكلت منه قليلا ثم سلمت ما تخلف لرجال القبيلة فأكلوا جانباً منه وما بقى بعد ذلك حمل الى النساء داخل الخيام . وأكثر من ثلث سكان الأفغان من هذا الفريق المتنقل الذين يرحلون بقطعانهم من الإبل والحمير والخيل والأغنام وقد هجمت علينا ونحن نأكل عند الغروب حين وفدت من مرعاها ، فكانت كأنها أليفة مستأنسة ، يقرب البعير برأسه حول وجوهنا كأنه يقبلنا وكأنه ورث الكرم عن سادته ، رجعنا إلى سيارتنا وكانت الريح الشمالية تعصف فى شدة مؤلمة فلبثت داخلها أرتعد من البرد الليل كله ، أما سائر المسافرين فلديهم فراشهم وهم يتوقعون ذاك العطل دائماً ، ولذلك تجدهم لا يهتمون لشيء قط ، ويقابلون كل حادث بصبر عجيب . استأنفنا السير وسط تلك المتسعات شبه الصحراوية حتى وصلنا أسلام قلعة وتعطلنا خمس ساعات بسبب تلكؤ الموظفين ، وذلك أمر الفناه من قبل ثم جزنا الحدود الفارسية ، وفى كاريز فتشت أمتعتنا وواصلنا السير حتى خيم الظلام فاضطررنا للوقوف حيث كنا لا مضاء الليل لأن مصابيح السيارة أصابها العطب والسير فى ضوء القمر فى تلك الطرق الرديئة خطير جداً فسحب كل فراشه ولبثت أنا أرصد النجم وسط قر البرد حتى الصباح حين قمنا مبكرين نشق سهولا مهملة إلا فى بعض بقاع رأينا بها القطن فى نوره الأصفر البديع ولم يعدعلوه القدم الواحدة مما يشعر بضعف نتاجه هناك ، والقرى التى كنا نمر بها صغيرة نادرة والأراضى مهملة إلا فى زراعة البطيخ والشمام ، وهذا جيد ورخيص كنا نشترى بخمسة مليمات ثلاث شمامات أو أقة من (الأنجور) أو العنب الذى تشتهر به البلاد ، وكثير منه (بناتى) بالغ الحلاوة ، وكنا كلما مررنا بقرية أقبل أفواج من أهلها يقبلون أيدى الشيخ (المولاه) ويطول الحديث بينهم وكان يزورهم أحياناً فى بيوتهم ، وكلما مررنا ببلدة بها ولى قصد إلى زيارته ونحن له منتظرون فلم أطق صبراً على هذا العطل الممض . فأعلنت احتجاجى وكان الشيخ يفهم شيئاً من العربية فكان كل مايقوله هو وسائر

المسافرين (صبركون) أى اصبر لكنى لبثت مظهراً الامتعاض حتى أثر فيهم
وسرنا هذا اليوم بدون توقف حتى أقبلنا على مشهد الساعة التاسعة مساء وكلما



باب خراسان من أجمل بوابات طهران

هموا بالتوقف للاستراحة صحت غاضباً بالفارسية (راحات لازم نيست) .
وأول مابدا قبس من أضواء المدينة المقدسة صاحوا جميعاً (لاهم سلى ألى مهمد آل مهمد) ثم قرأ العالم دعوات طويلة جلها مدح فى الرضى ، ولعنات على من قتله ، ثم أخذ كل يناول السائق بعض أنعامه وكنا كلما تقدمنا نحو المدينة فى سيرنا البطىء على قبس مصابيح السيارة الفاترة تنكشف أنوار الحرم حتى بدا متلألئاً بالثريات التى تكاد تكسو مآذنه وقبابه كلها ، وتظل كذلك طوال الليل على الدوام ، فيبدو مشهدها ساحراً . ثم مررنا بمخفر البوليس عند مدخل المدينة حيث وقفنا للتأشير على جوازاتنا وأخذ رجال البوليس يتلكأون حتى ناولهم السائق بعض ماتيسر وهكذا كان (القران) هو المذلل لكل الصعوبات فى تلك البلاد ! ونمت ليلتى فى النزل نوماً عميقاً وكنت أشعر بحمى خفيفة من أثر ماأصابنى من برد الليلتين السابقتين .

وفى الصباح زرت صديقى (أمين غنيمة أغا) وهو بيروتى على جانب

كبير من كرم الطبع ورقة الحاشية يتجر فى مشهد فى شئون الحاكى (الجرامفون) ويحبه القوم حباً جماً ، وكانت معرفتى به يوم حللت مشهد لأول مرة ، فبينما كنت أسير فى الطريق وإذا بشاب مهذب ينادينى بالعربية وهو يحب مصر ويشيد بذكرها وحوله زمرة من السوريين يتجرون فى السيارات ولوازمها ؛ ويربحون من وراء ذلك ربحاً طائلا ، وفى الحق أن الشعب السورى لنشيط يسعى وراء الرزق فى أقاصى الأرض ولا ينسيه حنينه لوطنه المادة والمال ؛ فهو يقيم حيث يطيب له العيش ولا يقنع بالقليل زهداً فى التغرب والنزوح بعيداً عن بلاده ، ولقد كنت من قبل أسىء فهم السوريين لما كنا نراه من شرذمة نفعية ممن يعيشون منهم فى بلادنا ، ولكن تلك أقلية لاشك توجد فى كافة شعوب الأرض مهما سمت .

إلى طهران ثانية : قمت فى سيارة صغيرة جديدة ؛ فكان حظى موفقاً هذه المرة ، إذ سرنا فى سرعة مدهشة عوضت شيئاً مما سلف فقطعت المسافة كلها فى يومين بالضبط ، وكنا نسير النهار من مشرق الشمس إلى مغربها ونستريح الليل

وقد بدا طريق خراسان ممهداً بالنسبة لطرق الأفغان الوعرة ، لكن لم تخل رحلتى هذه أيضاً من تنغيص هو التراب الذى أفسد على كل شىء : مزاجى وملابسى ، لذلك كنت أضطر للوقوف مرة كل ساعتين أغسل وجهى بالماء وأكثر من النصف الأول من الطريق سهول تحفها التلال فى الآفاق ، وتكثر بها القرى ، وتزرع بها بقاع متفرقة ، وهنا أرض التركمان الذين كانوا نذير الفزع وقطاع الطرق ، وكانت تخشاهم حتى الحكومة نفسها ، فكم أبادوا من قوافل ، ونهبوا من متاع وأموال ؛ لكنهم اليوم عادوا أطوع للحكومة من سائر الطبقات بفضل شدة الشاه الحالى الذى ضرب على أيديهم وأخذهم بالقوة ؛ فأينما سرنا كنا نرى مخاط البوليس بأسلحتهم الكاملة ، والإيرانيون يفاخرون اليوم بان الأمن سائد فى جميع بلادهم رغم ما فيها من مخابىء ومفاوز .

ويقولون بأن الشاه يمر بنفسه على الحكام ومخافر البوليس متخفياً فى

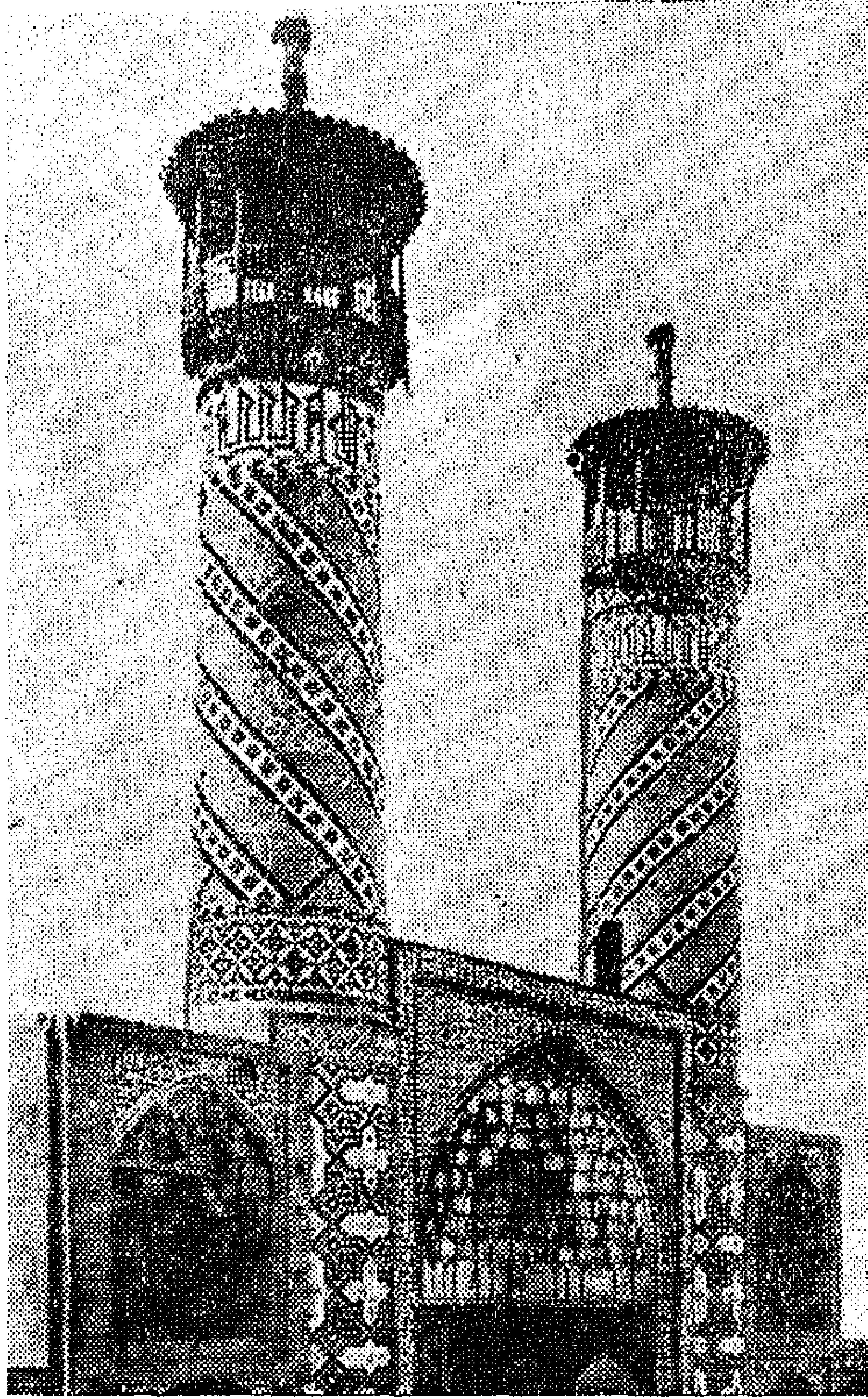
الليل والنهار مهما بعدت أطراف الإقليم ليقف بنفسه على ما يجرى ، ولا يترك صغيرة تنفذ فى البلاد كلها دون أن يجيزها بنفسه : حتى ترقية الضابط أو الموظف الصغير ، وكان يرافقنى فى السيارة شيخان عراقيان وسيدة وفدوا للحج إلى مشهد ، وكانوا كلما مرت بنا سيارة تحمل الحجاج يصيحون عالياً (التماس دعاء) ولقد عجبت لكثرة تلك السيارات ؛ فقد أحصيت فى سبع ساعات من الليل ثلاثين سيارة كبيرة متوسط حمولة كل واحدة عشرون شخصاً ؛ أعنى نحو مائة سيارة فى كل يوم ، بها ما بين ١٥٠٠ ، ٢٠٠٠ من الحجاج يفدون إلى مشهد . مع العلم بأنا لم نكن فى موسم الزيارة ؛ فأدهشنى هذا الإيمان العجيب فى الرضى ومكانته السامية من قلوبهم ، وكثيراً ماسألنى رفقاء السفر (أفى مصر شيعيون ؟) فأقول كلا وعندئذ يبدون علامات الأسف ، ويرمقوننى بنظرات كانت تنم عما تكن قلوبهم لنا من لعنات .

استرحنا ليلتنا الأولى فى (سبزوار) وهى عاصمة ولاية كبيرة وفى ظهر اليوم التالى وقفنا قليلا (بشاروت) وهى شبيهة بسابقتها ، وبعد (سمنان) وهى من العواصم الكبيرة ، انتهت السهول وبدأت الربى بتعقيدها الشديد فأخذنا نصعد ونهوى فى ليات مخيفة من دونها الهوى والوديان السحيقة ، تتوسطها مجارى الماء ومن حولها الشجر والقرى وقد كان البرد شديداً ، وبدت بقع من الثلج الأبيض فوق الذرى ، والثلج يكسو بلاد خراسان كلها وغالب بلاد فارس مدى ثلاثة شهور الشتاء ، وفيها يكون البرد قارساً والسير فى الطرق متعذراً لأن جوها قارى متطرف شديد الحر صيفاً قارس البرد شتاء ومن هذا الثلج وما يجمده من النقائع يدخرون جليله الشرب (ياخ) فى سراديب عميقة فى الأرض ، تفرش بالغرائر (الخيش) ومن هذا تستمد المدن والقرى مرطبات الصيف ، واننا لا نكاد نمر فى طريق أو قرية إلا ونرى الصبية يحملون الماء والثلج فى كتل غير مشذبة تمازجها الأتربة والأوساخ وهم دائماً ينادون (آب ياخ) أى (الماء المثلوج) وهو زهيد القيمة جداً .

ومن أعجب المناظر فى طهران الحمالون الذين يسيرون وعلى ظهورهم كتل من الثلج فى حجم الصخرة الكبيرة يكسوها القش والأتربة يسير الرجال بها وئيدا وهى تقطر ماء من جميع جوانبها ، ويقولون بأن هذا الثلج خير للصحة من الثلج الصناعى .

هبطنا آخر الربى فبدت طهران وسط صحراء مجدبة فى بقع متفرقة خضراء كأنها الواحة ، وقد شعرنا بأنها أدفأ جداً من أرض خراسان . استرحت فى طهران يومين زرت فيهما بعض مساجدها الفاخرة بقبابها المتعددة ومناراتها القصيرة ثم البرلمان المتواضع وكنت أمضى كثيراً من وقتى فى دار المفوضية المصرية وهناك كان يؤنس آلها بما جبلوا عليه من الخلق النبيل والطبع الكريم وكم أسدوا إلى من خدمات سهلت لى كل عسير ، ورجال المفوضية على جانب عظيم من الإخلاص والجد والخلق العظيم يمثلون مصر فى تلك البلاد الإسلامية تمثيلا مشرفاً يشيدون بمجد مصر ويقومون لها بدعاية طيبة ، وللسفارة داران أحدهما فى وسط البلدة وبها دار لوزيرنا الهمام ينزلها شتاء ، ومنزل الصيف فى ضاحية تسمى (شمران) فى حضن جبل (دماوند) ويقطنها طبقة الأرستقراطيين والأغنياء والسفراء ، والداران من القصور الفاخرة التى تدل على الفرق الشاسع بين ما كان عليه الحكام والأرستقراطيون — وهم أقلية فى قوم فارس — من البذخ والرفه ، وبين ما كان عليه العامة من البؤس والشقاء ويخيل إلى أن همهم كان ابتزاز المال من الناس والاستمتاع به دون أن يعنوا بشئون العامة كثيراً ولا قليلا وكان يعرف عن حكام الفرس أنهم يعينون بكثرة ما يدفعون للشاه وللحكام والوزراء من مال وكانت كل الوظائف تباع ، وبعد قليل يوقف الموظف ليولى بدله ، على أن المرفوت يخرج موفور المال رغم قصر مدته فى العمل ويقص البعض أن أحد الولاة هناك بكى ليلة ، ولما سئل عن ذلك قال بأن النهار قد انقضى ولم يزد ما جمعه على ألف جنيه فقط ، وكان يؤيد هذا لدى ما رأيته .

فبعض تلك القصور قد بلغت من الوجاهة حدا لا يكاد يرى فى الممالك الأخرى ، بينا ترى سواد الأمة فى أجحار وأقبية من الطين ليس فيها وسائل



مسجد طهران بمآذنه الانيقة

الراحة أو شئون الصحة ، حتى شهر عن الفرس التقشف وأنهم لا يعنون بوسائل الراحة والترف كما يعنى بها الأوروبى ، وقلة وسائل الترف لا تؤثر على كرامتهم أو سمعتهم فى نظرهم ، وهم يعدون ذلك فضلا يجب على الغربيين أن يتعلموه عنهم .

إلى بحر الخزر : قمت صوب شمال طهران لأرى الجزء الشمالى من إيران ، وما كدنا نخرج من بوابات المدينة — وبوابات طهران فاخرة تؤدى

منها إلى جميع الجهات ، وهى أخص ما يسترعى نظر السائح هناك — حتى استوقفنا البوليس كعادته ، ولما رأى الجواز قال هذا لا يكفى ولا يباح الخروج من طهران إلا بتذكرة من (النظمية) قلت : ولكنى سائح سأغادر بلادكم قال : هذا لا يكون ولابد من العودة والحصول على الترخيص المطلوب ، وكان رفيق فى السيارة من كبار الموظفين ، فتعاونا على إفهام رجال البوليس بأن تاشير النظمية موجود وأروهم طابعاً فيه ، وبعد جدل طويل غلبتهم حيلتنا وجزنا النطاق ، وقد ساعد على ذلك جهل البوليس ، فهو هناك لا يكاد يعرف القراءة .

لبثنا نسير من السادسة مساء إلى الأولى صباحا ، وقد تعب رفيقى وكان أحدهما طالباً فى بروكسل وهو عائد لاستئناف دراسته عن طريق بحر الخزر والروسيا ، واضطررنا أن نوقف السيارة وسط الطريق ونمنا ونحن قعود بها ، وأدهشنى أن رفيقاى قد شعرا بارتباك فى المعدة أعقبه قئ من أثر ارتجاج السيارة فأذكرنى بمرض البحر وما كان يسىء إلى يوم كنت حديث عهد بركوبه ، ومسافة الطريق إلى بحر قزوين ستون فرسخاً — أى نحو أربعمائة كيلومتراً ، كانت المناظر فى النصف الأول منها مألوفة من ربى تحوط متسعات من أرض مهملة ، وما كدنا نوغل فى النصف الأخير حتى زادت عقد الجبال فى صخرها الأغبر المنحل ، وغالبه من الجير الذى اسود بمضى السنين وكثرت الالتواءات الأرضية وزادت طياتها ، وكنا نشاهد ذلك فى جوانب الجبال واضحاً وأخذ الطريق يعلو ويهبط ويلتوى على نفسه مرات متعاقبة فى وعورة لم نعهدها من قبل وقبيل :

الرشت : بنحو خمسين كيلومتراً أخذت صفحة الجبال المعقدة تتغير معالمها إذ كساها الشجر القصير فى تفرق أعقبه تلاصق عاجل ، وما نشعر إلا ونحن نوغل فى غابات كثيفة أذكرتنى بمناطق الغابات الصميمة فى إفريقية ، وكنا نجانب وادى نهر يسمونه (النهر الأبيض) فى اتساع عظيم وهو يتلوى

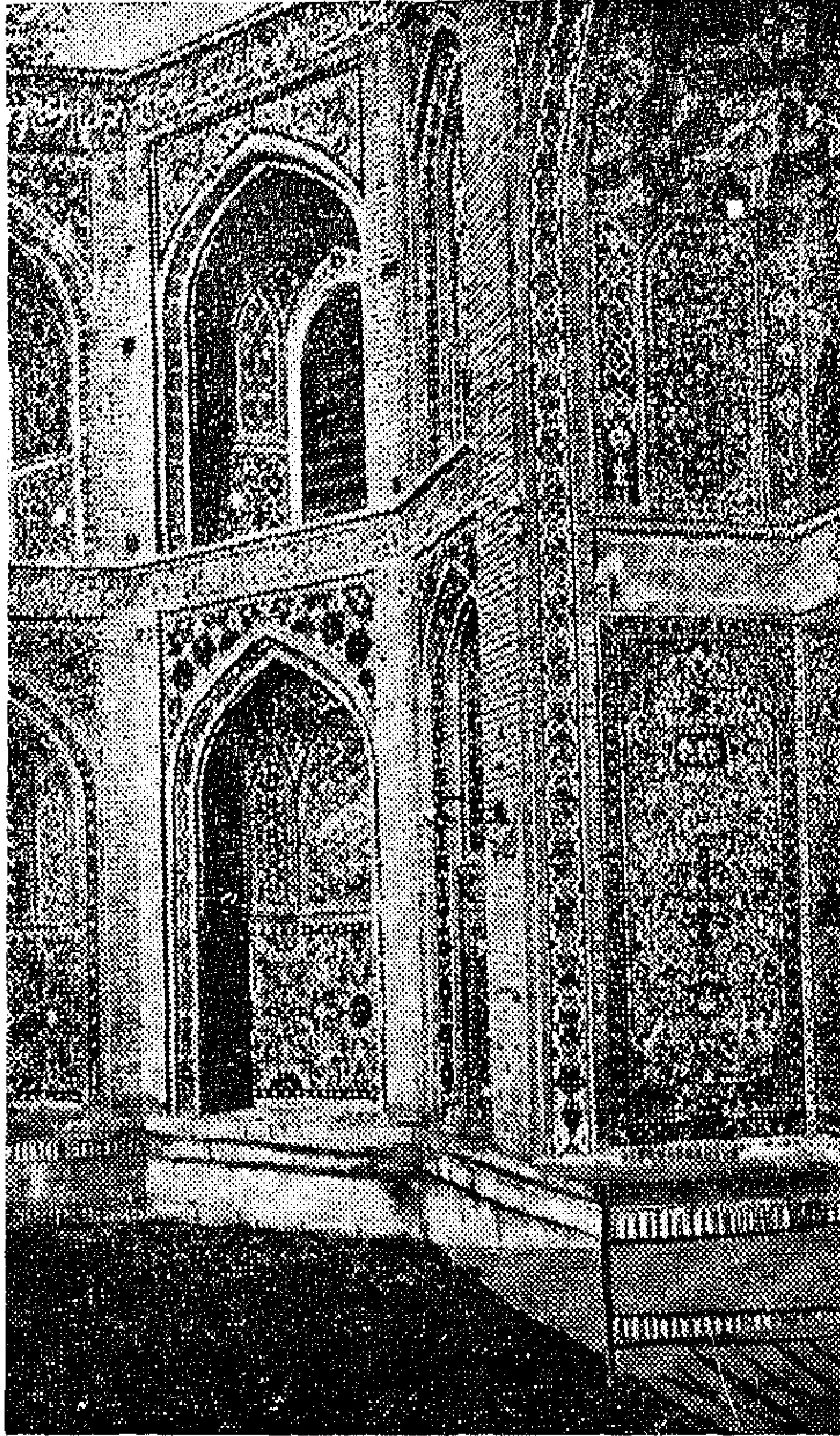
ليات متعاقبة وسط تلك الجبال اللانهائية، وكل أولئك جبال البرز المعروفة،
أما ماء النهر فكان آسناً، إذ يفيض بالماء إبان الشتاء حين تكثر الثلوج التى
تمده بالماء، ولقد ظلت المناظر رائعة ساحرة خلاف ما عهدنا فى ربى إيران
المنفرة التى عريت كلها عن النبت، ونضبت مياه مسايلها، وكان منظر بعض
الوهاد بقراها كالمناظر التى شاهدتها فى بعض جهات اسكندناوة، أو
سويسرة، على أن الشجر مختلف فليس لأشجار الصنوبر من أثر حتى فى أعالى
الذرى، وكله من أشجار البلاد الحارة وتكثر حولها الطفيليات النباتية
والأعشاب المتسلقة التى تسد الغابة سداً، ولذلك يطلق القوم عليها
كلمة (Jungle) الإنجليزية

وكلما قاربنا الرشت بعدت عقد الجبال وانفسح السهل وغص بالقرى
والمزارع التى شهرت من أجلها البلدة وبخاصة فى الأرز والطباق وهذه الناحيه
أشهر بلاد فارس فى الزراعة، والطباق اليوم آخذ فى الزيادة هناك على حساب
الأرز وقبيل الساعة العاشرة صباحاً دخلنا (الرشت) التى كانت عاصمة بلاد
الديلم قديماً وهى اليوم عاصمة مقاطعة جيلان، بدت مدينة عامرة كبيرة أخف
روحاً حتى من طهران نفسها، وأهلها أكثر حركة ورشاقة، وقد حاكت
المدن الأوربية ويظهر أنها تأثرت طويلا بالروس يوم كان لهم النفوذ فى هذه
المنطقة، لذلك كانت جموعهم كثيرة فى البلدة نساء ورجالا، واللغة الروسية
منتشرة بين الجميع إلى جانب الفارسية. وغالب مبانيها من طابق واحد تظهر
وكأنها أقيمت كلها من جديد، والبيوت ذوات سقوف متحدرة يكسوها الآجر
الأحمر خلاف ما شاهدناه فى سائر جهات فارس، ذلك لأن مطر المنطقة
غزير جداً يفوق مقداره المتر، ويظل المطر أكثر من ثمانية شهور وبخاصة
شهور الشتاء، ولم تخل السماء من الغيوم ساعة واحدة، وكان الجو أميل إلى
الرطوبة وسببها رياح سائدة تهب شمالية غربية من بحر الخزر على تلك
المرتفعات فتغرقها مطراً وتكسو ذراها ثلجاً، وفى الشتاء تزيدها أعاصير البحر

الأبيض التى تندفع من قزوين إلى بحار الهند الدفئة ، خفيفة الضغط حتى فى هذا الفصل الجاف ، لذلك قل بها التراب الذى كان ينغصنا فى بلاد فارس كلها ، وكان جوها لطيفاً محتملاً عن طهران إلا إذا انكشفت الشمس عن الغيوم فعندئذ يصبح الحر شديداً ، على أن الجهة تعرف بكثرة الحميات فى جوها غير الصحى بسبب الحرارة والرطوبة معاً ، وقد زادها حراً انخفاض سطح بحر الخزر وهو أوطأ من مستوى البحر الأسود ٨٤ قدماً لذلك يجرى القول على لسانهم هناك: ماذا أذنب فلان حتى يولى حاكما على الرشت : على أن حظى كان موفقا إذ كانت أيامى هناك أجمل أيام قضيتها فى إيران كلها . وبالمدينة مجموعة من متنزهات منسقة أنيقة تقوم بها المقاهى الحديثة ، وفيها يسمع المرء الموسيقى الشجية ، وقد اختلطت الأنغام الفارسية بالروسية وكلاهما مما تستريح له آذاننا .

أقلتنا السيارة إلى بهلوى على شواطىء بحر الخزر — ولا يسمونه هناك بحر قزوين قط — والمسافة أربعون كيلو متراً ، فكان الطريق يتلوى وسط الأحراش الكثيفة المغلقة التى حاكت الأحراش التى رأيتها فى بنغالة فى بلاد الهند ، ويقولون بأن فيها كثيرا من الحيوان المفترس خصوصا النمر ، ومن أعجب ما رأيت فى الطريق كثرة الكروم البرية التى كانت تنمو فى كل مكان ، ويقول البعض إن كروم أوربا جاءت عن تلك الناحية وعن القوقاز . أخذ الشجر يقل كلما قاربنا البحر حتى انعدم وأضحت السهول تكسى ببساط من خضرة إلى البحر ، وكنا نرى بيوت القوم أخصاصاً من أعواد الخشب يكسوها القش الثقيل فى شكل مخروطى أومنحدر السقوف ، فذكرت مساكن الغابات الاستوائية على ضفاف فكتوريا نيانزا تماما ، والقوم يستأصلون الأحراش من مساحات يزرعونها من الأرز والطباق والقطن والكتان والعمل يقع كله على السيدات اللاتى كن يظهرن فى ملاءات بيضاء ناصعة ، وقد استرعى جمالهن نظرى : فهو مخالف للسحن الفارسية البحتة . ويظهر أن

اختلاط الروس بالفرس هنالك أكسب أولئكن جمالا . عالج كبر الأنف الفارسية ، وأشرب اللون الفارسى الأبيض الناصع بعض الحمرة الروسية



ابداع الفن داخل مسجد سپاه سالار بطهران

الجذابة ، والناس فى تلك الجهة يمونون أنفسهم بكل شىء من عمل أيديهم وحتى الملابس ينسجونها ويربون دود القز

والمنطقة المجانبة لبحر الخزر إلى شمال البرز كلها كثيفة الغابات من مقاطعة (مازندران) شرقا إلى أذربيجان غربا ، وسكانها يفوقون مائة ألف وكل تلك السهول من مخلفات بحر الخزر الذى كشفها وهو آخذ فى النقص من أثر البخر الشديد . أخيرا دخلنا . (بهلوى) ، فكانت بيوت الفقراء

أخصاصاً على نمط تلك التى فى الغابات يحوطها سور من غاب وحولها حدائق لا بأس بهـا ، وعلى البحر أقيمت الميناء تحفها مجموعة أبنية غالبها للجمرك ومرسى السفن. وتصف أزاءها الزوارق للنزهة ، وتلك الجهة تسمى (غازيان) وإذا ركبنا البحر أقبلنا على شبه جزيرة تبدو بهـا المبانى الفاخرة والشطان المنسقة ، وهـذه هى (بهلوى أو أنزيلى قديماً) . ركبت البحر إليها فى ربع ساعة ، وإذا بها آية فى التنسيق والنظافة بيوت فخمة وطرق مرصوفة ومتنزهات عدة ، وقد مدت على شاطىء البحر الحدائق والمقاهى ، فكنت وكأنى فى إحدى مدن الرفييرا تماماً ، وفى الحق أن تلك الجهة من فارس فريدة تختلف عن سائر جهات فارس فى كل شىء : فى طبيعة الأرض وفى الجو وفى النبت وحتى فى سكانها فهم أكثر نشاطا وجمالا ، أما الناحية الخلقية فهى هنا أكثر فسادا ولا شك أن للاباحة الروسية المقيتة أثرا كبيرا فى ذلك . قامت الباخرة الروسية من الميناء تقل رفيقى إلى باكو فى ثمان عشرة ساعة . ومن ثم يستقل القطار الروسى إلى بركسل ، وقد حدثنى طويلا عن الروس وماهم فيـه من بؤس مميت إذ لا يكادون يحصلون على القوت ، يجبرون على العمل مقابل تذكرة تبيح للواحد منهم تناول الطعام من مطاعم الدولة وكثيرا ما ينتهى الطعام قبل أن يحصل جميع الناس عليه لكثرتهم فيطردون إلى الغد ، والحياة هناك غالية غلوا فاحشاً حتى لأهل البلاد ، ورقابة البوليس بالغة الشدة ، ولـكن رغم ذلك يفد الكثير من الناس إلى البلدان المجاورة هروبا من ظلم واقع وجوع محيق ، وقد لاحظنا من هؤلاء جموعا غفيرة فى بلاد فارس والأفغان ، ويقول صاحبى بأن سكة الحديد الروسية القوقازية قذرة جدا . ولا يجد الواحد فى الطريق شيئا يبتاعه قط ليتبلغ به ، ومن الغريب أن الجيش والبوليس وهم نفر قليل يسيرون الامور على هذا الحيف القاتل . ولا يستطيع الناس القيام ثائرين لعوزهم وعجزهم ، وأنت تدهش اذ ترى بعض المنتجات الروسية تغرق الاسواق الخارجية ، فالسكر يرد الى فارس بسعر قرانين للاقة (أى نحو قرشين)

ثم يعيده المهربون من فارس الى روسيا ليبيعوه بعشرين قرانا للروس أنفسهم وكذلك السجاير، وبعض المنسوجات . تفعل حكومتهم ذلك بقصد الدعاية للسوفييت ، ولا أدرى ماقيمة الدعاية لنظام فاسد أهلك الاهلين الا نفرا قليلا من السادة هناك .

واليوم فقط (الخميس ٧ سبتمبر) حققت حلماً طالما جال بخاطرى ، هو أن أركب بحر الخزر — وهو بحر طبرستان — يوماً وأطوف بسواحله ذات الطبيعة المختلفة من غابات كثيفة تغص بها سهوله الجنوبية إلى غابات جبلية فى غربه إلى كلأ وعشب شبه صحراوى فى شرقه إلى أرض ملحة فى شماله . لكن الشبح الروسى لم يتح لى التجوال كاملا فلبثت اليوم كله أجول فى مياهه الفارسية وراء ثغر بهلوى ، وقد كان ماؤه أملس هادئاً . على أنه إبان العواصف ، يعلو موجه ويضطرب ، وقد تذوقت ماءه فاذا به قليل الملح على خلاف ما عهدت ، فخلت ذلك راجعا إلى قرب بعض المصاب العذبة من تلك الجهة لكن القوم خبرونى أنه أميل إلى ذلك فى كل أرجائه ، ودللوا على ذلك بكثرة أسماكه نوعا وعدداً ، ولذلك كانت مصائده هامة للدولتين : الروسية والفارسية ، وكانت زوارق الصيد تسد الأفق سداً ، والسمك غذاء رئيسى للناس فهو والأرز عماد الطعام ، وكان لهما أثر حسن فى أجسامهم ، فهى هناك ممتلئة عن سائر جهات فارس الأخرى ، إذلم أعثر على القامات الطويلة والأجساد السمينة إلا فى تلك الناحية من بلاد فارس كلها .

أصبحنا يوم الجمعة والجو جميل ، والسماء تنتثر بالغيوم المتقطعة ، وقد أمضينا ليلتنا فى نزل (سافوى) فى رشت ، وهو يطل على ميدان البلدة الجديدة الذى تمتد منه الطرق المستحدثة البديعة ، وتزينه المتنزهات ، والمنظر من شرفة النزل رائع : السماء تنقشها الغيوم ، والخضرة تمتد إلى الآفاق ، والمبانى حولنا فاخرة ، وجماهير الناس فى أنظف ثيابهم — لأنه يوم الجمعة ، يوم الراحة القومية — يروحون ويغدون فى كثرة تسترعى النظر ، ولا يخلو الجمع من

طائفتين : الغانيات فى ازارهن الأسود المهفهف والمتسولين الذين يمسكون بتلابيبك يصيحون فى نغمة البائس المتماوت قائلين : أرباب . . أغا . . وأكفهم مبسوطة ، وكثير منهم من يظهر فى هندام نظيف ووجه مشرق مما أثبت أنهم على شيء من اليسار ، لكن التسول أضحى فى القوم عادة متأصلة ذميمة ، وكثير من مبانى الرشت وبهلوى بالخشب لكثرة الغابات حولها ، لذلك نرى فى كل برجاً عاليا يظل فيه الرقيب ليلا ونهاراً لينذر بالحريق إذا ما بدا دخانه أو لهيبه فى أية ناحية من البلدة .

قمنا فى الأصيل مودعين رشت ومنطقتها البديعة التى تصلح خير مستراض فى الربيع والخريف ، وأخذت سياراتنا تشق الخضرة التى زادت كثافتها تدريجيا وبعد أن قطعنا ثلاثين كيلومترا بدت جبال البرز ، أعنى أن السهول إلى البحر تمتد سبعين كيلومتراً ، وكانت الأشجار الكثيفة تغطى الجبال إلى أعلى ذراها والربى تبدو مدرجة الواحدة وراء الأخرى وسحاب السماء يكاد يلامسها وإن لم يبد للثلج فوقها من أثر ، وكانت طيات الوديان بمائها الشحيح تختفى وراء الربى تارة ، ثم لا تلبث أن تنكشف فى مباغتة تقر لها العين ، وكان المنظر العام ونحن وافدون من الرشت أروع منه لمن يدخل البلدة قادما من طهران ، وظل جلال الغابات حولنا زهاء خمسة وعشرين كيلومترا ثم ندر الشجر وانعدم فجأة وأضحت عقد الجبال قاحلة منفرة مسافة ذرعها سبعون كيلومتراً كان الطريق فوقها طيات قاسية رهيبة خصوصا فى ضوء القمر الشاحب وفى سكون الليل الموحش ، وفى باكورة الصباح دخلنا طهران للمرة الثالثة وكان معى موظف كبير فى المالية ومعه أولاده الصغار ، وقد ألفت نظرى أنهم يدللون النشء لدرجة أنك لو كلمت الرجل فى شأن ابنه (حسين) مثلا عاد فكرر الاسم قائلا ابنى (حسين خان) ويبيحون لهم تدخين الطباق أمامهم وهم لم يبلغوا الحلم بعد . ولما أردت أن أتشرف باسم الرجل نفسه قال فى نغمة مضخمة اسمى (أغا على خان) وقد زرت فى رفقته

بعض القصور ، ثم كان وداعى لحضرات ممثلينا الكرام فى المفوضية المصرية العامرة ، وقد تناولنا طعام الغداء فى مطعم فارسى بحت يسمونه (لوقانطة) أمام دار البرلمان وهو بيت لوزير قديم حجراته مزركشة الجدران عليها رسوم بعض ملوك فارس وعظمائها ، وبها حجرة وسطى يحار اللب فى تعقب نقوشها وزخرفها ، والفناء مكشوف تتوسطه بركة ماء هائلة نسقت حولها الزهور ، وأخص ألوان الطعام الفارسى الأرز الفارسى عليه بعض الافاويه ويسمونه (بيلوف) ، والكباب الشهى المسمى (شيشيك) .

عرجت على (النظمية) لانجاز جواز الخروج من طهران فاضطررت آن أبق يوما كاملا حتى فاتتنى سيارة البريد التى تقوم إلى جنوب طهران مرتين فى الاسبوع ، وتضييق البوليس فى فارس قد بالغوا فيه فأضحى من أكبر المنغصات على المسافرين حتى من أهل البلاد ، فقمت فى سيارة خاصة

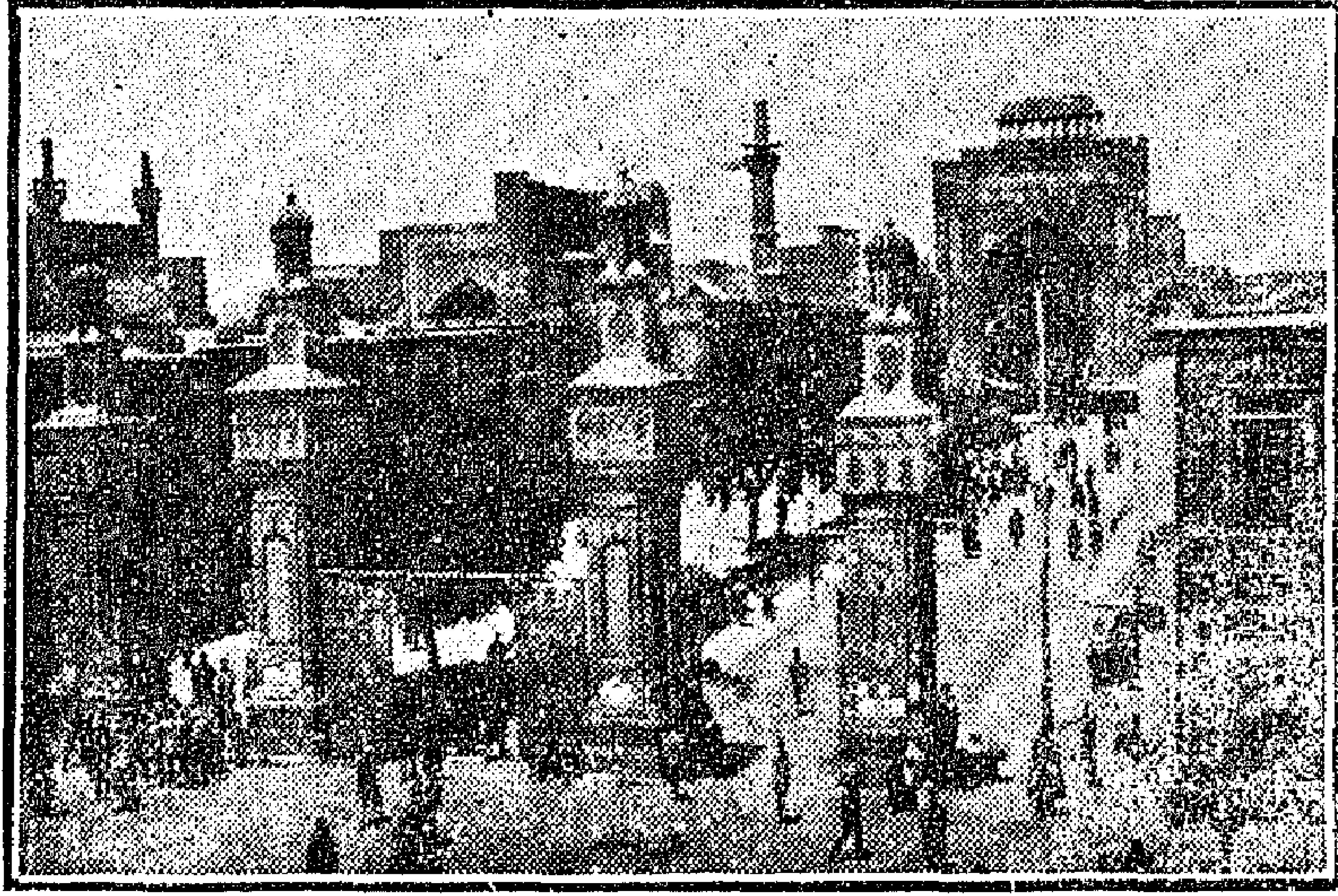


الامام الرضى « كعبة الشيعة » فى مشهد مقدس

رفقة بعض الطلاب وقفوا بنا طويلا فى ناحية تبعد عن طهران بسبعة كيلومترات ويسمونها (حظرت عبد العظيم) على اسم عالم وولى أقاموا له ضريحا هناك زرته فأدهشنى اتساعه وعظيم زخرفه وفى وسط حجرة منه دفن السلطان نصر الدين شاه فى ضريح من المرمر الشفاف فى خرط بديع ويقوم تمثاله ومن حوله عدة علماء فوق كل منهم صورته الزيتية الكبيرة ، وتلك ظاهرة استرعت نظرى إذ لم يكن يباح فى الاسلام إقامة التماثيل ولا وضع الصور المكبرة هكذا ، ويظهر أن الشيعة أكثر مرونة وأميل الى الاباحة من أهل السنة (وحظرت عبد العظيم) مزار مقدس وبخاصة عند النساء اللاتى يعتقدن أنه يفك عسر العقيم منهن . هناك تعطلت السيارة لان رفقائى أضافهم للغداء أقرباؤهم ، ولما طال بى المكث صحت محتجاً فتكاثروا على حتى ادخلونى دارهم فاذا هى من الداخل فسيحة مشيدة تتوسطها الحديقة الفارسية وحوض الماء ، وتلك شهرة لفارس من قديم ، وهم يقيمون أجمل أبنية البيت فى مواجهة المدخل وبيت الحريم يبعد الى الداخل ، وفى غرفة الاستقبال جلسنا القرصاء على البسط الوثيرة (وصموار) الشاى متقد الى جانبنا لسقى الاضياف من الشاى الاخضر زكى الرائحة

قمنا نشق طريقنا وسط سهول زراعية تربتها سوداء إلى مسافة ثلاثين كيلو متراً ثم بدأت التجاعيد المجدبة المنفرة فأضحى المنظر صحراوياً شديد المحل ، وقد ظهر إلى يسارنا متسع لانهائى من بسيط تكسوه الرمال يختلط بها الملح المبيض وندرت القرى جداً حتى أنا كنا نمر بالقرية الصغيرة كل ساعتين فلا نرى بها مجارى المياه التى ألفناها فى جوانب الطرق من قبل وهى تستقى من عيون أشبه بتلك التى فى الواحات . وقد صادفنا فى سيرنا سيارة البريد التى سبقتنى من طهران ، أصابها عطب فوقفت اليوم كله فقلت فى نفسى : (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) بعد أن أسفت لفواتها أمس شديد الأسف ، وبعد مائة وخمسين كيلو متراً من طهران وقفنا ببلدة

(قم) مدفن السيدة فاطمة أخت الامام الرضى ويسمونها (معصومة) وقد أقيم حول ضريحها مسجد فاخر وهو من الامكنة المقدسة الهامة التي يزورونها في مواسم معينة .



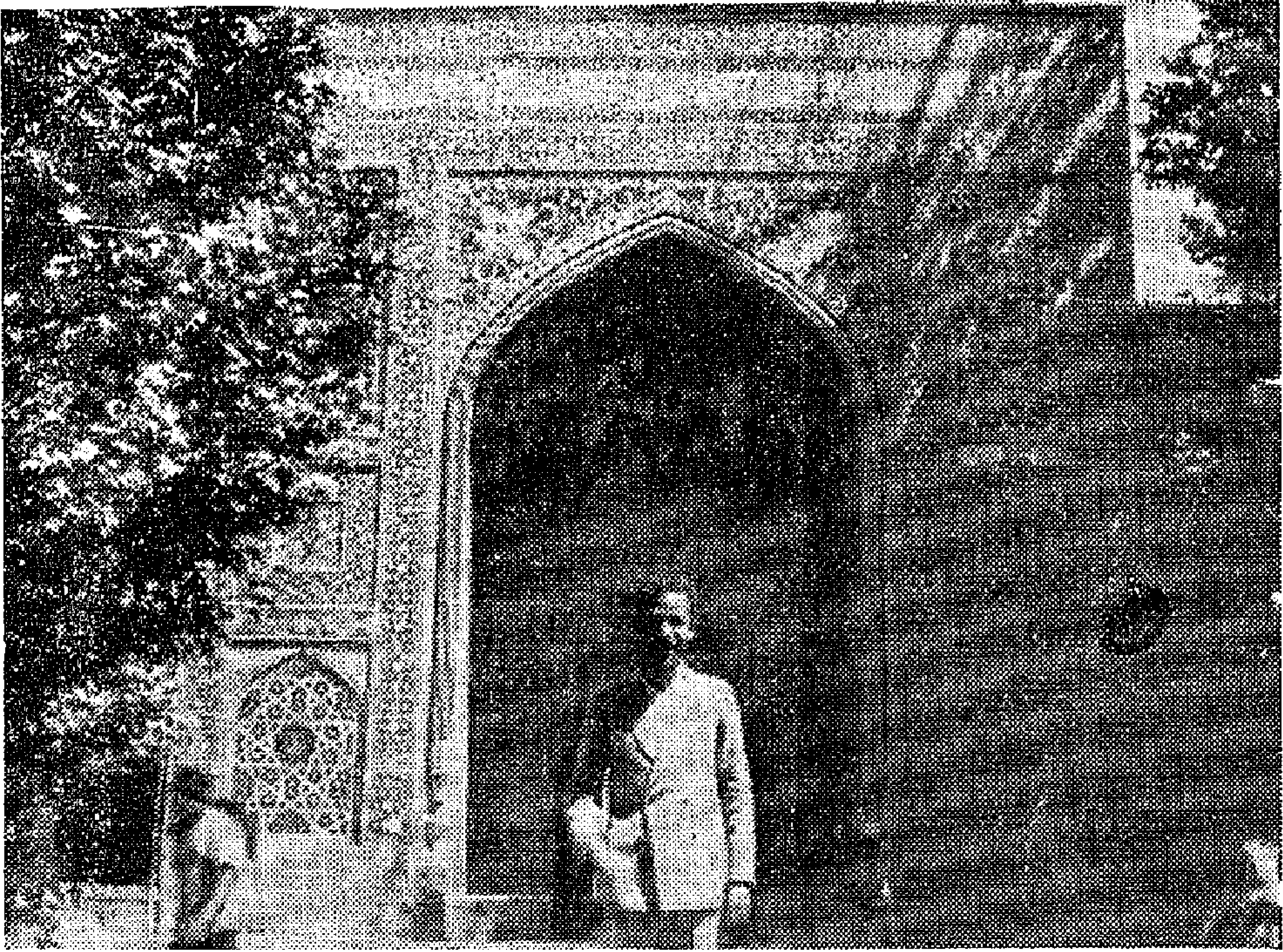
المدخل الرئيسي لحرم الامام الرضى في مشهد مقدس

ومن البلدان التي مررنا بها قاشان وتشتهر بصناعة البسط من الحرير في جميع الأحجام . استعرضت بعضها فإذا بها آيات فنية ، لذلك لم أعجب من غلو أثمانها فكان بعضها يباع بمائة جنيه للقطعة ، على أن الإنسان يستطيع أن يبتاع قطعة صغيرة بمائة تومان (أي : اثني عشر جنيهاً) ، وقد أردنا إمضاء الليل هناك ، لكنهم أخافونا لأنها تغص (بالعقارب) لدرجة مخيفة ، حتى أن التجار أنفسهم لا يستطيعون المبيت فيها . فواصلنا سيرنا الليل كله ، وفي الصباح أقبلنا على :

اصفهان : أو أصبهان (وطن أبي الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني وكثير غيره من أهل العلم والأدب) ، بعد أن قطعنا نحو خمسمائة كيلومتراً في اثنتي عشرة ساعة فألفيناها في حجر جبل من دونه سهول مترامية في تربة سوداء غنية بمزارعها على أن مدخل البلدة مترب منفر لا يوحي بشيء

من العظمة التى خبرونى عنها هنالك ، ثم حللت نزل (أمريكا) الجميل الذى يطل على أهم شوارع البلدة ويسمى (خيابان جهار باغ) أعنى طريق الحدائق الأربع وهو فى امتداد عظيم واستقامة تكاد تشق المدينة كلها وتعبر النهر وتمتد إلى ضاحية (جلفا) وكأنه ثلاثة طرق متجاورة الأوسط الفسيح تحفه أشجار الشنار الهائلة وهى متجاورة تكاد تظل الطريق كله بجانبه طريقان آخران أقل سعة وبينهما وبين الأطارين شجر يماثل الأوسط ، وفى مجاورة صفوف الشجر مجارى المياه المألوفة فى بلاد فارس كلها وهو مستراض الناس طيلة اليوم وبخاصة عند الأصيل حين يغص بالغانيات يتلمسن من المارة رفيقاً ، وتطل على وسطه مدرسة (جهار باغ) الدينية تحت قبة زرقاء بديعة تمتد حولها الألونة فى طابقين لإيواء ١٦٠ من طلاب العلم وفيها يتخرج المولاة ، وواجهة أحد المداخل آية فنية فى نقوشها وزخرفها الفارسى البديع أقامها الشاه حسين سنة ١٧٦٠ ، وفى أحد طرفى الطريق قنطرة جلفا التى تسترعى النظر ببنائها العجيب تقوم البوائك والمقاصير على جانبيها ، فتتخذ مأوى لمن أراد وتتدلى خلال بعضها درجات تؤدى إلى بطن الوادى الذى لا يكاد يجرى به ماء إلا فى نقائع ضحلة آسنة لا تمنع المرور إلى الجانب الآخر ، مع أن النهر أكبر أنهار فارس كلها ويسمونه (زندة رود) الذى يصب فى مستنقع داخلى اسمه (هامون) ، ويخال البعض أنه هو الذى أغرى الشاه عباس أن يقيم عاصمته (أصفهان) على ضفافه ويقول بعض الكتاب عن تلك القنطرة أنها أفخر قناطر الدنيا وأبهاها وقال عنها (كرزون) أنها وحدها خير مبرر لزيارة بلاد فارس . على أنى لم أر فيها من هذا الجلال شيئاً اللهم إلا أنها غريبة فى نظامها وهندستها ، وكان يخصص أحد جانبيها لمرور النساء والجانب الآخر للرجال ، وعلى الجانب الآخر من القنطرة ضاحية جلفا وهى مأوى لطائفة من الأرمن المسيحيين الذين خدموا السلطان عباس وبقيت لهم ولذراريهم إلى اليوم وهى أنظف فى مجموعها من أصفهان نفسها ، تتوسطها

الكنيسة الرئيسية الهائلة فى الهندسة الايطالية البديعة التى بدت غريبة وسط بلاد فارس وفنها الشرقى البحت .

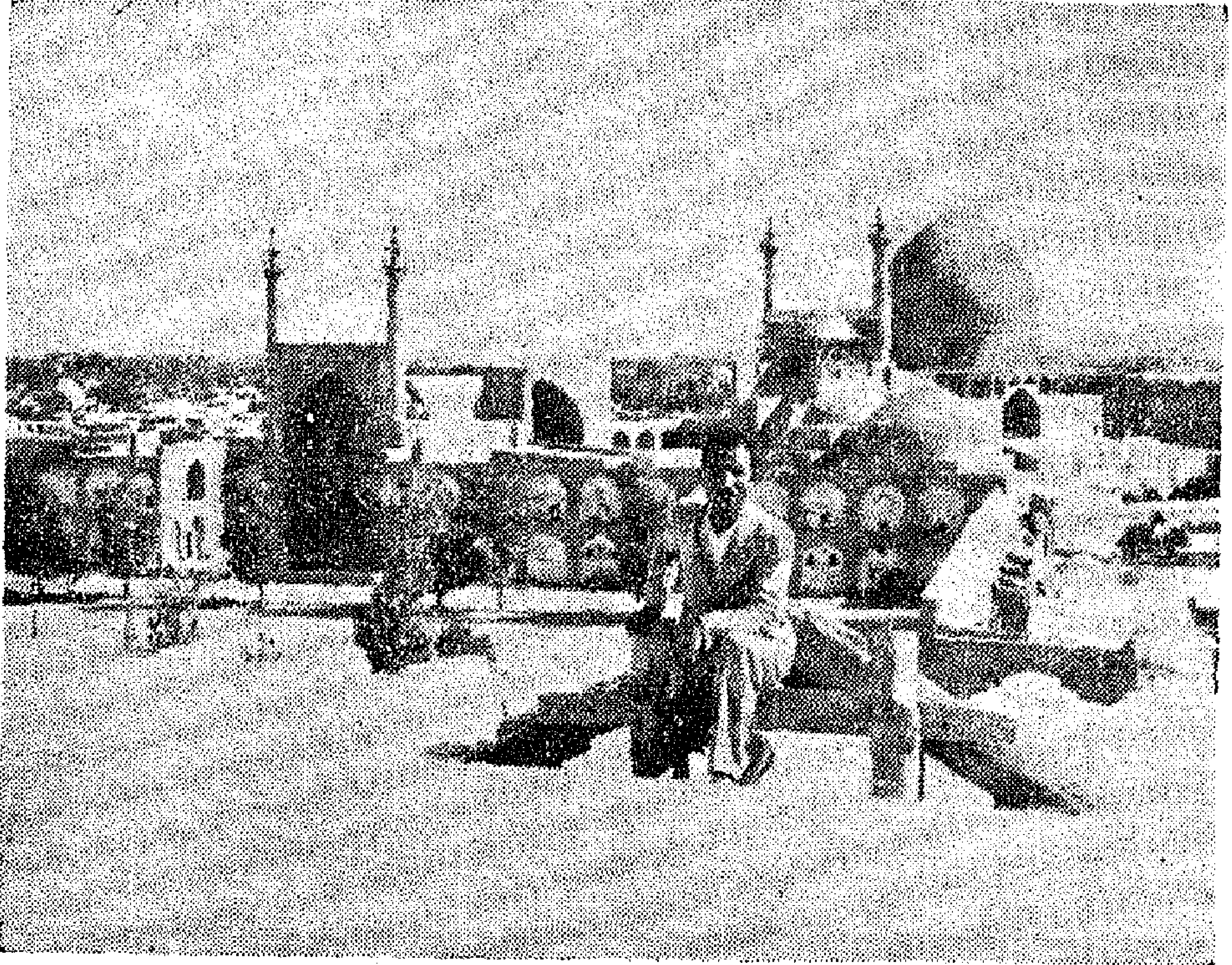


واجهة مسجد لطف الله يزينها القيشانى الازرق البديع فى اصفهان

وفى وسط أصفهان (ميـــدان شاه) موضع شهرة أصفهان وهو فناء مستطيل الشكل فى امتداد لانهائى يشعر بالعظمة حقاً يتوسطه حوض ماء كأنه البحيرة العظيمة ، ويطل عليه من وسط أحد جوانبه (آلى كابو) أو الباب العالى مسكن الشاه عباس وهو شاهق أقيم فى سبعة طوابق يرتقيها المرء بسلم حلزونى ويرد كلا منها بلبيات وسراديب عجيبة بعضها كالتيه كان الغرض منه إخفاء طريق الهروب إن دعت الحاجة ، والجدران كلها نقوش بالذهب والألوان التى يخالها الواحد مورقة ، والطابق السادس أعد لسماع الموسيقى وجدرانه مخرمة إلى سقفه فى أشكال آلات الطرب على اختلافها ، وفى الطابق الثانى شرفة يسمونها (تالار) أقيمت من خشب على عمد مزركشة ، وفى

وسطها حوض ماء أنيق كان يرده الماء فى أنابيب أرسلت من جبل شاهق فى طرف المدينة ، وفى مقابل القصر مسجد الشيخ لطف الله أقامه للشاه إحياء لذكرى ذلك العالم ، وهو عبارة عن قبة لا مآذن لها أقيمت على مجموعة من أقبية جوفاء تتخذ مقراً فى الصيف ، والقبة بولغ فى نقشها بالقيشانى الأزرق فى إتقان فائق تطوقها الآيات الكريمة فى خط بالغ الحجم ، وتحف بأركانها جدائل من الفيروز ويكسوها الزخرف من خارجها أيضاً ، فهى فى مجموعها قطعة فنية فى رواء خيل إلىّ أنها صنعت اليوم ، وإلى يمين القصر يطل على الميدان (مسجد شاه) ، وهنا يعجز قلمى عن وصف آياته الفنية فى النقش والزخرف الذى بالغ فيه مبدعوه : قبة هائلة أقيمت على عمد ومن حولها مجموعة من الأقبية تحوطها الألونة تتوسطها أحواض الماء ، وتقوم على جوانبها الحجرات وكل ذلك يكسى بالقيشانى من داخله وخارجه فى نقوش وقفت أمامها مبهوتاً ، فهو حقاً أجمل مساجد إيران جميعاً يأخذ بلبك خصوصاً إذا ما أقبلت على واجهته الزرقاء التى تعلوها مئذنتاه الدقيقتان الزرقاوان ، ومن نقطة وسط المسجد إذا ضربت الأرض أو صحت ردد الصدى صوتك بشكل متكرر ومرتفع يسمع كأنه قهقهة عالية ، وفى قبالة المسجد من الجانب الرابع للميدان مداخل الأسواق ، وهى أيضاً تكسى بالقيشانى مما أكسب الميدان جمالا مقطوع النظير ، وتروقك جلسة من شرفة قصر الشاه (تالار) تشرف على أولئك وأنت مأخوذ من عظمة ماترى ، مشهد يخدع المرء فيوحى إليه بأنه أضحى من ملوك الأرض الجبابرة ويذهب بخيال الواحد إلى يوم الشاه عباس وما كان عليه الأقليم من عظمة ورهبة وقد نال منه الدهر اليوم فأخنى من روائه الكثير ، وجعل رواده من فقراء السابلة ، وجماهير المتسولين بعد أن كانوا من علية القوم وعظمائهم فسبحان مغير الأحوال ، كان الشاه يجلس فى تلك الشرفة يستقبل الأضياف والسفراء والعظماء ، ويشاهد حاضرة ملكه وما فيها من حركة ونظام . يمر أمامه الجند يستعرضون من ثكناتهم

التى تطوق الميدان كأنها سور من بوائك مزركشة . وكانت تقام الحفلات الرسمية ، ومن أجلها حفلة عيد النيروز رأس السنة الفارسية ، وكانوا يشاهدون



نطل من القصر الملكى على ميدان شاه ومسجد شاه فى اصفهان

بها مختلف الألعاب ومصارعة الحيوان والحواة والفرسان وقد احتذى كثير من الملاعب الأوربية حذو ملهى الميدان الفارسى ، وهنا لعبت كرة البولو لأول مرة أمام الشاه وكان معاصراً للملكة اليصابات فى انجلترا — وكانت تلك اللعبة معروفة للفرس منذ القدم حتى روى القوم أن أحد ملوك فارس أرسل إلى الإسكندر وهو صبى كرة ومضرباً . فرد الإسكندر قائلا : إن الكرة ستكون فى نظره الأرض كلها والعصى الإسكندر نفسه ، وقد عرفت فارس بعد صدق نبوءته إذ دخلها الاسكندر وأسلمها للسلب والنهب ، وظلت تلك اللعبة سائدة فى فارس وحتى هرون الرشيد لعبها رغم أنه كان قصير القامة حتى أن عصاه لم تكد تدرك الكرة وهو ينحنى بها من ظهر جواده ،

ولا تزال قوائم الملعب ترى بقاياها اليوم من جلاميد الصخر . ويمكن للسائح إن هو جلس هنيهة فى تلك الشرفة أن يقرأ صفحة جلية عن أهل العجم وحياتهم . فأصفهان لا تزال فارسية بحتة فى كل شيء ، وهى خير بلادهم دلالة عليهم فى أخلاقهم وحياتهم وفنونهم التى لم يكد يدخل عليها تبديل ، وقد كان حكم الشاه عباس هو العصر الذهبي للفن والبناء حتى قال الناس فيه : لما أن مات مولانا عباس مات معه تقدم الفرس وفنهم .

وقد حكم الشاه عباس ٤٣ سنة ، ونقل عاصمته من قزوين إلى أصفهان ، وقد زاره وفد انجليزى لأولى مرة فأكرم مثواه ، ومن رجال هذا الوفد تعلم الفرس استخدام المدافع فى القتال ولم يكونوا يعرفونها من قبل ، وكان متسامحا فى الدين دعا سفراء أوربا اليه ، وكان إداريا حازما صارماً فى الحق ، ومن قوانينه أنه جعل حكام المديريات مسئولين أمامه عما يقع فى مقاطعاتهم ، وكان يباشر كل شيء بنفسه ، ومن أوامره العجيبة (أن الابن إذا عصى القانون وجب على أبيه أن يقتله فإن تراخى الأب فى ذلك أمر الابن أن يقتل أباه فان توانى فى ذلك أعدم الولد وأبوه !) وقد شجع العلم والفن والأدب على أنه أهمل تربية أولاده مما أضعف الأسرة بعد ، وقد أعدم بعض أبنائه خوفا من مزاحمتهم إياه فى الحكم لذلك أعقبه خلف ضعيف تسيطر عليهم رجال الدين (المولاه) ثم غزا البلاد الترك إلى قزوين ، والأفغان إلى أصفهان نفسها ، وخضعت فارس كلها لملوك الأفغان زماناً

ويجرى القول على ألسنتهم بأن أصفهان نصف الدنيا ولولم تكن فى الوجود لما خلق الله الأرض جميعاً ، ولايزال جهالهم يعتقدون أن فى الباب العالى سراً ، لذلك رأينا كثيراً من الخيوط والخرق موثوقة به تبركا . أما قصر الاستقبال الرسمى فاسمه (تشهل ستون) فى مكان قريب من الميدان وسطه حديقة فيحاء . وهو من طابق واحد غالبه من الخشب الذى طلى من داخله ،وزين بالصور والنقوش للندامى فى مجالس مختلفة ، والحسان يقدمن

وعلى الاتراك أخرى ! والصور الزيتية متقنة أذكرتنى بما شاهدته فى قصر



(منارات متحرك) فى اصفهان

الفاتيكان فى ايطاليا ، ويتقدم القصر بهو الاعمدة الاربعين ، ولما عددتها ألفيتها عشرين لكنهم يعدونها مضاعفة لأنها تنعكس على حوض الماء المستطيل الذى يمتد بعيداً أمامها . هنا كان يستقبل الشاه عباس أضيافه يجلسون حول حوض ماء صغير تحت السقف الذى بولغ فى نقشه وخرط أخشابه ، وقد زينت الاركان بقطع المرايا والبللور ، وهى من أحب أنواع الزخرف لديهم . كل ذاك البذخ والاسراف جعلنى أنكر على الشاه عباس ما ادعاه من تقوى يوم أن قام ماشياً على قدميه حتى بلغ موطن الحج فى مشهد التى تبعد عن عاصمته بأكثر من ألف كيلو متر .

طفت بأسواق البلدة بسقوفها الوطيئة ، وشعابها المختنقة يسير الانسان

فيها وكأنه فى تيه لا يعرف له أول ولا آخر، ويسترعى النظر نوع من الأقمشة المهفهفة يطبع الرجل فوقها النقوش الفارسية بأختام فى الألوان التى ترغبها، وتلك شهرة لأصفهان . ثم أشغال النحاس الدقيقة ، وهناك تكثر المطاعم وباعة الفاكهة ومن أظهرها (الخربوزه) أو الشمام ، وهى من نوع مستطيل فى لون أصفر برتقالى خشن الملمس وحلاوتهـــا فائقة . والفاكهة هناك رخيصة فأقة (الانجور) أو العنب بنصف قرش كذلك أنواع الطعام الأخرى ، فلقد دخلت مطعماً وأكلت الكباب الشهى حتى شبعت وعند الحساب طلب الرجل قرانين أى نحو قرشين ونصف ، وقد علمت أن الأهالى يستطيعون أن يعيشوا ببضعة شاهيات فى اليوم أى دون قرش مصرى واحد .

وفى أسواق أصفهان ضمنى مجلس مع طائفة من مثقفى أهل يزد التى تقع إلى شرق أصفهان ، وهؤلاء كانوا من الزردشتيين أو المجوس عبدة النار الذين فروا فى تلك الصحراء — فيما بين يزد وكرمان — خوفاً من العرب والمسلمين ولا يزال منهم عشرة آلاف فيما جاور يزد وحدها ، وكانوا يضطهدونهم حتى أنهم خصصوا لهم عباءات صفراء ، ولم يبح لهم العمائم ولا ركوب الخيل إلى أمد قريب ، وقد علمت منهم أن فى يزد (برج السكون) حيث يتركون جثثهم تأكلها العقبان لأنهم من عبدة النار، وقد رأينا ذلك فى بمباى فى الهند وكتبنا عنه فى كتابنا (جولة فى ربوع آسيا)

ومن الضواحى التى يقصدها السائحون هناك (الشيخ عبدالله) بها مدفن ذلك الشيخ تحت قبة تجانبها مئذنتان تسميان (منارات متحرك) ، ركبت إليها عربة زهاء الساعة فى طريق وعر مترب منفر وصعدت فوق القبة ، ثم تسلق رجلان كل فى مئذنة وأخذ الواحد يهز المئذنة فتترنح هى ، ثم تنتقل هزاتهـا إلى الأخرى فتتبعها اهتزازاً ، ويعزو القوم ذلك إلى كرامة للشيخ

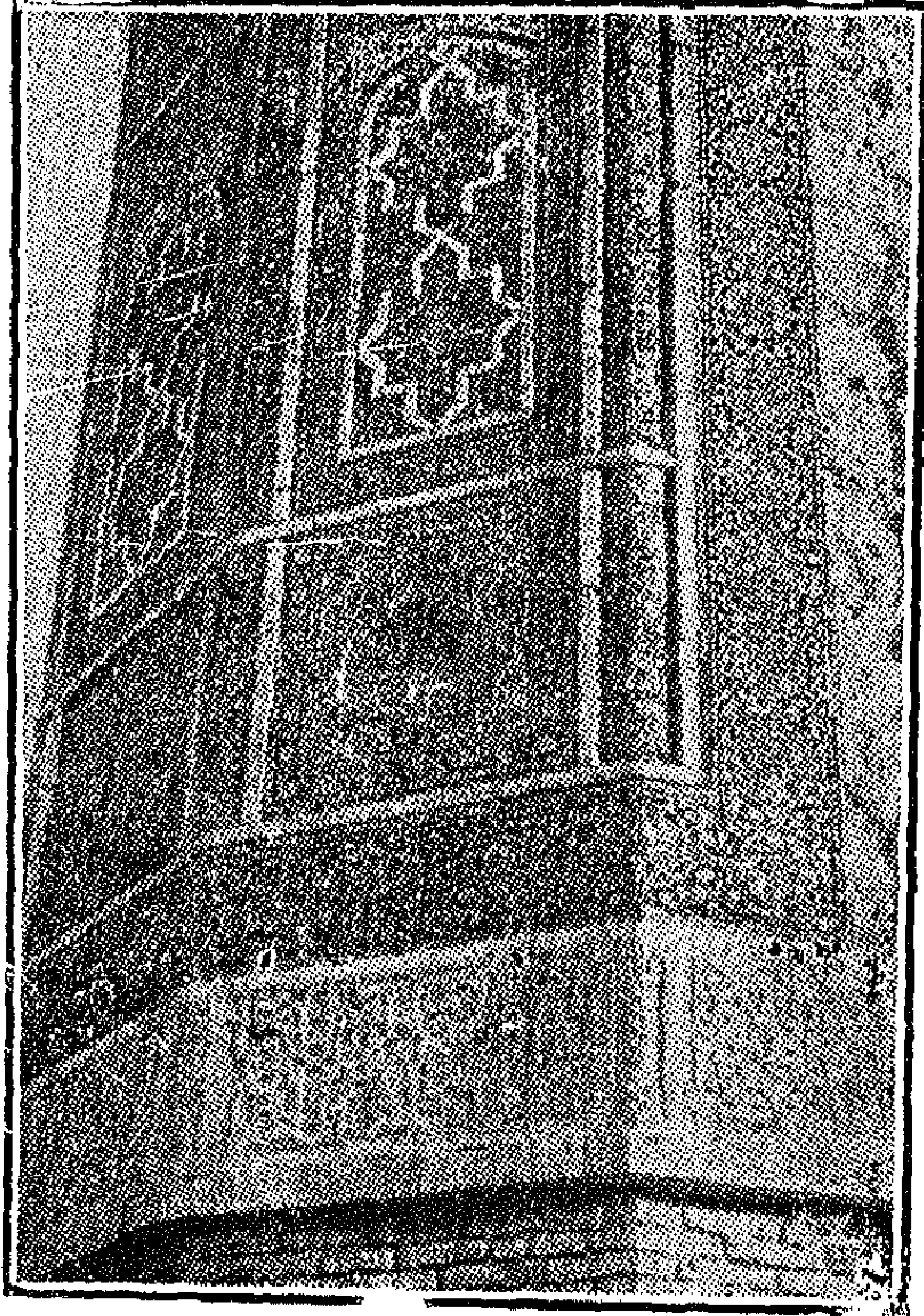
المدفون ، على أنى لما أنعمت النظر فيهما رأيت بهما كسوراً وصدوعاً هى التى تسمح لأجزاء المآذن أن تتحرك ، وفى ظنى أنهما ستنهاران لا شك يوماً ، وبذلك تنهار تلك الكرامة الموهومة ويثوب القوم إلى عقولهم .

إلى شيراز : قمت صوب شيراز مسيرة خمسمائة كيلومتر تقريباً قطعناها فى شطر من المساء ونهار الخميس كله وسط أرض مغضنة كثيرة الرب ، وكلها مجدب عار عن النبت إلا القتاد ، وكان جل مسيرنا فى وديان جافة أشبه بوادى حوف عندنا ، وكم مررنا بحوادث لسيارات انقلبت بمن فيها فأصيبوا جميعاً ، وفى الخامسة مساء كنا فى قرية (سعادت أباد) وفيها اضطررنا للمبيت لكى نتمكن من زيارة برسبولس صباحا ، والقرية تشبه القرى المجانبة للجبال فى صعيد مصر تماما أو تحكى الواحات ، بيوتها وضيعة ولقد دعانا طبيب الجيش وأحد ضباطه أن نشرب الشاى فى ثكنته فاذا بها خربة متهدمة ، دهشت كيف يطيقون البقاء فيها ! ولقد آوينا ليلتنا إلى مسافرخانة بسيطة ونمت فى (أطاق) زودنى الرجل فيه (بسجادة) نمت عليها ليلتى نوما عميقا لأنى لم أنم الليلة الفائتة . وفى الصباح مررنا بكثير من الخرائب الأثرية من بينها مدر سليمان أوقبر سيروز وخرابة كوجاست أو مسكن سيروز وكلها أطلال لا تستحق الزيارة ، وفى التاسعة صباحاً أقبلنا على :

برسبولس : أو بارس اصطخر أو قصر فارس ، ويسمونها أحيانا تخت جمشيد ، وقد بدت فى حضن الجبل مدينة هائلة بأحجارها المشرفة التى أذكرتنى بالكرنك ، ويقال إنها أكبر الآثار القديمة وأفخرها بعد الكرنك عندنا ، أقبلنا على درجها الهائل ذات اليمين وذات الشمال فارتقينا بها علواً شاهقا ! وكان عدد تلك الدرج مائة وإحدى عشرة بلغ من امتدادها وسهولة مرتقاها أن خبرنا القوم بأن الفارس يستطيع ارتقاءها وهو على ظهر جواده . فوقها رأينا بقايا تلك المدينة البائدة التى تخيرها دارا الأول بدء القرن الخامس

قبل الميلاد مقراً لقصره وسط أخصب بقعة في مقاطعة فارس Fars . بدا مدخل قصر دارا وابنه اجزرسيز تتقدمه الثيران ذوات الأجنحة والوجوه الآدمية في علو شاهق ، وإلى جانب المدخل بهو المائة عموداً ، وقد تهدمت إلا بقية ضئيلة ، وهي من الجير الأبيض البراق نحت في تجزيع يحكي الأعمدة الاغريقية ، وكانت تتوج الأعمدة برؤوس الثيران التي تحمل السقف على علو ٦٥ قدما ، والسقف من خشب الأرز طعم بالنحاس والبرنز والعاج ، ولكثرة البرنز ودقة صنعه ظن أن العصر كان أزهى عصور البرنز جميعا ، وكان خرط السقوف في آيات بينات من الفن ، وفي بقايا تلوينه في القطع التي كشفوها من تحت الأنقاض ، والتي رأيتها في شبه متحف هناك ما سحرنا وأذكرنا بنقوش الأندلس وقصر الحمراء ، حتى ظن البعض أن العرب نقلوا معظم فنهم من قصر اجزرسيز هذا وابداع ألوانها ونقوشها مفخرة للشرق على بلاد الغرب ، وكانت تتدلى على جوانب الابهاء البسط الثقيلة الفاخرة لتحجب وهج الشمس ، ولاشك أن كثرة الأعمدة الباسقة حاكت في زمانها غابة من شجر أبيض ناصع جميل ، وثم قسم من القصر كشف حديثا ، ولايزال الألمان يظهرون خفاياه ، لذلك منعونا أن نرسم صوراً له . ظهرت منه مجموعة درجه كاملة الحفظ في النقش البديع ، والكتابة المسمارية ، والدرج مزدوج يمينا وشمالا ، وبعد قليل ينعرج منعكسا فاليمين يضحي يساراً واليسار يمينا في أبهة وجلال تشعر بعظمة الملك ، فكم نظر دارا واجزرسيز وهما جالسان في تلك الجنة استهتاراً بالدنيا وتيهاً على من سواهم من ملوك الأرض ، على أني لما رأيت مدخل قصر دارا نفسه ، وقربه في الشبه من بوابة الكرنك الرئيسية في الاقصر ، ونظام الابهاء والاعمدة المصرية وأنها دون آثارنا ضخامة وروعة شعرت بشيء من الكبرياء لانه بدا لي أن القوم نقلوا طرفاً من مدنيتهم عنا ، وفن تلك البلدة خليط من المصري والاشوري إلى حد كبير ومن الاغريقي إلى حد قليل ، واصطخر كانت مقر أبي اسحاق الاصطخري صاحب كتاب

(مسالك الممالك) وهو من اقدم الكتب الجغرافية عند العرب ، ويسمونها أحيانا (تشهيل منار) أى ذات العماد .



تكتسى المآذن القديمة بذاك الابداع من القيشانى الجميل فى هيرات

وبعد أن غادرنا برسبولس بنحو ستين كيلو متراً جلها جبال معقدة أشرفنا على شيراز عاصمة مقاطعة فارس ، وكانت عاصمة ابن بويه ، بدت فى وهدة وسط الجبال ، وعند مدخلها باب قديم فوقه غرفة بها مصحف كريم بخط الامام على نفسه ويتبرك به القوم فى غدواتهم وروحاتهم ، وشيراز القديمة مجموعة أزقة ضيقة بيوتها بالآجر يتوسطها (البازار) أوالسوق كثير الشعاب فى أقبيته الفارسية المألوفة وامتداده اللانهائى حتى قيل إن نصف سكان البلدة من التجار وخمسهم من اليهود ، وجل دور الحكومة قصور قديمة شامخة البنيان فاخرة النقوش أذكر من بينها مكتب البرق والبريد ، ومقر الجيش.

قصر كأنه القلعة ، وقد اختط خارج القديم قسم من البلد حديث رحب جميل تمتد طرقه الفسيحة إلى الآفاق وتجانبها مجارى المياه ، غير أن الخضرة والأشجار نادرة بحيث تبدو البلدة وكأنها حلوان ، واختلاط القوم وازدحامهم الشديد فى الطرقات الحديثة وبخاصة عند الأصيل يسترعى النظر ، وميلهم للمجون كبير رغم أن إزار السيدات هناك من النوع العتيق الذى يحكى ملابس الأفغانيين

وشيراز تعد خير مراكز العلم والأدب الفارسى ، فيها قبر سيبويه ، وقد أنبتت كثيرا من علمائهم وشعرائهم نخص بالذكر منهم : حافظ وسعدى ، والأول كان يميل إلى شىء من الزهد والتصوف فى شعره ويقول الغزل فى الحضرة النبوية على مثال عمر بن الفارض ، أما سعدى فأباحى اشتهر بكثرة المجون والغزل فى الغانيات والخمريات وكان يعده الفقهاء هناك زنديقا ملحداً ولقد زرت مدفنيهما فى حجر الجبل فكان مدفن حافظ وسط بناء فاخر حوله شباك الحديد الملون وبه مشرب شاى كانت جلستى فيه أقرب شىء إلى خيال الشاعر خصوصا عند الأصيل ، وقد أشرفت على شيراز كلها فى مشهد ساحر لن أنساه . أما مدفن سعدى فأقل اتساعا وأبهة وهو مكان ناء عن البلدة ، وعجبت إذ رأيت حول مدفنه يوم أن زرته جمعا من النساء والرجال والصبية مرحين يغنون ويصفقون ، فكأنهم كانوا يرددون شيئا من نزعة الشاعر وماروى .

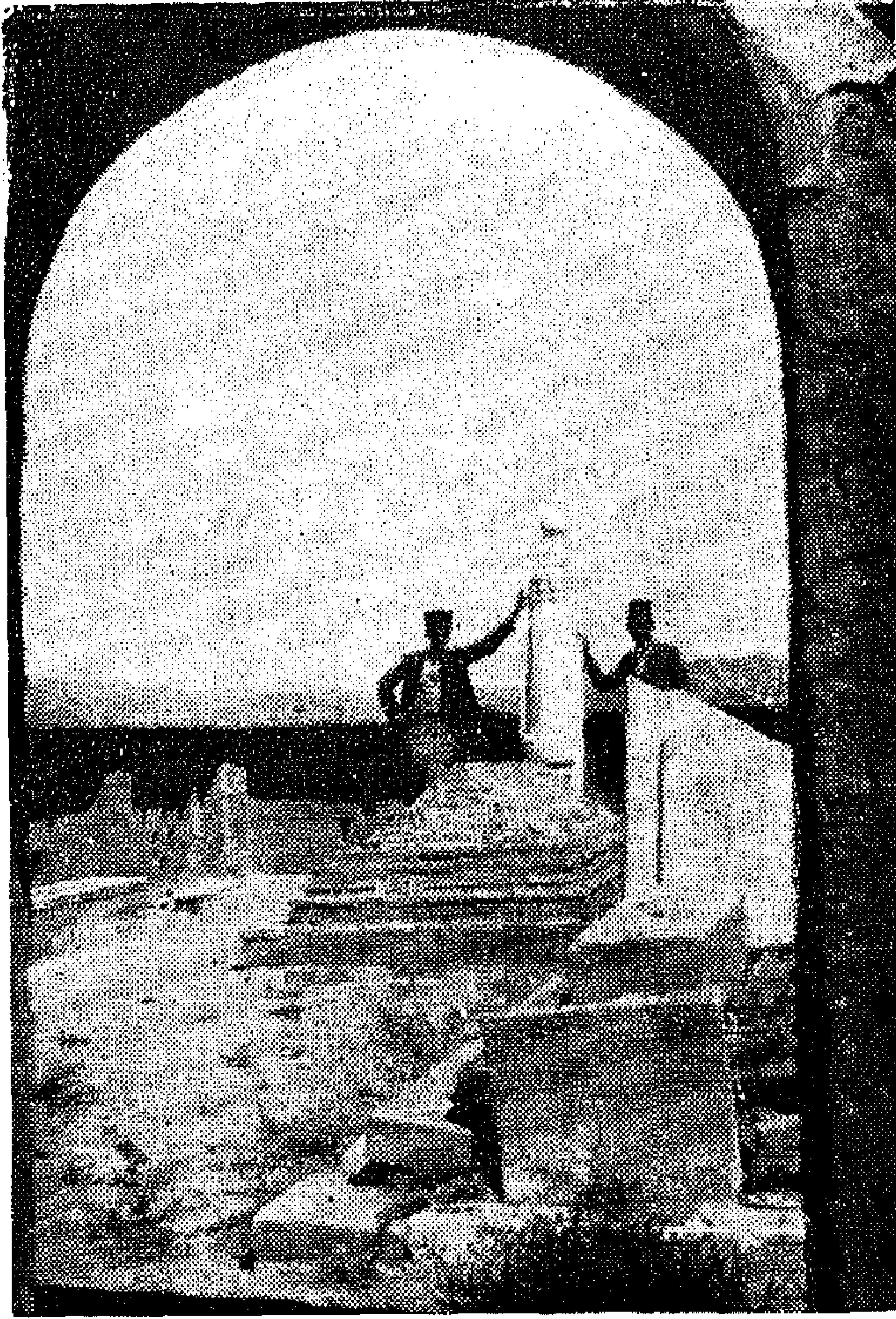
الى بوشير : قمنا فى سيارة كبيرة إلى (أبوشهير) مسافة تناهز ثلاثمائة كيلومتر لبثنا نسير يومين وليلة استرحناها فى قرية كبيرة اسمها كزرون وكان الطريق جبالا معقدة بدرجة لم يسبق مثلها ، وبخاصة فى اليوم الثانى فى مكان يسمونه (الدرب) ، ولِيات الطريق وتعقيداتها فوقه تدخل الرعب فى قلوب المسافرين بل والسائقين أنفسهم ، فأنت ترى طياتها عشرات بعضها تحت بعض وهنا تكثر حوادث انقلاب العربات ، وقد شاهدت عربة انقلبت قبلنا بيومين ومزقت بمن فيها شر ممزق ، لذلك يحرم البوليس على السائقين السير

ليلا ، وفى الخمسة عشر كيلو مترا الأخيرة خرجنا إلى سهول مبسوطة كلها صحارى مجدبة تمتد برمالها وحصاها إلى شواطىء الخليج الفارسى ، وقد مررنا بكثير من العيون الكبريتية ، وفى هذا القسم من فارس رأينا نخيل البلح فى بقاع أشبه بالواحات ، ولقد أدهشنى أن الجبال فى الشطار الأول من الطريق مجدبة عارية عن النبت ،وفى وسطها ، وهى أكثر الجبال ارتفاعا تكسى بالغابات فى أشجار كبيرة متفرقة ، لذلك كنا نرى محاط لحرق الخشب وتحويله إلى فحم يستخدمه الناس فى التدفئة ، وفى الجزء الأخير فى مجاورة (الدرب) انضمر الشجر ثم انعدم وأضحت الجبال شبيهة بجبال شرق حلوان فى جدبها ، ويظهر أن ثلوج القسم الأوسط المرتفع هى التى سمحت بنمو الشجر لأنها روته بصهوراتها التى كنا نراها تتجمع فى أودية ضيقة ملتوية . أخيرا دخلنا بوشير فى أصيل اليوم الثـــانى فاذا بها بلدة حقيرة لم أجد بها سوى مهمانخانة قذرة حجراتها كأنها الأجحار ، وطرقات البلدة أزقة ، وحرها لافح شديد مع أن الصيف قد انقضى إذ أنى كنت هناك فى ١٩ سبتمبر مما أيد عندى أن الاقاليم المجانب للخليج الفارسى فاسد الجو ، وهو أشد بقاع الأرض حرارة فى الصيف وبالبلدة بعض المقاهى (البلدية) يجلس فيها الناس فوق مقاعد خشبية وطيئة شبيهة (بكرسى المطبخ) ويتكئون على إمناضد لايزيد علوها عن الأرض على قدم واحدة فيخيل إلينا أنا جلوس على الأرض ، وجانب البحر مهمل مترب قذر إلا فيما جاور الجرك ، وأخلاق أهلها أمعن فى الفســـاد والانحطاط .

أقمت بها يوماً على مضض ، وفى باكورة اليوم التالى سرت الى الجرك حيث فتشت أمتعتنا ثم أقلنى زورق بخارى صغير فى الخليج الفارسى مسافة سبعة كيلومترات فى مياه مضطربة هائجة وجو عاصف أغبر كثر ضبابه ولم تنكشف شمسه ،وكم آذى ترنح الزورق من مسافرين حتى وصلنا الباخرة (فاسنا Vasna) من بواخر شركة الهند الشرقية ، وكانت راسية على هذا البعد لانها لاتستطيع أن تقرب من الشاطىء الضحل ، وتلك الشركة تسير بواخرها مرتين كل

أسبوع بين الهند وبين بلدان الخليج الفارسى السريعة منها (Vast) تمر ببعض الثغور والبطيئة (Slow) تمر بها جميعاً وتقف طويلا ، وباخرتنا حمولتها عشرة آلاف طن ، وكانت غاصة بالمسافرين بين هنود وفرس وأعراب وكانت تحمل وسقاً ثقيلا من الشاى والسكر والفحم من الهند ، وتعود إليها بالبلح والشعير . رسونا فى المساء ببلدة صغيرة عند مصب شط العرب تماماً وتسمى فاو ، وبعدها دخلنا الشط ، وفى الصباح وقفنا طويلا ببلدة عبدان التى ظهرت وكأنها إحدى بلاد انكشير فى مداخنها ، وضوضاء مصانعها ، وتنسيق شوارعها ، ومبانيها التى ما كنت إخالها تقوم فى مثل تلك الناحية النائية فاسدة المناخ ، لكن هى مقر شركة البترول (النفط) الانجليزية الفارسية التى تجمع الزيت المستخرج من تلك المنطقة الغنية وتكرره فى مصانعها الهائلة ثم يشحن فى البواخر ، وكنا نرى عددا من البواخر تنقل اليها صفائح البنزين المشحونة على أشرطة تسير بالبخار ، وترص الصفائح فى نظام عجيب ، كذلك فهى محطة بترول لتموين السفن بالزيت المحرك لها ، وقد ظلت باخرتنا تزود بحاجتها من الزيت مدة ساعة بخراطيم هائلة ، ويظهر أن حافة هضبة إيران الغربية من قرب بحر الخزر إلى الكردستان إلى الخليج الفارسى مستمد هائل للبترول الذى يكاد يتغلغل فى جميع طبقات صخوره بمقادير وفيرة ، والشط هنا أكثر اتساعا من نيل مصر ، ويسمونه شط عبدان ، وجانبه الشرقى لفارس والغربى للعراق ، ويحفه النخيل على جانبيه فى كثافة كأنها الغابات المغلقة ، وبعد أن غادرنا عبدان بثلاث ساعات وصلنا المحمرة وهى تحكى بوشير فى حقارتها ، وقد وقفنا بها أربع ساعات نفرغ شحنتنا ثم قمنا منتصف الثالثة صوب البصرة فوصلناها فى ساعتين . وقد سبق أن ذكرنا طرفا عن إقليمها وعن رحلتنا منها إلى بغداد ، وفى باكورة صباح الاثنين ٢٥ سبتمبر قمت فى سيارة إلى الشام فى رفقة شابين عراقيين مرحين لم يفترا لحظة عن المزاح طيلة الطريق ، وكان معنا شيخ فارسى كان موضع سخريتهم

وقديماً كانت الكراهة متأصلة بين الشعبين فكلاهما يمقت الآخر مقتاً ، وكان رابعنا سورياً مقطب الوجه لا يميل إلى المزاح رغم حداثة سنة ، وكان يقود



الفخر الرازى من أئمة المفسرين فى هيرات بأفغانستان

السيارة سائقان يتناوبان السوق لأنا واصلنا السير النهـــار والليل فى غير توقف ، وفى ساعتين وصلنا : الفلوجة ، وفى ساعة عبرنا الفرات ، وفى ساعة أخرى وصلنا الرمادى على حافة الصحراء ، وهناك تناولت طعام الافطار فى نزل بديع يعـادل أحدث الفنادق نظاماً . بعدها أو غلنا فى صحراء مبسوطة السطح رملية التربة ليس بهــــا من حصى ولا نجاد ، ولبثنا كذلك إلى الرابعـة مساء حين وصلنا الرطبة فى منتصف الطريق

(والمسافة كلها ٨٧٠ كيلومترا) ، وهى قلعة عراقية وسط البادية داخلها نزل فاخر ، وقد قامت حولها بعض الحوانيت والمقاهى الحقيرة تجانبهـا مجموعة من خيام لأعراب تلك البادية ، وهنا محطة لاسلكية ومطار هام ، استرحنا زهاء الساعة وتناولنا الطعام الشهى والشاى المنعش الذى أروى ظمأنا ، ثم واصلنا السير وأخذ أديم الصحراء يتغير وانتثر بالحصى وتماوج سطحه قليلا وقد مررنا بوادى حيران الوطىء ، وعلى مقربة منه دخلنا بادية الشام . خيم الظلام وسادت الوحشة وكان يزيدها رهبة أكداس من عظام لجمال خانها الحظ وبادت ولا تزال العقبان والنسور تنهش ما تخلف من لحمهـا ، ولم أر ظاهرة السراب جلية من قبل جلاءها فى هذه الصحراء ، فكانت نتوءات الأرض ترى على بعد وكأنها أبنية مدينة تنعكس على بريق النقائع الفضية الوهمية التى ملأت الأرجاء بيننا وبينها . وواصلنا السير خلال مرح القوم ونكاتهم ومفاخرة السائق بأن تلك الفيافى أضحت مقره فهو جد خبير بهـا عليم بما فيها من دقائق ، وكانت آثار عجلات السيارات تميز طريقنا بحفائرها فى الرمال ، وبين آونة وأخرى كان يقوم شاخص من خشب طلى باللونين الأبيض والأسود ليهدى الناس سبيلهم ، كانت فترة سكون قصيرة خمدت فيها أصوات الجمع وجنح السائق عن الطريق ، ثم باغتنا بوقفة فنزول عن السيارة ، ونظرة إلى السماء دلتنا على أنه ضل الطريق فكانت صيحة فزع وبخاصة من زميلنا الشيخ الفارسى ، أعقب ذلك صمت عميق ، ثم ظل السائق يحدق فى السماء ويتلمس بعض بروج النجوم ليسير على هديها لكن بدا لى من معلوماته الخاطئة عن النجوم أنه كان يوهمنا بخبرته ليس غير، والحقيقة أنه كان فزعا مضطربا هو ورفيقه ، ولبثنا نسير بالسيارة يمنة ويسرة زهاء ساعتين فى غير طائل فخشينا أن ينفد البنزين فتكون القاضية ، فأجبرناه أن نقف حتى الصباح لعلنا على ضوء الشمس وميلها نهتدى إلى الطريق السوى. صور نفسك فى هذا الموقف ، وليس لديك من زاد ولا ماء وسط بادية

مترامية لاترى بها إلا بقايا عظام لدابة هلكت أو فضلات لسيارة احترقت! صمت رهيب خلنا معه القوم نياما ولكن كيف ينام الضال القلق ؟ نزلت أجيل البصر فى ذاك السكون الرهيب وتلك السماء التى أخفت خفاف السحب بها بعض النجوم حتى لم يبد الدب ولا النجم القطبى . وبينما كان يجول الخاطر فيما عسى أن يجيء به الغد وإذا بشعاعة ضوء كأنها وهج يتحرك بدت قرب الافق ثم أخذت تخبو وتظهر فخلناها سيارة تمر فى الطريق ، فولينا شطر تلك الناحية وسرنا نحو خمسة كيلومترات بدون جدوى ، فوقفنا ثانية نرقب الآفاق عسانا نتلمس شيئاً وإذا بضوء مصباح يفاجئنا فى ناحية أخرى فعدنا اليه ، ويظهر أنه أدرك حيرتنا فوقف وأشعل مصباحيه الكشافين وظل يثبتهما قبالتنا ونحن نسير اليه حتى إذا ما قاربناه خجل السائق من موقفه وخشى إن علم الآخر بضلاله عن الطريق أساء إلى سمعته ، خصوصاً وأنه كان يفاخر بأنه ابن تلك الصحراء ، وبينا كنا نتأهب لتحية هادينا وشكره ، وإذا بسائقنا ينعرج عنه كأنا نحن الذين هدينا صاحبنا الآخر ، فكان ذلك جحوداً منا يظهر أن السائق الآخر أدركه فانعرج الينا وصاح فى وجهنا قائلا (انتوا ضايعين والا إيه ؟) فكانت صفعة قاسية لزميلنا السائق . تبينا بعد طريقنا ولبثنا كلما حاول السائق الشذوذ عنه نعيده إلى حظيرة الحق رغم مكابرته وحمدنا الله أن أنجانا من خطر محيق وقد كان حظنا حسنا لأن اليوم يوم سفر من العراق الى الشام كثرت فيه السيارات العابرة والا لما عبرنا على سيارات أخرى فى تلك البيداء المترامية المخيفة .

الهند و بلاد الملايو

إلى عدن وارض سرنديب

ما وافت الثالثة من الخميس الرابع من يونيه سنة ١٩٣٢ حتى أقلعت بنا الباخرة اليابانية (سوامارو) تسير الهوينا وهى تشق مياه قناة السويس جنوباً وكانت بين آونة وأخرى تقف منتحية جانباً لتفسح المجال للبواخر التى كانت وافدة من الجنوب خشية أن يحدث مرور السفينتين معا تفريغا فى الوسط يدفع بهما الى التصادم ، ولم نصل السويس الا الخامسة صباحا وبعدها أوغلنا فى خليج السويس ولبثنا تجانب الشاطىء المصرى وكانت ذرى جبال سيناء المقدسة ترى فاترة إلى يسارنا ، وفى السادسة مساء أتينا على آخر الخليج وأوغلنا فى البحر الأحمر الصميم وكان بدء خليج العقبة يبدو على بعد منا جهة الشرق وكانت أسراب السمك كبير الحجم تقفز من حولنا ولبثت تهاجمنا جموع الجراد فى كثرة مخيفة رغم أنا كنا نبعد عن الصحارى المجاورة بمسافات شاسعة وسرعان ماشعرنا بزيادة محسوسة فى درجة الحرارة فى الهواء والماء وظلت تتزايد باضطراد فى شدة لا تحتمل حتى تضايقت أنفاسنا ولم نستطع النوم ليلتين كاملتين ، وليس فى الهواء من نسمة تنعشنا بعض الشىء بل ظل الهواء طوال أيامنا الاربعة فى البحر الأحمر راكدا خانقاً وكانت حرارة الماء أشد من حرارة الهواء خصوصاً عند عودتنا فى سبتمبر وتلك بقية من وهج يونيه حفظتها المياه لأنها رديئة التوصيل للحرارة ؛ ولقد استنجدت بناسفينة أرهق ركابها الحر حتى أشرفوا على الهلاك لافتقارهم إلى جانب من الثلج تسلمنا برقيتها اللاسلكية لكنا لم نستطع معاونتها لحاجتنا نحن إلى ما كان عندنا من جليد ، وأذكر أنى ورفاقى كنا نسمى البحر الأحمر على سبيل التفكهة (Bloody Sea) من شدة ما قاسينا من حر قيظه ، وكانت تبدو

على بعد أزاء شواطئه جزائر صخرية مجدبة يكاد يحرقها لفح الشمس ، وفى مساء اليوم الرابع دخلنا بوغاز باب المندب ومررنا بجزيرة پرم الانجليزية



نظام حيدر باد أغنى أمراء الهند

فى وسطه وما كدنا نبرحها داخلين فى خليج عدن حتى تنسم الجو وشعرنا بانتعاش كبير وبعد ذلك بساعات أقبلنا على :

عدن : فرسونا فى تقوس من البحر تحفه الصخور القديمة العاتية من الشيست المهشم فى حمرة قاتمة أو سواد منكر عريت عن النبت فى كل مكان

استقبلنا الزورق الصغير ونزلنا الشاطىء وعلى امتداده تقوم الأنزال والمبانى الرئيسية وفى طرفها الجنوبى المعسكرات والمعاقل التى أختير من أجلها المكان

فكان مفتاح البحر الأحمر ، وقد أقلتنا سيارة عشرة كيلومترات إلى الحى الوطنى وهو عدن الحقيقية فى وهدة أصلها فوهة لبركان خامد بيوتها واطئة ومن طابق واحد ، وتطلى باللون الأبيض ، وفوق المرتفعات رأينا مستودع المياه الذى يمد المدينة كلها وهو بمرشحاته وأحواضه يشغل مساحة كبيرة ، ويطلق عليه القوم (حوض سليمان) ظنا منهم أنه قديم يرجع إلى ذاك العهد وبعضهم يرى أنه بنى سنة ألف قبل الميلاد ، ولقد أصلح سنة ١٨٥٦ ولما كان المطر هناك نادرا والماء عظيم القيمة حافظ القوم على كل قطرة تسقط منه فيسيل المطر فى وديان وأخاديد جافة تؤدى إلى الحوض ، وأنت ترى سلسلة من أحواض الواحد فوق الآخر بحيث إذا امتلأ أعلاها فاض الماء إلى الثانى ثم الثالث وهكذا ويسع فى مجموعه ثمانية ملايين جالون ، والحوض الأعلى يتصل بمجموعة من آبار فى قرية تبعد عن عدن بسبعة أميال ، وقد لا يفى كل ذلك بحاجة المدينة من الماء فيرشح ماء البحر لسد العجز ، وغالب ماء الشرب من تقطير ماء البحر لأنه أنقى وأبعد عن التلويث وعلى شاطىء البحر مكان الملاحات يرفع ماء البحر بمضخات فيتبخر ويترشح الملح فيستغلونه ويصدرون كثيرا منه ، وكنا نرى على بعد بقايا لسكة حديدية كانت تصل عدن باليمن لكنها هدمت لأن إمام اليمن أبى عليهم بقاءها ، وفى تقوس من البحر ناتىء جهة يسمونها (الشيخ عثمان) غنية بالمزارع ومن خلفها تبدو جبال اليمن فاترة ، وسكان عدن ٣٥ ألفا غالبهم من العرب بقاماتهم النحيلة ووجوههم الشاحبة ، ثم الصوماليون بسحنهم الجميلة فى سواد براق وأنوف شماء وشفاه رقيقة ثم يليهم الهنود ، ولغة البلد السائدة العربية بتحريف بسيط ويتكلم غالبهم الانجليزية ، وعدن حماية بريطانية عليها حاكم يتصل بحكومة الهند ، ونقودها هى نفس النقود الهندية التى لا تزال تتخذ الفضه قاعدة لها .

واحتلها الانجليز سنة ١٨٣٧ ولاحتلالها قصة عجيبة : ذلك أن سفينة انجليزية تحطمت على صخور عدن فأساء أهلها معاملة من نجوا منها ، فأعقب

ذلك أن طلبت الحكومة البريطانية شيئاً من الترضية والتعويض من السلطان فاجيبت مطالبها ، لكن السلطان قد مات وخلفه ابنه الذى لم يبر بوعد أبيه فلجأ الانجليز إلى القوة وفتحوها عنوة ووضعوا فيها حامية صغيرة ، وزادت أهميتها بعد فتح سكة حديد السويس سنة ١٨٥٨ ، ولما فتحت قناة السويس سنة ١٨٦٩ أصبحت محطة عسكرية هامة إذ عدت مفتاح البحر الأحمر خصوصاً بعد ما سارعت انجلترا إلى احتلال جزيرة (برم) وسط بوغاز باب المندب وكانت فرنسا تتطلع إليها من قبل وأعقب ذلك احتلال الصومال البريطانى قبالتها ، لأنه المورد الرئيسى الذى منه تستمد عدن وبرم الصخريتان المجدبتان حاجتهما من الغذاء .

لبثت الباخرة طوال النهار تحمل وسقها من الجلود الخام وأقلعت عند الأصيل وكلما أوغلت بنا فى المحيط الهندى أرغى ماؤه وعلا موجه كالجبال مما جعلنا نؤمن بعظمة المحيط الذى بدأت تجتاحه الرياح الموسمية دافقة صوب الهند فى عنف كبير ولبثنا فى شدته هذه ثمانية أيام حتى أقبلنا على جزيرة سيلان ، وكنا من يوم ركوبنا نلاحظ سرعة فى اختفاء ضوء الشفق إذ كان الظلام الحالك يرخى سدوله عقب غروب الشمس مباشرة شأن البلاد القريبة من خط الاستواء .

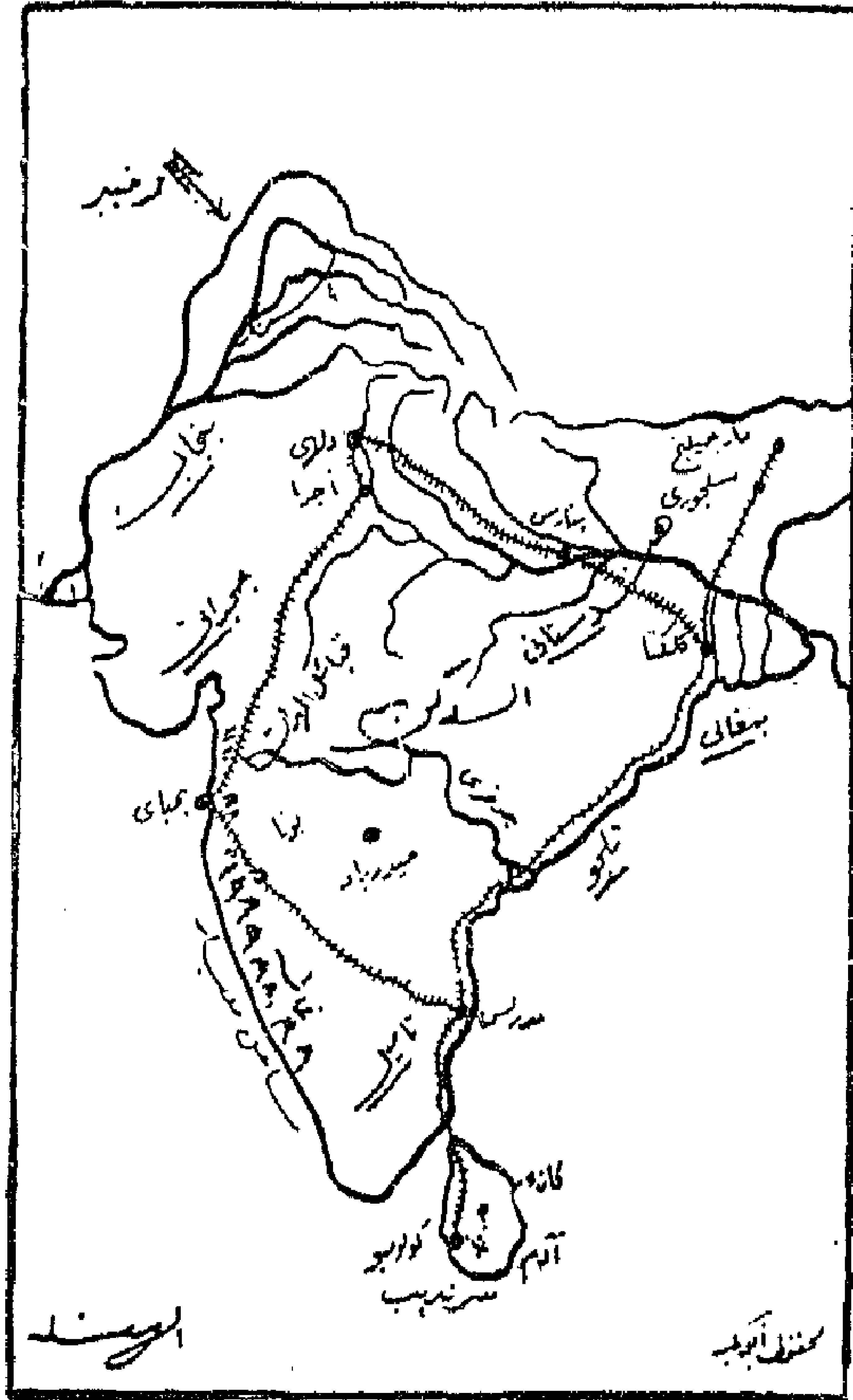
وأقلنا قطار سكة الحديد إلى الجهات الاسلامية من شمال الهند ونزلنا فى:

كلكتا: واسم المدينة مشتق من كلمتين قالى (اسم الآلهة زوج سيفا) وغات (مرسى أو مدرج) وقيل أنه مشتق من (جلجوتا) ومعناه مكان الجماجم ، فهى مقر الحميات وبخاصة الملاريا ، لكثرة المناقع حولها ولفساد الحالة الصحية فى مساكنها التى ضاقت بأهلها بحيث يقطن الغرفة الواحدة المختنقة فى المتوسط شخصان ، على أنها رغم ذلك تعد العاصمة الاقتصادية لبلاد الهند ، فهى ثانية مدن الامبراطورية البريطانية سكانها فوق مليون وربع وهى عاصمة بنغالة أغنى المقاطعات (خصوصاً باليوت والأرز) وأكثفها

سكانا فهم يبلغون ٤٧½ مليوناً (أعني ثلاث مرات و نصف قدر مجموع القطر المصرى) نصفهم من الهندوس والنصف من المسلمين ولا يكاد يفرق المرء فى الشكل بين الجميع ، ويزيد تجانسهم أنهم جميعاً يتكلمون اللغة الهندستانية ، التى يخالها البعض اللغة القومية للهند ، لأنها أكثر اللغات ذيوعاً إذ يتكلمها خمسون مليوناً .

حللت المدينة فراعنى سيل الناس الدافق فى كل الأرجاء ، ولقد كان القوم يفترشون أرض محطة السكة الحديدية على اتساعها العظيم الذى يقرب من اتساع ميدان محطة مصر ، فلم أشق طريقى بينهم الا بجهد كبير، والقذارة تبدو فى كل مكان ، والروائح المنتنة تتصاعد بدرجة منفرة ، وقد عبرت قنطرة (هوارة) على الهوجلى وهى فى عرض قناطر النيل ، على أنها أقيمت من الخشب ترفعه عوامات تطفو فوق الماء بدل القوائم الحجرية عندنا لذلك كانت كل جوانب القنطرة فى حركة مستمرة حسب مد الماء وجزره وقد وقفت هنا برهة فكاد يكتسحنى سيل المارة الذى لم أدر مصدره ، فقصدت من فورى جانب المدينة الممتاز المسمى (الميدان) وهو متسع عظيم ذرعه ميلان فى ميلين تطل عليه المبانى الفاخرة وتتوسطه المتنزهات المتسعة المترامية تقوم فى أرجائها تماثيل سامقة لعظماء الانجليز ، وأجدر المبانى بالذكر دار الحاكم العام التى تبدو فى جلال وعظمة يقابلها من الجانب الآخر أثر فكتوريا أقيم من الرخام الأبيض فى عظمة تبهر النظر من عمد وأبهاء وبوائك ودهاليز وتعلو فناءه الرئيسى قبة كبرى ، وهنا ترى تماثيل عظماء الانجليز الذين اشتركوا فى فتح الهند وفى طليعتهم (كليف) وأمامه المدافع التى غنمها من الفرنسيين وغيرهم فى واقعة (پلاسى) ، وترى بعض الصور الزيتية الكبرى لملوك انجلترا إلى ذلك ترى بعض ملابس الملكة فكتوريا ومكاتبها ومخلفاتها الذهبية وكذلك جميع الوثائق الرسمية التى تبودلت بين الحكومة الانجليزية وأمراء الهند منذ فتح البلاد إلى اليوم ، وفى خارج البناء حديقة نسقت أيما تنسيق

يزينها تمثال فكتوريا ، ولقد أقيم هذا الأثر تذكاراً لتولى فكتوريا أول امبراطورة للهند واشترك فى إقامته كبراء الانجليز والهنود وبلغت أكلافه



البلاد التى طفنا بها فى الهند

خمسة ملايين من الجنيهات وقد وضع حجره الأساسى جورج الخامس سنة ١٩٠٦ وتم سنة ١٩٢١ ، وفى جانب من الميدان القلعة وتسمى فورت وليم على اسم وليم الثالث ، وتقوم دار البريد الفاخرة اليوم فى مكانها القديم بعد أن نقلها (كليف) إلى مقرها الحالى وهو أكثر منعة وقوة ، وإلى جانب دار البريد يقوم نصب أبيض دقيق فى مكان الجحر الأسود ، وقد كتب عليه اللورد كرزون أسماء بعض من ماتوا فيه إحياء لذكرهم ، وقد كان هذا الجحر سجناً من سجون سراج الدولة نواب بنغالة زج فيه ١٤٦ جندياً فى ٢ يونيه سنة ١٧٥٦ ، فاختنقوا فى ليلة واحدة ولم يبق منهم فى الصباح سوى ٢٢ ،

وذلك لضيقه (١٤ × ٢٢ قدما) وقلة نوافذه ، فأهاج ذلك غضب الشعب الانجليزى وهب ينتقم لهؤلاء ، وكان هذا الحادث خير حافز للانجليز أن يبسطوا نفوذهم هناك .

وفى ركن من الميدان حديقة (Eden) على اسم سيدة كانت تملكها ثم أهدتها للحكومة ، وهى آية فى الابداع تشقها مسايل الماء وتتخللها النقائع والمقاصير التى يبدو بعضها فى هندسة (الباجودا) الصينية ، وعلى مقربة منها حديقة النبات الغنية بمجموعاتها وبخاصة فصيلة النخيل ، ولعل أشهر ما بها شجرة (banyan) أكبر أشجار الدنيا عمرها ١٥٥ سنة ، ومحيط جذعها الرئيسى ٤٤ قدما ، ولها فوق ٦٠٠ جذر هوائى تشغل حيزاً ذرع محيطه ١٠٠٠ قدم ، ومنها أخذت جميع حدائق الدنيا الشيء الكثير ، وفيها جرب الشاى ثم نقل إلى الهملايا وأسام .

ومن الأبنية الفاخرة دار الجامعة التى يبلغ عدد طلابها ٢٦ ألفا ، وهذا العدد يفوق جميع طلاب جامعات انجلترا مجتمعة ، وقد اتخذت جامعة لندن نموذجا لها على أنها كانت معطلة عند ذاك ، وقد قابلت أستاذين من أساتذتها الانجليز وتحادثنا بشأنها طويلا ، وعلمت منهما أن موسم الدراسة لا يعين بدؤه إلا عند بدء نزول الأمطار ، تلك التى تخفف نزولها من هجير الحر ، ولقد تأخر افتتاحها هذا العام لتخلف المطر نحو أسبوعين عن ميعاده المعتاد .

قمت بجولة فى الاحياء الوطنية المترامية ، فكنت أشق طريقى فى جو وخم ووسط منفر قذر تترامى الأكاديس الآدمية بجانب الجدران وهم عرايا وفى بؤس مبيد ، يبصقون فى كل مكان ، ويبولون على جوانب الطرق حيث أقيمت المجارى لتصرف ماء المطر عنهم .

دلهى : قمت اليها ، وكان يبدو على غالب الحقول الجفاف الشديد الذى أيد لنا مبلغ سحر الرياح الموسمية وأمطارها فى خصب تلك الجهات التى بدت ظامئة مجدبة ولما يتخلف المطر عن ميعاده سوى أسبوعين ، ولقد

وقفنا طويلا بمحطة (مغول سراى) ، وكان الشجر من حولها كثيراً وجموع القردة تمرح فى الغابات وإلى جوار السكة الحديدية فى كثرة عجيبة. وكم كانت دهشتى عظيمة عند ما باغتنا سرب من الطاووس يناهز المائة والخمسين عداً كان يسير بجوارنا كأنه هادىء أليف ، وقد جاز القطار محطة (كونبور) التاريخية الشهيرة مقر الثورة الهندية (سنة ١٨٥٧) ، وقبيل دخولنا دلهى استقبلتنا زوبعة رملية عاتية كأنها وافدة من صحارى (ثار) إلى جنوبها وبدت المدينة والحر بالغ أشده فقد كانت الدرجة ١١٣ ف وكان الهنود مغتبطين بذلك لأنه كلما اشتد الحر بشرهم بأمطار وابلة .

أخذت أتجول فى المدينة فبدا لى أنها من المدن القديمة التى غالبت الزمن وقاست من هجمات المغيرين الشىء الكثير حتى قيل انها تقام على أنقاض إحدى عشرة مدينة ازدهرت من قبل ، ولا تزال لها بقية من أطلال ، وغالب أحيائها شبيهة بالأحياء الوطنية فى القاهرة ، وكانت كثرة المساجد بمآذنها العديدة تكسب المدينة مظهراً إسلاميا بحتا إذ حلت هذه محل القباب الناقوسية الذهبية . وهنا يصلى القوم لله بدل الخضوع لشعوذة البرهمى والخشوع للانصاب ، على أن غالب تلك الأنحاء تعوزه النظافة ، وإن كانت فى الجمال خيراً من سابقاتها ، أخذت أزور أماكنها التاريخية ، وبدأت بزيارة القلعة وقد بناها شاه جهان بعد أن قرر نقل عاصمته من أجرا واختار مكانها هذا ، وهو يبعد خمسة أميال عن (دلهى القديمة) عاصمة جده هومايون ، وضع أول حجر سنة ١٦٣٨ وتمت فى تسع سنين ، فانتقل اليها فى حفل عظيم وأطلق عليها اسم (شاهجا هاناباد) وكانت آيات الأبهة تفوق كل ما تقدمها حتى أصبحت عند الغربيين مضرب الأمثال . فمن مساجد إلى مقاصير إلى إيوانات إلى قصور كلها من الرخام المرصع باليواقيت والجواهر تفرش بالحرائر والطنافس الثمينة

ولعل أشد الأهوال التى قاستها دلهى سنة ١٧٣٩ حين أمر نادر شاه بذبح

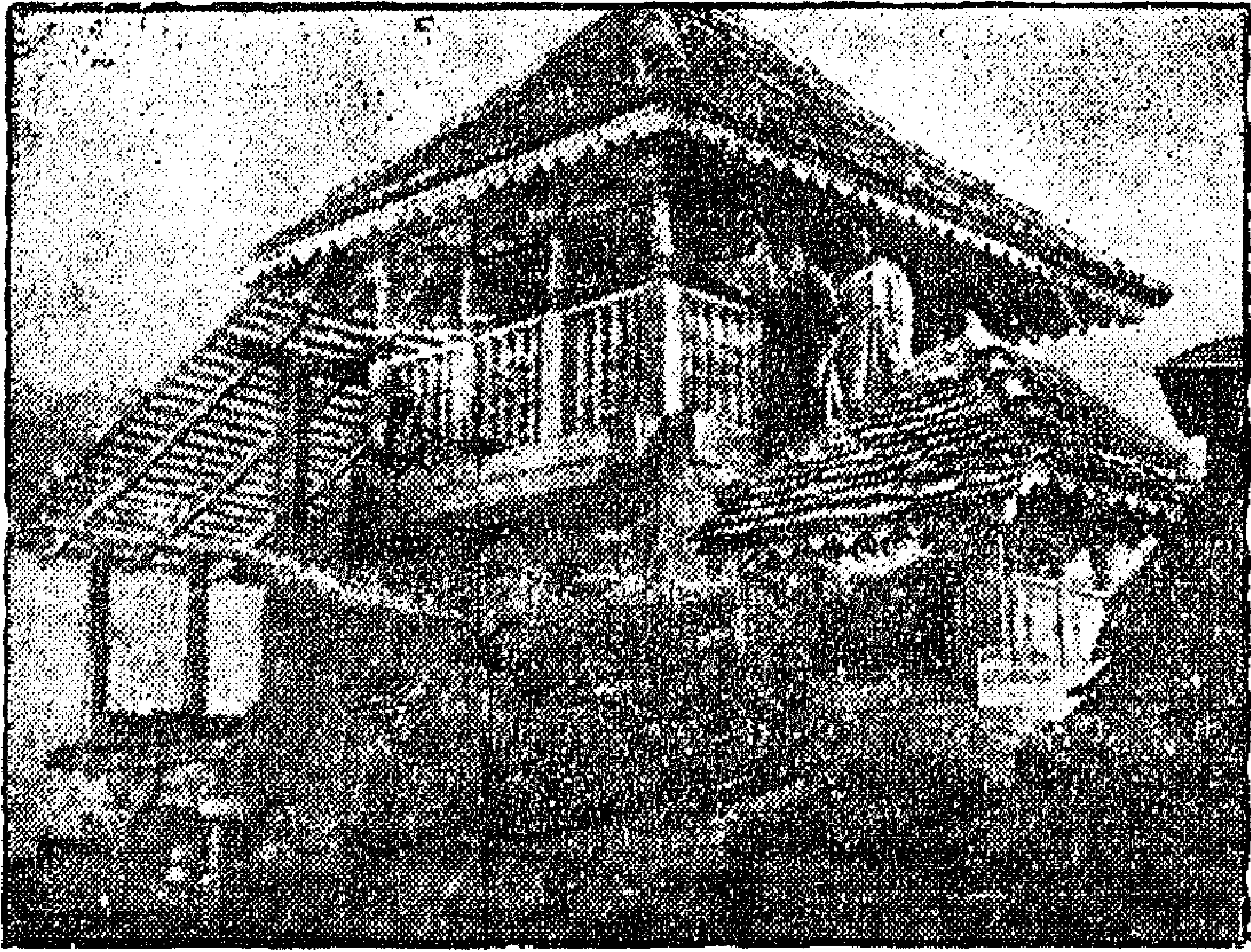
أهلها لأنهم أغاروا على كتيبة صغيرة من جيشه ، وكان يرقب ذلك بنفسه من شرفة المسجد الذهبي من شروق الشمس إلى الساعة الثانية مساء ، وبعد ذلك تنحى هذا الفارس منتصراً إلى بلاده وحمل ماقيمته خمسون مليون جنيه ، ومن بينها عرش الطاووس الشهير وماسة كوهنور ، وقد سقطت دلهى فى يد الجنرال (Lake) سنة ١٨٠٣ وأباح لسلائل المغول بعض الحقوق والمظاهر على أنها سحبت منهم نهائياً عقب الفتنة ، ونفى آخر ملوكهم (باداهورشاه) إلى رانجون حيث مات سنة ١٨٦٢ ، ونقلت العاصمة إلى كلكتا ، لكنهم أعادوها سنة ١٩١١ بعد أن أمر الملك جورج الخامس بإنشـــاء دلهى الجديدة بجوارها .

دخلت القلعة التى يحوطها خندق فسيح (سعته ٧٩ وعمقه ٣٠ قدماً) وسور يتراوح علوه بين ٦٠و١١٠ قدماً ، وبها بابان أحدهما صوب اجرا ، والثانى صوب لاهور ، وهى بلدة كاملة فى داخلها إذ تقوم فيها المبانى الفاخرة والمساجد العامرة والمتنزهات البديعة ، وكانت مقر الملوك ، ومساحتها تزيد على ضعفى أكبر قصر ملكى فى أوروبا ومن أكبر مبانيها :

الديوان العام ذرعه ٦٠ × ١٠٠ قدم ، يقوم سقفه على بوائك وعمد تخطف البصر بنقوشها الرائعة وهو يعد من آيات فن العمارة المغولية ، وكان يجلس الامبراطور على عرشه ليستمع للمظالم التى يعرضها عليه وزراؤه نائبين عن الشعب .

الديوان الخاص : ذرعة ٧٦× ٩٠ قدماً من الرخام الأبيض يرصع بالأحجار الكريمة فى زخرفة فارسية مغولية . وكان سقفه من فضة لكنه استبدل به الخشب اليوم ، وهنا يحار اللب حقا لما يرى من مظاهر للعظمة شبيهة بما نقرأ فى (ألف ليلة) وقد نقش على جانبيه بالذهب مامعناه : إذا كان للأرض نصيب من الجنة فهو لاشك فى هذه الدار ، وتتوسط البهو قناة من رخام كان يطلق فيها الماء المعطر ليرطب المكان ويعبقه ، وكان يتوسطه

عرش الطاووس الساحر الذى نقله نادر شاه إلى فارس . وسمى كذلك لأنه محاط بطاووسين قدنشرا ذنبيهما المرصعين بالياقوت والزمرد واللؤلؤ والماس،



جبل آدم فى سرنديب يقدسه المسلمون والبوذيون والهندوس على السواء

وكان ذرعه ٦ × ٤ قدماً ، يقوم على قاعدة من ذهب أصم مرصع بالجواهر ، وبين الطاووسين ببغاء نحت فى قطعة واحدة من زمرد ، ويرتفع غطاؤه على عمد من أحجار كريمة ، وكلفهم ثمنه عند ذاك ستة ملايين من الجنيهات . وكان يجلس عليه الملك يستمع للشكاوى بنفسه ويظن أنه لا يزال من محفوظات بلاد فارس ، والمكان أعد لمجلس الملك مع أخصائه ، وبه عدة غرف صغيرة آية فى الابداع والزخرف ، وله شرفة الى الشرق كان يستقبل منها شمس الصباح ويستمع لتهليل شعبه من دونها ، ومنذ سنة ١٩١١ والانجليز يعيدون تلك الذكرى بإقامة حفل يطل منه الحاكم مرة كل عام

رانج محل : أى قصر الزجاج البراق وكان خاصاً بالسلطانة ، ولا تزال فى سقفه بقية من الفضة المرصعة بزهور من ذهب يحوطها بريق خاطف ، وفى الوسط نهر الكوثر ونافورة تغص بالسمك الملون ، وكان يطوق جيد

كل سمكة عقد من ذهب به ياقوتة ولؤلؤة ، وتحوطه حدائق تزينها مجارى الرخام فى أبهة وجلال فاق كل وصف .

مسجد اللؤلؤة : أقامه ارانجزيب داخل القلعة ، وكان خاصاً بشاه جهان الذى أسرف فى زخرفته وتنسيقه حتى أضحى أجمل مساجد الهند وأصغرها ، وكان يشبه بالدرة أو اللؤلؤة لصغره وجماله .

المسجد الجامع : يتوسط ميداناً من المدينة فسيحاً يشرف عليه من ربوة تناهز ستة أمتار ، ويرتقى المرء اليه بسلم عظيم الامتداد فى جميع جوانبه وأبوابه من نحاس ثقيل وسط بوائك فاخرة تؤدى بنا إلى فناء رحب يتوسطه حوض الوضوء ، والليوان يقع تحت قباب ثلاث تجانبها مئذنتان دقيقتان علو كل منها ١٣٠ قدماً ، وحول الجوانب الآخرى بوائك ذات سقف منقوشة ، وفى ركن منه غرفة صغيرة بها بعض آثار النبى صلعم توضع فى علب من فضة وزجاج تملأها الزهور من داخلها ، وأهم تلك المخلفات التى تبركنا بلمسها : شعرة واحدة حمراء من لحية الرسول وقطعة رخام عليها طابع قدمه وحذاء من جلد الجمل فى شكل الخف ، ومخطوطان للقرآن الكريم كتبا بالكوفة ، أحدهما بخط الامام على كرم الله وجهه ، والآخر بخط ابنه الحسين عليه السلام ، والمسجد فاخر يشرف على المدينة فتراه أينما كنت فى لونه الأحمر من الخارج وإن كان يبطن كله بالرخام الأبيض أقامه شاه جهان ، وخص بنفسه باباً يواجه القلعة والمسكن الخاص فيهـــا ، وكان يفتح يوم الجمعة لمروره ماشياً وعندئذ تفرش الطريق كلها بالطنافس الثمينة ، ويخال البعض أن هذا المسجد أكبر مساجد الدنيا .

ومن المساجد الأخرى التى زرتها مسجد سنهرى الذهبى الذى جلس فيه نادر شاه أكبر ملوك الفرس السفاحين وهو يراقب جنده يذبحون الناس يوم دخل المدينة سنة (١٧٣٩) .

منار قطب : برج نصر بناه قطب الدين سنة ١٢٠٠ على بعد ١١ ميلا من المدينة وأكمله حفيده (التماش) ويتألف من خمسة أدوار فى علو ٢٣٨ قدماً وقطره من أسفله ٤٧ ويختنق فى أعلاه إلى ٩ وقد أصلح أعلاه فيروز شاه سنة ١٣٦٨ ، أقيم ليخلد انتصار الإسلام على الهندوس ولبث يغالب الزمن طويلا ويعد من عجائب بلاد الهند لقدمه وغرابة هندسته ، وإلى جانبه مسجد قطب الدين اقدم مساجد الهند بناه من أنقاض المعابد الهندية التى دمرها المسلمون وفى داخل مقصورته قطعة من حديد مرن ترجع إلى القرن الثالث الهجرى وظلت معرضة لتقلبات الزمن طوال تلك المدة ولم تصدأ ولا يعلم شىء عن أصلها سوى العبارة الآتية التى كتبت عليها : هو صاحب الصيت (راجا دافا) الذى حصل بساعده على ملك العالم بغير شريك .

وفى ناحية أخرى مقبرة هومايون على نمط شبيه بتاج محل وهو أقدم مثل للعمارة المغولية بنى سنة١٥٥٦ ودفن فيها ثانى عظماء المغول وبجانبه أقرباؤه وابن شاه جهان الذى قتله أخوه اورانجزيب طمعاً فى الملك وهنا سلم شاه باداهور آخر المغوليين سيفه للميجر هدسن سنة ١٨٥٧ وبجانبها مقبرة التماش ابن زوجة قطب الدين

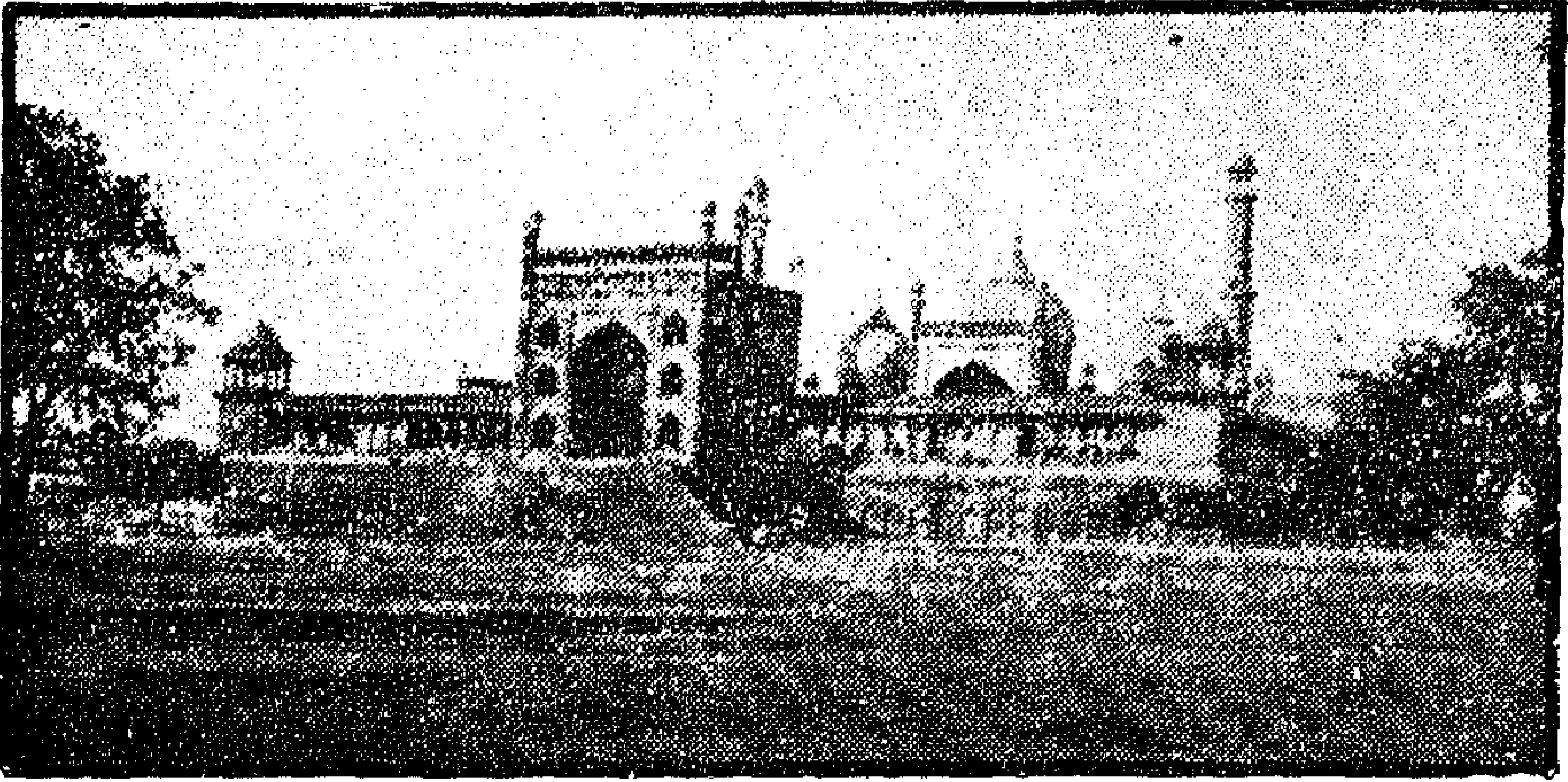
ذلك مثل مما يراه السائح فى دهلى تلك البلدة التى تقوم عظمتها على منشآت الإسلام التى لولاها لما استحقت الذكر حيث لا ترى غيرها سوى بيوت حقيرة ومعابد هندوسية صغيره ولذلك لم ترها انجلترا صالحة لتكون مركزاً لادارة البلاد فأقامت بعيداً عنها مدينة دلهى الجديدة على أحدث النظم التى تحكى إحدى المدن الأوروبية تماماً

الى أجرا : قمت إلى أجرا التى وصلتها فى أكثر من ثلاث ساعات فبدت مدينة حقيرة كأنها من مدن الريف القذرة المتربة ، وكان هجير القيظ خانقاً لدرجة أن خادم النزل سألنى أن كنت أرغب أن يعد لى سريراً فى الخارج (أعنى فى الشارع) فدهشت ورفضت أول ليلة مرتكناً على (المروحة)

لكنى سارعت برجائه فى الليلة الثانية أن يفعل ذلك إذ لم تغمض عيناى من شدة الحر فنمت ليالى الباقية على جانب الطريق على أن بها من الدور القديمة آيات بينات تحوطها تلك الأطلال والأقذار وفى مقدمتها :

تاج محل : حق للهندسة المغولية أن تفاخر بتلك القطعة الفنية فما أن وقع ناظرى عليه حتى ذهلت من عظمة مارأيت ، جلال فى دقة صنع ورواء فى حسن تنسيق وآيات للفن بينات فى كل ناحية من نواحيه ، فهو وحده خير مبرر لزيارتى للهند ، تلك البلاد التى كنت حتى الساعة لاأذكرها بالخير الكثير. دخلت من الباب الرئيسى وهو وحده قصر فاخر بأقبيته وقبابه ومناراته فانكشفت حدائق التاج الفسيحة التى نسقت بالنافورات والمنحدرات والطرقات الملونة والنقائع يزينها زهر البشنين وورقه صفت من حولها مخاريط الشجر الباسق وفى وسط كل أولئك يقوم التاج كالعروس ولكن أنى لقلمى الكليل أن يصور بدائعه ويحكى أعجازه فقد تنقل الكلمات والصور إلى القارىء شيئاً عن المكان ولكن أنى لها أن تشعره بالذهول والاكبار الذى يحسه من يراه بعينه ! صور لنفسك قصراً فاخراً أقيم كله من الرخام الوضاء والمرمر البراق تحوطه فى الأركان مآذن دقيقة رشيقة وتتوسطه قبة كبيرة رائعة تحوطها القباب الصغيرة والمنائر الرفيعة ، والأرض والجدران قد رصعت كلها بالزهور والزخارف الفارسية لابالرسم الزيتى بل بالياقوت والزمرد والزبرجد وما إليها وتزين الجدران إلى جانب هذا آيات الذكر الحكيم كلها لابالمداد بل بمقصوص الرخام الأسود ألبس الجدران البيضاء ، والمدهش أن المهندس قد راعى المنظور فى كتابتها بحيث أنك تراها تبدو فى أعلى المكان وفى أسفله بحجم واحد رغم علوه الشاهق ، وفى بعض الصفحات ترى الرخام قد خرط فى أشكال شتى بين بارز وغائر ، أما النوافذ والفتحات فأشبه بشباك المخرمات فى دقة فائقة وهندسة عجيبة قدت فى الرخام وكان يغطى غالب الفتحات الزجاج الطبيعى (الميكا البيضاء) ولم يبق منها اليوم سوى لوح واحد،

وفى قلب المكان ترى المقبرة من المرمر رصع بمختلف الأحجار الكريمة ويحوطها سور من مقصوص الرخام وهذه تضم رفات زوجة شاه جهان



المسجد الجامع فى دلهى وفى ركنه الايمن بعض مخلفات الرسول

(ممتاز محل) وكان يحوطها سور من فضة ويكسو القبة غشاء ثقيل من ذهب خالص كانت زنته ٢٦٥٠ رطلا ، ويدخل الضوء من الباب فقط فيسقط على المقبرة رأساً فتشرق وسط الأركان المظلمة ، وقد ألصقت بجانبها مقبرة أخرى فيها بعد دفن فيها زوجها وكان قد بدأ يقيم لنفسه مقبرة على مثال التاج فى الجانب الآخر من النهر .

وقد قيل إن السلطان استدعى عباقرة الفن من العرب وفارس والهند وأوروبا فاستلزم البناء ١٧ سنة ، وكان طوال هذه المدة يشتغل عشرون ألف عامل حتى بلغت أكلافه أربعة ملايين من الجنيهات فى ذاك الوقت الذى كانت الأموال فيه نادرة .

وللقبة الرئيسية أثر ساحر فى ترديد صدى الصوت يفوق ذاك الذى لاحظته فى بيزا بإيطاليا ، وقفت داخلها وكأنى طربت لما أن تصورت المقرىء بصوته الرخيم يردد الآيات البينات أو يصيح بعبارات التأبين والندبة فى أنغامها الشجية التى تبدو وكأنها دوى أصوات الملائكة تردده تلك القبة

من السماء ولا أنسى زيارتى الثانيـة للتاج فى المساء وكانت ليلة مقمرة فبدا وهجه فى ضوء القمر الشاحب وسكون الليل الرهيب فأثار فى النفس من ذكريات وأهاج من شجون .

تلك هى آية تقدير شاه جهان لزوجه الفاتنة التى أحبها حباً جماً وأخلص لها فشاركها الرأى فى مهام الحكم وكان خاتم الدولة بيدها وكانت رحيمة بالناس تتدخل لمصلحتهم وكانت تلازم زوجها فى حملاته الحربية حتى كانت الحملة التى غزا بها ثائرى الدكن فاختطفها الموت لما أن جاءها المخاض فى طفلها الرابع عشر فعاد محزوناً كسير القلب حتى حرم على رعاياه كل مظاهر السرور طويلا وحبس نفسه عن الناس وعطل أعمال الدولة وقيل أنه سئم الحكم واعتزم التنازل لابنه .

مقبرة اعتماد الدولة : أقامتها (نور محل) زوج الامبراطور (جهانجير) مدفناً لأبويها وكان أبوها من كبار رجال الدولة وفد مع زوجه من فارس تحت اسم (مرزاغياث) طلباً للجاه والثراء فى بلاد الهند فنفدت ذخيرتهم فى الطريق وزادهم الحظ ارتباكا بمولودة ترددوا طويلا فى التخلص منها حتى مرت بهم قافلة فأنقذتهم جميعاً فلما جاءوا السلطان نالوا لديه حظوة وأحب جهانجير — وكان إذ ذاك أميراً — فتاتهما ذات الجمال الفتان لكن أباه الامبراطور رفض ذلك وزوجها من أحد قواده فلما مات وولى ابنه الحكم كلف الضابط أن يطلق زوجته فأبى فدس له وقتـــله وحبس الزوجة فى القصر حتى قبلت أن تتزوج منه فغير اسمها (نورمحل) أى نور القصر وسماها (نور جهان) أى نور الدنيا ، والمقبرة آية فنية أخرى تلى التاج فى العظمة ودقة الصنع .

مقبرة الأكبر : وهى من المبانى الجديرة بالزيارة أقيمت من الصخر الرملى الأحمر تبطنه من داخله رقائق من الرخام الأبيض فى رواء كبير وهى تضم رفات (أكبر) مؤسس أجرا ولذلك يطلق على المدينة أحياناً (أكبرباد) .

القلعة : شبيهة بتلك التى فى دلهى فى شكلها ومحتوياتها وتزيد قصر الياسمين

وسمى كذلك لكثرة أزهار الياسمين التى رصع بها المكان ، وقد أعده جهانجير مقر زوجته (نورمحل) إذ كان يشرف على نهر الجمنا ويكشف التاج محل بحدائقه على الجانب الآخر من النهر ، وقد أقامت به سيدة التاج (ممتاز محل) زمناً طويلا .

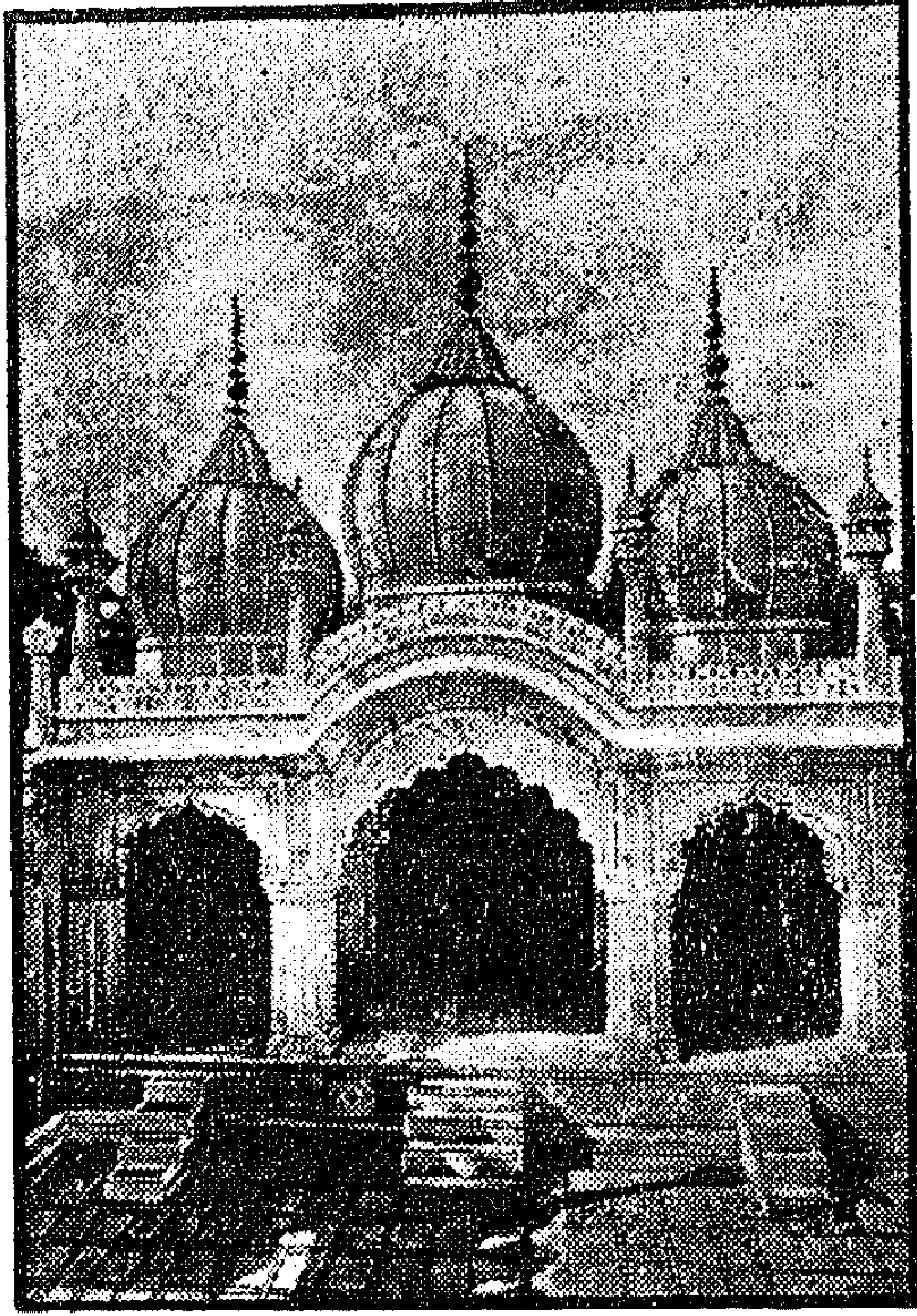
سافرت إلى بمباى ومنها :

إلى مدراس : وقد ظل القطار ينهب الأرض فوق الدكن ، واخترق جزءاً من مقاطعة (حيدر باد) أكبر المقاطعات المستقلة ، حاكمها أتوقراطى شديد البأس وصاحب ثروة خيالية تحكى ثروة سليمان ، إذ يعد أغنى أمراء الدنيا ، قدرت كنوزه بأربعين مليون جنيه ، والعجيب أنه مسلم مع أن تسعة أعشار رعاياه من الهندوس ، وهو أكثر الأمراء ولاء لانجلترا ، ويطلق عليه (نظام حيدر باد) وهو الوحيد الذى يسك نقوداً خاصة به تغاير سائر نقود الهند ورعاياه فى الجنوب من الدرافيديين وفى الشمال من الآريين ، والأراضى هنا فقيرة ذات حزون غالبها مهمل ، ولم أر بها من دلائل الخصب والغنى الذى كنت أقرأه شيئا ، وعلمت أن الأهالى يدفعون للحكومة روبية (٧ قروش) عن كل فدان انجليزى فى كل عام ، وغالب الجهات المنزرعة ينمو بها بعض أنواع الفول ثم العظلم (النيلة) وكان يبدو عشباً كالبرسيم فى ورق عريض ، على أنه يكبر فى شجيرات قصيرة تقتلع وتطعن فى الماء ، ثم تغلى فتسيل العصارة السميكة وتجهز فى أقراص هى النيلج المعروف ، وكان أظهر الشجر هنا نخيل (پالميرا) وهى شجرة تؤتى ثمراً كالنرجيل يأكله القوم ويستخرجون منه السكر ، وإذا خدشوا الجذع سالت منه عصارة سريعة التخمر يعمل منها خمر الطبقة الفقيرة المسكر القوى الذى يسميه القوم (تودّى Toddy) وإذا زرع الشجر حديثاً كون جذورا نشوية خلال الثلاثة الشهور الأولى تقتلع وتجفف ويستمد منها دقيق الحلوى .

إلى سنغافورة والملايو : سرت جنوباً إلى جزيرة سرنديب وفى خمسة أيام بعد مغادرة كولومبو أقبلنا على سنغافورة وسط الجزائر المنثورة إزاء ساحلى سومطرة إلى اليمين ، وشاطىء الملايو إلى اليسار ، والبلاد صخرية على الجانبين ، وبخاصة سومطرة التى بدت فى شكل مخيف برباها المعقدة التى تتعاقب كأنها عقد من جبال لا نهائية ، وكنا نقدم ساعاتنا كل يوم حتى بلغ مجموع ما قدمناه من كولمبو ساعة ونصفاً ، وكأننا بذلك كنا نتعجل الأيام ونسابقها إذ كنا نقارب مشارق الشمس فيبكر ميقات الظهر كل يوم عن سالفه .

سنغافورة : (ومعناها مدينة الأسد) : بدت ممدودة الأرصفة على جوانب الربى التى يتلوى خلالها البحر فى عدة أجوان مكنتها أن تؤوى من السفن شيئاً كثيراً ، كل طائفة فى مقصورة منعزلة عن الأخرى ، وعلى جوانب الربى تقوم المساكن بسقوفها الحمراء المتحدرة ، وتشرف عليها الحاميات العسكرية العاتية . حللت المدينة فاسترعى نظرى بها حسن القيام على طرقها الفسيحة النظيفة ، تجانبها المجارى لتصريف مطرها الوابل المستمر ، والترام هناك يسير على الأرض فى غير قضبان يكسو عجله المطاط المصمت ، وله سنجتان متجاورتان تتصلان بسلكين ، وهو يسير بمهارة عجيبة ، ويتلوى من جانب إلى الآخر ، والسنجة لا تزال متصلة بالأسلاك ، وغالب البيوت فى هندسة بسيطة لا تزيد على طابقين ، وتشرف على الطريق ببوائك ضيقة بدل الاطارين اتقاء المطر ، وعليها تقوم المحال التجارية باعلاناتها التى تكتب بالصينية والانجليزية ، فى شرائح مستطيلة ، وغالب السكان من الصينيين يليهم الهنود ثم الملايو ، ومن الغريب أن الذين يفهمون الانجليزية قليلون ، ويشق الجزيرة نهر سنغافورة الصغير تجانبه شعاب البحر الضيقة وكأنها القنوات تعبرها القناطر العديدة ، والمتنزهات الجميلة والميادين الجذابة لا تدخل تحت حصر ، والمدينة خفيفة الروح إلى حد يجعلها من المدائن

النادرة ، وفى المساء دخلت ملهى تعرض به بعض ألعابهم أذكرمنها مقصورة الغناء الصينى . كان يجلس الفتيات حول مائدة عليها الأنوار وحولها المصابيح



مسجد اللؤلؤة فى قلعة دلهى

المعلقة من الورق الصينى الملون ، وكان يقف خلفهن قارع الطبل وضارب الناقوس وعازف (الرباب) ، أما الغناء فتوجع فى غير توافق ، وكانت تخفى شدة الطبول المزعجة تلك الاصوات المنفرة ، ثم مقصورة للرقص الصينى وغالبه بحركات الأرجل والايدى ، وثالثة للتمثيل على النمط الهزلى المصرى ولم يكن تزاحم القوم على تلك الملاهى كبيراً رغم رخص أجورها ، وكانت تسترعى نظرى الثروة الهائلة فى النبت من حولى أينما حللت ، مما أيد القول بأن الملايو جنة الدنيا وبستانها اليانع ، وأخص أنواع النبات هناك (المطاط باشجاره الفضية النحيلة الباسقة التى تعد اليوم أعظم موارد الثروة هناك ، على

الرغم من أن أثمانه قد تدهورت تدهوراً مخيفا حتى بدأ القوم يفكرون فى استبداله بغيره .

سلطنة جوهور : من ضواحى سنغافورة ، ركبنا اليها سيارة عبرت جزيرة سنغافورة كلها سائرة إلى الشمال صوب الملايو ، ولا تسل عن ثروة الطريق فى الأدغال والغابات بعضها غفل لم تمسسه يد الانسان ، وهنا كدنا نذهل لتعدد الفصائل من الشجر والعشب والسرخس إلى ذلك الحيوانات الوفيرة ، وبخاصة القردة التى كانت تطل علينا من جميع جوانب الغابات ، ويقول القوم بأن تلك الأماكن غنية جدا بالأفاعى والخفاش والبراعة وبعض الوحوش ، أما طريقنا فكان يتلوى كالافعى وسط الغابات القاتمة ، وحيث كانت تتعهد الأرض يد الانسان، كنا نرى أشجار المطاط فى صفوف متوازية تكاد تملأ ثلاثة أرباع الأراضى، وقد مررنا ببعض المزارع وفيها بدأ ذووها يستأصلون الشجر ليفسحوا المجال لغيره كالخضر والفاكهة ، وبخاصة الأناناس الذى كان يبدو نباته وكأنه الصبار الكبير تتوسط كل شجيرة ثمرة واحدة فى طول (كوز الشمام) وفى لون برتقالى وملمس خشن محبب ، وكلما قطعت الثمرة أعقبتها غيرها ، ويستمر الأثمار طول العام .

لبثنا نسير بالسيارة وسط تلك الجنة النادرة زهاء ساعتين ، وبعدها عبرنا البوغاز إلى الملايو فدخلنا سلطنة جوهور ، وهى إحدى ولايات الملايو التى يحكمها سلطان مسلم تحت إشراف الانجليز ، وعندما قاربنا قصر السلطان دخلنا فى مجموعة من متنزهات أبدع تنسيقها ، يتوسطها قصر من طبقتين ، تمد فى الدور الأسفل غرف الولائم وعليها السمط الفاخرة وغرف المعروضات من الهدايا بين فضة وذهب وأسلحة ، وفى الدور الأعلى غرف الجلوس والنوم وكلها على النمط الغربى ، والسلطان زوج لاحدى الأوربيات قلما يقيم هناك فهو يمضى تسعة شهور خارج بلاده ويعيش عيشة بذخ وإسراف شديد ، والناس من دونه يكاد يقتلهم الفقر ، وهكذا سائر الأمراء أمثاله فى تلك

الولايات ينعمون على حساب الرعايا البائسين فسبحان مقسم الأرزاق !
وبجانب القصر مسجد فى هندسة شبه مغولية تقوم حوله أبراج بدل المآذن
وبهوه فاخر النقش والاثاث ينزل الانسان درجا من رخام إلى المغسل (الميضة)
الفسيحة للوضوء ، وفى عودتنا إلى سنغافورة زرنا حديقة النبات ذائعة الصيت
وبخاصة فى مجموعة أشجار الفاكهة الممتازة .

أبحرت الباخرة وظلت تسير خلال مجاميع الجزائر تكسوها الغابات
والربى زهاء ثلاث ساعات مما يقنع المرء بعظمة الموقع من الوجهة العسكرية
فهو حقاً مفتاح الشرق الأقصى ، ولذلك ليس بعجيب أن وجدنا العمل سائراً
على ساق وقدم فى إنجاز القاعدة البحرية الكبرى رغم أكلافها الباهظة التى
لاتقل عن أحد عشر مليون جنيه ، وأول من احتل جزيرة سنغافورة (السير
ستامفورد رافل) سنة ١٨١٩ وكانت تكسى بالغابات المهملة ، وبها قرية
حقيرة فابتاعها الانجليز من سلطان جوهور بخمسة آلاف جنيه و١٥٠٠ جنيه
كمرتب سنوى يدفع مدة حياة ذاك السلطان ، واليوم تضخم سكانها فأصبحوا
٤٢٠ ألفاً منهم ٣١٥ صينيون و٥٤ ملايو و٣٢ هنود ، ولكثرة التزاحم هناك
بدأت الحكومة تفكر فى تحديد المهاجرة إليها واعترافا بفضل (السير رافل)
ترى تمثاله يزين أكبر ميادين المدينة ، واسمه ذائع فى كثير من منشآتها .

أما سائر الملايو فتتألف من ولايات بعضها مؤتلف والبعض تحت سلاطين
مستقلين وجميعهم تحت إرشاد الانجليز ، وأول مكان احتله الانجليز من شبه
الجزيرة مدينة ملقة التى انتزعوها من هولندة ، ثم پنانج وهى جزيرة على
الساحل الغربى ، وكانت تدير كل ذلك شركة الهند الشرقية ثم انتقلت للتاج
البريطانى ، ويغلب أن تكون الجهات التى تقام بها الحصون الانجليزية إلى
الجانب الغربى من الملايو لتشرف على البوغاز . ومن سنغافورة تقوم
البواخر أسبوعياً إلى جزر الهند وبخاصة جاوه وجل سكان تلك الجزائر
من المسلمين .

الاسلام فى قارة إفريقية

شرق افريقية ووسطها

إلى بور سودان : غادرنا بورسعيد عصر الأربعاء نشق قناة السويس جنوباً ثم أوغلنا فى خليج السويس الذى كانت تبدو سواحله على الجانبين تارة تنأى وطوراً تقترب إلى أصيل الخميس حين دخلنا البحر الأحمر وظل الساحل المصرى بادياً وفى باكورة الجمعة كنا وسط الماء لا تبصر العين من اليابسة شيئا وفى غداة السبت أقبلنا على بورسودان . حللت المدينة فبدت صغيرة جديدة ليس بها ما هو جدير بالذكر طرقاتها نظيفة وفى استقامة وعلى جوانبها تقوم المبانى الحديثة فى طبقة واحدة ومظهر واحد مجدب عار عن النبت لا تكاد العين تقع على خضرة قط ، ويزيدها جدباً جبالها المقفرة التى تحيط بها من كل جانب اللهم إلا جون من البحر طمر القوم جانباً منه وأقاموا الميناء وعليه الأرصفة مزودة بالروافع الثقيلة تجرى على قضبان تؤدى من السفن إلى حظائر للسلع ماصدر منها وماورد . وأظهر بناء إذا أقبلت على المدينة من الميناء ، دار المديرية من طابقين كان يعلو سارياتها العلمان المصرى إلى جانب الانجليزى ، وأهل المدينة أخلاط من السود يتكلمون العربية والزنجية . وكان عمال الميناء من قبل من مهاجرى اليمن لكن الحكومة رأت أن تخص الوطنيين بهذا العمل فاستقدمت من داخل السودان جماهير يقومون بالنقل مقابل أجر خمسة قروش فى اليوم وأعجب قبيلة كانت تبدو بينهم البشارية يرسلون شعورهم تتدلى على أقفيتهم فى جدائل رفيعة وشعر الناصية يترك منفوشاً وقائماً فى شكل كرة ، وجو المدينة لافح محرق شديد الجفاف ذلك لأن أمطارها تسقط فى الشتاء وبمقادير قليلة إلا إذا صادفهم السيل وعندئذ ينذر بالخطر ، ومن هذا الماء يملأون أحواضاً يرشحون الماء فيها ويستقون منها ، وهنالك وراء الجبال عند منازل المطر

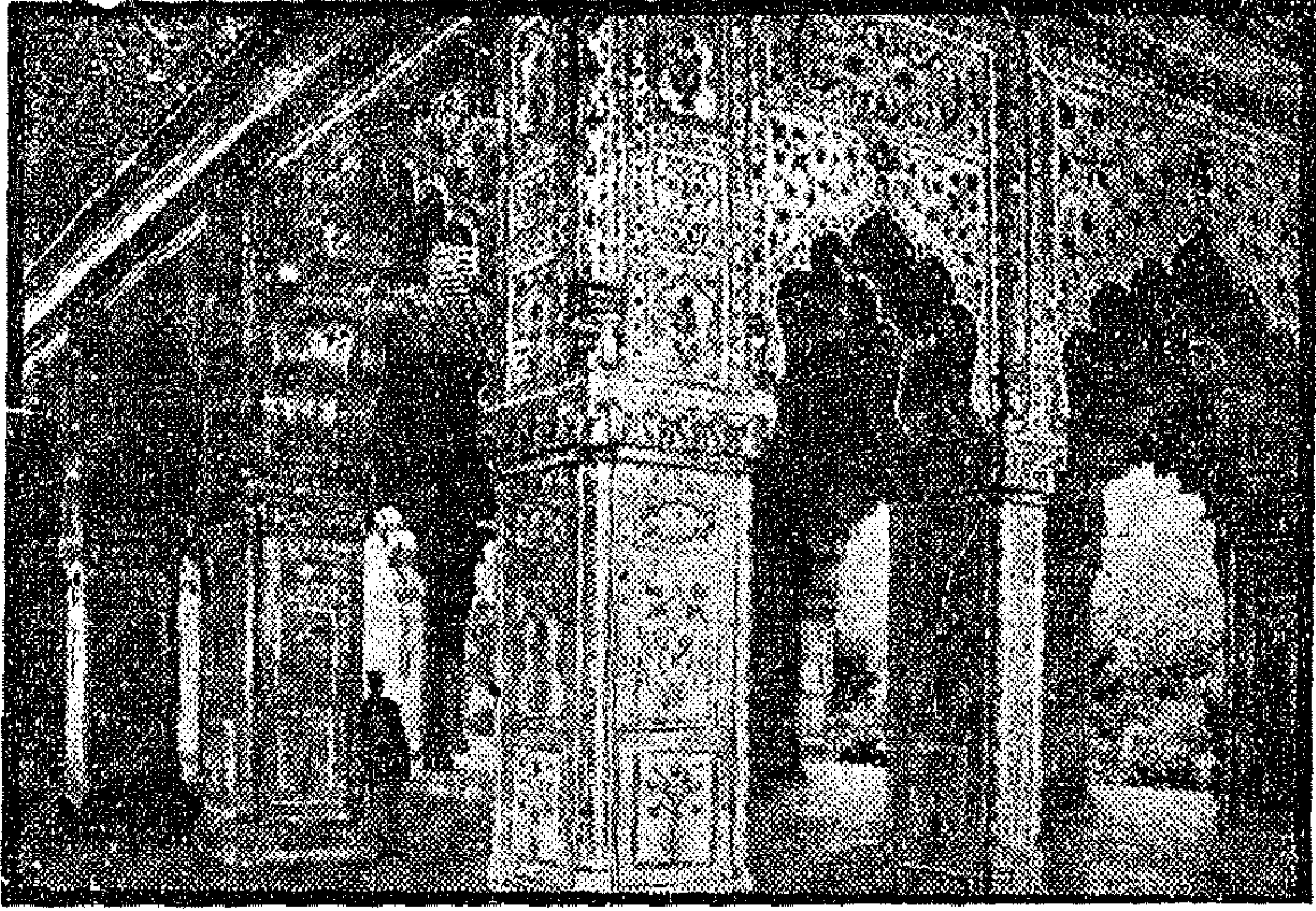
خط سيرنا في شرق افريقية

نطاق ضيق تكسوه الخضرة . وهو المكان الوحيد الذى يستنبتونه فى هذا الاقليم القفر .

وفى الأصيل برحناها والماء هائج مضطرب أنذر بمرض البحر وأخذ ذلك يتزايد حتى انقضى اليوم التالى وظهر إلى يميننا قرن إفريقية عند رأس (جوار دافوى) فى حائط صخرى مجدب مخيف يمتد إلى الآفاق وهنا تغيرت الظروف الجوية ، فأضحت الريح الجنوبية بليلة كادت قطرات ضبابها تكسو الجبال على بعد منا ، وأخذت الرياح الموسمية هذه تزأر فى شكل مخيف حتى لم ينج فرد من مرض البحر ، وظلت السفينة تترنح طوال يوم الأربعاء وبعض الخميس ، وخف الحر الذى عودنا إياه البحر الأحمر . وكان الهواء بارداً عاصفاً بليلا يحس المرء أنه مشبع بالرطوبة ذاك البلل الذى هو سر فيض نيلنا الغامر ، وخصب بلاد الهند النادر ، وكانت السماء تتلبد بالغيوم الثقال ولبثنا وسط هــذا المحيط الزاخر القاتم الرهيب يومين ثم عبرنا خط الاستواء جنوباً فتحسنت حالة البحر نوعاً وخفت حدة الريح وندرت سحب السماء وأضحت متقطعة ، وكان ينعشنا الأمل بوصول أرض ممباسا فى الغداة كى نجد عوضاً عن هذا البحر الممل ولو إلى حين .

ممباسا : فى ستة أيام من مغادرتنا لعدن ألقت الباخرة مراسيها على رض ممباسا ، وهى جزيرة ذرعها ميلان فى ثلاثة ، تسمى ملكة الجزائر المرجانية إذ تحفها هالة من شعاب المرجان ، وبدت فى خضرتها الوفيرة القاتمة كأنها زمردة ألبست فجوة من شرق إفريقية ، وفيما بينها وبين القارة يتلوى البحر فى مخابىء آمنة جعلت الميناء من أجمل مين شرق إفريقية وأمنعها على الاطلاق ولقد كانت الميناء القديمة تقوم شمالى الجزيرة ولكن الانجليز اتخذوا ساحلها الجنوبى مرفأ لأنه أفسح مجالا وأبعد غوراً فأقيمت عليه الأرصفة الممتدة تقوم عليها العنابر والروافع التى تديرها الكهرباء ، ويطلق القوم على هـذا الجزء : مرفأ كلنديني ، ومعناه بلغة السواحليين : مكان الماء العميق : نزلنا إلى

رصيف الميناء باكورة الصباح ، وكانت الجزيرة تعلو تدريجياً فى منحدر من صخر الجير المهشم القديم ، فسلكنا سبيلنا صعداً فى طريق (كاندينى) الذى



جانب من الديوان الخاص فى زخرفه الفاخر بدلهى

يشق الجزيرة نصفين ، وتقوم عليه المبانى الرئيسية من متاجر ودور للحكومة وبيوت منسقة ، والطريق تحفه الغابات ذات الأشجار الباسقة والعشب الوفير ، فهو كسائر طرق الجزيرة قد شق وسط غاباتها الكثيفة وكان أظهر الشجر المانجو ، الذى كنا نرى ثمره ملقى على الأرض فى كثرة هائلة ، ولا يعنى المارة بأمره ، فثمنه هو وسائر الفاكهة الاستوائية زهيد للغاية ، فقد كنت أنتقى أطايب المانجو من بائعه بمليمين . ولما أتينا على آخر الطريق بدت القلعة التاريخية تطل على الميناء القديمة — ويسمونها قلعة يسوع — شادها البرتغال سنة ١٥٩٣ ، يوم أن أصبحت ممباسا عاصمة دولتهم الأفريقية ، لكنها سقطت فى يد سلطان ممباسا سنة ١٦٣١ ، حين قتل جميع البرتغاليين فى المدينة ، وبعد أربع سنوات استعادها البرتغال وأعادوا بناءها . وفى ١٦٩٦ بدأ العرب حصارهم العظيم الذى دام ثلاث سنين وانتهى بفتح القلعة وقتل من تخلف من حاميتها ، وهى اليوم سجن ويزمع تحويلها إلى متحف ، وفى مدخل تلك

الميناء كاد ڤاسكو دجاما يفقد أسطوله ، لأن قواد سفنه ، وكانوا من العرب ، تآمروا على تدميره ، فاتفق اثنان وسببا اصطدام سفينتين تحطمتا ، ولما قبض عليهما وعذبا بصب الزيت المغلى فى جسدهما اعترفا بأنهما فعلا ذلك انتقاماً للعرب فشنقا قصاصاً . ولڤاسكو دجاما شارع صغير باسمه ، وعمود تذكارى ، كأنه قمع السكر شكلا ولوناً .

وممباسا كانت منذ القرن الثامن حصناً منيعاً تحت أئمة عمان ومسقط ، وكانت أكبر أسواق للرقيق إذ ذاك ، ولما كشف البرتغال طريق الرأس وجدوا فى مرافىء شرق إفريقية أماكن آمن من البحر وغوائله ، تلك التى قاسوها فى جنوب إفريقية ، وفى سنة ١٥٠٩ أحرز (المايدا) قائدهم النصر فى إحدى معارك التاريخ الحاسمة ، هى (واقعة ديو) حين دمر أساطيل العرب والمصريين مجتمعة ، وضمن للبرتغال احتكار المحيط الهندى لمدة قرن من الزمان كامل ، ولا يزال يطلق القوم على الجزيرة (كسيواتشا مفيتا) أى جزيرة الحروب .

ومدينة الأهالى هنا أشبه بقرية صغيرة تقام بيوتها ، وكأنها الأخصاص ، من شباك العصى والأعواد ، تملأ فضاءاتها بالطين ، وسقوفها متحدرة ، تكسى بالقش أو صفائح المعدن . والبيت فى مجموعه مربع الشكل ، والطرق أزقة ملتوية فى غير نظام . وكنا نرى جمهرة من تلك الدور بين فجوات الغابات الفطيرة ، والسكان أخلاط من بينهم ٧٥٥٦ من الهنود ، و٧٥٢٣ من العرب و١١١٩ من الأوربيين ، و٢١٣٥٢ من السود ، ومجموع السكان حوالى ٤٥ ألفاً . يتكلمون لغات مختلفة أخصها : السواحلية ، وهى خليط من لهجات البانتو مع العربية ، وكنت ألتمس فى كل جملة كلمة أو اثنتين أفهم بها سياق الحديث ، وتكتب بحروف عربية ، وهى اللغة الرسمية فى شرق إفريقية ، فكنت أراها تكتب إلى جانب الانجليزية حتى فى الاعلانات ، فمثلا عند منحنيات الطرق كنت أجد كلمة (أصبر) بمعنى خفف السير ، وعند بائع الماء

ـى كلمة (ماج) ومن الكلمات الشائعة : (زمانى) بمعنى من زمان مضى ، و(بريدى) بمعنى البرد ، و(كرتاس) بمعنى الورق . و (سفرى) بمعنى الرحلات ، و(مبارك) للتحية ، (دوى) للدواء ، واللغة الساحلية سائدة فى شعوب السواحل جنوباً إلى الناتال ، ومن ممباسا إلى فكتوريا نيانزا فى داخل إفريقية .

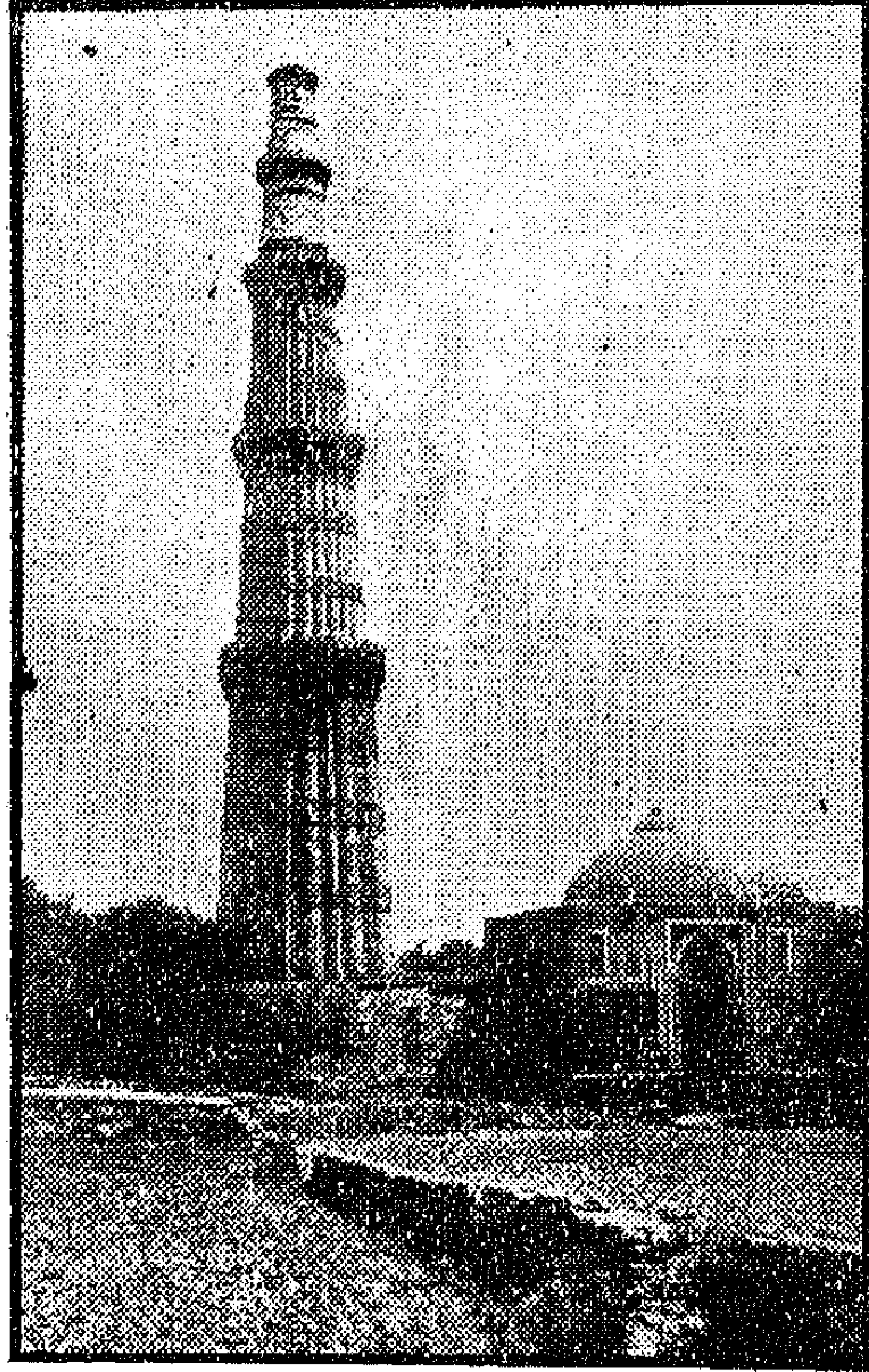
والشعب السواحلى وليد اختلاط العرب بالزنوج ، فهو من أب عربى وأم زنجية ، وهم يعيشون اليوم عيشة خمول فى السهول الساحلية ذات النبت والشجر الوفير ، وقد كانوا تجار عاج ورقيق من قبل ، ولما حرم الاتجار بالرقيق أهمل العرب مزارعهم لأنها كانت تتوقف فى فلحها على أيدى الرقيق وكان هؤلاء يحبون سادتهم من العرب ويختلطون بعائلاتهم لأنهم كانوا يعاملون معاملة حسنة وكانوا لذلك أصحاء الجسوم ، لكنهم بعد إلغاء الرقيق فقدوا سادتهم ولم يستطيعوا العمل وحدهم ، فأضحوا وكأنهم الغنم فقدوا راعيهم ، كذلك العرب فانهم اعتادوا من قبل حياة السادة يشرفون على عبيدهم فحسب . فلما فقدوا أعمالهم لم يستطيعوا مباشرة العمل وحدهم ، فكان من نتائج هذا التحرير أن انحط النوعان : السيد والمسود ، وتدهورت حالة الانتاج فى الأراضى الخصيبة الساحلية ، والعرب هناك لايزالون يفاخرون بحسبهم القديم ، ويتمسكون بأهداب من العزة واهية فى فلول قصورهم المتوارثة فى مدن السواحل ، ولا يزالون يحتقرون العمل اليدوى ويظهرون شيئاً من كبريائهم القديم كنا نلمحه على وجوههم وهم آخذون فى التدهور السريع لابل والانقراض أمام المزاحمين من الأجانب ، أسيويين وأوربيين ، ويقال عن السواحليين أنهم مبذرون كسالى ، على أنهم قوم مرحون ، قانعون بما يلقون يشتغلون بجد أسبوعاً من كل شهر ، وبما يكسبون يسدون حاجاتهم بقية الشهر ، وكفاهم فخراً أنهم نشروا لغتهم التى أصبحت لغة التعارف بين كثير من وسط إفريقية وشرقها .

وفى ممباسا طائفة من أصفياء العرب تحكى لهجتهم لهجة أعراب البادية فى مصر ، على أنهم قذرون ومتأخرون ، ويشبهون فى السحن مسلمى الهنود الذين يكثرون هناك . وللمدينة مظهر إسلامى فى تعدد مساجدها ، وهم يتمسكون بشعائرهم لايحيدون عنها . أما سحن الزنوج فمنفرة للغاية بقاماتهم القصيرة ، وأنوفهم الفطساء ، والنساء أشد قبحاً . يلبس غالبهم الطربوش ، تتدلى خصلته الغليظة الملونة فيما يحكى « زر » العمامة على جباههم وكأنهم البلهاء .

وممباسا تقع إلى جنوب خط الاستواء بأربع درجات ، وكان الجو مدة إقامتى بها جميلا ، أميل إلى البرودة إلا أنه رطب ، فالسماء قلما كانت تخلو من الغيوم ، ولم أشعر وأنا بها اننى أقارب خط الاستواء بحره القائظ ، على أنه إذا بزغت الشمس فانك تلاحظ فرقا عظيما فى الحرارة ، إذ ترسل الشمس أشعتها الرأسية فتكاد تخترق الجلد ، فاذا ماحجبتها سحابة — وكثير ماهى — انتقلنا من وهج المنطقة الحارة إلى نسيم الجو الأوروبى البليل ، والموسم البارد هناك بين ابريل وسبتمبر ، ويلفت النظر أشجار (الباوباب) التى نمت إبان سيادة العرب والبرتغال ، وقد أعوجت أعوادها بمضى السنين ، وكثرت تجاعيدها وفروعها ، بحيث كانت تبدو الشجرة وكأنها أربع شجرات أو ست ضمت إلى بعضها وتشعبت كل فى أعلاها تشعباً مستقلا عن جارتها .

والميناء صاخبة تظل حركة الشحن والتفريغ بها دائبة وهى الميناء الرئيسية لمستعمرة كنيا ، والمنفذ الوحيد لمتاجر أوغندا إذ يصلها بالبحيرات خط حديدى ، وكذلك تصرف عنها بعض متاجر تانجانيقا والكنغو . وأشهر ماتصدره : البن الذى يزرع فى مساحات شاسعة فى كنيا ، ثم السيسال وهو نبات كالصبار يدق فيصبح أليافاً صفراء براقة لكنها خشنة تحكى الليف الأبيض من نخيل مصر ، وينسج للأشرعة والغرائر والحبال ، ومن المواد

الصادرة من هناك القطن ذو الليفة القصيرة ، وقشور شجرة (Wattle) تستخرج منها الأصباغ وكذلك العاج ، وقد زرت فى ميناء ممباسا مستودعا للعاج تجمعه



منار قطب وهو برج نصر مغولى فى دلهى

الحكومة وتصدره تحت إشرافها بمقادير وفيرة ومن الأسنان ما كان بالغ الطول زنة أكبرها مائتا رطل أعنى أن الفيل الواحد قد ينتج أربعة قناطير ، ويختلف العاج جودة باختلاف الحيوان سناً ونوعا وكان ثمن الرطل الغفل من النوع الجيد خمسين قرشاً ويصدر الخرتيت بقلة وقرنه قصير وفى مخروط مقوس إلى الخلف وثمن الرطل منه سبعون قرشاً .

وغالب الأعمال التجارية يقوم بها الهنود أما باقى الأهلين فأجراء ، وقد قيل لى أنه بسبب الكساد العالمى الحالى اضطر نحو نصف الجنس الأبيض وبخاصة أصحاب الأعمال الكبرى من الانجليز أن يبرحوا البلاد ، وقد

لاحظنا الكثير منهم يعودون لانجلترا لكساد أعمالهم هنا وهاهى باخرتنا غصت بهم يوم برحت ممباسا.

قامت باخرتنا (لانجى كاسل) تشق مابين جزيرة ممباسا إلى اليسار وإفريقية إلى اليمين وكانت الشواطىء وفيرة النبت وبخاصة شجر المانجو إلى اليسار والنرجيل إلى اليمين والساحل مشرف رأسى ومن صخور الجير الذى أصفر بمضى السنين وفى خمس ساعات أقبلنا على بلاد تنجانيقا وأولها :

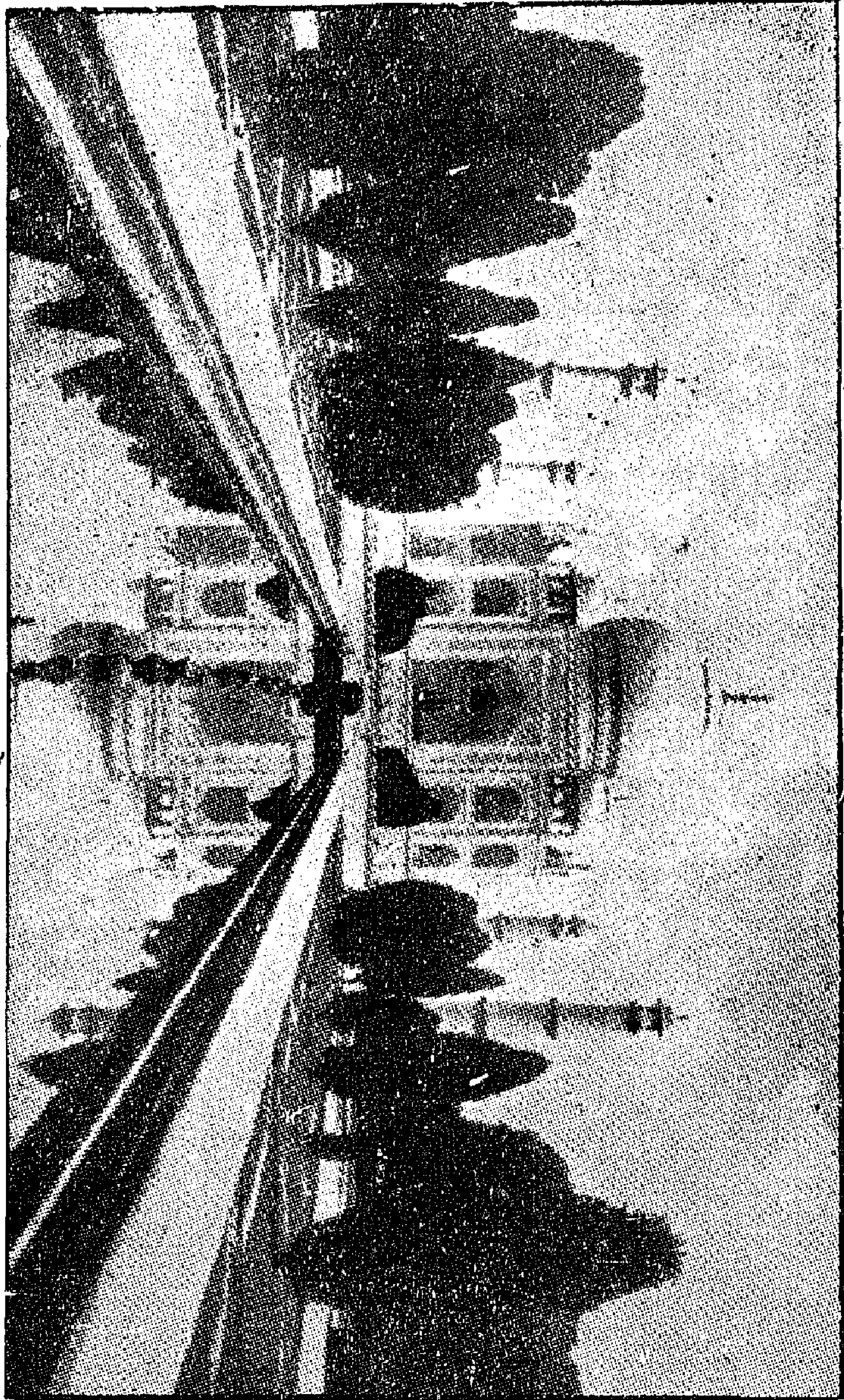
تانجا: التى قرت عيوننا باكورة الصباح بجمال المناظر حولها، دخلناها فى الليل ونحن نيام، والخليج تحفه الجزائر الصغيرة المترامية، وفوق الجزيرة الكبيرة أقيمت المدينة ببيوتها المنثورة ثم طغت على جوانب الخليج قبالتها، حيث يصب نهر سيجى sigi الصغير، وقد كانت عهد الألمان أولى ثغور تانجانيقا، لكنها اليوم فقدت شيئاً من شهرتها ولا يزال يصدر منها فوق ثلث حاصلات البلاد، والأقاليم حولها غنى بمزارع السيسال والكبرا وفوق المرتفعات البن والشاى، وهى منفذ طبيعى لأقليم كلمنجارو وأهلها أحد عشر ألفاً من بينهم ٤٦٣ من البيض و٤٥٨١ من الأسيويين، هاجمها الانجليز سنة ١٩١٤ لكنهم ردوا بخسائر فادحة، وفى سنة ١٩١٦ فتحها الجنرال (سمطس) ولاتزال ترى باخرة ألمانية صغيرة غرقت هناك آبان الحرب، أقلتنا سيارة طافت المدينة وهى على نمط دار السلام ثم أوغلنا فى مجاهل الغابات خلفها فهالنا مابها من فصائل النبات الملتف المتعانق بين صغير وعملاق وخلالها قطع القوم فجوات زرعوها من السيسال والتابيوكا، لكن غالب الأراضى مهمل يحتاج فى زرعه واستغلاله إلى جهد كبير حتى تستأصل تلك الطفيليات التى كنا نمر أمامها فتغطى جموعنا تماماً بعضها فى أعواد وأوراق كأنها قصب السكر والبعض شجيرات أوراقها مهفهفة خفيفة عريضة، هنا ذكرنا حقاً مخابىء الوحوش التى خبرنا السائق عنها طويلا وبخاصة السبع والشيتا نمر إفريقية الأرقط وبينا نحن نتحدث إذ بجمهرة من القردة فى أحجام مختلفة

تجرى على بعد وتتسابق إلى الشجر وهنا قال الرجل بأن هذه القردة أضحت من أكبر المنغصات هناك لا بل وفى باقى إفريقية إلى أقصى الجنوب فهى تسير فى جماعات وتهاجم حقول الذرة ويقف منها حارس أو اثنان للرقابة ولا يفتأ الباقون يقطعون أكواز الذرة ويولون سراعاً، ولقد اتبعوا فى مطاردتها طريقة عجيبة هى أن يصاد واحد فى فخ ثم يحلق شعره كله ويطلى جسده بدهان أزرق ويطلق سراحه، فإذا أتى عشيرته ورآه الجمع هكذا خشى أن يحل به مثل ذلك فينقطع الجميع عن زيارة تلك البقعة مدة طويلة هروبا من ذاك المنظر المخزى.

أدى بنا التسيار خلال تلك الغابات إلى مغاور بها الصاعدات والداليات والفجوات ما يشعر بمرور نهر تحت الأرض ثقب الصخر هكذا، والمنطقة حولها جد موحشة لولا مانرى من جموع الفراش رائع النقوش ومن أسراب الطيور الغريدة فى ألوانها الساحرة، وبعد أن سرنا طويلا فاجأنا نهير يكاد يغطيه كثيف النبت وخليعه ومن الشجر الذى استرعى أنظارنا (الباوباب) الشامخ، وكان له ثمر كأنه أكواز الشمام الكبير يغطى قشوره وبر أملس ناعم، إلى ذلك شجر متعدد الثمرات من بينها ثمرة حمراء هادئة كأنها التفاح قلبها ناصع البياض تتوسطه نواة ضخمة كنواة المانجو ويسميها القوم بالسواحلية (توفاه) بمعنى تفاح، والجوافة والمانجو التى أثقلها الثمر دون أن تجد صاحبا يستغلها. هنا حط رهطنا الرحال وأخذنا نأكل من ذلك الثمر الشهى حتى امتلأنا بطونا وجيوبا، ويتخلل كل أولئك شجر النرجيل الذى لا يغيب عن العين، طال بنا التجوال والركوب زهاء ساعتين بين وهاد ونجاد فهمنا خلالها معنى الغابات الكثيفة حقا فى رهبتها ووحشتها وجمالها الرائع.

زنجبار : فى أربع ساعات بدت أرض زنجبار فى شبح فاتر لبث كلما قاربناه يجلو فى جزائر صغيرة منثورة حول الجزيرة الكبيرة وحول الجميع نطاق أبيض ناصع من تكسر موج البحر على جسور المرجان يحيط بها وكان النبت

الوفير يكسوها جميعا ، وفى أكثر من ساعتين رسونا على بعد من الأرصفة وأقلتنا الزوارق الصغيرة إلى الشاطىء فبدت المدينة شبيهة بناحية الميناء القديم فى الاسكندرية ، طرقها مختنقة لكنها نظيفة وغالب بيوتها من طبقتين فى هندسة بين العربية والمصرية ، ويواجه الميناء قصر السلطان القديم فى منظر لابأس بأبهته فى أعمدته التى تحوط طبقاته كلها ويسمونه (بيت العجائب) وهو اليوم دار الحكومة كان يرفع عليه علم البلاد فى قماش أحمر وبجانبه القصر الجديد للسلطان وعلى مدخله لوحة نحاسية كتب عليها (السلطان الخليفة سيد) وهو عربى يلبس عمامة شبيهة بعمامة الهنود . ومن هنا أقلتنا الركشا إلى أرجاء عدة من المدينة أخصها شارع (داراجينى) وهو يجانب شعبة من البحر كأنها القناة الضيقة عليها قناطر عدة يصل بها القوم إلى مسكنهم الوطنى وهو أخصاص تقام على شاكلة تلك التى فى ممباسا تماما ، وفى نهاية الطريق يقوم المتحف ويسمى (دار الأمانى) تحت قبة صغيرة حوى بعض المخلفات القديمة من سيوف ومخطوطات وهدايا وبعض المقاعد والطبول الكبيرة التى استخدمت فى الحروب والمعروضات ليست بذات قيمة تذكر بعد ذلك زرنا بيت الحاكم الانجليزى — وزنجبار وبمبا سلطنة تحت حماية الانجليز — وهو أفخر مبانى المدينة يقوم فى شكل قلعة تطل على البحر تزينها الحدائق المنسقة وأمامها متنزه فكتوريا وهو ملعب عام وبه بعض المقاهى والمراقص ، أما أسواق المدينة فأعجب شىء بها فهى أزقة مختنقة ذات لفائف كأنها التيه لا يعلم لها أول ولا آخر بشعابها المعقدة فهى أشبه بحى خان الخليلى وما جاوره عندنا ، أرضها مرصوفة نظيفة وبها تعرض مبيعاتهم وغالبها من منتجات هندية ويابانية وتضم المدينة من الأهلين مائتى ألف نفس منهم ١٦٥ ألفاً من السواحليين وعشرون من العرب وخمسة عشر من الهنود أما الأوربيون فلا يجاوزون ٢٧٠ واللغة السائدة السواحلية التى يتكلمها الجميع ، والاسلام دين السواد الأعظم ، أما السحن فبعيدة الشبه جداً ومنوعة وغالبهم



(تاج محل) درة الهند وآية الهندسة المغولية في أجرا

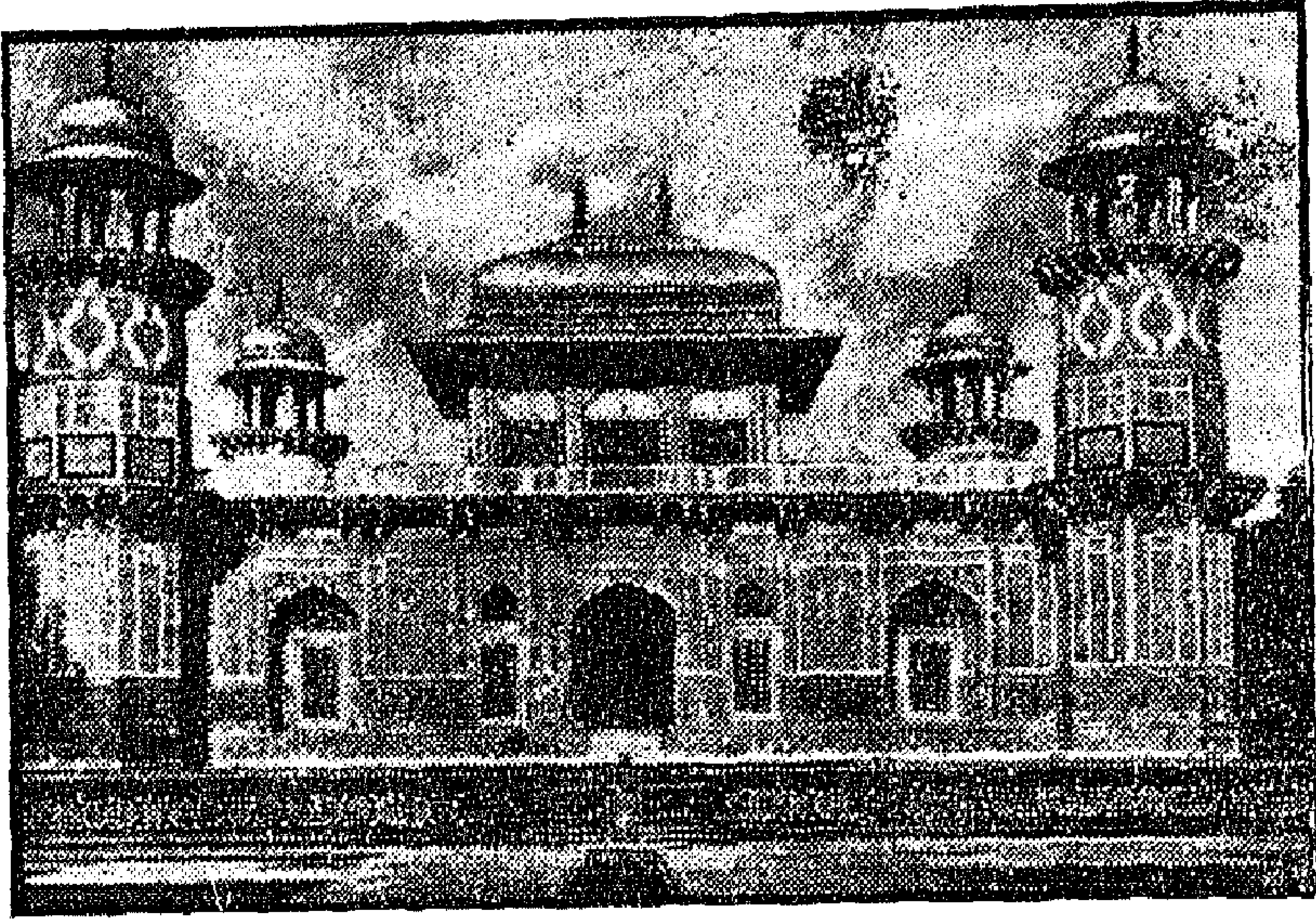
فى جهل عميق ويقوم بالأعمال التجارية الهامة الهنود فى الغالب ، وليس للبلاد نقود خاصة فهم يستخدمون النقود الهندية (مثل الروبية والآنه) وأعجب ماهنالك أن ساعة البلاد تسير على النظام العربى فعند الغروب تكون الثانية عشرة وترى ساعات الميادين تسير على هذا النظام .

والمدينة تقوم على الطرف الجنوبى الغربى للجزيرة التى يبلغ طولها خمسين ميلا ومساحتها ٦٤٠ ميلا مربعاً وتبعد عن القارة بنحو ٢٢ ميلا ، والبلاد تاريخية قديمة ، عرفت أخبارها منذ سنة ٦٠ ميلادية ، وظلت قروناً أكبر مين شرق إفريقية وأغناها مورداً . والبيت المالك والطبقة الممتازة من العرب من شيعة أيبادهى لذلك خلت مساجد المدن من المآذن ، والمؤذن ينادى من باب المسجد ، وعدد مساجدها هذه يفوق المائة ، أشهرها مسجد كزمكارى التى سنة ١١٠٧ عند ما احتل الفرس الجزيرة والساحل المواجه لها . وعماد ثروتها القرنفل الذى أصبح الغلة الرئيسية منذ مائة سنة إذ ٨٨ ٪ من قرنفل العالم أجمع يصدر من هذه البلاد .

قمت بجولة فى ضواحى المدينة ، وهى غابة كثيفة ، تشقها الطرق التى تعلو وتهبط وتلتوى فى تعقيد كبير ، وأظهر الشجر النرجيل والمانجو ، وقد دخلت مزارع القرنفل بأشجاره الكبيرة فى خضرة مصفرة ، وثمره ينمو فى عناقيد من براعم متجــاورة يعلوها زهر كأنه الوبر ، ثم تحمر البراعم وتقطف ، ثم تجفف وكنا نرى البيوت كلها تنشره على الحصر أمام الأبواب. وفى كثير من الجهات تقوم مصانعه ، وكنا نمر ببعض مصانع (الكبرا) وفيها يجمع النرجيل ، ثم يعرى عن قشوره وأليافه ، ويحطم لبابه ، ويشحن إلى الخارج لاستخراج زيوته . وتعد الجزيرة خير بلاد شرق إفريقية بإنتاج الكبرا .

ومن الشجر الغريب هناك شجرة فاكهة الخبز ذات ورق فى حجم ورق الموز لكنه مخرم مسنن فى وسطه وأطرافه ، وثمرتها فى حجم الشمام الكبير ،

إلا أنها أكثر تفرطحاً وأضيق فى وسطها ، وظاهرها خشن محبب ، وباطنها مادة نشوية يتخذ منها الدقيق ، وقيل إن ست شجرات منها تمون عائلة كامله



مقبرة اعتماد الدولة فى أجرا

بماتحتاج إليه من الخبز طوال العام ، إلى ذلك نبات (الكسافا أو الماهوجا أو التابيوكا) ، ويبدو كالكروم على بعد ، فان دانيته بدا أعواداً معقدة فى طول قامة الرجل ، إذا اقتلعت العود من الأرض خرجت معه مجموعة من جذور درنية فى حجم طويل ، ومادتها نشوية لبنية لمسا وطعما ، ويأكلها القوم طازجة ومطبوخة وما زاد من محصولها جفف فأضحى خفيف الوزن هشاً ، إذا سحق بيع دقيقاً ، وهو من أهم المواد الغذائية فى شرق إفريقية وحيث يكثر يزيد السكان ، ويقال إنه أرخص المواد التى تستخرج منها الكحول .

سرنا طويلا خلال تلك المزارع الكثيفة النبت والشجر وبين آونة وأخرى كانت تنكشف وهاد تغص بالبيوت الريفية . تقام من أعواد الغاب المتقاطعة ، تطلى بالطين ، وتغطى بجدائل من خوص النرجيل ، والناس مسلمون ، ولغتهم سواحلية ، على أن النساء يلبسن دثاراً فضفاضاً خفيفاً ، ألوانه زاهية ، ويعلقن فى آذانهن أقراطاً من ورق ملون مثنى وثلاث ورباع ،

وبعضها فى حجم نصف الريال ، وسحنهن أجمل من سائر السود اللاتى رأيتهن إلى آخر إفريقية جنوباً ، ولون القوم أخف سواداً مما يشعر بتأثير الدم العربى فيهم جميعاً ، واعجب ما نرى حفلات الرقص القومى يتمايلون خلاله بشكل مضحك ، تصحبهم قرعات الطبول الأفريقية الضخمة وكأنها البراميل المستطيلة تدق من جانبيها .

وقد زرنا فى تلك الضواحى القصر القديم للسلطان (سيد برغش) ، وهو أطلال وسط حدائق تزينها برك البشنين والبردى ، ولا تزال كثير من أعمدته الضخمة قائمة ، وكذلك جانب من حماماته التركية بمداخلها الكثيرة ويقص القوم أن هذا السلطان كانت له زوجات يناهز عددهن المائة جارية من مختلف الأجناس فى هذا القصر وهذا سر تسميته (بقصر الحريم) ، وهناك قصر آخر يطل على البحر كان مقره الريفى ، ولا يزال السلطان الحالى يقضى فيه يوم السبت من كل أسبوع . عدنا من جانب الجزيرة الآخر مخترقين الحى الآهل بالسكان فى بيوتهم ضخمة البنيان ، ذات الأبواب الحديدية المصمتة الثقيلة ، ومن بينها دار البريد والحربية وأسواق الخضر والسمك ، ثم زرنا الكنيسة الإنجليزية التى أقيمت فى مكان سوق الرقيق القديم . وقد بنى المذبح فى المكان الذى كان معداً للجلد والتعذيب ، وقد صنع الصليب الذى يعلو المحراب من خشب الشجرة التى يدفن تحتها قلب الرحالة لفنجستون على بحيرة بنجويلو فى منابع الكنغو .

دار السلام : أبحرنا إلى دار السلام الخامسة صباحاً ، وكان البحر هادئاً جميلا ، وظل عقد من الجزائر الصغيرة يمتد من زنجبار جنوبا إلى مسافة مديدة ، وكنا أحياناً نلمح شاطىء القارة فاتراً على بعد وفى خمس ساعات بدت مجموعة من الجزائر المتقاربة كثيفة النبت ، ومن ورائها مبانى دار السلام ، وأخذنا نتطلع إلى مدخل الميناء ، وكان دليل الميناء يدير السفينة يمنة ويسرة ، وكأنها السيارة على ضخامتها ، وأخيراً ظهر المدخل مختنقاً تحفه

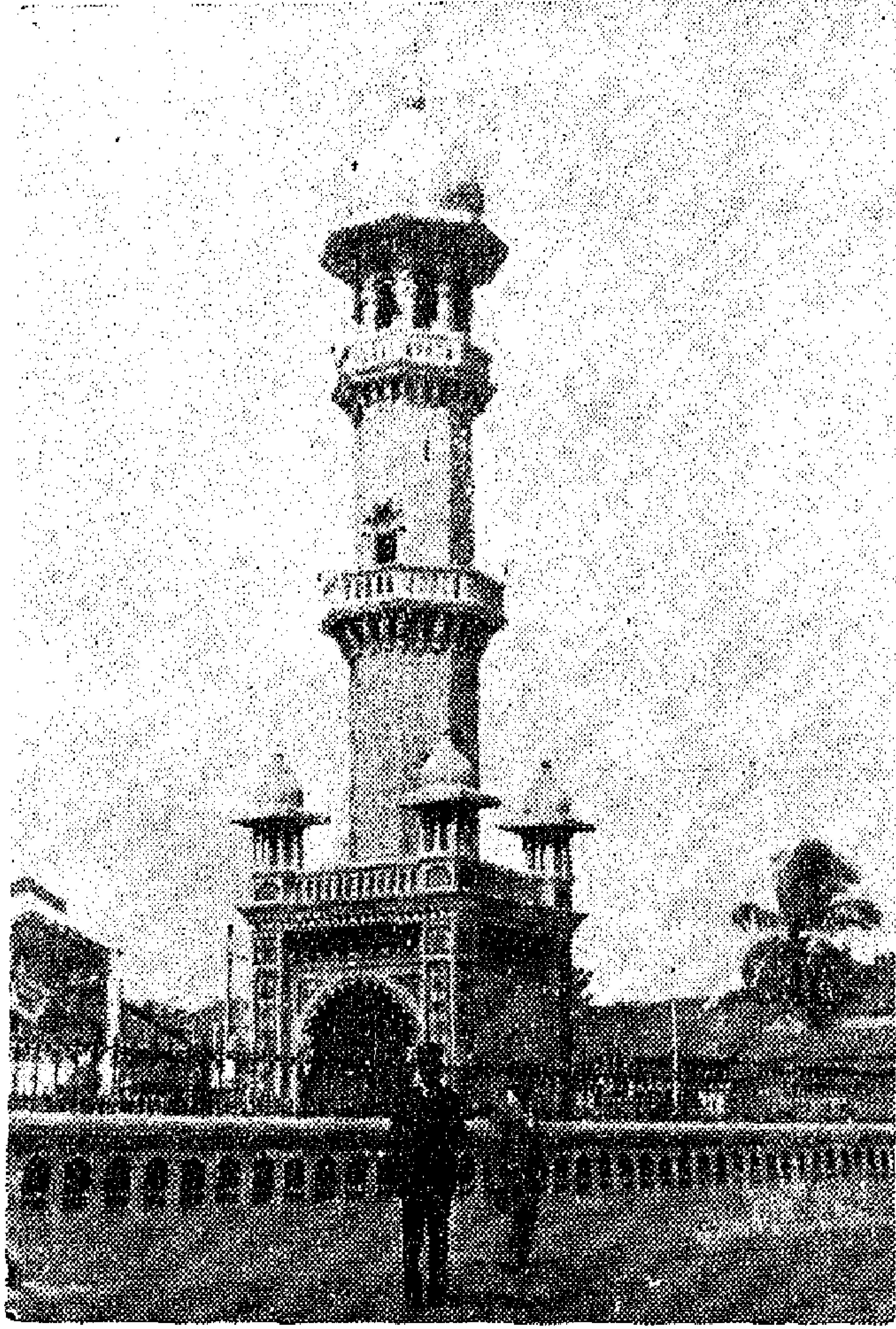
شواطىء رملية مدرجة لا تسمح بمرور سفينتين معاً ، وعنده رأينا رصيفاً منهاراً وسفينة غارقة كان قد رمى الألمان بذلك إلى قفل الميناء فى وجه الأعداء من الانجليز إبَّان الحرب . وما أن اجتزنا هذا المضيق، حتى انفسحت الميناء ، بشواطئها الرملية الممدودة فى شعاب لا حصر لها تنتثر عليها المبانى ذات السقوف المتحدرة الحمراء ، تحفها المزارع الغنية ، ويكاد يخفيها شجر النرجيل. وفى الحق إنها لميناء آمنة مختبئة ، حققت فى نظرى تسميتها بدار السلام التى أسسها سيد عبد المجيد سلطان زنجبار سنة ١٧٦٢ ، واحتلها الالمان سنة ١٨٨٩ ، على أن الميناء ضحلة المياه كأنها المستنقع ولا يمكن للسفن دخولها إلا ساعة المد ، وكنا نلاحظ عند المدخل كثيراً من الشجيرات يغطيها ماء المد فى مساحات مترامية وعجبنا لنموها فى هذا الماء الأجاج ، أما منظر الميناء بجزائرها ونبتها ومبانيها ، فمن أروع ما رأيت جمالا ، فقد أبدعت الطبيعة تنسيقها وزادها الألمان تجميلا هنا أقبل الزنجى يلبس الطربوش الأصفر — وكان فى ممباسا ، وزنجبار أحمر اللون — تتدلى منه خصلة ثقيلة سوداء وحلته صفراء ويلف على الساق شريط أزرق (الشين) أما الأقدام فبدت سوداء براقة بلونها الطبيعى ذلك لأن رجال البوليس فى شرق إفريقية جميعاً يسيرون حفاة الأقدام . جبت أرجاء المدينة بمبانيها ذات الهندسة الألمانية المتشابهة ، طرقها فسيحة مرصوفة وفى استقامة تسترعى النظر تحفها الأشجار الوارقة ، والحى الأوربى منها كثير الحدائق فاخر المبانى لدرجة تفوق الوصف ، والناس أشباه سكان زنجبار وممباسا غالبهم مسلمون ، وكنا نسمع المؤذن ينادى للصلاة من أبواب المساجد أو من فوق سقوفها بلهجته العربية المحرفة ، والهنود هنا كثيرون وبيدهم غالب المتاجر شأنهم فى سائر بلاد شرق إفريقية ووسطها وقد علمت أن نحو نصف الأراضى والمبانى فى دار السلام وتانجا وزنجبار ملك لأغنياء الهنود ، وهم ينبثون بين الأهلين ويخالطونهم ويعيشون معهم على قدم المساواة ولذلك فهم محبوبون إلا من الأوربيين الحانقين عليهم لأنهم

فى زعمهم موضع خطر اقتصادى كبير بسبب مزاحمتهم للأوربيين مزاحمة قاتلة فى التجارة ، ذلك لأن معيشتهم بسيطة جداً لا يكادون ينفقون شيئاً ، وهذا ماجعلهم يكدسون الأموال ويزاحمون الغير بأجرهم الرخيص ونشاطهم الزائد وكم كان دهشى عظيماً لهذا النشاط الهندى الذى كان يبدو مجسما فى جميع شرق إفريقية وقلبها إلى البرت نيانزا فى الداخل ، فلم أكد أدخل ديواناً أو متجراً إلا وهم قادته ، وذلك عكس ما رأيته منهم فى بلادهم عامى الفائت ، وذلك يظهر بوضوح مبلغ أثر الضغط وفساد البيئة فى بلادهم ذاك الذى يقعد بهممهم إلى هذا الحد الشائن ، أما فى خارج بلادهم حيث تحرروا من قيودهم السياسية والدينية والاجتماعية ، فقد ظهرت مواهبهم الكامنة وكفاءاتهم الخامدة .

ولهم هناك مدارسهم ومساجدهم ، وقد زرت فى ضواحى دار السلام مدرسة لصغار الفتيات من الهنود حوت نحو مائة وخمسين يجلسن على الحصر فى مكان نظيف ، وكان الدرس ألعابا رياضية يقف البنات فى دوائر متداخلة ويدرن وبأيديهن عصى قصيرة من الابنوس كأنها الصوالج ، وفى وسط الدائرة فتاة تعزف على بيان صغير ، وهن يرقصن وراء النغمة ، ويغمزن بأرجلهن ويغنين وتلطم كل فتاة على عصويها ثم تعود بهما فتصدم عصوى جارتها وهكذا .

والمدينة تشهد للألمان بحسن القيام على بلدانهم وتنظيمها بدرجة تفوق أقرباءهم الانجليز ، وقد كنت أسمع من كثير ، ومن بينهم موظف انجليزى هناك كان يشغل وظيفة عهد سيادة الألمان ، أن الادارة اليوم اضطربت منذ غادر الألمان البلاد فهم فى زعمه كانوا أقدر على حكمها ، وتتردد الإشاعة أن تانجانيقا ستعاد للالمان . وكان جو البلاد بارداً لطيفاً أدفأ من أيام شتاء مصر قليلا ، والسماء يغشاها السحاب المتقطع ، أما صيفهم وهو موسم المطر الغزير فبعد سبتمبر حين يسقط المطر وابلا ، وقد حفروا على جوانب الطرق

مجارى كأنها القنوات الصغيرة، والمدينة تقع جنوب خط الاستواء بسبع درجات إلا قليلا ، وسكانها عشرون ألفاً نصفهم إفريقيون . وهى اليوم أكبر



أمام مسجد سنغافورة

مين تانجانيقا تحتكر ٥٦ ٪ من تجارتها ، ومن الصادرات الهامة التى كنا نراها توسق فى السفن فى غرائر كبيرة : البن والفول السودانى المقشور الذى يستخرج منه المرجرين ، والكبرا ، وألياف السيسال : ذاك النبات الذى يحكى الصبار الكبير تعطن أوراقه ثم تدق وتنشر الألياف على عصى فى الشمس ثم تحزم وهى خير ما يصنع منها الحبال لمتانتها .

برحنا دار السلام الثانية مساء بعد أن اضطرت الباخرة أن تنتظر علو

ماء المد ثلاث ساعات ، وأخذت تتمايل حتى أتت على مخارج الميناء وسط المناظر الساحرة ، وفى صباح اليوم التالى كان الجو جميلا مشمساً إلا فى سحب خفيفة منثورة . لكنه ما لبث أن فاجأنا باضطراب اعصارى شديد أعقبه وابل من المطر ، ولم يكن غريباً فانا نعلم أن مضيق موزمبيق أحد مفاوز الأعاصير ، وكان السحاب يرسل القطرات فتتصل بماء المحيط فى شكل قاتم مخيف ، وفى ساعتين انكشف الجو وعاد البحر هادئاً ، أما مهاب الرياح غالب الأيام فالجنوب والجنوب الشرقى ، وتلك هى الرياح التجارية تندفع وراء الشمس إلى القارات الشمالية حيث يخف الضغط و يتخلخل الهواء .

إلى شرق افريقية البرتغالية . فى أقل من يوم واحد دخلنا البحار البرتغالية وأقبلنا على خليج (Pemba) فى دائرة كبيرة ذرعها سبعة أميال فى خمسة مدخله ميل ونصف ، تحوطه الربى الصخرية التى كادت تعرى عن النبت خصوصاً فى هذا الموسم من السنة ، وهو موسم الجفاف ، وعلى مدرجات إحدى الربى تقوم مجموعة من بيوت صغيرة بيضاء جديدة يشقها طريق رئيسى واحد يتلوى فوق المرتفعات والبلدة تسمى پورت أميليا أقيمت منذ خمس سنوات ، وينتظر لها مستقبل تجارى عظيم لأنها أصلح المنافذ الطبيعية لأرض نياسالاند وقيل لجزء من رودسيا الشمالية أيضاً ، ويزمع مد خط حديدى بينهما ، وعندئذ تزاحم مدينة موزمبيق ، والخليج عميق متسع الداخل بحيث إذا ما أقيمت عليه الأرصفة آوى من السفن ما لا يحصى ، وأقليم نياسا الذى خلفها غنى بالزراعة والتعدين ومن غلاته السيسال والنرجيل والقطن والطباق والذرة والحبوب الزيتية ، وقد ظلت الباخرة يومنا توسق من السيسال والسمسم والاقليم كثيف السكان من السود ، وإن كان البيض به قليلون ، والميناء تعد من أصح مين إفريقية جواً . إذ تندر بها الملاريا ، والحمى السوداء ، وذباب تسى تسى تلك التى تكثر فى سائر مين البرتغال وذلك بفضل جودة الصرف الطبيعى بسبب مرتفعاتها .

لبثت باخرتنا فى بورت أميليا يوما كاملا هاجمنا خلاله جماهير الباعة من السود يحمل كل أقفاصاً من الغاب بها مجاميع من طيور ذوات ألوان ساحرة وكان القفص يعرض بعشرة قروش والببغاء الكبير بخمسة قروش والنسناس بعشرة وذلك يؤيد كثافة الغابات موطن تلك المخلوقات .

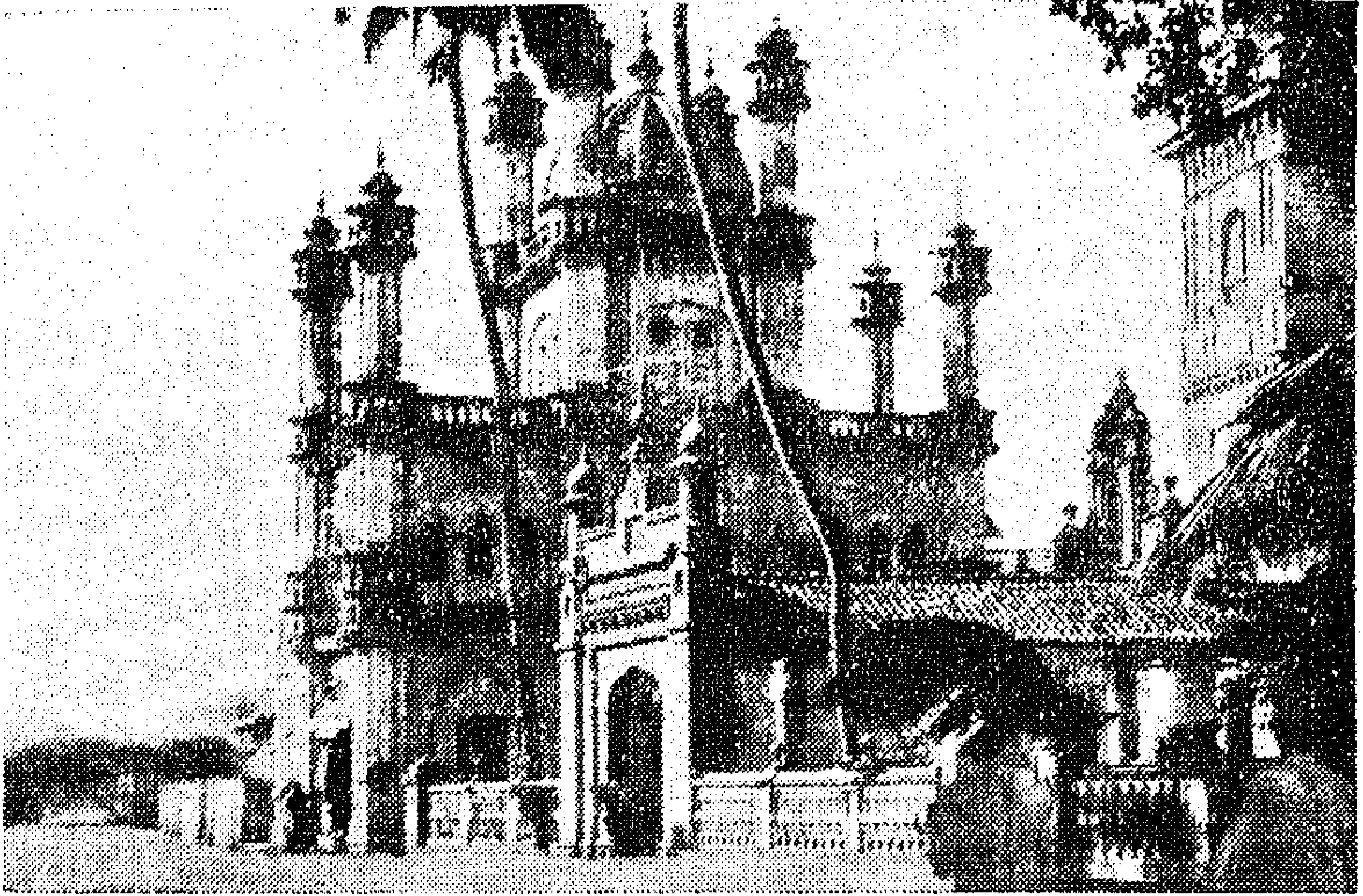
قمنا إلى موزمبيق : فوصلناها فى نصف يوم فبدت جزيرة كبيرة حولها مجموعة من جزائر تكسوها الخضرة النضرة ، وأخذنا ندخل بين طياتها وعلى منحدرات تلك الجزائر جميعا تقوم المدينة والجزيرة الرئيسية تبعد عن القارة بثلاثة أميال ، والجزائر كلها مرجانية تحفها الشعاب المتعددة وتغص بمختلف الأصداف ذات الأشكال العجيبة التى هاجمنا بها جمهور الباعة ، رسونا بعيداً وحملتنا الزوارق إلى المدينة ، وأول ما استرعى أنظارنا القلعة القديمة بحوائطها الحجرية الضخمة الشاهقة التى يبلغ علوها ٣٥ قدما ، وهى تحيط بطرف من الجزيرة دخلناها وتسلقنا أسوارها التى تثقبها عيون تطل منها المدافع القديمة الثقيلة تحمل على عجل من خشب وفى وسط سقفها حوض غائر لجمع ماء المطر الذى كان يستقى منه الحراس ، وفى أسفلها عدة مقاصير وحجرات مظلمة بنيت سنة ١٥٠٨ بحجارة كلها نقلت من البرتغال على بعد ٨٠٠٠ ميل فى زوارق ذاك العصر وهى تتخذ اليوم سجنا ، ويفاخر البرتغال بأن علمهم ظل يرفرف فوقها منذ أقيمت فى سنة ١٥٠٨ إلى يومنا هذا بدون انقطاع .

خرجنا نجوب المدينة ، فراقتنا طرقها الضيقة الملتوية رصفت بالحجر بجانبها إطاران بالأسمنت وإلى جانب أحدهما مجرى صغير لماء المطر الذى ينزل إبان الصيف وبخاصة فى ديسمبر ويناير ، أما البيوت فكلها من دور واحد وبالحجارة الثقيلة لا نكاد نرى بها من النوافذ شيئاً ، فهى تحكى بيوت القرون الوسطى تماماً ، ويخيل اليك أنها مجموعة سجون ممتدة ، وكنا نرى معدن الميكا القديم يقوم مقام الزجاج فى بعض مناورها ، وأجملها بيت الحاكم يطل على

الميناء ، والبلدة صغيرة لا يعدو سا كنوها ٧٣٦٥ نفساً منهم ٤٨٦ من البيض و٢٥١ من الهنود والباقون من الزنوج الذين يدين غالبهم بالاسلام ، ولهم جانب من المدينة أقاموا به أخصاصهم المربعة ذات السقوف المنحدرة بالقش والطين والغاب ، وكم يروقك منظر السيدات وهن يسرن فى ملاءات خفيفة من أسفل الجسد إلى وسط الصدر فى وجوه منكرة يزيدها قبحاً أن الكثير منهن يلطخن الوجه كله بعجين أبيض بحيث لا ترى منه إلا عينين براقتين وتلك آية التجمل لديهم ، والسيدة إذا سارت بدا تقوسها فى انتفاخ عجزها إلى الوراء وصدرها الكاعب إلى الأمام فى شكل مضحك ، أما الطرق الرئيسية فلا تكاد ترى بها مارة قط ، فاذا ما أطلت النظر فى الأبواب المفتحة بدا فى داخلها المظلم حانوت به بعض المعروضات الضئيلة ، والمدينة ظلت عاصمة أملاك البرتغال زمناً طويلا ، والأقليم الذى خلفها خصيب بالذرة والفول (السودانى) والسمسم والتابيوكا والبن ، وظلت السفينة تحمل وسقها من الفول والسمسم والكبرا ، ويزمع مد خط حديدى منها إلى نياسالاند التى تعد إحدى منافذها الطبيعية ، وهى وإن قلت أهميتها اليوم عن ذى قبل إلا أنها هامة من الوجهة التجارية ففيها تجمع غلات البلاد المجاورة بواسطة خفاف السفن التى يمتلكها الأعراب وتسمى (داو) ، ومن هنا تصدره إلى الخارج ، قمنا نشق بوغاز موزمبيق إلى :

بيرا : فوصلناها فى يوم واحد ، ، وكان جو يومنا مضطرباً عاصفاً مطيراً وقبل أن تبدو بيرا بساعات تغير لون ماء المحيط فأضحى عكراً كأنه ماء النيل إبان الفيضان ، وذلك من أثر نهر الزمبيزى الزاخر ورغم بعد بيرا عن مصبه بنحو مائة ميل سبب ماؤه حدوث تيارات قاسية تجتاح المدينة ، إلى ذلك فإن المدينة تقع قرب مصب نهرين صغيرين (Pungwee من الشمال و Buzi من الجنوب) ولقد انتظرنا دليل الميناء ونحن نبعد عنها بنحو ١٨ ميلا مما يدل على أن مدخل الميناء ضحل قليل الغور ، وقد عانينا كثيراً و نحن نرسو إلى رصيف

الميناء ، ولما غاص الماء إبان الجزر هوت السفينة حتى استقرت على الأوحال فادهشني ذلك لكن علمت أن بعض السفن مبسوطة من أسفلها وليست مثلثة



أحد مساجد كولمبو فى جزيرة سرنديب

كما كنت أعتقد فلا ضير أن تستقر السفينة على قاعها ، وفى الأصيل علا المد فجاوز ١٨ قدماً وهذا المد العالى الذى يدرك المدينة هو سر شهرتها التجارية وإن كانت الجرافات دائبة على تطهيرها من الرواسب ، دخلنا المدينة فبدأنا نسمع البرتغالية يتكلمها غالب البيض ، أما لغة السود فلهجة أخرى تقرب من السواحلية ، وقد لاحظنا فى وجوه السود تغيراً : فاللون أسود والشعر أمعن فى التجعد والقامات أخذت فى الطول ، والبيوت مبعثرة فى غير نظام وكلها من دور واحد ، إلا شارع هو آية فى التنسيق له أرصفة بالأسمنت ، وعلى الجانبين تقوم الأشجار ومجار المطر تطمر بالرمل ، ثم إطار ضيق للراجلين ، وأجمل ما به بيوت فى فلات أنيقة تقوم على عمد أو شباك من قوائم الأسمنت والآجر ، وعليها طابق واحد متحدر السقوف تغشاها شباك السلك الدقيق اتقاء البعوض ذلك لأن المدينة تقع فى بقعة وطيئة تكثر من حولها الأوحال والمناقع ،

ويؤمها بعوض الملاريا ، وكثير من البيوت يبنى بألواح الصاج المجزع أو من الخشب ، وبها خط لسيارات الأمنيبوس وقد كان بها ترام ولكنه أوقف لقلة دخله ، والهنود هناك أقل ظهوراً منهم فى البلدان السابقة ، والبوليس من الزنوج يلبسون فوق الرأس قلنسوة مطوطة توضع على جانب من الرأس وهم حفاة الأقدام .

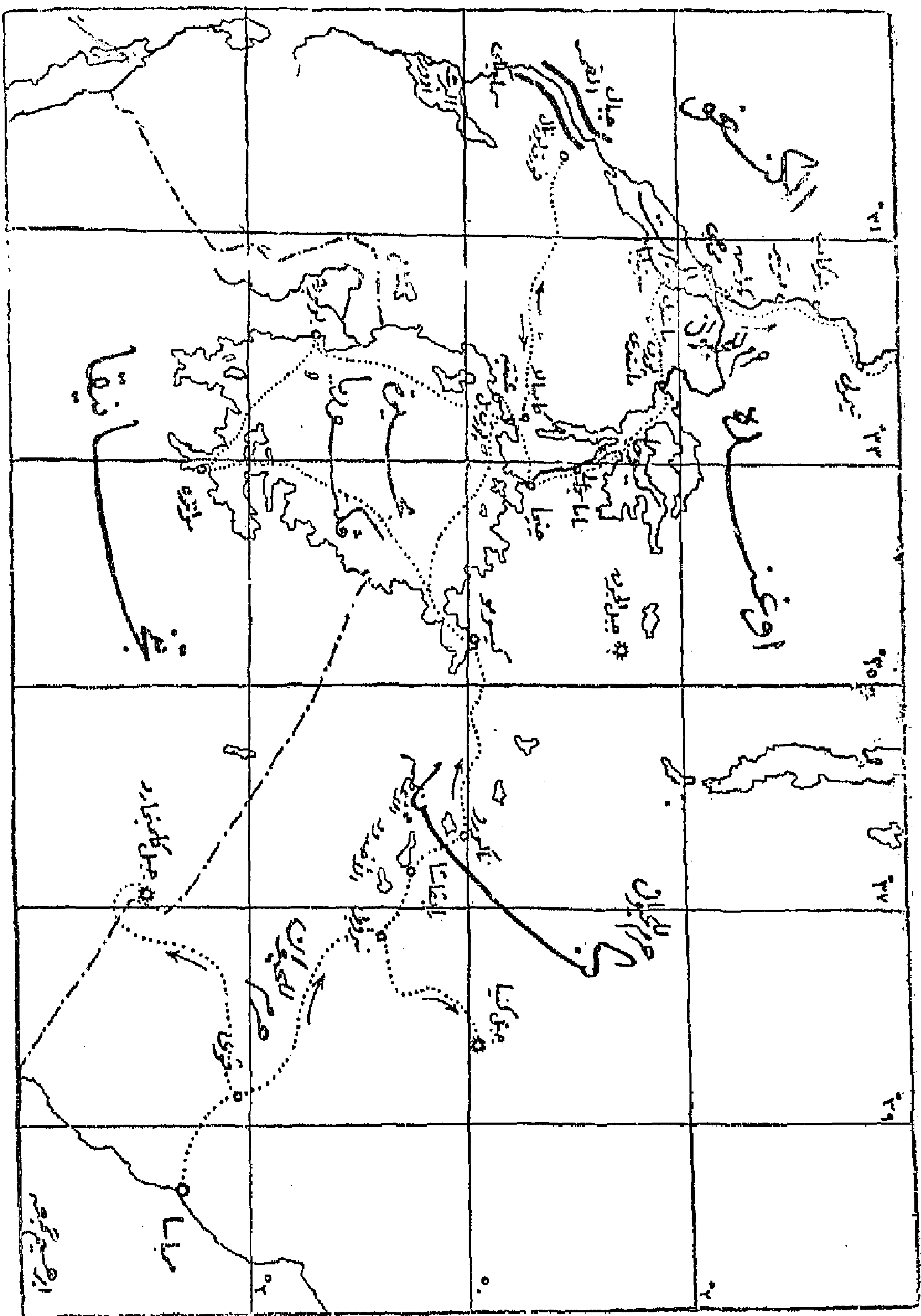
والغذاء القومى هناك مزيج من مدشوش الذرة يطبخ كالأرز المسلوق وقد تقطع عليه شظايا سمك نيء أو مقدد ، ويأكله القوم بشكل تعافه الأعين ويسمونه (Milipapa) وسكان المدينة حول ١٦ ألفاً ، منهم فوق الألفين من البيض ، وأقل من ذلك من الهنود ، وكثير من السود يقومون بزراعة الأراضى الداخلية خصوصاً التى تنتج المطاط والقصب والذرة ، ولا تزال طريقة البرتغال سائدة وهى أن يمتلكوا الأرض جميعها ويكلف السود بفلحها ، لكنهم بدأوا يرون أن الطريقة الانجليزية فى تمليك الأراضى للأهلين وتكليفهم بخدمتها مقابل ضرائب يدفعونها هى خير وأعود بالنفع ، وميناء بيرا عظيمة ، حركتها التجارية لا تخبو ولا يقل عدد السفن التى تدخلها عن ٦٥٠ حمولتها فوق ثلاثة ملايين طن ، وهى تعد مفتاح رودسيا كلها ، تلك البلاد الشاسعة عديمة السواحل ، وتصلها بسلزبرى عاصمة رودسيا سكة حديدية .

قمنا عصر الجمعة إلى الجنوب ، وبعد ساعتين بدت على بعد إلى يميننا قرية سوفالا التاريخية القديمة التى كانت آخر محاط العرب قديما ، ويزعم البعض أنها الفاصل بين الشرق والغرب ، إذ النفوذ الأوروبى سائد بعد ذلك إلى أقصى إفريقية جنوباً ، أما فى كل ما سبق من سواحل إفريقية فالأثر العربى لا يزال سائداً رغم خروج تلك البلاد من أيدى العرب .

بلاد كنيا

عود إلى ممباسا : ركبت البحر عائداً من حيث جئت ، ولما أن حللت ممباسا قمت بقطار (البضاعة) أخترق قلب بلاد كنيا ، ولم يوافق يومى يوم قطار للمسافرين (mail) وذلك يقوم مرتين فى كل أسبوع ، وفى كل يوم عدا هذين قطار للبضاعة تلحق به عربة أو اثنتان للمسافرين .

أخذ القطار يسير بنا وسط جنة من النبت الوفير والشجر الكثيف ، وكان أظهره النرجيل والمانجو ، وبعد مسيرة خمسة عشر ميلا وهى عرض السهل الشرقى الساحلى الوطىء ، أخذنا فى الصعود السريع فى ليات عجيبة ، وبين آونة وأخرى كانت تنكشف وهاد مغضنة وفيرة النبت عديدة النقائع مشعبة المسايل فى مشاهد خلابة حتى أقبل الليل ، وكان كلما تقدم القطار قل النبت فصار عشباً ، وفى الصباح كنا نسير فوق هضبة شبه مجدبة شتان بينها وبين المنحدر الساحلى الذى كان بالأمس غنياً بالشجر ، وكاد الشجر ينعدم فى تلك البرية شبه الصحراوية إلا فى شجيرات نصف شائكة والأرض يكسوها كلأ جاف ، لذلك يسميها الأهلون (Nyika) ومعناها البرارى ، وأجف جهاتها قطعة وسطها تسمى تارو (Taru) ، وزاد الاقليم جفافاً أنا كنا نجوزه إبان موسم الجفاف الذى يكاد ينعدم مطره ، والمحاط صغيرة ونائية عن بعضها والجهة تكاد تخلو من الأهلين اللهم إلا جمهرة من السود كانوا يفدون إلينا كلما وقف القطار من أكواخهم المنثورة وكانوا فرحين كأنهم وجدوا بعض الأنس فى ضوضاء القطار ، ويختلط بهم كثير من الهنود الذين يكونون السواد الأعظم من موظفى المحاط والقطر ، والكل يتكلم السواحلية التى يفهمها الجميع وإن كان لكل قبيلة لهجة خاصة لا تفهمها جارتها فالسواحلية أصبحت لغة التفاهم (Lingua Franca) وهنا فاجأتنا



رحلتنا في كينيا وأوغندة

سحابة كثيفة من الجراد الذى يغير على الاقليم منذ ست سنين ويهدد المزارع وطالما فتك بأنتاجها ، وكثير من الأهلين عرايا إلا فى إزار فضفاض من الجلد وبيدهم القسى والسهام وإلى جانبهم الخناجر الكبيرة على فطرتهم الأولى ، أما الجو فكان أميل إلى البرودة وبخاصة فى الليل وبا كورة الصباح إذ حاكى شتاء مصر تماماً ، رغم أنا كنا نقارب خط الاستواء قلب المنطقة الحارة ، وذلك من أثر الارتفاع الذى كان يناهز خمسة آلاف قدم وكانت السماء صافية مكنتنا أن نمتع البصر بمشهد :

جبل كلمانجارو : أعلى ذرى إفريقية جميعاً يشمخ فى السماء إلى ١٩٧١٠ قدم تتوجه عمامة من الثلج الوضاء

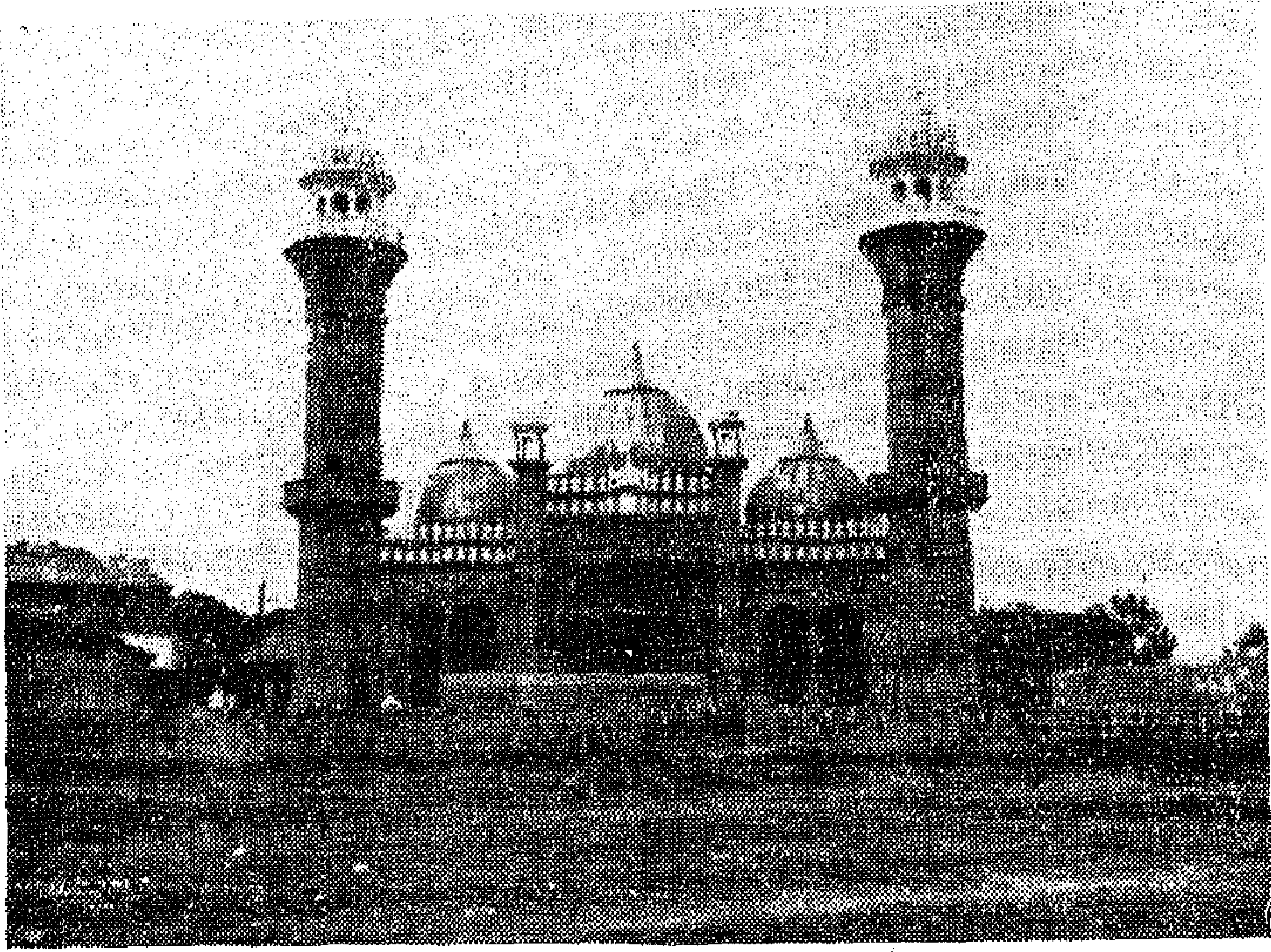
واصل القطار بنا سيره فى قلب كنيا ، وما لبث أن وقع البصر على جماهير من الحيوان البرى فى أنواع مختلفة وقطعان لا تدخل تحت حصر ذات اليمين وذات الشمال تعرفت من بينها الزبرا والزراف والتياتل والنعام . هنا علمت أنا نجانب أكبر حرم للحيوان فى الدنيا (Game Reserve) لا بل أكبر حديقة طبيعية للحيوان يحرم القانون صيد الحيوان أو قتله داخل حدوده ، ولقد كان شريط سكة الحديد هو الحد بين الحرم إلى اليسار ، والصيد المباح إلى اليمين ، ولبث كذلك زها ثلث الطريق بين ممباسا ونيروبى عاصمة كنيا وجموع الحيوان تبدو قريبة منا فى كثرة هائلة وبعضها كان يسير وراء رئيس كانه القائد وكأن الحيوان قد عرف جرمه فاذا ما أحس قرب القطار ، وكان إلى جانبنا الأيمن خارج الحرم عدا سراعا إلى عبور الخط إلى يسارنا وهناك أبطأ السير ، ثم وقف يرمقنا بنظراته وكأنه أمن شرنا واحتمى فى القانون متحدياً إيانا ونحن نشير إليه بأيدينا فلا يعيرها أهمية ، وليلة الأمس دهم قطارنا زرافة وهى تتخطى القضبان فقتلها ، ووقف لذلك برهه فكنا نرى الجمع الباقى من الزراف يقف آمنا مستأنساً وقد حاولت أخذ صورة شمسية لتلك القطعان لكن كانت تعوزنى (العدسة المقربة) التى يستخدمها هواة الحيوان ،

وقد خبرنى القوم أنهم كثيراً ما رأوا جمعاً من الحيوان يجفل ويولى الأدبار فى ذعر شديد لأنه أبصر بأسد كاسر على بعد منه ، ومن أنواع الحيوان التى لم أرها من قبل : الجاموس والبقر البرى ويسمون نوعا منه جنو ، وآخر أوريبى والهارتبيست وكثير غيرها .

نيروبى : فى ثمانى عشرة ساعة بعد قيامنا من ممباسا وصلنا نيروبى عاصمة مستعمرة كنيا البريطانية ، وهى تقوم فى وهدة تتغضن من حولها التلال ، وهى على علو ٥٤٩٠ قدماً لذلك كان الجو بها بارداً ، وبخاصة لما جنّ الليل حين كنت أشعر برعشة شتاء مصر القارس وأنا فى غرفتى مساء ، وهنا أدركت حقاً أثر الارتفاع فى زيادة الفرق بين حرارتى الليل والنهار ، وأن الليل هو شتاء تلك الأقاليم الاستوائية المرتفعة ، والمدينة لم تكن شيئاً منذ ربع قرن حين كانت مجموعة من أكواخ بائسة ، أما اليوم فهى مدينة ذات مبان فاخرة وطرق معبدة فسيحة تتوسطها المزارع وبجانبها الشجر فى تشذيب جميل ، على أن اختيار موقعها لم يكن موفقاً لأنها عرضة لسيل المطر الذى يهوى إليها من النجاد حولها إبان المطر ، وموسمه هنا مرتان من مايو إلى يوليه ومن أكتوبر إلى ديسمبر حين تصبح البلدة رطبة نزة ، وقيل إن سبب اختيارها أن عاملا زنجيا ممن كانوا يشتغلون فى بناء سكة الحديد كان يحمل قضيباً من حديد ولما وصل تلك البقعة أجهده الحر والتراب ، فألقى به هنا ولما جاءه المهندس قال لا بأس باتخاذ هذا المكان قاعدة لأعمال الشركة ، ومن ثم نشأت المدينة ، مع أن هناك من المرتفعات حولها ما كان أجدر بها وأولى .

قمت بجولة فى أطراف المدينة فأخذت السيارة تعلو فى طرق ملتوية تحتها المزارع والأشجار ، وبخاصة شجر (وتل Wattle) الذى ينزع القوم قشوره وعند ما تجف تقطع شظايا ثم تصدر فى غرائر لاستخراج الأصباغ الحمراء منها ، ثم شجيرات البن التى تغطى مساحات هائلة فى ارتفاع قصير ، وتنمو فى صفوف مسطرة فى دقة وتنسيق فائق ، وحبوب البن تنمو متجاورة

واحدة فواحـــدة على طول الفروع فى حجم النبق ، وفى لون أخضر فاذا ما احمرت جمعت باليد ، وكل ثمرة فى داخلها حبتان متلاصقتان بناحيتيهما



المسجد الرئيسى فى نيروبى عاصمة كنيا بهندسته الهندية

المشقوقتين ، وتتوسط أغلب المزارع مصانع تعده للتصدير وكلها فى أيدى الأوربيين وبخاصة الإنجليز ، ويمتاز بن شرق إفريقية برائحته الزكية القوية ، وهو يزكو فى كنيا على ارتفاع ٦٠٠٠ قدم ، وقد صدر منه سنة ١٩٣٠ فوق ٣١٠ ألف قنطار ومتوسط الصادر بمليون جنيه ، وشجرته تثمر فى سنتين ومرتين كل عام ، ويجنى من كل شجرة بين رطل وثلاثة فى المرة الواحدة ، والشجرة تعمر طويلا ففى نيكاراجوه بأمريكا الوسطى تثمر إلى سن الستين ، وعلى سفوح كلمنجارو يزكو البن العربى الشهير .

وكنا نمر بمساحات شاسعة من الأرض الخصبة ذات التربة الحمراء السميكة وهى وقف على الأهلين لا يباح لغيرهم امتلاكها (Native reserve) شأن كثيرمن أراضى كنيا وكنا نرى أكواخهم المستديرة تتناثر خلالها وهم

يزرعون فيها كل مايحتاجون وبخاصة الذرة ، وهم لايهتمون بالزراعة للبيع والاستغلال لأنهم لا يكادون يعرفون للنقود قيمة إذ كانت حاجياتهم فطيرة محدودة ، والعادة أن تقطعهم الحكومة تلك الأراضي مجانا مقابل دفع ضريبة بسيطة لا على الفدان بل على الكوخ الواحد بمعدل جنيه ونصف فى العام ولما كان الرجل منهم يتزوج أكثر من واحدة — إذ الغالب لا يقل عن خمس نسوة — اضطر أن يدفع الضرائب مضاعفة بقدر ما يمتلك من بيوت وهذا ما يدفع أولادهم إلى العمل لكى يحصلوا على ما يسدون به تلك الضرائب وعلى أمهار زوجاتهم ، وفيما عدا ذلك لا حاجة لهم بالمال ، وقبائل تلك المنطقة يسمون الكيكويو : يسيرون عرايا نساء ورجالا إلا فى إزار من جلد يتدلى من أمام ومن خلاف إلى الركبتين وهو مفتوح الجوانب غير منتظم الاطراف ولا يرون عيبا فى ظهور كل أجزاء الجسد عارية فكأنه أمر طبيعى . وترى النسوة يلبسن فى السيقان الحجال من النحاس أو الفضة فى أساور أو ثعابين قد تبلغ العشرين تحت بعضها أسفل الركبة وعند العرقوبين لغير المتزوجات ، وفى الأذرع دون الأرجل للمتزوجات ويعلقن حلقات ملونة كبيرة من الخرزتحت الأذن ولثقلها ترفع الأذن بشريط من خرز يلف على الجبهة ويربط فى قوف الاذن ليساعدها على حمل تلك الأوزان وشحمة الأذن تخرق وتشحذ فتتسع لحلقة فى حجم الريال الكبير تعلوها أخرى وثالثة أصغر منها ، ثم تخترقها قطع من خشب اسطوانية الشكل إلى ذلك عقود الخرز العدة ، وكثير من الرجال يفعل ذلك أيضاً ، أما الرءوس فتحلق ناعمة وترى النسوة يسرن طوال الطريق وهن يعلقن وراء ظهورهن أحمالا من الحطب أو المتاع أو الأطفال فى قطعة من جلد يرفعها سير يمر بأعلى الجبهة وإلى جانبها يتدلى إناء من جلد به مزيج الذرة وجذور التابيوكا كأنها البطاطا فى طعم لزج كالعجين ، والرجال يحملون الحراب والدروع ، وسلاحهم الرئيسى القسى والسهام المسمومة ، وهم يبردون الأسنان الأمامية

لتبدو مدببة حادة ، ويتخذون أخصاصهم فى أعماق الغابات حتى أنه ليصعب الوصول إليها ، وإن وصلتها تعذر عليك دخولها إلا حبواً وهى مجدولة جدلا جميلا يدل على شيء كثير من حسن الذوق والاستعداد للرقى ، على أنها قذرة جداً يعيش داخلها الناس والقطعان ، وهم زراع لحد كبير ، ويعرفون بين جيرانهم بالغدر والجبن والمكر ، على أنهم مسالمون نشيطون ، وهم يخافون آلة التصوير خصوصاً نساءهم خشية أن يؤثر فيهن سحرها أثراً سيئاً ، وكنت كلما رأيت جمعاً منهن أعرض (الفتوغرافيه) لهن مداعبة فكن يصحن ويولولن ويضطربن فى مرأى مضحك ، وهم كلما شعروا بضعف فى إنتاج أرضهم للذرة والبطاطا لجأوا إلى غابة جديدة فأحرقوها واستنبتوا مكانها حتى أتلفوا مساحات شاسعة من الغابات هناك ، لذلك بدأت تمنع الحكومة ذلك وتعمل على إعادة استنبات الأشجار ؛ والكيكويو وثنيون فى عقائدهم كثيرة الخرافات ، ومن عاداتهم ختان الفتيات دون الذكور وقد سرت منهم تلك العادة إلى الكثير من السود من حدود السودان ، وهم فى الختان لا يكتفون بقطع الزائدتين (الشفرتين) فحسب بل وما حولها ثم يربط الفخذان أياما فيلتحم طرفا الجرح ويسد المكان كله عدا موضع غابة رفيعة توضع وسط الجرح وتحرك قليلا فى كل يوم فاذا اندمل الجرح لم يترك إلا ثقباً ضئيلا هو موضع تلك الغابة ، وعند الزواج يحاول الزوج فضها فتحمل إليه الزوجة فى بيته وأهلها من حولها ، ويحاول الزوج ذلك فان صاحت أخذوها منه إلى بيتهم على أن تعاد فى الليله التالية ، ويعاد ذلك حتى يستطيع فضها ؛ ولا يزال القوم خاضعين لنظام القبيلة وزعماؤهم يقومون بالفصل فى الخصومات بينهم فان عجزوا — وهذا نادر — تدخلت الحكومة فى الأمر .

لبثنا نسير فى تلك الجنة صعداً ومن حولنا المروج والغابات فى أراض مغضنة رائعة المناظر ، ومن بين تلك المنحدرات ما كان يزرع شاياً ، على أنه لا يصادف هناك من النجاح كثيراً ، وأخيراً أدى بنا السير إلى نزل منعزل

فوق ربوة تعلو سبعة آلاف قدم ، هى جنة ساحرة لولا ما كان يحوطها من برد زمهرير يقصدها الكثير للراحة أياماً محدودة ، فان طال المكث أضر بالقلب بسبب خفة ضغط الهواء الذى يعجل بالإجهاد ، لذلك كنا نشعر بالتعب عاجلا كلما سرنا على الأقدام قليلا ، ومن تلك الربوة بدا على بعد جبل :

كنيا : الذى يشمخ فى السماء ١٧,٠٤٠ قدماً وهو ثانى ذرى إفريقية

عدت إلى ناحية أخرى من نيروبى هى مسكن الطبقة الارستقراطية من الهنود ، والهنود هناك كثيرون وبينهم المفرطون فى الغنى وبيدهم غالب المتاجر والوظائف المتوسطة فى مصالح الحكومة وفى الانزال وهم المشرفون على الخدم من السود فى كل مكان ، وأن الانسان ليعجب لنشاط الهنود وسعيهم بعيداً وراء كسب المال وكأنهم اليهود فى الحرص على المال أو جماعة الاغريق فى ريف مصر ، وكلهم مكتنزون للمال لا يكادون ينفقون منه شيئاً لبساطة معيشتهم ، وغالبهم هناك من المسلمين ولذلك أقاموا لهم مسجداً على نظام تاج محل هو آية فى الهندسة والجمال ، والشيعة منهم أقاموا بناء ضخما صفت به المقاعد ، وكأنه المدرسة يفد إليه الصبية كل يوم بين السادسة ومنتصف الثامنة مساء وهم يرتلون بعض أدعية ويصلون ثم ينصرفون ، أما مساكن الاوربيين ففى ضاحية تسمى التل ، تطل على المطار الفسيح ، وإلى جانبها مباشرة حرم الحيوان وقد كنت أرى به آلاف الغزلان والتياتل (هارتبيست وويلدبيست) وغيرها .

المتحف : زرت متحف المدينة ، وهو على صغره قيم فى محتوياته راقنى به مجموعة من الحيوان المحنط وأعجبه دب النمل Ant bear وكأنه القنغر شكلا وحجما ، والسمك ذو الرئة فى طول مترين وكأنه كلب البحر shark ثم مخلفات الانسان من جماجم أسنانها بالغة الضخامة وجباهها متحدرة ، ومقاعد وآلات وآنية من خوص وخشب ، وزينة من أقراط وأساور من

نحاس وخرز وأسلحة من حراب ، وتروس وآلات موسيقية منها طبول منقورة فى جذوع الشجر وقيثارة ذات أوتار بعضها طولى وبعضها عرضى ، و (قانون) من غاب غليظ أجوف يرص متجاوراً وتعلوه سيور الجلد بد الأوتار ، ورباب ومزمار ، كذلك أنخاخ الأرجل من جديلة من خوص تتوسطها عصى مدببة تكاد تتلاقى فى وسط الدائرة فتخز جلد المجرم المعاقب وخزات مستمرة أليمة ، وسفن شراعها من جدائل الخوص ، ثم قسم جيولوجى وآخر نباتى به نماذج من ألواح الخشب على اختلاف صنوفه ، وقرن هو ثمرة شجرة (Entada) طوله متر ونصف وبه أربع عشرة فولة الواحدة فى حجم قطعة الصابون الكبيرة ينمو قرب السواحل الحارة ، وأعجب الكل ثمرة سوداء كأنها خشب الأبنوس فى فلقتين متجاورتين كأنهما قربتان بيضيتان متلاصقتان لونا وحجما ، وشجرتها تنمو فى الشواطىء وبخاصة فى جزائر سيشل وتسمى جوز البحر coco de mer والنخلة تصل مائة قدم وأوراقها عشرين ، والثمر تكاد تكون أكبر ثمار الدنيا حجما تنضج فى عشر سنين ، عثر عليها الكاشفون أولا طافية فى البحر ، والثمرة تؤكل وتصلح لعمل بعض الأدوية . وثم قسم للحشرات من بينها حشرة العصى stick فى طول شبرين وكأنها العصى تماما ، والحشرة المصلية pray تحكى (فرس النبى) تأكل لحوم غيرها وسميت كذلك لأنها ترفع رجليها الأماميتين وكأنها تصلى دائما ومجموعة من فراش بديع ، والمتحف رغم صغره قيم جدير بالزيارة .

الى الأخدود الأعظم : غادرت نيروبى فأخذ القطار يعلو فى صفحة غنية بالمزارع أظهرها البن ، وكلما توغلنا زادت وعورة المنحدر وتعقدت ليات السكة ، ويمكنك تقدير ذلك إذا علمت أننا علونا فى الأميال الخمسة والثلاثين الأولى ألفى قدم ، والقاطرة هنا من ذات المحركين كى تستطيع مغالبة ذاك الصعود . وكان الخط يجانب سلسلة ملتوية تهوى من جوانبها الوديان المختنقة إلى قرار الوهاد المغضنة من دوننا والمناظر من حولنا رائعة ، لبثنا

نعلو والوهاد تنكشف حتى مررنا بمحطة (كيكويو) نسبة إلى حافة الهضبة التى تعلوها ومن يقطنها من قبائل الكيكويو ، هنابدا الانسان على فطرته عارى الجسد فى غير إزار ، كلا ولا ستار للعورة نساء ورجالا اللهم إلا الأغنياء منهم وهؤلاء يلبسون إزاراً من جلد ليس تحته شيء ، وفى تلك المرتفعات متسع للرعاية وبخاصة للبقر والماعز التى كنا نرى منها القطعان الكثيفة والبقر يلفت النظر بلونه القاتم ذى البقع البيضاء وبما يعلو كتفه من سنام ناتىء غليظ ، ولما قاربنا الذروة زادت غابات شجر واتل (Wattle) فى ورقه القاتم المثقب المهفهف ، وزهره الذهبى العطر ذاك الذى تستغل قشوره للأصباغ وخشبه للوقود وكثير من قاطرات سكة الحديد تحرقه بدل الفحم ، ويقولون إن الاقليم كانت تسده الغابات والأحراش منذ ربع قرن ، فقطعت وزرع هذا الشجر مكانها ، وحيث تبدو التربة الحمراء السميكة تقوم منابت الذرة ، أخيرا وصلنا إلى الذروة فى محطة (Upland) على علو ثمانية آلاف قدم . وما كاد القطار يبرحها حتى شعرنا بأنه ينزل ذاك المرتفع عاجلا ، وهنا باغتنا منظر أذهل الفؤاد روعته إذ تكشف من دوننا :

الأخدود الأعظم : (Great Rift Valley) فى مشهد سيظل يشغل من الفكر حيزاً لا تمحوه السنون فلعله أروع مشاهد إفريقية على الاطلاق هنا بدا الوادى المغضن الفسيح فى هوة لا تكاد تدرك العين قرارها ذاك القرار الذى كان ينأى من دوننا بألفى قدم ، فكانت تبدو وديانه المختلفة اللانهائية تتلوى وسط الربى المخروطية إلى قصارى مسارح النظر ، منظر دونه المناظر التى رأيتها فى سويسرا واسكندناوه وجبال الهملايا ، وقد زاد المكان جمالا أبناؤه الأبرار الذين لم تمسسهم مساوىء المدنية من الإنسان الهمجى عارى البدن وطوائف الحيوان الوحشى التى كنا نمر جوارها وبخاصة أسراب النعام والتيتل والزبرا (حمار الوحش) بديع النقش ذاك الذى كانت جموعه تسير فى مئات ترعى وجميع رءوسها فى اتجاه واحد وفق عادتها . ظل القطار

يهوى فتستبين تلك الربى الناتئة وما جاورها من أكواخ مكورة ساذجة . وكل تلك الربى مخاريط لبراكين خامدة كانت ثائرة غاضبة يوم أن التوى سطح الأرض وانفطر فخلف ذلك الأخدود الهائل الذي يمتد من موزمبيق وبحيرة نياسا جنوبا إلى البحر الأحمر فالبحر الميت فى فلسطين شمالا أعنى مسافة ذرعها خمسة آلاف ميل وهو يبدو واضحاً بين الحافتين المشرفتين : كيكويو إلى الشرق وماو إلى الغرب ، وسعة مابينهما ١٢٨ ميلا ، ويقولون إن سبيلنا هذا خلاله بواسطة سكة حديد كنيا هى خير بقاع الأخدود روعة وجمالا ، أخيراً أدى بنا الهبوط إلى مشهد سلسلة من البحيرات تطوقها حافات المخاريط البركانية القديمة ، ومن أسماها مكاناً (لونجونوت) الذى يعلو ٩٠٠٠ قدم ، وتتسع فتحته إلى ميلين ونصف وهى غائرة العمق تكاد تسدها الغابات وتتخللها شقوق تصعد غازات سامة ، ومن ورائه تبدو سلسلة من بحيرات أهمها ماجادا ونايفاشا وناترون والمنتايتا وناكور وبارنجو .

وبعـــد أن جزنا محطة (لنجونوت) وبحيراتها وبركانها بدت نايفاشا (١٢½ × ١٥ ميلا) فى شكل هلال تتوسطه جزيرة هلالية هى ناحية من شفة ذاك المخروط البركانى الهابط ، وهنا كثر الطير والزبرا وأفراس الماء بشكل استرعى أنظارنا ، وكانت منحدراتها تكسى بمزارع السيسال ، وفى سبع ساعات دخلنا بلدة ناكور فى قرار الأخدود الأعظم ، هنا استرحت يوما كاملا فى بطن ذاك الوادى الفذ الأوحد ، والمدينة بجوها المنعش البارد الصحى مزار لطلاب الراحة والاستشفاء ، إذ يبلغ ارتفاعها ٦٠٠٠ قدم أو يزيد قليلا وهى قرية صغيرة بها طريقان رئيسيان متقاطعان تصف عليهما الحوانيت والمساكن الوطنية ذات الطابق الواحد والسقوف المنحدرة ، وكلها من صفائح الزنك وحول نصف أهلها وتجارها من الهنود ، وأحد هذين الطريقين يؤدى بنا هبوطا إلى بحيرة آسنة صغيرة تحوطها عدة ربى بركانية ويحف بمدرجاتها الرملية كثيف الدغل وبعض الشجر المنثور ، وفيها كثير

من الطير ودابة الماء ، وقد تسلقت بعض تلك الربى فبدا منظر البحيرة منهـا رائعا على أن البعوض مختلف الحجم كان يحوطنى أينما سرت فى سحائب مخيفة والمدينة تطوقها حافة بركان (Menengai) قطر فوهته ٨½ ميلا ، ومن ورائها يمتد بطن الأخدود الأعظم شمالا وجنوبا فى سهول مترامية تعوزها الفلاحة ووسائل الرى كى تغل نتاجاً وفيرا .

الى فكتوريا نيانزا : برح القطار ناكورو وأخذ يصعد الجانب الغربى للأخدود ، وكان الصعود سريعا ، إذ بلغنا القمة بعد ٤٣ ميلا ، علونا خلالها ٢٢٥١ قدم فوق ناكور ، وكانت ليات السكة متعددة ، والربى المنثورة يعلو بعضها البعض ، تكسوها الغابات القاتمة ، وهنا وهناك كنا نرى بقاعاً شاسعة زرعها ذووها ؛ على أن هذا الجانب رغم ثروته بالنبت وكثرة المسايل المائية التى تسيل بالماء إبان المطر ، أندر سكانا ، والمناظر أقل روعة ، ومعابر سكة الحديد هنا بلغت ٢٧ فى قناطر ملتوية شاهقة ، تشهد لأولئك الجبابرة الذين أقاموا الخط مغالبين الطبيعة ووعورتهـا ، وهنا شعبة لسكة الحديد تعبر خط الاستواء ثلاث مرات فى طيات متعاقبة . عبرنا (حافة ماو) ، ثم أخذنا نهوى سراعاً إلى السهول المؤدية إلى فكتوريا نيانزا ، وفى خمسين ميلا هبطنا ٣٧٠٠ قدم ، ولن أنسى زمهرير البرد خصوصا لمـا أقبل المسـاء ، فقد كادت قدماى تجمدان ، وكان البرد يفوق ليالى شتاء مصر ، والعجب أننـا كنا فوق خط الاستواء تماماً ، لكن هو الارتفاع الذى هبط بالحرارة إلى ذاك المدى البعيد . على أنا شعرنا بزيادة الدفء عاجلا لما أن أخذنا فى ذاك الهبوط ، ولقد انتقلنا إلى جو حار تماماً لما بلغنا كيسومو على البحيرة ، وأخذت السهول تنفسح وتنأى الربى كلما هبطنا ، وغالبها يرى يكسوه العشب والشجر إلا فى بقع نادرة من نبات الذرة تجانبها جمهرة من مساكن القوم ، وفى ظنى أن مستقبل تلك المتسعات وقف على الفلاحة والزراعة ، إذا ما زودت بوسائل الرى والأيدى العاملة ، وإقليم كينيا

رغم غناه المفرط فى خصب التربة ، ووفرة المطر ، وكثافة النبت ، نادر السكان ، ولعل أغنى بقاعه بالنبت والخصب الأخدود الأعظم ، لذلك كنا نرى كثيراً من المساكن تجاور المحاط على خلاف الهضبة بين ممباسا ونيروبى التى كانت موحشة خالية من الأهلين ، وكان نصيبنا من الحيوان الوحشى هنا قليلا .

دخلنا كيسومو : فتجلت مياه فكتوريا على بعد فى لونها الفضى ، وامتدادها الرهيب ، ووقف القطار إلى جانب السفينة (Clement Hill) والمدينة قرية صغيرة، بها طريقان واضحان ، عليهما الدور والحوانيت ، وغالب أزقتها تطل على البحيرة فى انحدار لأنها تقع على احدى ربى خليج (كافروندو) وهو شعبة من البحيرة كأنه رأس الحيوان تحف به من جميع نواحيه نجاد مغضنة ، والمدينة قد فقدت اليوم شيئاً من شهرتها التجارية ، لما أن فتح الطريق الحديدى إلى جنجا وكامبالا رأسا ، على أنها لا تزال المرسى الرئيسى لبواخر البحيرة التى نقلت قطعها بسكة الحديد وركبت فى حظائرها التى تعد أعلى مراسى للسفن فى الدنيا ، وأول باخرة وصلت فكتوريا أرسلت قطعاً لا يزيد وزن الواحدة على قنطار ، نقلت كلها على كواهل الناس من ممباسا مسافة ٦٠٠ ميل ، وكانت حمولتها ٦٨ طناً ، فتصور مبلغ المشقة والنفقات إلى هذا الأخطار التى تعرضت لها القافلة من الوحوش والقحط ونضوب الغذاء .

وقد كانت السفينة تحمل وسقها من الأغنام والخنازير ومنتجات الألبان ، والمدينة تموج فى المساء بأسراب حيوان اسمه (Impala) كالغزال الصغير تسير قطعانه بجانب المارة كأنها مستأنسة ، ويواسى بعضها البعض ، وحدث مرة أن ضرب واحد منها فجرح وفر ، وعدا معه اثنان إلى جانبه ليعاوناه على المسير. هنا بدا الأهلون من قبائل كافرندو أبعد عن الهمجية التى لمسناها فى سكان الأخدود ، يلبسون الأردية فى جلابيب فضفاضة من قطن ولا يكثرون من التزين بالمعادن والخرز وهم أقوياء بواسل ومستمد رئيسى للعمال وهم من أكثر

الهمج عفة يحكمهم زعماء أشداء وعديدهم يناهز المليون ، والضباط والبوليس يلبسون الطربوش الأحمر تتدلى منه خصلته الثقيلة .

فكتوريا : قمنا إلى أوغندا نشق عباب مياه خليج كافرندو الذى ظلت شواطئه تبدو فى سلاسل جبلية وطيئة تكسوها خضرة خفيفة ، وكان لون الماء عكراً زيتياً تشوبه حمرة خفيفة كأنه ماء النيل إبان الفيض .

ولقد كان الجو صحوا والشمس محرقة والحر قائظاً ، ولما أن تحركت الباخرة أنعشنا نسيم البحيرة البليل ولبثنا نشق خليج كافرندو زهاء خمس ساعات (٥٠ ميلا) وقبيل المنفذ أخذت المخاريط الخامدة الصغيرة تتقارب حتى خيل إلينا أن البحر مغلق لا منفذ له لكن ما لبثت تلك المخاريط تنشق إلى جزائر جرانيتية صغيرة يتلوى الماء خلالها وهى جميعها تكسوها خضرة لا يكاد يستقيم لها عود ، وقد بدا للخليج منفذان رئيسيان مختنقان سلكنا سبيلنا إلى الأيمن بين منثور الجزيرات الساحرة ، وما كدنا نجوز آخرتها حتى دخلنا بحر (النيانزا) المائج الخضم الذى غابت عنا شواطئه وصفا ماؤه فى خضرة زيتية مستملحة ، وهنا فقط كان الفرق بينه وبين المحيط بمائه الصافى الزرقة . وقفت أجيل النظر فى تلك العظمة وشعرت بالغبطة الكاملة حيث تحقق حلم كنت أحسبه خيالا بعيد النوال هو أن أرى فكتوريا نيانزا التى ندين لها بروحنا وحياتنا لأنها المنبع الثابت لنيلنا الخالد العتيد، وما كان أحلى مغرب الشمس وقد صوبت إليها رياشها الذهبية من خلال كومات السحب وقبل أن تنفذ إلى الصميم منا دفعتها صفحة الماء عاكسة إياها فى توهج يسحر اللب ، وما كادت تغرب الشمس حتى انطفأت تلك الألوان الجذابة وخيم الظلام الرهيب شأن سائر البلاد الاستوائية التى ينطفىء فيها ضوء الشفق عاجلا ولقد أنصف القوم فى تسميتها (نيانزا) ومعناها البحر فهى ٢٥٠ × ١٥٠ ميلا أو ٦٨٠٠٠ ك م٢ تطوفها الباخرة فى خمسة أيام كاملة وهى تغاير سائر البحيرات فى أن شواطئها مدرجة وليست مشرفة تكسوها الخضرة التى تعرفنا

من نباتها البردى والبشنين ، وإذا ما هاجت وغضب ماؤها اقتلع منها كتلا كنا نراها طافية .

استقبلنا مشرق الشمس بألوانه القانية الجميلة (وپورت بل) قبالتنا وهى ثغر صغير أقيم على البحيرة ليصلها بمدينة (كامپالا) العاصمة التجارية لأوغندا وهى ليست مدينة بل مجموعة مراسى وأرصفة عليها أشرطة سكة الحديد التى تمتد سبعة أميال إلى كامپالا .

هنا انتقلنا إلى القطار فسار بنا وسط مدرجات فكتوريا التى كان يكسوها البردى والغاب والقصب الكثيف ويغطى أجوان البحيرة العديدة أطباق البشنين ونوره الكبير ، وكنا بين آونة وأخرى نبصر بجمهرة من الأكواخ زرع القوم حولها بعض الخضر وأشجار الموز حتى وصلنا محطة كامپالا .

كامپالا : أخذت أصعد فى طريق ملتوية أدت بى إلى النزل فنظرت من حوله وإذا الوهاد والنجاد لا حصر لها تكسوها جميعاً الغابات والأحراش وتتناثر عليها المبانى الحديثة فى سقوفها المتحدرة من صفائح الزنك والكل فى طابق واحد ، وفوق ذروة كل ربوة بناء شامخ ، والمنظر حول كامپالا ينم عن مناظر أوغندا كلها تلك التى أطلق عليها ستانلى (لؤلؤة افريقية) فهى مجموعة من تلال مجدبة ذراها مسطحة بينها وديان تسدها الخضرة وتفاجئك المياه بكثرة وعلى غير انتظار ، والمدينة مقامة على سبعة تلال كما بنيت روما لكنها أبعد جمالا وأغنى روعة تتصل كلها بطرق ملتوية تهوى تارة وتصعد أخرى إلى مئات الاميال فى رصف بديع وهى تشق جزءا من افريقية كان الى أمد قريب مجهولا مغلقاً ، ارتقيت أعلى تلك التلال واسمه تل ناميرمبى Namirembi ومعناه تل السلام تتوجه الكاتدرائية الانجليزية وفيها أقيمت أول صلاة مسيحية هناك سنة ١٨٧٧ ودمرت تماما بعاصفة سنة ١٨٩٤ ، ثم جددت بعد عام لكن السماء الغاضبة نسفتها بعاصفة سنة ١٩٠٠ والكنيسة الفاخرة الحالية أتمت سنة ١٩١٩ ، والى مقربة من المكان (تل كاسوبى) تتوجه المدافن الملكية

وأروع ما رأيت منها مقبرة الملك (موتيزا Mutesa) وابنه الماجن (موانجا Mwanga) والد الملك الحالى وبجوار المدفن الطبل الاعظم (موچا جازو) الذى كان يدقه رئيس الجلادين (موتا مانياج) كلما أرادت آلهة القبيلة (لوبارى) الفظيعة بعض الذبائح البشرية (كيوندا Kiwenda) طوع عادتها الدموية القاسية ، والمدخل قبو يحوطه سور من جدل الغاب الانيق تتوسطه ردهة مستديرة تقوم حولها مساكن الحراس ، وفى المقدمة المدفن وهو كوخ فاخر مستدير ، يقوم على عدة عمد مزركشة ، ومن جذوع الشجر وفى قراره المقبرة تصف عليها الحراب البراقة والى يمينه مدفن ابنه موانجا والى جوار حظائر المدفن مسكن أخت (موتيزا) وحاشيتها فى أكواخ كبيرة تحوطها أسوار الغاب ، ولم خضبت أرجاء هذا التل دماء الابرياء من بنى الانسان ، وكانوا يقدمون زرافات كقرابين فى عهد ذاك الطاغية .

ومن تلال كامپالا السبعة تل (منجو Mengo) مقر الحكومة الوطنية وموطن الكاباكا (الملك) ، وكان الطريق الرئيسى المؤدى إلى القصر يتدرج علواً إلى المدخل الرئيسى تجانبه الخضرة والأشجار المشذبة ، ويطوق التل كله سور شاهق من جدائل الغاب والقصب متقن الصنع أيما اتقان ، وعلى الباب يقف الجندى (أسكرى) ، وإلى داخله تقوم المبانى يميناً وشمالا بعضها حديث النظام والبعض أقبية وأخصاص عادية وتلك دور الحكومة ، وفى الوسط يقوم القصر الملكى وهو قصر حديث البناء ، وأمام بابه توقد نار لا يخمد أوارها إلا يوم يموت الملك ، وكانت تزجيها الذبائح البشرية منذ نصف قرن ، وإلى جوارها رأينا طبولا تدق على الدوام إعلاناً وإرهاباً ، ويقطن القصر الملك الوطنى السير دودى تشوا (Daudi Chwa) سليل ملوك باجندا وخلف القصر بركة تغص بالتماسيح التى كان غذاؤها لحوم المجرمين الذين كانوا يلقون فيها أحياء ، وعلى ربوة من تل كامپالا نفسها . زرت متحفا صغيراً أقيم فى مكان الحصن الذى بناه (لوجارد) ورفع عليه العلم البريطانى لأول

مرة سنة ١٨٩٠ ، هنا ذهب خيالى إلى عهد أمين باشا والعلم المصرى الذى ظل يرفرف فوق المكان طويلا ، ولولا غدر الزمان للبث هناك إلى يومنا هذا .

أما المتحف فصغير يحوى بعض مخلفات أوغندا من دروع وتروس من الخوص والجلد ، وأسلحة من حراب وقسى وطبول وأدوات موسيقية ساذجة وبعض زينة المحاربين وما إليها ، وبجوار السجن تقيم عجوز شمطاء هى ساحرة شهيرة إسمها مووواموزا كانت فى مقاطعة كيجيزى قرب حدود الكنغو ولكثرة ما سببت من شغب وإرهاب نفتها الحكومة إلى هنا ، وهى تخصص لها ولخدمها وأتباعها من حولها رواتب شهرية ، بها تعيش فى رخاء ، وذلك اتقاء شرها وسيطرتها على أذهان السذج من دهماء العبيد .

وكامپالا هى العاصمة التجارية لأوغندا ، أما العاصمة السياسية فهى :

عنتبة : (ومعنى الكلمة الكرسى) فهى تشرف على البحيرة بثلاث شعاب كأنها الكرسى ، وهى مدينة فاخرة آية فى التأنق على أنها صغيرة جداً ويكاد يكون كل قاطنيها من كبار الموظفين الأجانب وتسترعى النظر بها متنزهاتها اللانهائية وحديقة للنبات هائلة بها جل فصائل الشجر والزهر وبخاصة الاستوائى ، وقد وصلناها بالسيارات من كامپالا فى أقل من ساعتين وكامپالا تعلو البحر بنحو ٣٩٠٠ قدم والجو فيها جميل جداً أميل إلى البرودة والسماء صافية فى العادة قبل الظهر أما بعده فتكاد تحجبها الغيوم التى كثيراً ما تهمى وابلا ، أذكر منها عاصفة عاتية ظلت ساعة كاملة والماء يتهاطل كأنه من أفواه القرب وكان ضجيجه إلى جانب قصف الرعد مرعباً مزعجا مما جعلنى أفهم معنى الأمطار الاستوائية مع أنى كنت هناك فى غير موسم المطر والاقليم يشعرك بعظمة الغابات أينما طوحت ببصرك ، أما الطيور بديعة اللون فلا تحصى ولا تخبو زقزقتها وتغريدها لا ليلا ولا نهاراً ، وفى المساء وسط ظلمة المدينة الحالكة ترى الخضرة تنتشر فيها نجيمات تتلألآ وتنطفىء فى

كثرة هائلة وهى اليراعة الطائرة (fire fly) التى أزعجتنى أيما إزعاج لأول مرة رأيتها وكنت فى الطريق وحيداً حينما لاحظت عدداً منها فوق قمة أحد تلال النمل وما كدت أقاربها لأعرف ما هى حتى هبت منها عاصفة فى وجهى وكأنها نار قد انفجرت .

والأهلون من السود يتجمع غالبهم حول تل منجو مقر الملك وغالبهم من شعوب (الباجندا) يلبس كثير منهم أردية بسيطة من قشر شجرة اسمها (Bark cloth tree) ينزعون قشرها الليفى بعناية ، ثم تنقع قطعه فى الماء وتنشر وتدق بالمطارق حتى تصبح ناعمة طرية خفيفة ، والشجرة منتشرة فى كل أوغندا ، وأعجب مافيها أنك إذا قطعت جذعا ودفنته فى الأرض ينمو شجرة بمجرد نزول المطر عليه ، وإذا سلخ الجلد وجب تغطية الجذع بورق الموز وقاية له حتى يظهر الجلد من جديد وجلد المرة الثانية أدق أليافاً وأكثر نعومة وجودة من جلد الدفعة الأولى ، وقد بدأوا يلبسون اليوم جلابيب القطن ، والباجندا هؤلاء أهل جد وذكاء وكبرياء ، يفاخرون بأن منشآتهم سابقة للانجليز الذين لم يزيدوا على نظمهم فى إدارة البلاد شيئا ، وقد كانوا طعمة لتجار الرقيق قديما أكثر من غيرهم ، ويمتاز الواحد منهم على أهل كنيا بأنه منتج وأنه سيد نفسه فى مزارعه ويرجى على يديه تقدم زراعى خصوصاً فى القطن وأوغندا تعد ثالثة بلاد الامبراطورية البريطانية فى انتاجه ، وهم أسرع من غيرهم فى التمدين ، بدأوا يلبسون الملابس الافرنجية ويعبدون الطرق وينظفون المساكن ويركبون الدراجات التى كنت أراها مطية الجميع فى مزارعهم وأكواخهم من الخوص والغاب والطين ، بعضها مربع والبعض مستدير ، وغالبهم لايدين بدين خاص، إلا أن أثر المبشرين المسيحيين واضح جداً فهم أول من حل البلاد من الأوربيين ، دائبون على الدعاية الدينية ، وقد ضموا لهم طائفة كبرى من السود الذين كنت أراهم يسيرون والصليب الفضى يتدلى من صدورهم ، ومئات منهم يؤمون الكنائس يوم الآحاد ، أما المسلمون

فقليلون إلا من الهنود الذين يحتكرون المتاجر ويحلون أكبر أحياء المدينة ، وللقوم لغتهم الخاصة ، على أن السواحلية لاتزال لغة التعارف بين المتنورين من القبائل المختلفة .

هذا وجمال الطبيعة حول كامپالا يأخذ باللب ، طفقت أتجول كل يوم سيراً على الأقدام خلال تلك النجاد والوهاد تطربني أصوات الطيور وتقرعيني بألوانها إلى الآلاف المؤلفة من الزهور فوق الشجر ووسط الكلأ لا يحصيها العد ، وتطير حولها مجاميع الفراش كبير الحجم ، وعجيب أني كنت أرى كل فراشة لا تحط إلا فوق زهرة تحكيها لونا ، وقد كنت أقصد ازعاجها فتطير ثم تعود إلى زهرها دون أن تخطىء ، وكان الطير يفعل ذلك إلى حد ما ، وكم كنت أحاول ترك الطريق المعبد لأشق الأحراش والغابات اختزالا فتخونني لياتها وأظل أسير فلا أهتدي إلى غاية ، كلا ولا أعرف حتى المكان الذي طرقته ، أذكر ليلة أني خرجت عصراً صوب تل الملك فأوغلت في الغاب ظنا مني أني أستطيع تحكيم ملكة الاتجاه ، فما لبثت أن ضللت وسط تلك الغابات الرهيبة الموحشة إلى الثانية صباحا أعني الليل كله تقريبا ، حتى فاجأتني ناعورة سيارة سلكت سبيلي جرياً إليها وإذا بي في طريق شق خلال الغابات ولن أنسى مبلغ الذعر كلما سمعت حركة وأنا جالس أستريح في وحشة الليل الرهيبة على أني علمت بعد أن الوحوش والحشرات قد قلت هناك جداً لقرب الغابات من مواطن الانسان .

أما الأهلون فشديدو الملاحظة يتعرفون طريقهم حتى وسط الشجر الكثيف .

وكان النساء نشيطات في الزراعة يتعهدن الموز والبطاطا والتابيوكا وكلهن يلبسن الملاءات الملونة تدثر الجسم كله من أسفل الصدر أما ما فوق ذلك فعار ، ويسترعي النظر الحزام الذي يلف من فوق العجز إلى ما تحت السرة وهو مدلى من الأمام فيساعد على انبعاج الصدر والبطن إلى الأمام وانتفاخ

العجز إلى الوراء فتبدو السيدة مضحكة فى مشيتها خصوصاً إذا كانت من قبائل (باهيما) رعاة البقر المشهورين فى انكولى غرب البحيرة ، وآية التجمل لديهن السمن المفرط الذى تسعى إليه السيدة حتى لا تكاد تستطيع السير ، وهم يتخذون من شعر الفيل أساور وعقوداً رجالا ونساء ويدهنون رؤوسهم بروث البقر ، فاذا سألت أحدهم عن تلك العادة القذرة أجابوا بأنهم لو نظفوا أنفسهم نفر البقر منهم فهو لا يتبع إلا الجسوم الملطخة بفضلاته ، والعجيب أنهم يعدون الطبقة الارستقراطية المسودة على من حولهم : وأعجب ما فى أبقارهم قرونها التى يهولك امتدادها

وكنت أرى آلاف المخاريط التى يسمونها (تلال النمل) يسكنها النمل الأسود والأبيض فى حجم بالغ وتراها من داخلها مثقبة فى سراديب متلوية والنمل هناك آفة خطيرة تفسد كل شىء فى الغابات والمساكن ، وهم يتركون النمل يبنى مخاريطه التى تراها تصف على جوانب الطرق ووسط الغابات فان تعرضوا لها لجأ النمل إلى اقامتها تحت المساكن بعد نخرها ، فلا تلبث المساكن أن تنهار ، وهذا النمل أعمى لا يبصر ويبنى له حواجز على جذوع الشجر فى الغابات ليأمن السقوط إذا تسلق وهذه يقيمها من الطين الذى يحمله فوق رأسه ويلصقه بالجذع بمادة صمغية من إفرازه وينخر الشجر ويأكله .

والكساد المالى كان يبدو مجسما فى أوغندا كما بدا من قبل فى كينيا وسائر بلاد جنوب افريقية وشرقها ، فكثير من الدور والحوانيت خاوية الوفاض تعرض للايجار ومئات منها آخذ فى التصفية ، ودخل الحكومة آخذ فى النقص السريع ، خصوصا دخل السكة الحديدية والبواخر ، لذلك اختصرت كثيراً من القطر والبواخر وتفكر فى الاستغناء عن بعض الموظفين كما استغنت عن كثيرين من قبل وأنقصت المرتبات جميعاً ، وها هو نزل سافوى ثانى أنزال المدينة يبيع متاعه ، وسيغلق أبوابه آخر الشهر ، ولم يكن به من النزلاء غيرى أنا ورجل آخر مما أفقدنا روح الاجتماع ، فكنا نتناول طعامنا ونأوى إلى

مضاجعنا خلسة كاننا خجلون مما نحن فيه من وحشة ، على أن الأهلين لا يخشون ذلك الكساد لندرة حاجياتهم ولتوافر طعامهم الفطرى من منتجات الغابات التى لا ينضب معينها .

وفى ناحية من كامپالا تبعد عنها بنحو أربعة عشر ميلا وتطل على البحيرة مكان يسمونه لوتمبى (Lutambe) أى التمساح قصدناه فكان الطريق إليه يهوى وسط المزارع والغابات الكثيفة المشتبكة المظلمة ومشهد البحيرة ساحر بجزائرها الصغيرة المنثورة وتغضن الساحل الذى يحفه نبات الماء فى كثافة مشتبكة وبخاصة البردى والبشنين والحلفاء وكثيراً من الأشجار والشجيرات وكان بعض الشاطىء مدرجاً والبعض صخرياً مشرفاً فى حمرة قاتمة من نسيج الجرانيت المحبب ، وعجيب أن كانت تنمو خلاله الأعشاب وبعض الشجر ، وهذا المكان يدين بشهرته الذائعة لتمساح ضخم عتيق من بين آلاف التماسيح التى تغص بها البحيرة .

وقف زنجى هناك على الشاطىء وأخذ يناديه وهو يصيح بأعلى صوته قائلا : (لوتمبى ياد يا لوتمبى يانجوكوو) مرات حتى سمع التمساح النداء على بعد شاسع وعمق سحيق ، ووفد إلى الرجل وزحف بجواره ليأكل من يده بعض السمك ، ولبث الغلام يناديه يومنا زهاء الساعة والنصف وكدنا نيأس من ظهوره ، وأخيراً عند الغروب ظهر يشق الماء وأخذ يزحف بجوارنا كأنه أليف مستأنس يلتقط السمك الذى كنا نقدمه له وعلمنا أن متوسط ما يكفيه كل يوم مائة كيلو جرام من السمك .

ويقول القوم فى أقاصيصهم أنه ظل حارس البحيرة الأمين فوق مائتى عام ويقدسه الجميع ، وفى بعض الأحيان لا يسمع النداء فيصفق له الغلام بصفائح فى الماء فيجىء إليه ويؤيدون أنه عتيق بتثاقله الشديد عند ما يظهر ويمشى على الشاطىء ، ويروون أنه نهش ذراع رجل مرة ولقدسيته اتهموا الرجل بالسرقة فأخذوا الرجل إلى الشاطىء ونادوا (لوتمبى) وطالبوه بقولهم (أرنا

بحكمك الراجح إن كان الرجل لصاً أم بريئا) وقدموا له الذراع الثانى فالتهمه التمساح، وعندئذ اعترف الرجل بسرقته ورد ما سرق لصاحبه ، ومات بعد ذلك بزمن قليل ، وعادة تقديس التماسيح واستئناسها ومداعبتها هكذا مصرية قديمة .

سوق كامپالا : يقوم فى بناءين متجاورين يقسمان إلى مدرجات طولية مسقفة تعرض تحتها المبيعات أحدهما للخضر واللحوم وهو نظيف جداً ، كان القوم يبيعون فيه أنواعا شتى من الفول والجذور بعضها أخضر يؤكل طازجا ، والبعض مجفف كأنه قطع الحلوى يسحق ويباع دقيقاً ، ثم الفاكهة وبخاصة الموز فى عراجين ضخمة ويليه كثرة (البوبوز) فى حجم (الشمام) إلا أنه مدبب من أحد طرفيه ولون لبه برتقالى وطعمه حلو لذيذ كان يقدم لنا فى النزل نأكله بالملعقة فى طعام الافطار ، أما البناء الآخر فقسم فيه للسمك المجفف فى شكل أغبر مقدد منفر المنظر كريه الرائحة ، ويعرض فى أحجام مختلفة من تروس قطرها خمسة سنتيمترات إلى سمك طوله المتر ، وقسم آخر مكشوف تعرض به من القنانى القديمة وعلب التبغ الفارغة وقطع من صفيح ونحاس للزينة وكلها من سقط المتاع ، تدل على سذاجة القوم وسخف عقولهم ، والزحام هنا بالغ أشده ، وكم كان يسترعى نظرى نظام التحية إذا تلاقى صديقان يبسط أحدهما كفيه متجاورين ويلمس الآخر بطنهما براحته ثم تظل اليد تتحرك بينهما ذهاباً وجيئة مرات وخلال ذلك يفوه كل بكلمة تحية تتبعها زمجرة لا بل وتأوهات عميقة طويلة ، ومن الغريب أن وجه كل منهما منصرف عن وجه أخيه ، والنسوة تمر وهى تتهادى متثاقلة لما تحمل فوق رأسها من متاع وفوق ظهرها من طفل كأنه القرد الصغير ، وغالبهم يبدون فى حرائر فاضحة اللون بين أزرق وأصفر وأحمر ، وبعضهن لا يغطين الأكتاف إلى الثديين ليظهرن زينة الوشم والتجريح الذى خلف فى الجسم صفوفاً منظمة من أدران تتعرج يمنة ويسرة ، وقد جرنى الحديث

عن المستوى الخلقى هناك فعلمت أن العفة لا تكاد تكون بين الأهلين الذين لا تزال نزعتهم الحيوانية سائدة ، هذا إلى تذوقهم طرفاً من المدنية التي جعلت بعضهم يسعى وراء النقود من أى طريق ، وسواء أكانت المرأة آنسة أم متزوجة فإنه يمكن استمالتها واستهواؤها عاجلا ، وكثيراً ما يرضى الآباء والأمهات والأزواج بذلك ، وقد أيد عندى ذلك زيارتى لمستشفى كامبالا أكبر مستشفيات تلك الأقاليم حيث كان غالب المرضى هناك يشكون الأمراض السرية وبخاصة الزهرى ، وقد أخبرنى بعض الأطباء هناك أن تلك الأمراض منتشرة فى البلاد بكثرة مروعة ، وهى تودى بحياة الكثيرين منهم ، ولحسن الحظ أن القوم لا يخفون المرض ، بل يقدمون أنفسهم للحقن بدون خجل .

والزواج هناك من سن العاشرة والبنات يبلغن الحلم مبكرات والأب يؤثر الذرية من البنات لأنه يتقاضى عليهن مهوراً عن زواجهن ثم يأخذ الزوج عروسه ويبقى المهر الذى دفعه للأب يتمتع به ، وأخص مهرجان يقام للزواج الرقص والطبول المزعجة .

وليس فى المدينة من وسائل التسلية أو الملاهى شىء قط على كبرها حتى ولا المقاهى أو المراقص كلا ولا الأضواء ، فاذا أقبل الليل خيم الظلام وعم السكون وسادت الوحشة المدينة كلها ، ومصابيح الطرق متباعدة ضئيلة لأنها تنار بالبترول حتى أننى كنت أتلمس طريقى ليلا وكأنى الأعمى الضرير ، لذلك كان لزاماً أن يحمل كل عابر سبيل مصباحه أو (بطاريته) كى يتعرف طريقه وسط تلك الظلمة الحالكة .

وبالمدينة مجموعة من شبه متنزهات فى متسعات تكسوها الخضرة ، وفى بعضها تنمو الأشجار وغالبها ملاعب (للجولف والتنس والهوكى) ويتوسط المدينة متنزه صغير يعرض به مدفع حديث بعيد المرمى لا يزال براقاً انتزع من السفينة الألمانية التى كانت تحرس ثغر موانزا جنوب فكتوريا نيانزا لما سقطت فى أيدى الانجليز سنة ١٩١٦ وأقيم إلى جواره

نصب تذكارى لمن فقدوا أرواحهم فى الحرب العظمى من السود سكان البلاد ، ويخيل إلى أن كامپالا كلها متنزه جميل من أية بقعة نظرت أحاطت بك الخضرة النضرة فى أرض مغضنة إلى الآفاق ، ومساكن الأهلين من الزنوج هنا نظيفة إذا قورنت بأكواخ القبائل الأخرى إذ ترى البيت وقد استؤصلت من حوله الأشجار والأعشاب البرية وأحيط بسياج يغلب أن يكون من النبت والزهر ويكنس الناس داخل البيوت ويحرقون القمامات عند الغروب فى أجحار وراء البيوت تلك الفكرة التى نقلتها فرق الكشافة عن أمثال أولئكم من سكان الغابات .

الى جبال القمر : (رونزورى) : طالما حننت إلى مشاهدة جبال القمر تلك التى تخيلها — بطليموس قبل الميلاد مستمد مياه أعظم أنهار الدنيا نيلنا المبارك — ولقد كان الاسكندر المقدونى يرى ذلك ، وقد سمع سبيك من العرب أن هناك جبلا رهيباً لا يكاد يستبين لكثرة ما يكسوه من المواد البيضاء ولا يستطيع أحد ارتقاءه لوعورة منحدره ، وقد رآه بيكر فى زرقة فاترة لذلك أسماه (الجبل الازرق) ، وفى ١٨٧٥ تسلق ستانلى جانباً صغيراً من مرتفعه لكنه لم يكن يدرى ما يعلوه من ارتفاع شاهق ، كذلك أمين باشا الذى أقام على البرت عشر سنين ولم ير قبساً منه ، ولقد تحقق لى مرآه بفضل رجل فرنسى لاقيته فى كامپالا علمت منه أن هناك طريقاً معبداً طوله ٢٠٧ أميال تشقه السيارات غرباً إلى فورت بورتال وهى قرية صغيرة فى أسفل تلك الجبال قطعناها فى ست ساعات خلال مناظر أوغندا المألوفة الساحرة : نجاد تنكشف منها هوى تسدها الغابات وتباغتنا النقائع فى غير حصر تغص بالبردى والبشنين وأكبرها بحيرة (واما لا) ثم جزنا تل (موبندى) موطن السحرة ورسل الآلهة (ناكاهيا) وعليه تقوم بقايا الشجرة المقدسة التى تقدم تحتها الضحايا البشرية وعند ما قاربنا (فورت بورتال) كثرت منابت البن التى تحفها من جميع نواحيها ، وهناك حللت استراحة خشبية لأمضى فيها

ليلتى استأجرتها بجنيه إذ ليس بالمدينة فنادق قط لا بل وليس بها شىء إلا بقايا حصن قديم ، هنا قام إلى غربنا رونزورى يسامت السماء ويتصل بسحبها فى كثافة رهيبة أيدت فى ظنى خرافات القوم هناك أولئك الذين يعتقدونه مقر الجن ومحط الارواح التى انسلخت عنها أرواح أجدادهم من الحكام الجبابرة لذلك فهم يرهبونها جميعاً ، الغابات حوله فتسد الآفاق سدا ويسمونها غابة (أتورى Eturi) مقر الأقزام من السود الذين رأيت بعض أفرادهم فى المدينة ولا يجاوز الواحد أربعة أقدام فى الطول يعيشون على الصيد بحرابهم وسهامهم المسمومة ، لم أشف من مشهد ذاك الجبل العاتى غلة فلقد طفقت أرقبه سبع ساعات متواليات فى وضح النهار لكن لم أدر أوله من آخره : ضباب وسحاب ورذاذ ماء لا ينم عما فوقه ، ولقد قيل لى إن منحدراته وبخاصة الشمالية أكثر بقاع الدنيا رطوبة لأن مطرها يفوق ٢٠٠ بوصة ولأن نز الماء من جوانبها لا ينقطع أبداً ، ولا تكاد الجبال تبدو إلا بضعة أيام من السنة إذا ما صفا أديم الجو حولها ولا يكاد حينذاك يبدو فى لون قرنفلى شاحب تكسوه عمائم الثلج فى مساحة مائة ميل مربع وتتجلى أعلى الذرى (مرجريتا) على علو ١٦٧٩٤ قدم وهى أشد ذرى إفريقية وعورة وأصعبها تسلقاً .

عدت إلى كامپالا وفى نفسى حسرة لأنى كنت أخالنى أستطيع أن أرتقيه فأشرف على سمليكى فى هوته السحيقة لكن وابل المطر ووعورة المرتقى وكثيف الغاب ، كل ذلك حال دون تحقيق ماهويت ، على أن مارأيته يعوض ما كلفتنى تلك الجولة الفرعية من عناء ومال هو عشرون جنيها أو تزيد

الى جنجا منفذ النيل . أخذ القطار يعلو بنا تدريجاوهو يتلوى ليانه العجيبة وسط أقاليم مموجة تكسوها الخضرة الكثيفة ، وبين آونة وأخرى كانت تبدو فجوات زرعت من الموز تمتد متسعاته إلى الأفق كأنه الغابات ، وقد كان علو شجره يفوق أربعة أمتار ، وفى وسطها تقوم أكواخ قليلة للأهلين ، وقد يستنبتون بجوارها بعض الذرة والبطاطا ، وفى بعض الجهات

قصب السكر الذى مررنا بأحد مصانعه الكبيرة ، على أن القصب هناك من نوع قصير العقد صغير الأعواد ، وكانت تنكشف بعض النقائع ومسائل المياه وكلها تكاد تختنق بالنبت والبردى فى جمته (شواشيه) الأنيقة ، وكانت المحاط متباعدة نائية لندرة السكان هناك . وكان القطار يحمل وقوده من أرماث الخشب المكدسة فى المحاط وقبيل جنجا فاجأنا منظر البحيرة فى لونها الفضى وامتدادها العظيم وسرعان ما انعطف القطار فبدا النيل وهو يتلوى فى مخرجه من البحيرة وكأنه طيات من لجين تنفجر من قمع متلألئ هو خليج نابليون وقبل أن يستقيم رأيته يهوى درجة هى شلال ريبون مفتاح النيل وتتوسط تلك الدرجة صخرتان متباعدتان ينساب الماء خلالها فى ثلاث فتحات أكبرها اليمنى وتلك الصخور بدت على بعد كأنها شعاب الزمرد الأخضر ، ولما دانيتها بعد حلولى المدينة كانت صخوراً سوداء من الديوريت النارى القديم تكسوها الأعشاب الطويلة والشجيرات ، وأمام ذاك المسقط الذى يهوى بالنيل كله أربعة أمتار تكثر الشعاب الصخرية المنثورة فى غير نظام يتمايل الماء حولها ، وينزل عدة مساقط صغيرة ، هنا انثنى القطار وعبر النهر بقنطرة نحيلة يبدو مشهد الشلال والجنادل والصخور من فوقها رائعا ، وما كدت أحل غرفتى من نزل (أبيس Abis) الأنيق الصغير حتى تمثل أمامى منظر الشلال والنيل فأسرعت إليه سيراً على الأقدام مسيرة ربع ساعة ، وهناك تجلت العظمة وتوالت الذكريات ، نزلت إلى حافة الشلال فلم يسعنى إلا أن أجلس معظم الوقت أنظر إلى مهوى الماء السحيق واستمع لدويه الرهيب يظلنى رذاذه ويطربنى هزيمه . وكان يتجلى ماء فكتوريا عند شفا المسقط أملس ناعماً فى وسطه مضطرباً يعلوه الزبد فى جوانبه ، وبين آونة وأخرى نرى السمك يحاول مغالبة الماء بقفزاته العدة عساه يتخطى الشلال سابحاً فى الهواء إلى البحيرة لكن أنى له ذلك ودفع الماء شديد ومستواه بعيد وكأنه كان يتخذ هذا العمل ملهى له ومستراضا ، وكان الطير يحط فوق البحيرة

ثم لا يلبث يطير جماعات يتخذ كل فريق شكلا هندسيا هو إلى المخروط أو الوتد أقرب ويحوم حولنا ثم يعود فيهوى إلى الماء ، وهنا سرح الخيال فى النيل ومصر ، وما كانت عليه إبان عظمتها وما تعاقبت عليها من حوادث وعبر والنيل باق على هذا النحو طوال الأعمار ، وكنت أشعر بآيات إخلاصى تتجسم خارجة من القلب لتسابق الماء ، إلى الوطن العزيز ، منظر جدير بالتقديس ولا يزال إلى اليوم يقدسه بعض قبائل الكنغو يفدون إلى ريبون ويقدمون للنيل القرابين والضحايا ليسترضوا إله المياه الجارية ويلتمسون منه الغفران ، وعلى جانب من الشلال مولد للكهرباء يسخر بعض مائه المندفع ، وتلك تستخدم فى رفع المياه للمدينة كلها ، لكنه لم يستغل فى الاضاءة لندرة السكان ، وشح الاستهلاك فى جنجا ، والمدينة نفسها متسع من الربى يشرف منحدراً إلى خليج نابليون تكسوه الخضرة النضرة والشجر الوفير ، وبيوتها فلات حديثة بديعة تنتثر مبعثرة فى مساحات شاسعة وتشقها الطرق الملتوية والمتاجر تصف على طريقين متقاطعين هما أكبر طرق المدينة ، وعلى الشاطىء أقيم مرسى للسفن كان يغص بالنقل والتجارة قبل اتصال جنجا بكامبالا بسكة الحديد ، لكنه اليوم فتر تجاريا وخمل وكان أخص ما ينقل إليه القطن أهم نبات أوغندا ، وتعنى به انجلترا هناك عناية خاصة فتعرض نماذجه فى محطة سكة الحديد ، ويزرع حول بحيرة كيوجا فى الاراضى ذات التربة السوداء ، وموسمه الشتاء ، وقد كانت تقله بواخر البحيرة إلى ناماسجالى ، ومنها بسكة الحديد إلى جنجا ومن ثم فى فكتوريا إلى كيسومو ثم بسكة الحديد الى ممباسا ، أما اليوم فتقله سكة الحديد من شرق كيوجا الى ممباسا مباشرة (وقد بلغت المساحة المزروعة فى أوغندا ٦٠٠ ألف فدان) .

وقد اتخذ الانجليز من الاراضى الممدودة متسعات للرياضة على اختلاف صفوفها شأنهم فى جميع بلدانهم ، وعلى منحدرات المدينة المؤدية إلى البحيرة كثيراً ما تخرج مردة التماسيح وعمالقة أفراس الماء وتشاطر الناس ذاك

المستراض الجميل ، على أنها كثيراً ما تلتهم عاثرى الحظ من الأهلين ، وهم يغتسلون أو يغسلون متاعهم ، حتى قيل إن التمساح يقتل من سكان إفريقية أكثر مما يقتله أى وحش آخر.

وفى ناحية من المدينة شجرة قديمة كان الطاغية (موتيزا) يجلس تحتها ويأمر بالذبائح البشرية التى طالما خضبت دماؤها تلك البقعة على مشهد منه ، وهى اليوم وسط ملعب للتنس يجتمع اللاعبون حولها مرحين كأنهم يتحدون ذاك الوحش ويتناولون الشاى تحتها.

إلى بحيرة كيوجا : غادرت جنجا بسحر مناظرها نهاراً ووحشتها الفائقة ميلا إلى ناماسجالى ، ولبث القطار زهاء أربع ساعات يشق طريقه فى صعود وهبوط ويسلك مطاوى عجيبة وأجواف غابات مهملة لم تطرقها يد إنسان فالاقليم موحش لم نكد نرى به من الأهلين أحداً ولم يقف القطار فى كل ذلك إلا أربع وقفات بجوارها جمهرة من الأكواخ حولها مساحة من الموز والبطاطا يعيش عليها قوم هم أشد سواداً ممن رأيناهم من قبل ، وتربة الأراضى حمراء ناعمة يطير هباؤها فيخضب كل شىء.

وناما سجالى : قرية لا تكاد تزيد حوانيتها على عشرة كلها فى أيدى الهنود ولها ميناء صغيرة على بحيرة كيوجا فى مكان من البحيرة اتساعه ثلاثة أضعاف اتساع النيل عندنا ، هنا حللنا باخرة صغيرة كأنها منشور رباعى طويل يتقدمها (صندلان) متلاصقان فى حجم كبير عليهما البضائع ومسافرو الدرجة الثالثة ، ودهشت لما رأيت الباخرة تدفع هذين أمامها كل رحلتها ، فنا نشق عباب كيوجا ذاك البحر الذى يبدو ماؤه أملس مخضراً لا حراك به قط تحف جوانبه الحلفاء والبردى والغاب بمقادير كبيرة وأخذت البحيرة تنبسط فتنأى شواطئها تارة ، وتضيق وتتقارب أخرى ، وكل شواطئها مناقع ضحلة ، وكان جو يومنا أميل إلى الحرارة رغم ما أصابنا من مطر ، على أن الليل فوق أديم البحيرة بارد جميل.

وفى اليوم التالى أصبحنا والمطر وابل ومستبحرات المياه مشعبة فى كل جانب ، وأعشاب البردى والبشنين تظهر فى جزائر سابحة فى حجم كبير وكثير من تلك الكتل من خليع النبت كان يعترض سير السفينة فينتشل بالروافع ويرمى إلى الجانب ، والسفينة مستعدة لذلك مزودة بالروافع الثقيلة فوق (صنادلها) ، وفى باكورة الصباح كانت أسراب التماسيح تمرح وسط المياه فى بقع سوداء على مقربة من الضفاف ، وكانت المنطقة الواقعة إلى يميننا تدخل فى نطاق مرض النوم ذاك الذى يعد أخطر الأمراض فى أوغندا وجنوب السودان ، والمناظر من حولنا أضحت سهولا لا أثر للجبال فيها ، وكان النيل يختنق أحياناً إلى نصف سعته فى مصر ، وباخرتنا (Grant) كانت تترك عند مفارق الماء زورقاً بخاريا (رفاصاً) ليذهب إلى المين الصغيرة الواقعة على شعاب بحيرتى (كيوجا وكوانيا) وتلك الشعاب تبدو على الخريطة لكثرتها وكأنها العنكبوت ثم تعود خفاف البواخر هذه لتلاقى باخرتنا عند عودتها ، وفى وسط ذاك المتسع اللانهائى من البردى ظهر مرسى صغير هو :

ثغر ماسندى : حوله بضعة مساكن خالية من الأهلين هنا أقلتنا سيارة المصلحة وسارت بنا ساعة ونصفا فى طريق شق وسط البردى أولا ، ثم وسط متسعات مبسوطة يزرعها القوم وخاصة من السيسال تليها غابات وأحراش برية لم تمسسها يد الانســـــان إلا فى فجوات صغيرة بها الموز والتابيوكا حيث كنا نبصر بكوخ أو اثنين فقط ، ولما قاربنا مدينة ماسندى بدت الربى وكنا نرى الغابات يحكى نباتها المتسلق الكروم تغطى الأرض كلها بأعراشها والطيور فيها لا حصر لها ، وكان الطريق نفسه يغص بدجاج غانا ودجاج الوادى البديع الذى يأكله القوم كثيرا ، أما الجو فكان ماطراً بارداً أحوجنى إلى ارتداء المعطف الثقيل . دخلنا مدينة ماسندى عاصمة (بانيورو) من أقسام أوغندا فشابهت كامپالا فى مناظرها المغضنة وفيرة النبت إلا أنها

أصغر وحللنا النزل التابع لمصلحة سكة الحديد ، وهو آية فى الجمال ، والنساء هنا يلبسن ملاءات ملونة خفيفة تلف حول الجسد من فوق الثديين إلى القدمين ويعنون بشعرهن الذى يجدل على قصره الشديد فى فتائل رفيعة لكل ذؤابة لا تزيد على سنتيمترين . ويسرن حفاة سافرات شأن جميع نساء إفريقية الشرقية وغالب الرجال يلبسون الجلباب من القطن على ما نراه فى مصر وهم هنا خاضعون لحكومات قوية من زعمائهم الذين تمهرهم الحكومة الانجليزية رواتب مقابل قبضهم على ناصية الأمور ، وهى لا تتدخل تدخلا مباشراً فى شئونهم ، ولولا ذلك لما استطاعت الحكومة إخضاعهم أو الاحاطة بهم . وتلك الخطة متبعة بشكل أكثر إحكاماً فى أوغندا منها فى غيرها ، وتتخذها انجلترا نموذجا لحكم طوائف الشمال المتبربرة وتنتوى نشرها فى كينا وهؤلاء الزعماء يعيشون عيشة بذخ افرنجية ويلبسون وزوجاتهم أردية أوروبية ، ولهم برلمان فى مقاطعة منجو شمال شرق كامپالا للمداولة فى شئونهم ولا تزال غالب الأعمال فى يد الهنود ، وبخاصة المسلمين منهم ، على أن جل حركة التوفير على أثر الأزمة الحالية منصبة عليهم ، وكبار الانجليز يعترفون بأن توظيف الهنود كان خطأ كبيراً فى السياسة منذ البداءة ويحاولون إحلال السود أو الأخلاط من غير الهنود مكانهم ، والتعليم تقوم به البعثات الدينية تعاونها الحكومة . أمضينا فى ماسندى يوماً وفى الغداة قمنا بالسيارة إلى :

بيوتيابا : فوصلناها فى ساعتين (٤٥ ميلا) خلال أرض مموجة غالبها غابات عذراء تكسو أشجارها الطفيليات وتتخللها المسائل . وفى الوهاد كانت تبدو الغابات مغلقة تماما والطريق شق فى تربة حمراء يزيد سمكها على مترين وليس به من الأهلين أحد اللهم إلا جمهرة قليلة من السود كنا نجوز أكواخهم كل بضعة أميال ينشرون أمامها (الماهوجا) بعد تقشيرها ثم يدقونها دقيقاً فى أهوان من الخشب ، وكان بعضهم يمزج هشيمه بفتات الذرة إلى ذلك بعض الموز والسمسم والبطاطا ، وفى فترات متباعدة كانت

تظهر قرية صغيرة جداً وعجبت أن كان الهنود هم أصحاب الحوانيت فيها ، وبعد منتصف الطريق كنا نمر بمزارع النزلاء البيض وبخاصة الانجليز فى مساحات أقاموا وسطها بيتهم الأنيق وقاموا يستأصلون النبـــات البرى ويزرعون البن فى شجيراته القصيرة وصفوفه المنسقة ووسقه الكثير . ولكى يتقوا وهج الشمس عنوا بالغابات وبواسق الشجر لتحمى شجيرات البن من دونها ، وكم كان عجبى شديداً لاقدام هؤلاء على عمل شاق وحياة موحشة لا ترى حولهم من مؤنس قط ، لكنها الرجولة والخلق الرصين يروض النفس ويستمد النشاط والسرور من كل شيء ، وحول كل مزرعة نفر من الأهلين يقومون على خدمة الأرض ، وكنا نراهم نساء ورجالا يقطعون العشب البرى ثم يتركونه مكانه حتى يجف ، ثم يحرق حيث هو فينقى الأرض ويسمدها وكلهم يدخن فى غلايين خشبية طويلة حتى الفتيات . وما حللنا الثلث الأخير من الطريق حتى أخذنا فى الهبوط ، ثم عند الميل السادس من بيوتيابادا همنا مشهد الاخدود الابرتى الرائع تتوسطه البحيرة فى هوة بعدها ألفا قدم بلونها الفضى تحفها سهول مبسوطة إلى مدى شاسع تؤدى إلى تلال تعلو فى نجاد وسلاسل لا نهائية (وذرع البحيرة ١٠٠ × ٢٥ ميلا) منظر ساحر يكاد يقارب مشهد الأخدود الأعظم ، وهذا الجزء من الطريق يعد من أجمل طرق الدنيا لتنوع مناظره وكثافة غاباته وتعدد فصائل شجره نخص منه النخيل وشجر الصمغ الأزرق والعنب البرى المتسلق والسرخس عريض الورق الذى منه تكون الفحم فى العصور البائدة . أما القردة والفيلة فحدث عن كثرتها . هوينا إلى تلك السهول التى اسودت تربتها بما خلفته البحيرة عليها من رواسبها ، ثم جزنا مجموعة من أكواخ وحوانيت ومبان حكومية وتلك كلها مدينة بيوتيابا ولها ميناء صغيرة لا بأس بحركتها التجارية فهى حلقة اتصال بين بلاد أوغندا إلى اليمين والكنغو إلى اليسار ، وكانت جبال الكنغو تظهر فاترة وراءنا ونحن نرسو على بيوتيابا وقيل لنا ذاك جبل (لولوجا) وهو

جزء من خط تقسم المياه بين الكنغو والبرت . قمنا نشق عباب البرت ولبثنا نرى الشاطئين على بعد لأننا سلكنا سبيلنا إلى الجزء الشمالى من البحيرة وهو يأخذ فى الاختناق حتى يصبح بحر الجبل المتسع عقب تقابل نيل فيكتوريا بالبحيرة مباشرة وعلى تلك الجبال تقع مدينة محاجى : من بلاد الكنغو ، ولها ثغرها الصغير الذى مررنا به — والبحيرة تعلو سطح البحر بنحو ٢٠١٨ قدما على أنها أحط من فكتوريا بنحو ١٧٠٨ أقدام ، ماؤها أشد زرقة وطعمه أكثر تغيراً من ماء فكتوريا مما يدل على زيادة عمقها وأملاحها ، ولبثنا نسير صوب النيل وقد لزمت الباخرة الجانب الأيسر للبحيرة لأنه أبعد غوراً بسبب قربه من الجبال ، أما الجانب الأيمن فوطىء تمتد وراءه السهول ، أخيراً مررنا بعدة جزائر يغطيها العشب خصوصاً البردى والبوص والبشنين الذى طالما كنا نلاقى كتلا منه طافية ، ثم دخلنا مأزقاً هو أضيق من نصف نيل مصر ، وهنا أول نيل بحر الجبل وكانت السهول الممدودة إلى يميننا جزءاً من (حرم الحيوان) لذلك رأينا بين الأشجار المتفرقة جموعاً من الفيلة أكثر الحيوان ظهوراً هنا فكان يبدو فى قطعان ، ولم نرها على الجانب الآخر قط لأنه خارج عن الحرم ، فكأنها أنست فى حرمها أمنا ، وهذه المنطقة من أوغندا وما يليها شمالا إلى جنوب السودان وغربا إلى الكنغو خير مناطق الفيلة فى الدنيا .

والنيل من هنا إلى منطقة السدود شمالا غاص بأفراس الماء التى كانت تنفر فى الماء بكثرة مروعة ، والتى كانت تصادم باخرتنا صدمات عنيفة ، وفرس الماء غذاء محبوب للأهلين الذين يلتهمون لحمه نيئا ومجففا .

ولعل أكثر بقاع الأرض بهذا الحيوان النيل من هنا إلى بحر الجبل شمالا ، والحيوان يظل فى النهر نهاراً لا يرى منه ظاهراً سوى الآذان والعيون ، وفى المساء يقصد البر ليأكل ولا يعود للماء إلا فجر اليوم التالى وهو يصعد مناطق العشب والسدود بسهولة ويتخذ له طرقا ثابتة للخروج

والعودة ، والأهالى (خصوصا الشلوك والنوير من سكان بحر الجبل) يصيدونه بحرابهم فيكمنون له عند الغروب على جوانب تلك المسالك وإذا قرب أرسلوا حرابهم ذوات الاسنان الجانبية وهى تتصل بحبال طويلة فيسرع الحيوان بالعودة لكنهم يتعقبونه حتى يموت ويجرونه إلى الشاطىء ، على أن بعض الأفراس تهاجم عدوها ، وبفكها المخيف قد تتناول زورقا بمن فيه وتغرقهم جميعاً ، على أن ذاك الانسان الهمجى لا يبالى بحياته قط ، وإذا مات الحيوان جروه إلى الشاطىء وسرعان ما يقطعونه ويشعلون النيران ويأكلون شواءه وكثير منهم يلتهم اللحم نيئا والباقى يقطعونه فى شرائح تعلق على الأشجار المجاورة بحيث لا يبقى من الحيوان إلا هيكله فى أقل من ساعتين .

وكثير منهم يدفع الضرائب من أسنانه ويظهر أن أفراس الماء كانت تمضى غالب وقتها فى البر نهاراً وليلا لكن هجمات الانسان لها اليوم ألجأتها إلى الماء طوال النهار ، وساعده فى غذائه وسط النهر كثرة الأعشاب الطافية خصوصاً كرنب الماء الذى يكثر فى منطقة السدود ، ويبدو كالزهر الأخضر الكبير يطفو على السطح وهو الذى يسد النهر ، لذلك يظن أن طرد أفراس الماء إلى النهر يساعد على إنقاص تلك الزهور فتخف كثافة السدود . وكثيراً ما كنا نسمع صوت أفراس الماء تنبعث من أعماق الماء دون أن نرى علامة تدل على موضع الحيوان حتى ولا فقاقيع الغاز التى تتخلل الماء ساعة تنفسه . ولحمه خشن لكن القوم قد امتدحوا طعمه . ويأكل بعض البيض هناك لسانه فقط .

اختنق النيل وأضحى كالقناة بعد مغادرتنا لبحيرة البرت ورسونا على (بكواش) من قرى الضفة اليسرى حيث انتقلنا إلى باخرة أصغر تستطيع مواصلة السير فى مجرى النيل الضحل ، وما كدنا نرسو عليها حتى هالنى جماهير السود الذين وفدوا ليروا البواخر ونزلاءها ، وما كان أشد دهشتى حين رأيت الكثير منهم عرايا تماما نساء ورجالا وأطفالا .

تضع المرأة حول خصرها عقداً من خرز تتصل به ذؤابة من ورق

الموز أو جدائل من سلوك الحديد أو الخرز أو حزمة نحيلة من العشب لا تكاد تستر العورة ، ومن خلاف يتدلى شريط أو (زر) من فتايل رفيع طويل يتحرك ذهابا وجيئة كلما تحركت هى فى شكل يبدو على بعد وكأنه الغورلا أو القرد الكبير بذنبه المتدلى ، وألوانهم جميعاً فاحمة براقة ، والناس يختلطون هكذا فى غير حياء كأنهم البهم على فطرتهم الأولى . جن الليل وسادت الوحشة وإذا بسحائب البعوض وصغار الهوام الطائرة تخيم حولنا حتى كادت تعشى الأبصار لكثرتها إذ كانت تخترق كل شىء رغم أن الابواب والنوافذ تكسوها شباك السلك لمنعها ، لذلك اضطررنا أن نطفىء المصابيح كلها ، وبعد العشاء مباشرة آويت إلى مضجعى وحول الثالثة صباحا أيقظنى قصف للرعد مخيف وهزيم للعاصفة مرعب فقمت مذعوراً وإذا بشدة الرياح تكاد تلقى بالسفينة إلى البر ، وسيول المطر كانت تترى فى غزارة غير مألوفة ولقد دفعت العاصفة ماء النهر إلى البحيرة فهبط مستواه أكثر من قدم وخشى الربان إن استمر ذلك أن تدرك السفينة الأوحال فيتعذر المسير ، وفى الثامنة مررنا بمرسى :

موتير : فى مكان مختنق من النهر تحفه من الجانبين ربوتان صخريتان ولذلك اختار المهندسون المكان لاقامة سد البرت المنتظر ، على أنى أخال الماء إذا ما علا خلفه بين سبعة أمتار وتسعة كما هو مزمع يغرق من البلاد المجانبة لضفتى النهر وللبحيرة نفسها مساحات شاسعة كانت تبدو وطيئة من حولنا ، على أن التعويضات لن تكون كبيرة لأن الاقليم مهمل لا يكاد يطرقه إنسان .

ولقد اتخذ أمين باشا موتير هذه معسكراً له وأقام حصنه بها ولا تزال ترى أنقاضه على بعد ، ومنه كان يشرف على الاقليم كله من قبل خديوى مصر ، لذلك أثار المكان فى نفسى ذكريات جعلت له قيمة كبيرة عندى رغم أنك لا ترى اليوم الا مرسى صغيرا وراءه استراحة واحدة ليس غير ، وقد

هدانى بعض القوم إلى مكان هناك تدفن فيه بعض جثث الجنود المصرية التى كانت مع أمين باشا .

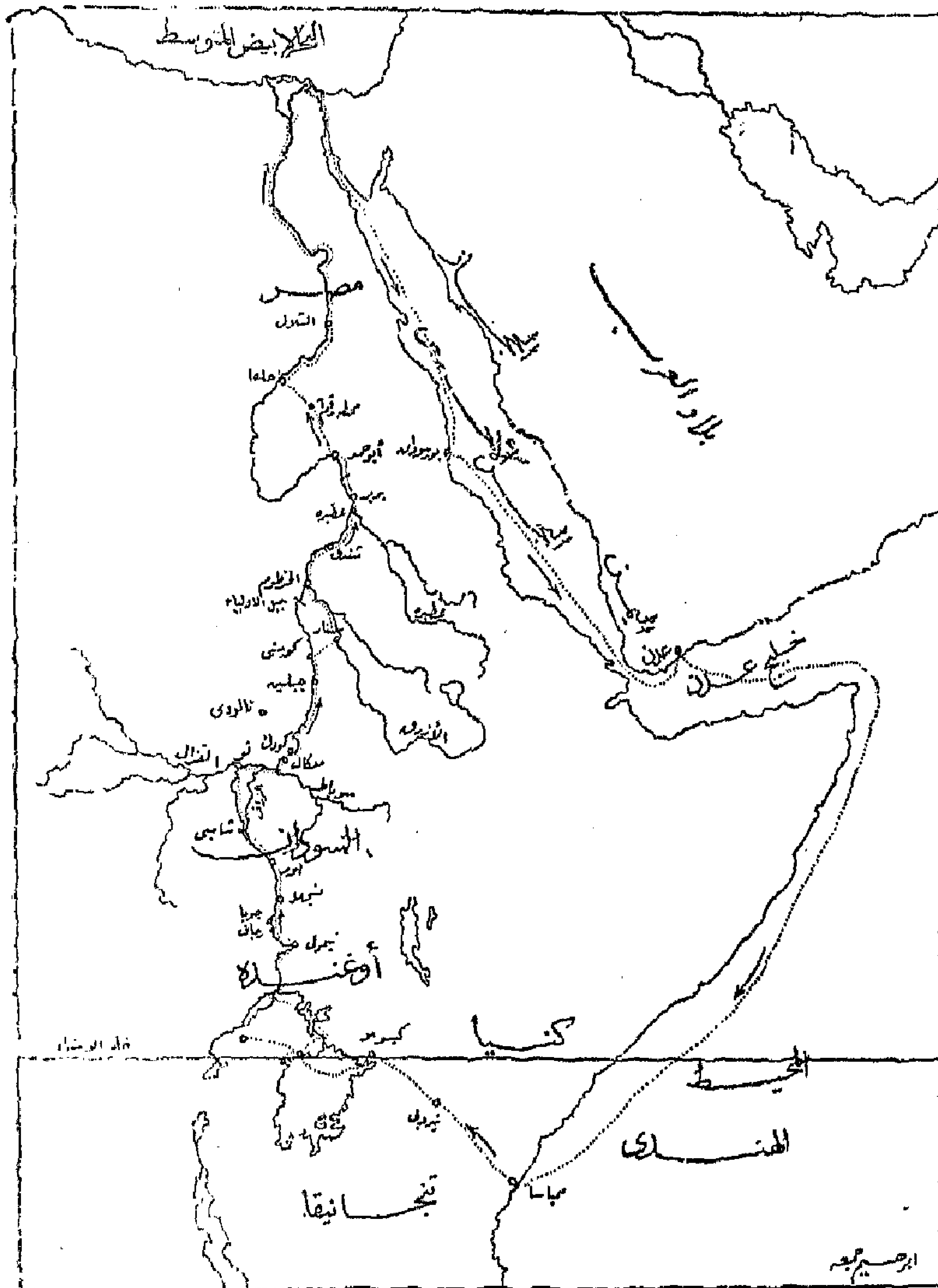
وحول تلك المنطقة قوم ينتحلون اسم (النوبة) يظن أنهم من سلائل الجنود السودانيين الذين حلوا مع أمين باشا وتوطنوا الاقليم بعده وغالبهم مسلمون إلى اليوم وهم يعدون أنفسهم أكبر شأنا من سائر القبائل يتكبرون ويفاخرون عليهم وتتخذ منهم حكومة أوغندا أجناداً أشداء ، وأجمل ما استرعى نظرى رداء نسائهم يتخذ من جلد المعزى وبعد صقله يقطعون الجلد خيوطا طويلة (شرابة) ويعملون منه نطاقا يربط حول الخصر فتتدلى أهدابه النحيلة الطويلة وتسترهن إلى نصف الفخذين فتكسبهن جمالا وجاذبية خصوصا وهى تهتز مع أعجازهن إذا ماسرن يتهادين وأجسادهن جميلة وإن أعوزالوجوه الجمال لكثرة ما يعلوها من تخطيط يميز كل قبيلة عن الأخرى ، وقد كانت هذه العلامات فى الأصل تطبع على وجوههم علامة الرق ، والنساء هناك مجدات خصوصا فى اتقان السلال والخوص والأصباغ التى يتخذونها من قشور الشجر وعصاراته وهن مهرة فى القتال كالرجال تماماً .

أما النيل نفسه هناك فيرى عادى الاتساع إذ يقل عن سعة نيل مصر لكنه فى الواقع عظيم الات ، لأن كثر من ثلثيه يغطيه نبات الماء خصوصا الغاب والبردى فيبدو كأنه جزء من الشاطىء ، لكن كثيراً ما كنا نرى كتلا كبيرة منه طافية يحاول الربان تجنبها خشية أن تمسك بهدارات الباخرة فتحطمها وأكثر ما يرى ذلك العشب عند المنحنيات ، فى جانبها المحدب غير المواجه للتيار على أنه لا يكاد يخلو منه مكان ، وجزائره المنفصلة لا تحصى بعضها بالغ الامتداد يتشعب النيل عندها شعبتين أو ثلاثا ، أما أفراس الماء والتماسيح وطيور الماء فلا تدخل تحت حصر ، ولا تزال الفيلة ترى بكثرة فى حرمها إلى يميننا ، هذا إلى التياتل والقردة على الجانبين . وماء النهر أملس هادىء عديم التيار على أن لونه عكر . وصلنا مرسى (رينوكامب) وكان عرايا القوم يتطلعون

إلى السفينة فى تزاحم ، وكان يومنا يوم السوق لديهم لذلك اجتمعوا تحت شجرة كبيرة قرب المرسى وكانت السلع المعروضة بعض أنواع الحبوب كالسمسم والذرة وسعف النخل والسمك الطازج والمجفف ، وكنت إخال رينوكامب غاصة بالخرتيت لأن معنى اسمها (معسكر الخرتيت) على أنى علمت أنها كانت محط رجال جماعة الصيادين الذين كانوا ولا يزالون يخرجون للصيد فى جماعات (سفارى بلغتهم) وأخص الحيوان هناك الخرتيت الذى أصبح نادر الوجود لدرجة أنه كاد ينقرض حتى أن الحكومة تحرم صيده اليوم بتاتاً .

غادرنا (رينو كامب) نشق طريقنا وسط النهر الضيق لا يزيد على سعة قناة فى عرضه ، وكان يساعدنا تياره الضئيل وهو هنا بين ميلين وثلاثة فى الساعة وكانت تبدو إلى يميننا سلسلة من جبال وطيئة ، وكان عهدى بالنهر الاتساع العظيم والتيار الضئيل لكن ألفيته على خلاف ما أعرف على أن جوانبه يكسوها العشب إلى سفوح التلال المحيطة بالوادى فلعل هذا داخل ضمن مجرى النهر وإن أخفاه ذلك العشب . وعلمت أن الإنسان يتعذر عليه السير فوقه لكن الفيلة تجد السير عليه سهلا لضخامة أرجلها التى لا تغوص بين فتحاته وإن أنت دانيته خيل إليك أنها أرض منزرعة مع أنه نبت كثيف يطفو فى تماسك شديد وجذور ملتفة ، وكان النهر أحياناً يتشعب فنرى خلف العشب مستبحرات شاسعة وطالما وقفت الباخرة وأرسلت زورقاً إلى ناحية من ذاك العشب لتقل بعض المسافرين من الأهلين ، وفى المحاط التى وقفنا بها كان بعض الانجليز يفدون ليتناولوا بعض الشراب والطعام من الباخرة التى لا تزورهم إلا مرة كل أسبوعين لذلك لا يصلهم البريد إلا كلما مرت بهم ، وهم يضبطون ساعاتهم على الشمس إذ لا صلة لهم بالعالم الخارجى ، ولهذا كنا نجد فرقاً قد يزيد على نصف الساعة بين زمننا وزمنهم ، وكلما سألناهم عن مبلغ اغتباطهم بتلك العزلة أبدو استمتاعهم الكامل وسرورهم لما هم فيه فأعود

أكبر فيهم تلك الهمة العالية ، والحق أن الانجليزى لقدير على خلق السرور والاستمتاع فى كل مقام سهل أو صعب ، وهنا تبـــدو التضحية للواجب والاخلاص فى خدمة الأوطان ، بتنا ليلتنا فى محطة اسمها لاروبى ومنها قمنا إلى نيمولى ، وهنا بدت الجبال المعقدة وأخذ النهر يتلوى رغم اتساعه وإلى يسارنا مررنا ببقايا حصن لأمين باشا فى دوفيلى (Dufile) وأخذ النخيل الذى يسمونه (براس بام brass pam) ينتشر بكثرة هائلة بورقه المروحى ، وحيث يوجد تكثر الفيلة لأنها تأكل ثمره الأصفر الكبير ، ويقال إن الفيلة هى التى تنشر النوى وهى تلقيه على طول السواحل ولذلك يؤم صيادو الفيلة البقاع التى يكثر فيها النخيل ، وقبل الظهر ظهرت نيمولى ، واسمها أكبر منها لأنى كنت أخالها مدينة فاذا هى مرسى صغير لا يجانبه شىء سوى مظلة من حديد وقد كان لها شأن يذكر من قبل لكنها أضحت اليوم كثيراً ، وهى وما يليها شمالا من ضفة النيل الغربية كانت تابعة لأوغندا ، أما الساحل المقابل لها فكان تابعاً للسودان من نيمولى جنوباً إلى مخرج النيل من البرت فتبودلت المناطق سنة ١٩٣١ وجعل خط الحدود أفقياً يتبع الجبل المجانب لنيمولى من الجنوب مباشرة .



رحلتنا في وادي النيل من منبعه الى مصبه

السودان المصرى

قطر مترامى الأطراف يزيد على ربع مساحة أوربا كلها أو نحو مليون ميل مربع ، أعنى أنه ثلاث مرات ونصف قدر مساحة مصر بصحاريها ، او نحو مائة مرة قدر المساحة المنزرعة من أرضنا ، ومع ذلك لم يستغل من مساحته الهائلة إلا بضعة آلاف أميال ، وهو إلى اليوم برية فطيرة لم يفسدها الدخيل ، ولا يزال موطن الوحشى من إنسان وحيوان ، حتى قيل عن شعوب الشلوك هناك بأنهم (أكثر همج الدنيا وحشية) ، والسودان ينقسم طبيعياً إلى شطرين الشمالى ومداه ستمائة ميل ، أى إلى جنوب الخرطوم بمائة ميل ، بين عرضى ١١ و ١٢ وهو صحراوى مجدب لا أمل فى استغلاله ، فهو امتداد الصحراء الكبرى ، والجنوبى ويمتد بعد ذلك ألف ميل إلى الجنوب كلها سهول خصيبة ذات تربة سوداء من أرساب النيل طول الأجيال الغابرة وهى – إذا استثنينا إقليم السدود – جديرة بانتاج الحبوب والبن والقطن إذا فلحت ، والمطاط والغلال الاستوائية من غاباتها الطبيعية ، وأهل هذا القسم الجنوبى أعجب متوحشى الدنيا قاطبة هم والحيوان سواء ، يمكن الانسان دراستهم حتى ولو جهل لغتهم ، كما يفعل (دارس) العجماوات فهم أبناء الطبيعة الفطيرة بسطاء ذوو أجسام شاهقة وعضلات مفتولة مدربون على التمرينات العضلية وأخصهم بالذكر الشلوك والدنكة والنوير ، فهم حقاً المادة الآدمية الغفل الذين لم يتقدموا خطوة واحدة منذ عهد أمين باشا واسماعيل باشا الكبير ، أولئك سكان النصف الجنوبى ، أما فى السودان الشمالى من نحو ٣٠٠ ميل جنوب الخرطوم إلى حدود مصر ، فالجنس السائد هو العربى ، وهم أرقى بكثير من أهل الجنوب رسخت فيهم المدنية العربية ولم ترسخ فى الجنوب ويقولون إنها آخذة فى الزوال فى تلك الأنحاء الجنوبية ، واخر قبائل العربان جنوباً البقارة

ولا يكادون يفوقون جيرانهم من الشلوك حضارة ، أما قبائل العرب حول النيل الأزرق فهم من أرقى الناس أدباً وشجاعة ، وهم صيادو أخطر الحيوانات بالحراب من متون خيولهم ، ويسمونهم قبائل (هام رام) وأشباههم أهل نهر العطبرة ، ثم نزلاء البحر الأحمر وقبائل (فوزى ووزى) أشياع عثمان دجنا) الذين غالبوا المدافع الحديثة إبان ثورة السودان ، وهؤلاء يعرفون بالقسوة لدرجة هى الوحشية بعينها ، والبقارة وفدوا من الشمال الغربى من بلاد البربر ، وفى سنة ١٧٧٦ ظهر السلطان هاشم الذى اتخذ الأبيض عاصمة له وبعد ذلك بعشر سنين غزا بلاده شعوب دارفور (الكنجارا) وسادوا حتى كانت الحملة المصرية سنة ١٨٢١ ، أما عن تاريخ بحر الغزال فلا نعرف شيئاً باليقين ، ويظهر أن قبائل الدنكا غزوه من الشمال ثم أعقبهم قبائل (أزاندى) من الجنوب منذ مائتى سنة ، ثم كانت بعثة محمد على باشا إلى بحيرة نو سنة ١٨٤٠ ، ثم أعقب ذلك بعثات من سفن تجارية وصلت إلى مشرع الرق ، وإبان ثورة المهدى نشط تجار الرقيق من العرب فكانوا يسوقون إلى السواحل الشرقية ثمانين ألفاً من العبيد فى كل عام .

من نيمولى إلى جوبا : أقلتنى سيارة لشركة النقل التى تتعهد لدى حكومة السودان بالنقل فى تلك الشقة مقابل ثمانية جنيهات عن كل مسافر وأربعة ملليمات عن كل رطل من المتاع ، ويظهر أن للشركة الحق فى رفع الأجور هكذا وبخاصة فى هذه الأيام الكاسدة فمثلا لم يكن معى يوم سافرت أحد فكنت أنا المسافر الوحيد الذى جاء من أجله سيارتان إحداهما صغيرة للركاب والأخرى كبيرة (لورى) لنقل المتاع مع العلم بأن هذا النقل لا يحصل إلا مرة كل أسبوعين والطريق ١٢٥ ميلا قطعناه فى خمس ساعات ، هنا بدأنا نسير صعداً فى طريق معبد متسع يتلوى فوق الجبال التى تكسوها الأشجار القائمة ، وكلما علونا ظهر النيل من دوننا فى طية فضية نحيلة بجانبه بساط متسع من الخضرة ، ثم أخذنا ننزل الجانب الآخر لتلك الربى فهوينا نحو ٣٥٠ متراً إلى سهول سوداء التربة

عظيمة الخصب بلغ من خصبها أن العشب البرى طغى على الطريق المرصوف فغطاه فى غالب جهاته إلى علو كان يخفى سياراتنا تماماً وكل تلك أراض مهملة لا إنسان فيها إلا نفر من قبائل مادى وأشورى مبعثر عار حتى عن ذلك الشريط الذى كنا نراه يتدلى وراء أهل نيل البرت . هناك قلت أين الأيدى المصرية التى اعتادت فلاحة الأرض فتستنبت منها ذهباً خالصا وفيرا ، وهى هنا تحتاج إلى كبير عناء فالرى بالمطر مكفول طوال ثمانية شهور فى العام وليس بها من الحزون التى رأيناها فى أرض كنيا وأوغندا إلا اليسير ، وقد كان هذا من رأى اليونانى سائق السيارة الذى أخذ يحدثنى عن الأيدى المصرية وفعلها السحرى فى الحقول — وقد أقام عندنا أمداً .

هنا لاقانى بعض إخواننا من الموظفين الأقدمين ، وأضافونى برهة وقصوا على طرفا مما يجرى فى السودان اليوم ومحاولة الفصل بينه وبين مصر بكافة الوسائل كابعاد الجند وإقالة الموظفين ، وقد بدأوا محو اللغة العربية واهمالها فى المخاطبات الحكومية ، على أن الحالة المالية كاسدة منذ برح الجيش المصرى البلاد وكل سنة تمر تخلف عجزاً مالياً كبيراً وهم السلطات منصرف إلى الانفاق على القطن فى الجزيرة على أنه لا يبشر كثيراً . مررت فى الطريق على سبع قناطر تعبر نهيرات سريعة أهمها نهر (اسوا) الزاخر المضطرب كثير المساقط ، وفى أخريات الطريق عادت الجبال وأخذنا نعلو ونهبط وسط ذاك النبت الوفير حتى وصلنا حافة النيل المضطرب كثير الجنادل التى رأينا من بينها جندل فولا ، وبعده دخلنا بسياراتنا ساحة تجرها باخرة صغيرة عبر النيل الذى كان إذ ذاك طامياً بالماء إلى حافته فى لون قاتم وتيار جارف ، ووراء الجانب الآخر دخلنا :

جوبا : وهى منشأة حديثة بها مجموعة من المبانى الصغيرة ذات السقوف المتحدرة ، وينزل الطريق الوحيد الرئيسى إلى النيل حيث ترسو البواخر التى تقوم مرة كل أسبوعين ، اتخذت المدينة مبدأ الانتقال إلى الشمال لابد من

الرجاف التي تقع بجوارها إلى الجنوب وهي قرية قديمة وأكبر من جوبا ، وكانت البواخر تقوم منها مخترقة فجوة بين الجنادل فآثر القوم اجتناب أخطارها واستبدلوا بها جوبا ، والربوة التي تقع عليها الرجاف ترتجف أبداً ، ويقول القوم إن هزات الأرض أخذت تتزايد في هذه الأيام ، فلقد اهتزت منذ أول العام ثلاث هزات عنيفة ويخشى القوم انفجاراً بركانيا يحتمل حدوثه أما جوبا فليس بها إلا بعض محال تجارية أكبرها لطائفة من الاغريق يبيعون فيها كل شيء بين مأكل وملبس ومشرب ، ولاحظت أن الهنود اختفوا تماما رغم أنهم كانوا أصحاب المتاجر في كل شرق إفريقية ، ويلي الاغريق من الغرباء السوريون ثم السودانيون وأقلهم المصريون ، على أني هنا بدأت أشعر بأني في وطني إذ بدأت اللغة العربية تحل محل السواحلية وكثير من الاهلين على وحشيتهم يتكلمونها . حملت الباخرة التي تدفع أمامها باخرة أصغر منها لركاب الدرجة الثانية بجانبها صندلان كبيران يوثقان فيها ويحملان ركاب الدرجة الثالثة وبعض البضائع وخشب الوقود ، وفي الثامنة من صباح الأحد ٤ سبتمبر أقلعنا نشق النيل الطامي العكر ، وأخذ يتلوى ليات وعرة تحف ضفافه أراض وطيئة يكسوها عشب برى كالحلفا وهي أرض خصبيه تعوزها الخبرة والأيدي العاملة ، وفي التاسعة مررنا بمكان غندكرو إلى اليمين فلم نر ما يدل على وجود مدينة قط بل عدة أكواخ من خلفها بعض التلال وهنا كانت بقايا محطة السير صموئيل بيكر واضحة ، وكانت محطة عسكرية هامة للجنود المصرية منذ عهد أمين باشا ، أما الجو فكان دفئا جميلا ، وما حل الظهر حتى كنا نرسو على منجلا فظهرت بها بعض المباني من الآجر الأحمر ، وفريق من الأهلين افترشوا الأرض بمبيعاتهم من قصب السكر والفاكهة خصوصاً الموز والجوافة والپوپوز ، والقشدة التي كنا نشتري الواحدة منها بمليم ، وغالب البائعين من قبائل الباري أشداء الجسوم طوالها فكثير منهم يصل سبع أقدام ويزيد ، وقد وقفت بجانب أحدهم فكنت قزما ، وأعجب ما فيهم رجالهم الذين يسيرون

عرايا وكأن عدم ستر العورة أمر فطرى طبيعى ، وبعضهم يضع سواراً أو اثنين حول الساعد وعند الرسغ وبعض الخواتم والأقراط ، وأخصاصهم دقيقة البناء نظيفة لكنهم لا يزالون على الفطرة ، وكثيراً ما يضع الرجل عقداً من خرز أزرق أو أحمر حول خصره العارى ، والمدينة كانت مقر المديرية ، لكنها هجرت الآن واتخذت جوبا مكانها فأصبحت قرية لا شأن لها وكنا نراهم يهدمون المبانى المصرية شأنهم فى جميع البلدان التى تبدو متمصرة عن غيرها محاولين أن ينسى الناس بعد حين كل ماهو مصرى .

بعد ساعتين مررنا بمرسى (سمسم) الصغير الذى تزود السفينة فيه بالأخشاب وكانت مكدسة على الضفاف بمقادير كبيرة وأخذ النيل يتلوى ليات متعاقبة كانت تبدو فيها وظيفة الجرف فى الضفة المواجهة للتيار فكان يرى الطين فيها مشرفا زهاء ثلاثة أمتار ، أما الجانب المقابل له فتكاد تسده الأوحال والرواسب وكانت السفينة كلما دارت دورة اندفعت إلى العشب رغما عنها فأوغلت فيه بقعقعة مخيفة ، ثم تتخذ سبيلها بعد فى ماء النهر الطامى ولا أدرى ماذا تفعل إبان انخفاض الماء بين نوفمبر وابريل ، وبعد أكثر من ساعة وصلنا :

تركاكا : إحدى بلاد قبائل البارى بأخصاصهم الجميلة وبعدها اختنق النيل وزادت لفائفه وأعشابه حتى خيل إلى أنى دخلت فى صميم منطقة السدود مع أننا لا نزال فى مبدئها ، وقد ألفت نظرنا فى ذلك العشب أربعة فيلة يعرفهم القوم وتحميهم الحكومة مع أنها تصرح لمن يطلب أن يصيد فيلا واحداً . ولما كانت الرخصة تكلف الصياد عشرين جنيها . وثمن قنطار العاج هبط الآن إلى عشرين جنيها رغب الكثير عن الصيد إلا خاصة الهواة .

هنا جرى الحديث مع بعض المسافرين من السودانيين والأجانب وبعضهم من القائمين بشئون التعليم عن نظمه ، فعلمت أن هناك من المدارس الابتدائية حوالى العشر فى عواصم المديريات الشمالية إذا أتمها الطالب انتقل إلى كلية

غوردون فى الخرطوم وهى تنقسم إلى فروع عدة الغرض الأساسى منها تخريج طائفة من الموظفين ، وفروع تلك الكلية هى فى عرفهم الأقسام العالية يتمها الطالب فى أربع سنين والدراسة هناك سطحية وتقوم على التحفيظ وغالبها باللغة الانجليزية . وعلمت من الكثير من الطلبة أن التدريس قد انحط مستواه منذ برح الكلية جماعة المصريين من الأساتذة وبعضهم كان من المخضرمين الذين حضروا العهدين ، أما فى جنوب السودان حيث نحن الآن فالتعليم فى أيدى المبشرين ، والبعثات الدينية التبشيرية هنا تشجع كل التشجيع فمثلا تخفض لهم نفقات الانتقال إلى الربع ، وتقدم لهم الاستراحات يشغلونها أنى شاءوا ، وكان معى منهم فى الباخرة ثلاثة ، وكان بعضهم من الطليان ، وكانت الباخرة تقف خصيصاً فى مكان صغير ليس من مراسيها لنزول واحد منهم وتلك خطوة شبيهة بما رأيته فى أوغندا حيث التعليم كله فى أيدى المبشرين وليس للحكومة به علاقة إلا المعاونات المالية .

أما الدعاية للاسلام فتعاكس كل المعاكسة فاذا فكر أحدهم فى جمع إعانات لاقامة مسجد صغير منع من ذلك ، وقد بلغت الحال أن بعض المسلمين لا يشجعون على أداء شعائر دينهم هناك علانية ، وليس ذلك تعصباً دينياً بل هى فكرة متممة لفصل السودان الجنوبى عن الشمالى ليشبه أوغندا ، يؤيد ذلك ما قرأته فى الكتب الانجليزية عن السودان تلك التى تحاول التفرقة بين السودانيين ببراهين واهية ، إلى ذلك أن أهالى الشمال والجنوب يمنعون من السفر من طرف لآخر إلا بترخيص رسمى مع أنهم سودانيون من أبناء البلاد ، وكان يسافر البعض خلسة وكثيراً ما عوقبوا على ذلك وأعيدوا من حيث أتوا .

ولشد ما كان عجبى لأسلافنا الذين لم يحاولوا تمصير هذه البلاد وتحويل أهلها الهمج البسطاء إلى الدين الاسلامى الذى لو كثر معتنقوه لما أمكن محاولة الفصل بين الشمال والجنوب ، وتلك هى الفكرة السائدة فى نشر الدعوة فى كل شرق

إفريقية والسودان الجنوبي ، وما حركة نقل الموظفين الذين ينتمون إلى السودان الشمالي في اللغة والدين من الجنوب إلى الشمال أو الاستغناء عنهم هم والمصريون إلا أثر من آثار خطة الفصل بين السودانيين ، ويشاع أن السودان الجنوبي من نصف الجزيرة سيضم إلى شرق إفريقية ، ويميل الساسة إلى اطلاق اسم اتحاد شرق إفريقية على هذا الجزء مضافاً إلى أوغندا وكينيا وتنجانيقا ، وستكون حكومته شبيهة بحكومة اتحاد جنوب أفريقية !

بور : في اثنتي عشرة ساعة وصلنا بور على الضفة اليمنى من النهر وهي مدينة كبيرة بيوتها أخصاص دقيقة الصنع منسقة يفصل كل مجموعة منها سور من الغاب ، والطرق كلها تحد بسورين من جدائل البوص ، وبها بعض المحال التجارية في أخصاص فسيحة ومربعة وليست مستديرة كالمساكن ولها شرفات (ڤراندات) على عمد من خشب من جهاتها الأربع ، ومقر المركز الحكومي على المرسى مباشرة ، وهنا كان يقوم العلمان المصري الى جانب الانجليزي والمأمور سوداني قوي الجسم ، وقد كان المآمير من المصريين الذين استعيض عن بعضهم بالوطنيين السودانيين ، والغالب أن يحل مفتش انجليزي في المراكز الشمالية محل المأمور ، وقد كان لمركز بور مأمور ووكيل لكبره ، والمكان وطيء تحفه المناقع وأعشاب النهر التي لا آخر لها ، لذلك يعرف بكثرة البعوض كثرة مروعة ، وغالب الأعشاب من حشيش النمر والغاب وأم الصوف كسائر المناطق السابقة ، ولقد بدأنا ندخل بلاد شعوب الدنقة بدل أمم الباري . فمنا نتخبط في جوانب العشب التي كانت تعلوه باخرتنا ، ثم نحاول التخلص منه بمشقة كبرى وكم صدمنا من تماسيح وأفراس الماء ، وقد مرت بنا باخرة صغيرة عليها العلم المصري وبها فريق من المهندسين المصريين الذين يقومون بأبحاثهم في تلك المناطق الغامضة ومركزهم الرئيسي الملكال . وقد خبرني بعضهم أن تصرف النيل هنا كبير إذ يبلغ ٩٠٠ متر في الثانية لكن

المسارب الكثيرة هي التي تبدده . رأينا منها مسربا اسمه (فيڤنو) بدأ كالنهر الصغير لكن البحث أثبت أنه يسحب وحده نصف ماء النيل ويبدده في إقليم السدود .

ومن المشروعات التي يبحثونها تعقب ذاك المسرب الذي يجري إلى جهة هي أجف من منطقة السدود الصميمة الى شرقها ويقارب منبع الزراف ثم يعود فيلتوي عائداً الى ملاقاة بحر الجبل بعد أن يكون قد بدد ثلاثة أرباع مائه وهم يبحثون في وصله بالزراف الذي هو أقل خطراً على الماء من بحر الجبل اذ أن تصرف الأخير حول ألف م٣ في الثانية والآن لا يصل منها بحيرة نوسوى مائتين والباقي يضيع بالتبخير . وفي الحق إن المنطقة لمن المعضلات التي تحار في حلها كبار العقول ، لذلك لبثت مصلحة الري دائبة على بحثها منذ ١٩٠٧ الى اليوم ، ولما توفق بعد الى طريقة لانقاذ الماء لا ولا جزء مما تبدده تلك النقائع التي لا يبدو لها من نهاية ، وبواخر الري المصري كل يوم تدون الأرصاد الجوية والتصرفات وتقيس المسائح المحيطة بالاقليم دون جدوى .

لبثنا اليوم كله نمخر عباب ذاك العشب اللانهائي وكل آونة تطلع علينا مجاميع صغيرة من أخصاص أقيمت فوق العشب مطلة على النهر في مسافات متباعدة الواحدة تلو الأخرى ، وكان أهلها العرايا يسرعون بالظهور لتحيتنا من بعد .

وظلت تتلقفنا مطاويه فندخل صميم العشب بسفننا ونحاول التخلص منه بقوة البخار ، ومجهود الرجال الذين يقذفون في اليم والعشب وهو يغص بالتماسيح والأفراس وطالما اغتالت منهم عاثري الحظ ، وكان ربان السفينة الزنجي يقذف بنا عمداً إلى الضفة كي يكسر شرة التيار . وفي الصباح كان الجو غائماً مطيراً كما كان بالأمس ، وقد لاحظت أن العشب أضحى كله من البردي الذي امتد إلى الآفاق حتى خيل إليّ أن الله تعالى قد خص تلك المنطقة فجمع فيها

عشب الدنيا كله إلى ذلك فان تيار النهر بدأ فاتراً ذلك لأننا نقارب منطقة السدود الصميمة ، وفى التاسعة من صباح اليوم التالى رسونا على :

غابة شامبي : وهى قطعة من أرض وطيئة وسط المستبحرات الشاسعة وإلى جانبها يمد النيل بحيرة آسنة فسيحة وقد علا فيض النيل هذا العام فكانت البيوت سابحة فى نقائعه وهى مجموعة من أكواخ أنيقة غالبها مستدير ، وبها محلان تجاريان فى ملكية بعض العربان من سودان الشمال كما هى حال غالب المتاجر فى الجنوب ، وعلى البحيرة مباشرة تقوم المستشفى ودار الحكومة (وهى نقطة للبوليس) والاستراحة وأخص ما استرعى أنظارنا أهل البلاد من الدنكا حالكى السواد فى وجوه جمالها فائق الحد رجالا ونساء وغالبهم ينقشون جباههم بالتجريح البارز فى خطوط أفقية أو رأسية ، وكان بينهم كثير من أبناء النيام نيام لأن هناك طريقاً يمتد من شامبي إلى بلادهم فى بحر الغزال ، هنا استوقفنا جمع من الصبية يرقصون على نغم آلة موسيقية كالطنبور وهم يحركون أرجلهم حركات منظمة ومعقدة كأنها رقصة (شارلستون) وهم لا يملون الرقص مهما طال بهم الوقت .

فى صميم منطقة السدود

ساد البردى خشن الملمس شاهق العلو فى تماسك بالأرض شديد ، ووجوده دليل على زيادة العمق لأنه هو الذى يغالب العمق فيمد جذوره طويلا حتى تمسك شعابه بأوحال القاع ، ولا يؤثر فيه الماء قط ، ولم يكن مجرى النيل خلاله إلا قناة مختنقة فى ليات متعاقبة تكاد تكون طياتها متوازية تماماً ، وما فتئت باخرتنا تعانى صدماتها بارتجاج يهز القلوب كلما تلقفتها لية عن سابقتها ، وهنا كنا نمر بمحاط وسط النقائع يغطيها العشب ولم تكن إلا ثلاثة أكواخ أو أربعة يخرج منها جمهرة من العرايا يخوضون الماء وهم يطلون علينا ، وهذه متاجر صغيرة يفد إليها الهمج من أقاصى إقليم السدود يبتاعون متاعهم الضئيل ، وقد باغتنا سحاب من الجراد الذى كان يحط على ذاك العشب ويأكله رغم خشونته ، والجراد هناك من أخطر الآفات ولو أن الأهالى يأكلونه بكثرة ، وكان يتعقب تلك السحابات أسراب من طير الماء الأبيض ليلتهم منه ما استطاع ، وبحر الجبل هنا هادىء الماء رائقه سطحه أملس لا تعلوه موجة قط اللهم إلا كلما نفر تمساح كسول أو فرس مروع فقد بدا كالزيت لوناً وشكلا وأخذت جزائر العشب الطافية تعترضنا بين فترة وأخرى أو ترتطم بالضفاف فى سدود لا نهائية ، وفى الحق فالمنطقة بأعشابها وسدودها ومناقعها ليحار فيها اللب ولا يعرف مداها إلا علام الغيوب ، وعجيب أن كان البردى يكسوه كثير من النبات الطفيلى المتسلق عليه ، وكم أمسكت مع جمهرة من صحبي فى السفينة بأعواد محاولين اقتلاعها فكانت تجتذبنا إليها فى متانة لا يصدقها العقل ، وهنا كان يكثر فى الماء نبات يطفو وهو يشبه (الكرنب) الصغير أو الزهرة الخضراء الكبيرة إذا انتشلتها كانت أعراشها وجذيراتها ملبدة كثيفة تبلغ أضعاف حجم الزهرة نفسها ،

وقد لاحظ بعض من أقاموا حول منطقة السدود طويلا خصوصا عند بحيرة ـ أن كرنب الماء هذا يسير واحدة فواحدة كأنها الطبق الصغير ، وفى المكان الهادىء يتجمع ويدور فى هدوء وحيث يقل العمق تمسك جذوره بالطين ، وبعدساعة واحدة يصبح حجم الجزيرة الصغيرة التى تألفت من ذاك الكرنب كالمائدة الكبيرة ، وفى الصباح كانت الجزيرة فى حجم الكوخ الكبير ، وبعد يوم آخر ضوعف حجمها ست مرات ، ولما فحصت جذوره كانت متماسكة بشدة فى أوحال القاع ". فاذا كان هذا فعلها فى يومين فصور لنفسك ما تم هناك فى الأجيال السحيقة الغابرة فلا عجب أن ترى فى منطقة السدود جزءاً من النيل طوله ٤٠٠ ميل يركد ماؤه ويتجمع حول كتل (الكرنب) هذه نبات الماء الآخر كأم الصوف أو حشيش النمر والبردى ، وبعضها يفوق خمسة أمتار فى العلو وضعف ذلك فى جذوره .

هكذا تكونت منطقة السدود التى تسد مجرى النيل فى وسطه فى مساحة قدرت بنحو خمسة وثلاثين ألف ميل مربع ، أى نحو أربعة أمثال الأراضى المنزرعة من القطر المصرى ، ولا تلبث أن تنفصل كتل من ذاك العشب المتماسك ولشدة ضغط الواحدة على الأخرى تراها تعلو بعضها البعض ، ومثل هاتيك تخشاها السفن فان لامست إحداها فقد يتعذر عليها الخلاص ، وإن حصرت السفينة بين كتلتين تضغطانها حتى تتهشم الباخرة تماماً ، وقد حدث ذلك مراراً ، وتلك الكتل تلتئم تارة فتسد الآفاق ولا تلبث أن تنفصل بقوة الضغط عليها فتندفع إلى غيرها وهكذا . هنا يقف ماء النيل ويتخللها فيبدد نصفه على الأقل بالبخر والمسارب الجانبية مما أعاق التقدم الزراعى بين كثير من شعوب تلك الجهات ، على أن بعض هذا الماء المبدد فى المسارب يرد إلى النهر إبان الغيض .

منطقة لا ينساها من يخترقها ، إذ يظل يذكر منظرها الموحد الممل المقبض طوال حياته ، هنا يلبث العابر يشق الاقليم يوما بعد يوم فى طريق مختنق

شقه وسط العشب ولا يزال يعانى الإنسان كثيراً فى المحافظة عليه خشية أن تسده تلك الطافيات وكلما طوح ببصره لم يلق غير العشب ، ويزيدها كآبة أنها موات لا يكاد يرى بها من الحياة الحيوانية شيء اللهم إلا فى بعض الفيلة وأفراس الماء والتماسيح ، ونوع من الغزال خاص بها هو (ستوتونجا Situtunga) أعدت حوافره لتلائم المناقع ، فهى حوافر طرية مرنة أقرب إلى الطير المائى ، وفى أسفلها نتوءات مرنة كالمطاط بدل الشعر الذى نراه أسفل حوافر الغزلان عادة وذلك لتسهيل السير فى الأوحال والأعشاب .

وسحائب البعوض وبخاصة إذا جنّ الليل لا يمكن مغالبتها ، بعوض كبير الحجم كان ينفذ إلى صميم شباكنا من سلك وقماش ، فلا نشعر إلا والالتهاب الممض قد أخذ من سوقنا وأذرعنا رغم ثقيل الثياب ، وخير ما كنا نتقيه به التعجيل بالنوم بعد تطهير الفراش ، ولذلك لم نعجب إذ كانت المنطقة مهددة بالملاريا والحمى السوداء التى يتقيها القوم بتناول الكينين كل يوم ، ورغم ذلك قلما ينجو منها أحد . إلى ذلك نوع من ذباب تسى تسى الذى ينشر مرض النوم

الى النيل الابيض : لبثنا نسير شمالا وقد استقام المجرى وأخيراً بدت إلى يسارنا فتحة فى النهر يكاد يسد العشب غالبها ، ولما أن جانبتها ظهرت فى امتداد إلى الآفاق ناحية الغرب ، وكنا نرى الضفاف إلى شمالنا وجنوبنا ، وكان الماء راكداً ليس للتيار فيه من أثر ، وتلك هى بحيرة نو أو مقرن البحور ، مصب بحر الغزال ذاك الذى لا يمد النيل بشيء يذكر رغم سعة حوضه وتعدد روافده ، أخذنا نميل إلى الشرق داخلين إلى بدء النيل الأبيض ويظهر أن بحر الجبل لا يصب فى البحيرة بل إلى شرقها بقليل ، هنا انفسح المجرى وأخذ العشب فى القلة ، وقد مررنا على مرسى هام هو (تونجا) بمخازنها الحديدية تشرف على النهر وأخصاصها النائية ، ومنها يمتد طريق الى تالودى عاصمة جبال النوبة لذلك كانت شهرتها التجارية ذات شأن يذكر ،

وغالب السكان هنا من قبائل النوير والنيام نيام الوافدين من بحر الغزال إلى غرب بحيرة نو .

إلى السوباط : أخذ النيل الأبيض فى الاتساع والهدوء ، وقد اختفى البردى والغاب الطويل ، وأضحت الجوانب أرضاً مبسوطة إلى الآفاق يكسوها عشب برى قصير ولا يعترض هـذا البسيط الأخضر سوى بعض الشجر المنثور ، على أن النهر فى وشطه يغص بخليع النبت ورم العشب فى كتل مختلفة الحجم وهى التى يدفع بها بحر الجبل إلى هنا ، لذلك كانت تعوز النهر النظافة ، وأخيراً لاقانا نهر سوباط بزاوية قائمة فى تيار هادىء يبدو على بعد أملس كأنه النيل الأبيض لـكننا لما جزناه لاحظنا تغيراً فى لون الماء وغزارته فقد كان جانبه الأيمن عكراً لـكنه يغاير طمى مصر فى أنه أميل إلى الحمرة ، وإلى اليسار ظل ماء النيل الأبيض رائقاً إلا فى بقـايا النبات المنحل الذى يكسبه لوناً خفيف الحمرة ، وبعد قليل ساد ماء السوباط العكر وكان قد هبط فيضه إذ ذاك أما اتساعه فمحدود ضيق إذا قورن بنيل مصر ومن هنا بدأنا نرى جرفا طينية للنهر واضحة لو أنها لم تـكن متصلة بل تخللتها بعض المناقع . والجوانب يكسوها عشب كأنه الشعير وقد جزنا خرائب التوفيقية التى كان لها شأن يذكر من قبل لـكنها أهملت تماماشأن سائر المدائن المصرية العريقة ، وأقبلنا على :

الملكال : عاصمة أعالى النيل ، ظهرت مدينة كبيرة ذات مبان ممدودة وحدائق منسقة تطل على النهر الذى كان يزينه عقد من بواخر غالبها لمصلحة الرى المصرى ، والمدينة محطة الرى المصرى الرئيسية . تقوم فيها مكاتبه ومساكنه مشرفة على النهر فى هندسة أنيقة ، ومن ورائها مدينة الأهالى فى مجموعة من أكواخ غالبها دائرى مخروطى من جدائل القش يكسى بالطين ، وفى طرف من المدينة المطار الذى ترسو عليه سفائن البريد الجوى الامبراطورى وإلى جانبه دار المديرية والمركز ، وخلفهما مساكن الموظفين من الانجليز

وبين قسم المديرية وقسم الرى يقع السوق فى كتل من المبانى الساذجة تغطيها سقوف من حديد ، ولهـا شرفات مظللة تفتح الحوانيت أبوابها عليها وغالب المتاجر فى أيدى اليونانيين وترى فى الحانوت الواحد كل شىء على صغره ، من بدالة وأقمشة وخبز وطعام ، وسكان المدينة أخلاط منهم السودانيون المسلمون ويظهرون فى ملابسهم البيضاء الفضفاضة وعمائمهم الكبيرة ، ومنهم مشايخ البلد يسيرون وراء مأمور المركز وهو ضابط سودانى اما الهمج فغالبهم من الشلوك .

ولعل أجمل ما راقنى بالمدينة القسم المصرى ذاك الذى تقوم قصوره تحفها حدائق غناء وتزود كلها بالمياه المرشحة من مضخات آلية وتضاء بالكهرباء وتزود بالاثاث الفاخر فى مظهر يدل على السخاء المصرى العظيم ، والغريب أن أغلب الموظفين من غير المصريين ، وتحت تصرف القسم أسطول كبير لا عمل له إلا القيام برحلات إلى مناطق السدود وما جاورها ذهابا وجيئة ، لم تفدنا بما يعادل نفقات سنة واحدة طوال السنين التى خلت ، ومن رأى غالب المهندسين المصريين الذين تحدثت إليهم أنها أبحاث ضائعة لا خير فيها ، على أنها إحدى وسائل التفريج عن الكربة التى يعانيها السودان اليوم ، ولم يقف سخاؤنا عند هذا الحد بل أنهم شرعوا يقيمون فى الخرطوم دار عمارة للاسطول المصرى زرتها وستكلفنا غاليا ولا يكاد يرى أحد ماوراءها من فائدة !

غادرنا الملكال فكانت الشواطىء تزينها أشجار من (نخيل دليب) فروعه تبدو فى مراوح مسننة (كاللاتانيا) وله ثمر أصفر فى حجم النرجيل ذو لباب شبيه بالشمام شكلا وطعما ، وهو غذاء هام للاهالى إلى ذلك جذوعه التى ينقرها الناس فى زوارق لا يزيد عرضها على ذراع وقد يبلغ طولها الامتار وكثيراً ما كنا نرى الرجل يمسك بمجداف قصير ويسير به سراعا فان قارب السفينة انزوى بزورقه فى العشب ، وهناك نوع من الزوارق هو حزمة من غاب اسمه (امباش) تربط مدببة من طرف ، وعريضة من الآخر يرميها الرجل

فى النهر ، ويجلس وسطها ورغم الماء الذى يتخللها فهى لا تغرق لخفتها ، وإذا ما انتهى الرجل من صيده صعد البر ، وحمل زورقه هذا على كتفه ، بعد أن يجففه فى الشمس برهة .

لبث النيل طويلا فى اتساع عادى هو دون اتساع نيلنا فى مصر فلم يؤيد ما كنا نعلمه من مداه الشاسع، على أن العشب كان يحف به وكنا كلما قاربناه وصادمته السفينة قفز منه تمساح أو اثنان ، ويظهر أن ذاك العشب داخل ضمن اتساع النهر يؤيد ذلك أنه كان يخلو من الشجر إلا عند الأفق ، وتلك المتسعات لاشك سيغمرها ماء النهر عقب اتمام خزان جبل الأولياء ، ويصل الماء إلى جوار الأراضى الخصيبة النائية ، ويمكن من ريها على حسابنا بسهولة وقد أخذ النهر يتشعب بين جزائر متعددة عند إحداها رأينا كودوك مقر ملك الشلوك (عمالقة السود وأكثر الهمج وحشية يحلون قسما من منطقة السدود فى أعالى النيل) .

فى النيل الابيض : أخذنا نشق عباب النهر الذى زاد اتساعه وقربت الأشجار من جوانبه . وإن كانت لا تزال تكسوها الأعشاب القصيرة وخصوصاً أم الصوف وأخذت كتل العشب الطافية تندر كلما سرنا شمالا ، وأخذنا نرسو على محاط صغيرة بعضها لم يزد على دير واحد وقفنا لنلتقط بعض القسس أو نلقى اليها ببعض المبشرين ، ولعل أكبر المحاط : كاكا التجارية على يسار النهر ، وكان لها شان تجارى عظيم لأنها تتصل بمديرية جبال النوبة بطريق للقوافل الى تالودى عاصمتها ، وقد بدت اخصاص المدينة ممتدة الى مسافة عظيمة فى الداخل وعلى النهر تشرف مبانى الحكومة ومركز المأمور وأجمل ما كان يزينه العلم المصرى ، ثم دار التلغراف ومساكن الموظفين الذين أنقص عددهم اليوم جداً قصداً وتوفيراً ، هنا أدهشنى رخص الدجاج والخراف ، فقد رأيت رجلا يساوم فى شاة كبيرة انتفخ بطنها بالحمل فبدأ بخمسة قروش ، وكان صاحبها مستعداً أن يبيعها بعشرة أما الدجاجة الكبيرة

فيقرش واحد . وقد ألفت نظرى استخدام القوم جميعاً للسواك فترى الواحد يكلمك والسواك فى فمه يدعك به لثته وأسنانه بعنف شديد عناية بالأسنان التى يتمدحون فيها صفاء لونها ، ولقد نظر إلىّ غلام من الدنكا فى غابة شامى فلم تعجبه أسنانى ، ونظر إلى صديق لى كانت أسنانه أكثر لمعاناً وأنصع بياضاً ، وقال له : أنت رجل عظيم لأن أسنانك بيضاء . على أنهم يكثرون من البصق فى شكل منفر . ولقد استرعى نظرى هنا قوم من السود هم أقصر قامة وأغلظ أجساداً من الشلوك ، وكان بعضهم يلف على جدائل شعره أصابع بيضاء علمت أنها غذاؤه اليومى يعجنه حول شعره ويأكل منه أنى شاء ، وذلك لديهم أسهل حملا خصوصاً وأنهم عرايا ليس لديهم من جعب أو جيوب ، وهذا الشعب يطلق عليه اسم دار النوبة .

إلى الخرطوم : تقدمنا فى النيل الأبيض الذى زاد اتساعه على كيلومترين ، وكانت المصانع حوله تنتثر بالشجر غالبه من السنط ولم نر الربى إلا فى موضعين : جبل أحمد أغا ، وهو مخروط بركانى وطىء تكسوه الخضرة والاسم لطبيب تركى أقام هناك ، ويروى القوم عنه أنه لما رأى الضباع قد كثرت حول المكان فأضحت خطراً جهز سماً وناوله ضبعاً وتركه فمات ، وانقض عليه قطيع من الضباع وأكلوه ـ والضبع يأكل جيفة أخيه ـ فماتت متفرقة ونشرت بذلك الجيف المسممة التى كادت تقضى على النوع كله . أما الموضع الثانى فاسمه (الجبلين) وهى سلسلة من مخاريط بركانية فى مجموعتين وأديمها نصف عار ، وغالبها من الجرانيت البراق ، وعلى سفوحها المجانبة للنهر تمتد مدينة لها شأن فى تجارة السمسم والفول السودانى ، وهنا تقريباً خط ١٢° من العروض الشمالية وهو الذى يعدونه فاصلا بين السودان الشمالى الاسلامى والجنوبى الوثنى ، حتى أن الموظفين الذين يقيمون جنوبه تحسب لهم السنة بسنة وثلث فى المعاش ، وكانوا يمنحون بدل مناخ وإن كان قد أبطل ذلك اليوم بسبب الأزمة الحاضرة ، وهنا لاحظنا

ظهور البيوت من اللبن يكسوها الطين وتغطيها سقوف مسطحة ، وفى أربع ساعات وصلنا بقعة من النهر قليلة الغور يكسوها الحصى الكبير لذلك يسمونها (الزلاطة) تقوم فيها وسط الماء علامات بها يجتنب الربان السير إلا فى الجزء المختنق من أقصى يمين النهر .

ولقد استرعى نظرى فى أيدى الناس هنا الغلايين الطويلة التى يدخنون فيها مادة اسمها (البانجو أو الكمنجة) هى مخدرة للغاية وتشبه (الحشيش) والنبات ينمو كالبرسيم ثم يزهر ويثمر حباً يقطف أعلاه ويجفف ثم يباع للتدخين ، ورغم أنه محرم فان القوم رجال ونساء وأطفالا يدمنونه . ويقال إنه يزرع بمقادير هائلة فى الجهات النائية عن رقابة البوليس . ونظام الحكم فى الريف ينحصر فى الناظر وهو رئيس القبيلة ومن تحته العمد ومن تحت هؤلاء المشايخ وكلهم تعينهم الحكومة وقد ربطت لهم مرتبات ، وهم يشكلون محاكم لها سلطة محدودة تدون فى (دفتر السلطة) الذى يتسلمه الرئيس ، وقد كانت العادة قبل أن تربط لهم المرتبات أن يتناولوا نصف الغرامات التى كانوا يحكمون بها على الأهالى لذلك كان القضاة يحكمون بأقصى العقوبة لأتفه الأسباب وتكاد تعم هذه الطريقة البلاد كلها حتى التى كانت من قبل مراكز هامة إبان العهد المصرى ، وهناك مفتش انجليزى يمر ويشرف على الجميع ، ولقد كان الناس يبغضون المأمير المصريين قديماً لأنهم كانوا قساة فى تنفيذ الأوامر ، يجبون الأموال قبل حلول ميعادها كى يحوزوا خطابات الشكر من المديرين .

دخلنا قنطرة كوستى معبر سكة الحديد الى كردفان وبتنا ليلتنا بجوارها وفى باكورة الصباح جزناها ، وفى مدينة كوستى آثرت أن آخذ القطار إلى الخرطوم بدل مواصلة الرحلة بحراً اقتصاداً فى الزمن إذ بالحديد اثنتا عشرة ساعة وبالماء يومان ، وشجعنى على ذلك أنى علمت بأن جبل الأولياء لم يبدأ العمل فيه حتى ولا التمهيدى ، أما كوستى نفسها فتحكى مركزاً صغيراً عندنا غالب بيوتها أخصاص بسيطة ليس بها ما هو جدير بالذكر . غادرناها نشق عرض الجزيرة فى أرض

مبسوطة مهملة تربتها حمراء يكسوها العشب البرى وتتخللها نواتىء الجرانيت وهى بقايا الصخور القديمة التى حلتها عوامل التعرية وكست بفتاتها تلك المتسعات تاركة هذه النواتىء لأنها أشد صلابة وأبقى على الزمان ، وكانت القرى التى مررنا بها صغيرة ، ونادرة ، وعند سنار — وهى مدينة صغيرة لا تفوق كوستى — انحدرنا شمالا وأخذت التربة تسمر قليلا وتشوبها المركبات الطفيلية المصفرة التى كنا نراها ذائبة فى مياه المطر الغزير وكان يملأ مسائح شاسعة ويهدد سكة الحديد بالقطع ، ثم بدت قناة الجزيرة الرئيسية وهى دون رياح من رياحاتنا تسير موازية للنيل الأزرق ومجانبة له ويحفها من الجانبين سلاسل متصلة من كومات الثرى الذى استخرج من جوفها يوم حفرتها (الكراكات) التى كنا نرى الكثير منها صدئا مهملا وبين آونة وأخرى كنا نمر ببقاع زرعها ذووها ذرة وإن كانت أغلب الأرض مهملة وكلما تقدمنا شمالا انفسحت السهول إلى الآفاق فى انبساط لا تكاد تشوبه ربوة أو حفرة أو انحدار ، وتقاطع القنوات الفرعية التى تسير فى استقامة متعامدة لا يدخل تحت حصر وهنا زادت مسائح الذرة وبعد حصدها يزرع القطن عماد ذاك المشروع ، والتربة هنا شبيهة بتربة مصر السوداء إلا أنها أخف وأميل للاصفرار وقد علمت أن سمكها لا يزيد على ثمانين سنتيمتراً من دونها الصخر الصلب إلى ذلك فإن درجة خصبها لم تحقق آمال ذويها ، فقد كان محصول القطن فى جميع السنين السالفة غير مرضى لافتقار التربة إلى الخصب والبلاد إلى الأيدى الماهرة ، إلا أن محصول عامنا هذا كان وفيراً كما يقولون لكنه كلف الحكومة نفقات هائلة فى التسميد والعمل لا يعوض ما أنفق القوم عليه ، والقطن هناك يزرع شتاء ويحصد فى الربيع وينضج سريعاً فى خمسة شهور والأرض التى تكسوها الذرة الآن من أملاك الشركة تبيح للأهالى زرعها غلالا على شرط أن يدفعوا ثلثها للشركة والثلث ضريبة الحكومة والباقى لهم ، وقد اشترت الشركة جل أراضيها هذه من الأهالى بمتوسط قدره خمسة جنيهات

للفدان ، والاقليم كله نادر السكان مبعثر القرى غالبها يبنى بالطين واللبن وقل أن نرى الأخصاص المخروطية ، والسكان جميعا من سلائل العرب يلبسون الجلابيب البيضاء الفضفاضة والعمائم الخفيفة الضخمة والأحذية الحمراء (مراكيب) ويتكلمون العربية المحرفة ويدينون بالاسلام وأنت ترى على خدودهم خدوشا طويلة يشقونها لتدل على قبائلهم بعضها ثلاثة خطوط طولية متوازية والبعض عرضية ، وآخرون خطان طوليان يصلهما فى الوسط ثالث أفقى كحرف H وغيرهم ثلاثة خطوط كبيرة فوقها ثلاثة صغيرة .

الخرطوم : واسمها مشتق من خرطوم الفيل لأن شبه الجزيرة التى تقع عليها يمتد لها طرف معوج فى شكل خرطوم الفيل وهى تقع على الضفة اليسرى والجنوبية للنيل الأزرق يقابلها على الضفة اليمنى الشمالية (الخرطوم بحرى) والنيل الأزرق يتركهما غربا فتشطره جزيرة توتى إلى شعبتين أفقية ورأسية والأفقية تلاقى النيل الأبيض فى زاوية قائمة يمتد بعدها شمالا إلى النيل الأعظم ، وعلى الضفة اليسرى الغربية تقع أم درمان التى سميت كذلك وراء امرأة تقية كانت تتعبد وحدها فى ذاك المكان ، أنشأ الخرطوم محمد على باشا الكبير بين سنتى ١٨٢٣ و ١٨٣٠ ، وقد رآها النمساوى (أرسلان بك) موفدا من قبله وهو الذى أشار بأن موقعها أمنع مواقع شرق إفريقية قاطبة ولم يكن بها إذذاك إلا بعض أكواخ حقيرة للزنوج . والمدينة حديثة التنسيق حاول اللورد كتشنر تنقيح تصميمها كى تحكى تخطيط العلم الانجليزى Union Jack وليسهل استخدام مدافعه فى رءوس الشوارع متى أراد ! وقد كان يحاول ذلك فى القاهرة نفسها ، وطرق الخرطوم فسيحة مرصوفة الوسط رملية الجوانب فى غير إطار تحفها أشجار مختلفة غالبها لم يبلغ علوا كبيرا ، ولقد أذكرتنى (بالزيتون) فى أنها رملية وكل بيوتها من طابق واحد غالبها يقام بالآجر الأحمر الصغير، ولعل أجمل شوارعها شارع البحر (شارع كتشنر) وعليه حديقة الحيوان الصغيرة التى زرتها فبدت مجموعتها بائسة صغيرة . ثم قصر الحاكم العام وهو

أفخر قصور المدينة بنى على النظام القوطى يعلوه العلمان المصرى والانجليزى وفى جزء منه بقايا قصر غوردون والمكان الذى قتله فيه الدراويش ثم قصر سلاطين باشا وفى آخر الشارع كلية غوردون التى أقامها كتشنر تذكارا لغوردون بمال اكتتبت فيه جهات الامبراطورية البريطانية كلها وهى أقسام أهمها : قسم الطب وله بناء خاص يجاور محطة سكة الحديد وقسم المعلمين وقسم الحساب . وكلها ترمى إلى تخريج طائفة من الموظفين فحسب والمواد تدرس فيها باللغة الانجليزية وغالب المدرسين من الانجليز ، وكان للمصريين فيها نصيب لكنهم استبدلوا بهم طائفة من السودانيين ، وكان بالكلية قسم حربى لتخريج الضباط لكنه أغلق عقب ثورة سنة ١٩٢٤ عقابا للبلاد وإماتة للروح العسكرية فيهم والضباط يرقون من الجنود . وبناء الكلية فاخر للغاية مقسم إلى أجنحة من خلفها حديقة منسقة على نظام حديقة (الجامعة الأمريكية بالقاهرة) ، وأجمل ما راقنى مظهر الطلبة وهم يلبسون الجلابيب البيضاء والعمائم المنتفخة المهفهفة والأحذية الحمراء (المراكيب) كل يتأبط كتبه ، وخلف الكلية بناء خاص لمنازل الطلبة وغالبهم يتخذون المدرسة سكنا (داخلية) ، ومن المبانى الفاخرة فى شارع البحر (جراند أوتيل) يحكى شبرد عندنا ثم غالب مبانى الحكومة ، والشارع تزينه أشجار اللبخ على جانبيه وتتعانق فى أعلاها فتحكى أقواس النصر وله رصيف على النيل مستقيم ، وهو خير مستراض ساعة الأصيل يليه فى الأهمية شارع (غوردون) الذى يليه موازيا له وتقوم عليه غالب قصور الانجليز يتوسطه تمثال غوردون يلبس الطربوش ويمتطى جملا . وبالمدينة ترام حديث يصلها بالخرطوم بحرى وبأم درمان ، وهو لشركة انجليزية وأجوره غالية ، وبين الخرطومين قنطرة على النيل لمرور الناس والترام وسكة الحديد ، والخرطوم بحرى قرية أشبه (بعين شمس) غالب بيوتها صغيرة وطيئة تبنى باللبن أو الطين وهى متفرقة بينها متسعات من الأرض الرملية .

وعلى النيل تقوم مساكن الجيش المصرى الذى كان يرابط فيها وغالبها اليوم خاو ، وقد شعر الناس ولا يزالون بالكساد الشديد ووقوف دولاب أعمالهم منذ خرج الجيش المصرى الذى كان يفرج عنهم بما ينفقه ، وكم تحدث إلى العامة بأنهم منذ خروجه وهم فى بؤس شديد وهنا قصوا على نبأ انسحابه حين ذهب (الكمندان) بعد أن أمر الجنود بالاستعداد لضرب الخرطوم كلها فى تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً إن هو تأخر محجوزا عند الحاكم إلى مابعد ذلك ، ولما ذهب إلى الحاكم خاطبه قائلا بأنه لا ينسحب إلا بأمر كتابى من جلالة ملك مصر فرد عليه بجفاء وغلظة وهدده أن يمنع عنه المؤن والغذاء فقال له إن لحق بنا أى شىء من ذلك هدمنا الخرطوم كلها وموعدى مع الجند الظهر فعاد الحاكم وهدأه ! وظل الجيش حتى جاء مندوب جلالة الملك يحمل خطاب الانسحاب فى طيارة ، وهنا تألم الأهلون والجنود السودانيين ، وكانوا يرمقون إخوانهم المنسحبين بنظرات استهتار ولوم شديد .

انتهى بنا الترام إلى موضع فى خرطوم بحرى ، عنده يبدأ ترام صغير يسير بالبخار إلى طرفها الشمالى عند محلة يسمونها (سلامة الباشا) منها ركبنا الباخرة عبر النيل إلى أم درمان التى أسسها محمد المهدى سنة ١٨٨٣ ثم ظلت تمتد عهد خليفته عبدالله التعايشى الذى لبث أربعة عشر عاما ، وهو من عرب البقاره ، وكان القوم يسمون قلب المدينة (البقعة) يقوم بها مسجد كبير بمئذنتين ، وإلى جوار النيل مسجد المهدى ومبانيه وهى أهم ما يزوره السائح هناك ، دخلنا ردهة شاسعة كأنها ميدان عابدين كان يصلى فيها المهدى الأوقات الخمسة إماما بالناس كل يوم ومن تخلف عوقب بالجلد وبالسجن إلى ستة شهور . هنا دخل الثائرون ورفعوا رأس غوردون باشا على أسنة حرابهم وسط تهليلهم . وفى ركن من الميدان بيت الخليفة وهو من طابقين ولا بأس بتنسيقه أقيم بالآجر الذى جلب من كنيسة (صوبا) التى هدموها — وصوبا كانت عاصمة حكومة النوبة التى حكمت مصر يوما ما — وبعض أحجار

البيت من أنقاض بيت غوردون وسقوفه من جدائل الخوص تحتها الخشب وفيه اليوم متحف من مخلفاته : درع وأردية وسروج وأسلحة من بينها الحراب والمدافع ، ثم مطابع الحجر التى كان يطبع عليها منشوراته ، وقد رأينا الكثير من تلك المنشورات كتبت بخطه فى نصائح دينية ولغة جميلة ثم خاتمه المربع ، وسريره من خشب منسق مرتفع يجدل وسطه بسيور من جلد ، وبعض نقوده ، وهناك بعض آلاته لسك النقود ، وبعض الصحاف الكبيرة ، كان يقدم فيها الطعام للفقراء يومياً ، ومن المعروضات سيف الخليفة وعربة غوردون ، وعربة الخليفة التى جلبها من الحبشة على متون العبيد مخترقين بها الصحارى ، ولم يكن يبيح لأحد دخول أبوابه إلا لأخيه يعقوب ، وأمام البيت مقبرة المهدى دفن فيها ، وكانت تتوسطها قبة عالية هدمها الانجليز بعد فتح أم درمان ، وبددوا محتوياتها حتى أن الملكة فكتوريا أرسلت تحتج على كتشنر لأنها لا تود إهانة العقائد هكذا فكان اعتذاره أنه قصد بذلك صرف الناس عن تلك الخرافات ولم يقصد إهانة الدين ، والمقبرة اليوم مغلقة لا يباح دخولها ، لكن رغم ذلك يفد الجماهير ليتبركوا بجدرانها ويقدموا لها القرابين .

وإلى جوار المقبرة سجن الخليفة الذى زج فيه كثيراً من الانجليز ، والمدينة مكتظة بالبيوت الوطنية غالبها من الطين إلا شارع واحد عليه مجموعة من (ڤلات) تؤدى إلى القسم (مركز البوليس) ثم إلى قنطرة أم درمان على النيل ، من فوقها يتجلى اللسان أو المجرن (Mogran) أى مقرن النيلين عنده لسان من الأرض بجانبه النيلان حتى يندمجا وأنت ترى الماء بعده يسير مسافات بعيدة اللون الأبيض الطفلى الى اليسار من الأبيض ، واللون الأسمر الطينى إلى اليمين من الأزرق ، وكان النيل إذ ذاك فى أعلى فيضه بتياره الجارف ، أما الأبيض فكان تياره هادئا لامعا لأن ماء الأزرق يحجزه فيتراكم ويعلو ويتسع ، ولذلك بدأ الابيض عظيم الاتساع مائج الماء والناس هنا يشبهون

أهل صعيد مصر فى الشكل والعادات ، غير أن ألوانهم أميل إلى السواد ، حتى أنى أحيانا كنت أنسى أننى خارج مصر وألفت نظرى ميلهم إلى الهدوء وعدم الضوضاء ، إذ كنت فى الترام لا أكاد أسمع كلاما وإن حدث فبصوت خافت ، وقد علمت أنهم لا يتشاجرون مطلقاً ويحب الواحد لأخيه الخير ويميل الى معاونته ، وهم يذكرون مصر والمصريين أطيب الذكرى ويتكلمون عن مصر وكأنها وطنهم .

قصدت شجرة غوردون إلى جنوبى الخرطوم فى مكان اعتاد غوردون أن يركب اليه كل أصيل ويجلس تحت شجرة لا تزال هناك مطلة على النيل الأبيض وقد زرتها لأرى ما تقوم به مصلحة الرى المصرى هناك من المنشآت فقد اتخذت المنطقة مستعمرة للرى ، أقامت بها البيوت الفخمة ، وهى تتخذ شاطىء النيل مرسى لأسطولها ، والعمل قائم هناك لتصبح المنطقة مقر عمارة وميناء للأسطول المصرى ، وقد أدهشنى مابدا لى من إسراف شديد وتبديد فى الأموال وقد خبرنى كثير من مهندسينا ألا طائل تحته . وزاد عجبى لما رأيت غالب الموظفين والقائمين بالعمل من غير المصريين ، ولما أردنا الدخول لم يسمح لنا رغم من كانوا معى من المهندسين المصريين وقالوا لا بد من ترخيص الرياسة الانجليزية وكانت على الباب لوحة كتب عليها : جناب المستر فلان هو دون غيره المتصرف المطلق فى تعيين الموظفين والعمال وفصلهم ، والناس هناك مندهشون لهذه المنشآت التى تنفق فيها الأموال تحت ستار الاصلاح ، ولما سألت كم باخرة تحتاج للاصلاح سنوياً حتى تقام تلك العمائر التى بدت وكأنها مدينة صناعية صاخبة كان الجواب الضحك والسخرية لأن قطع الأسطول كله محدودة العدد والحجم !

برحت الخرطوم فى صباح منتصف سبتمبر فسار بنا القطار يشق أراضى مبسوطة يكسوها العشب المنثور والشجيرات الشائكة إلا فى بقع قريبة من النهر كانت تقوم فيها أعواد الذرة (العويجة) وغالب تلك الأراضى الجيدة

القريبة من الخرطوم تملكها عائلة المهدى والمرغنى ، وهما من الطوائف المرضى عنهم ! معهم بعض الأجانب ، ولهم آلات لرفع الماء (وابورات) على أن الأغلبية أرض مهملة وكلما تقدمنا شمالا بدت الربى الجرانيتية متفرقة فى مخاريط حولها أراض شبه صحراوية ثم أخذت تتصل تلك الربى وتقترب فأضحت نجاداً ثم ظهر خانق شبلوكا فى سلسلتين من الجرانيت متجاورتين جداً بينهما ماء النيل وفى نهايته تبدو الجنادل مترامية . بعد ذلك عادت السهول واختفت الربى وأضحى المنظر صحراويا كثير الرمل والحصى ثم دخلنا شندى ومن ورائها بدا النيل تقوم عليه بيوت من اللبن والطين ، وهنا فاجأنا مطر غزير لطف الجو وخشى القوم نزول السيول التى تتهدد تلك المنطقة فى مواسم المطر ، وقد تبلغ من الشدة أن تجتاح طريق القطار واذا وصل بعضها النيل اندفع فيه وأوقف تياره وشق له طريقا إلى الضفة الأخرى . ومصلحة سكة الحديد تعرف مواضع الخطر وتتقيه بأن تمد أسلاكا يدفعها الماء فتدق الاجراس فى المحاط وتأمر بايقاف القطر حتى يعاين المكان عمال الدريسة وها قد وقفنا ساعة فى المحطة التى تلى شندى . ومنطقة شندى وما حولها أشهر مناطق السودان بالمسلى لجودة مراعيها بكافة أنواعها .

ظل المنظر حولنا سهولا تكسوها الأشواك شبه الصحراوية وقد تتخللها ربى الجرانيت ولبث النيل ملازما لنا ، وهو غامر الفيض يسامت ماؤه الضفاف ، وقد يعدوها إلى المنخفضات المجانبة له فتبدو فى قنوات حولها أرض خصيبة ، وقبل دخولنا مدينة عطبرة (أتبره) جزنا بلدة الدامر ثم بدت عطبرة حيث اخترق القطار قنطرة على نهر عطبرة ، وكان فى أعلى فيضه عظيم الاتساع كأنه نيل مصر الفسيح فى تيار جارف وماء كدر أحمر حقق فى ظننا مانعلمه عنه فى كثرة أمداد النيل بالطمى بنسبة تفوق أمداد النيل الازرق نفسه على أنه بعد قليل يغيض ماؤه حتى يصبح شبه أخوار بها مسارب ضئيلة ، وقد خبرنى القوم أنهم يخترقونه إذ ذاك سيرا على الاقدم دون أن يصيبهم بلل .

دخلنا المدينة التى تقع على العطبرة والنيل وهى كبيرة كأنها أسيوط فى أضوائها الكهربائية ومبانيها المنسقة وأرصفتها الممدودة وهى تلاقى سكة حديد بور سودان وحركتها التجارية صاخبة ، ومن أغرب ما تصدره محصول (الدوم) أو (المقل) الذى رأيناه فى شجره الكثير ، وهنا ينقل إلى مصنع لكسر الطبقة الخـــارجية ثم يخرط اللب (المقل) ويصدر عن طريق بور سودان إلى أوروبا واليابان لعمل الأزرة للسراويل ، على أنه قل اليوم عن ذى قبل وأضحت كسلا أشهر البلاد به . مررنا بعدها بمدينة بربر واسمها أكبر منها لأنها بدت قرية بيوتها من اللبن والطين وهى وطيئة لا تعدو طابقاً واحداً .

هنا جرى الحديث مع طائفة من علية القوم الذين أكدوا أن اخلاص أهل السودان جميعاً لمصر عميق متأصل على أنهم ندَدوا بالمصريين الذين كانوا فى السودان إذ لم يحاولوا إدماج البلاد فى مصر فكان ضباط الجيش مثلا إذا أرادوا الزواج هناك صاهروا الزنوج المنحطين ولم يحاولوا مصاهرة العرب ، وكان القضاة الشرعيون يترفعون عن أهل البلاد ثم قال بعضهم : أنظر إلى وزارة الأوقاف المصرية مثلا كيف أهملت التعليم الدينى ولم تعاون على فتح المدارس الاسلامية وإقامة المساجد مقابل ما تفعله هيآت التبشير هناك ، والحق أن من حل السودان من المصريين لم يخلفوا شيئاً من ذلك ولم يخدموا مصر فكم قرأت أسفاراً نفيسة ومجلدات ضخمة كتبها الانجليز ممن كانوا موظفين بالسودان خدموا فيها الناحية الانجليزية وأغفلوا المصرية لا بل وبعضهم كان يتوج كتابه باسم (السودان البريطانى) ويتهكم على المصريين ممن كانوا موظفين معه ويرميهم بالخمول والترفه وعدم الرغبة فى الإقامة هناك مظهرين أمانيهم أن ينقلوا إلى جنة القاهرة والتخلص من جحيم جواء السودان ، وما إلى ذلك من الحط من شأننا ، وكان من السهل على المصريين أن يمهدوا السبل لاخوانهم ممن سيحلون بعدهم ويهونوا عليهم

أمر الارتحال إلى السودان الذى لم أر فى جوه كبير فرق عن جو مصر ، رغم ما كنت أسمع من مبالغات إخواننا فى حره اللافح ، لكنه الجهل أو الاهمال الذى أساء إلينا إلى هذا الحد ، وقد روى لى بعضهم حادثة طريفة هى أن الخديوى سعيد باشا لما زار السودان أمر باعفاء البلاد من الضرائب ذاك العام وبالافراج عن المسجونين تخليداً لزيارته ، ولما جاء عباس حلمى وزارها سنة ١٩٠٢ أعطيت الأوامر لكبار الموظفين أن يحتاطوا به دائماً احتراماً له وحفاوة به ، فأقبل رجل اسمه (محمد مكين) وتقدم ليصافح الخديوى فمنع بحجة أن الخديوى تعب فصاح الرجل قائلا بأنه غنى موسر لا يريد من وراء ذلك عطاء ، فسمعه الخديوى وكان يتفقد المكان الذى قتل فيه القائد اسماعيل باشا فى موقعة شندى فناداه وصافحه فقال الرجل : إن جدك سعيد قد خلف فى البلاد مكرمة كبيرة فما مكرمتك ؟ قال : زمن سعيد غير زماننا . يعنى أن السودان كله كان ملكا لمصر وحدها إذ ذاك فقال الرجل: (فى نصفك سوللْ شوَّية) وهو عتب معناه إن لم يكن وابل فطل أو أنت فى حقك متهاون ، فجرى هذا القول مجرى المثل على ألسن الناس جميعاً إلى يومنا هذا ويقولونه فى مقام طلب التصرف فى الجزء المملوك .

وعاقص بعضهم وهو متألم نبأ انسحاب الجيش المصرى أخيراً رغم تضامنه مع السودانى الذى فى أغلبه دفاعاً عن حق مصر وحفظاً لعهد التضامن بينه وبين الجنود المصرية .

دخلنا (أبو حمد) وهى بلدة صغيرة ريفية وبعدها أوغلنا فى صحراء رملها ناعم كاد يطمرنا بهبوبه وكانت تبدو نواتىء الجرانيت مبعثرة ويسمونها أحيانا صحراء العتمور أو عتمور أبو حمد ، والمسافة بين أبو حمد وحلفا ليس بها بلدان مأهولة كبيرة بل محاط لوقوف القطار كى يزود بالماء ، وهى عشر نمر أهمها المحطة رقم ٦ وسبب شهرتها أن منها طريقاً يؤدى إلى أم نبارة حيث توجد مناجم للذهب ، وقيل ان المأمون أرسل جيشه إلى هناك واستغلها ، وقد

قاوم الجيش أهل البلاد من عرب البشاريين والبجا ، ويروون أن المأمون أزعج إبلهم بالدق على الصفائح وكان هذا سبب انتصاره عليهم ، ومنهاطريق إلى دنقله غربا . والبشاريون مبعثرون شرقاً بين أبو حمد وأسوان ، أما النوبيون فكانوا فى الأصل سكان النيل نفسه لا الصحراء ابتداء من أسوان جنوبا ، ولما دخل العرب اعتنقوا الاسلام واختلطوا بهم خصوصا أهل دنقلة ولذلك يحاول كل نوبى أن يسمى نفسه (دنقلاوى) ويغضب إذا قلت له بأنه نوبى اللهم إلا أولئك الذين يجاورون أسوان وهؤلاء باقى الأهالى المنتسبين إلى العرب ويرمونهم بالخسة بدليل احترافهم الأعمال الوضيعة فيما لا يزيد على عمل الخدم . أما الفريق من النوبيين الذى رفض الاسلام فهاجر جنوبا واعتصم بجبال النوبة حول تالودى وكلهم لا يزالون وثنيين وقد جئنا فيما سبق على طرف من سيرتهم .

لبثنا نسير فى بادية النوبة (العتمور) تسع ساعات ، ثم بدت جبال الخرسان التى بجانبها النيل الضيق ، حوله نطاق صغير من المزارع يزينها النخيل وهى بدء حلفا التى وصلناها فانتقلنا تواً إلى الباخرة بعد أن مررنا بالجمرك حيث سألنا الحراس عن الممنوعات أمثال : الأسلحة والعاج وريش النعام وشعر الزراف . أما الباخرة فمريحة جميلة هى أفخر من جميع البواخر السابقة . ووادى حلفا جبناها فى أقل من ساعة ، فهى كالمراكز الصغيرة عندنا ، طرقها ضيقة يظلها شجر اللبخ ، وأظهرها طريق البحر (النيل) . قمنا نشق النيل تحفه الجبال الرملية تحتها المزارع والنخيل ولبثت تلك طويلا والنيل يختنق تارة وينبسط أخرى ، وأخذت الخضرة تشح فى الضفة اليسرى حتى كادت تنمحى تماما ، وسادت الصحراء والشجيرات الشائكة ، وبعد ساعتين مررنا بمحطتين لبوليس الحدود إحداهما إلى اليمين والأخرى إلى اليسار ، وإلى جانب اليمنى بيت رجل يمتلك بعض الأراضى يتوسطها مسكنه الصغير ، وقد صادف أن خط الحدود بين السودان ومصر مر بالبيت فشطره ، ولما

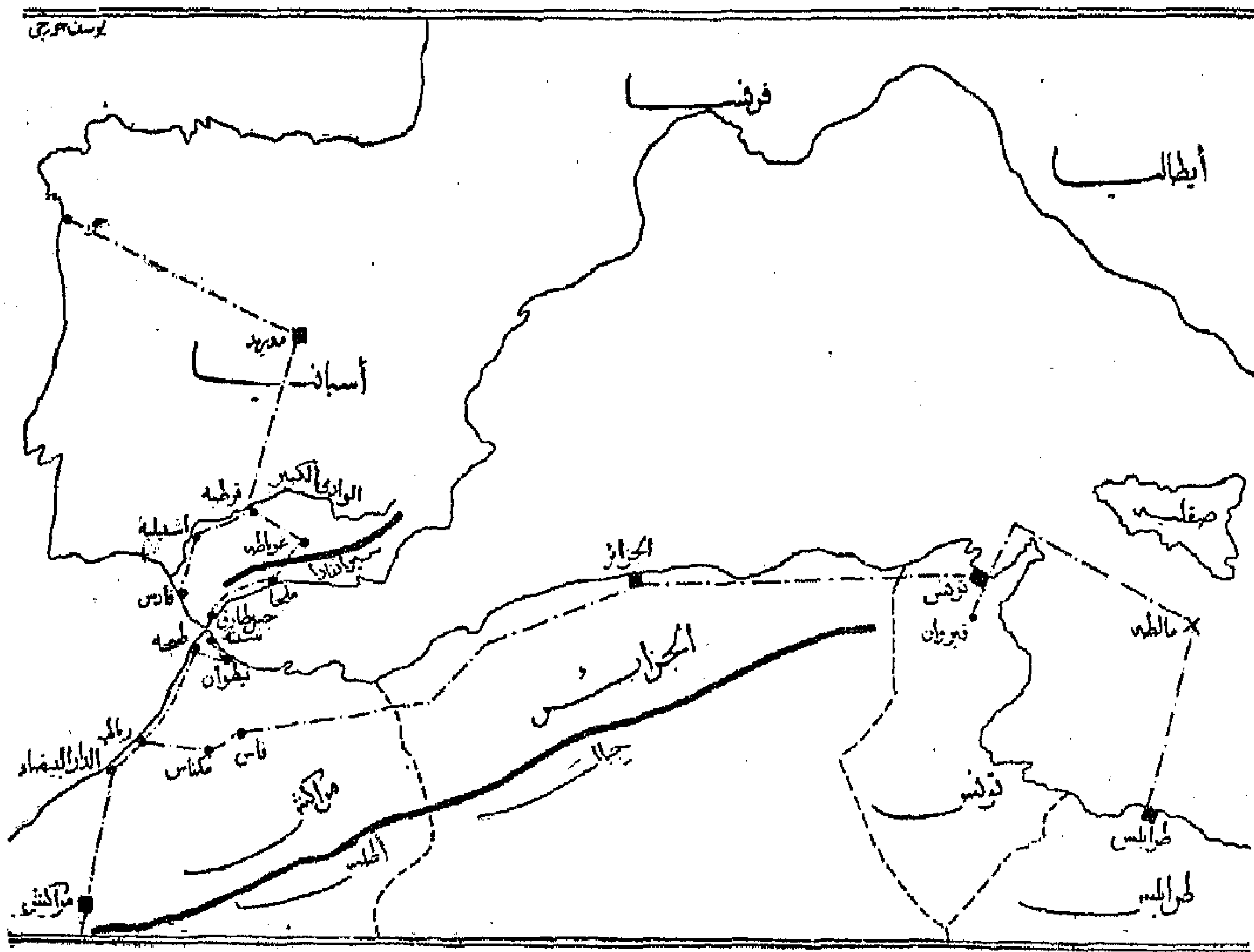
أرادت الحكومة تعويضه ليتركه أبى وأصر على الاحتفاظ به فترك له وهو اليوم يدفع عن جزئه الجنوبى الضرائب لحكومة السودان وعن الجزء الشمالى للحكومة المصرية .

تعددت الربى المجدبة ثم اتصلت فى سلسلة جبلية إلى اليسار ، وتجلت وسطها تماثيل (أبو سمبل) الرائعة ، وهى جاثمة تشرف على النهر ثم أخذت تبدو المنابت تارة إلى اليمين وطوراً إلى اليسار وسط تلك الصحراء المجدبة وكان أظهرها النخيل والذرة ، وفى كثير من البقاع كان الشاطئان مقفرين فى صخور منحدرة إلى سطح الماء فى درجات سريعة . بتنا ليلتنا نرسو على مقربة من الدر وفى باكورة الصباح أقلعنا وأخذت القرى تزيد عدداً فى بيوت متجاورة رغم ضيق النطاق المنزرع . وكلها من الطين النظيف تطلى بغشاء من الجير الأبيض ويزينها جميعا المسجد ذو المئذنة القصيرة وكثير من البيوت يقوم على مدرجات الصخر بعضها فوق بعض ، وظهر فى الصخور الحد الذى يصل إليه مستوى الماء عند مايمتلىء الخزان إذ يبدو الصخر أسفله فى لون اردوازى يعلوه الصخر الجرانيتى الأحمر ، وأخذ ذلك الحد يزيد علواً كلما قاربنا (الشلال) وفى كثير من الجوانب كانت تظهر المعابد المصرية وفى الخامسة مساء رسونا وراء مدينة الشلال لندخلها صباحاً وذلك قصداً من السفينة فى دفع رسوم الميناء .

شمال أفريقية وبلاد المغرب والاندلس

برحت باخرتنا « لفرنو Livorno » ميناء الاسكندرية الخامسة مساء ، وكان البحر هادئاً جميلا ، لكن ظل الشعور بمضايقة البحر ملازماً لى حتى اليوم التالى ؛ ولم يكن بالباخرة من المسافرين كثير ، ففى الدرجة الثانية كلها لم يكن سوى أربعة أنا ورجلان وسيدة ، لذلك كنا نشعر بشىء من الوحشة

وفى صبيحة اليوم الثالث بدا شاطىء طرابلس أزاءنا على مقربة فى صفحة صخرية قرنفلية عريت عن النبت ، وقد كنت أخاله من قبل رمليا وطيئاً ، وفى التاسعة صباحا أقبلنا على مدينة « درنة Derna » الصغيرة ورسونا على بعد من شاطئها الصخرى ، ولبثنا حتى أقبل الطبيب واستعرض المسافرين جميعاً ، ثم أذن لنا بالنزول إلى البر فى زوارق صغيرة مقابل عشر ليرات لكل راكب ، وتلك قيمة غالية جداً إذ كان ذلك يساوى ١٦ قرشاً مصرياً .



الجهات التي زرناها من بلاد المغرب والاندلس

حللنا البلدة وجبنا أرجاءها وإذا بها أبنية ترص متجاورة بالحجارة البيضاء فى أزقة مختنقة نظيفة ، ويغلب أن تنحدر طرقاتها إلى البحر ، ولقد تسلقنا بعض ماوراءها من جبال مجدبة وأشرفنا عليها وهى تنتثر بالأبنية فى حجر الجبل ، ويكاد يكسوها غاب من النخيل كثيف ؛ والبلدة تستقى من نبعين أحدهما للشرب وماؤه عذب خفيف شهى ، والثانى لسقى الزرع وهو دون سابقه عذوبة ؛ وكنا نرى مجارى الماء تنساب إلى جوانب الطرق وهى مغطاة بالحجارة ، وبين آونة وأخرى تراه يتفجر من صنبور يستمد منه القوم حاجتهم . وللبلدة سوق مسقوفة ضيقة تصف عليها المتاجر وغالبها بيد طائفة من اليهود . أما البيوت فتحكى أبنية القرون الوسطى بأبوابها الثقيلة ونوافذها التى تغشاها شباك الحديد المعقدة . وكم راقتنا أزياء الناس : فالأعراب يلبسون السراويل ويتمنطقون بالشيلان البيضاء الفضفاضة وعلى رءوسهم الطرابيش المغربية بازرارها التى تتدلى إلى وسط الظهر ، والمتنورون من المسلمين يلبسون الأردية الأفرنجية ، ولا يميزهم عنا سوى الطربوش المغربى المكور مبتور الزر أو عديمه ، واليهود يلبسون السراويل البيض وعليها الصدار المفتوح فى ألوانه الحمراء الزاهية ، وطرابيشهم تحكى الطرابيش المصرية

أما أزياء النساء فأجمل : سراويل ملونة تعلوها ملاءات مخططة زاهية ، وتتحلى الأيدى بالخواتم الثقيلة ، وفى الرسغ وأسفل الساق سوار فضى عريض كأنه اسطوانة من صفيح منقوش . والحركة فى البلدة خافتة ، وعند الظهيرة تقفل جميع المتاجر ، ويلحظ الانسان بين أهلها على قلتهم الهدوء والرغبة عن الكلام حتى الأطفال تراهم يسيرون متجاورين وهم لا يتجاذبون من الحديث إلا اليسير ، وذاك الهدوء لاشك من أثر وحشة المكان فمن ورائه الربى المجدبة تحميها الصحارى الممدودة ، ومن أمامه البحر المائج الرهيب .

وجل حاجيات الناس من طعام ولباس مستورد من الخارج ، والأسعار

هناك بالغة الغلو حتى الخضر والفاكهة ، فالبرتقالة الواحدة شريناها بقرشين صاغ ، وقد تناولنا الغذاء فى مطعم صغير وكان قاصراً على طبق من (البامية باللحمة) وبعض (السلطة) ودفعنا فى ذلك عشرة قروش ، وحول البلدة يزرع الناس بعض الخضر والحبوب فى مساحات قليلة ، على أن عنايتهم بالفاكهة وبخاصة الكروم كبيرة ، فلا تكاد تخلو البيوت ولا الطرقات نفسها من أعراش العنب ، وكانت قطوفه الثقيلة الخضراء دانية ولما تنضج بعد . أما لهجات الناس فلا تكاد تفهم ، فهى بقية من لسان عربى ركيك سقيم مازجته الكلمات الدخيلة من اللغات الأجنبية وبخاصة الطليانية ، وغالب القوم يجيدون الطليانية ، والصبية بعد انتهائهم من (المكاتب الأولية) يلتحقون بالمدارس الابتدائية ولا يدرس فيها شىء بالعربية قط ، لذلك كنا نراهم يتخاطبون بالطليانية فى طلاقة تسترعى الأنظار .

أصبحنا مبكرين ولم يكن يبدو من شاطىء طرابلس سوى شط وطىء على بعد ، وفى الثامنة صباحا دخلنا ميناء :

بنى غازى : وهى مبسوطة السطح تحكى أرض الاسكندرية ، وقد أدهشنى ما أنفقه الطليان وما لا يزالون ينفقون على ذاك المرفأ من أموال فى إفساحه وتنسيقه وليس به من الحركة التجارية مايبرر كل ذلك ، وغالب ظنى أنها نوع من الدعاية لايطاليا الحديثة .

وقفت الباخرة على بعد ، ونقلتنا الزوارق البخارية بعد أن استعرضنا الطبيب وسلمنا البوليس تذاكر لنزول البلدة ، وقد دفعنا أجر العبور ١٢ ليرة نزلنا البلدة فاذا مدخلها من الميناء فخم فاخر البنيان مرصوف الطرقات حديث المبانى الحجرية التى لا يكاد يعدو جلها طابقين ، وبعض الطرق تحفها أشجار النخيل على الجانبين مما أكسبها فى نظرى مشهداً جديدا ، وبعد عدة طرق متوازيات بدأت الأزقة المختنقة فى امتدادها اللانهائى وفى بيوتها الوطيئة ، وأبوابها الكبيرة الثقيلة وشرفاتها الحديدية ، وأسواق البلدة راقتنا كثيرا

فالعناية بها بالغة : أسواق الخضر والفاكهة واللحم فى غاية النظافة ووجاهة البناء، وأسواق الأقمشة مسقفة ، وفى تعامد واستقامة ، وتتدلى على أبواب الحوانيت كلها سلاسل من شباك الغاب والقصب لمنع تكاثر الذباب . وبالبلدة عدة مساجد صغيرة ، وإذا ما أقبل الظهر أغلقت المتاجر جميعها ، وخفت الحركة فى الطرق ، على أن المارة هناك أكثر منهم فى « درنة » وأقرب إلى الألفة ، فتعدادهم ٣٦ ألفاً أما « درنة » فعشرة آلاف . وقد سمعنا بعض أنغام الحاكى من مصرية وتونسية . وقد استرعى أنظارنا كثرة الاسرائيليين فى سائر أرجائها ومختلف الأزياء العسكرية من زنوج (وغالب الظن أنهم من الأرتريا والصومال) فى طرابيشهم الطويلة ذوات الأزرار الملونة ، وأعراب فى طرابيشهم المغربية السميكة بأزرارها المنتفخة الهادلة ، وطليان فى أردية ذوات ألوان عدة . والناس كرام الطباع ، فقد وفد علينا ونحن فى المقهى أعرابى قال بأنه زار مصر ، وأصر أن يدفع عنا ثمن ما شربنا . ولما حل ميعاد الغداء قمنا نبحث عن مطعم ، وكان قد فات الوقت ونفد الطعام فلمحنا خبزاً وطنيا كبير الحجم ، فعرجنا نشترى منه شيئاً ، فقدم الرجل رغيفاً كبيرا وأبى أن يتقاضى ثمنه لأننا أغراب . على أن أثمان الحاجيات جميعها غالية جدا أضعاف الأسعار عندنا ، ذلك لأنها مستوردة جميعها وحركة المدينة وقف على تموين طائفة الموظفين والجند ، أما الانتاج حولها فيكاد يكون معدوماً وحتى حدائق الفاكهة التى ازدانت بها « درنة » من قبل لم تكد ترى هنا ، فالخضرة بها نادرة شحيحة . وكم يروقك حديث القوم باللهجة العربية الغامضة المحرفة وأنت طوال الطريق تسمع صيحات المارة والصبية : (بالك جواردا) بالعربية والطليانية معاً ، كذلك كلمة (برمسو) يقولها حتى أجلاف المارة وصعاليكهم . وأحب الطعام لديهم (البازين) وهو أشبه (بالعصيدة المالحة) يعدونها من الماء والملح ، يغلى ويمزج به الدقيق ويرش عليه بعض الزيت أو المسلى ، ويرون فى تناوله اللذة كلها ، ولو لم يرقنى مطلقاً . وقد رأيت مكتوباً

على حانوت لفظ حسان يجاورها بالافرنجية Salone فقلت هلم نقص شعرنا عند الحاج حسان العربي هذا ، وإذا بالحسان لديهم هو (الحلاق) .



حاكم تونس ويسمونه (الباى)

رجعنا إلى الباخرة وأقلعت بنا ، وقد اكتظت بالمسافرين من بنى غازى إلى طرابلس ، إذ هى الوسيلة السائغة للنقل لديهم ، وما كادت تمخر عباب اليم حتى هاج ماؤه واضطرب موجه ، وأخذت الباخرة تترنح ، فاصاب غالب الركب مرض البحر ، وقد غصت غرفتى بالمرضى ، أما أنا فرغم ميل المزاج قليلا ظهرت بينهم بطلا كأن دوار البحر لا يعرف إلى نفسى سبيلا ، ويعرف القوم لهذه البقعة من البحر (خليج بنى غازى) دوام الاهتياج والغضب الذى

لا يهدأ ، ولبث الاضطراب طيلة الليل . وقد كان بين الركاب جمهرة من أخلاط القوم ، بعضهم من متوطنى طرابلس من الاسرائيليين المهذبين ، والبعض من التونسيين الذين يتلقون العلم فى مصر (الأزهر ودار العلوم) ، وبعض أهل مصر الذين يقصدون زيارة أقربائهم فى تونس ، وعملاقان من مطوفى الحجاز . وكان غالب القوم أميل إلى المرح ، إذا أقبل الليل جلسوا مجالس السمر وأداروا الألاعيب من ورق ونرد وأحياناً ينطلقون غناء ، وكانت معهم قيثارة وعود .

أصبحنا والبحر هادىء ونسيمه عليل أنسانا ثورة الأمس ، وظل كذلك اليوم كله ، وفى الثامنة صباحا أشرفنا على مدينة :

طرابلس : فبدت عظيمة الامتداد ، وطيئة السطح ، مبسوطة تحكى الاسكندرية على بعد ، ومآذن مساجدها عدة . حللناها وأخذنا نجوب أرجاءها الجديدة المجانبة للبحر ، وهى جميلة وفى طرق فسيحة مرصوفة ، وأبنية شاهقة كأنها عمائر الاسكندرية فى أحيائها الأفرنجية ، وفى نهاية البلدة الأفرنجية باب أقيم فى فناء دونه تمثال (لأوغسطس) ، إذا اجتزناه دخلنا المدينة العربية فى أزقتها المختنقة ، لانهائية الطول ، مرصوف غالبها ، ولعل أكبر ما يميزها ، إلى جانب ضيقها ، أقبية متقاربة تتساند عليها أبنية الجانبين ، فيخيل إليك أنك تجوز أقواس نصر متتابعة . أما سوق البلدة فآية فى الجمال تحت سقوف عالية تتوسطها أعراش الكرم المشتبكة ، وتقوم هناك أكبر المتاجر ؛ وكم هالتنى كثرة الاسرائيليين الذين يمتلكون غالب الأبنية والحوانيت ، ويدهش المرء للطليان وغرامهم بالبناء وتفخيمه ، حتى فى تلك البلاد غير المنتجة ، فلقد مد رصيف البحر فى فخامة تفوق الحد ، يشرف عليه بناء بنك ايطاليا وتياترو (ميراماري) فى عظمة ورواء ، هذا إلى النافورات الكبيرة والمتنزهات تزين كثيراً من الميادين . وفى المدينة القديمة بقية من السور القديم ، والقوم لا يزالون يتحدثون عن العهد التركى ، وأنه كان أكثر حرية وأقل عبثاً فى

الضرائب ، وإن اعترفوا للطليان بحسن القيام على المدن وتنسيقها : وطرابلس أكثر سكاناً تمتد بجوارها البساتين بدرجة تفوق بنى غازى ، ولذلك رأينا بعض الفاكهة والخضر تعرض فى أسواقها بشكل أكثر ، وإن كانت الأسعار بها غالية جداً فى الطعام والملابس وسائر الحاجيات ، إذ كلها تستورد من الخارج ، ويعنى كثير منهم بنسج الحرير فى مغازل وأنوال تدار بالأرجل والأيدى ، وكنا نراها فى غالب الأزقة ؛ وأهم ما يزرعه الأعراب حولها الحبوب وبخاصة الشعير .

غادرنا البلدة عصراً ولبثنا اليوم كله مستمتعين بالجو الجميل والبحر الهادىء

تونس : تفتحت عيوننا على صخور تونس الشاهقة التى نتأت فى البحر فى رأس كبير التوى بعدها الساحل وما أن جزناه حتى اضطرب الماء وعلا موجه وترنحت السفينة حتى أعيي المرض جميع الركاب وبعض البحارة ، وتلك المياه مياه تونس تعرف بشدة البأس وكثرة التيارات وعنف الريح ، ولبثنا نجانب تلك الشواطىء الصخرية حتى بدت ضواحى مدينة تونس ، وكان أظهرها مدينة قرطاجة العتيقة بكنيستها السامقة وأنقاضها الممدودة تشرف على البحر ؛ وقد وقفنا فى عرض البحر طويلا ننتظر خروج باخرة أخرى إذ لا يسمح المدخل بمرور اثنتين ، وهنا وافانا الطبيب وطعم كل ركاب الدرجة الثالثة أما نحن فأعفانا ، ثم أخذنا ندخل شبه قناة كأنها قناة السويس تماماً تحفها الجسور الضيقة من ورائها المناقع الفسيحة يستخدم بعضها لتربية السمك والبعض لتجفيف الملح ، وفى إحداها كنا نرى (المترو) يجرى ذهابا وجيئة ، ولبثنا نمخر عباب تلك القناة ساعة ونصفا ويسمونها قناة البحيرة وطولها ½ ٥ ميلا وبعدها بدت أرصفة الميناء ، وكان تفتيش الجمرك دقيقا جداً .

حللت نزل فرنسا الكبير وبعد العصر أخذت أتجول فى الأحياء الأفرنجية المنسقة النظيفة التى تحكى فى مجموعها الأحياء الأفرنجية بالإسكندرية ، وقد

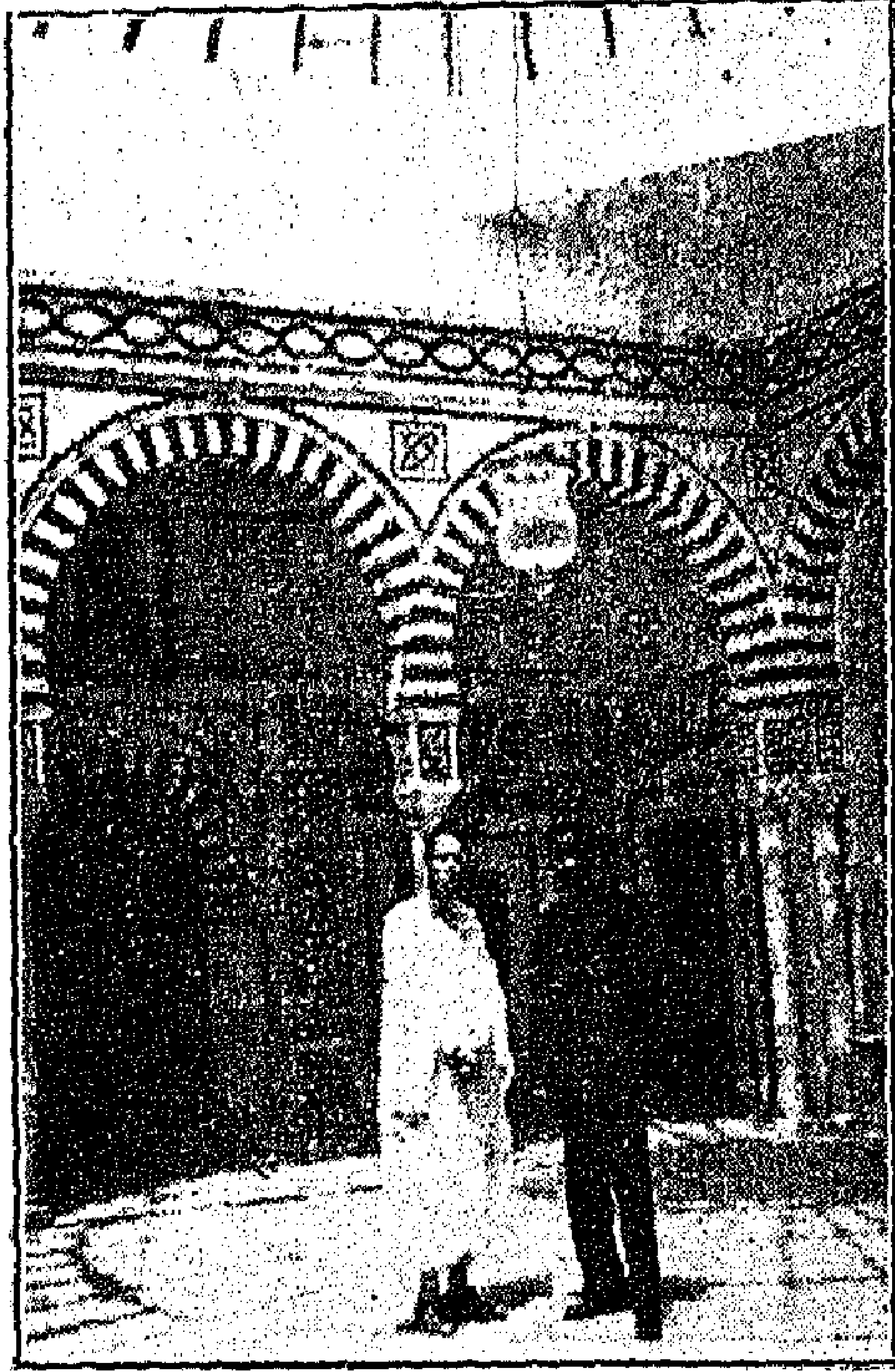
استرعى نظرى منها طريقان أحدهما فسيح تتوسطه ممار المشاة تحفها الأشجار المزدوجة على نظام (الشنزلزيه) فى باريس ويسمونه Avenue Jules Ferry ، وعلى جانبيه تقوم دور الملاهى والمقاهى وهو من الأصيل إلى ساعة متأخرة من الليل مستراض الشباب من وطنيين وأجانب وفيه تتجلى النزعة الفرنسية وما تنفث من سموم مجونها ، استهواء للنشء وصرفا لهم عما يقلقها .

أما الطريق الثانى فقاطع للأول ويدعى نهج إيطاليا — وهم يطلقون كلمة نهج على الطريق — وهو قلب تونس النابض من الناحية التجارية لا تخبو به الحركة أبداً ، إذ تكاد أكتاف المارة تتلاصق ، ومن المتاجر التى راقتنى محل افتتحه طريدو اليهود من الألمان برأس مال كبير ، وقد وضعوا به أبناءهم وبناتهم وتعرض به صنوف المبيعات على اختلافها من ملبس ومأكل ومشرب بقيمة زهيدة ، وحتى مقصف القهوة والمرطبات قد أقيم له هناك جانب وأظهر الجاليات الافرنجية هناك الايطالية ولا يزالون يفدون عن طريق صقلية وطرابلس فى جماهير تفوق الفرنسيين عداً ، وذلك يقلق بال فرنسا لأن ايطاليا تطمح إلى ضم البلاد لها لأنها ليست قانعة بطرابلس المجدبة .

قمت فى الصباح أتفقد المدينة العربية ، وهنا تجلت خفة روحها بشكل يروق الزائر فى طرقها المختنقة الملتوية رصفت كلها بالحجارة الثقيلة ويغلب أن يتوسطها مجرى مكشوف لصرف الماء ، ولما أن أدى بى السير إلى جوار الجامع الرئيسى (جامع الزيتونة) حتى أصبحت الأسواق فى تلك الأزقة مسقفة بعضها بالاقبية والبعض بالأقواس الفنية البديعة .

دخلت جامع الزيتونة أكبر مساجد تونس فلم يرقنى به إلا مئذنته المربعة فى زخرف جميل من مقصوص الرخام ، وقد ارتقينا علوها البالغ ٤٤ متراً فتجلى منظر المدينة من فوقها ساحراً . بنى المسجد عبيد الله ابن الحبحاب ، وبه نحو ٥٠٠ عمود من الرخام أخذت جلها من أنقاض قرطاجة . وكان الطلاب منكبين على المطالعة والدرس فى أركان المسجد ، فهو منهل العلوم

الاسلامية على طريقة الأزهر عندنا ، ويتلقى العلم فيه زهاء ثلاثة آلاف طالب . وللغرباء فروع يأوون إليها ، وقد زرت بعضها ، ويخصص لكل



وسط قصر باى تونس

طالب أو اثنين غرفة ، ويزيد عدد تلك الفروع على العشرين والطلبة على الخمسمائة . وللتونسيين اهتمام بمعاونة المنشآت العلمية يوقفون عليها كثيراً من أموالهم فى سخاء كبير . وتلحق بالمسجد مكتبة قيمة حوت اثنى عشر ألف مجلد . خرجت من المسجد أعاود التجول فى تلك الأسواق الجميلة التى تشعر المارة بالنشاط الصناعى ، وبخاصة فى نسيج الحرير وأشغال النحاس والطرابيش ، وجل تلك الأسواق بنيت فى القرن الثالث عشر فى عهد الحفصيين الذين رفعوا من شأن التجارة والصناعة فى تونس كثيراً .

وأسواق تونس أجمل الأسواق الاسلامية جميعا ، فهى تفوق أسواق القسطنطينية والقاهرة ، ولعل أجملها سوق السروجية تلك المهنة الممجدة

لديهم من فرط حبهم لركوب الخيل ، وفى وسط أحد أزقة هذا السوق يقوم مدفن أحد أوليائهم فى صندوق من خشب طلى باللونين الأخضر والأحمر .

كذلك سوق (الطرابيش) وصناعة الطرابيش قديمة فى تونس ، وهى التى تمون كل بلاد المغرب بها على اختلاف أشكالها .

وقد أتيح لى أن أزور قصر (الباى) فى جوار الجامع ، ولا بأس بزخرفه وأثاثه ، وبخاصة بهو الوزراء ، فسقوفه غنية النقش رصعت بالذهب ، وتلك صناعة شهيرة فى تونس منذ القدم ، وثم كثير من المساجد الصغيرة أقيمت كلها على الهندسة الأندلسية الجميلة ، وفى مدينة تونس خمسون مسجداً يدرس الطلبة فى تسعة منها . وعند الظهر دعانى لتناول الغداء الأخ أحمد افندى مختار الوزير من كبار عائلات تونس ، وكنت قد وقفت إلى معرفته على ظهر الباخرة . وكان وافداً من مصر فى أجازة الصيف ، وقد التحق بدار العلوم العليا بعد أن نال العالمية من جامع الزيتونة ، ولعله أول تونسى نهج ذلك السبيل الذى أراه فاتحة صلة علمية عربية جديدة بين شباب تونس ومصر ، وفى ظنى أن التونسيين فى حاجة قصوى للأخذ بناصر اللغة العربية ، إذ هى متأخرة لديهم لقلة المؤلفات الحديثة العربية وضعف الاطلاع ، والعيب فى ذلك عيب المدارس التى لا تعنى بالعربيـة قط ، بل تلقن الطلبة المواد كلها بالفرنسية ، فيخرج الطالب وقد أتقن الفرنسية وأهمل العربيـة ، فلا يستطيع الاطلاع إلا بالفرنسية ؛ وكان يؤلمنى كثيراً ضعف الكثير من مثقفى تونس فى التعبير عن أنفسهم بالعربية فيلجأون إلى التخاطب بالفرنسية ، حتى عامة الناس والصبية الصغار ، وحتى يعنى القوم بالعربية فى مدارسهم ستظل لغتهم متأخرة . حقاً إن الكثير من المطبوعات المصرية ، وبخاصة الجرائد والمجلات ، يتداولها الخاصة كثيراً ، على أن ذلك لا يغنى عن درس اللغة كثيراً .

مدّ السماط التونسي فى حضرة مجموعة من علية القوم ، فكان الطعام

شهياً وغريباً لدى فى جملته ، أخص بالذكر (الكسكسى) الذى أدهشتنى دقة حبيباته ولذيذ طعمه ، يعالجونه على صنوف عدة ، ويجفف ويصدر إلى الخارج فى أكياس ، وكذلك (الملوخية) التى تبدو فى سائل أسود لا يروقك لونه وإن راقك تناوله ، لأنهم يسحقونها ناعمة ويضاف اليها الزيت والبهار . ومن أشهى الأطعمة لديهم (العَصبان) ، ويعد من نثير أحشاء الشاة (المعاش) والقلب والكبد يُلف فى قطع من الكرش (الكرشة) ، ويخاط فى كور ويغلى وعليه البهار والملح والبصل ، ويغطى بصفاة يملؤها الكسكسى الذى يتشرب البخار من أسفله وعندما ينضج اللحم السالف يصب هو والمرق فوق الكسكسى فيكون طعاما لذيذا .

ومن أجمل مايروق الغريب نظام الدور التونسية فهى جميعها تقوم على فناء فسيح غير مسقوف تصف حوله الحجرات ، ويلتوى المدخل يمنة ويسرة حتى يحجب حرم الدار عن أنظار المارة فى الخارج ، والأبواب كبيرة الحجم والنوافذ تغشاها شباك الحديد المقوسة إلى الخارج ، فى انتفاخ كبير ، وأهم ما يعنون به فى النقش القيشانى الذى يكسو أسفل الجدران ، والجص المخرم فى أشكال هندسية بديعة فى السقوف التى يغلب أن تكون فى أقواس وأقبية ، فهى فى جملتها مقتبسة من الهندسة الأندلسية ، ولا تكاد تجد بيتا يعلوه طابق ثان . وقد ظلت وفود المحبين تترى فى هندامهم التونسى المهفهف الجذاب ، وجله من اللون الأبيض أو الأحمر القاتم ، وتلك ألوان الصيف ، والرداء العلوى أو البرنوس كالعباءة ، إلا أنه غير مفتوح من أمامه ، وهندامهم الوطنى باهظ التكاليف متعدد القطع ، فترى الرجل يلبس فوق القميص : الصدرية وفوقها الفرَملة وفوقها المِنتان ، وكلها من الحرير الثقيل الموشى ، ودون هذه سروال محبوك على الساق ، وفوق هذا كله الجبة ثم البرنوس ، وكل هاتيك لا تقل كلفها عن عشرة جنيهات .

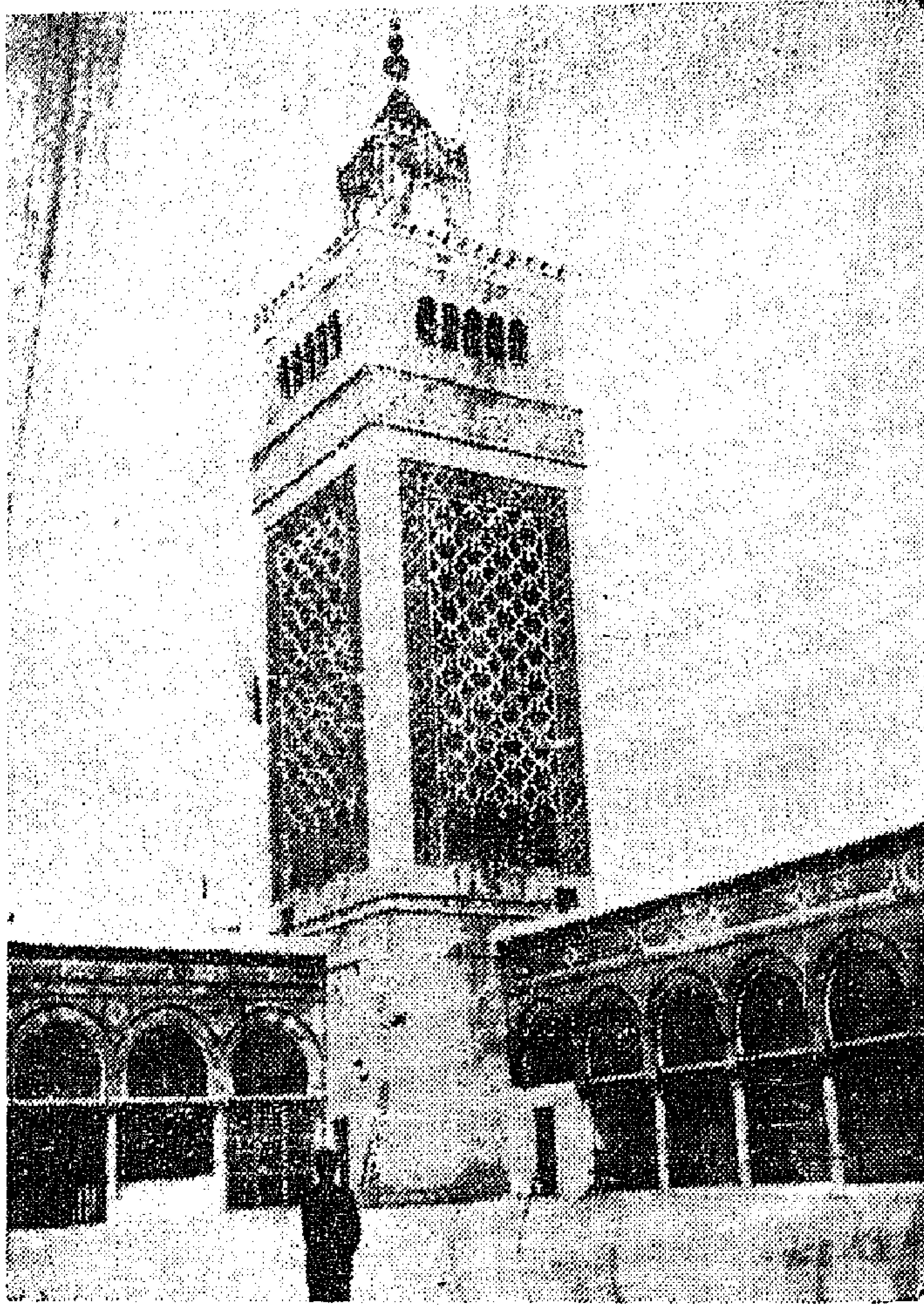
ولا يزيد طول الأردية على وسط الساق فهى قصيرة فى جملتها ، وفى القدم

يلبس جلهم الخف (المركوب) الملون المزركش ويغلب ان (يكعب) من خلفه ، أما غطاء الرأس فالعمامة الصغيرة لأهل العلم ، والطربوش المغربى بزره الهادل الطويل لمن عداهم ، ومن أحل نفسه من التقاليد قليلا أعفى طربوشه من الزر بتاتا أو أحاله إلى الطراز المصرى . أقلنى الترام عند الأصيل إلى متنزه (بلفدير) فوق ربوة نسقت فوقها منابت الشجر والزهور وشقت الطرق تتلوى صعوداً وهبوطاً ، وفى بعض جهاته يبدو كأنه الغابة الفطيرة المغلقة ، وفى قمته نقلت إحدى القباب الملكية القديمة بكامل زخرفها فى هندستها الأندلسية النادرة يبطنها القيشانى ، وتقوم سقوفها على الأعمدة والبوائك ويغشاها من داخلها الجص المغضن المقصوص .

ولقد كانت جلستى فيها أقرب إلى الخيال وأنا أشرف على تونس ببيوتها البيضاء ورباها المحيطة ، يدخل البحر إليها فى ألسن لاحصر لها ، وكانت تبدو على بعد ربى (زغوان) وهى بينابيعها العدة مستمد الماء للبلدة كلها منذ عهد بعيد وقد كان الرومان ينقلونه منها إلى قرطاجة على بوائك لا تزال ترى بقاياها ومن الجانب الآخر كانت ربى قرطاجة تتجلى فى لون قرنفلى ذهب بخيالنا كل مذهب .

زرت برفقة الأخ احمد المختار ضاحية (باردو) إلى الغرب من تونس وهى إحدى منازل ملوك البلاد (الباى) ، زرنا بها أحد القصور الملكية بحدائقه اليانعة الفيحاء ، وصعدنا القصر بهندسته ونقوشه الاندلسية البديعة وتفقدنا حجراته وأبهاءه وأخصها بهو العرش فى امتداده العظيم ، يزينه سقف رصع بالذهب والنقوش المختلفة ، وقامت على جانب منه صور ملوك تونس فى حجم كبير ، وفى الجانب المقابل صور بعض رجالات فرنسا ، وهنا يتوج الباى الجديد ويبايع ؛ ولعل أهم ما فى تلك الضاحية المتحف العلوى الذى سمى كذلك إحياء لذكرى الباى على الذى توفى سنة ١٩٠٢ ، وفى طابقه الأرضى بعض مخلفات العصور السابقة لروما ، وقد استرعت نظرنا الأحجار التى نقشت

بالخط اللوبى ، ولا يزال له بقية فى لغة الطوارق من سكان الصحراء الكبرى إلى اليوم ، ثم مخلفات رومانية ومسيحية : وأجمل ماراقنا رقع الفسيفساء فى



وسط مسجد الزيتونة بمئذنته البديعة فى تونس

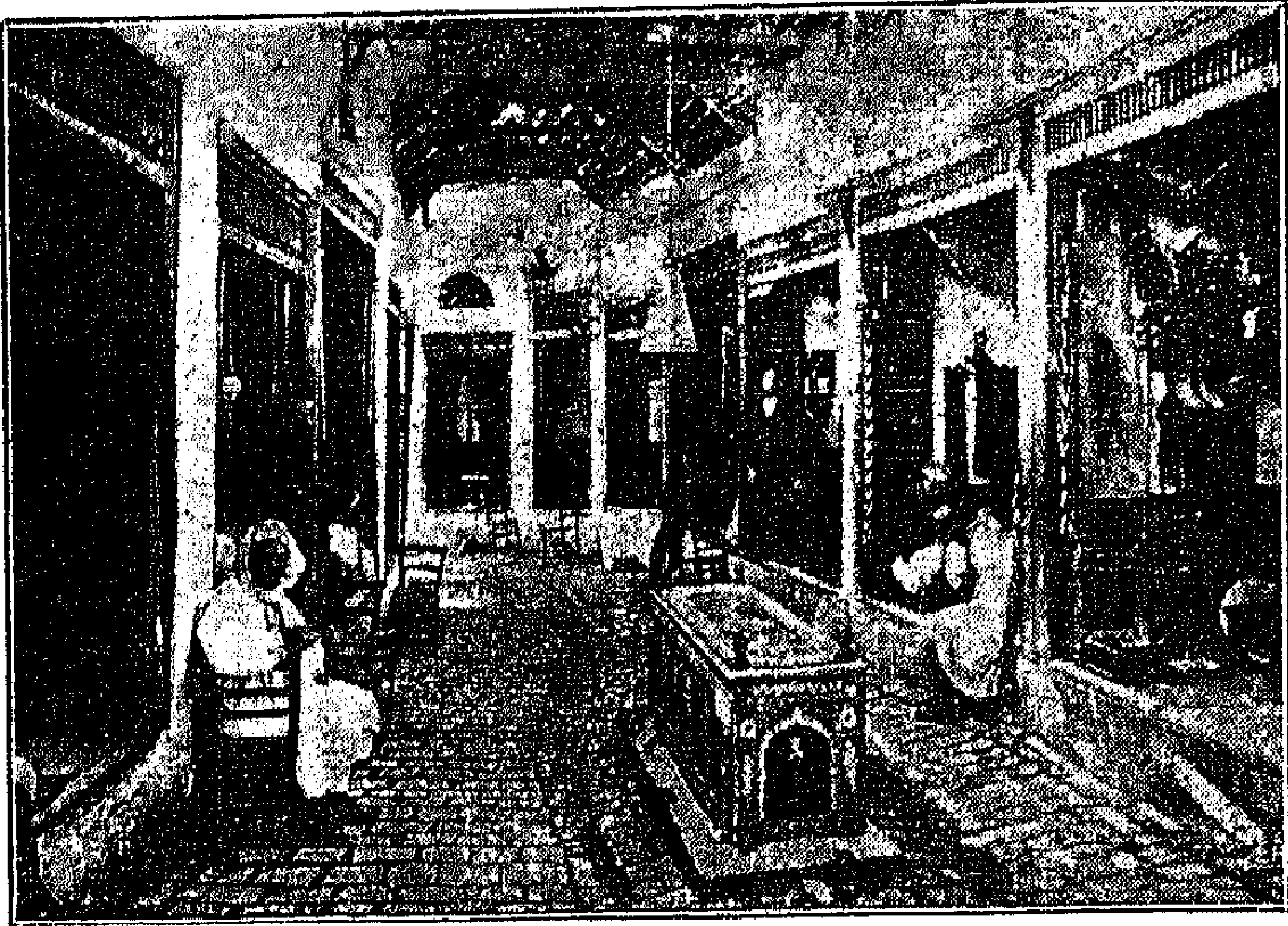
الأرض والجدران فى نقوش بديعة حتى منازل الشمس ورموز أيام الأسبوع وصور بعض الناس والحيوان ، وبلغت الدقة بهم أن اللون والظلال بمختلف طبقاتها كانت تتجلى ناطقة بمهارتهم ، وكذلك الخزف الرقيق بأوانيه العدة وبعضه ثقيل كأنه خزف الصين ، ولا تزال له بقية ارتقت حتى بلغت شأوا ، وأكسبت تونس شهرة فى تلك الصناعة ومقرها قرية تسمى (نابل) . وفى الطابق العلوى بعض المخلفات الدقيقة لعصور قرطاجة وروما والعصر

المسيحى . وفى جانب منه المتحف العربى وهو يحوى مجموعة قيمة جداً لمخلفات الاسلام من ادوات الدور وفرشها وحجرات النوم والطعام والبسط والمخطوطات التى راقنى منهـا عقود الزواج فى صيغها التى تطنب فى وصف الزوجين وما لهما من مكانة ، والنقود وبها مجموعة ذهبية لنقود غالب الاسر التى حكمت شمال أفريقية

وكذلك الحلى ومنه العقود من الذهب والفضة تتخللها عقد العنبر برائحتها الزكية ، وبناء المتحف نفسه آية عربية فنية . قصدنا بعد الظهر زيارة أنقاض قرطاجة على بعد ١٢ ميلا فوق ربوة تحوطها المياه من نواح عدة فوقها رأينا بعض الأبنية التى نال الزمان منها كثيراً حتى كاد يمحو معالمها ، ولم يبق ما هو جدير بالذكر سوى (الانفتياتر) الذى يحكى ذاك الذى فى روما مساحة ونظاما ومعبد صغير منذ القرن الثالث ق . م . وأنقاض أحواض الماء التى كانت متصلة بزغوان . وهنالك فوق بعض مقابر قرطاجة أقيم متحف لمخلفات تلك البلدة ، وكلها نال منها البلى كثيراً ، إذ تكاد تتركب من قطع الحجارة التى حاول العلماء إكمال أشكالها بالجص ، وهناك بعض الهيا كل فى مقابرها : ويرى الانسان منها أن القوم كانوا يدفنون الجثث نائمة على ظهرها فى امتدادها الطبيعى ، وقد لاحظت أن قامات أولئك جميعاً تفوق قاماتنا بكثير فى طولها ، وفى الفناء الخارجى مقبرة كاملة كأنها غرفة سقفت بالحجر على نحو ما نفعل فى مقابر مصر اليوم .

قمنا بالترام إلى ضاحية أخرى تسمى (سيدى بو سعيد) فوق ربوة تطل على البحر ، وقد أقام عليها علية التونسيين بيوت مصايفهم فى هندستها العادية ولونها الأبيض ، والبلدة ذات مظهر إسلامى نظيف أنيق ، وبعدها قصدنا ضاحية تسمى المرسى على ربوة أخرى ، وقد أقيمت بهـا المقاهى تطل على البحر ، وأهلها خليط من الوطنيين والافرنج . وثم ضواحى أخرى منثورة فوق الربى العدة تربطها وهاد زرعت أرضها وأنى وقفت رأيت البحر بزوائده يحوط تلك الربى والضواحى فيكسبها منظراً ساحراً وجواً منعشاً

بليلا . وفى تلك المناطق مجال لاقامة مصايف قد تفوق لبنان فى ظنى جمالا ،



سوق السروجية يتوسطه ضريح أحد الاولياء فى تونس

وطريق الترام إليها نزهة جميلة إذ يسير فوق جسر وسط الماء ، وبجانب القناة التى تشقها البواخر إلى تونس .

كانت ليلة الأحد هذه ليلة مولد النبى (صلعم) احتفل القوم بها فى مهرجانات جميلة إذ أوقدوا مصابيح الزيت والكهرباء فى ثريات عدة فى الأزقة والأسواق المحيطة بالجامع الكبير ، وتبارت المتاجر فى زخرفة واجهاتها وإضاءتها ، وبعد قراءة قصة المولد فى الجامع خرج القوم زرافات متراصة يروحون ويغدون فى تلك الأسواق طوال الليل ، وكان (الباى) يسير على قدميه فى حشد من الضباط والوجهاء يطوف بالأسواق يزور المساجد ويقف ببعض المتاجر الكبيرة مهنئاً أصحابها فى ديمقراطية أعجبتنى كثيراً ، وهو قريب شبه (بسعيد باشا) فى شكله وهندامه ، وكان يحيي الجماهير فى وداعة ، وقد ظلت تلك الأماكن مائجة وكأنها خلايا النحل اختلط فيها الحابل بالنابل على أنى كنت أدهش لميل القوم للهدوء وعدم الجلبة رغم حشدهم الحافل والتونسيون معروفون بالميل للسكون

قمت إلى القيروان بسكة الحديد وهى ضيقة رديئة العربات بطيئة السير إذ قطعنا المسافة وهى ١٩٣ ك . م فى نحو ست ساعات ، فأخذنا نمر بأراض مموجة فسيحة تكاد تكسوها منابت الكروم القصيرة المنظمة ، وكانت البلاد أشبه بضواحى المصايف عندنا جاها أفرنجى ، وكثير من ملاك الأرض منهم يقيمون بيوتهم وسط المزرعة ويزودونها بالآلات والدواب . وكنا كلما تقدمنا جنوبا تنفسح السهول وتكثر أشجار الزيتون ، فهى تحصى بعشرات الملايين ويعدونه أول منتجات تلك البلاد ، ولذلك كثر استخراج الزيت منه ، وترى الشجر فى صفوف منسقة إلى مد البصر ، وتحاط كل مزرعة بسياج ثقيل من أشجار التين الشوكى وكان وسقه ثقيلا ثم بدت متسعات (النعمة) وهى الغلال فى عرفهم وأخصها القمح والشعير ويزرعونها على المطر غالباً

دخلت القيروان التى أسسها عقبة بن نافع بعد موت النبى بنحو ٣٨ سنة وأضحت عاصمة المسلمين فى أفريقية ، وأقدس مدنهم حتى قيل أن سبع حجات إليها تعدل حجة إلى مكة المكرمة وإلى العصر التركى لم يكن يسمح لغير المؤمنين بدخولها ، وهى فى زعمهم إحدى الأبواب الأربعة للجنة وطوبى لمن أمضى حياته بين جدرانها ودفن إلى جوارها . حللت نزل (قيروان) ، ثم أخذت أجوب مجموعة طرق حديثة فسيحة نصف مترية تحفها الأشجار وتقوم عليها بعض فلات قليـــلة مبعثرة يتوسطها شارع رئيسى رصف بالحجارة وكانت أضواء المولد لا تزال تتلألأ فى عقود على امتداده ، والجماهير مكتظون فى المقاهى التى تكاد تتلاصق على جانبى الطرق ، وأخيراً وصلت باب الجلادين المزدوج ودخلته إلى المدينة الاسلامية التى يطوقها سور شاهق لا يزال محفوظاً تدعمه المساند الضخمة من خارجه ، وقد بنى بالآجر الأحمر. أخذت أجوب مجموعة من أزقة مختنقة بيوتها وطيئة بيضاء كأنها السجون المتراصة ، وبين آونة وأخرى يفاجئنا مسجد أو زاوية بمئذنته المربعة الوطيئة

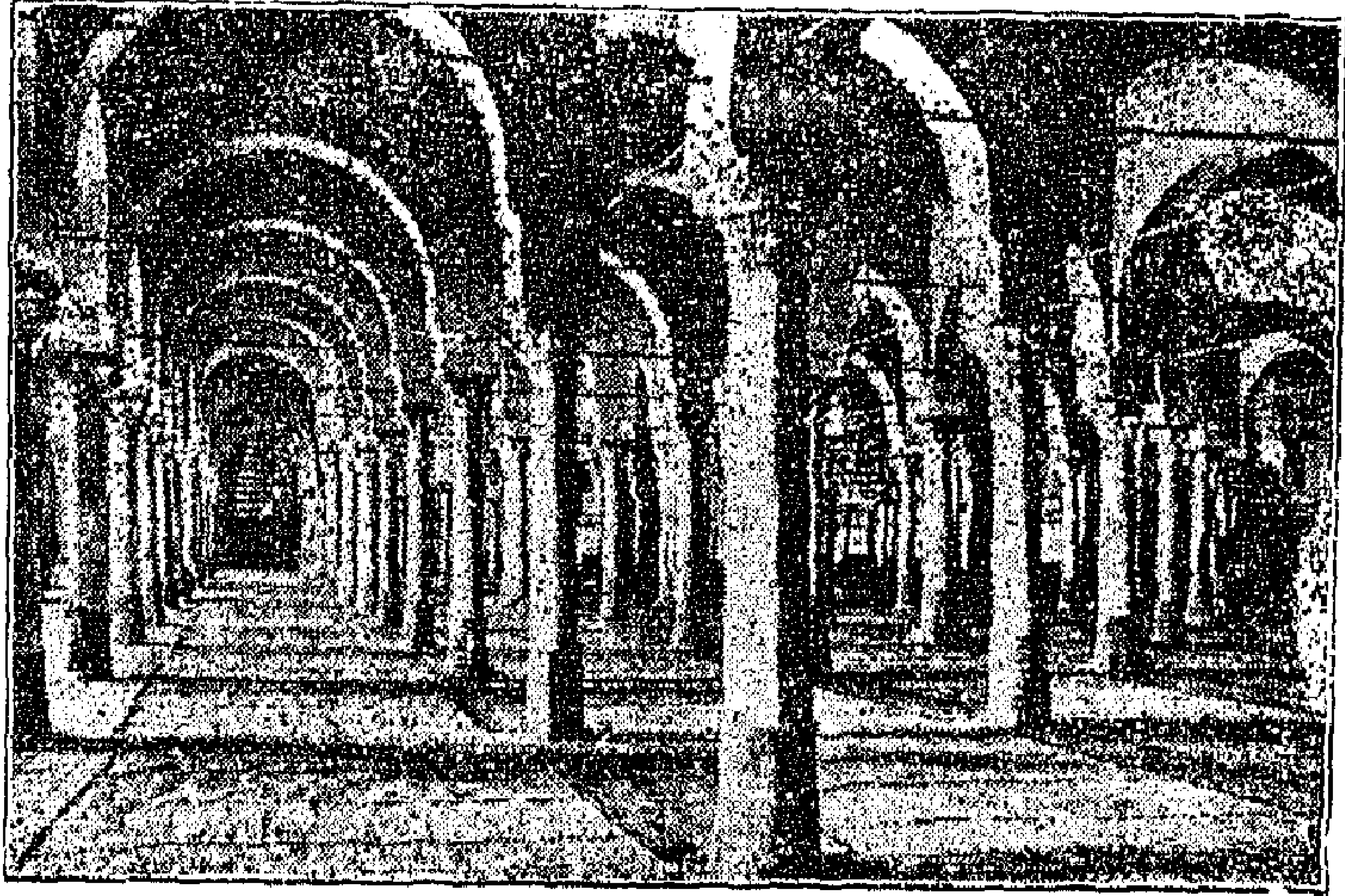
وقبته المجزعة ؛ وقيروان بلدة اسلامية بحتة بها عدد لا يحصى من (المرابطين) وهم الأولياء ، والمساجد تربو على اربعمائة بمآذنها وقبابها ، ومن أقدمها (جامع الثلاث بيبان) وواجهته خطت بالكوفية في شكل جميل ، ويرجع بناؤه إلى القرن الهجرى الثانى (التاسع والعاشر الميلادى) . ثم أدى بى السير إلى الجامع الكبير (جامع سيدى عقبة) ، وهو فسيح الرحاب مساحته ٣٨ ألف قدم مربعة ، وصحنه الكبير تحوطه الأقبية ، وليوان الصلاة يقوم على بوائك مزدوجة متقاربة ، ويزين الجدران القيشانى الجميل ، ويواجه باب الليوان الرئيسى المئذنة المربعة الشاهقة التى يبدو منظر المدينة من أعلاها جذاباً . بنى المسجد عقبة بن نافع سنة ٦٧١ ميلادية ، وهو زعيم الدعاية الاسلامية فى إفريقية ، على أن المسجد تهدم وأعيد خمس مرات ، والبناء الحالى من القرن الثالث الهجرى عهد الأغالبة ، وغالب الظن أن مواد البناء والعمد والأحجار جلبت من أنقاض قرطاجة وسوسة ، والمحراب الذى فى المسجد آية فنية من خشب مخروط برسوم عربية رائعة ، ويتلقى العلم فى المسجد جموع الطلاب على نظام جامع الزيتونة فى تونس . ومن الجهات التى تجدر زيارتها بئر باروته التى يقدسها الجميع على نحو ما تقدس زمزم فى الحجاز ، دخلتها فاذا بها فتحة فسيحة غائرة تعلق عليها ساقية يديرها جمل ، والماء يجرى فى ممار حجرية مختبئة إلى خزان حجرى له صنبور كبير من حجر تديره بيدك فينفجر الماء إلى السبيل ، وقد حفرها عقبة ، ولا تزال تحفظ شكلها القديم . وأخيراً خرجنا إلى مقابر البلدة لزيارة ضريح سيدى سحاب الصحابى الذى احتفظ بثلاث شعرات من لحية الرسول (صلعم) ، وتقوم حوله زاوية منسقة جميلة البنيان بعد ذلك طفت بأسواق البلدة المسقفة الضيقة المشعبة على نظام أسواق تونس إلا أنها أقل بهجة وجاذبية ، وقد استرعى نظرى من معروضاتها القيمة الطنافس وتلك صناعة قديمة فى قيروان تزاحم بها بسط فارس نفسها . أعيانى بعد ذلك السير وأجهدنى لفح الحر ، إذ فاجأنا الجو أمس واليوم بحر قائظ ، فآويت

إلى النزل الحقير ، وكأنى شعرت بخيبة أمل فى زيارتى لقيروان التى كنت أخالها مقراً مقدساً عامراً جذاباً تليق بعاصمة دولة الأغالبة كما كانت ، لكنها فى ظى بملة غير ذات شأن ، أهلها يبدو عليهم العوز ، إذ يكثر التسول بينهم وكثير منهم حفاة شوه المرض أجسادهم ورءوسهم ، وهى تقع فى منطقة شبه صحراوية إنتاجها قليل ، وهى بالمقارنه بتونس لا تعد شيئاً مذكوراً فاسمها أكبر منها .

غادرت القيروان عائداً إلى تونس ، وكانت تزين الطريق غابات النخيل ويقال أن فى جنوب تونس مليون نخلة يصدر منها تسعون مليون رطل من البلح . أمضيت بها ليلة الثلاثاء لأقوم فى الصباح إلى الجزائر ، فقمت مودعاً تونس بضواحيها الساحرة ، ووجوه أهلها البيضاء المستبشرة فى زيهم الأنيق المهفهف رجالا ونساء ، وأخلاط الناس وبخاصة فى الأسواق لا حصر لهم : هذا بربرى ذو سحنة يميزها الأنف المنقارى الفينيقى وتزين أصابعه الخواتم الثقيلة ، وذاك عربى الوجه أسمره ، وغيره إسرائيلى بأهداب عيونه الثقيلة ولحيته المرسلة .

وكم كان يروقنى مسير السيدات فى أزرهن البيضاء الناصعة من الحرير الموشى ، وكأنهن الملائكة يسرن على بعد ، وتونس نظيفة وهندام أهلها غير منفر ويقل الحفاة بينهم أما لهجتهم العربية فمحرفة كنت أفهمها بصعوبة . ومن كلماتهم التى نسمعها فى كل مكان (ياسر) بمعنى كثير (ومن غادى) بمعنى من هناك (وخاطركم) عند الوداع ، وتكاد الفرنسية تكتسح العربية وتجتاحها ، فالناس يتكلمون بها أكثر مما يتكلمون بالعربية حتى العامة منهم وفرنسا جادة فى هذا السبيل على نحو مانجحت فى الجزائر ، أما أنا فلم تفدنى عربيتى فى الحديث إلا يسيراً ، فهم لا يكادون يفهمون من منطقنا شيئاً ، وكان صبى فى العاشرة يقودنى إلى الجامع الكبير وكان يتكلم الفرنسية بطلاقة عجيبة وكلما رأى أخاً له جرى الحديث بينهما بها لا بالعربية . ومما يدهش له المرء

تحدى فرنسا للشعور الدينى ، فهى تقيم الكنائس الكثيرة فى كل الأحياء بكثرة مدهشة حتى فى الأحياء الوطنية . ولقد أقامت فى الأحياء قلب البلد الاسلامى خلف



مسجد قيروان من داخله وهو قريب شبه بمسجد ابن طولون

باب فرنسا تمثالا لأحد القديسين يحمل الصليب ، وقد اهتاج الناس وثاروا لذلك لكنها أصرت على إقامته رغماً منهم ، وهى تميل إلى تجنيس التونسيين بالجنسية الفرنسية على نحو ما فعلت فى الجزائر ، وقد أصدرت القانون بذلك لكن عصبية الشعب أرغمتها على سحبه مؤقتا ، وقد أدى ذلك إلى قيام بعض الأحزاب يطالب ببعض حقوق الأهلين ، ولا يزال الشبان يتآزون على أن يد التفريق بدأت تعمل حالا ، فقد انشق الحزب على نفسه شعبتين . أما الجرائد فكلها فرنسية وليس هناك إلا بعض صحف لاتجاوز الأربع صفحات من القطع الصغير تنشر بالعربية وهى ستأخذ فى الانحلال لاشك إذا ظلت الشبيبة فى مقاطعتها الحاضرة للقراءة بالعربية .

ومستوى التعليم هناك لا يزال منحطا ، ونسبة المتعلمين قليلة جداً ، والمدارس الابتدائية كلها مجانية ، ويعلم كل شىء باللغة الفرنسية ، ولا تكاد تدرس اللغة العربية إلا ساعات قليلة لا تفى بشىء ، وبعد المدارس الابتدائية يجىء التعليم الثانوى ، ثم التعليم العالى ، وهذا فى جامعة الجزائر . أما التعليم

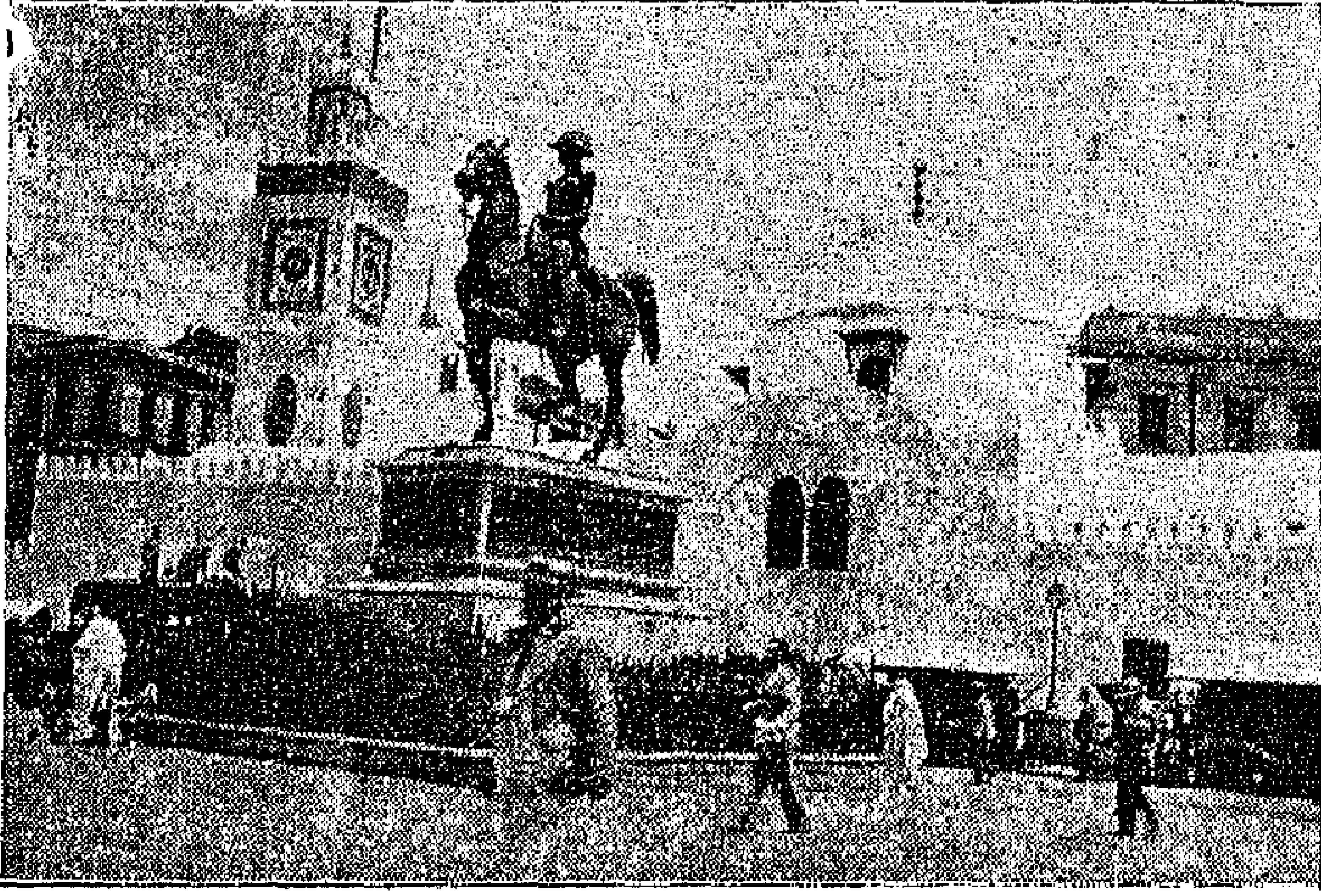
الدينى الاسلامى وتحفيظ القرآن فى المكاتب ، وبعد ذلك يكون الحضور على الفقهاء فى المساجد الرئيسية (القيروان والزيتونة) ، وكثير من بلاد المغرب كلها توفد أبناءها لتلقى العلوم الدينية هناك ، فكأن تونس زعيمة التعليم الدينى ، والجزائر منهل الثقافة الفرنسية . ولا يكاد يكون هناك أمل للشبان المتعلمين فى التوظف ، لأن جل الوظائف الكبيرة والمتوسطة للفرنسيين ، وعجبت لما علمت أن التونسى محظور عليه أن يحمل لقب مهندس فهذا وقف على الفرنسى والأجنبى ، لذلك اتجه غالب المتعلمين إلى الطب والمحاماة لأنها مهن حرة ومباحة لهم .

والزواج فى تونس غير مبكر، فالآباء يكرهون أن يزوجوا أبناءهم وبناتهم صغاراً ، فيندر أن تتزوج الفتاة قبل العشرين والفتى قبل الثلاثين ، ويعزى ذلك إلى غلو المهور، فهى لا تقل عن مائة جنيه للطبقات المتوسطة أو ما دونها ، وكذلك إلى انصراف الفتيان إلى مصادقة بعض الخليلات من الفرنسيات ، وقد جلبهن الفرنسيس من أيتام الحرب من بناتهم وبثوهن فى البلاد يتصيدن الشباب .

ومن أجمل عاداتهم الاحتفال بيوم (الجز) ، فاذا كان العام عام بركة فى المحصول دعا الرجل صحبه من الأكابر من سائر البلاد واجتمعوا يتسامرون فى حفلة (هنشير) ويكون ذلك وسط البيت عادة ، ثم يدعو جيرانه ورجالهم (خدمهم) ويجهز لهم الأغنام ويبدأون الجز ، وكلما حل ميعاد الطعام قدم لهم خصوصا (الرفيسة) فى الصباح وهى من الكسكسى واللبن والعجوة والسكر وفى الغداء تقدم الذبائح للفريقين الوجهاء والعمال . وأساس الثروة هناك الأرض والنخل والزيتون ، وعلى هذه جميعها تجبى الضرائب هذا إلى ضرائب الدخل والتجارة ، وتوزيع الثروة هناك متعادل فأنت لا تجد المفرط فى الغنى إلا ما ندر ، وإن وجد أخفى ذلك ولم يترفع عن سائر الناس ، كذلك فالفقر المدقع غير موجود

بلاد الجزائر

قمت العاشرة صباحا إلى الجزائر فى قطار فاخر عرباته فسيحة نظيفة ، فسار بنا طيلة النهار والليل ووصلنا السابعة من صباح اليوم التالى . ولبثنا



مسجد مدينة الجزائر فى ميدان الحكومة وأمامه تمثال دوق أورليان

نشق أراضى تونس — وكانت أميل إلى السهول المموجة — إلى الساعة الثانية بعد الظهر حين دخلنا حدود الجزائر ، وهنا فتشت أمتعتنا تفتيشاً دقيقا ، وتلك طريقة لمضايقة التونسيين وإشعارهم بأن عدم التجنيس هو الذى دعا إلى تلك الفوارق ، ثم ختمت جوازاتنا وأخذنا ندخل بلاد الجزائر وقد تغيرت المناظر دفعة واحدة ، إذ أصبحنا نسير فوق هضاب سطحها يعلو ويهبط ، تشقها وديان سحيقة تتلوى ليات متعاقبة ، وكان يجرى فى قيعانها ماء شحيح إذ هذا موسم الجفاف هناك . وتتخلل تلك المنخفضات سهول مبسوطة ، وكان القوم يزرعونها غلالا ، أما الشجر بل والغابات فلم تنقطع عن العين ، والأرض كلها تكسوها الخضرة الجذابة ، فكنت أشعر وكأنى أسير فى هضاب سويسرا ، وكانت سكة الحديد تتعرج يمنة ويسرة متلمسة جوانب الوديان ، وكم اخترقت من أنفاق لا عدلها ، وقد بدا حقاً الفرق

الشاسع بين مناظر تونس والجزائر ، فهى هنا رائعة الجمال تأخذ بلبك أينما سرت ، هنا أيقنت بأن الجزائر جميلة حقاً كما خبرنا القوم عنها من قبل ، إذ السائد فى عرفهم أن الجزائر تعرف بالجمال أما تونس فبالهدوء . وتسمى نجاد شرق الجزائر هذه بلاد قابيل ، يقطنها قوم لا يزالون يحتفظون بدمهم البربرى وبعاداتهم الأصلية ، ويكادون يحكمون أنفسهم بانفسهم ، وهم زراع مهرة ، اعتنقوا الاسلام لكنهم إباحيون فى قوانينهم المدنية وفى نسائهم اللواتى يخرجن سافرات مثل جيرانهم من الطوارق فى الصحراء ، ومركز النساء لديهم محترم ، يحتفظن بحقوقهن قبل الرجال ، ولا يكادون يبيحون تعدد الزوجات قط ، وأقاليمهم غاص بالقرى والأهلين ، ولا يزال الكثير يتكلم اللغة البربرية الأصلية هناك ، وأظهر القبائل البربرية (شاويا) و (قابيل) يعتصمون بجبالهم ، ولقد سادهم الفينيقون . ثم الروم ثم الوندال ، لكنهم أدمجوهم فيهم وحفظوا شخصياتهم ، ثم جاء أهل آسيا من العرب واليهود وكادوا يدمجون البربر فيهم ، لكن يخال الكثير أن أثر البربر أغلب . ذلك ما لاحظته فى سحن القوم ، أما اليهود فقد ظلوا شعباً منفصلا كما هم فى سائر بلاد الأرض ، وذلك بفضل عصبيتهم الدينية .

دخلنا محطة الجزائر مبكرين ، وإذا المدينة تبدو أمامنا بحق (زمردة تزين وسطها ماسة وضاءة) كما شبهها العرب ، وهى درجات بعضها فوق بعض ، تقوم عليها المبانى الفاخرة إلى يسارنا ، والبحر والميناء الصغير إلى يميننا ، وساحل المدينة كأنه الهلال ، فأخذنا مكاننا من (الرافعة Lift) الكبيرة التى أقلتنا إلى شارع البحر الفاخر ، ولمن أراد الصعود راجلاً أن يسلك الطرق المرصوفة المنحدرة يمينا ثم يساراً فى مسافات ممدودة حتى يصل القمة .

حللت نزل (باريس) الصغير ، ثم نزلت أجوب البلدة فاذا بها آية فى النظافة والفخامة ، فلقد أذكرتنى بباريس نفسها فى نظمها وحركاتها وأهلها ،

إلا فى أنها تقوم مدرجة على المرتفعات ، فقد يرتقى المرء من الدرج مئات كى يصل إلى المكان الذى يريد ؛ ويشق طرقها المنحدرة الترام والأمنيبوس ، ويتخللها كثير من المتنزهات وسط ميادين عنى بتنسيقها عناية فائقة ، وحتى أعمدة المصابيح تزينها أصص الزهور ، وإذا أقبل المساء عزفت الموسيقى فى تلك الردهات والقوم جلوس حولها أو وقوف كأنما على رءوسهم الطير ؛ ومظهر المدينة إفرنجى بحت ، وليس هناك من فرق كبير بين الوطنيين والفرنسيين لا فى الشكل ولا فى الكلام ، فأنت لا تكاد تفرقهم الواحد عن الآخر ، ولا تكاد تسمع العربية قط ، حتى ولا تراها فى كتاب أو جريدة وحتى عامة الجزائريين تراهم يتخاطبون بالفرنسية فى لهجتها الصحيحة ، وإذا نطقوا بالعربية كانت محرفة مشوهة ، وهم يستعينون على التفاهم بها بادخال كلمات وجمل فرنسية ، فكأنك تسمع لساناً عربياً معوجاً قد مازحته الفرنسية ، وقد بدا لى أنهم يستسيغون الحديث بالفرنسية بل ويستسهلونها عن العربية ، ولم يبق للزى الجزائرى إلا بقية ضئيلة فى سراويل يعلوها بُرد من صوف أبيض يلف حول الكتف ، ولعل أعجب شىء العمائم التى تحكى القمع المقلوب الكبير ، وقد انتفخ من أعلاه يغطى بقطعة من قماش خفيف أبيض تكسو القفا وجوانب الوجه ، ثم يلف حول ذلك القمع حبل من صوف فى لون وبر الجمل ، وحتى أولئك ترى جل حديثهم بالفرنسية

أما زى النساء فملاءات شبيهة ببرد الصعيد عندنا لكنها بيضاء ، ويغطى الوجه قناع أبيض مثل القناع المصرى ، وهن أيضاً يتخاطبن بالفرنسية غالباً وحتى الحى الفقير من المدينة يحكى الأحياء الفقيرة فى بلاد أوروبا ، ولا أكاد أرى للمظهر الاسلامى أثراً قط ، وحتى المساجد القليلة لا يؤمها إلا خلق نادر وجلهم من المتسولين البائسين ، وغالب ظنى أنه إذا مضى على البلاد نصف قرن انمحت آثار العربية والاسلام محواً تاماً ، أما فى تونس فلا يزال المظهر الاسلامى قائما فى كثرة العلماء وطلاب العلوم الدينية وكثرة المساجد

واتساع رقعة الأحياء الوطنية . وذاك الفرق الشاسع بين القطرين وليد نصف قرن فقط إذ كان دخول فرنسا بلاد الجزائر منذ ١٨٣٠ أى نحو مائة سنة . أما تونس فنحو خمسين عاماً .

بدأت جولاتى من الميدان الرئيسى (ميدان الحكومة) فى مربع هائل رصف بالحجارة الصقيلة الصغيرة تحوطه المبانى الفاخرة ، ويقوم على جانبه الشرقى تمثال دوق أورليان بن لويس فيليب يمتطى جواداً ووراءه مباشرة الجامع الجديد فى لونه الأبيض البراق والميدان يعد بدء حركة الترام والسيارات وهو أبداً مائج بالحركة والنقل. دخلت الجامع الجديد الذى بناه الترك للمذهب الحنفى سنة ١٦٦٠ بمئذنته المربعة تتوسطها ساعة تسمع دقاتها على بعد كبير وهو من داخله على شكل صليب فكأنه كنيسة بيزنطية الهندسة تماماً على مثال مساجد الاستانة ولا بأس بنقشه ونظافته . وفى الشارع المجانب له يقع الجامع الكبير تطل واجهته الممتدة ببوائك أندلسية مجددة فى منظر جذاب تتوسطها بائكة بديعة بها سبيل الماء لسقى المارة ، وهو من داخله فسيح الرحاب أقيم على تلك البوائك الضيقة الأنيقة ويعد أقدم مساجد الجزائر بنى للمذهب المالكى وهو المذهب الرئيسى لمسلمى شمال أفريقية ، وقد أقيم فى الأصل على أنقاض لكنيسة من كنائس (ايكوسيم) وذلك كان اسم بلاد الجزائر القديمة ولم يعرف من بناه بالضبط ، ويعزوه البعض لمدة (المرابطين) من القرن الحادى عشر وهو على نمط مساجد قرطبة والقيروان ، ومنبره الجميل يرجع عهده إلى سنة ٤٠٩ ﻫ أو ١٠١٧ م فهو أقدم المخلفات الدينية فى الجزائر، وعلى مقربة من الميدان المكتبة العامة جمعت منذ ١٨٦٢ فى بيت قديم لمصطفى باشا (بنى سنة ١٧٩٨) وهو من أبدع المساكن المورية فى الجزائر بمداخله الملتوية ومحاريبه المزركشة ونافوراته الأنيقة ، وتضم المكتبة فوق أربعين ألف مجلد من بينها أوفى مجموعة عن تاريخ البلاد وجغرافيتها ، ومنها ألفا كتاب مخطوط بالعربية والتركية والبربرية والخط العربى والكوفى بديع

جميل ، وعجيب أن كل تلك الكتب جمعت من البلدان الأخرى مثل قسطنطين وغيرها ولم تزودها مدينة الجزائر بكتاب واحد لذلك يطلق العلماء عليها (مدينة الأمية)



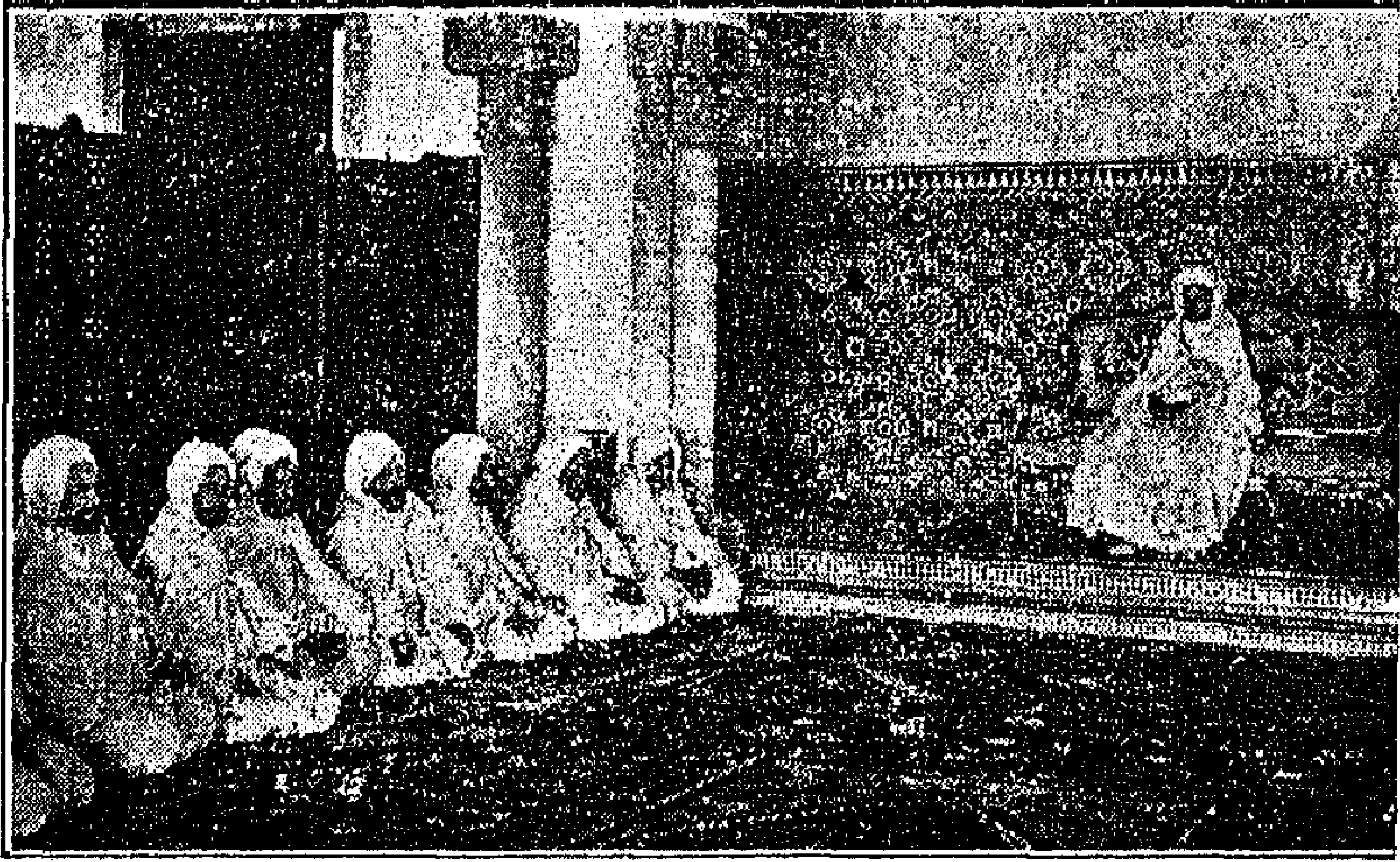
سلطان المغرب (مراكش)

ويلى هذا الميدان فى الأهمية ميدان الجمهورية يصله بالأول شارع الجمهورية الفاخر يشرف على الميناء التى كبر شأنها التجارى اليوم حتى أضحت ثانية المين الفرنسية بعد مرسيليا وتليها الهافر فتجارتها فوق ١٥ مليون طن ويدخلها نحو ٢٠٠٠ سفينة لتزود بالفحم الذى يستهلك منه سنوياً نحو ٦٠٠٠٠٠ طن ، وقد أدهشنى ذلك لأنها بدت فى عينى صغيرة لاتذكر بجانب الاسكندرية إلا أن الحركة التجارية فيها صاخبة أبداً وتجانبها سكة الحديد ، ولعل مركزها المتوسط فى البحر الأبيض هو الذى زاد فى شهرتها وتقوم إلى الجانب الغربى من ميدان الجمهورية (الأبرا) ، وتتسع لنحو ألفى شخص

على أن منظرها من خارجها لم يرقني كثيرا ، وتبدأ من هذا الميدان الشوارع الرئيسية للمدينة الوطنية تأخذ فى الانحدار صعدا وتتلوى يمنة ويسرة ، وكلها ذات مبان فاخرة ومتاجر عامرة ، والجهة الوطنية تسمى مصطفى الأدنى على اسم أحد الحكام فى العهد التركى Dey (الداى مصطفى) الذى تقوم فى مسكنه اليوم المكتبة والجهة المرتفعة تسمى مصطفى الأعلى . أخذت الترام إليها ، فأخذ يسير صعداً فى تلك الطرق الفسيحة التى عنى برصفها العناية كلها وكلما صعدنا بدا مشهد الميناء فى جمال فاتن وقد زرت فى وسط الطريق قصر الداى — باردو — فى فيلا بديعة تحوطها الحدائق المنسقة ، وهى ذات مقاصير أندلسية يزينها القيشانى الجميل وخرط الجص الفنى البديع ، وبها يعرض أثاث المنزل وغرفة النوم والطعام كاملا ، وقد عرض فى بعض غرفها مخلفات للطوارق والبربر أنسجتهم وأزياؤهم فى تماثيل صنعت خصيصاً ، وبعد هذا القصر بقليل زرت المتحف الأثرى والاسلامى ، والأول به بعض مخلفات من عهد الروم وقرطاجه والاوبيين وكلها مهشمة مشوهة . أما القسم الاسلامى فغنى بمحتوياته القيمة نخص بالذكر منها الأقمشة المراكشية المطرزة تطريزاً فاخراً دونه تطريز عصرنا هذا ، ثم أكلمة وطنافس وأشغال الخشب من خرط ونقش وزخرفة النحاس ، وهناك قرآن كريم مخطوط بالكتابة الكبيرة البديعة تحفها الرسوم العربية جىء به من مصر ، ويرجع عهده إلى ٢ رمضان سنة ١٠٠٢ هـ .

بعد ذلك صعدنا قليلا فى تلك الطرق الملتوية ، ومررنا على مصيف الحاكم وهو فى الهندسة المورية الجميلة ، وينتهى بنا السير إلى مصطفى الأعلى عند نهاية الترام بغابة بولونيا التى تكسو ربوة مساحتها ٢٣ هكتاراً ، وفيها من مختلف الشجر بين استوائى وقطبى . وإنى لن أستطيع أن أصف إبداع المناظر التى كانت تستمتع بها عيوننا أينما سرنا فى الطريق والترام والقصور والحدائق، ومنها كلها يتجلى البحر من دوننا وتزين حجور ذاك المنحدر القصور الفاخرة

وناهيك بالمتنزهات التي غالى القوم فى تنسيقها والاكثار منها ، وهى كلها تقوم فى مدرجات كأنها الحدائق المعلقة ، وكل درجة يقوم بها باسق الشجر



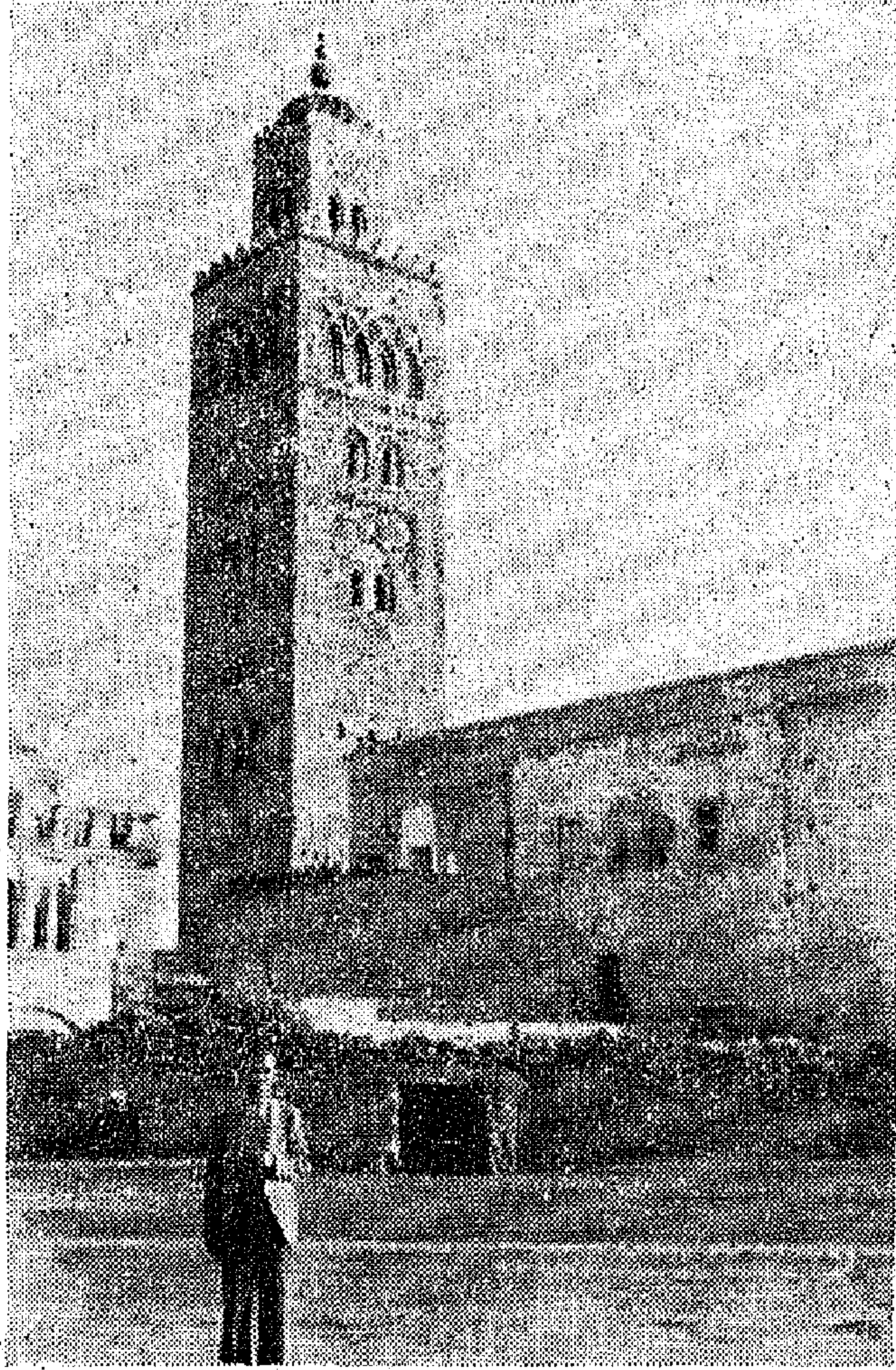
سلطان مراكش ومجلس وزرائه

ونضير العشب والزهر نخص بالذكر منها حديقة مارنجو ، وحديقة ميدان البريد الذى يطل عليه قصر مصلحة البريد والتلغراف والتليفون فى هندسة مورية ونقوش بديعة ، وقد خطت أركانه بالعربية والكوفية ، والقصر فاخر إلى حد يعجز عن الوصف . ومن المبانى الضخمة دار الجامعة التى تحوى كليات العلوم والطب والحقوق والآداب ، وقد زودت بمكتبة غنية ومجموعة جيولوجية وباليونتولوجية قيمة ، وألحقت بها حديقة للنبات زرتها فألفيت بها مجموعة من مختلف النبات وبخاصة أنواع النخيل وكذلك الزهور ، وقد أقيمت بها بيوت الزجاج على أنى ألفيتها تعوزها النظافة إذ تبدو مهملة لعظم اتساعها فمساحتها ٨٠ هكتاراً وبها جزء وطىء مبسوط قد مد فى وسطه متنزه بديع بنافوراته ومماره الهندسية يشرف عليه قصر مورى الهندسة وفوقه مدرجات الربى تغص بالأشجار المختلفة وتبدو كأنها الغابة المغلقة .

أخيراً أدى بى السير إلى الحى الوطنى أقدم أحياء المدينة ويسمى

(كاسبا) وأخالها محرفة عن القصبة وهى القلعة ، هنا دخلت فى تيه من الأزقة التى لا يكاد يمر بها رجلان متجاوران ، ويزيدها اختناقا شرفات الدور التى تكاد تتلاصق ، وهى تحمل على عصى غليظة مائلة ، وكلها رصفت بالحجارة فى درجات صاعدة أو هابطة ويتوسطها (شارع كاسبا) ، ويأخذ فى الصعود بدرجانه ، وعددها ٤٧٩ حتى ينتهى عند القلعة ، وكان عندها مسجد قديم رفع الفرنسيس على منارته الصليب ، وأستخدم كنيسة رغم أن النقوش الاسلامية والآيات القرآنية لا تزال تزين جدرانه . أليس هذا تحدياً ظاهراً من الغاصبين ، والعجب أن شارع كاسبا هذا يبدأ أيضاً (بكنيسة النصر) وأصلها أيضاً مسجد لا يزال حافظاً لشكله القديم ، فكأنهم قصدوا أن يبدأوه ويختموه بكنيستين بدل المسجدين إمعانا فى التحدى وإهاجة الخواطر ، ولا أدرى ماذا يفيدهم هذا ، إذ هو لا شك مثير لشعور الأهلين ضدهم ، وإن كان كر السنين قد أوهن من تلك الاهاجة بعض الشيء ، وقلعة كاسبا على علو ١١٨ متراً ، وأصلها قلعة بربرية بناها سليم التيومى ، ثم أعاد الترك بناءها سنة ١٥٩٠ وكانوا قد احتلوا الجزائر سنة ١٥١٦ وقد اتخذها على خوجة الداى السابق للأخير مسكنا وفى عهد خلفه حسين (استدعى قنصل فرنسا لتقديم خضوعه للداى فى القلعة فى عيد رمضان ، فاستقبل القنصل بالسخرية المقيتة إذ جرى الحديث كله بالتركية بدون وساطة المترجمين ، ولما احتج القنصل دفعه الداى حسين بمذبته دفعاً شديداً وهدده بالسجن) ، هكذا أذاع الفرنسيس ما حدث ليبرروا الاغارة على الجزائر وتملكها ، وهكذا يمهد الغربيون لحملاتهم على الشرق بمختلف الوسائل حتى يجدوا أمام العالم مسوغا لاعتدائهم . ويحتل القلعة اليوم شرذمة من الجند خليط من الفرنسيين والجزائريين . أعجبت بذاك الحى ولبثت أجوس خلاله وهو عتيق تعوزه النظافة — سكانه خليط من الأهلين والأجانب وكلهم من الفقراء تراهم فى أسمالهم الرثة يرتمون إلى جوانب

الجدران أو فوق مقاعد المقاهى البائسة منكبين على اللعب أو الشرب — والخمر فى تلك البلاد منتشر انتشاراً مخيفاً — وكان يخيل إلى أنى أسير فى



مجلس كتبية فى مراكش

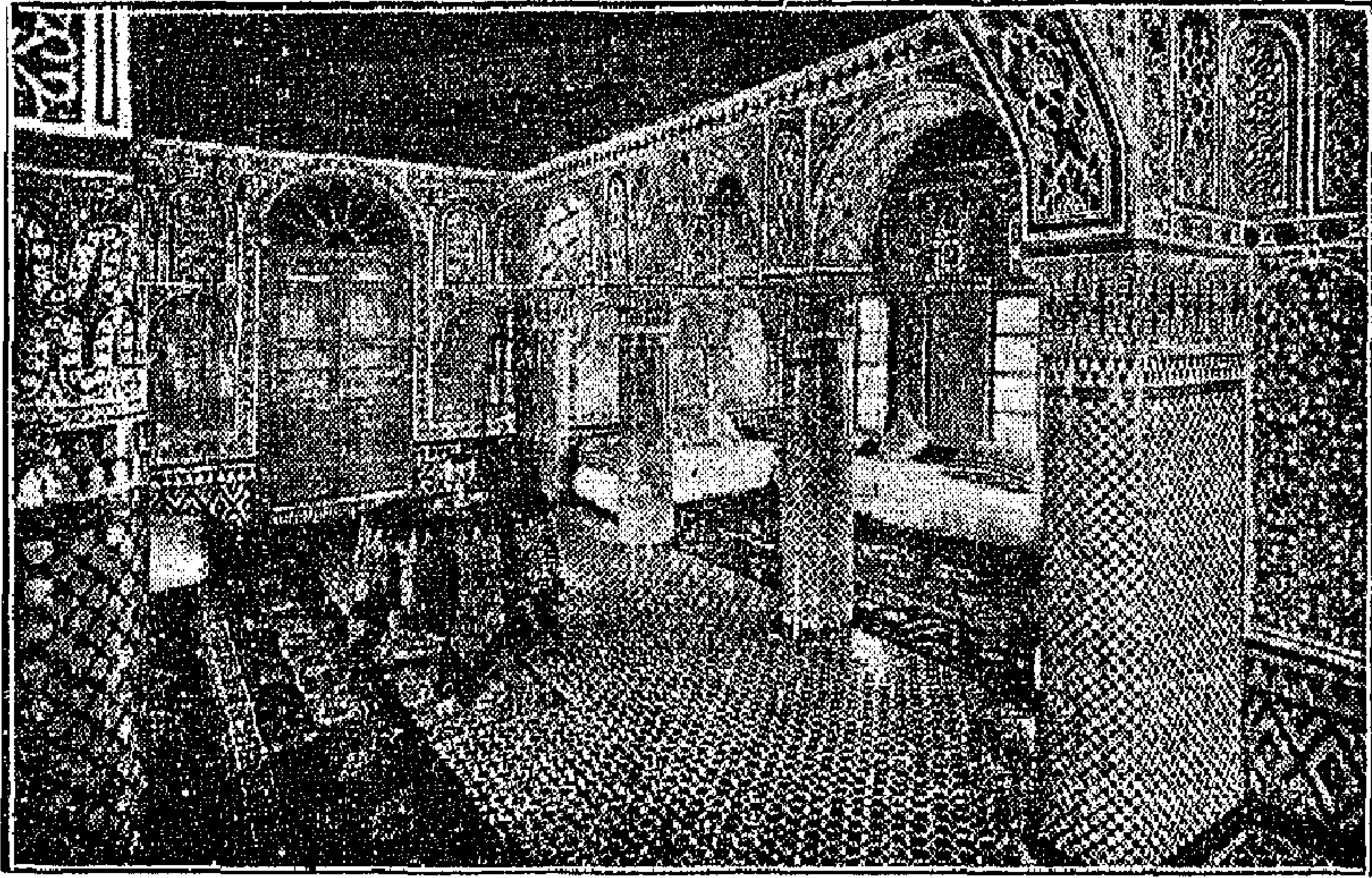
بعض أزقة بلاد الهند يشع فى هوائها الوخم ، ويخال المرء أن ميكروب المرض يكاد يخترقه اختراقا .

هدانى سيرى بعد لأى إلى زقاق الشيطان المعلق المتلوى الزلق الذى نزلت منه إلى شارع كاسبا ومنه تعرفت طريقى ، وتلك الجهة هى الوحيدة فى كل الجزائر التى حفظت شكلها القديم ، وكنت أعجب لاختلاط الوطنيين بالفرنسيين فى كل مكان حتى فى السكنى ، فبعض البيوت يقطنها عائلتان :

وطنية وفرنسية ، ويشاطرون بعضهم كل شيء ، وتلك من خصائص الاستعمار الفرنسي ، فهم يخالطون العامة ويشاطرونهم طعامهم ومعاشهم ؛ وكثيراً ما كنت أرى فرنسية ووطنية فى بيت واحد على مائدة (الكسكسى) يعدانه سوياً ، ولو أن فى ذلك تغلغلا من المستعمر فى صميم البلاد لتعرف حقيقة حالها ، إلا أن فيه فضيلة الديمقراطية الظاهرة التى كنت ألمسها فى تعامل أبناء البلاد مع الفرنسيين على قدم المساواة فى كل شيء ، فالصبى الصعلوك الوطنى يمزح مع (الخواجا) الوجيه الفرنسى كأنه ندّه أو زميله ، وفى المتنزهات والمقاهى نرى الرجل فى هندامه القذر المهلهل يجلس إلى جوار فرنسى أو فرنسية فى هندام أنيق وجيه ، ولا تلحظ على أولئك شيئاً من الامتعاض ؛ وقد زرت هنالك بعض المساجد ، منها مسجد محمد الشريف والسفير ، وسيدى رمضان ، وكلها صغيرة لكن الحياة الوطنية الصميمة تبدو حولها فى أتم أشكالها .

ومن الضواحى التى راقتنى كثيراً (البيت المربع Maison Carree) ، على بُعد ٢ ك . م ، وبها زهاء ١٨ ألف نفس ، منهم ثمانية آلاف من الأوربيين ، أخذت اسمها من قلعة تركية (برج الآغا) الذى بُنى سنة ١٧٤٦ ، وهو اليوم معسكر ، وفى وسط تلك المدينة ميدان فسيح كان القوم قد أعدوا به الزينات لعيد ١٤ يوليه ، وهو هنا يبدأ من أول يوليه إلى (الليلة الكبيرة) فى ١٤ منه ، ومع أنى زرته فى أول ليلة فانى دهشت لكثرة الزحام وتعدد المعروضات من الألعاب المختلفة وجلها مبنى على المقامرة ، وقد دخلت منها معرضاً علمياً وقفت به سيدة وبتأثير الأشعة ظهر جسمها عارياً بتفاصيله ، مع أنها كانت تقف مرتدية كامل ثيابها ، ثم غيّر الرجل الأشعة بنوع آخر ، فظهر هيكلها العظمى ظهوراً واضحاً ، ومن يحضر ذلك المكان يحكم على الشعب الفرنسى ومن تأثر به من الشعوب بالميل للمجون والمرح لدرجة الجنون ؛ ولست أدرى ماذا سيفعل القوم فوق ذلك يوم ١٤ يوليه نفسه ؟

عدت من تلك الضاحية ليلا فكان مشهد مدينة الجزائر وضواحيها فوق منحدرات الربى يتلألأ نجوماً متقاربة هى الثريات الكهربائية التى خطت



القيشانى يزين كثيراً من بيوت المغرب

عند الأفق نهراً من نور فى شكل هلال هائل الامتداد ، وكان منظره يسحر الأنظار .

قمت بقطار المساء مودعاً الجزائر الجميلة بتنسيقها ، التى لم تكد يد الاصلاح الغربية تترك فيها من القديم أثراً ، اللهم إلا اليسير فى حى الكاسبا وفى بعض أزياء للرجعيين من القوم ، فى عمائمهم المنتفخة ، وسراويلهم الفضفاضة ، ولحاهم المرسلة ، وشواربهم الهائلة ، فترى الواحد منهم يسير وكأنه العملاق يخبّ خباً ، على أن هندام تونس ينم عن كثير من حسن الذوق والتأنق ، فهو أرق مادة وشكلا ، ويظهر أن معقبات المدنية الحديثة عاونت على كثرة مطالب الناس فظهر البؤس بينهم بشكل لم أعهده فى تونس، وكثر متسولوهم وحفاتهم . أخذنا نسير فى أرض غالبها سهول مملة ، قليلة الشجر ، صفراء من بقايا حصاد الغلال ، وبخاصة القمح والشعير ، وكان بعضه لا يزال فى الأرض لم يحصد بعد ، وعندما قاربنا (وهران) غيّرنا القطار

الذى سار بنا غرباً ودخل منطقة غنية بالنبت ، وفيرة الشجر ، هى حول مدينة (تلمسن) ، حيث عادت المناظر غنية بديعة ، من شجر وكرم وزيتون يكسو تلك الأراضى المموجة التى كانت تغص بالوديان الضيقة الملتوية .
وحول الظهر كنا على مقربة من حدود المغرب (مرا كش) التى وصلناها ظهراً . وفى بلدة (أوجده) كان الجمرك والتفتيش وختم الجوازات ، وكان يركب إلى جوارى رجل جزائرى وقور يشتغل بالتجارة بين حدود القطرين ، ومن نوادره أنه قال للفرنسيين الذين كانوا معنا بأنه متزوج من امرأتين ، وله بيتان : أحدهما فى حدود الجزائر والآخر فى (أوجده) فى مرا كش ، لأن عمله يقتضى أن يمضى نصف الأسبوع هنا ونصفه هناك ، فكانت سخرية وضحك منه على زوجتيه ، وكيف أنه يستطيع الانفاق على بيتين ؟ لكن الرجل رد عليهم ردوداً مسكتة إذ قال إن ذلك خير له من طريقتهم هم ، وهى ترك امرأتهم فى مكان والاختلاف إلى الغانيات حيثما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، وأفهمهم أن ذلك محرم فى دينه ، وأن البيتين لا يكلفانه بقدر ما يتكلفه لو كان أعزباً .

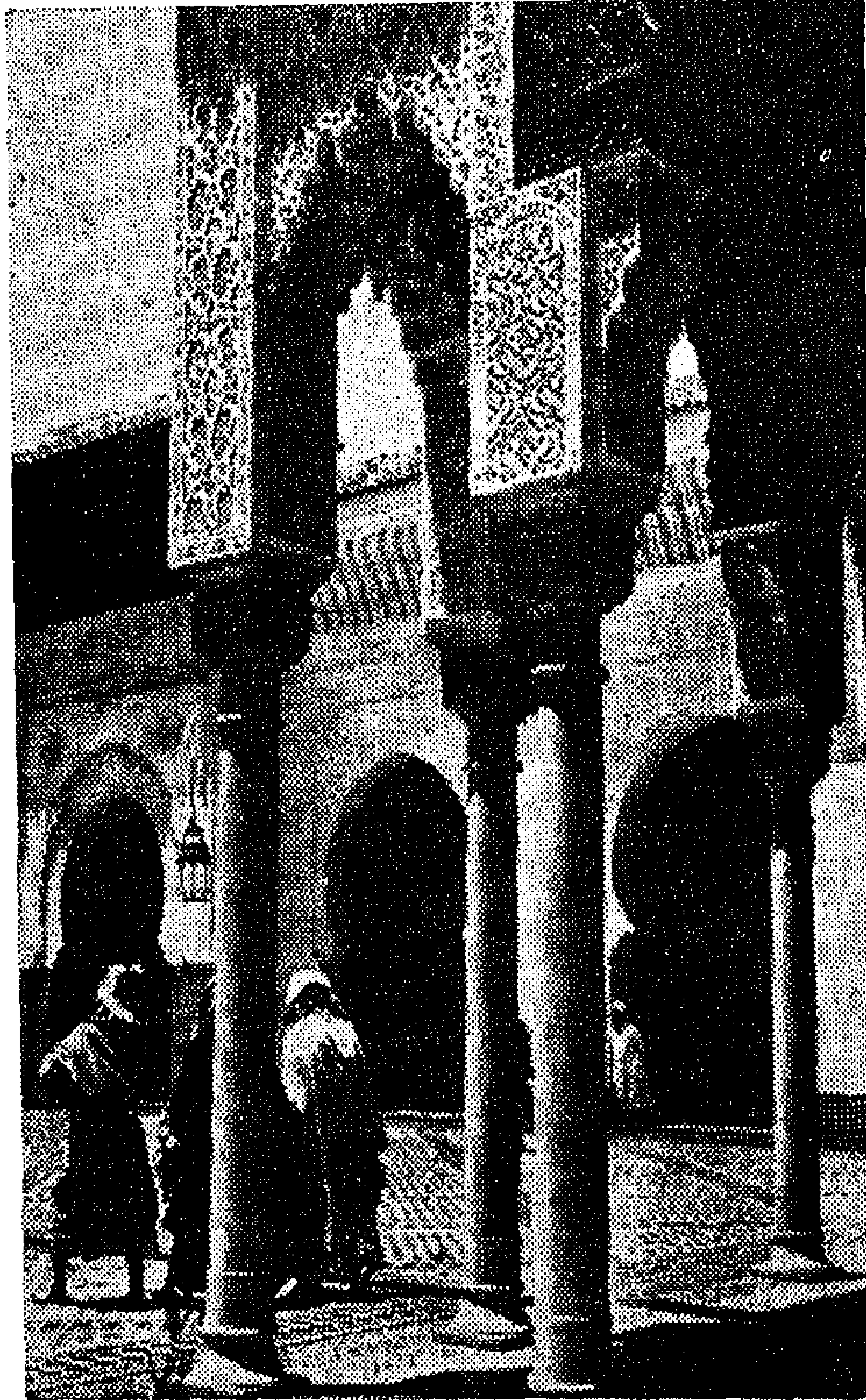
إلى بلاد المغرب الأقصى (مراكش)

قام بنا القطار الثانية بعد الظهر يشق أرض مراكش التى بدت لأول وهلة سهولا شبه مجدبة مملة ، غالب أهلها يقطنون خياماً ويستنبتون الغلال ، فحللت (نزل فرنسا) الجميل فى فاس ، وفى الصباح نزلت أجوس خلال البلدة فاذا بها تنقسم ثلاثة أقسام : القسم الخارجى الذى حللت النزل فيه ، وهو حديث البناء ، أفرنجى ، كله منسق ، فسيح الطرق ، كثير المقاهى ، والأنزال كأنه جزء من بلاد أوروبا ، ولم يرقنى إلا المحلة لليهود أقاموها مجتمعاً لهم فى هندسة مراكشية بديعة ، تكسى كلها من داخلها بالقيشانى والنقوش والرسوم العربية الجميلة ، ولليهود هناك جالية كبيرة جداً ، فهم يكادون يحتكرون المتاجر كلها ، وتراهم ونساءهم يملأون الطرق وقد بدت لحى كهولهم هادلة مدببة ، وكسا رءوسهم طربوش أسود كالقمع ، أما النساء ففى شيلانهم الملونة الثقيلة . ومن هنا يؤدى بنا إلى (فاس الجديدة) الأوتوبيس ، وتلك بلدة خارج الأسوار القديمة أقيمت فى القرن الثالث عشر ، وتحكى أحياء (تحت الربع) عندنا ، بالمبانى المتزاحمة تطل عليها شرفات خشبية كثيرة ، وتتخللها أزقة ملتوية ، ولا بأس بنظافتها ، وهنا غالب متاجر اليهود ومساكنهم . وكم يروقك كثرة الحركة وتلاصق الأكتاف أثناء الليل ، ونساء اليهود يملأن الطرق فى خلاعة زائدة ، ويظل ذلك إلى ساعة متأخرة من الليل رغم أن أنواع الملاهى نادرة فى تلك الأحياء .

أخيراً أدى بى السير إلى (المدينة) وهى فاس القديمة ، وهناك تجلى القديم وظهرت معالم الاسلام والعصبية له فى مظهر الناس ، وتعدد المساجد التى يحصى فيها هناك ٢٧٠ مسجداً ولم أكد ألمح كنيسة واحدة ، وأول مااسترعى نظري كثرة الأسوار الشاهقة وتعقيدها ، فلم أدر لها أولا ولا آخراً ، تزينها

بوابات ذوات ثلاث فتحات: الوسطى كبيرة تجانبها اثنتان صغيرتان، ويكسوها القيشانى الأزرق البديع، وتلك البوابات تؤدى إلى طرق المدينة، وهى مختنقة مسقفة فى الغالب فى جهات الأسواق التى لا تخبو حركتها، وكلهم فى الرداء المغربى العجيب وهو أبسط من أردية تونس، وأظهره (الجلاب) وهو كالعباءة الفضفاضة المقفلة من أمامها، ولها (كبود) هائل متصل بها، يضعه الرجل على رأسه فيرى منتفخاً، أما النساء ففى أزر بيضاء من الصوف، وعليهن القناع الأبيض الثقيل، وأجمل ما فى أزيائهن (البلغة) التى تصنع من جلد أو قماش قد شغل بالقصب فى نقوش عربية بديعة، والناس جميعاً يلبسون تلك (البلغ) حتى المثقفين منهم الذين ارتدوا الحلل الأفرنجية والطرابيش المصرية، وبعض النساء يلبسن (جلاب) الرجال، ولذلك كان يصعب علىّ التمييز بين النساء والرجال أحياناً خصوصاً اذا كانت المرأة غير مقنعة، ومن المارة عدد كبير من السود، وقد وفدوا على البلاد من أواسط أفريقية وتوطنوا وأضحوا من الأهلين. زرت من المساجد اثنين وهما أشهر مساجد البلدة: مسجد (القيروان) وسمى كذلك لأنه أقيم على نمط مسجد قيروان فى تونس، وهو الجامع الكبير فى فاس، وقيل إنه أكبر مساجد أفريقيا جميعاً، ثم مسجد سيدى إدريس أجمل مساجد البلدة — وسيدى إدريس بن إدريس الأكبر المدفون فى مكناس، وله على أهل المغرب سلطان دينى كأنه السحر؛ وقد أذكرتنى عصبيتهم بما لاقيته فى مشهد عند مدفن الامام الرضى؛ فما كدت أدخل المسجد وأتفقده وأقف أمام الضريح أقرأ الفاتحة حتى أحاط بى القوم وتهامسوا، ثم أقبل شيخهم يشير علىّ بالخروج فى نغمة تدل على تعصب أعمى، فقلت: بل أنا مسلم وهذا بيت الله لم يقتصر عليك أنت أو على المغربيين، فكانت مشادة خشيت عواقبها وعجلت بالانسحاب، وكان الحديث بالعربية لكن التفاهم كان صعبا، لأن لهجتهم محرفة جداً، لا أفهم

من الجملة إلا كلمة أو اثنتين ، وكانت عربيتى لديهم أعجمية ، ولعل ذلك ما رجح لديهم أنى غير مسلم .



المسجد الجديد فى كازابلانكا

أما هندسة المساجد فكلها أندلسية يكسوها القيشانى الملون ، وتقوم المئذنة المربعة المألوفة فى شمال أفريقية كلها . وفى البلدة عدة مدارس يوزع بعضها على المساجد والبعض فى أبنية أندلسية خاصة وجلها للتعاليم الدينية . وفى طرف من البلدة المدرسة الأدريسية فى بناء أندلسى بديع بها تسعون طالباً يتلقون مزيجاً من العلوم الدينية والحديثة والفرنسية ، وتلك أول خطوة

اتخذتها فرنسا للتأثير فى تلك البلاد التى لا تزال ترمق الأجنبى بعيون ملؤها البغض، ولهم الحق فى ذلك لأن مطامع الاستعمار لا تحد ، وقد لمسوها فى جيرانهم أهل الجزائر وتونس . على أن القوم متأخرون جداً ورجعيون إلى حد كبير، ولقد بدا الفرق شاسعاً بينهم وبين أهل تونس والجزائر وهم يسيئون الظن بالغريب أياً كان . وذلك بدا لى من مخاطبتى لهم أو سؤالى عن أى شىء فان أجابوا كان ذلك فى اقتضاب وعدم رغبة فى الاسترسال فى الحديث . ويقول الفرنجة بأن مراكش هى الطرف الغربى الهمجى من بلاد الشرق ، لكنهم رغم ذلك شجعان بواسل يفاخرون بذلك على جيرانهم ويقولون بأن (التونسيين نساء والجزائريين ظرفاء، أما المراكشيون فجنود بواسل) ، ففى اعتداءات أوروبا على أفريقية كانت مراكش آخر من اعتدى عليه ولما تخضع بعد .

وقد زرت قصر مولاى عبدالعزيز وابنه ، وهو فاخر البنيان بالغ التنسيق تتوسطه حديقة بديعة ، وقد اتخذ الحاكم الفرنسى جانباً منه مسكناً والجانب الآخر متحفاً به بعض مخلفات المغرب من أردية وأسلحة وقطع خشبية عربية ، وفى جانب من البلدة حديقة نسقت لتكون متنزهاً ، يشقها مجرى نهر « فاس » الضيق السريع ، أزرق الماء ، وهو سبب خصب منطقة فاس ؛ أما مساكن الأهلين فمدهشة ، أزقة بعضها لا يكاد يسمح لشخصين بالمرور ، والبعض فى سراديب تحت الأرض أذكرتنى ببيوت الواحات الخارجة عندنا فى مصر ، واذا أوغل الانسان فيها أضحى وسط تيه لا أول له ولا آخر ، وسكان تلك البيوت يكادون يكونون مقشورى اللون وسحنهم آية فى الجمال ، والمغاربة أفتح لوناً من المصريين ، فلقد دخلهم الدم الأوربى يوم كانت أسبانيا متصلة بأفريقية ، ومما يروقك عند الأصيل الفتيات الصغار كل تحمل لوحة عليها رغيف أو اثنين تخرج بها الى المخبز لتنضجها ، والخبز شبيه (بالخبز الشمسى الكبير فى صعيد مصر) .

والعجيب أن موارد المياه لتلك البيوت بل والبلدة كلها مجارى تسير تحت الأرض وأنت تسمع دويها أينما سرت ، وتصل جميع المساكن لسقيها



مولاى الحسين خليفة الريف الإسبانية

وهى نوعان : نوع جيد للشرب والآخر أقل جودة للغسيل . أما الصحافة والمطبوعات فكلها اليوم فرنسية ، وقد بدأ الجيل الجديد يتعلم الفرنسية وجاهم يتكلمونها لكن بدرجة أقل من تونس والجزائر بكثير ، على أن النشاط الفرنسى سائر على ساق وقدم فى تحويل البلاد ، وإن كان سيره هناك بطيئاً جداً لكثرة الرجعيين وعصبية المسلمين وشديدنفورهم من كل ماهو أجنبى . وفى أسواق المدينة حركة صناعية ناشطة وبخاصة فى صناعة الجلود كالحقائب والسروج والأحذية (البلغ الفاسى الشهيرة) ، وفى نسيج الحرير فى ملاءات

ملونة جميلة ، وفى التطريز التى شهرت به تلك البلاد منذ القدم .

قمت الى « مكناس » بالأوتوبيس — وهناك مجموعة قيمة من سيارات النقل الكبيرة المريحة تسير بين غالب بلاد مراكش — مسافة ستين كيلو متراً قطعناها خلال أراض مموجة تكسوها الخضرة ، على أن المنطقة حول فاس سهلة متسعة ، ويظهر أن غالب المدن تقوم فى الوهاد حيث يتوافر الماء وتمتد السهول التى يستغلونها بالزرع كما شاهدت عامى الفائت فى بلاد إيران إلا أن هاتيك أقل جدبا .

دخلنا المدينـــة التى هالتنى بها مجموعة الأسوار والطوابى والبوابات المزركشة الهائلة التى أشعرتنى بأن المدينة قديمة وانها حقاً كانت مقر مولاى اسماعيل ، ومما زادها قيمة قربها من مدفن مولاى إدريس الأكبر زعيم أولياء تلك البلاد ومؤسس أول أسرة عربية حكمت هنالك ، وكذلك فهى تقارب موضعاً رومانياً قديماً لا تزال للروم به آثار قيمة هائلة ، وهى أنقاض مدينة Volubilis ، أما داخل المدينة اليوم فقذر ، وطرقه متربة متهدمة ملتوية مختنقة ، بها مجموعة من الأسواق المألوفة فى بلاد الشرق ، وأهل البلاد سذج يبدو عليهم الفقر ، وترى كثيراً من أولادهم يسيرون فى خرق مهلهلة ، وأقدام عارية ، ورؤوس حلق شعرها إلا ذؤابة طويلة وسط الرأس ، وقد تكون فى جانبه تتدلى فى خصلة طويلة ، وتلك عادة شائعة فى كل تلك البـلاد ؛ وهم قذرون إذ قلما تجد رأساً سلم من إصابة (القرع) ، وأنت تسمع طوال الطريق رنين أجراس هى لبائعى (الشربات) ، يحملون القرب ذات الشعر الطويل على ظهورهم ، ويتوسـط السوق الجامع الكبير ويسمونه جامع الزيتونة ، لأنه شبيه أخويه فى تونس وقيروان ، وإلى جواره زرت مدرسة تضم بين جدرانها ٤٥ طالباً يتلقون العلوم الدينية ، ويقيمون كل فى غرفة من غرفها ، ويتوسط فناءها السماوى حوض ماء يغتسل الجميع فيه ويغترفون الماء للشرب وغيره ، وهندسـة البناء أندلسية جميلة يزينها خرط الخشب

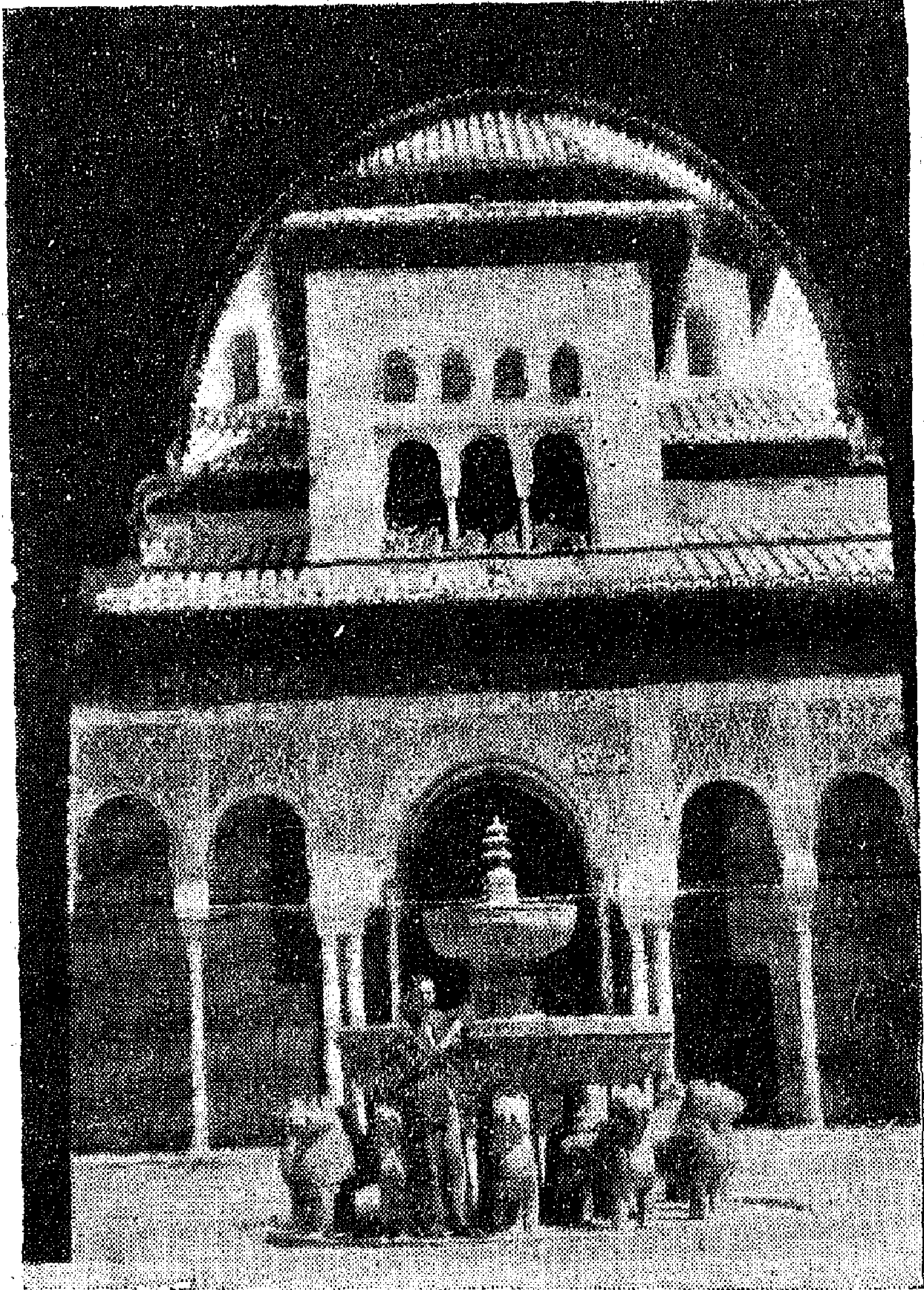
ومقصوص الجص والرخام ، ولا يخلو طريق من الأسبلة فى صنابير ينبثق منها الماء المستمر ، ويكسو واجهاتها القيشانى الأزرق البديع . وفى قسم كبير من المدينة يقطن اليهود بكثرة هائلة ، وبيدهم جل متاجر البلاد ، وهم هنا يلبسون اللباس المغربى (الجلاب) والطربوش الأسود ، والمتمدينون منهم خرجوا إلى ضاحية أقاموها لأنفسهم من ڤلات بديعة . أما الفرنسيون فقد أنشأوا كعادتهم قسما جديداً منسقاً للافرنج ، تزينه المتنزهات وتقوم به المتاجر الأفرنجية والمقاهى ، على أنى لم يرقنى من البلدة كلها سوى وجاهة أسوارها وبواباتها ، وبخاصة باب منصور ، وفى المقاهى البلدية يشرب القوم الشاى الأخضر ، يصب فى كأس كبير تكاد تسده أغصان النعناع الأخضر وورقه . ومن الأطعمة المحبوبة لديهم (العدس) الذى خلته يطهى على طريقتنا . لكنه يطبخ بقشره كما تطبخ (الفاصوليا) ، وحجم حباته أكبر من عدسنا على أن مذاقه كان لدى منفراً . وإذا أقبل الليل أمست البلدة القديمة مظلمة موحشة إلا فى بعض المقاهى فى الحى الافرنجى ، وقد دخلت مغنى مرا كشياً ظهرت على مسرحه سيدتان فى الأردية المغربية ، وبيد كل (طبلة) أسطوانية نحيلة طويلة ، وقد جلس فى الصدر ثلاثة رجال بيد الأوسط (كمنجة) يعزف عليها مقلوبة كأنها الرباب . ويمسك الآخران بالطبل الأسطوانى النحيل . وترقص الغوانى على نقرات الطبل وهن يغنين بأصوات كأنها أصوات المعزى ، وفى فترة الراحة تطوف واحدة تجمع الهبات (النقوط) وفى ساحة السوق يقوم الشعراء يحدثون القوم أحاديث غرامية وتاريخية عن أبناء المغرب ، وهناوهناك ترى ألعاباً أساسها المقامرة ، وهم يقبلون عليها إقبالا شديداً . والقوم متعصبون جداً ضد الأجانب . فأنت لا تزال تسمع فى أفواههم كلمات (نصرانى ويهودى) ، يقولونها احتقاراً وجهاراً : ولا تزال تسمع القرش والريال والقرش ربع فرنك أوخمسة سو (صولدى) والريال خمسة فرنكات .

ولقد ركبت الأتوبيس إلى الحمام الأعظم Grand Bassin ، وسراى السلطان ، وهنا كان موطن مولاى اسماعيل ، ويهولك مظهر الأسوار الضخمة بعضها داخل بعض فى تعقيد شديد ، وعرض حوائطها خمسة أمتار ، وفى داخل كل أولئك أنقاض قصر السلطان ، ولا تزال منه بقية يقطنها بعض سلائله ، وفى جانب من القصر حوض ماء مستطيل يكاد امتداده يبلغ الأفق ، وهـذا كان مستحم السلطان وآله ، وإلى جواره مقر السجون التى تمتد تحت الأرض فى سراديب مظلمة تصلها بالسماء كوى صغيرة يشع منها بصيص من نور ضئيل ، وهى مقسمة إلى حجرات كأنها (الرمسيوم) ، وفى كل غرفة حوض عميق ، سد اليوم بشباك الحديد ، ويقولون أن المجرمين كان يلقى بهم فيها .

قمت بالسيارة الكبيرة إلى « رباط » مسافة ثلاث ساعات ، ولما أقبلنا على رباط بدت بيضاء فى بيوتها الوطيئة ذات الطابق الواحد ، وقد كسيت كلها باللون الأبيض حتى خلتها (الدار البيضاء) ، حللت نزل (كرستول) فى الجانب الافرنجى ، والمدنية كالعادة قسمان : أفرنجى جديد بطرقه الفسيحة وعماراته الفاخرة ومتنزهاته المنسقة ، ولعل أجمل طرقه اثنان متعامدان تتوسطهما الأشجار والمتنزهات ، وتقوم عليهما المحال التجارية والمقاهى الفاخرة ، ومن الأبنية التى استرعت نظرى (بنك مراكش) ومحطة سكة الحديد ، أما القسم القديم فداخل الأسوار الهائلة التى تحكى أسوار « مكناس » إلا أن غالب البلدة فوق ربى يطل بعضها على البحر فى شرفة صخرية عالية تشرف عليها القلاع القديمة والمساكن البيضاء .

وشوارعها وأسواقها ودورها ومساجدها شبيهة بتلك التى رأيناها فى البلدان السالفة ، وترى فوق الأبنية كثيراً من طير البجع الذى يقدسونه فى جميع بلاد مراكش ، ورباط تقع على نهر صغير يسمى رجرج يصب بجون أقاموا الجسور عند مدخله ، وهو الذى يكون الميناء الصغير .

وفى جانب من القلعة أقيم متحف تعرض به بعض مخلفات ملوك المغرب ، واجمل ما استرعى نظرى اشغال النحاس والحلى الفضى وتطريز الأقمشة



بهو الأسود فى قصر الحمراء بغرناطة

صناعة الخشب المنقور وكذلك الجلد ، وفيه مجموعة قيمة من الأسلحة وعدد وافر من الخناجر الفاخرة المرصعة ، ثم مجموعة من الطنافس المغربية الثمينة ، وثم جانب من قصر السلطان بأثاثه وأجمل ما به سرير النوم من خشب مسقف كأنه التابوت ينزلق جانبه فيصبح صندوقاً كبيراً أغلق على النائم من داخله .

وبينا أتفقد بعض المكاتب الوطنية أبحث عن مطبوعات وجرائد مغربية عربية، وإذا بشيخ وقور أخذ يحادثني عن بلاده وكيف أن الغاصب قضى على الصحافة العربية هناك، إلا جريدة صغيرة من ورقتين وتسمى (السعادة) وهي حكومية ولذلك يقاطعها الجميع وتظهر ثلاث مرات أسبوعيا، أما النشر فكله اليوم في جرائد فرنسية، على أن القوم متعصبون لتعليمهم العربي والديني في الجوامع، وهو على الطريقة الأزهرية، وقد أدخلت السلطة عليه بعض التعديل وأضـــــافت بعض العلوم الحديثة وحددت مدة الدراسة وسن الطالب. ولا يزالون نافرين من هذا النظام، على أني ألفيت كل الجرائد والمجلات المصرية وكثيراً من كتبنا تباع هناك، وقد أخبرني الرجل بأنهم يتبعون الحركة الفكرية المصرية، وقد علمت من سياق حديثه أنه خبير عليم بكل حركاتنا الاجتماعية والسياسية وأسف لتنابذ الأحزاب عندنا، ورجا الله أن تتوحد قريبا. على أن حركة التغلغل الأجنبي سائرة سيراً حثيثا أساسها هجرة الافرنج إلى البلاد وتوطنها حتى في الريف حيث يستغلون منتجاتهـا وأراضيها، ويسهل لهم هذا الأمر جدا، وحتى أسماء الطرق تكتب في الأحياء الجديدة الافرنجية بالفرنسية فقط، وفي الأحياء الوطنية بالفرنسية وتحتها العربية، وسيكون يوم تمحى الكتابة بالعربية كما محيت في الجزائر اليوم تماما.

قمت إلى الدار البيضاء أو «كازا» كما يسمونها، بالسيارات في سـاعة ونصف، وكنا نسير في سهول مترامية بجانب البحر، ويزرع أغلبها غلالا وكروما، وكان يتخللها بعض الأودية الملتوية تصب في البحر. دخلنا «كازا» فلم تبد بيضاء كما خلتها، بل اخترقنا الحي الأفرنجي وهو هائل بطرقه الفسيحة تتوسطها الأشجار المزدوجة على النظام الفرنسي، وحللت نزل «راجانس Ragence» القريب من ميدان فرنسا، وهو قلب المدينة ذات الحركة التجارية وحركة النقل يتوسطه برج شاهق تعلوه ساعة، وهو الفاصل بين البلد القديم والحديث، أما البلدة القديمة فإلى الشمال، تطل على البحر بأزقتها الملتوية

العادية وزحامها الشديد ، وقلبها (باب مراكش) ومنه يبدأ ترام البلدة ، وهو عبارة عن عربات أوتوبيس كبيرة بعجل منفوخ ، ولا يسير على



عملاق المدينة « الجيرالدا » وكانت مئذنة المسجد فى اشبيلة

قضبان . وله سنجتان متصلتان بسلكين وتدفعه الكهرباء . والمدينة عاصمة البلاد الحقيقية ولو أن مقر السلطان والحاكم الفرنسى فى رباط وهى كسائر بلاد المغرب غاصة باليهود المتوطنين الذين يقومون بكثير من المتاجر والصناعات الصغيرة ، وعجبى من نشاط الفرنسيين فى الانشاء والتعمير ، فالمبانى الضخمة

والمتاجر العظيمة آخذة فى الانتشار بسرعة مدهشه .

قصدت مكتبة أنتقى ما يروقنى من المصورات عن البلدة ، فرأيت بعض المناظر الجذابة كتب عليها (درب السلطان) ، فاردت أن أزور تلك الناحية فسالت رجل الترام : أيصل هذا إلى (درب السلطان) ؟ فابتسم وأشار بالايجاب ، وهمس فى أذن زميله همسات مريبة ، وأخذ كل آونة يرمقنى ويضحك . وصلت هنالك وما كدت أجتاز البوائك البديعة حتى أصبحت فى مكان البغايا فعجلت بالانسحاب . والمدهش أن هذه الناحية أجمل نواحى كازا القديمة ، ودرب السلطان هى كازا الوطنية الجديدة ، طرقها ضيقة أيضا وبيوتها وطيئة بيضاء ، ولعل التسمية جاءت عن تلك الناحية ، وكلها تزينها المساجد بصوامعها (هكذا يسمون المآذن) المربعة الشاهقة .

قمت إلى « مراكش » فى أتوبيسات (بولمان) الفاخرة الضخمة فوصلناها فى أربع ساعات ونحن نسير اليها جنوبا ونشق سهولا بدت نصف مجدبة لأن جلها كان يزرع غلالا حصدت أو كادت فأغبر لون الأرض ، والطريق فى جملته ممل موحد المناظر ، إلا أنه أزحم من الطرق السابقة بالقرى ، وبين آونة وأخرى كنا نمر بقلعة قديمة ذات أسوار هائلة ، ويحتلها جميعا الفرنسيون اليوم ، وقبيل دخولنا مراكش بدت غابات النخيل لأول مرة فحاكى المنظر بعض بلاد مصر ، ومررنا بضاحية « جليز » الأوروبية الفاخرة ، وهى الحى الافرنجى الجديد لمراكش ، ثم دخلنا شارع مراكش ، وكانت تبدو فى صدره على بعد أجمل مآذن المدينة ، وهى مئذنة جامع الكتبية وعلوها ٢٥٠ قدم ، ويقال أنها أجمل مآذن الدنيا بطوابقها السبعة تتوجها ثلاث قباب كانت من ذهب ترصعها الجواهر وسقوفها كانت من فيروز .

آويت الى نزل (سنترال) الصغير الجميل ، ثم خرجت الى الميـــدان الرئيسى لمراكش : ميدان جامع فناء ، (أو جامع الفناء أو جمع الفناء) من كثرة من أعدم من المجرمين قديما ، وهو عظيم الاتساع يغص بجماهير الناس

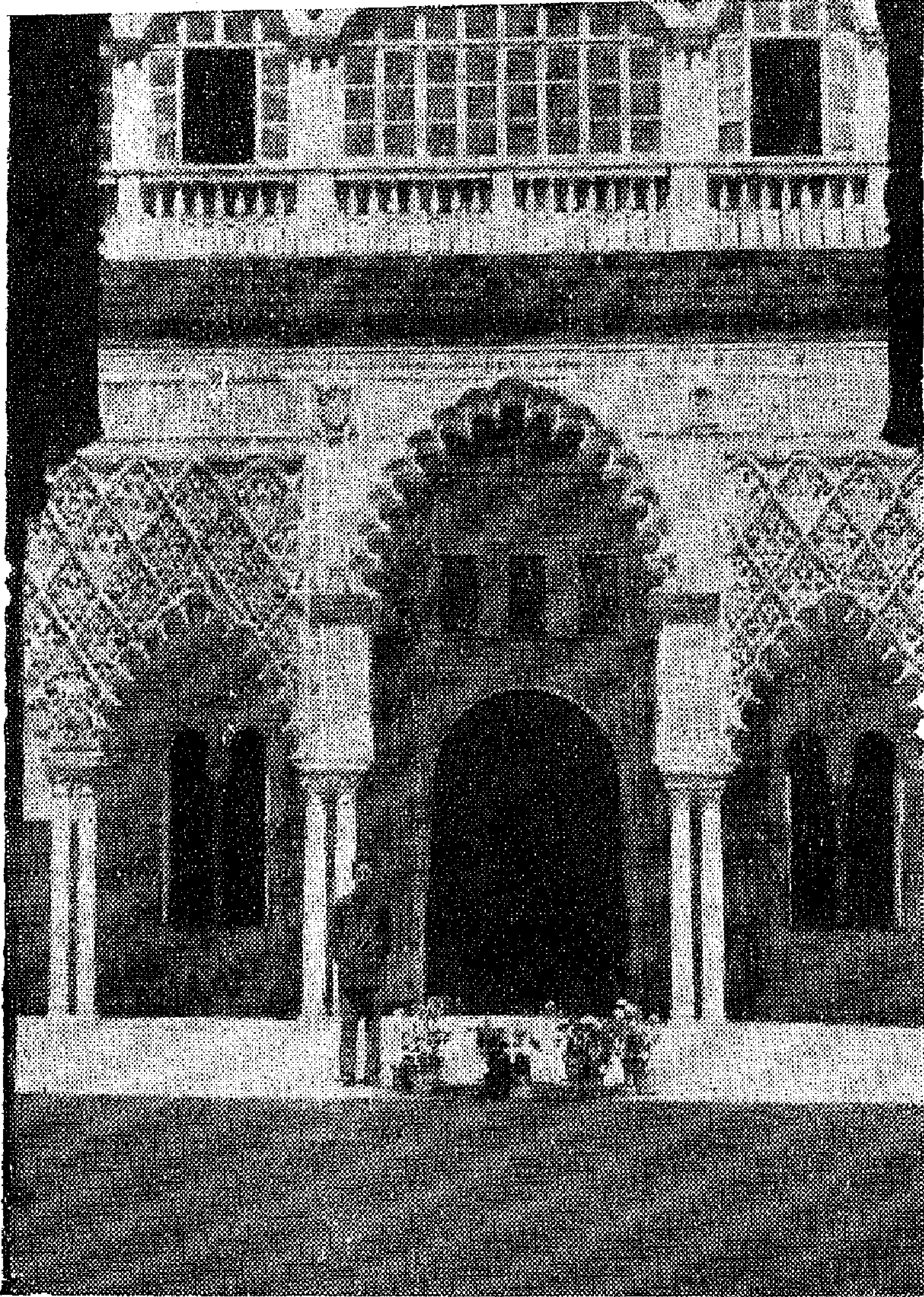
فى كثافة مدهشة : من الباعة يفرشون الأرض بسلعهم البائسة تظلهم ظلال من خيش أو بوص ، ومن حواة ورقاصين ومداحين بالطبول والأراغيل والرباب ، يجتمع القوم حولهم فى حلقات هائلة . وقفت بينهم فأدهشتنى سذاجتهم وعميق جهلهم ، يتزاحمون على تلك الخرافات ويستمعون لها معجبين مكبرين ، ولمجرد رؤيتهم للغريب يرمقونه بنظرات متواصلة كلها ريب ، ويتحدثون عنه جهاراً ، وهم متعصبون إلى حد كبير . أما أشكالهم فمنفرة : وجوههم مستطيلة ، وأنوفهم عالية ، وهندامهم غير جذاب ، وجلهم يحملون الخناجر من معدن أو فضة تعلق فى جوانبهم ، وهم فى عمائمهم يشبهون أقذر أقوام الصعيد عندنا ، أما المتسولون والمشعوذون ففى كل مكان ، يفتنون فى أداء مهنتهم بأشكال عجيبة ، رأيت مرة صفا منهم يبلغ العشرة يهتزون فى حركات خاصة ، ويصيحون صيحات متعاقبة تسترعى الأنظار ، والناس يقبلون عليهم بأنعامهم ويتبركون بهم كأنهم الأولياء ، أما القذارة وأمراض الرأس والجلد فحدث عن كثرتها . وإذا أقبل الليل بدت المراقص العلنية فى المقاهى الفرنسية واكتظ الأهلون فى الطريق إلى جانبها وهم مأخوذون كأنهم البلهاء ، وبعضهم من الكهول الذين كان يبدو عليهم الوقار يقفون الساعات تلو الساعات فى غير حراك . أما منطقهم فمنفر للغاية ، أذكر على سبيل المثال من كلماتهم التى نسمعها دائماً : جوج بمعنى اثنين ، ووخّا بمعنى كذا أو نعم ، وبالزاف بمعنى بكثرة ، وكاين بمعنى موجود . وإذا لاقى الأخ اخاه بدره قائلا : آش خبارك ، فيقول : لا باس (بامالة الباء) . أوغلت فى أسواق البلدة المألوفة فى أزقتها ولياتها ، ثم زرت بعض مساجدها ومدرسة من مدارسها الدينية على نظام أخواتها فى فاس ، وبعض قصورها وبخاصة قصر الباشا بديع الزخرف والنقش ، ولعل أجمل ما فى البلدة جميعاً مدافن ملوك السعديين زرتها فى مقاصير سقوفها من خشب الأرز طعم بالذهب ، وبوائكها صغيرة أندلسية تقوم على عمد نحيلة وكلها من مقصوص الرخام

جيء به من إيطاليا والنقش فيها بديع والأضرحة بالرخام متجاورة ، ففى مقصورة يدفن ستة من الملوك السعديين ، وفى الأخرى بعض ملوك السعديين والعلويين متجاورين .

وبالمدينة مجموعة من أسوار بعضها خارج بعض ، وتتخللها البوابات الهائلة ، ولعل أجملها (باب أجنو) أو باب البرتغال ، سمى كذلك لأن البرتغال كان لهم شأن مع تلك البلاد ، وقد دخلوا المدينة وطردوا من هذا الباب ، وإلى جنوب مراكش تقع جبال أطلس العليا التى تفوق مرتفعاتها أحيانا ١٣ ألف قدم ، وكنا نرى ذراها تحد الأفق الجنوبى ، وعليها عمائم الثلج الأبيض ، ومن بلاد الجبال التى يزورها الكثير :

أسنى Asni : ركبت لها السيارة (لورى) مسافة ٥٧ ك . م ، سرنا نصفها الأول فى سهول مراكش ، ثم بدأت الربى ، وفى الثمانية عشر كيلومترا الأخيرة كنا نسير صعداً فى طريق ملتوية معقوفة بعضها فوق بعض ، والوديان الضيقة وفيرة الزرع ، والماء فى الأعماق من دوننا حتى وقفنا (بمولاى ابراهيم) ، وهو مزار مقدس فوق ذرى الجبال يؤمه خلق كثير — والشعوذة والتعصب آخذة من القوم كل مأخذ . وقفنا بها طويلا بجوار مجموعة من بيوت أقيمت من طين فوق بعضها تتدفق خلالها عيون ماء لا بد أن يغتسل المارة جميعا بمائها الطاهر لتدركهم بركات مولاى ابراهيم . وكم ضايقنى وقوف السيارة هناك انتظاراً للمسافرين حتى يفرغوا من استحمامهم فى ذلك الماء المقدس ؛ والناس يصعدون ليات وعرة إلى القمة كى يزوروا الشيخ ثم يعودون . واصلنا سيرنا إلى « أسنى » ، وهى قرية صغيرة وسط الجبال على علو ١٢٠٠ متر ليس بها إلا مقصفان افرنجيان والباقى بيوت طينية لسذج سكان الجبال ، وسكان تلك الجبال شداد البأس ينفرون من الأجنبى ولم تستطع فرنسا إخضاعهم فاتفقت معهم على أن تتركهم أحراراً فى اقطاعاتهم

— فهم يعيشون فى عهد شبيه بعصر الاقطاع — ولكل محلة قلعتها، ويسمى حاكم كل اقطاع هناك (القائد)



آيات الزخرف فى « الكزار » فى أشبيلية

أقمت فى مراكش ثلاثة أيام، ولعلها أقل بلاد الغرب تأثراً بالأجنبى، فهى خير ما يعطى الزائر فكرة صادقة عن المغاربة، وهم لسوء الحظ على حال من التأخر شديد: أميون بسطاء، يهتاج الرجل منهم لأقل شىء، فيثور وينهال على أخيه سباً ولعناً، ويظهر أنهم يدللون صغارهم جداً، لأنك ترى

الأطفال يختلفون إلى المقاهى ويحرقون التبغ أينما وجدوا لذلك سبيلا فى حضرة كبرائهم ، وشرب الخمور وحرق الحشيش والأفيون منتشر ، على أن الذائع الشاى الأخضر ، يملأون الكأس وهو غاص بالنعناع الأخضر فتذوقه وإذا به عسل لكثرة ما يضعون فيه من السكر ، ومقاهيهم — وفيها مجالسهم العامة — كالأجحار مظلمة ، يجلسون على الحصر بجوار الجدران ، وليس لهم موسيقى ، فكل ما تسمعه بعض الاسطوانات المصرية ، أما هم فلا يعزفون إلا على المزمار ودق الطبول الصغيرة والجميع يصفقون بيدهم ، وان استخدموا الكمان عزفوا عليه مقلوباً كأنه الرباب ؛ ومن أشهى الأطعمة لديهم الزيتون المطبوخ باللحم وهو لذيذ الطعم ، ومن أحب الأشياء عندهم حلقات الخطباء الذين يقصون عليهم بعض القصص القديمة على نغمة الرباب وهؤلاء يربحون من مهنتهم ربحاً طائلا . أما هندام القوم فمنفر لا ينم عن شيء من الذوق ، اللهم إلا فى بعض التطريز ، ويزيده قبحاً أنهم يخرجون من (الجلاب) أحد الكتفين فيبدو الرجل وهو سائر وكأنه مائل معوج

قمت ظهراً من مراكش عائداً إلى الدار البيضاء ، وأمضيت فيها يوماً آخر ، وقد سريت عن نفسى بدخول السينما ليلا وكانت تعرض به رواية (الوردة البيضاء) لأستاذنا النابغة عبد الوهاب ، ولشدة الاقبال امتد أجل الفلم أسبوعاً آخر

غادرت « كازا » إلى « طنجة » وكنت قد استخرجت (فيزا) اسبانية تخول لى اختراق الريف والنزول باسبانيا

إلى بلاد الريف

بدأت السيارة ظهراً ولبثت إلى السابعة والنصف مساء ، وكان الطريق في مراكش الفرنسية سهولا نصف مجدبة ، وحوالى الرابعة مساء وصلنا الحدود الاسبانية ومررنا بتفتيش الجمرك والجوازات ،ثم أوغلنا فى الريف فأخذت المناظر تتغير ، فالأرض أصبحت أكثر تموجاً ، يكسى كثير منها بالشجر خصوصاً البلوط ، وكان القوم ينزعون بعض قشوره لعمل الفلين فيحز الجزء الأسفل من الساق ، ثم تنزع قشوره قطعاً كبيرة ، ثم تربط حزما وتصدر ، وكذلك كنا نرى كثيراً من أشجار الزيتون والكافور ، وكثير من تلك البقاع مهمل يكسوه العشب البرى ، والشجيرات القصيرة الكثيفة ووديان المنطقة كثيرة جداً مدهشة بمناظرها الجميلة وليّاتها الثعبانية ، على أن استغلال الأرض أقل منه فى المنطقة الفرنسية ، وإن زرعت بعض الأراضى غلالا واستغل بعضها للرعى ؛ أما المدن والطرق والقرى فأقل تهذيباً من الفرنسية ، ترى بيوت القرى أخصاصاً سقوفها من الغاب والقش ، وهى ليست أفقية كما فى المناطق السالفة ، بل منحدرة ، أما مبانى المدن فيظهر فيها الأثر الاندلسى بشكل أوضح منه فى الفرنسية ، كلها بالبوائك يكسى جزء كبير من خارجها بالقيشانى الجميل ، والناس أشباه إخوانهم السالفين ، إلا أنهم أشد فقراً ، يسير الواحد منهم وتحت (جلابه) تعلق جعبة من الجلد المزركش قد تبلغ حجما كبيرا ، يحمل فيها حاجاته وبعض متاعه ، وقد تضايقه فى السير ، وتظهر منتفخة فى جنبه أو وراء ظهره ، وتلك قاعدة عند جميع المغربيين رجالا وأطفالا ، ومن البلدان الاسبانية الكثيرة التى وقفنا بها « العرايس » على المحيط الاطلنطى ، ثم « أركيلا » ، وكنا تارة نجانب البحر وطوراً نوغل فى البر بعيداً عنه حتى قاربنا حدود « طنجة » الدولية ، وكم

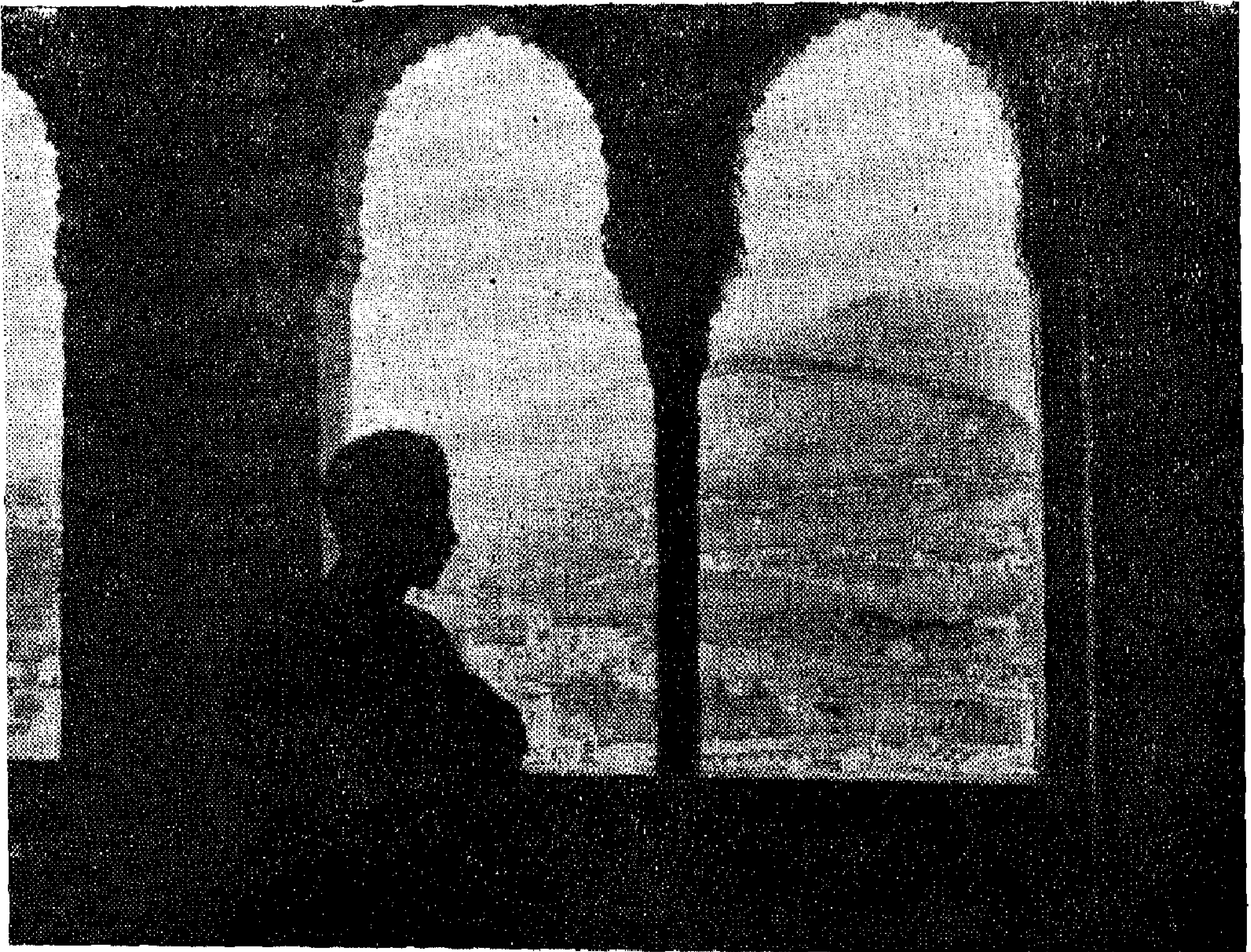
مرت بالخاطر ذكريات عبد الكريم وبطولته التى أبداها للدفاع عن تلك البلاد ضد الأجنبي ، ويظهر أن الاسبان أكثر تسامحا مع الأهلين من الفرنسيين ، لذلك لم تكن نغمة الكراهية بادية على الناس ، وكلهم يجيدون التكلم بالاسبانية ، صغيرا وكبيرا ، فبمجرد دخولنا الحدود سمعنا الجميع يتكلمونها فى طلاقة عجيبة

أخيرا دخلنا المنطقة الدولية التى يحكمها مندوب من قبل سلطان المغرب وهو مفوض فى كل شيء بالاتفاق مع سائر الدول ، وليس للسلطان قبله شيء سوى الدعاء فى المساجد ، وفى المنطقة الاسبانية خليفة عن السلطان المغربى يختار من عائلته ويحكم تحت الحماية الاسبانية. دخلت الحدود وطلبت الجوازات ولم تكن عندى تأشيرة من الشريف بالدخول ، فحجز الجواز إلى الغد وتسلمته مختوما من دار البوليس

حللت نزلى « International » ، وأخذت أجول فى البلدة ليلا وهى تقوم على مدرجات الربى المشرفة على مدخل البوغاز فى بيوتها المغربية المألوفة وأزقتها الملتوية المنحدرة ، وأسوارها وبواباتها العدة تشرف على الجميع « القصبة » مقر القلاع القديمة ، وثم حى أفرنجى جديد مشعب النواحى ، ولعل أعجب ما يسترعى نظر السائح اختلاف السحن والأزياء وذلك راجع إلى اختلاف الأجناس المنتشرة فى البلدة فأنت ترى الزى المغربى إلى جوار الانجليزى والفرنسى والاسبانى والطليانى بل وكافة الأجنـــاس وبأية لغة تكلمت وجدت من يفهمك فى الحال ، على أن اللسان الأكثر ذيوعا هو الاسبانى، لأن الجالية الاسبانية وفيرة العدد وبيدها غالب الأعمال ، والبوليس مختلط تراه فى هذا الطريق انجليزيا ، وفى غيره فرنسيا وهكذا ، وأسماء الطرق تكتب بثلاث لغات : لغتين أفرنجيتين تحتهما العربية ، وكل أنواع النقود يقبلها الجميع وهم يجيدون الحساب والتحويل من عملة إلى أخرى ، ولكل دولة مصارف خاصة ودار بريد خاصة أيها قصدت أنجزت عملك ، والقصاص

المسلمين على يد بوليس المندوب فى دار المندوبية (كالمحافظة عندنا) ، أما الأجانب فلهم شبه محا كم مختلطة تفصل فى شؤونهم . بلد مختلط عجيب أدهش كيف تستقيم أموره رغم ما يظهر من تعدد الهيئات وتنوع المراجع أليس ذلك تعقيدا كبيرا ؟ أتساءل فيقول القوم إن الأمور سائرة على خير ما يرام لا تعطيل ولا تعقيد !

والمظهر العام للمدينة اسلامى رغم ما بدا بها من افرنج فأينما سرت صادفتك المساجد (بصوامعها) ، والاسبلة يزينها القيشانى الجميل . وسواد الناس من المغربيين المسلمين ، وكانت المساجد ظهر اليوم (الجمعة) غاصة بالمصلين ، ومن القصور التى راقتنى كثيراً قصر مولاى عبد الحافظ ، كان ملكا له ثم ابتاعه منه الطليان بثمن بخس كما يقولون ، ويديرونه مدرسة لبنيهم ، وهو



من احدى الشرفات فى « الحمراء » يطل الزائر على غرناطة
يسرح فى جمال القصور وجلال الطبيعة

قطعة فنية ببوائكه وجدرانه التى يكسوها القيشانى البديع وسقوفه ذات الخشب الملون فى خرط جميل . أما عن المجون والانحلال ليلا فحدث ، ترى الناس متراصين يمرحون ذهابا وجيئة فى ميادين البلدة خصوصا (ميدان اسبانيا) ، وفيه تكثر المقاهى والمراقص وتعزف الموسيقى الاسبانية شبه الشرقية ، وكأن ليس هناك على القوم من رقيب كل يأتى مابدا له دون خوف أو حساب

قمت الى « تيطوان » عصراً فوصلتها بالسيارة فى ساعة ونصف ، وكانت الطريق جبلية مغضنة كثيرة الأودية مناظرها أجمل من مناظر مراكش وكثير منها مهمل غير ذى زرع . أما تيطوان فبدت مدينة بيضاء وسط الربى يقوم كثير من مبانيها على المنحدرات ، وبها قسم جديد فاخر البناء يتوسطه الشارع الرئيسى الذى تتخلله ثلاثة ميادين جميلة أعظمها شأناً وأكثرها حركة (ميدان أسبانيا) رصفت أرضه بالفسيفساء الملونة ، وأقيمت فى وسطه مقصورة أندلسية حولها المقاعد الثابتة بالقيشانى البديع . وأمام الميدان بيت الحاكم الأسبانى عظيم البنيان منسق الحدائق يقف عليه الجند من السود فى الرداء القومى ، ويلى هذا داخل الأبواب التى بقيت من السور القديم الحى الوطنى ، وهو آية فى الجمال وخفة الروح طرقه ضيقة ملتوية تتخللها البوائك التى قد لا تزيد المسافة بين البائكة والأخرى على مترين وبعضها مظلم حتى فى رابعة النهار ، يشعر الواحد فيها بندوة الرطوبة ، على أنها كلها نظيفة جداً ، وقد لاحظت أن أهل الريف أنظف من اهل مراكش ، أما الأرض فكلها رصفت بقطع الحصى الكبير فى انحدار إلى شبه مجرى فى الوسط ، والسير عليها مؤلم للاقدام جداً اللهم إلا اذا لبس المرء (البلغة) التى يكاد يلبسها الجميع نساء ورجالا . وقد زرت عدة مساجد وكلها فى الهندسة الأندلسية تقوم على البوائك المجزعة الصغيرة ويكسى أسفل الجدران كلها بالقيشانى الأزرق البديع من الداخل والخارج والمنارات واطئة ، ويبدو على الناس التقوى والصلاح أكثر من

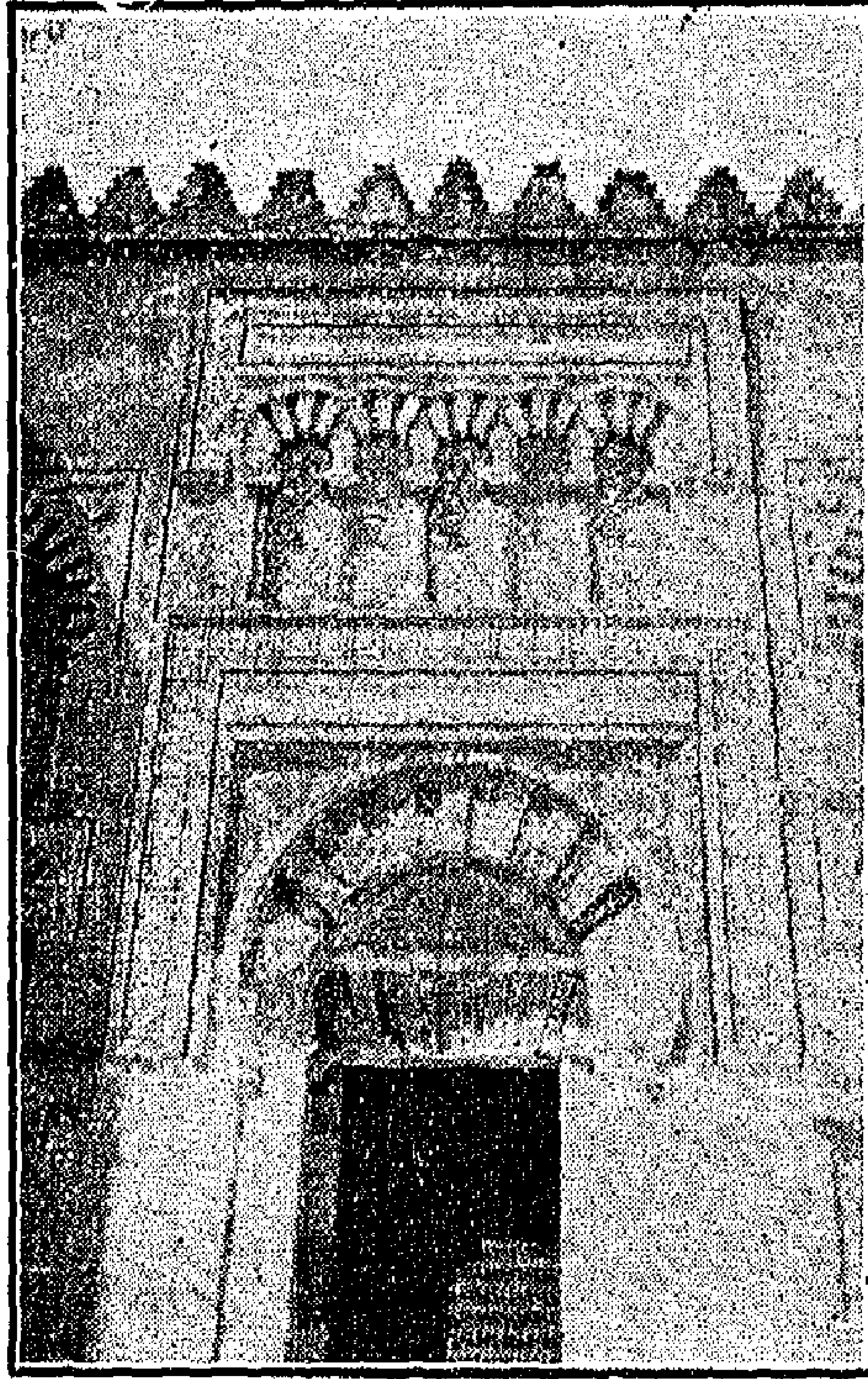
البلاد السالفة فكلهم يصلون ونرى المساجد غاصة بهم فى جميع أوقات الصلاة ، وكثيرون من التجار ينكبون على تلاوة القرآن وهم جلوس أمام حوانيتهم ، وفى مجاورة المساجد كثير من المكاتب لتعليم القرآن على الطريقة المصرية القديمة . وفى البلدة متحف صغير يمثل داراً وطنية ، وكل حجراتها شبه (ليوانات) تحت البوائك الأندلسية ، وقد فرشت على النظام الوطنى ويعرض بها بعض الأزياء القومية والطنافس وخرط الخشب والأسلحة . وفى وسط البلدة عدة أسواق فى متسعات يفترش الجميع جوانب منها تحت ظلالهم ليبيعوا معروضاتهم وغالبها من المأكولات ، ولعل أجملها سوق الخبز تعرضه كل امرأة على لوحة وتلبس فوق رأسها قبعة هائلة تكاد تظل جسمها كله ، وهى من الخوص يربط اطارها بالناصية حبال من صوف ملون ، أما الخبز فشبيه (بالعيش الشمسى) فى صعيد مصر ، لكنه فى حجم أكبر ولون أكثر بياضاً . وإذا ارتقيت بعض الطرق المنحدرة ذوات الدرج وصلت الى (القصبة) أو القلعة التى تشرف على البلدة من احدى رباها . ومن أفخر دورها دار الخليفة التى تمتد مسافة بعيدة تتخللها حدائق منسقة ، وهندستها أندلسية بحتة ، وثم ناحية (الملاح) وهو حى اليهود — وهم عشر السكان وبيدهم غالب الأموال — وغالبه أزقة مختنقة ، وكل مبانى البلدة على النظام الأندلسى بأبوابه الكبيرة تزينها بقع القيشانى ، ويلتوى المدخل يمنة ويسرة لكى يحجب من فى داخله ؛ ومن أجمل ماروق الغريب مظهر السيدات يسرن فى ملاءاتهن البيضاء من الصوف الثقيل ، وقد يحملن وراء ظهورهن أطفالهن ، فترى الطفل وقد وثق الى ظهر أمه يبدو فى كرة منتفخة وراءها ، وعند الأصيل يتزاحم القوم من وطنيين وأسبان عند الميادين بعضهم يمشى ذهاباً ورجعة ، والبعض يؤم المقاهى الكثيرة هناك يستمعون لأنغام الموسيقى الأسبانية الجميلة التى يخالها المرء شرقية بحتة ، وبالمدينة مجموعة كبيرة من الينابيع تلاقيك أينما سرت ، وترى فى سمائها أسراباً من الحمام الأبيض يفد من بلاد الاندلس ، ويحط على

رباها ليستريح ، ثم يعود من حيث أتى .

وتيطوان حكمها قديما عمر بن مولاى إدريس مؤسس فاس سنة ٢١٣ ﻫ (٨٢٨ م) . وفى ٣٥٠ هجرية ، عهد خلفاء قرطبة ، كان لها شأن كبير لكنها خمدت فى الذكر بعد ذلك ، ثم استعادت مكانتها تحت عبد القادر الطلبى سنة ٦٥٠ ﻫ ، وبعد هزيمة ملوك غرناطة أمام الملوك الكاثوليكيين حكمها سيدى على المندرى الذى هرب من الأندلس ودخل فى خدمة ملك فاس لكى يصد هجمات البرتغال الذين احتلوا « سبتة » ، وقد حصن البلدة وجدد اسوارها ويقطنها اليوم حول ستين ألفاً منهم ٣٦ من المسلمين وستة الاف من اليهود ، واسمها مشتق من كلمة بربرية : « تيت أوان » أى العين اليقظة ، وقيل من كلمة « تيتا عوين » أى الينابيع ، وبها زهاء خمسين مسجداً وكان لأسوارها سبعة أبواب لا يزال أغلبها باقيا الى اليوم .

والى جنوبها تقع قرية « شيشوان » التى اوى إليها نفر من فلول المسلمين من طريدى الاندلس وغرناطة ، وقد احتموا فى جبالها وظلت سراً مكتوما لم تطأها قدم مسيحية قط حتى احتلها الاسبان سنة ١٩٢٠ . أما عامة الناس فاميون ، والتعليم ليس له نظام حديث ، اللهم إلا بعض المدارس الاسبانية والباقى بعض المكاتب العربية ، والقوم يطالبون الدولة الحامية — وقد مضى على الحماية عشرون عاما — باصلاح التعليم ، ويقال بأنهم بدأوا يضعون نظاماً أساسه تقسيم التعليم القومى العربى الدينى إلى ثلاث درجات : ابتدائى ، وثانوى ، وعال ، لتخريج القضاة ورجال الدين ، ثم تنظيم التعليم الحديث إلى ابتدائى وثانوى ، والكتابة لديهم بخط قريب من الكوفى ، وغريب أنهم يضعون تحت الفاء نقطة (ب) وفوق القاف نقطة واحدة (ف) . وفى البلدة حركة قومية قوية تقاومها كل من اسبانيا وفرنسا ، حتى أن فرنسا منعت دخول جريدتها ومجلتها الصغيرة بدعوى أنهما تدعوان ضد فرنسا ، والسياسة الأجنبية تحاول التفرقة بين عنصرين فى المغرب : العرب ، والبربر ، تثير

فريقاً على فريق ، وتزين للبربر أنهم رغم إسلامهم شعب قائم بنفسه لا يصح أن ينسى شخصيته ويندمج فى العرب الذين طالما أذاقوه من عذاب



أحد أبواب كاتدرائية قرطبة وكانت من قبل مسجدا

واغتصبوا الزعامة منه زمانا ، على أن عقلاء الفريقين وبخاصة العرب يحاولون التوحيد بينهما

وتشرف على المدينة (القصبة) حولها المبانى القديمة فى بيوت كأنها الأجحار بعضها مركب فوق بعض ، وأزقتها ملتوية مختنقة ، يعلوها الانسان فى صعود وعر ، وهى قذرة ، وقد صادف أن دخلت زقاقاً مغلقا فما كاد يبصرنى السيدات حتى صحن : (النصرانى النصرانى) ، وأخذن يشبعننى سبًّا وشتما فعجلت بالرجوع

قمت إلى « سيوتا » أو « سبتة » مودعا تيطوان الجميلة التى يتجلى فيها أهل الريف بعاداتهم وهندامهم تموج بهم الأسواق الضيقة سحابة اليوم فأخذنا

نسير وسط مجموعة من جبال وربى تكسوها الخضرة فى مناظر جميلة ، وفى ساعة وربع بدت « سبته » بمبانيها المنثورة فوق مجموعة من ربى ، يوغل البحر فيها بألسن لا عد لها ، والجهة الرئيسية من البلدة أساسها شارعان متوازيان أحدهما يعلو الآخر ، وهى مدينة أوروبية صرفة بأقوامها ومبانيها ، وهنا كاد يختفى أثر الاسلام ، إذ لا وجود للمساجد قط ، ولا تكاد ترى من المغربيين وأهل الريف إلا النادر ، يقومون بالأعمال الوضيعة كعمل الخدم والحمالين ، ولا يكاد المرء يسمع العربية . وكم يروقك منظر الحشد الحافل من القوم عند الأصيل يروحون ويغدون فى الشارع الرئيسى (شارع الجمهورية) فى تزاحم عجيب ، وتكاد مقاعد المقاهى تملأ الاطارين ، والمداعبة والمغازلة ديدن الجميع . وثم بعض المسلمين فى ضاحية اسمها « خادو » ، ركبت إليها السيارة ثلث ساعة وبها قبة لشيخ حوله مسجد صغير ، وهى قرية موحشة منفرة .

إلى بلاد الاندلس

قمت العاشرة والنصف صباحا إلى الميناء الصغير لأستقل الباخرة إلى الجزيرة فى أرض اسبانيا والباخرة تروح وتغدو كل يوم عبر بوغاز جبل طارق ، وما كادت تقلع وتخرج عن الميناء حتى أخذت تترنح ، فكان الموج يلعب بها ، وقد خيل إلينا أنها ستنقلب مرارا ، وقد قالوا بأن ماء البوغاز أبدا مضطرب هائج ، وكنا نرى ونحن فى وسطه الشاطئين معا : الافريقى والاوروبى فى ربى مغضة شاهقة وأظهرها ربوة جبل طارق ، فهى على بعد حاكت الهرم الهائل ، ولما قاربناها حاكت أبا الهول الرابض ، وعجيب ان كان الماء إلى يمين البوغاز أزرق مخضرا وإلى يساره (الاطلنطى) أزرق قاتما ، وكلا « سبتة » و « الجزيرة » فى خليج كأنه الهلال ، وفى طرفه الشرقى بلدة جبل طارق ، يواجهها فى الطرف الغربى « الجزيرة » . رسونا فى ساعة ونصف ، وحللنا البلدة وكأنها الجزيرة حقا ! إذ صلتها بالداخل فى شبه جسر نحيل يظهر أنه صناعى ، والاسم يدل على أصلها العربى ، على أن البلدة ليس بها ما يسترعى النظر . أقلتنا سيارة الاوتوبيس إلى « ملجأ » فأخذنا نجانب البحر إلى يميننا والربى المعقدة الهائلة إلى يسارنا ، وكلها تكسى بالمزارع والأشجار ، وقليل منها مهمل ، وجل الزرع غلال وفاكهة وبلوط الفلين الذى كنا نشاهده يصدر فى الميناء ، ومناظر الطريق بديعة ساحرة بوديانها ونجادها وفى بعض جهاتها كانت المساكن ترى مبعثرة ، وفى الأخرى قرى صغيرة تظهر بيوتها البيضاء تغطيها سقوف حمراء منحدرة . وفى أربع ساعات بدا خليج « ملجا » تحوطه ميناؤها الهائلة عظيمة الحركة ، والبلدة تطوقها الربى وفوق إحداها « القصبة » وهى بقايا قلعة قديمة متهدمة يرجع عهدها إلى العصر الاسلامى . وعلى منحدراتها تقوم أقذر جهات ملجا فى بيوت متهدمة فقيرة ،

ومن دونها قامت المبانى العظيمة ، ومدت الطرق الفسيحة تتوسطها الميادين ذات النافورات والتماثيل ، وتكثر بالبلدة الحدائق والمتنزهات يؤمها خلق كثير صباح مساء ، ولعل أفخر مبانيها (الكتدرائية) التى يتجلى فيها فن العمارة والحفر ، وهى من داخلها تدخل الرهبة فى القلب بظلامها وشموعها ومزاميرها ذوات الانغام المحزنة ، إلى ذلك شاهق عمدها وعديد تماثيلها ، وفى طرقها الرئيسية ذات الحركة الصاخبة والمتاجر والمقاهى العدة ، لا تكاد تشق طريقك وسط الجماهير التى تتبختر ذهابا ورجعة ، وتظل كذلك إلى ساعة متأخرة . على أن البلدة لا تروق السائح كثيراً ، وخير ما يعطى الزائر فكرة عن أهلها أن يركن إلى مقهى فى الشارع الرئيسى ليشاهد المـــــارة ومداعباتهم بعضهم لبعض عند الأصيل. هنا أحببت أن أشرب نخب الاحباب ومواطنى العزاز من نبيذ « ملجا » ذائع الصيت

وقمت بالسيارة إلى غرناطة أو « جراندا » كما يسمونها ، فى ثلاث ساعات ونصف (نحو ١٨٠ ك م) فأخذنا نصعد صعوداً فجائيا فى طرق مرصوفة جميلة تشهد للاسبان بحسن القيام على بلدانهم ومواصلاتها ، وقديما كنا نعرف أن المواصلات الحديدية بها رديئة لأنها قطر جبلى ، ويظهر أن القوم قد عالجوا ذلك بانشاء الطرق التى تشق جبالهم وتعبرها السيارات لشركات منظمة ، وهى سيارات ضخمة فاخرة مريحة يؤثرها المسافر على عربات سكة الحديد . لبثنا نعلو فى تلك المطاوى القاسية ، وظل خليج « ملجا » باديا زمنا طويلا ، وتلك الجبال التى تجانب البحر الابيض هى « سيرانفادا » ، عظيمة فى مجموعها شاهقة معقدة وان أعوزها الجمال ، لأنها تكاد تكون خالية من الشجر ، وعلى منحدراتها وفى بطون وديانها كنا نرى أسفلنا الأرض مقسمة قطعا يخدمها الأهلون ويستنبتونها حبوبا وفاكهة ، فكانت تبدو على بعد وكأنهـا مجموعة من طنافس مختلفة الحجم واللون ، بعضها سندسى نضر ، والبعض ذهبى مصفر من أثر حصاد القمح .

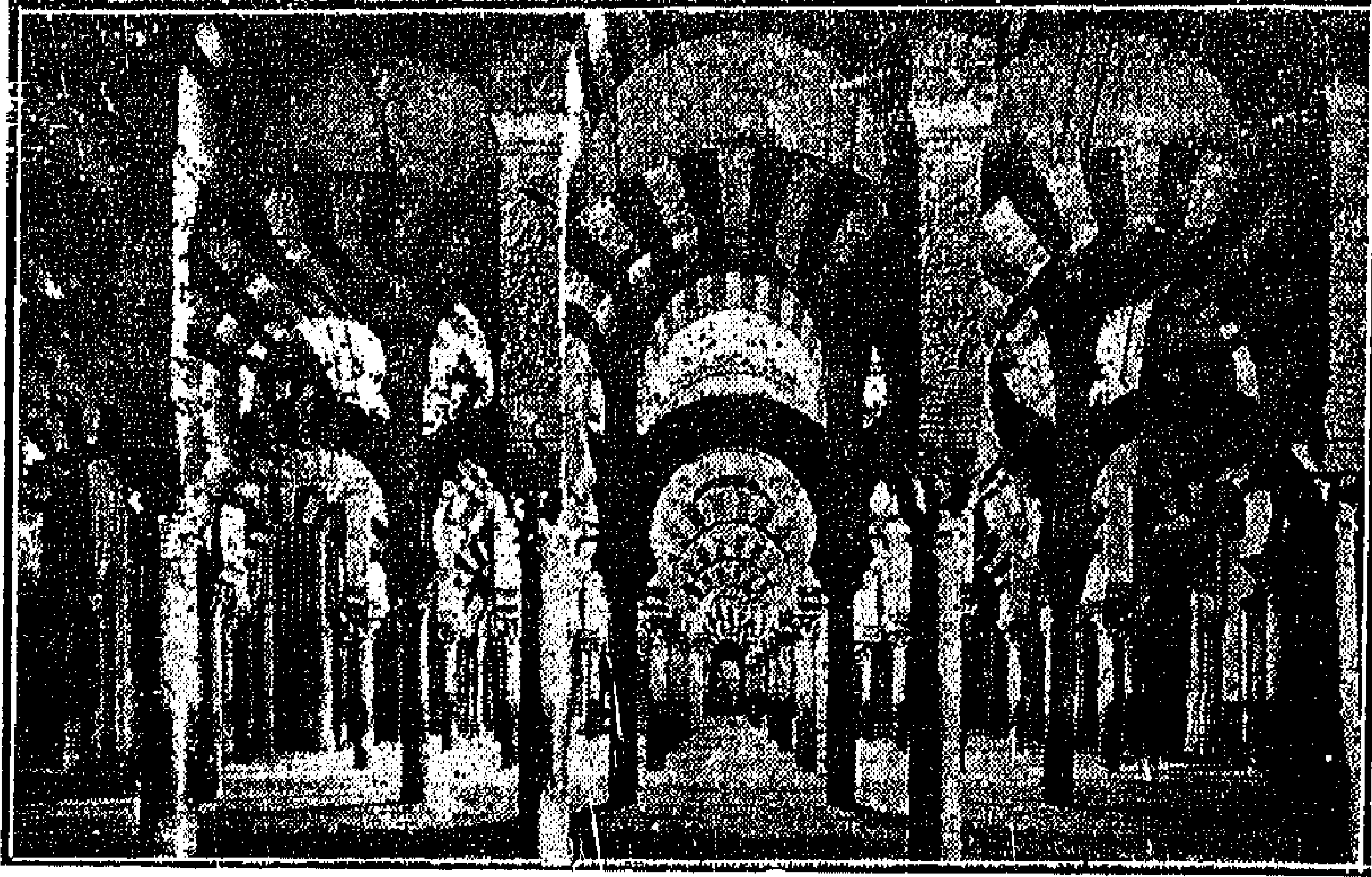
وكان الفلاحون يدرسون حبوبهم (بنورج) بجره الخيول والبغال ، ويذرون التبن فى الهواء على الطريقة المألوفة فى مصر ، وكانت قراهم مبعثرة فى تلك البطون ، ويلحظ المسافر فى وجوههم بقية من الدم العربى وبخاصة فى حور العيون . لبثنا فوق ثمانين كيلو متراً نسير فى جبال سيرانفادا ، وبعد ذلك أخذنا نهبط الى سهول فسيحة ممدودة تحدها الجبال عند الآفاق ، وتلك هى سهول غرناطة الشهيرة بخصبها على أن تربتها منوعة بعضها أحمر والبعض أسود .

وفى منتصف الساعة التاسعة مساء دخلنا غرناطة التى بدت ثرياتها المتلألئة على منحدرات جبال سيرانفادا . فآويت الى نزل صغير (أوتيل برلا Perla) وسط المدينة ، وأخذت أتجول فى البلدة ليلا لكنها لم ترقنى كثيراً فخشيت أن تكون سمعتها كاذبة إذ لا تكاد ترى نظاماً فى بنيانها ولا استقامة فى طرقها فهى مضطربة لا يعرف لها أول ولا آخر اللهم إلا شارعان رئيسان ، وتتعدد بها الميادين لكن فى غير تنسيق ولا نظام هندسى ، والبلدة تعوزها النظافة .

قمت مبكراً قصد زيارة (قصر الحمراء) فلم أكد أرى حانوتاً قد فتح فخلت أنه يوم الأحد على أنى علمت أن القوم لا يبدأون عملهم إلا بعد التاسعة صباحاً ، وذلك من أثر اسرافهم فى السهر فهم يلبثون فى الطرقات نساء ورجالا الى ساعة متأخرة من الليل كل يوم . أخذت الاتوبيس الى (الهمبرا) ، وسمى كذلك نسبة الى بنى الأحمر ، وقيل لأنه بنى على جبل تربته حمراء ، وقيل لكثرة استخدام المشاعل فى اتمام بنائه ونقوشه ، فأخذ يصعد بنا ثم أوغل فى نجاد تكسوها غابات البلوط فى تنسيق جميل ، وأخيراً وصلنا منطقة القصور ، فصحبنى دليل يعرف الفرنسية (استأجرته بخمس بسيتات) وابتعت تذكرة لزيارة قصر الشتاء (الحمراء) بثلاث بسيتات . وأخرى لقصر الصيف ببسيتا واحدة . والبسيتا ثلاثة قروش ونصف ، سرنا فى حدائق القصر التى تحكى مجموعة من غابات ، ثم دخلنا عدة أبواب ، ولما اجتزنا باب القصر نفسه

أخذنا من روعة مابدا من نقوش وفن عربى رائع ، وأجمل مابه تباين الألوان ووضوح النور والظل ، هذا مشرق وضاء وذاك حالك السواد ، وطفقنا ندخل فى ابهاء ومقاصير وشرفات لم يخلق الفن مثلها كلها تحاط بالبوائك الصغيرة الأنيقة ، أعلاها من مقصوص الرخام والمرمر ، وأسفلها بالعمد النحيلة المتعددة ، والجدران تكسى بالقيشانى الجميل أما السقوف فبعضها بالخشب الثمين المطعم ، والبعض بتجاويف المرمر والرخام فى اسراف شديد وتتوسطها جميعاً النافورات التى أقيمت على أشكال عدة ينساب ماؤها فى قنوات متعامدة من رخام تخترق الحجرات والأبهاء جميعاً ، أماعن الشرفات وما تكشف وراءها من مناظر لجبال سيرانفادا تتوجها بقع الثلج الأبيض وحدائق تحفها الزهور وتغص جوانبها بالأشجار فحدث ، آيات بينات من الفن تشهد للعرب بأنهم أسبق من سواهم فناً وذوقاً ، ونخص بالذكر من تلك المقاصير (بهو الأسود) تتوسطه نافورة تقوم على سباع غير متقنة الصنع — لأن العرب كانوا يحرمون اقامة التماثيل — ويجرى ماؤها فى أربع نواح الى نافورات أخرى ، ومسجد القصر كان يرصع محرابه باليواقيت وسط الذهب والفضة ، وقد اتخذة القوم اليوم كنيسة ، وبهو العدل ، وكانت تعقد فيه مجالس القضاء ، ثم مقصورة (الحريم) وقاعة بنى سراج ، وكانوا من نبلاء غرناطة منهم القضاة والوزراء ويقولون أن بنت أحد ملوك بنى الأحمر أحبت أحد بنى سراج ، وكانا يتبادلان لوعة الحب فى جوانب قصر الصيف تحت شجرة صنوبر رأيتها قائمة الى اليوم ، وتسمى شجرة الملكة من أجلها ، ولما علم السلطان بذلك غضب على بنى سراج واستقدمهم وضرب أعناقهم فى تلك القاعة ، ويقول الأسبان أن أرواحهم لا تزال ترفرف وتصرخ فى وحشة الليل لما أصابهم من ظلم وقيل أن مصرعهم كان على يد أبى عبدالله آخر ملوك بنى الأحمر لأنهم مالأوا الفرنجة سرا . وبتلك القاعة خبايا وتقوسات عليها خمسة آلاف شكل كل واحد يغاير الآخر . والحمام الرائع يتقدمه فناء الراحة ،

كان يجلس الخليفة فيه ، وفى شرفاته المطلة كان الغوانى يعزفن الموسيقى بل الاستحمام وبعده ، يتبعه من داخله مكان التزين (التواليت) ، ثم فى داخل كل



غابة من الاعمدة تفوق الألف فى مسجد قرطبة

أولئك الحمام بأحواضه الثلاثة من الرخام حوض الرجال وحوض السيدات وحوض الأطفال ، وسقوفها أقبية تتخللها كوى من زجاج ، ولعل أجملها قاعة الاستقبال (السفراء) أكبر قاعات القصر وأفخرها نقشاووجاهة ، وفى وسط تلك الآيات الفنية سلم العرب للفرنجة ، وطردوا ومثل بهم وبنسائهم وأولادهم أشنع تمثيل ، وكأنى كنت أسمع أنين الصرعى والمعذبين منهم ، وأنا أطل من شرفات تلك القاعة . كنت أجلس فى البهو فيسرح الخيال فى تلك العظمة ، ويوم بلغت العزة بالعرب ذاك المبلغ ، وأظل كذلك حتى ينبهنى الدليل أن قد حان الوقت ولن أنسى جلستى فى بهو السباع ، أجيل البصر فى الجدران والسقوف والأرض ، وما حوت من كنوز ، ومن العجيب أن الخط العربى كان يزين كل تلك الجدران ، وكان أظهر ما بدا منه (الملك لله وحده) و (لاغالب إلا الله) فكأن المهندس كان قد ألهم أن كل ذلك زائل ولن يبقى إلا وجه ربك ذى الجلال والاكرام فسبحان مالك الملك

يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء

خرجنا إلى الحديقة وفى متسع منها دخلنا قصر شارلكان (شارل الخامس) بنى بأحجار ضخمة على طراز (هندسة عصر النهضة) فى ضخامة تعوزها الجمال ، وهو من داخله ذو فناء مستدير تطوقه العمد الاغريقية ، ومن ورائها الحجرات فى طابقين ، وقد هدم شارل جزءاً مما كان هنالك ، وأمر باقامة قصر له ، وفى ظنى أنه أفسد من جمال (الحمراء) ، فهو فيها كالوصمة لا يتناسب مع ما حوله ، لكن هو التعصب الممقوت الذى أدى به إلى أن يزيل آثار مجد الاسلام هناك ، وقد هدم جزءاً من قصر الحمراء نفسه وأقامه بشكل آخر يدل على افتقاره لحسن الذوق والحكمة

دخلنا بعد ذلك إلى الحصون والأسوار والقلاع التى تحوط المكان فى ضخامة رائعة ، والتى يبدو منظر غرناطة وسهولها الممدودة من دونها فى مرأى جذاب ، وهى التى بناها محمد بن الأحمر ، فهى أقدم جزء هناك ، وفيها اليوم برج يعلوه جرس زنته ١٢٠٠ كيلو جرام يضرب كل ساعات الليل وفى يوم ٢ يناير يضرب ٢٤ ساعة احتفاء بهذا العيد الأكبر الذى طردوا فيه العرب . ثم أخذنا نرتقى الجبل مسافة بعيدة وسط غابات تكاد تكون مغلقة أدت إلى :

قصر الصيف : بناه الخلفاء على نظام قريب شبه بأخيه ، إلا أنه لم يحفظ منه برونقه القديم إلا قدر ضئيل لكن ذاك القدر على صغره يدل على عظمته التى كان عليها ، وهو أكثر شرفات تحوطها النافورات والحدائق الصغيرة الأنيقة من جميع جهاته ، فأنت لن تنظر إلا إلى نبع ماء نسق الزرع من حوله ويسمونه جنراليف ، وهى محرفة عن جنة الريف أو جنة العريف ، كانت تنزله الملكة صيفاً ، وفى بستانه العالى شجرة أرز تسمى أرزة الملكة غرست سنة ١٤٠٠ م . غادرت تلك القصور والحدائق ، وفى القلب حسرة علي عز خبا ، وملك باد فأنت لا تري إلا آيات التعصب قد أقيمت

فى كثرة نالت من جلال تلك القصور ، وفوق أعلى ذروة من القلاع ، أقيم الناقوس الهائل

أقلنى ترام بطىء إلى ذرى جبال سرانفادا ، فأخذ يعلو على جانب واد ضيق يجرى فى قاعه ماء شحيح ، وتقوم على جوانبه منابت الشجر فى منظر لا بأس به ، وعند ما قاربنا الذرى الشاهقة بدت بقع الثلج الأبيض تنقش أعالى الجبل وتنساب منها مسايل عدة قد حبس القوم الكثير منها لتوليد الكهرباء ، وفى نهاية خط الترام نزل صغير ، ومقهى جلسنا به قليلا وشربنا (القهوة باللبن) أحب ما يشربه القوم ، وكانت المناظر من حولنا عظيمة ، وإن أعوزها جمال جبال سويسرا مثلا أو اسكندناوة لأن سيرانفادا أميل الى الجدب ، وطريق الترام يشق عدة أنفاق غير مشذبة ، ويظل فى صعوده هذا ساعة ونصفاً

وبالمدينة عدة كنائس هائلة البنيان كلها للمذهب الكاثوليكى ، دخلت بعضها فراعنى مظهرها من الداخل وبخاصة الكتدرائية الكبرى أقدم ما بنى بها عهد النهضة ، فعمدها وبوائكها ومزاميرها ومحاريبها رائعة ويلاصقها من أحد جوانبها المدفن الملكى يؤوى رفات الملوك الكاثوليكيين فى أضرحة تحوطها التماثيل البديعة ، ومن بينهم فردناند وايزابلا ، وقد سادا العالم زمانا ، وهندسته من الخارج قوطية بحتة بنواتئها وأسنانها المدببة المغضنة ، وهى تناقض كل المناقضة هندسة الكتدرائية نفسها . أما أزقة المدينة القديمة وقذارتها ولياتها فحدث عنها ، فتكاد الجدران المتقابلة تتعانق نوافذها وشرفاتها التى تكسوها شباك الحديد المنتفخة فى خارجها وترخى عليها جميعا ستائر الخوص (شبه حصر) لتقيهم وهج الشمس ولفح الحر ، والحرارة هناك أذكرتنى بحرارة القاهرة فى يوليه . وهم يحبون استغلال الغريب جداً فى المقاهى والمطاعم والأنزال ، وحتى المثقفون منهم ، فبمجرد العلم بأنى غريب يغالون فى الأثمان والاجور أضعافا

وبالمدينة مجموعة من ميادين ومتنزهات لكن فى غير نظام ، أما قصورها الكبيرة الهائلة التى تحكى مساكن القرون الوسطى فتراها فى كل مكان ، وغالب الأبواب عظيمة الكبر قد شق وسطها باب صغير وتكسوها المسامير الغلاظ أو شباك الحديد ، فهى تشعر الزائر بأنها مدينة قديمة ولاشك إلا أن طرقها متربة وتعوز كثيراً من أحيائها النظافة . وآخر شيء زرته المتحف ، وهو صغير محتوياته بائسة من بقايا مهشمة لأحجار بعضها رومانى والبعض عربى ، وقطع من أخشاب مخروطة وجرار من خزف على أن محتوياته غير جديرة بالعرض فى متحف كتب عليه : المتحف الاركيولوجى ومتحف الفن العربى ؛ وقد نال التعب منى لشدة الحر ، وذلك لا شك من أثر جبال اسبانيا التى تواجه منحدراتها الجنوبية الشمس فتزيد فى حرارة بلادها حتى عن بلاد شمال أفريقية ، لأن بلاد التل فى أفريقية منحدرة عن الشمس ، فهى ألطف حراً ، وزاد الطين بلة قذارة البلدة وكثرة أتربتها ، وقد تدهورت تلك البلدة عما كانت عليه فى عهد العرب وحكم بنى الأحمر ، إذ كان يفوق ساكنوها نصف المليون ، وكانوا يشبهونها بدمشق لكثرة بساتينها ، لكنها شوهت اليوم الى حد كبير ، وقد أمر أحد القسس عقب طرد المسلمين بحرق مكتبتها وكان فيها ٨٠ ألف مجلد

نبذة تاريخية :

فى زمن الوليد بن عبد الله دخل العرب أرض اسبانيا سنة ٩٢ ﻫ بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير وولى عليها ابنه عبد العزيز بن موسى بن نصير ، وظلت تحت ملوك بنى أمية حتى انتهى حكمهم فى المشرق سنة ١٣٢ ﻫ ؛ ومن خيرة عمالهم عبد الرحمن الغافقى الذى مد بلاده الى تور وبواتييه حيث لاقاه (شارل مارتل) فارتد ثانية ، وساعد ذلك الانكسار على قيام الثورات فى اسبانيا ، وزاد الحالة سوء ضعف الخلافة الأموية

فى الشرق وسقوطها فى أيدى العباسيين ، فهرب منهم إلى الاندلس عبد الرحمن ابن معاوية سنة ١٣٨ ، فقمع ما كان بها من ثورات وشيد ملكا أمويا جديداً وصل من الأبهة والجلال حداً لم يسبق له مثيل ، وفى عهد الرحمن خلفائه تجددت الاضطرابات وهجمات الفرنج ، حتى جاء من أحفاده عبد الناصر فظل يطفىء تلك الثورات زهاء خمس عشرة سنة ، فاطمانت البلاد لحسن تصرفه وجميل سياسته ، وأخذ فى تقوية الجيش والأسطول وشجع العلم والصناعة . وفى سنة ٣٢٥ بدأ إنشاء الزهراء التى أضحت مركزاً للخلافة ، وبعد ثلاثين سنة من حكمه أثرت البلاد إثراء لم يسبق له مثيل ، إذ قيل انه خلف فى بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف ألف ، بعضهم ميزها بالدنانير والبعض بالدراهم ، فان كانت بالدنانير (الدينار نصف جنيه) فيكون ما تركه ٢٥٠٠ مليار جنيه ، وإذا كانت بالدراهم (الدينار ١٧ درهما) كان ما تركه ٣٠٠ مليار جنيه . وكلا الفرضين لا يقبله العقل ؛ ويجوز أن تكون كلمة (ألف) مكررة مرتين لا ثلاثاً ، وعندئذ يكون ما خلفه ٢½ مليار جنيه ، وان كانت من الدراهم ساوت ٣٠٠ مليون جنيه

على أن وزيره ابن شهيد قدم للناصر هدية هائلة هى ٥٠٠ ألف مثقال من ذهب ، و ٥٠٠ ألف دينار من سبائك الفضة ، و ٤٠٠ رطل من التبر ، و ٤٠٠ رطل من العود ، و ١٠٠ أوقية من المسك ، و ٢٠٠ أوقية من العنبر ، و ٣٠٠ من الكافور ، ومواد أخرى لا يكاد يصدقها العقل ، وقد أبلغ الناصر دخل وزيره هذا ٨٠ ألف دينار فى السنة . ومات الناصر سنة ٣٥٠هـ بعد حكم خمسين عاماً . وقد بلغ سكان الأندلس إذ ذاك أربعين مليوناً . على أن الفوضى سادت البلاد بعده خصوصاً فى بدء القرن الرابع الهجرى ، وانتهى الأمر إلى تفرق البلاد وانقسامها بين ملوك الطوائف ، وآل الأمر إلى أنهم كانوا يدفعون الجزية لملوك الاسبان خوفاً منهم . ثم جاء حكم المرابطين سنة ٤٨١ ، والموحدين سنة ٥٣٩ ، وأخذ الإسبان يحتلون بلادهم حتى لم يبق

للعرب سوى غرناطة التي بقيت في يد بني الأحمر إلى اخر القرن التاسع الهجرى ، حين سلم أبو عبد الله (ويسميه الفرنج بوباديل) مفاتيح غرناطة إلى فردناند فى ٢ ربيع أول سنة ٨٩٧ ﻫ

حاصر فردناند غرناطة سبعة شهور حتى أكل الناس بعضهم بعضاً وسلمها أبو عبد الله بشروط أهمها : تأمينهم على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وابقاء شعائرهم ومساجدهم ، لكنهم نقضوا عهدهم وأذاقوهم العذاب تحت محاكم التفتيش ، وأمروا أن يغيروا زيهم ولا يتكلموا بالاسبانية ، وكلما ثار جمع من المسلمين أمعنوا فيهم قتلا وتعذيبا ، ومنهم عبد الله الذى قطعت رأسه وعلقت على باب قرطبة ثلاثين عاما . وقد طرد من غرناطة ثلاثة ملايين جلهم من ذوى الكفايات والصناعات ، وقد سعدت بهم بلاد المغرب خصوصاً تونس ، فقد نهضت زراعتها وصناعاتها ، وكثرت مبانيها الأندلسية ، أما بلاد الأندلس فقد تدهورت لولا ما عوضها من كشف أمريكا

وقد أرغموا من بقى على النصرانية وإلا فالقتل ، وأقاموا مواقد يلقون فيها بالناس تأكلهم النيران ، وكان كثير من المسلمين يقتلون أولادهم خشية تنصرهم . هاجر أبو عبد الله إلى المغرب واستوطن فاس وبقى نسله يعيشون من مال الصدقات إلى سنة ١٠٣٧ ، وكان انغماسهم فى الملاهى والشهوات من أكبر أسباب طردهم

وقد انغمس العرب والخلفاء آخر ايامهم فى الملذات والترف ، وأخذوا يحتجبون عن الأنظار فى دورهم حتى أنهم كانوا يكلمون السفراء والزوار من وراء حجاب ، ويقف الحاجب يكرر ما يقوله الرجلان فانهار بذلك فى ساعة واحدة البنيان الشامخ الذى أقامه العرب فى الأندلس فى ثمانية قرون ، وكانت تلك المحنة فى عهد السلطان بايزيد الثانى العثمانى ، فاتفق مع السلطان قايتباى ملك مصر على مساعدتهم ، لكن قامت فى سبيل ذلك عقبات ، وأخذ الاسبان يعاكسون تجار الترك فى البحر الأبيض ، فقام أحدهم ويسمى

باربروس (ذا اللحية الخضراء) يردهم ويتعقب سفنهم، واستولى على الجزائر وأنقذ كثيراً من المسلمين الذين كانوا يذوقون الهوان من الاسبان، وقد ولاه السلطان سليمان القانونى قيادة الأسطول، ولولاه لاستولت اسبانيا على كل بلاد المغرب

ومن أخطاء الأمويين فى الأندلس أنهم أكثروا من المماليك الصقالبة كما فعل العباسيون فى المشرق فلم يحافظوا على عصبيتهم هذا إلى محاربة ملوك الطوائف بعضهم لبعض طمعا فى الحكم كذلك الأمهات فكثير منهن كن من الاسبانيات لم يرسخ الاسلام فى قلوبهن فساعدن على ضعف العربية فى أولادهن، وزادالأمر سوءاً منازعة الحكام بعضهم لبعض فى الأندلس، وفى المغرب، وكان النصارى يساعدون هذا على ذاك حتى تم لهم إضعاف الجميع.

قمت بقطار ٩ صباحا إلى قرطبة، فقطعنا المسافة فى ثمان ساعات ؛ وسكة الحديد فى اسبانيا رديئة جدا، بطيئة السير، والعجيب أن مقياس قضبانها أوسع من المقاييس المألوفة، وحتى عمالها لا يعنون بالمسافرين كثيرا كما نراه فى فرنسا مثلا، والطريق خليط من الجبال والسهول، إلا أن الجبال هى السائدة وغالبها نصف مجدب عديم الشجر، وتراب الطريق كثيراً ذكرنى بتراب صعيد مصر، ومحطات السكة غالبها مهمل، وكنا كلما وقفنا فى احداها صاح الأطفال: (أجوا) أى (ماء)، وبيد كل منهم جرة من فخار وكوب من زجاج، وتلك الجرار (القلل) مستخدمة فى كل مكان حتى فى النزل والمقاهى الكبيرة، وبعضهم يصنع رقبة (القلة) من قيشانى أزرق، والمتسولون فى المدن والقرى كثيرون جدا، الا انهم يلبسون الحذاء فى أقدامهم ولا يلحون فى الطلب، وفقراء القوم أيضا كثيرون، أما وجوههم — وبخاصة السيدات — فيغلب عليها الجمال الذى يروقنا نحن الشرقيين، اللون الخمرى، والعيون

القائمة ، وبعض الملامح العربية . ومن عاداتهم الشرقية أنهم كلما دخلوا امكانا على أناس آخرين بدأ الواحد بالتحية ســـواء أعرفهم أم لا ، وكذلك عند خروجه

قمت أتجول فى قرطبة فأخذتنى روعتها وخفةروحها ونظافتها بشكل لم أتعوده فى غرناطة ، فأحياؤها الحديثة من أفخر ما يمكن أن يقام هندسة وأبهة ، وأما أحياؤها القديمة فأزقة ملتوية رصفت أرضها بالحصى أو الاسفلت ، وقامت عليها بيوت متلاصقة بيضـــاء آية فى جمال الهندسة والافراط فى النظافة والتأنق ، فالبيوت ذوات أبواب ضخمة ، لها مطارق حديدية أو نحاسية ثقيلة ، واذا جزت الباب دخلت ردهة صغيرة ثم يلتوى المدخل مرة أو اثنتين ، وكل ذلك يكسى بالقيشانى الجميل جدرانه وأرضه ، أما داخل البيت فهو مكشوف مربع ، تقوم الحجرات حوله تحت بوائك أندلسية بديعة ، وفى وسطه نافورة أو حوض أحيط بأصص الزهور فى جمال يأخذ بالألباب ، ونوافذ الدور وشرفاتها من شباك الحديد الثقيل ، تبرز وتطل على الطريق وتغص باصص الزهور ، أما النظافة فحدث عنها ، وحتى قمامات الدار توضع فى صندوق حديدى ويمر « الزبال » فى ساعة معينة ليحمل ماحوى وترى مصابيح البيوت أشبه بمصابيح المساجد من زجاج فى تغضنات معقدة . فلا يكاد يصدق الانسان أن مثل تلك البيوت الفاخرة تقع على تلك الأزقة الملتوية المختنقة ، ولا تكاد الكنائس تغيب عن العين فهى عديدة وفى جميع الطرق ، وقد استرعى نظرى إحداها ولها مئذنة كانت لمسجد إسلامى قديم رفع الهلال من ذروته وأحل الصليب محله . أخيرا أدى بى السير فى الجانب الآخر من البلدة ، وهو الجانب المطل على نهر الوادى الكبير إلى الجامع الكبير (الكتدرائية) فراعتنى عظمته وامتداده ، فمساحته ٢٣ ألف متر مربع ، ويبدو من خارجه كالقلاع المتراصة ، يحاط بمجموعة درج هائلة ، وله أبواب لا تحصى بعضها لا يزال يحفظ خرطه ونقشه العربى الصميم ،

وعليه بعض الآيات الكريمة ظاهرة . أما المسجد من الداخل فيغيب فيه اللب ويحار كله بوائك أندلسية مزدوجة ، أعني أن قوس الباكية يعلوه آخر مثله



محراب مسجد قرطبة آية فنية

والكل تحمله غابة كثيفة من عمد ، لكنها مختلفة الطراز بعضها من رخام والبعض من مرمر والبعض من جرانيت وواحد من بازلت تعلوها تيجان مختلفة النوع ، وقد كان يزيد عدد تلك الأعمدة على الألف ومائة ، وهي اليوم زهاء تسعمائة ، أما المحراب وما حوى من نقش وزخرف ومرمر مقصوص مغضن فذلك ما لا أستطيع أن أقوم بوصفه فهو مربع من بوائك أنيقة تعلوه قبة فاخرة وغالبها مبطن بالفسيفساء الثمينة ركبت من قطع دقيقة جدا لا تزيد على سنتيمترين كبرا تتخللها قطع الصدف والذهب صنعت بحيث أنك إذا نظرتها من اليمين أعطت رسوماً وأشكالاً غير التي تبدو إذا نظرت إليها من الجانب الأيسر ، ويزين كل أولئك آيات الذكر الحكيم ، وقيل ان المصحف الذي كان يوضع في المحراب هو الذي كان يقرأ فيه سيدنا عثمان ساعة أن قتل ، ثم نقل الى بلاد المغرب ، أما سقوف المسجد كله فمن الخشب الثمين كسي بالنقش الوافر والخرط الفني الرائع ، وكان بالمسجد من بقايا مصابيحه إلي

القرن الثامن عشر ٤٠٠ مصباح كبير من فضة سلبها نابليون الأول . بناه عبد الرحمن الأول (الداخل) فى القرن الثامن ، وقد أقامه على أنقاض كنيسة مسيحية عوض أصحابها بالأرض والمال ، (وهو أول أمير استقل عن خلفاء دمشق) . وكان إذ ذاك يحوى إحدى عشرة طرقة من بوائك . وفى سنة ٨٣٣ زاد عبد الرحمن الثانى فيـــه ثمانين عمودا ، ثم جاء الحكم سنة ٩٦٤ فزاده اتساعا ، وأخيرا جاء المنصور فزاد فيه ثمانى طرقات أخرى ، ولما فتح البلدة (سان فردناند) أحاله الى كتدرائية ، وقد بلغ التعصب عهد شارلكان مبلغا كبيرا ، فهدم وسط المسجد ، وأقام كنيسة هائلة بزخرفها وحجمها ، لـكنها لم تنل بشكلها وهندستها الغريبة من جلال المسجد وعمده وبوائكه شيئا إذ لا تكاد تظهر رغم كبرها ثم أمر بالسقوف الخشبية أن تكسى بالجص ، وكذلك الجدران ذات النقوش العربية والآيات القرآنية البديعة وحتى أرض المسجد ردمها إلى علو نصف متر ليخفى بعض المعالم الاسلامية فيها ، لـكن حكومة الجمهورية الحديثة ، وهى أكثر إباحة من الحـكومة السالفة أمرت بازالة تلك الأغشية كلها ما أمكن وكشف ما كان مختبئا تحتهـا ، وقد رأينا العمال جادين فى تعميق الأرض ، وكشف الجص من السقوف كلها ، وفى زاوية من المسجد رأينا لوحة من رخام نحت عليها تمثال لسجين مكبل بالحديد ساجد للمسيح ، وقد علمنا بأنه مسيحى دخل المسجد إبان عهد المسلمين ، فقبض عليه وسجن فى تلك البقعة مكبلا عشر سنوات ، وقد نجح الرجل خلال ذلك أن يحفر بأظافره صليبا كبيرا على العمود المجاور له ؛ ولذلك يكبره القوم ويزورونه جميعا ، أما صحن الجامع الخارجى فهائل الامتداد تكسوه اليوم غابة من شجر البرتقال ، وكانت تتوسطه المياضىء التى محا أثرها المسيحيون ، والمئذنة قد هدمت وأقيم بدلها برج الناقوس . فالمسجد لا شك مفخرة للمسلمين وتراث ثمين لآل ايبريا والأندلس لا بل وللفن كله إلى ذلك ما يثيره فى نفس المسلم من إكبار وفخار مشفوعين بالحزن والأسى على ذلك المجد الزائل .

وكان هناك صلة تربط المسجد بالقصر (الكزار) على ضفة النهر إلى جنوب المسجد . وكان مقر الخلافة ، على أنى لم أجد لذلك إلا بعض طوابى متهدمة من بقايا سور القصر ، وهناك على النهر قنطرة قديمة رومانية محدبة تحوطها شبه الطوابى من الجانبين ، وتبدو فى هندسة غريبة جميلة . وبين المسجد والقنطرة تمثال القديس روفائيل حامى المدينة ، ولذلك حمل اسم روفائيل نحو ثلث سكان البلدة . وكان لقرطبة غير المسجد الكبير ٢٠٠٠ مسجد آخر كان يستخدم غالبها مدارس ، وهذا يدل على مبلغ نشر العلم والثقافة العربية إذ ذاك . وكانت قرطبة عاصمة الأندلس عهد القوط ، ثم حلها موسى بن نصير ودعا فيها للوليد بن عبد الملك خليفة دمشق ، ثم اتخذها عبد الرحمن الداخل الأموى عاصمة ملكه ، ثم أصبحت مقر الخلافة الاسلامية زمن عبد الرحمن الناصر حين بلغت أوجها ، وقد خلف هو وابنه مكتبة بها ٤٠٠ ألف مجلد كان على أغلبها تعليقات بخطة ، وكثرت الترجمة منها إلى الأفرنجية مما استفادت منه أوروبا علما غزيرا

وعلى مسيرة ثمانية كيلومترات مكان (مدينة الزهراء) التى أسسها الخليفة عبد الرحمن الثالث فى حضن جبال قرطبة ليتخذها مصطافا له ، وكانت كأنها فرساى باريس ، ولم يبق منها اليوم إلا أطلال لاتنم عن شيء ، والقوم جادون فى التنقيب عن آثارها ، وكانت آية فنية مدهشة ، حتى بحيراتها كانت من المرمر يتفجر ماؤها من أفواه طيور من ذهب ، ويحيط بالبحيرات تماثيل لسباع من ذهب ، وكان للمدينة خمسة عشر ألف باب ، وقد صرف على المدينة زهاء ٣٠٠ ألف دينار كل عام مدة ٢٥ سنة

قمت بجولة فى قرطبة ليلا فهالنى تهافت القوم على دور السينما والمقاهى وعلى الاسراف فى الشرب والتدخين حتى الصبية الصغار ، لا بل والاطفال! اما المغازلة فذاك أمر طبيعى شائع بين الجميع ، فكأنهم فهموا فى الحياة معنى غير الذى نفهمه ، هى أن يقضى المرء ساعات عمله وبعدها يكون المجون ومخاصرة

الغانيات واللهو والسهر ، فما الحياة لديهم إلا متاع وعلى الانسان أن يأخذ بنصيب كبير منها ما استطاع . على أني كنت أسائل نفسي : كيف يخرج من بين أولئك نوابغ في العـــلم والفن ؟ وهل يجدون مع ذلك متسعاً للدرس والاطلاع ؟ وذلك ما لا أستطيع له فهماً . ومع ذلك تجد تعصب القوم الديني وتزاحمهم على الكنائس التي لا حصر لها شديداً ، وهم يستسلمون لكثير من الخرافات ، فأنت لا تمر على بيت حتى القصور إلا وتجد (جريدة من خوص النخيل) معلقة على إحدى الشرفات تيمناً ، ويظهر أن فوارق الطبقات عظيمة لديهم ، فمنهم الغني المفرط والفقير المدقع والقصور الشامخة والأكواخ الحقيرة على أنك لا تلاحظ فرقاً بينهم في المعاملة ، ولا ترفعاً من الغني عن الفقير ، وحتى في الترام لا تجد إلا درجة واحدة فرشت بالجلد أو الخوص. ومما استرعى نظري وزاد إكباري أجناد البوليس في قوامهم الهائل ومهابتهم العظيمة ، وهم في مواقفهم نشيطون يؤدون واجبهم على الوجه الأكمل

قمنا بالقطار السريع إلى اشبيلية وهو خير من القطر السالفة في سرعته وعرباته ، فوصلناها ليلا ، أما الطريق فعادي غير جذاب ، واشبيلية مشتقة من الفينيقية ومعناها (الأرض المبسوطة) . لأنها وسط سهول ممدودة . لبثنا نسير بالقطار طويلا ، وهي بلدة نظيفة هائلة البنيان تحكي قرطبة إلا أنها أكبر فسكانها ٢٠٥ ألف نفس ، ويسمونها المدينة الرشيقة Ciudad de la gracia جلت في شوارعها ومتنزهاتها فبدت حقاً رشيقة ، الطرق فسيحة وتقوم أعمدة المصابيح وسطها في جمال واسراف ومتنزهاتها لا تحصى تراها في كل مكان وأينما سرت استرعى نظري قصر أو بناء فاخر في هندسة جميلة بعضها أندلسي والبعض قوطي ، ولعل أجمل ما يراه الزائر بها : الكتدرائية والكزار ، أما الكتدرائية فرائعة باتساعها وشاهق بنيانها وسامق عمدها ومدبباتها إذ هي في طراز قوطي بديع ، دخلتها فحرت في ضخامتها والاسراف في تزيين هياكلها التي لا تحصي ، ويقال إنها أكبر كنائس الدنيا التي أقيمت على الطراز القوطي

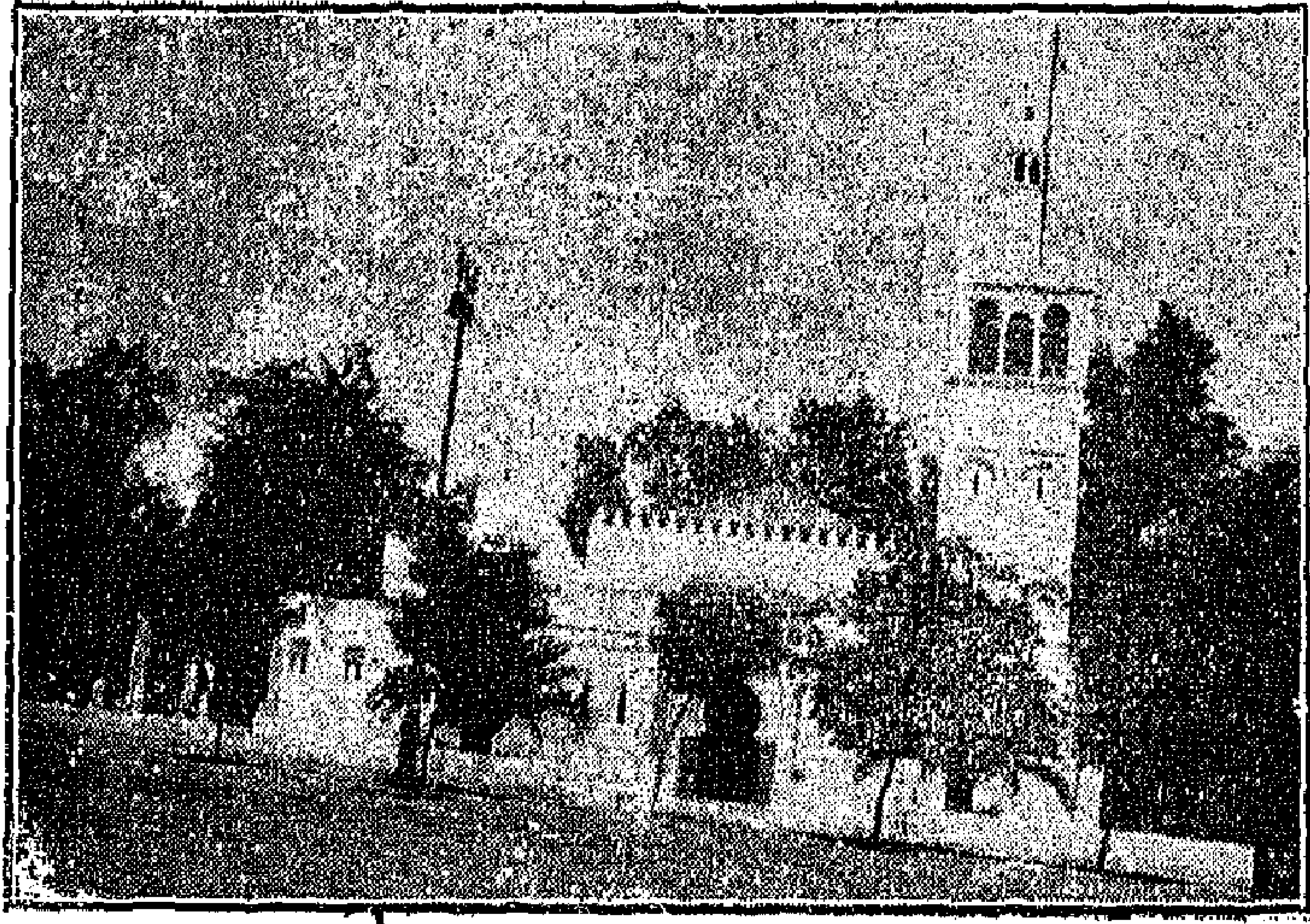
ويدفن بها كثير من الملوك فى جوانب هياكلها ، وأظهرها ناووس القديس فرديناند من فضة منقوشة تتوسطه دائرة بيضاوية من ذهب ، عليها صورة فردناند على جواده وأمامه ملك الغرب يقدم له مفاتيح المدينة ، وإلى يمينه قبر زوجته ، وإلى يساره قبر ابنته التى هدمت المسجد وأقامت الكنيسة ، وبجواره غرفة بها جواهر الملك وتاجه وسيفه . وفى ناحية منها رفات كولمب كاشف أمريكا وابنه ، وقبر كولمب أفخر مقابر الكنيسة ، يقوم على قاعدة من الصخر الأسود الصقيل ، وفى الأركان الأربعة يقف أربعة تماثيل يحملون تابوته الرخامى على أكتافهم ، ويمثلون ملوك الممالك الأربع التى ألفت الوحدة الاسبانية : (قشتالة ، وأرغون ، وليون ، وناڤار) ، وأجمل ما فى الكنيسة جميعاً برجها الشاهق الأنيق الذى يكاد يكون شعار المدينة ، وقد كان مئذنة المسجد الاسلامى الذى هدمته يد التعصب الكاثوليكية وأقامت الكنيسة مكانه ، ولا تزال فى الأسوار الخارجية بقية من الطراز العربى ، أما المئذنة فعربية أندلسية بحتة ، فهى رشيقة جدا ، وفى الوقت عينه تقف بضخامتها وعلوها الذى يناهز سبعين متراوكأنها عملاق المدينة أو ماردها ، ومشهد البلد من أعلاها لا ينسىء ، ويسمونها (جرالدا Giralda) ومعناها دليل مهب الريح ، لأنهم يضعون فى أعلاها فوق النواقيس تمثالا وسهما توجهه الرياح إذا هبت وهو تمثال للايمان ، يدور مع الريح بسهولة رغم أن وزنه ٢٨٠٠ رطل وطوله أربعة أمتار ، وكان يعلوها من قبل أربع كور تكسى بالذهب ، ثمنها مائة ألف دينار ، وكان قد بناها هى والمسجد السلطان المنصور يعقوب رابع الموحدين أواخر القرن الثانى عشر الميلادى ، وبجوارها فى القبو المؤدى إلى الكنيسة تمساح قيل انه هدية من ملوك مصر ، وسن فيل كبير وعصا ولجام وهى رمز للتروى والقوة والعدالة والوازع النفسانى

وإلى مقربة من الكنيسة الكزار أو القصر ، وهو درة ثمينة وآية عربية تنطق لهم بالرقى فى الفن ، دخلته فى شبه أسوار كالحصون وأخذت أمر من

أبواب عربية هائلة جميل خرطها ثمين خشبها وتؤدى بى من بهو إلى بهو ومن حجرة إلى حجرة كلها تحوطها البوائك الأنيقة الدقيقة صيغت من مقوص الرخام وتوجت بالنوافذ التى تبدو شبا كها كأنها المخرمات « دنتله » وأرضها وجدرانها تكسى بالقيشانى البديع والفسيفساء الدقيقة فى ألوان ورسوم ساحرة والعجيب ان كل واحدة منها يغاير نقشها ورسمها الأخرى وخيل إلى أنها أفخر من قصر الحمراء نفسه . أذكر من بين تلك الزوايا : مقصورة الفتيات ويشيعون افتياتا أنها سميت كذلك لأن جزية من مائة غادة كانت تؤدى للخليفة سنويا فى تلك الحجرة ، ومقصورة « الحريم » ومقصورة السفراء ومقصورة الدمى ، وقد زاد فيه شارل الخامس أبهاء كثيرة أجملها بهو شارل نفسه ، وحاول تقليد الهندسة العربية بشيء من التصرف الغربى فأفسد من جمال ما شاد رغم الاسراف فى نقشه ، وفى جانب من القصر مكتبة كبيرة لكنها غربية مسيحية كلها ، أما حدائق القصر فابداع فوق ابداع ، أحواض ماء يحوطها القيشانى وتتخللها النافورات فى أوساطها وجوانبها ، ومقصوص النبت صيغ فى طرقات ملتوية إذا دخلتها ضللت طريقك فلم تستطع الخروج ، « لذلك يسمونها حديقة التيه » ، وقد وضع رسم مصغر لها لمن أراد ألا يضل أن يدرسه قبل الدخول ، وخلف القصر حديقتان عالية وواطئة ، وفى الواطئة حمام الحريم قيل انه كان يستحم به من الجوارى الحسان مائة فى الدفعة الواحدة .

وفى المدينة من المتنزهات الفاخرة متنزه ماريا لويزا الذى يتطلب استيعابه أياما . وفى كل منعطف مفاجأة فنية جميلة ، وقد تعددت به المقاهى الجميلة . أخذت أطوف به حتى أعيانى السير ، فخرجت إلى ضفة نهر الوادى الكبير فهالتنى حركة النقل والبواخر الضخمة فيه ، فكدت أرى غابة من الروافع تقوم على ضفته وهو يصل البلدة بالبحر . وفى جانب من هذا الحى عثرت على مسجد اسلامى صغير جديد البنيان نظيف يعلو مئذنته الصغيرة الهلال ،

وقد كتب على مدخل حديقته (ممنوع الدخول)، وهو لفاول المسلمين الضئيلة التي لا يزال لهـا بقية فى تلك البلاد ، أقيم فى العهد الأخير اعترافا للاسلام



المسجد الصغير الذى أقيم فى أشبيلية حديثا

ببعض ما طوق البلاد من أفضال بعد أن انقضى عصر العصبية الدينيـة الأولى العمياء ، وقفت ببابه برهة أوازن بين الكتدرائية يوم كانت مسجدا وبين هذا المسجد الصغير المنزوى الذى لا يسمع به أحد ، وقد عمنى الأسى وأخذ منى الشجن

قمت بالقطار الى « قادس » فوصلتها فى ثلاث ساعات وسط أرض جلها سهول ممتدة منزرعة إلا الجزء الأخير، فعلى امتداد أكثر من عشرين كيلو مترا كانت الأرض تقسم إلى أحواض صغيرة تجرى بجانبها قنوات الماء الملح ، وينشر الماء حتى يتبخر فى الاحواض وترسب الأملاح التى تجمع وتصدر

وصلت قادس على أمل أن تقلنى الباخرة الأسبانية غدا إلى أمريكا فدهشت لمـا فوجئت بأن أجور السفر قد تغيرت ولحقنى هذا التغيير ، إذ ضوعفت الأجور لغير الأسبانيين والأمريكيين ، فقلت : ولكن تذكرتى بيدى فهل تسرى قوانينكم على الماضي ؟ قالوا نعم ، وحاولت عبثا أن أقنعهم فرجعت إلى

(كوك) واستردیت نقودی وعدلت عن السفر بهذه الباخرة لأن الفرق الذی کنت سأدفعه خمسة وعشرون جنيها

أخذت بعد ذلك أبحث فی جميع شركات الملاحة عن باخرة تقلنی إلى أمريكا فتعقد الأمر ولم أوفق الى شیء ، وأخذت أتردد وأسائل نفسی أأعود فأدفع لأولئك الأنذال الثمن من جديد : كانت حيرة واضطراب وملل . وأخيرا مررت بالشركة الألمانية فعلمت أن هناك باخرة تقوم من « فيجو » فی شمال اسبانيا بعد خمسة ايام فاعتزمت السفر فيها والقيام إلى مدريد ثم فيجو .

أما قادس فمن أقدم المدن بناها الفينيقيون سنة ١١٠٠ ق . م ، ومع ذلك فهی من أنظف البلاد ، وقلما ترى أثرا قديماً أو طللا باليا بها ، وثغرها جميل يحوطه الماء من جميع جهاته تقريباً ، وكل شاطیء البحر على امتداده أقيم عليه رصيف بالأسمنت بديع تنيره المصابيح الفاخرة وتزينه المتنزهات فی مجموعه ، والبلدة فی غاية النظافة ، طرقها ضيقة لكنها مرصوفة رصفاً متقناً ، وتكاد تكون كلها متعامدة ، وفی الميادين تقوم التماثيل والأنصاب التذكارية ، وبالبلدة مجموعة من متنزهات رصفت بالحصباء الملونة وزينت نافوراتها بأطر من القيشانی ، وقد راقنی من أنصابها نصب الدستور المؤرخ منذ ١٨١٢ يحمله مجموعة من رجال ونساء ، ويحوط أولئك الجماهير والفرسان مؤيدين له محافظين عليه وإلى الجانبين فارسان يتقدمان إلى الأمام . والمدينة صغيرة يستطيع الانسان أن يطوف بها جميعاً فی أقل من يوم ، ويحوط جوانبها سور قديم له بواباته الهائلة ، ولا بأس بحركة مينائها التی لا تكاد تخلو من البواخر الضخمة يوماً واحدا ، وبها كتدرائية متوسطة الحجم ، وكانت إبان العصر الاسلامی مسجداً ، والبلدة قديمة كان يسميها الفينيقيون (كادی) ، وحرف الاسم اليوم قليلا . أقمت فی قادس ثلاثة أيام ، ثم قمت منها إلى مدريد بقطار السابعة مساء فوصلتها منتصف العاشرة صباحا ، وأخذت أتجول

فى تلك العاصمة فبدت وجيهة وعظيمة حقاً تدل بأبنيتها الضخمة الشاهقة القديمة ومتنزهاتها المنسقة الفسيحة المتعددة على أنها بلد ذو ماض مجيد ، وقد جمل القوم القسم الحديث منها تجميلا فائقاً بطرق فسيحة يحفها الشجر وتزينها الأبنية الهائلة وزودت بمنظم (أوتوماتيكى) لحركة المرور بالأضواء والأجراس ، وفوق ذلك يقف أجناد البوليس وعليهم مظهر من المهابة والوقار يسترعى النظر وهم موضع الاحترام من الجميع ، هندامهم جميل وقاماتهم طويلة ، وحركة الترام والأتوبيس الفاخر هائلة فى كل الأرجاء ، وقد رأيت من أرقام الترام رقم ٥٣ ، والبلدة غالبها منبسط ، وان انحدرت بعض طرقها أحياناً ، وكان جل الطريق إليها كذلك سهولا فسيحة ، أما جوها فشديد الحرارة حقق لدى ما قاله أبناؤها فيها من أن سنتها فصلان : شتاء تسعة شهور (invierno)، وجهنم ثلاثة شهور (infierno) رغم أنها أعلى عواصم أوربا جميعا ، ومن ذلك اعتقد السذج منهم بأن عرش ملوك اسبانيا بعد عرش الله . ويهولك جماهير الناس وهم وافدون على الحدائق والمتنزهات خصوصاً يوم الأحد ومعهم طعامهم ، وهم يلهون ويمرحون ، وكذلك اختلافهم إلى المقاهى التى تكاد تعم جوانب الطرق ، وكثير منها فاخر جداً ، وذلك شائع فى جميع بلدانهم أما ميلهم إلى المقامرة فعجيب ، فاللوترية فى كل مكان وحتى فى القطار . يفاجئك رجل فيعطيك قطعة حلوى ، ثم يغريك أن تشترك بقرش فى (لوترية) على كيس من الحلوى ، وترى دوارة (البخت) فى جميع الطرق ، والناس محتشدون حولها شيباً وشباناً وأطفالا ، وتحتكر الدولة نفسها كثيراً من أوراق اللوترية تبيعها للناس .

قمت من محطة الشمال فى مدريد إلى فيجو فى شمال غرب اسبانيا فى ست عشرة ساعة أو يزيد ، وكان القطار هنا جميلا وسريعاً . سرنا أول الأمر فى هضبة مبسوطة كأنها سهل يزرع غالبه . وبعد ذلك بدأت الجبال تزيد وتتعقد ثم شاهدنا تغييراً فى مناظرها ، إذ أضحت غنية بالنبت الطبيعى كثيرة الأشجار

والغابات البرية ، فخيل إلى أنى فى بلاد سويسرا ، وكانت مجارى الماء تتخللها بشلالاتها ، والبلدان الصغيرة تقوم منحدرة على جوانب الربى ، وكثير من أهلها يشتغل بالرعى والاحتطاب إلى جانب الزراعة وحتى وجوه الناس بدا عليها بعض التغير، فالسمرة المستملحة فى الوجوه والعيون خفت جداً ، وتلك الجهات الشمالية يطلق عليها غاليسيا الاسبانية تحفها جبال كنتبريان فى شمالها، وهى تعد من الوجهة الجغرافية أقليماً مغايراً لأقليم البحر الابيض ، مطره أغزر ونباته أوفر . وقد لاحظنا قلة الحرارة ، وفى بعض الجهات كان الجو شتوياً بحتاً . والسماء تتخللها الغيوم ورطوبة الجو محسوسة ، أخذ القطار يجد فى سيره ويخترق أنفاقاً لا عد لهـا ، وفى بعض جهاته زود بقاطرتين معاً حتى قاربنا فيجو ، فظهرت على جوانب خليج ضيق بالغ الطول يتسع قليلا فى أقصى داخله حتى خيل إلىّ أنه بحيرة ، وكان المنظر ونحن نشرف عليه من القطار ساحراً: ربى تكسوها الأحراش وأشجار الصنوبر تتخللها مسايل الماء وتقوم بيوتها منحدرة السقوف على جوانبها ، ولجة الماء وضاءة متلألئة ، وسحب السماء تنعكس عليها فتزيدها جمالا وللاسبان الحق أن اتخذوها أجل مصايفهم يقصدونها من أقاصى البلاد ، وشتان بين جبال سيرانفادا شبه الصحراوية فى الجنوب ، وجبال كنتبريان النضرة بخضرتها وأشجارها فى الشمال . وفيجو مدينة صغيرة لـكنها جميلة الطرق نظيفتها منسقة المبانى تنحدر كل شوارعها إلى الميناء ، والشارع الرئيسى يمتد محاذيا لشارع البحر، وعليه تقوم متاجرهم ودور أعمالهم الهامة ، أما ضواحيها التى ينقلنا إليها الترام فمجموعة أمكنة للرياضة فى الصيف فهى ربى بعضها فوق بعض تزود بالنبت والشجر، ومنحدرات الماء، وتشرف على الخليج من دونها ، والخليج بديع المنظر غنى بشجره وغاباته ومسايله ، وهو يمتد إلى الداخل ٣٦ ك م فى ليات عدة.

ويمكن للاسبان أن يبدعوا فيه ثغراً من أكبر ثغور الدنيا ، وقد أخذوا فعلا يعمقون بعض جوانبه لتقف السفن إلى جانب البر، أما اليوم فلا تستطيع

ذلك لأن الشواطىء ضحلة والخليج غنى بمصائده وبخاصة السردين الذى يصدر منه الكثير ، وكم يعجبنى من القوم عنايتهم بالمتنزهات فى كل مكان يقصدها الناس والأمهات والأطفال ويمرحون فيها جل فراغهم ؛ على أنى آخذ عليهم تدليل الأطفال واهمالهم من الجانب الخلقى ، فكثير من صغارهم يسيرون جماعات ويختلفون إلى المقاهى ويشربون الدخان ، ومن لم يجد يتعقب أعقاب السجاير من الأرض ويدخنها ، وحبهم للمقاهى فائق الحد ، فبعد كل وجبة للطعام يذهبون نساء ورجالا ويجلسون لشرب القهوة ، وفى المساء يطول بهم الجلوس على موائد السكر إلى ساعات متأخرة من الليل ، لذلك لا تبدأ أعمالهم نهاراً إلا بعد التاسعة والعاشرة وحتى مصالح الدولة ، وهم يؤخرون وجبات الطعام ، فالغداء لا يكون قبل الثانية والعشاء بعد التاسعة وجلهم يشرب الدخان ، وهو ليس (مفروما) كما نراه عندنا بل مهشم ويلفونه بأيديهم جميعا ، ومما آخذه على القوم أنهم أقل نظافة فى عاداتهم من الأوربيين فجميعهم يبصقون ويتمخطون بشكل منفر فى كل مكان وحتى على الأراضى المرصوفة الصقيلة ، وفى المقاهى والحجرات والقطارات .

ويكرر الاسبان عن حكومتهم القصة الآتية : طلب أحد ملوك الاسبان إلى آلهة السماء أن تمنح بلاده ضوء الشمس فأجيب سؤله ، ثم طلب للنساء الافراط فى الجمال وللرجال حسن الأدب فمنح ذلك أيضا ، فعاد وطلب أن توهب البلاد حكومة رشيدة وإدارة حازمة ، فصاحت الآلهة قائلة : كلا كلا لا يكون ذلك ، فلو منحتم هذا لهجر جميع الملائكة السماء وآثروا عليها أرض اسبانيا . ومعنى ذلك أنهم يعترفون بفساد حكومتهم ويدهش الناس لتدهور نظام الحكم الاسبانى رغم سيادة اسبانيا للعالم كله زمانا ، وتعليل ذلك أنهم مدينون للعرب بالكثير من دمائهم وحضارتهم وشجاعتهم وخصب بلادهم بل وسعادتهم جميعا ، فالعصبية التى أعقبت طرد العرب (بين ١٦٠٠ و ١٧٠٠) خلفت نقصاً فادحاً فى الكفايات ، لأن سيادة العرب وأشرافهم الأبوى كان

كبيراً ومتغلغلا فى الناس وفى الأرض لدرجة أن محو تلك الآثار ومحاولة تحويلها إلى حضارة أوروبية كان أمراً متعذراً لا يتم إلا فى قرون عدة ، ولقد اختلطت اليوم حضارة العرب الممتازة بحضارة المسيحيين التى هى دونها رقيا والتى شابها كثير من حضارة الصليبيين التى كان أساسها العنف والعصبية الدينية العمياء ، وأنت إلى اليوم ترى وقار العرب وأدبهم سائداً بين جميع الاسبان ، إذ تلمس أثر الارستقراطية فى الغنى والفقير ، وكذلك أثر الديمقراطية فيهما على حد سواء ، إلى ذلك حبهم لأطفالهم وتقديرهم للزهور ، فالأطفال يمنحون نصيباً كبيراً من الحرية ، والزهور تزين نوافذهم وشرفاتهم وابهاء دورهم بل وصدورهم وآذانهم ، كذلك شبه الحجاب الذى نراه بين السيدات ، فالفتاة لا تبيح لنفسها أن تكلم رجلا إلا وهى تلبس المعطف كذلك ميلهم للمغازلة واختلاس النظرات تلك التى تغضب أهل شمال أوربا مثلا . ومن المناظر المألوفة فى كل بلاد اسبانيا وقوف الرجال على نواصى الطرق يغازلون السيدات ويلقون عليهن عبارات المديح جهاراً وكثيراً ماترى العشاق يقفون إلى جوانب الجدران وتحت النوافذ يعبرون عن آيات حبهم وغرامهم بأنغام القيثارة ، ومن العجيب أن هذا المنظر لا يسترعى اهتمام المارة فهو لديهم أمر عادى ، ولا يغضب ذلك أبا الفتاة وأهلها لأنهم يعتبرون ذلك نوعاً من الاطراء لفتياتهم ، وغالب عقود الزواج تتم دون أن يسبق ذلك تعارف وثيق بين الزوج وزوجته على أن الحياة الزوجية هناك رغم ذلك هانئة سعيدة ، ولا يحب الاسبانى أن يكثر صاحبه من زيارته فى داره ، ولا يباح للزوجة أن تستقبل ضيفاً إن كان زوجها خارج المنزل . ولا يزال النسوة يلبسن فى الحفلات وعند الرقص (طرح) الدنتلا فوق تاج من شباك (الباغة) من قماش أبيض ، وفى المواقف الدينية يلبسنها من لون أسود ويسمونها Mantilla ، وكذلك يطرحن على ظهورهن الشيلان الحريرية المهفهفة وهن أكثر حشمة من غيرهن من نساء أوربا ، وأجسامهن أقرب إلى الامتلاء لقلة الحركة من أثر لزومهن الدار

طويلا ، وذلك لا شك من أثر الحجاب العربى ، وهن أقل استخداماً لأدهنة الوجه ، وبهذا يفسر بطء شيخوختهن عن غيرهن ممن يسمم الطلاء بشرتهن، وخير مايجمل الطرق مشهد السيدات فى ملابسهن الأندلسية البديعة ، وكثيراً ما تمر بهن فى حلقات يرقصن على أنغام القيثارة على قارعة الطريق ، ولا يشاطرهن الرجال المخاصرة بل يقفون متفرجين . على أن المرأة فى أسبانيا سيدة بيتها وصاحبة الأمر والنهى فيه ، وليس الرجل ، وتلك بقية لعهد الأمومة أو حكم الأم الذى ساد اسبانيا قديماً ، فقد حدثنا التاريخ أن المرأة الأسبانية كانت فى القرون الوسطى أكثر نساء العالم حرية ، إذ كانت على قدم المساواة مع الرجل ، وكثيراً ماكان يحمل الولد اسم أمه بدل أبيه ، ورغم أثر الحجاب الذى خلفه العرب فانها سيدة العائلة ، فالأولاد يلبثون تحت أمرتها حتى بعد الزواج مما أعفاهم من احتمال المسئوليات تلك التى تخلف فى الانسان الرجولة وتربى فيه الجرأة والاعتماد على النفس . ويوصف أهل الأندلس بخفة الروح والاهمال والقناعة والتسويف ، فأنت لا تفتأ تسمع كلمة (مانيانا) أعنى غداً ، وإذا انتقدتهم فى ذلك قالوا : ولكن ألسنا مع كل ذلك سعداء ؟ ولا يزال يعد الناس بلاد الأندلس من البلاد الشعرية ويرمون أخلاق أهلها بالانحلال — وحتى سكان شمال أسبانيا يعتقدون فى الجنوب ذلك — فهم وادعون مسالمون يميلون إلى رغد العيش ولا يهمهم أمر الغير مادام فى جيب الواحد منهم ولو (أونا بسيتا) أى قرش واحد

ويتهم الأسبان بأنهم قساة وهم حقاً معروفون باحتمال الآلام لكنك تلاحظ إلى جانب ذلك كثيراً من العطف على الغير مما يبدو متناقضاً ، هذا إلى الكرم العربى وإن أفسد من هذا تدهور أداة الحكم وتفكير الحكام فى إثراء أنفسهم على حساب الصالح العام . وكذلك كانت سيطرة الكنيسة هناك عنصراً من عناصر الفساد والتدهور ، والعصبية الدينية هنالك بالغة أشدها ، ولا تكاد تحصى الحفلات والأعياد والمراسيم الدينية التى تضيع كثيراً من الوقت

والمال ، ومن عاداتهم التى جاءتهم عن أثر الكنيسة أنهم يُحرمون على الأطفال الغسل والاستحمام مخافة أن يتشبهوا بالمسلمين ، وذلك ماساعد على زيادة الوفيات من الأطفال هناك ، ومن أثر عصبيتهم الدينية التى شجعها القسس بعد طرد المسلمين مايعرف عنهم من تعصبهم لرأيهم ، وذلك خلف فيهم تلك النزعة الثورية التى تصيب البلاد دائماً بالفوضى والاضطراب ، ولقدأضعف ذلك فيهم عصبيتهم القومية إلى حد كبير ، ولا تزال الكنيسة تنشر فى الناس كثيراً من خرافاتها وهم يحاربون تعليم البنت إلى اليوم لاعتقادهم أن ذلك يساعد على الزندقة والالحاد .

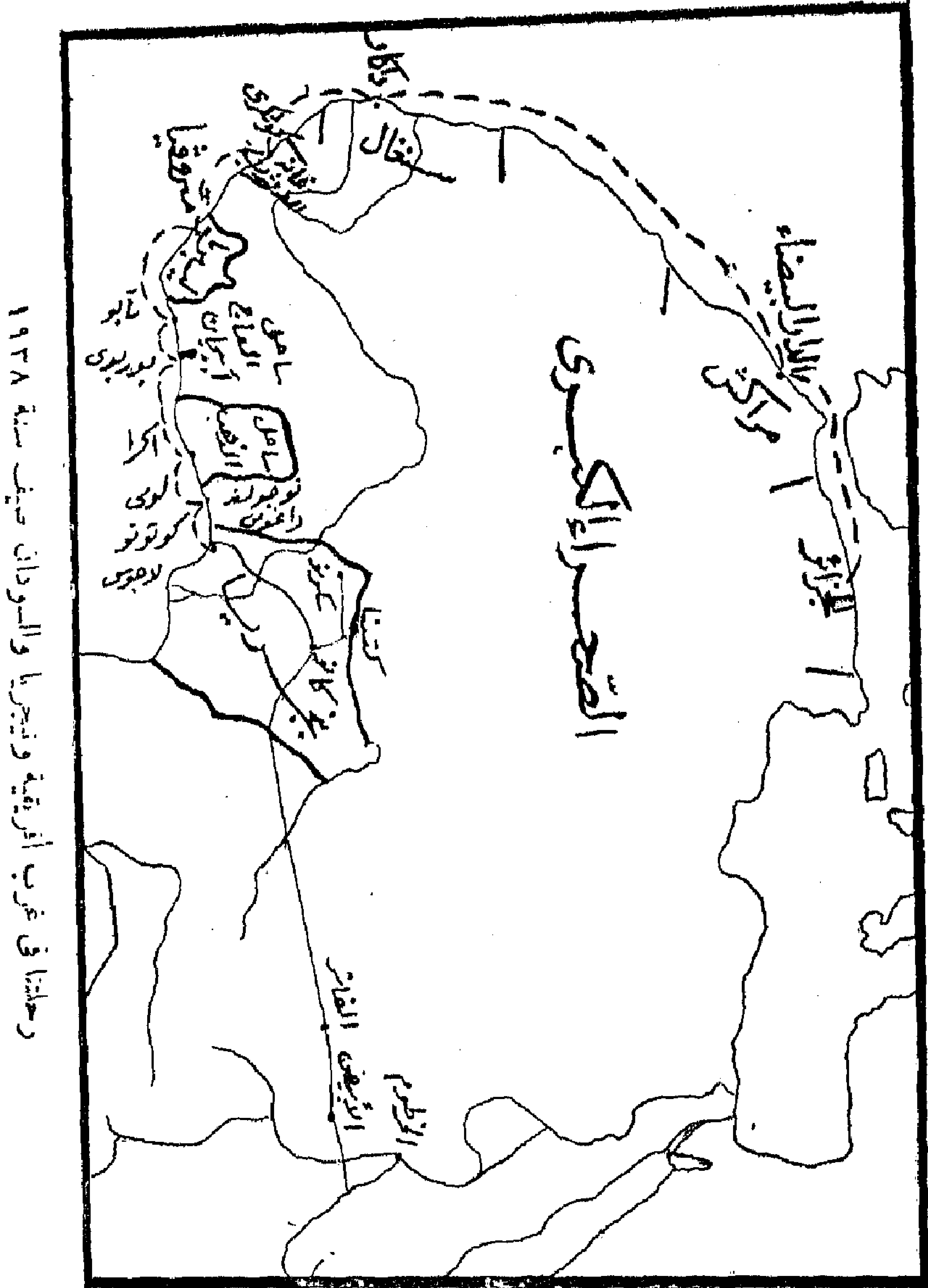
غرب إفريقية والسودان

أحمد الله الذى وفقنى للقيام برحلة مع طلاب المعهد إلى شرق أوروبا فتركيا والاناضول ثم بلاد سوريا ولبنان أول اليف الماضى (يونية سنة ١٩٣٨) وكم كنت قلقاً طول الوقت على رحلتى الخاصة فى جهات غرب افريقية تلك الجهة التى بها أتم طوافى بلاد القارة الغامضة والتى لها فى قلبى سحر دونه أى سحر رغم ما كان يثنينى عنها من مزهدات الكلف الباهظة والجو المجهد والشقة النائية . أتممت إجراءات السفر واشتريت التذكرة من الاسكندرية الى لاجوس بستة وأربعين جنيهاً مصرياً ثم حاولت أن أزود نفسى بخطابات رسمية أدفع بها ما عسى أن يعترضنى من صعاب فى تلك البلاد التى تقسو على النازلين بها وتحوط دخولهم بعراقيل لا تحد وكم أمضى الانتظار فى وزارة الخارجية . حتى حصلت على خطاب توصية بسبب ما يحف اجراءتنا الرسمية من تعقيدات .

قامت بنا الباخرة شمبليون التى بدت عظيمة واذا بها كسائر المنشآت الفرنسية يعوزها النظام وحسن القيام على المسافرين ، وفى خمسة أيام حللنا مرسيليا وبتنا بها ليلة ثم أقلتنا الباخرة (هوجار) الفرنسية صوب غرب افريقية ؛ وهوجار اسم الجبل فى الصحراء الكبرى يحتمى فيه الطوارق الذين أذاقوا الفرنسيين الأمرين كما أصلاهم السنوسيون فى مأواهم بين جبال تبستى وهى ليست من كبريات السفن عتيقة المبنى غير متزنة فوق ماء البحر الأبيض ، فما بالها عندما تخرج الى عرض المحيط الأطلنطى المائج الرهيب ؟ لبثنا يومين ، حتى وصلنا مدينة الجزائر فبدت جميلة جذابة بمدرجاتها التى تعلو فوق الميناء فى شوارع مرصوفة نظيفة متسعة كل واحد يوازى أخاه ويعلوه فى انحدار خفيف وبين فترة وأخرى نرى مجموعة من درج تصعد بنا سراعاً إلى أعالى

البلدة ولعل أجمل جهاتها الوطنية التى تختنق الطرق فيها حتى لا تكاد تتسع لرجلين متجاورين وأنت ترى من الأزياء خليطاً لا أول له ولا آخر ، هذا ارتدى المعطف من الصوف الأبيض وفى أرجله البلغة وفوق رأسه اللبدة لف حولها طيات من حبل سميك . وهذا لبس الطربوش المصرى وآخر طربوشاً مغربياً يتدلى زره القصير وقد يجرد من زره تماماً وتلك السيدة دثرت بأزار من صوف أو حرير أبيض وأرخت على وجهها قناعاً أبيض دون العينين وتدهش إذ تسمع خليطاً من العربية المشوهة الى جانب الفرنسية . تبدأ السيدة أو الرجل الكلام بالعربيـة وسرعان ما يعوج اللسان وتتدفق الألفاظ الفرنسية فى طلاقة تفوق الوصف . وحتى صبية الشوارع يتحدثون بها رغم مظهرهم الرث الفقير . والعوز هناك منتشر الى حد مخيف على أن الحياة هناك رخيصة رفهت عنهم بعض الشيء وتعجب إذ ترى الفرنسي والفرنسية إلى جانب الوطنيين فى المسكن والمقهى يتجاذبون أطراف الحديث على قدم المساواة فى ديمقراطية راقتنى كثيراً ، هنا ذكرت الترفع الانجليزى والصلف السكسونى الذى يفصل ما بين أبناء التاميز وأهل البلاد التى يحكمونها وهذا كما يقول الفرنسيون ممـا جعل الاستعمار الفرنسى أهون أمراً وأبعد أثراً فى نفوس المحتلين عن الاستعمار الانجـليزى . لذلك شعر الجزائريون بأنهم فرنسيون يسوى القانون بينهم وبين سادتهم وبذلك نسوا عصبيتهم الأولى رغم ما هم عليه من خلاف فى الدين والعادات ، لبثنا فى مياه الجزائر يومين كاملين والباخرة تحمل وسقها من براميل النبيذ لتطفىء بها ظمأ الفرنسيين من نزلاء بلاد غرب إفريقية ، وقد كان معى على مائدة الطعام جمع مختلط من القوم فرنسى وزوجته من نواحى مارسيليا وكانت لهمـا نغمة معوجة من الفرنسية الريفية التى كان يصعب فهمها حتى على أهل باريس . وكان يجاورنى باريسى ، وهو شاب صغير السن وحيد أبويه ، لم يكد يتم دراسته حتى التحق باحدى الشركات الفرنسية فى نيجريا الانجليزية وهو لا يعرف من الانجليزية

سوى كلمات متقطعة محرفة وزاد إعجابي به أنه قال بأن أجره في هذا العمل لا يجاوز أربعة جنيهات في الشهر : فأين هذا من أبنائنا الذين لا يحفزهم

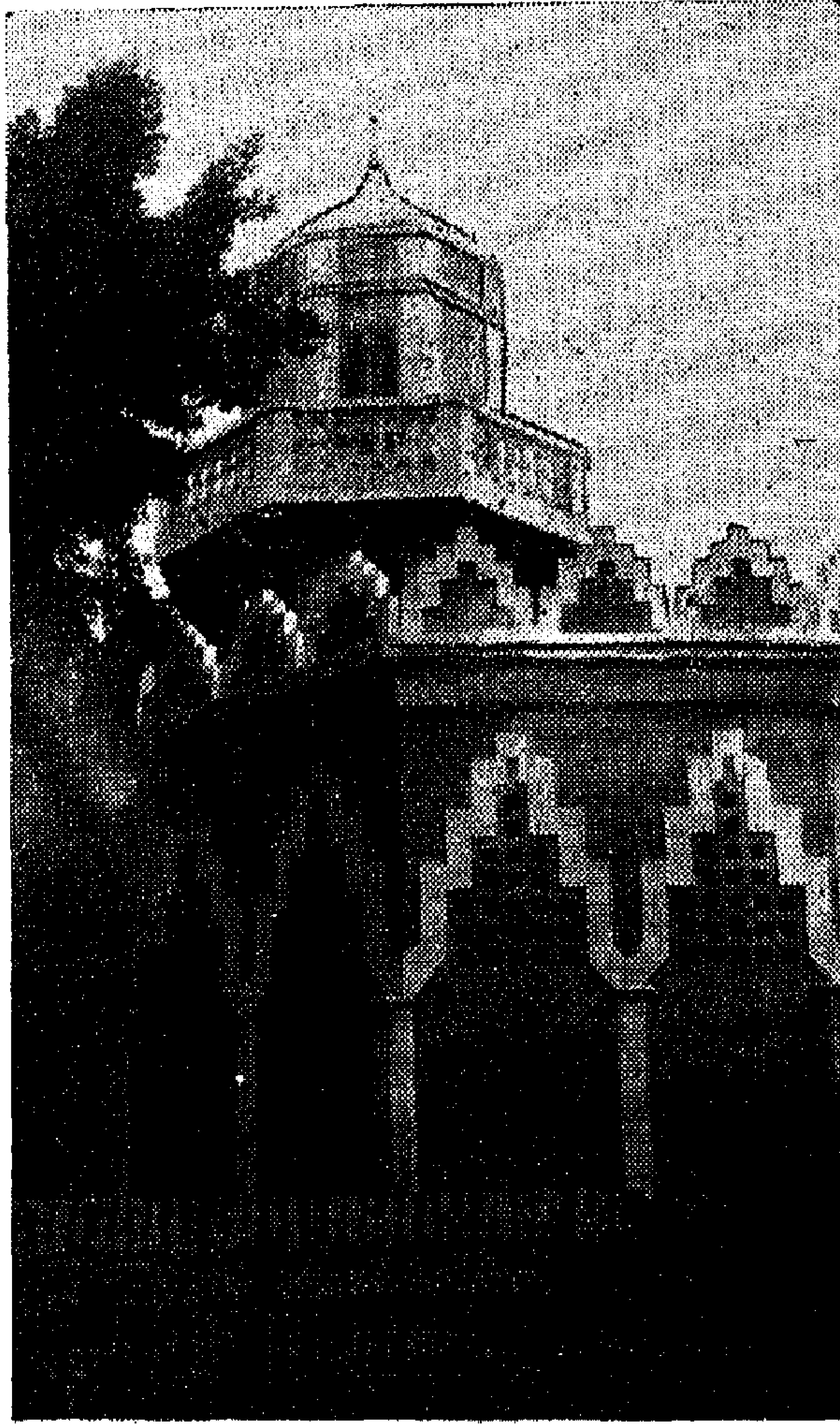


رحلتنا في غرب أفريقية ونيجريا والسودان صيف سنة ١٩٣٨

العمل على النزوح خارج مصر مهما بلغ أجره ، ثم رجل قد نال منه الشيب وتعددت تجاعيد وجهه له زوجة فتية صغيرة السن جميلة المحيا لم تخلف منه سوى فتاة في نحو التاسعة وقد بدا على الزوجة الهم والانصراف عن زوجها وكأنها كانت تندب حظها إذ لم تقترن بشاب يتناسب مع سنها الصغيرة رغم ما كان عليه الزوج من مظهر المرح والاغراق في النكات وحب المزاح . وإلى جوار أولئك

ثلاثة من شباب الأغريق عائدون إلى نيجريا مقر عملهم فى إحدى الشركات بعد أن قضوا فى بلادهم أجازة هى خمسة شهور يمنحون إياها كل ثلاث سنين ، ثم اثنان من أهل سويسرا أحدهما يتكلم الفرنسية فحسب لأنه من جهات جنيف والآخر الألمانية لأنه من زيورخ وكنت أعجب لأنهما لم يستطعا التفاهم إلا ببعض كلمات انجليزية محرفة رغم أنهما أبناء وطن واحد فقلت كيف تسير الأعمال إذن فى بلادكم على هذا النحو من إختلاف الألسن عندكم ولم لا تتعلمون لغة تسود الناس جميعا ؟ قالوا هذا متعذر لأن أهل سويسرا تتعدد لغاتهم بين الألمانية . والفرنسية . والطليانية . والرومانية لذلك ترك أمر تعليم اللغة لاختيار الناس على أن الأعمال الحكومية تجرى باللغات الأربع : أعجبت بذاك الروح المغامر الوثاب الذى يحدو بكل أولئك إلى النزوح وراء طلب العيش حتى فى بلاد لا يخضع لحكمهم وهلا رغب أبناؤنا فى الأسفار وطلب العيش وعملنا على تشجيعهم حكومة وشعباً وبخاصة إلى جهات السودان التى لا تنأى عنا كثيرا ؟ هنا أذكر قول صاحبنا المرح ، إنى أدهش إذ أرى مصريا لأول مرة فى حياتى فى تلك البحار النائية رغم تعدد أسفارى فى اصقاع الأرض كلها ؟ فرد الشاب الفرنسى يخاطبنى قائلا إنكم تحكون الفرنسيين فى ذلك لأن أهل الريف فى فرنسا يرغبون عن الأسفار كثيراً فقلت فى نفسى شتان بين النزعتين حقاً قد أثرت الزراعة فى أهل فرنسا فصرفتهم عن النزوح إلى الخارج فى كثرة أبناء الانجليز مثلا ولكن أثر الزراعة فى القعود بالمصريين عن النزوح كان أفعل وانكى . وكم كان القوم يفخرون بسعة أملاكهم الأفريقية التى تثبت ما كان لأبنائهم من جهود صادقة فى نشر الدعاية الفرنسية بعيداً فلقد أخضعوا تلك البلاد الغربية لسلطانهم ونشروا لغتهم بين أولئك الأقوام وهم يقولون بأن فتح الاسلام لتلك البلاد قبلهم قد حد من أثر وحشية تلك القبائل ومهد للحضارة الفرنسية فهم مدينون للعرب كثيراً ، وهم يزعمون أن ميل الناس لهم هناك أكثر من حب

السود للانجليز فى المستعمرات الانجليزية وذلك بفضل الصراحة الفرنسية والديمقراطية وسرعة الاختلاط تلك التى تشعر بالمساواة ، وتزيل الفوارق



المسجد الرئيسى فى داكار بسنغال

التى تزيدها السياسة الانجليزية حدة وهم يقولون بأن فرنسا أبعد ما تكون عن سياسة (فرق تسد) التى يتخذها الانجليز رائدهم ، لذلك كانوا بغيضين حيثما حلوا .

فى يومين كاملين وصلنا الدار البيضاء بعد أن عبرنا جبل طارق وقمنا بجولة خلال تلك البلدة والحق إنها لتعد مفخرة الاستعمار الفرنسى فلقد خلقوا بلداً على أحدث ما يكون فى الطرق الممدودة والأبنية الفخمة والمتنزهات

المتسعة وقد كانت من قبل محلة فقيرة غير ذات شأن بها مجموعة من أكواخ لقرصان البحر قريبة من الشواطىء ولا تزال للبلدة القديمة بقية ، وقد أقام الفرنسيون بلداً آخر للوطنيين ببوائكه وأزقته وأقبيته ومساجده غير أنه نظيف جميل وقد أصبحت كازابلانكا أولى بلادهم التجارية ، لذلك بدت ميناؤها ممدودة الأرصفة شاهقة الروافع تامة المعدات جديدة البنيان وكانت الحركة التجارية بها صاخبة مائجة . غير أن المدينة رغم كل هذا لم ترقني كثيراً لأنها بدت إفرنجية بحتة لا يزينها ذاك السحر العربي الذي يبعث في تلك البلاد جمالا يفوق الوصف ، فالجزائر مثلا تفوقها روعة إذ فيها يختلط العربي بالبربري بالفرنسي مما جعل مناظرها منوعة غير موحدة ولا مملة ، كما هي الحال في جميع البلاد الافرنجية .

عبرنا مدار السرطان وهنا سرت موجة فزع جنونية عند جمهرة المسافرين من الحر والشمس وقاموا يلبسون قبعاتهم البيضاء الكبيرة من الفلين رغم أنا كنا في ظلال الباخرة ولا يكاد الواحديري زميله أو ابنه عاري الرأس حتى يصيح في وجهه مخيفاً إياه من خطر الأشعة فوق البنفسجية في شمس المنطقة الحارة . وكم بدا شكل العجائز من النساء مضحكا وهن يلبسن تلك القبعات المنتفخة غير المنسجمة مع أرديتهن ولا مع سحنتهن ، وكذلك صغار الأطفال الذين كانت تكاد تخفيهم تلك القبعات من تحتها . ولقد بدأ الحر يتزايد عاجلا بعدما عبرنا خط عشرين وهدأ البحر حتى لم تكن تشقه موجة واحدة وانتظم هبوب الرياح من الشمال الشرقي ومن ناحية القارة إلى يسارنا بعد أن كان من قبل مضطرباً وتلك لا شك هي الرياح التجارية المعروفة . كذلك أخذ القوم يلتهمون أقراص الكينين بمقادير كبيرة استعداداً للقاء أخطار الملاريا التي تفتك بالجنس الأبيض في تلك الأصقاع فتكا ذريعا ، فكنت أرى السيدة تسير وفي يدها أو حقيبتها علبة الكينين تلتهم منها كثيراً ، وكان جل المسافرين

فى تلك الباخرة الفرنسية من ضباط الفرنسيين العائدين من فرنسا بعد قضاء أجازاتهم هم وعائلاتهم .

أما عن جماهير السمك كبير الجثة أسود اللون طويل الخرطوم فحدث فكأنه كان يسير فى جيوش أو طوائف متضامنة تقفز فى تقوس منتظم فوق الماء وهى تسابق الباخرة عساها تلقف من الطعام بعض ما تلقى الباخرة من فضلات ، ولا نكاد ننصرف عن ذاك المنظر حتى يصيح البعض (Les Poissons violants) أى السمك الطيار ، فنسرع وإذا سطح الماء تغطيه سحابة فضية رقيقة من سمك صغير ذى أجنحة يطير أسرابا مائة متر أو يزيد ثم يعود إلى مأواه من الماء وقد يلمس الماء بذنبه ويخلف فيه شقاً طولياً ثم يستأنف طيره وكأنه بذلك يستمد من الماء قوة تعاونه على السير أو كأنه يتلمس صيداً من سمك آخر يأكله .

أصبحنا نقارب خط عرض ١٥° شمالا وما أن غربت الشمس حتى خيم الظلام فأخفى كل شىء وتلك ظاهرة جلية فى المناطق الحارة حيث يقصر أمد الشفق فى الغداة والعشى قصراً يكاد يخفيه كلية ، وكأن ذلك قد ساعد الأهلين أن يأووا إلى مضاجعهم مبكرين فلم يسرفوا فى السهر كما هى حال الطوائف الأخرى من الأوربيين مثلا ، ولذلك عاجلهم الكبر وبخاصة النساء اللاتى تذبل نضارة خدودهن عاجلا أما بين السود فيكون ذلك متأخراً . وان أعجب فعجبى من سرعة التغير فى الجو كلما خطونا درجة عرض واحدة داخل مدار السرطان إذ كنا نلمس الحرارة تتزايد فى سرعة مخيفة حتى أصبحنا فى هجير أقض مضاجعنا ولما نَعْدُ خط ١٥° وان أثر أشعة الشمس لبالغ الشدة لا تكاد تحتمله جسومنا . هنا يقدر الانسان حكمة البارىء الذى جعل من جلود سكان تلك المناطق غشاء أسود لا تجد تلك الأشعة المحرقة اليه سبيلا ، على أنها نالت من أذهانهم فركدت ومن جهودهم فخملت وقد كنت ألمس ذلك فى نفسى وأرثى لحال أولئكم القوم من نزلاء تلك الأصقاع .

داكار : فى أربعة أيام وبعض يوم أقبلنا على رأس من الأرض دقيق يمتد بعيداً فى المحيط وينتهى بذؤابة معقوفة من صخور وجزيرات ممدودة تكسوها جميعاً الخضرة النضرة وهو الرأس الأخضر كما أسماه البرتغاليون قديماً وهو من أخطر الأماكن على السفن إذ كثيراً ما لا تتبين صخوره فيصيبها العطب أو التدمير وقد ألفينا هناك أربع سفن مهشمة غارقة على صخورها رغم ما يقوم على تلك الصخور من فنارات وفى منعطف إلى جنوب ذلك أقيمت مدينة داكار . رست بنا الباخرة على الميناء ومن حولها المراسى الممتدة ، وتحميها من أمامها جزيرة صغيرة تجعل منها ميناء حربيا أعظميا ، وذلك ما يعتزم الفرنسيون إتمامه قريبا ، نزلنا البلدة وإذا بها منسقة نظيفة كبيرة جل أبنيتها مستحدثة وشوارعها متعامدة متوازية ولا يعدو علو المبانى طابقا واحدا ، والمتاجر فقيرة المعروضات مما يناسب زنوج تلك الجهة من أقمشة قطنية بسيطة وأوان منزلية جلها من الزنك ويقطن كل تاجر عادة خلف حانوته فى نفس البناء وهناك قسم ارستقراطى أقيم للجالية الفرنسية هو غاية فى الجمال تحفه الحدائق والمتنزهات وتقوم به دور الحكومة ، وفى ناحية أخرى (المدينة) كما يسمونها وهى الناحية التى أقامتها الحكومة للوطنيين عقب الحرب مباشرة تفاديا من قذارة المدينة الوطنية القديمة التى تقع إلى ورائها .

سرنا نجوب تلك الأرجاء والأهلون من حولنا تغص بهم الطرقات فى ألوانهم الفاحمة وقاماتهم الشامخة ، وأجسامهم الممتلئة يسترعى النظر منهم الزى الفضفاض من القماش المهفهف عديد اللون فاقعه وجله من نسيج القطن الرقيق يحكى العباءات المنتفخة للرجال والنساء معا ، ويشق من جانبيه ولعل أجمل ما يروق السائح رؤوس السيدات التى نسق الشعر من فوقها فى أشكال هندسية مقوسة ومكورة تزينها الحلقات والودع وما إليها والمتزوجات يضعن فوق كل ذلك عارضة تبدو من جانبها كور منتفخة سوداء من جديل

أسود كأنه فرو الخراف ويلف الرأس فوق ذلك بعصابة من منديل خفيف ملون ، وأجساد السيدات أميـل إلى السمن يتهادين فى مشيتهن ويبدين من



سلطان كانو من شمال نيجريا

دلالهن ما يجتذبن به أنظار المارة وهن باسمات لا ينفرن من الناس بل على استعداد للتحدث مع من شاء ويلبس الناس هناك الخفاف فى أقدامهم على أن كثيراً منهم يسيرون حفاة ، وكم كان يروقنا منظر القوم يفترشون الأرض أمام بيوتهم وبخاصـة فى المساء هروباً من هجير الحجرات . ولقـد أقامت الحـكومة لهم أسواقاً عديدة مسقفة منظمة يعرضون فيها سلعهم من أردية وأقمشة ومأكل ، وأظهر معروضات الطعام : السمك المجفف وبعض الفاكهة وفول كولا الذى يأكلونه طازجاً وطعمه كالجمار إلا أنه لزج ثم أعواد من شجر السواك يحملونه جميعاً نساء ورجالا . فأنت ترى الفرد منهم يسير وقد أمسك بأسنانه عصى صغيرة حسبتها لأول وهلة لفافة تبغ دقيقة لـكنك تراهم

يمضغون أطرافها وينظفون بها أسنانهم طوال الوقت حتى ساعة الكلام إذ ترى الواحد منهم يتحدث إليك وهو يحركها فى فمه ويقرض من طرفها . وقد مررنا فى المساء بقوم يدقون طبولا من صفائح عدة ويغنون ويصفقون ويقف بين الجميع اثنان أو ثلاثة يرقصون ويضربون الأرض بأرجلهم ضربات فنية وهذه ما يسميها الافرنج (Tam Tam) وهى شبه الدلوكة عند السودانيين

وقف بى السير الى حانوت يبيع كتبا كلها عربية وكثير منها من مطبوعات مصر فدخلت أسأل عن كتب تتحدث عن السنغال فلاقانى شاب وسيم الطلعة رقيق الجانب اسمه أحمد سامى وهبى القريملى ، وقال : جنابك ابن عرب فقلت نعم ومصرى قال وأنا أيضا مصرى أتجر فى الكتب العربية من مصاحف ومصورات دينية وقليل من كتب الأدب . قلت وهل لديك من الكتب ما يحدثنا عن بلادكم الافريقية هذه ؟ قال ليس عندى منها الا كتاب لرحالة اسمه محمد ثابت كتب عن إفريقية ولكنه لم يكتب عن تلك البلاد وتناول كتابى (جولة فى ربوع افريقية) قلت وهل تدرى من مؤلف هذا الكتاب وفتحت صفحة منه فيها صورتى فنظر الرجل وقال أهو حضرتكم قلت نعم وكانت مفاجأة لنا ظريفة أخذ الرجل بعدها يرحب بنا ويقول (أهلا بأهل الفضل والعلم أهلا بمن جاب الأقطار كلها) ، ولقد تحدث إلى عن الأهلين هناك فقال بأن أغلبيتهم الساحقة من المسلمين يحافظون على دينهم ويحاولون تعليم أبنائهم اللغة العربية ويحفظونهم القرآن وقد أنشأ بعضهم المدارس لهذا الغرض وهناك مدرسة أهلية كبيرة تسير على مناهج عربية على أن الحكومة لا تعاونها أما المكاتب الأولية فكثيرة وقد مررت بأحدها وكان الأطفال يجلسون على الأرض صفين ووجوههم الى الحائط وبيد كل لوح من خشب كتب عليه آيات القرآن وأخذوا يهزون أجسامهم وهم يترنمون بحفظها والعصبية الاسلامية بين الناس لا بأس بها . يهتم القوم باقامة المساجد وقد أنشئت هناك جمعية اسمها (جمعية الأخاء الاسلامية) خولت لها الحكومة الاجتماع

فى ناديها مرتين فى كل أسبوع للتحدث فى الشئون الاسلامية ، على أن الحكومة تقاوم الاسلام سراً لا جهراً فهى لا تبيح التبشير الاسلامى لكنها تحشد كل يوم من مبشريها عدداً كبيراً يحاولون استمالة السود بالمال والعطاء لكن بعد أن ينقاد الواحد لهم قليلا لا يلبث أن ينقلب ويعود إلى إسلامه. ولقد زرت مسجداً رئيسياً هناك وصليت فيه الظهر ، وكان عدد المصلين به كبيراً على أن كثيراً من البيض أخذوا يرمقوننى بنظرات مريبة ، وقد حدثنى صاحبى أن البيض ممنوعون من الصلاة مع السود فى المساجد وإن صلى أحدهم فى المسجد ناداه البوليس ونهره قائلا : هذا المسجد للسود فقط أما أنت فتستطيع الصلاة فى دارك وكثير من الأهلين يفهم العربية ويتحدث إليك بها ، وأنت تسمع الكثير منهم فى الطرقات يتوسلون بالرسول والصالحين فيقولون يامحمد ويارسول الله . وكلهم على مذهب الامام مالك ، وهم يتعصبون له جداً لدرجة أنهم لا يحبون الأحناف قط ، والجالية البيضاء كلها اسلامية أيضاً ومن جبال لبنان ومذهب السواد الأعظم منهم شيعى ، وكثير من المتاجر يكتب عنواناته بالعربية إلى جانب الفرنسية . وجل التجارة فى أيدى اللبنانيين والفرنسيين وهى تدر عليهم مالا وفيراً فقد يغتنى الفرد منهم فى سنة واحدة وأنت تسمع رنين اللغة العربية السورية على طول الطريق وبخاصة من التجار أنفسهم ، ولقد راقنى من خادم صديقى صاحب المكتبة وكان زنجياً مسلماً أن سيده قال فى سياق حديثه معى (بأن العبيد هنا بالطبع لا يستطيعون قراءة كتب الأدب فقراءتهم ضعيفة) فصاح قائلا (العبيد ! العبيد ! كلنا عبيد الله) فقلت نعم وأكبرت فيه تلك النفس التى هذبها ولا شك الاسلام الذى سوى بين المؤمنين جميعاً .

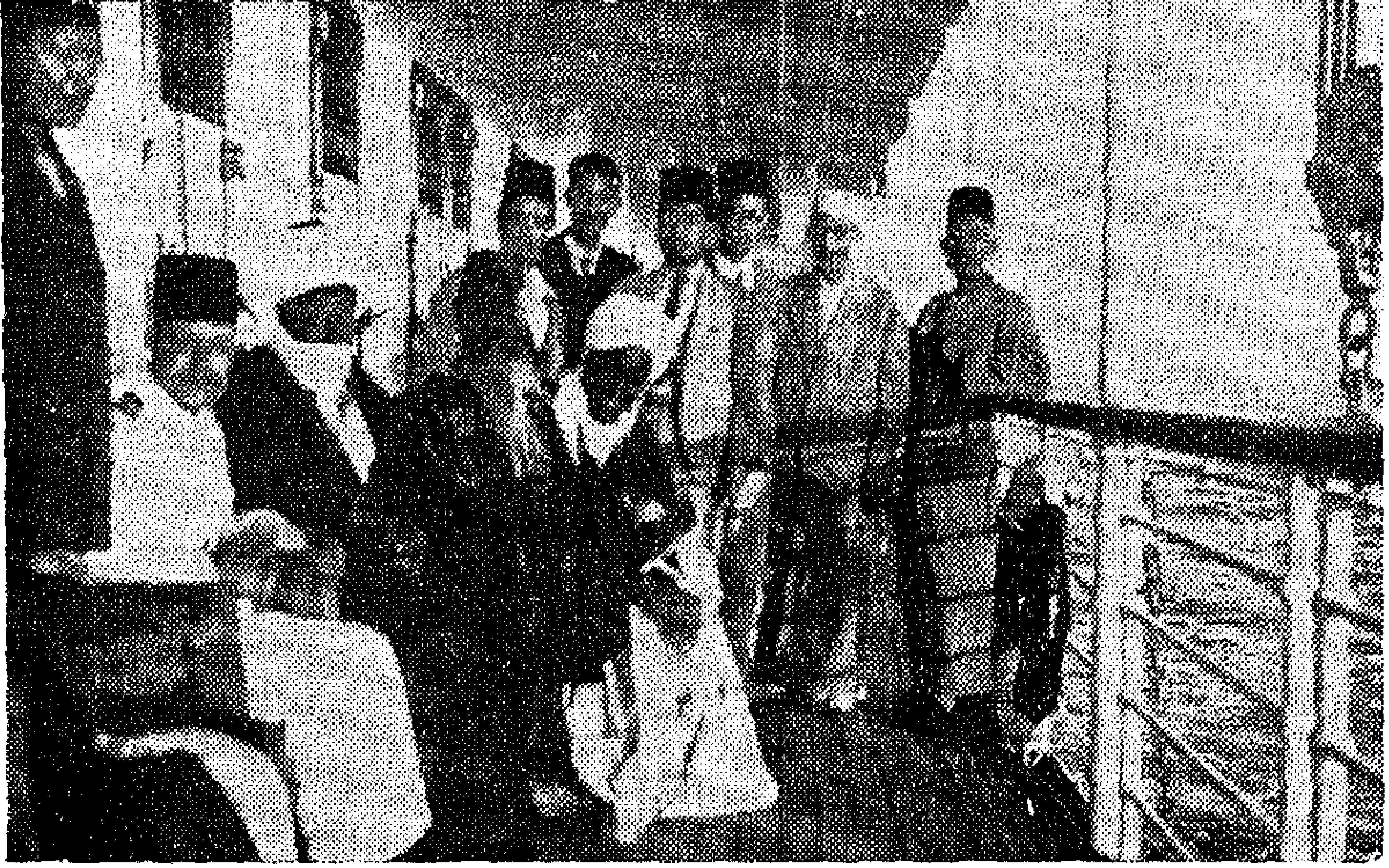
لبثنا فى داكار يومين وقد أكبرنا فيها نظافتها وحسن تنسيقها لذلك كانت الحالة الصحية فيها على خير ما تكون ولا عجب فهى عاصمة كل الممتلكات الفرنسية فى غرب افريقية وفيها يقيم حاكم (افريقية الغربية الفرنسية

LA. O. F.) وقد نما عدد سكانها من ٢٥ ألفاً سنة ١٩٢٥ إلى ٤٠ ألفاً اليوم وفيها يشرف الحاكم على سبع مقاطعات (موريتانيا ، سنغال ، النيجر ، غينا الفرنسية ، ساحل العاج ، داهومى ، السودان الفرنسى) وهى التى تؤلف فى مجموعها افريقية الغربية الفرنسية ومجموع سكانها زهاء ١٤,٥ مليونا جلهم من المسلمين .

قمنا نبرح داكار صوب الجنوب وما أن غاب الساحل عن أنظارنا حتى بدا الجو ناحية القارة مغبراً مظلماً ، وظل هذا يقاربنا وسرعان ما أحاط ذاك الجو المكفهر بالباخرة وزاد سحابه واتصلت السماء بالبحر وعصفت الرياح وانهل الوابل وزاد صفير الرياح وإذا نحن فى قلب عاصفة عاتية كادت والله تقتلع باخرتنا وتلقى بها بعيداً ، هنا صاح الجمع وعمهم الفزع وحاروا ماذا هم فاعلون ، هذا يحمل طفله ويجرى وتلك تتعثر وهى تعجل بالنزول إلى غرفتها وظل صفير الريح وخرير الوابل مستمراً فى غير هوادة زهاء ساعة إلا قليلا بعدها تقشعت العاصفة وعاود الهدوء قلوب الناس جميعاً وأمثال تلك العواصف كثير فى هذا الفصل إذ تنقسم السنة هنا إلى فصلين واضحين ، الفصل الماطر بين يونية وأكتوبر ، والفصل الجاف بعد ذلك ، وهاقد فاجأتنا عاصفة أخرى صباح اليوم التالى أشبعتنا مطراً ولو انها لم تبلغ من الشدة ما بلغته عاصفة الأمس ، لكن المطر الغزير ظل يسقينا بقطراته إلى أن دخلنا :

كونكرى : عاصمة غينا الفرنسية ولبث طوال اليوم فى شدة متصلة (٢٦ أغسطس) بدت الميناء صغيرة إذا قورنت بداكار ولا تزال يد الاصلاح تعمل فى جوانبها . نزلنا البلدة رغم هذا الجو العكر وأول ما استرعى أنظارنا طرقها التى شقت وسط غابات من المانجو ونخيل النرجيل ونخيل الزيت وشجر الكولا (Kola nut) وكان الكل يحمل وسقه من الثمار فالمانجو كان يتساقط علينا طوال الطريق وأذكر أن واحدة هوت على رأس صاحبى رفيق الباخرة

فأحدثت فيه شجاً بسيطا ، والأهلون يتناولون منه مايروقهم ويلتهمونه فى شوق زائد وبعضهم يجمع أطيبه ويعرضه للبيع وقد اشتريت ثلاثاً بخمسة



فى صحبة أمير كانو ووزيره على ظهر الباخرة كوثر ونحن عائدون من الحج

مليمات لم أستطع أن آتى على اثنتين منها ، ونخيل الزيت يشبه نخيل جوز الهند إلا أن جذعه أغلظ وتكسوه قحوف خشنة وسعفه ليس فى خفة نظيره من سعف جوز الهند وثمره كبير يحوى حباً كالبندق الصغير يعصر منه الزيت أما شجر الكولا فهائل يكاد يحكى شجر المانجو إلا فى أنه أقصر فروعاً وأعرض انتشاراً والثمر قد يبلغ حجم البيض فى شكل شبه هرمى له أربعة وجوه غير متساوية وفى طعمه مرارة تجعله منفراً وكانت تلك الأشجار تكسب الطرق جمالا إذ تكاد تظلها جميعاً والبيوت لا تكاد تتمـــيزها على جانبى الطريق من كثافة النبت ومنازل الوطنيين تقام من الطين الذى يطلى بالجير وسقفها من الحديد المجزع المنحدر وهى مظلمة الا فى (فرندة) نحيلة تتقدم البيت فى أحد جانبيه ويتخذها القوم مجلسهم العام .

ويكاد يحوط البحر البلد كله وقد نسقوا عليه (كرنيشا) لا بأس بجماله

خصوصاً ساعة المد أما إذا هوى الماء ابان الجزر فانه يكشف عن كثير من الصخور والنقائع المخضرة القذرة ، والناس هناك كلهم مسلمون ، يقرأون القرآن ويثابرون على الصلاة وتنتشر بينهم (الكتاتيب) الصغيرة التي يديرها شيوخ يجيدون العربية ويحفظون القرآن وقد لاحظت على السحن هناك تغييراً واضحاً فهم أكثر جمالا وأخف سواداً من أهل السنغال وكثير منهم فى لون (برابرة) أسوان عندنا على أنهم أرق حالا وأقل تنسيقاً فى الهندام ومغالاة فى التزين وجلهم يمشى عارى الرجلين حاسر الاكتاف والصدر وحتى النساء يتدثرن من أسفل الثديين وترى أثداءهن بارزة تسترعى النظر خصوصاً وأنهن كلفات بهز أجسادهن مع الابتسام فى شيء كبير من الدلال على أنهم يحجمون عن التصوير جميعاً ويرون فيه عيباً كبيراً وقد التف بنا جمع من الصبية وتطوعوا لقيادتنا فى بلدتهم وقد علمنا أنهم من تلاميذ المدارس الاسلامية وأنهم اليوم فى عطلة لأنه يوم الجمعة وهم يحترمون شيوخهم الاحترام كله وكثير من هؤلاء يرسلون لحاهم ويمسكون (بالسبح) فى أيديهم وقد يظهرون بمظهر المشايخ (والمجاذيب) كى يزيد احترام القوم لهم ولازال مسلمو السوريين يجدون هناك رواجاً لمتاجرهم فأنت تراهم وتسمع عربيتهم أينما سرت ويتكلم الزنوج لغات عدة أهمها (الفولاني السوسو) ويكادون يفهمون بعضهم البعض جميعا أما الفرنسية فيتحدث بها صغارهم فى طلاقة عجيبة وهم يكتبون لغاتهم الوطنية بالحروف العربية غالباً والافرنجية أحياناً وهم بسطاء يحبون المرح واللهو أينما وجد ولذلك تسهل لهم فرنسا سبله ، وتنشر بينهم فتياتها الماجنات كى تنال من عصبيتهم وقد لاحظت كثيراً من الزنجيات يرقصن نصف عاريات أمام بيوتهن ويهززن أعطافهن ويمسكن بأثدائهن فى إباحة منفرة . وقد كان جو يومنا بارداً منعشاً مكننا من التجوال طويلا دون أن نحس ذاك الجهد والعناء المألوف فى تلك الأصقاع وذلك رغم أن السماء لم توقف وابلها إلا دقائق متقطعة وهذا فضل من الله كبير

إذ جعل مطر القوم إبان الصيف ليخفف عنهم شدته ويظهر أن القوم اعتادوا سيول الأمطار لأنى كنت أراهم يسيرون غير آبهين له دون أن يستظلوا بظلة أو يفزعوا منه جرياً وقد علمت أن المطر بدأ عندهم منذ أربعة أيام ولم ينقطع إلى اليوم . هنا لأول مرة فى غرب أفريقية رأيت (الركشا) يركبها الناس ويجرها الزنجى فى جهد كبير مما أذكرنى ببلاد الهند والصين على أن السيارات هى الوسيلة الفعالة فى النقل عندهم .

قمنا نتنحى عند ثغر كونكرى السابعة مساء وقد خيم الظلام قبل ذلك بساعة وكانت الأشجار والخضرة تغطى المدينة بكثافتها ولما نجاوز خط ١٠° إلا قليلا فكأننا قد بدأنا بسير ناجنوبا نوغل فى منطقة الغابات الكثيفة الاستوائية ولم يبد كثير من المسافرين من شهيتهم للطعام هذه الليلة لكثرة ما أسرفوا فى أكل الموز كبير الجثة زهيد الثمن فقد بدأ يطغى على سائر الفواكه التى يرغب الآكلون فيها . وفى مساء اليوم التالى مررنا بمنروفيا عاصمة جمهورية ليبريا المستقلة وكانت أضواؤها متلألئة على أنها صغيرة ودون كونكرى سعة ونظافة ولها برلمانها ورئيس جمهوريتها المنتخب على أن هذه الحرية صورية فقط إذ أساس الانتخاب وفرة الأشياع والخدم فهو برلمان وليد القوة ولا يزال الرق مباحا هناك فلكل عضو أو وزير عبيده الذين لا يحصون عداً رغم أن الجمهورية قامت لتخليد ذكرى اليوم الذى ألغى فيه الاتجار فى الرقيق وأضحى محرماً والبلاد فقيرة تحركها فى الخفاء اليد الأمريكية لأن أغلب العبيد هناك ممن أرجعتهم الولايات المتحدة من بلادها . وأعجب ما رأيت وزير البريد والتلغراف الذى أتى إلى الباخرة ومعه طوابع البريد ليبيعها الناس بنفسه وهو يرتدى الملابس الافرنجية الرسمية (الفراك ، والقبعة السوداء الطويلة) لكن هندامه رث قذر ويسير حافى القدمين ، ووزراء الدولة يتسابقون إلى ربان الباخرة ليتقاضوا رسوم الميناء ومن سبق فاز بالمال لنفسه .

وصلنا تابو Tabou الثانية مساء (الأحد ٢٧ اغسطس) . وبدا الساحل

أمامنا رملياً ممدوداً فى لون أصفر ذهبى يحفه زبد الماء الذى لا تفتأ تتكسر عليه أمواجه ووراء ذلك تقوم صخرة متوسطة الارتفاع تنتثر عليها بعض المساكن الصغيرة فى عدد قليل وتكاد تسدها الغابات إلى الآفاق جميعاً لذلك لم تستطع السفينة الاقتراب من الشاطىء بل وقفت بعيداً وأدلت منها زورقا بخارياً وأخذت تصعد عليها توقظ القوم من سباتهم إذ قد خيل الينا أن القريه خلو من الاهلين وبعد فترة طويلة أقبل الزورق يقطر وراءه سلسلة من زوارق صغيرة بها بعض المسافرين ولما أن قاربونا أنزلت اليهم السفينة سلة من خشب علقوا فيها وانتشلتهم بروافعها إلى مقرنا ثم اتبعت نفس الوسيلة فى تموينهم ببعض المواد الغذائية لأن القرية لا تكاد تتصل بالداخل إذ وراءها تمتد الغابات الكثيفة المغلقة مسافات هائلة داخل أرض ساحل العاج هذا وتكاد كل حاجياتها تنقل اليها بالبواخر كل أسبوع وكم كان منظر القوم مضحكا كلما طوحت الاسلاك بالسلة وهم معلقون فيها أو صدمت بهم جانب الباخرة أو قرار الزورق عندئذ كان يعلو الصياح وقد صدمت رجلين قفزا إلى الماء بكامل ملابسهما . لبثنا هكذا ساعتين وأخيراً رجع الزنوج بزوارقهم وهم يجذفون بمجاذيف صغيرة هى عبارة عن عصى فى طرفها قرص يضربون بها الماء سوياً وهم يكونون صفين إلى جانب الزورق وكانوا يصيحون صيحات مضحكة وفق غوص المجاذيف لتعاونهم على سرعة السير . وقد أقلعت الباخرة وهى تجانب الساحل الأفريقى الذى بدا أخضر قاتماً من كثرة ما به من غابات وكان الجو غائما والهواء بارداً منعشاً عليلا .

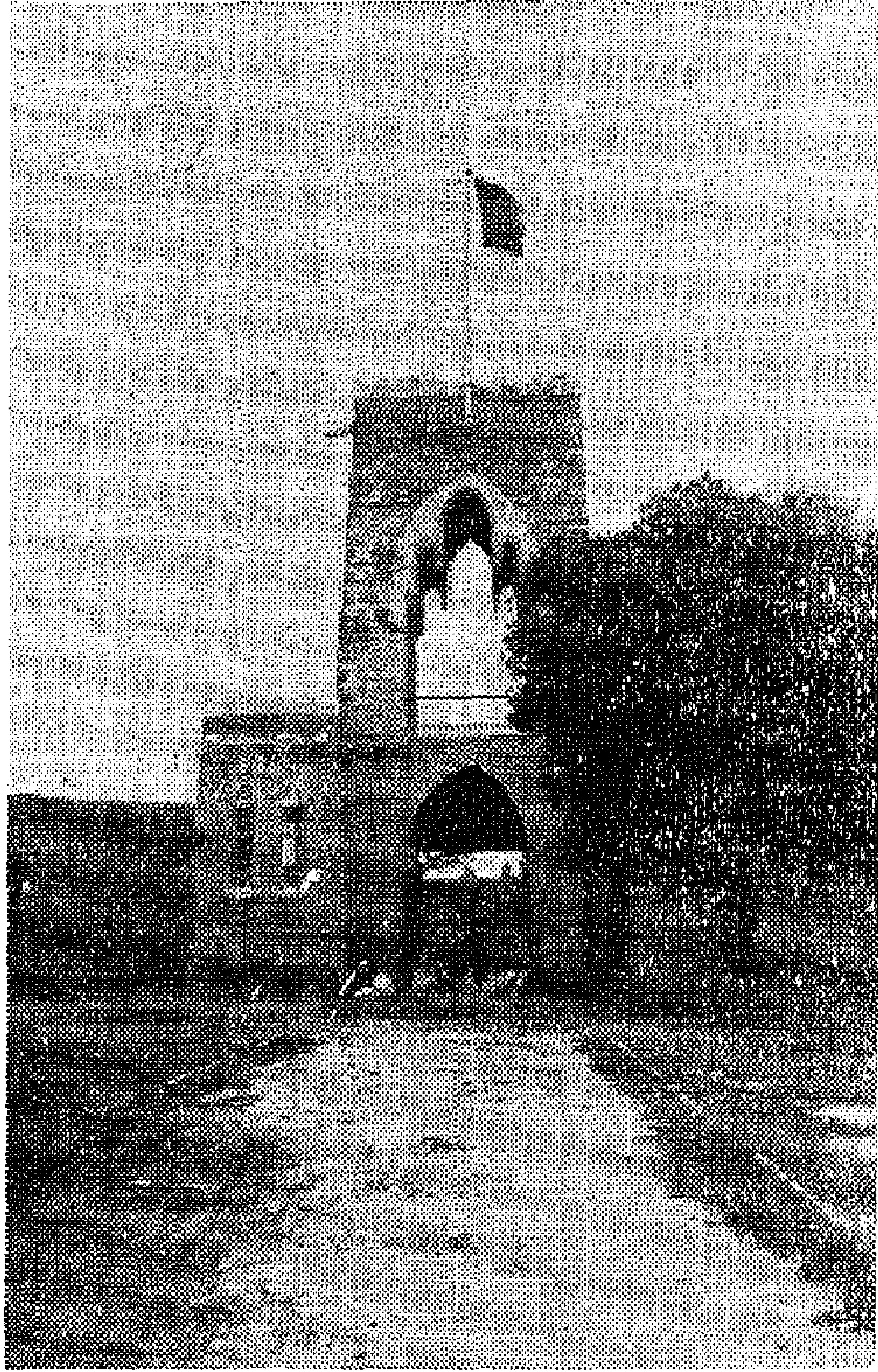
وفى باكورة الصباح (الاثنين ٢٩) أقبلنا على شاطىء رملى كانت الأمواج تنكسر عليه فى شدة عنيفة بحيث تكاد تتم دائرتها فى علو كبير فتدركها الموجة التالية فالثالثة ، وينكسر الجمع فى زبد ورشاش أبيض يغمر المكان كله وتلك (بوربوى Part Boué) ثغر أبيدچان (Abidjan) عاصمة ساحل

العاج والكلمة عربية معناها (عبيد الجان) وقد كانت العاصمة القديمة بنجر ڤيل. وقفت بنا الباخرة بعيداً عن ذاك الشاطىء وسرعان ما وفدت الزوارق وبها السلال الخشبية التى انتشلتنا ونحن معلقون فى الهواء وقادتنا إلى زائدة من شباك الحديد تمتد طويلا فى البحر وتصف على جوانبها الروافع وهنا وقفنا ثم أعادت الروافع بنا الكرة ورفعتنا بالسلة إلى البر وكذلك تفعل بالبضائع والمتاع وقد دفعنا مقابل ذلك ٢٨ فرنكا (زهاء ١٦ قرشا) وهنا ركبنا قطاراً صغيراً إلى البر وإذا بالميناء قصرت على بضعة أبنية لرجال الجمارك. وإلى شمالها قرية لصيادى السمك من الأهلين فاستأجرنا سيارة بأربعين فرنكا إلى العاصمة فسارت بنا إثنى عشر كيلو متراً فى طريق عبد وسط الأحراش التى كان أظهر شجرها النخيل القصير وإلى الجانبين مناقع لا حصر لها ويسمونها Lagoons وهى تسود سواحل خليج غينيا كله وتجعله غير صحى لكثرة ما يترس فيها من البعوض والأمراض لذلك أطلق على هذا الساحل (مقبرة الجنس الأبيض) أخيراً عبرنا (اللاجون) بقنطرة طويلة أدت بنا إلى البلدة، وهى كسائد بلاد المستعمرات الفرنسية نظيفة فسيحة ما بين الأبنية كثيرة المتنزهات والحدائق وتحف بشوارعها جميعا الأشجار والمانجو وبخاصة فى الحى الفرنسى حيث تقوم دور الحكومة والمقاهى والمتاجر الفاخرة، أما الحى التجارى فعبارة عن شارع واحد ممدود وعلى جانبيه حوانيت غالبها للشوام وأنت تجد المبيعات تفرش على المتجر والسود من حولها مكتظون يساومون بعض أصحابها فى الحاح شديد. وتجد فى المتجر أدوات المنزل إلى جانب المواد الغذائية إلى الأقمشة وما إليها، وأمام كل متجر عدد من السود يحيكون للناس أرديتهم على آلات سنجر نساء ورجالا، والناس هنا أشد سواداً وأقوى جسوماً وأقبح سحنة وجلهم مسلمون أيضا يسودهم زعماؤهم من المشايخ الذين يلبسون المعاطف القطنية البيضاء الفضفاضة والطربوش القاتم القصير. ويرمقهم الناس باجلال كبير. وكثير منهم يسيرون

عرايا إلا فى ستر العورة فقط ، وهؤلاء هم الوثنيون من أهل الغابات وجل غذائهم الكسافا (يسمونه هنا المنيوق) التى تبلغ هنا حجما كبيراً يفوق الذراع طولا وسمك الساعد عرضا ، ثم السمك والموز والأرز والذرة . وملابس السيدات المسلمات من الأقمشة القطنية الخفيفة المزركشة فى ألوان ورسوم معقدة ، والمؤمنون هنا يعنون بالشعائر الاسلامية خصوصاً فى شهر رمضان وقد علمت إنهم يكثرون من الصلوات جماعات فى الردهات المتسعة ، ويكثر الوعاظ القول لهم كل يوم وهم يرقصون رقصة دينية على قرع الطبول التى يسمونها (تام تام) ويذكرون الله فوق ضرباتها . أما الجو لحار مجهد رطب ولولا أن السحب لم تنقشع من السماء طيلة يومنا لتبخرنا تحت وهج الشمس المحرقة وكنت أرثى لحال الناس جميعاً وسط النهار ، وهم مستلقون على الأرض تحت ظلال الأشجار أو المتاجر التى تغلق أبوابها إذ ذاك ، أما الاوربيون فلا تكاد تلمح واحداً منهم فى الطريق بل يختبئون داخل أبنيتهم التى تغلق أبوابها وتبطن بستائر من حصير قاتم وهم أيضا يكادون يسيرون عرايا إذ لا يلبس الرجل منهم أو السيدة إلا (الشورت والقميص) مفتوح الصدر ، مشطور الذراعين ، أما السيدة (فالشورت والحمالات فقط) وهؤلاء هم والسوريون يكتسبون كسباً رابحاً من متاجرهم هذه وبعضهم يقيمون شركات لاستغلال منتجات البلاد من الزيوت النباتية والأخشاب الثمينة ، أما السود فهم العمال فى تلك المتاجر والشركات والوظائف الصغيرة ولا يزال ساحل العاج برية من الغابات غالبها لم يستغل إلى اليوم لأن ذلك يفتقر إلى رءوس أموال كبيرة ، لذلك ندرت المدن هناك جداً ، وقد سرنى ما علمته من أن إخواننا اللبنانيين والسوريين قد اجتاحوا التجار الفرنسيين تماما بمثابرتهم ونشاطهم ومغالبتهم لظروف تلك البلاد رغم معاكسة الحكومة واعفاء الفرنسيين من ضرائب الدخل .

واليوم الثلاثاء وصلنا مياه أكرا فى ساحل الذهب الساعة الثالثة مساء

ووقفنا بعيداً عن الميناء ، وكان البحر أمامها مضطرباً أيما اضطراب . يث لا يأمن الانسان ركوب الزوارق إلى البر حتى باخرتنا الكبيرة كانت تترنح



المدخل الرئيسى لقصر أمير كانو بنيجريا

بشكل مخيف وهى راسية وهذا الثغر معروف بأنه أسوأ ثغور أفريقية جميعها باضطرابه فهو أبداً هكذا ، وكم تعب المسافرون النازحون منهم والوافدون من رجرجة الزوارق وصدمات السلال التى انتشلتهم ، وكم راقنى مظهر شاب أسود أقام صلاة العصر على الباخرة لما أن حان ميعادها وافترش جلد نمر تحت رجليه ثم وقف ورفع يديه وأخذ يركع ويسجد وهو ينظر يمنة ويسرة ولا يقول شيئا وأخيراً سلم وقبل يديه ومسح بهما وجهه ثم انصرف،

طفنا بأرجاء البلدة فلم أر بها من جديد سوى أنهـا تقع الثانية في الـكبر بعد داكار ، وفى المساء أقلعنا إلى : (لومى) فى مقاطعة توحولاند التى كانت ألمانية قبل الحرب واليوم ضمت لفرنسا وقد بدا على البلدة المظهر الألمانى فى هندسة كنيستها وبعض أبنيتها على أنها صغيرة غير ذات شأن لذلك لم نطل المقام بها وغادرناها إلى (كوتونو) عاصمة داهومى الفرنسية وكانت العاصمة من قبل بورتونوڤو نزلناها بالطريقة المألوفة فى تلك الثغور بفضل السلة والروافع ثم سرنا على جسر الحديد الطويل الذى تصف عليه الروافع وتشقه قضبان سكة الحديد ، وما أن حللنا شوارع البلدة حتى بدت خالية من الناس صامتة حتى خيل إلينا أنها (المدينة الميتة) وتنتثر مبانيها القليلة على طول شوارع فسيحة لم يرصف منها واحد بل كسيت كلها بالرمل الأحمر من فتات تربة تلك الجهات ولعل أجمل شيء فيها شجر النخيل الأنيق الذى يحيط بجانبي جميع الشوارع على خلاف المانجو التى رأيناها فى البلدان السابقة وحتى سوق البلدة لم نر فيه أكثر من بضعة أفراد ، ويظهر أن الحركة التجارية خامدة هناك وكان فى رفقتى شقيقان لبنانيان من أسرة (الريس) يقيمان فى پوربورى ولهما هناك متجران كبيران على أنهما شكوا أخيراً أمر الضرائب التى ضاعفتها الحكومة على البضائع غير الفرنسية فشحت بذلك الأرباح ، وكانت قد وصلتهما صفقة تجارية يابانية أرادا أن يحولاها إلى (دوالا) فى الكمرون لأن البلاد تحت الانتداب فلا تستطيع فرنسا أن تفرق بين دولة وأخرى فى الضرائب هناك لذلك أحبا أن يصرفا تلك البضائع فيها . وقد زرت فى رفقتهما عائلة سورية من الدروز تتجر فى الأقمشة وهى مؤلفة من رجل مسن لا يكاد يستطيع العمل الآن وزوجته وبنته الجميلة وكانت السيدة وبنتها هما اللتان تباشران البيع وقد أبدين نحونا من السرور وكرم الخلق الشيء الكثير وكم شكون ركود الحال التجارية فى تلك البلاد بسبب قلة سكانها وندرة محاصيلها التى تقتصر اليوم على بعض القطن الردىء والزيوت النباتية ، وهذه السواحل « داهومى وتوجو » كانت أول

بلاد الاتجار فى الرقيق وأفظعها حتى كان يطلق عليها « ساحل الرقيق » لذلك هجرها الأهلون إلى مسافة مائة ميل فى داخل البلاد هروبا من النخاسة على أن الحكومة الفرنسية أخذت تشجع الناس أن يعودوا فيقطنوا تلك الجهات وتخيرت كوتونو أن تكون العاصمة . قمنا إلى :

لاجوس التى وصلناها باكورة الصباح فاذا بنا ندخل شعبة من مستنقع يطلقون عليه الكلمة الانجليزية (Lagoon) وهو هائل كأنه النهر الفسيح ماؤه كدر مائج وبعد أن سرنا طويلا الفينا الميناء على ضفتيه فتقدمت إلى ضابط المهاجرة بالجواز وخطابات التوصية فرحب الرجل بنا على غير عادة هؤلاء ثم حللت فى بهو الجمرك وإذا بشاب وسيم يتقدم إلى ويقول أأنت الأستاذ ثابت قلت نعم قال أنا راسخ خليل صديق السيد محمد أبى السعود وقد كتب إلينا أن نستقبلك ، فقادنى إلى المنزل بعد أن حال بينى وبين الذهاب إلى الفندق وهناك تقبلنى صديقه وزميله فى المسكن وهو الأخ عارف بركات ، والأول من مسلمى سوريا والثانى من الدروز يشتغلان بالتجارة ودور السينما وقد تعرفت بواسطتهما إلى كثير من زملائهما السوريين الذين يكادون يحتكرون التجارة فى تلك البلاد ، بدت مدينة لاجوس كبيرة عظيمة الامتداد طرقها معبدة ، وأبنيتها نظيفة وشاطىء (اللاجون) بها جميل ، وناهيك بأسواقها التى تغص بالأهلين من قبائل (ياروبا) فى الغالب ، وزهاء نصفهم من المسلمين والباقون بين وثنيين ومسيحيين وسحنتهم منفرة فى الغالب ، ورغم ذلك فان نسبة العفاف عندهم محدودة جداً فالفتاة مثلا تصادق من تشاء مادامت بكراً ، ولا يرغب الشاب فى زواجها إلا اذا حملت سفاحاً ، وعندئذ يثقون فى أن الراغبين فيها كانوا كثيرين ، والتقبيل غير معروف لديهم ، والنساء ينفرن منه . ويتزوج الرجل من عدد كبير من النساء قد يفوق العشر يؤثر عليهن واحدة تعد رئيستهن يحترمنها ويركعن أمامها ولا تغار الواحدة من الأخرى لأنها ألفت تعدد الضرائر فى بيت والدها من قبل . وهن يتخذن من الصور

الفوتوغرافية تمائم فاذا وضعت عند مدخل حجرة النوم وخطت الزوجة الخائنة لزوجها مات عشيقها على الفور . ومن خرافاتهم أن الرجل إذا ناداه عدوه فرد عليه مات عاجلا .

وعند موت أحدهم تبقى الجثـــــة يومين ثم يخلع الأقرباء عليها أحسن الملابس ويعلن الناعى أهل البلدة وبيده دجاجة ويهرب النسوة من رؤية الجنازة لأن فى ذلك شؤماً عليهن . وإن كان الميت مصاباً بمرض وبىء حذر المنادى الناس أن يخرجوا خشية أن يصيبهم سوء وتدفن الجثة فى غير تجمهر وتعود الروح ليلة الأربعين إلى البيت وعندئذ يجتمع الزوجات وقريباتهن ويأخذن فى الغناء والتصفيق حول مصباح حتى تصيح إحداهن قائلة : ها هو آت ، ثم يقلد رجل حركات الفقيد وخطواته ويرتدى ملابسه ويزور حجرات الدار جميعاً والنساء يسجدن على الأرض كى يباركهم الفقيد . وكان الدفن أولا تحت سقف الدار نفسها ثم حرم ذلك اليوم .

وللياروبا فى الاستدانة نظام عجيب يسمونه أيووفا (Iwofa) بمقتضاه يخدم المدين دائنه نصف اليوم حتى يسد دينه وقد يظل البعض فوق عشر سنين يؤدون تلك الخدمة سداً لفوائد مبلغ بسيط قد لا يزيد على عشرة جنيهات وقد يكون أولئك الخدم من الفتيات وعندئذ لا يرغب ذووهن فى تحريرهن من ذاك الاسر ويلبثن هكذا حتى تحين سن زواجهن وعندئذ لا بد أن يدفع الزوج الدين بدل المهر لكى يتسلم خطيبته .

وعاداتهم فى التحية تلفت النظر إذ ترى الواحد أو السيدة تركع نصف ركعة مرتين أو ثلاثاً وهى تتمتم أمام من تحيه وقد تكون مثقلة بطفل أو اثنين أحدهما يعلق وراء ظهرها والآخر بين يديها بل الغالب أن تلف الطفل وراءها بحيث لا ترى إلا رأساً ذات عينين براقتين وكأنه القرد الصغير وتضع المتاع فوق رأسها وتترك يديها طليقتين ، وهى التى تقوم بالعمل كله ، والرجل عاطل كسول ، وما أجمل أن ترى السيدة أو الغادة تسير وقد كست

وجهها بالأدهنة البيضاء (البدرة) فى غير اتقان فيبدو وجهها جيرياً مرقعاً مضحكا وذلك لكى تبدو بيضاء جميلة ، وقد كثرت بينهن المتفرنجات من المسيحيات وهؤلاء يلبسن الأردية الأفرنجية على أنهن يسرن حفاة وحتى طلبة المدارس وطالباتها يسيرون فى الحلل البيضاء النظيفة ولكنهم يتركون الأقدام عارية وكذلك أجناد البوليس والحى الأفرنجى هناك فسيح كبير تقوم به دور الحكومة وهى عديدة لأن لاجوس هى عاصمة نيجريا ومقر الحاكم العام .
قمت إلى كانو بقطار سكة الحديد فعبرنا بالسيارة قنطرة هائلة على اللاجون إلى الشاطىء المقابل للاجوس . إذ البلدة جزيرة محصورة بين المناقع من جميع نواحيها وهناك اشتريت التذكرة بثلاثة جنيهات ونصف جنيه مصرى فى الدرجة الثانية والعجيب أن أجر الدرجة الأولى أحد عشر جنيها وذلك لكيلا يستطيع السود دفعها وبذلك تترك الدرجة الأولى للبيض وحدهم ، وكان فى وداعنا رهط من إخواننا السوريين وأخذ القطار يشق بنا أحراشا معقدة من شجر مشتبك وعشب كثيف مما ينمو عادة فى المناقع الملحة ثم تغير المنظر بعد زهاء أربع ساعات فأضحت من الغابات الكثيفة التى تكثر فى المناقع العذبة وكان أظهر الشجر نخيل الزيت والنرجيل وشجر المانجروف وظل هذا زهاء مائة ميل ثم صعدنا هضبة وأوغلنا فى سڤانا من النبات ذى العشب السائد الطويل تتخلله أشجار متفرقة كانت تزيد كثافة عند المجارى المائية التى مررنا بالكثير منها وبخاصة نهر النيجر الذى يبلغ من الاتساع ثلاثة أضعاف نيلنا المبارك وقبل كانو بنحو ست ساعات تغير المنظر فأضحى عشبا أخضر قصيراً تنتثر خلاله الأشجار على قلته فحاكى أرض مصر المحبوبة وكان الطريق كله سهولا لا تكاد تبدو فيها التلال إلا نادراً ، وفى مناطق الغابات الأولى كنا نرى بين فترة وأخرى فجوات استأصلها الأهلون بالقطع والحرق وزرعوها ذرة أو (نيام) وهو نبات جدرى كالبطاطا فى ضخامة هائلة يتخذون منه خبيصا (كالعصيدة) وهو من أغذيتها الرئيسية وكذلك

الموز، وتربة الأرض بدت كلها حمراء تغاير كل المغايرة تربتنا السوداء الخصبة وكلما أجهدت الأرض المزروعة تركها ذووها ولجأوا إلى بقعة أخرى استأصلوها وبدأوا زرعها وقد استرعى نظرى من معروضات المحطات نوع من الموز الأصفر الفاقع فى طول قد يبلغ شبرا ونصفا فشريت بعضه وما أن بدأت أنزع قشره لآكله حتى صعب على نزعه وما أن تذوقته حتى بدا كالعجينة فكانت منى خيبة أمل لكنى علمت أن هذا النوع لا يؤكل طازجا بل يقشر ويقلى فى زيت النخيل ثم يؤكل وهو من أحب الأطعمة عندهم وزيت النخيل يبدو أحمر ثقيلا كأنه العسل وهو عماد غذائهم يدخلونه فى كل شىء وهو مستمد من ثمرة نخيل الزيت وتبدو كالبلح الأحمر الصغير فى حجم الزيتون يعصرون لبابته الخارجية لاستخراج هذا الزيت الأحمر ، أما النواة فتصدر للخارج لعصرها أيضاً ، وهذا أهم موارد تلك البلاد إذ يصدر زيت اللباب هذا لينق وكذلك يصدر ليعصر فى أوروبا ويلى ذلك فى القيمة الكاكاو . وفى نحو ثلث الطريق ركبت القطار عائلة من الياروبا وجلس النساء إلى جوارى بشكلهن المنفر رغم ما كن يتزين به من البدرة البيضاء والأقراط والشعر المجدول ولهن فى جدله طرائق جذابة تلفت النظر فواحدة منهن كانت تجدل الشعر فى عصى قائمة كأنها المسامير الكبيرة منثورة فى الرأس كلها والأخرى تجدله فى أقنية متوازية من مؤخر الرأس إلى مقدمها ومعهن أطفال كثيرون وشاب مثقف يجيد الانجليزية . وقد ابتاعوا من المحاط لفائف من ورق الموز فى بعضها أرز معجون وفى الأخرى معجون الذرة يضعون عليه الزيت الأحمر ويأكلون بأيديهم فى شكل منفر ولا تفتأ ترى الواحدة منهن قد ختمت هذا الطعام بثمرة الكولا تقرضها تحت أسنانها وتظل تمتص عصارتها وتبدى من حثالتها القذرة فوق شفتيها وأخيراً تبصقها إلى الأرض وهم يعتقدون أنها منشطة للمعدة منبهة للاعصاب حتى ان المتعب المجهد اذا مضغها استعاد نشاطه

وكم أعجبنى منظر الرجال ينزل الواحد منهم فى المحاط وبيده ابريقه يتوضأ عاجلا ثم يقيم الصلاة ويعود إلى القطار ، فهم جميعاً محافظون على



(شروما) ابن أمير كانو وولى عهده وأمامه أحد رجاله يحييه

صلواتهم وبخاصة كلما قاربنا الشمال وكذا شعوب (الهوسة) المتعصبون لاسلامهم على أنهم يكثرون من النظرات ولفت الرأس وتكرير الركوع مرات تزيد على ما يجب . أخيراً بعد اثنتين وأربعين ساعة وصلنا كانو ، وإذا بشاب وسيم الطلعة ينادينى باسمى ويقول « أنا محمد أبو السعود » ومن حوله جمع من اخوانه المصريين والسوريين والطرابلسيين يرحبون بمقدمى وينقلوننى فى سياراتهم إلى الدار العامرة وقد بالغوا فى إكرامى إلى حد جعلنى عاجزا عن شكرهم .

كانو : أخذنا نجول فى أنحاء كانو وهى ثلاثة أقسام أساسية : القسم الانجليزى وبه بيوت السادة الانجليز ونواديهم وغالب دور الحكومة ثم القسم السورى وفيه البيض من غير الانجليز بمساكنهم ومتاجرهم ، وسمى بالسورى لأن أغلب البيض هناك منهم وبخاصة من مسلمى الشيعة ويقيمون

بيوتهم الفسيحة الجميلة وفى جانب منها المتاجر نفسها فى الغالب والبيوت ليست متلاصقة ولا مكتظة ، أما القسم الثالث وهو أجملها فهو كانو الوطنية موطن الأهلين من السود وهى داخل سور قديم من الطين الأحمر وله بوابات عدة يقف عندها جندى من الداخل وآخر من الخارج . والناس هناك جلهم من قبائل (الهوسة) المتعصبين لاسلامهم حتى أن البلدة داخل الأسوار لا يقطنها غير مسلم قط وبيوتهم تقام من اللبن يطلى بالطين الأحمر فى تجزيع فنى جميل ، وتمتاز بأركانها المدببة وهى أنظف كثيراً من بيوت أهل الجنوب من (اليروبا) وسحن الناس بها مسحة من جمال وبخاصة العذارى من الغانيات وهن يلبسن الأردية التى تغطى الجسم من دون الثديين فيبدو الصدر كله عارياً يسترعى نظر المارة وخصوصاً إذا ما طلت الغادة وجهها بالبدرة البيضاء ، أما المتزوجات فأرديتهن تغطى الجسم إلى ما فوق الثديين ولقد عجبت لما أن علمت بأن الغيرة على النساء فاترة جداً عند الرجال ونسبة العفاف قليلة وبخاصة عند غير المتزوجات . فالفتاة يباح لها أن تصادق من تشاء وجل الناس هناك يتزوجون أكثر من واحدة وللأغنياء أن يتسرين فوق الزوجات الشرعيات الأربع ولذلك لم نعجب لما علمنا من أن البعض له من الذرية زهاء الستين بين ذكر وأنثى ، ومن أغرب عاداتهم أن المولود البكر يهمل أمره ولا تعنى الأم به وإذا كبر لا يقابل أباه ولا أمه مطلقاً ولا يجلس معهما على مائدة الطعام ، ولقد حرت فى تعليل ذلك ومن قائل إنه وليد عهد الجهالة الأولى يوم كان الأبوان لا هم لهما إلا اشباع الشهوة البهيمية لذلك ينظر الأبوان اليه بشيء من الازدراء ، والمعيشة فى تلك البلاد رخيصة جداً فرطل السمن بقرش ونصف ورطل اللحم بنصف قرش . وأحب الأغذية لديهم (عصيدة) من دقيق الذرة تسمى (الفورا) والذى لا يستطيع ذلك فالفول السودانى مع البطاطا عديدة الأنواع هناك ، وهم يبيعون نوعاً من اللحم ضغط بالدقيق وقدد على الشمس فبدا رقائق مجزعة مصفرة منفرة .

وسوق البلد يعقد كل يوم وبخاصة بعد الظهر . وهناك ترى كل تاجر قد حمل معروضاته من قماش أو غذاء إلى حانوت صغير افترش بها أرضه وإذا جاء المساء عاد ببضاعته كلها إلى داره وتلك الحوانيت الضيقة تراها متراصة متجاورة ، ويدفع الرجل لها أجراً زهيداً ، وللسوق سلطان يشرف عليه وتقدم إليه الشكاوى المختلفة للحوادث التي تقع داخله ، وله جنوده ويظهر أن لكل شيء هناك سلطاناً حتى المتسولين الذين لا يحصون عدا ، فلقد مر بنا واحد فى هندام نظيف وشكل يدل على اليسار وهو يستجدى ويسمونه (سلطان المتسولين) . والحكومة تزود البلد بالمياه النظيفة فى أنابيب تنتهى بصنابير يملؤون جرارهم منها وسط الطرقات ويدفعون لذلك ضريبة صغيرة على كل فرد وذلك لحضهم على استعمال تلك المياه ، والسود هناك نظيفون على وجه العموم يكاد الواحد منهم يستحم كل يوم ، وتبدو ملابسهم فى مجموعها نظيفة وليس من بينها تلك القذارة التى كنا نلاحظها فى الجهات الأخرى من افريقية السوداء أو بين سكان الأحياء الفقيرة عندنا .

ويتوسط البلدة بيت السلطان ويطلقون عليه أحيانا (الملك) أو (الأمير) والاسم الأخير هو الغالب لأن الأمير عندهم أكبر مقاماً من السلطان ، ولقد دعانا الأمير للقائه فى قصره فبعث إلينا نائبه ولى العهد ووزيره الذى سمى اليوم (الوالى) وقد سبق لنا التشرف بمعرفة الأمير والوالى على ظهر الباخرة كوثر ونحن عائدون من الحج . فدخلنا عدة أبهاء تفصل ما بينها بوابات عالية فوقها أبراج مسننة يعلوها العلم الأسود الذى كتب عليه (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وأخيراً دخلنا غرفة الاستقبال فكان الملك يجلس على مسطبة فرشت بالبسط وإلى وراء ظهره غطى الحائط بالحصير وجلس الوزير وولى العهد والمحافظ على الأرض إذ لا يفترش من أرض الغرفة إلا قطعة صغيرة تحت قدمى الأمير ، وجدران الغرفة نقشت بأنصاف دوائر وتقوسات من الطلاء البارز فى اللونين الفضى والأسود ، وكل البناء باللبن كسىَ بالطين

فى غير طلاء ، وكلما هطل المطر هدم بعضها وبخاصة الأسوار وأعيد بناؤها . جلسنا نتجاذب أطراف الحديث ، والأمير يفهم العربية جيداً لكنه لا يتحدث بها بسهولة بل يترك ذلك لوزيره سليمان الذى يتكلم العربية الفصحى ، وكلما نسيت وتكلمت العربية المصرية الدارجة صاح وقال (لا تتحدث بالجلجالية فانى لا أفهمها) . وكلا الأمير والوالى سليمان مصلح فهما يطمحان إلى رفع المستوى العلمى فى تلك البلاد ويشيدان بمصر ورقيها وعلومها ويرجوان أن تتاح الصلة العلمية بين البلدين عن طريق إيفاد المعلمين والكتب المصرية وتيسير قبول طائفة من طلبة كانو فى مدارسنا وجامعاتنا الأزهرية والملكية وحتى نظام الكشافة والألعاب الرياضية يرغبان فى إدخالها فى المدارس . ولقد جمع الأمير فريقاً من أبنائه وأبناء وزرائه وألبسهم أردية اللعب الأفرنجية ونظم منهم فرقة للألعاب السويدية يسره أن يراها وهى تلعب وإنما الفضل فى ذلك يرجع إلى نشاط الأخ محمد أبو السعود الذى تطوع بتعليم تلك الفرقة والأمير يجل هذا الأخ المصرى ويعده أحد أبنائه وهو الوحيد الذى يدخل القصر بدون استئذان ويزوره ولى العهد والوالى فى بيته فى غير كلفة ويتناولون الطعام ويمزحون وكأنه بيت أخيهم ، وكم يروقك منظر الناس وهم يحيون ولى العهد أو الوالى أو غيرهما من الوجهاء إذ تراهم يتسابقون إليه ويركعون على الأرض مرات وهم يتمتمون وهو يرد التحية ، وإذا كان راكباً سيارته حياه الناس بضم قبضة اليد ورفعها وهو يردها هكذا .

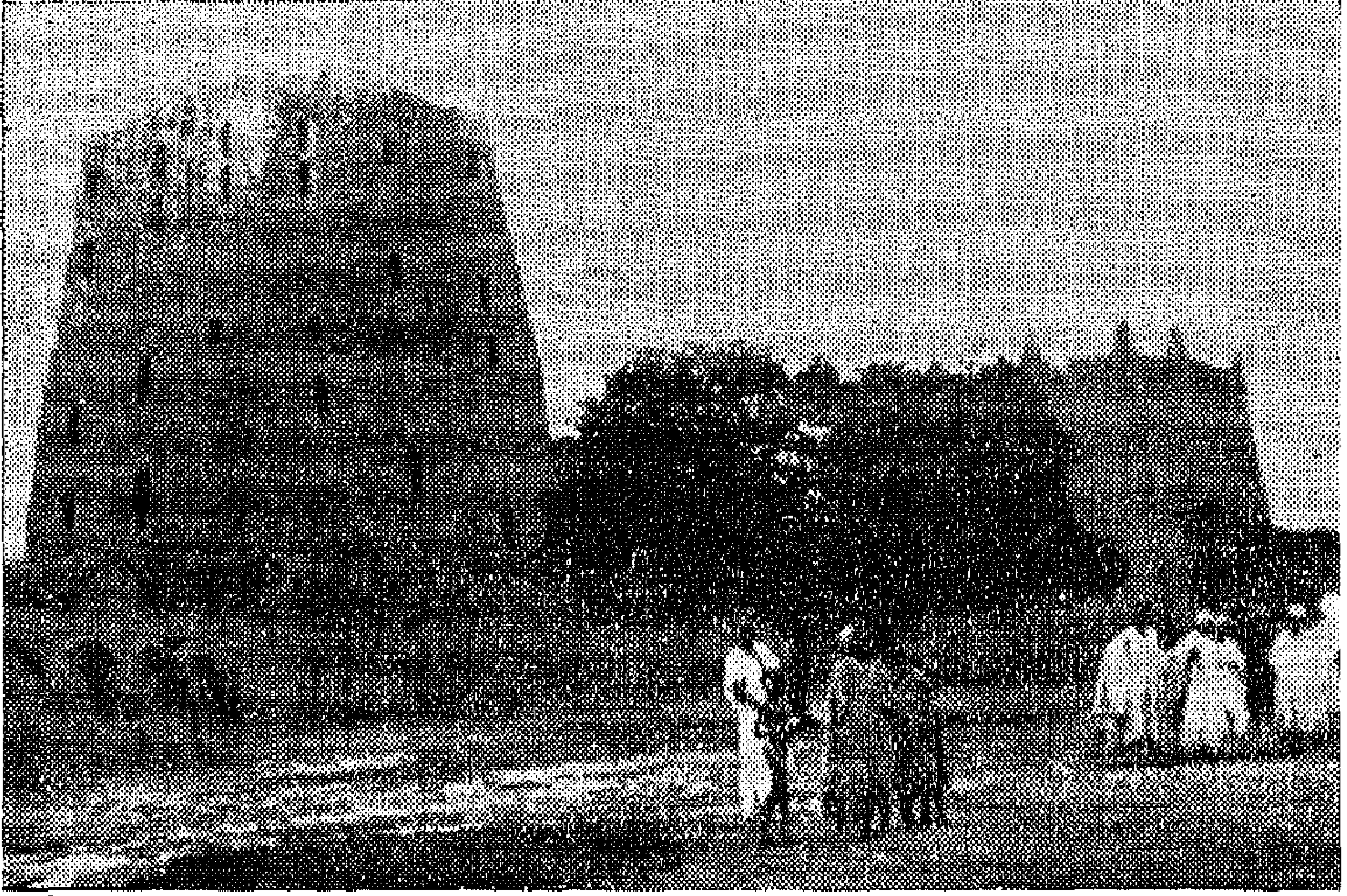
ويسرنى جداً أن أرى النفر القليل من أبنائنا المصريين هنا يسلكون فى سيرتهم سلوكا مشرفا سودهم على الهيئات الأخرى جميعاً ، وحببهم إلى الوطنيين والانجليز على السواء . وأعجب لم لا ينزح كثير من أبنائنا إلى تلك البلاد التى تربطنا بها روابط وثيقة ووجوه الكسب بها متوفرة يربح منها الغرباء كثيراً ويعيشون فيها عيشاً ناعماً راغدا ، والغرباء هناك يشتغلون بأحد أمرين فتح المتاجر لبيع السلع المختلفة ، والاتجار فى محصول البلاد الرئيسى وهو الفول

السوداني ، وفي نقله بالسيارات الكبيرة ، والفول السوداني الذي يسمونه أحيانا (الفستق) هو عماد ثروة الفلاح هناك يتأثر بتقلب أسعاره ، فاذا علا ثمنه انتعش الفلاح وإذا انخفض ابتأس وساءت حالته ، ومتوسط ثمن الطن المقشور اليوم زهاء ثلاثة جنيهات وقد ينزل عن ذلك وقد يرتفع إلى مافوق عشرة جنيهات ، ويزرعه الفلاح قبل موسم المطر في أواخر يونيو بعد أن يخطط الارض في مجاري متوازية ثم ينبش حفراً صغيرة برجله على طول الخطوط العالية من التربة ويرمي فيها بحبة واحدة ثم يتركه للمطر ويحين الحصاد أواخر سبتمبر وأوائل أكتوبر وعندئذ يبدأ موسم العمل والحركة التجارية الناشطة هناك وجل هذا الفول يصدر إلى الخارج وبخاصة لفرنسا لاستخراج الزيوت منه، وقسم كبير منه يمون الأهلين بعنصر غذائي هام إذ كثيراً مايعيش الفلاح عليه وحده .

قصدت إلى زيارة معاهد التعليم فبدأت بمدرسة الشريعة وهي ملحقة بالمدرسة الابتدائية Middle school وتلك يتعهدها ثلاثة شيوخ من أفاضل من تخرجوا في كلية غوردن قسم القضاء الشرعي ، وهم سودانيون وفدوا هناك ليعدوا الطلاب ليكونوا قضاة ومعلمين ، وأساس التعليم العلوم الدينية واللغة العربية وقليل من العلوم العصرية ، وقد تخرج من تلك المدرسة عدد يقوم بالتدريس في المدرسة الابتدائية وقد زرنا المدرسة الابتدائية بعد ذلك وهي أربع سنوات وبرامجها برامج المدارس الابتدائية عندنا إلا أن غالب المواد تدرس بالانجليزية ، لذلك كان الطلاب أقوياء فيها جداً ، وعدد الطلاب ١٥٥ زرت جميع فصولهم وكان التدريس بطريقة التلقين في مجموعه واللغة العربية تدرس في جميع الفرق على أن طلبة السنة الاولى لا يفهمون منها إلا قليلا ، أما طالب السنة الرابعة فيستطيع التحدث بها بدرجة لا بأس بها. وقد بدا لي أن الطلاب أذكياء لأنهم كانوا يتقدمون إلى بأسئلة في الجغرافية ويناقشون فيها بذكاء مفرط وجرأة عجيبة ، والتعليم مجاني للجميع ولا يشترط

فى الطالب سن خاصة ولا زى خاص ، فمنهم الصبى الصغير يجلس إلى جوار الشيخ وجلهم حفاة حتى الأساتذة وناظر المدرسة نفسه إذ كان يتقدمنا ونحن نتفقد المكان وهو حافى القدمين والطلبة جميعهم داخلية يبيتون فى بناء ملحق بالمدرسة أقيم من الطين فى دور عدة ينتحل كل واحد اسم ناحية من المدينة ، وكنت أخال الطلبة ينامون على فرش وأسرة ولشد ما كانت دهشتى عند ما ألفيت الفراش عبارة عن حصير فقط تفرش على الارض وينام عليها الطالب بدون وسائد ولا حشيات مطلقا ، يتناولون الطعام الوطنى أربع مرات فى اليوم وفى الفناء أقيمت الأحواض من الأسمنت وركبت عليها صنابير المياه (والأدشاش) للاستحمام فى الهواء الطلق وليغسل الطلبة ملابسهم بأيديهم ، وبيوت المدرسين ملحقة بهذا البناء كى يتسنى لهم رقابة الطلبة ، وقد ألحق بالمدرسة قسم جديد لتدريس مبادىء العلوم به بعض الأجهزة البسيطة وقسم آخر للأشغال اليدوية من النجارة والحدادة وهذه اختيارية يحضرها الطلاب بعد الظهر ، أما المدرسة فمقصورة على الصباح فقط ، وينفق على المدرسة الأمير من ماليته الخاصة ويتكلف الطالب فى المتوسط عشرة جنيهات فى كل عام ، وأجور المدرسين تبدأ من أربعة جنيهات فى الشهر ويشتغل الواحد ٢٨ حصة فى الأسبوع . وكان يرافقنا فى تلك الزيارة الوالى سليمان وكان يقول بأنهم يريدون أن يقتبسوا كثيراً من مصر والمصريين لولا ضعف مالية البلاد . قصدنا بعد ذلك إلى زيارة (ال D. O.) وهو District Officer نائب الحاكم وكان قد أذن لنا بزيارة المدارس إذ لا يمكن لأحد الغرباء أن يزور المعاهد إلا باذنه وقد قدمنا للحاكم (Resident) وهذا هو المتصرف المطلق فى مقاطعة كانو وجرنا الحديث إلى الحالة فى مصر والموازنة بين كانو وأم درمان وإلى موقف المصريين من فلسطين وهل يوافق المصريون على مشروع التقسيم الحديث فكان جوابى بالسلب طبعا وأفهمته أن المصريين يتألمون للقتلى من الفريقين ويرون ترك البلاد وطنا

للجميع كما كانت ، وقد تمنى لنا إقامة سعيدة وأذن لنا بزيارة كل الأماكن التى تهمنى فى مقاطعته فكان ذلك فضلا منه كبيراً إذ قلما يزور البلاد أمثالى على



مسجد كانو بنيجريا أقيم من اللبن كسائر المبانى هناك

أنهم يحسنون الثقة بالمصريين بفضل السلوك الجميل الذى يرونه فيهم وبخاصة الأخ محمد أبو السعود فكلهم يحبونه ويجلونه الإجلال كله ولا يرفضون له أمراً ، وفى اليوم التالى قصدنا إلى زيارة المدرسة الأولية وهى فى بناء من الطين بسيط يجلس الأطفال على الحصر وأمامهم منضدة مستطيلة . وعلى مقربة منها زرنا المدرسة التحضيرية للشريعة وهى فى مكان ضيق ويلحق بها مكتبة خاصة بها ثمانمائة مجلد من الكتب القديمة فى التاريخ والعلوم الدينية والطب القديم يقصدها القليل للاستعارة والقراءة . ثم كانت زيارتنا لمصالح الحكومة وقد أقيمت بالحجر على النظام الحديث ، والموظفون جميعاً من الوطنيين ويضمها جميعاً بناء واحد قسم للداخلية ويرأسه أخ الأمير (جالاديما) وآخر للحقانية ويرأسه الوالى (سليمان) وقسم للمالية ويرأسه ولى العهد (شروما) ورابع للخارجية . ثم رياسة الشرط للأمير فازوق ، وهؤلاء الرؤساء مع

الرزيدنت (Resident) ووكيله (D.O.) يؤلفون المجلس الأعلى الذى يجتمع برياسة الأمير مرة فى داره ومرة فى دار الرزيدنت (Resident) وفى بناء ملاصق المحكمة العليا ويرأسها شيخ القضاة يجلس على فراش وإلى يساره المفتى والكتبة وأمامه على الأرض الجمهور والمتخاصمون ثم المحكمة الجزئية ولها قاضيها . وكلهم يلبسون أردية متشابهة من الأقمشة البيضاء والعمائم المنتفخة ويسيرون حفاة والدفاتر الرسمية تكتب كلها (بالهوسة) فى الأحرف الافرنجية وفى بعض المصالح تكتب صورة أخرى بالعربية ليطلع عليها الأمير نفسه ، أما الانجليزية فلا تستعمل إلا فى المالية ، وميزانية الايراد تقارب ربع مليون جنيه جلها من ضريبة الدخل والقطعان وضريبة المياه وهى شلن لكل رجل ونصف لكل أنثى كل ستة شهور والمنصرف يقارب ذلك المبلغ وقد يزيد عليه والوالى وأبناء الأمير كانوا يكثرون من زيارتهم لنا فى منزل الأخ أبى السعود حتى لقد اجتمع ذات مرة خمسة منهم فى وقت واحد، وللأمير زهاء أربعين ولداً وقد أقام لهم فصلين للدراسة الخاصة فى منزله فصل للكبار وآخر للصغار يزودون ببعض العلوم التى لا يدركونها فى المدارس الأخرى وقد زرتهم وهم يتلقون الدرس ولم يفترقوا فى هندامهم وشكلهم عن باقى الأهلين وهم يسيرون حفاة أيضا ومنهم الابن المسمى (كبيرو) وهو الذى كان يرافق أباه فى الحج ،ويظهر أن الذى ميزه على سائر إخوته لونه فانه أخفهم سواداً وأحسنهم شكلا .

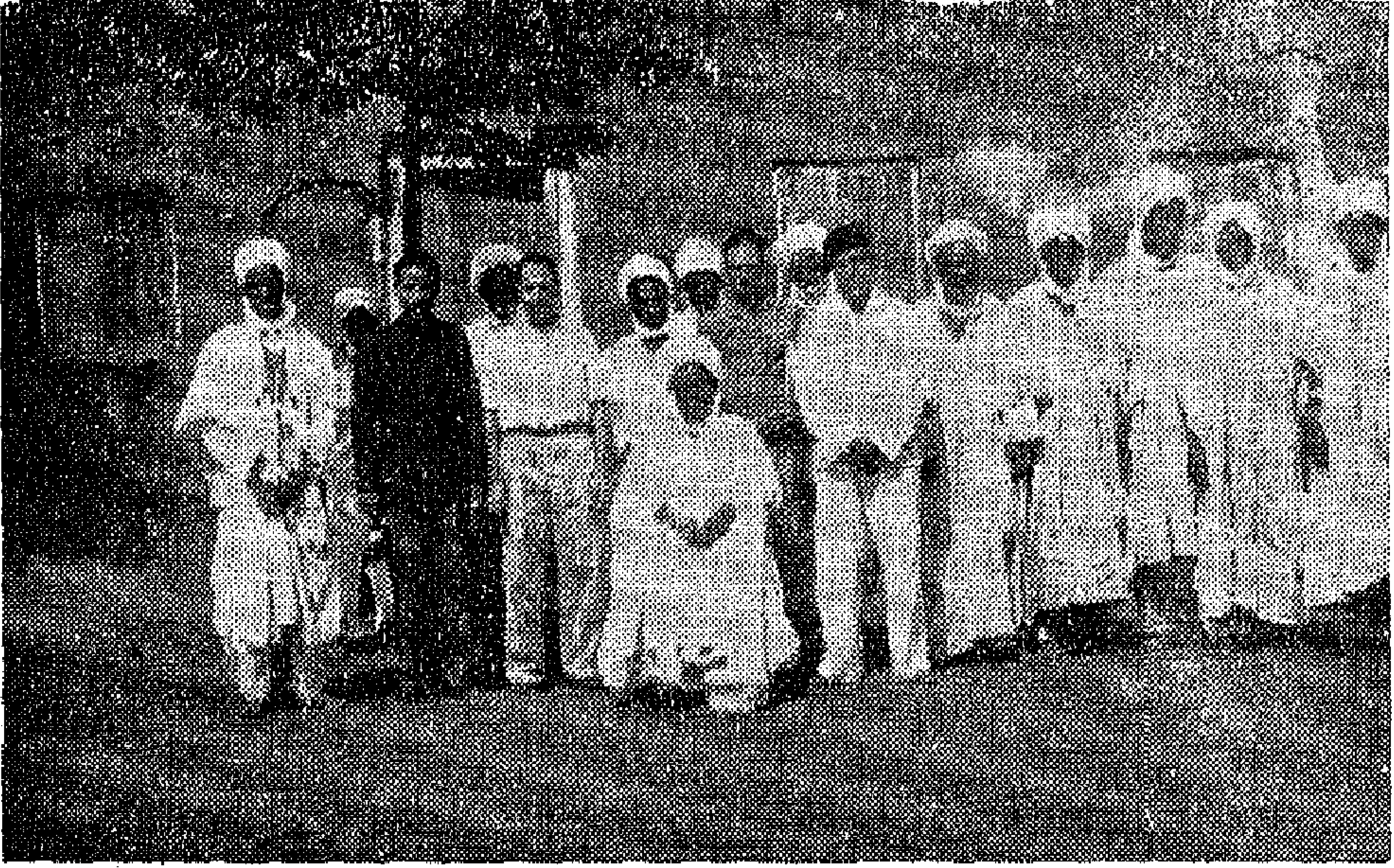
اعتزمنا أن نقوم بجولة فيما جاور كانو من السلطنات وهى كثيرة من بينها (كاتسينا) ، (وسكوتو) ، (وبرنيو) ولما أن علم سلطان كانو بذلك تبرع لنا بسيارة لورى تكون تحت تصرفنا وكذلك بكل ما نستهلك من البترول فى السيارة الخصوصية التى تبرع بها الأخ الكريم سالم افندى رغم أن ثمن صفيحة البنزين هناك يزيد على نصف الجنيه وقد استهلكنا منه الكثير وقمنا إلى كاتسينا ، وهناك استقبلنا ابن الأمير وهو رئيس الشرطة وأنزلنا أحد بيوتهم وهو بالطين خلو من كل أثاث غير أنه زودنا فيه ببعض المقاعد

والمناضد ولقد فاجأنا المطر تلك الليلة فى غزارة مخيفة كادت أن تهد المنزل علينا والمطر هناك يتلف كثيراً من البيوت ، وكم رأينا من جدران انهارت على من فيها إذ كلها تقام بالطين واللبن الذى لا تقاوم الماء مطلقاً وعجيب أنهم يتمسكون بتلك الطريقة فى الأبنية رغم وهنها ورغم كثرة الأمطار عندهم . وهناك قدمت لنا الهدايا من السكر والشاى والطعام الوطنى وهو الفورامن مدشوش الدخن عجن بالماء ثم وضع فى كرة وسط إناء كبير ومن حوله السمن والمرق وهو أحب الطعام اليهم جميعا الأغنياء والفقراء على أن مذاقه منفر جدا ورائحته منتنة كريهة والفقراء يأكلونه ليلا أما خلال النهار فحلول الذرة فى الماء واللبن وأحيانا مع السكر يشربونه صباحاً وظهراً وكأنه (البوظة) أو (السوبية) ويكتفون به . قمنا مبكرين للقاء السلطان ولزيارة المدارس فقال لنا ابنه بأن ذلك لا يكون إلا إذا مررنا على الحاكم الانجليزى (Resident) وحتى مقابلة السلطان تكون بعد استئذانه فكأن هؤلاء من تابعية يتصرف فى كل شىء عندهم حتى زياراتهم الخصوصيه وهم يحرصون على كسب رضى هذا الحاكم الانجليزى فلا يأتون شيئاً إلا بأذنه وكذلك حال باقى سلاطين تلك البلاد . زرنا الحاكم الانجليزى فى بيته فقابلنا بظرفه المعهود ورحب بنا وأوفد معنا رسولا إلى ابن السلطان وهو محافظ البلد لنزور معه كل شىء نريد . فقصدنا بيت السلطان وتشرفنا بلقائه مع رهط من حاشيته وقد جلسنا معه فى غرفة الاستقبال وهى أكثر تنسيقا وأوفر أثاثاًمن حجرة سلطان كانو وقد ألفت نظرنا إلى دولاب هناك ملىء بالكؤوس والأوانى الفضية التى ربحها ابنه حاكم البلدة فى الألعاب الرياضية خصوصاً (البولو ، سباق الخيل) وهو أقدر اللاعبين جميعاً سواء من الانجليز أو الوطنيين وهذا السلطان يعد من الأغنياء يشتغل بالتجارة ويربح منها كثيراً علاوة على ما يتقاضى من مرتب شهرى أما سلطان كانو فيتقاضى كل شهر ٧٥٠ جنيه وهو غنى أيضاً على أنه مقتصد فى الانفاق إلى حد كبير .

استأذنا من السلطان وودعناه بعد أن أخذنا صورته الشمسية معنا وقد أرسل معنا ابنه ليرافقنا فى زيارة المدارس فقصدنا إلى المدرسة الابتدائية وهى شبيهة تلك التى فى كانو على أنها تمتاز بوجود غرفة خاصة للجغرافية والتاريخ يقصدها التلاميذ فى تلك الدروس على أنها فقيرة بالأجهزة والأدوات كذلك راقنى هناك معمل العلوم الذى زود بكثير من الاجهزة ويباشر الطلبة بعض التجارب بأنفسهم ، ثم زرنا مدرسة البنات التى ترأسها انجليزية وبرامجها قريبةشبه بمدرسة الذكور، بعد ذلك زرنا المدرسة الصناعية وفيها قسم النجارة وقسم الحدادين وقسم اصلاح السيارات ويلحق بها مولد كهربائى وهو الذى يزود البلدة أثناء الليل فقط . بعد ذلك طفنا بأسواق البلدة التى حاكت أسواق كانو ، ومما راقنى بائع اللحم المشوى (الحاتى) يضع قطع اللحم فى أسياخ يغرزها رأسية فى الأرض فى شكل دائرة ثم يوقد ناراً فى وسطها على قارعة الطريق ، والناس يبتاعون اللحم منه ويأكلونه على الأرض إلى جواره . هذا إلى اللحم المجفف كريه الرائحة الذى يعدونه ممزوجاً بمدشوش الفول السودانى وبعض البهار ويجففونه على الشمس فيبدو فى شكل أغبر مصفر منفر ، ولشد ما كانت دهشتى لما رأيت بعض اخواننا المصريين يلتهمونه بشهية وكأنهم يلتهمون (البسطرمة) ويقولون انه شهى لذيذ .

قمنا نودع البلدة وأبناء السلطان من حولنا وسرنا طويلا نشق أرض الريف وجلها تعمها الغابات والأحراش البرية التى رأينا بها الضباع والقردة والخنازير البرية والطيور ويقولون بأنها غنية بالسباع والفهود ، ومن الطيور نوع كالنسر يسمونه (آكل الأفاعى) يدخل رجله مقبوضة الأصابع فى جحر الحية فاذا ما ابتلعتها فتح أصابعه وحمل الحية وعلا بها إلى السماء وهو يهزها ثم قذف بهـــا من علو شاهق لتموت ثم يأكلها ، ثم عرجنا على بلدة (جوساو) وهناك نزلنا فى الاستراحة الملكية المتواضعة وزارنا من البلدة كثير وإذا ما أقبل المساء نفخ الغفير فى القرن ليعطى الناس أمراً بعدم الخروج من

البيوت وأن يلزموا مساكنهم وذلك من الساعة العاشرة وهذا التنبيه يتكرر ثلاث مرات والذى يخرج بعدها يقبض عليه ويودع السجن إلى الصباح وذلك



أمير كاتسينا ورهط من وزرائه فى نيجريا

نظام متبع فى جميع تلك البلاد من قديم الزمان . واصلنا سيرنا وكلما وقفنا لنستريح يفد الناس إلينا ليرحبوا بنا ويقدموا الهدايا ، ولقد أدهشنى أحد القضاة الوطنيين لما أن قدم لصديقى أبو السعود خمسة شلنات أمامنا حسبتها أولا دينا عليه يرده له ولكنى علمت أنه قدم إكراما لنا ، إذ أن الضيافة تكون لديهم بوسائل كثيرة من بينها تقديم المال ولو فى شلن واحد أو اثنين وكان القوم يتحدثون هنا عن حادثة أعدم فيها حاكم بلدتهم فى الأسبوع الماضى لأنه قتل نفساً بغير ذنب فحكم عليه السلطان بالاعدام ولما استؤنف الحكم فى لاجوس أيده الحاكم الانجليزى ونفذ فيه الاعدام.

قمنا إلى (سكوتو) وعرجنا فى طريقنا على أحد إخواننا السوريين الذين يشتغلون بتعدين الذهب وهناك رأينا العمال يكسرون فى الصخر ويسحقونه ثم يخلطونه بالماء ويحركونه ثم يصفى الماء ويرسب التبر ، وعجبت لما رأيته

حبوباً غليظة وكنت أخاله من قبل مسحوقا ، وقد أقام للعمال أكواخهم إلى جوار بيته الفسيح الذى أقيم من القش أيضاً وكثير من السوريين وبعض المصريين يشتغلون بالتعدين وبعضهم يربح ربحاً حسناً منه والعادة أن يأخذ رخصة بالبحث فى نطاق معين ويترك العمال تحت رئيسهم يعملون والذى يحصلونه آخر يومهم من الذهب يزنه رب المنجم ويبتاعه بسعر قد يتراوح بين الجنيه والاثنين للأوقية ومجموع ما تكلفه الأوقية آخر الأمر ثلاثة جنيهات ونصف وثمنها اليوم نحو سبعة جنيهات وبذلك تدر تلك المناجم على البعض آلاف الجنيهات فى فترة وجيزة وقد يعمل فى المنجم الواحد ستمائة عامل أو يزيد ، وممن يشتغلون بالذهب الأخ عبد الله سيالة وهو من شباب طرابلس المتمصرين وقد كان لنا وفياً مخلصاً كريما . استقبلنا الأخ الياس صاحب المنجم وقدم لنا ذبحاً من معزى ولبثنا عنده إلى ما بعد الغداء ثم استأنفنا سيرنا . ومما استرعى نظرى فى الطريق تلال النمل تقوم فى شكل مخروطى غير منتظم وتقيمها تلك الآفة الخطيرة التى تفسد هناك كل شىء وهى على أنواع نوع كالنمل الفارسى وآخر كالحفار (كرامى الحلة) وثالث وهو أصغرها كالدود الأبيض الصغير يأكل الخشب والأقمشة ويسمونه (القرضة) ، حدث أن علق صديقى عبد الله سترته (الجاكتة) فى مسمار على الحائط وفى الصباح ألفينا جانب الجاكتة من أعلاها إلى أسفلها قد قرض تماماً وتخرق بحيث أصبحت لا تصلح للبس بعد ذلك وقد بحثنا فوجدنا دودة واحدة من هذا النوع الخبيث أتت كل ذلك فى ليلة واحدة . وهم يتقون شرها بدهان الأشياء بالقطران ويقيمون فى البيوت مخازن من القش فوق قوائم تطلى بالقطران لحفظ الحبوب فيها .

أخيراً وصلنا سكوتو وأخذنا نجوب شوارعها المستحدثة التى تمتد أميالا وسط المزارع وتنتشر المبانى لكبار الموظفين وتفصل ما بينها حقول ممتدة وفى جانب من هذا القسم المتاجر (Canteens) وهى للانجليز والسوريين

بصفة خاصة فبدأنا بزيارة الحاكم الانجليزى (Resident) فى بيته وكان معنا خطاب توصية له من حاكم كانو فرحب بنا ووعدنا بعمل برنامج لزيارتنا يرسله الينا فى الاستراحة التى نزلنا بها فودعناه شاكرين، والاستراحات هناك متعددة تقيمها الحكومة لايواء الغرباء إذ ليس بالبلاد فنادق وهى عبارة عن بناء مستدير فسيح سقف بالقش الكثيف المخروطى وأعد وسطه للنوم ومن حوله (فراندة) دائرية وإلى جوار ذلك البناء أكواخ صغيرة للمطبخ والحمام والمخزن والخدم. وعلى الزائر أن يحضر معه فراشه وكل لوازمه ومقابل نزوله فى تلك الاستراحة يدفع الواحد شلنين عن الليلتين الأوليين ثم ترفع نسبة الأجر تدريجياً وذلك لكيلا يشغل الاستراحة زمناً طويلا. وسرعان ما زارنا بعض تجار البلدة وكبرائها وزودونا ببعض الأثاث والهدايا، ثم جاء نائب الحاكم الانجليزى يعرض علينا برنامج الزيارة فقال بأن رسول الامير سيأتى ليقودنا. جاء الرسول فى سيارة ملكية وقال بأن الأمير فى انتظارنا فسرنا إلى القصر بعد أن اجتزنا بقايا سور البلدة القديم الذى أوشكت أن تمحى معالمه ومررنا بالكثير من طرقها وهى قريبة شبه بكانو وكاتسينا فى نظام بيوتها ومتاجرها وأهلها.

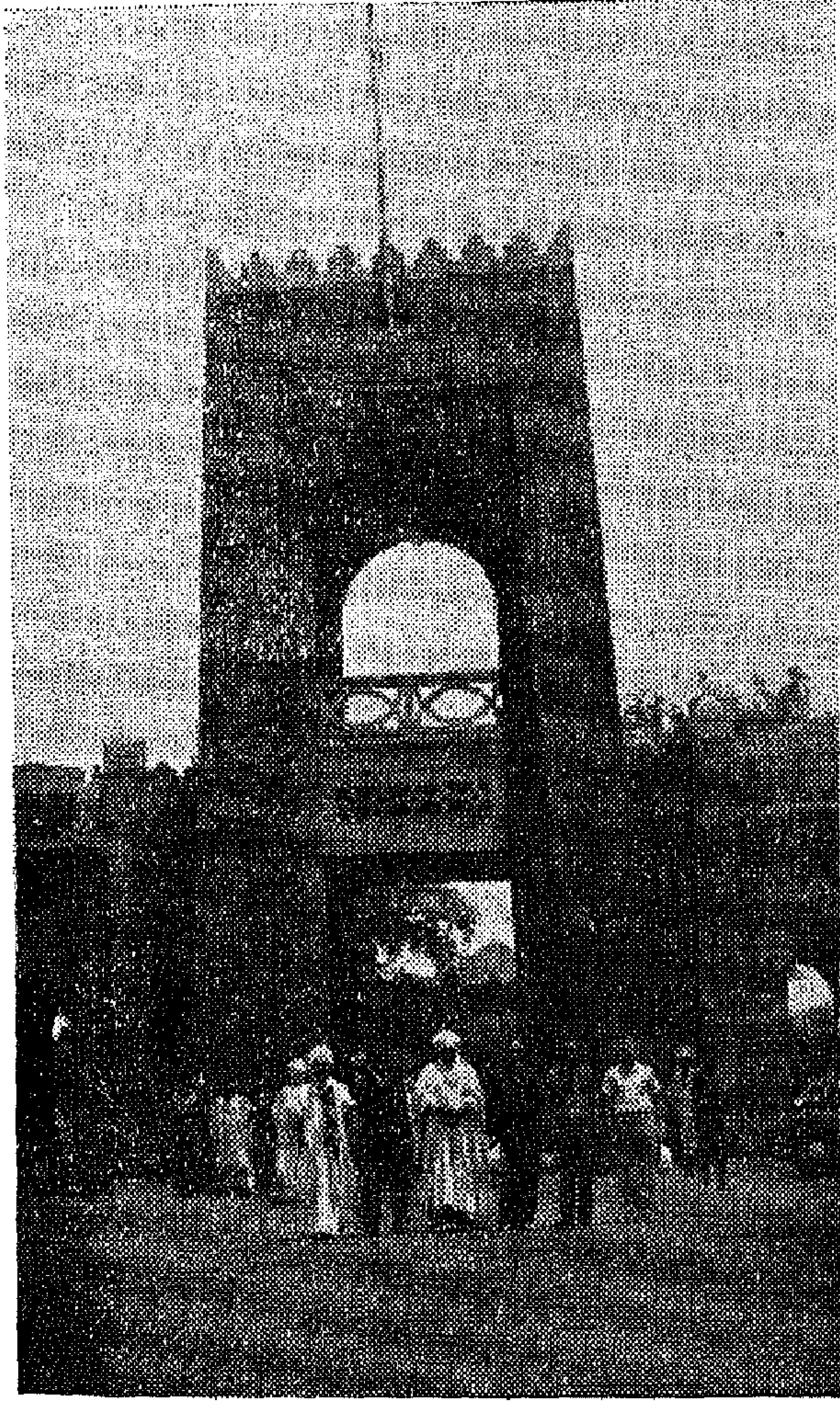
وأخيرا أقبلنا على بوابة حمراء أقيمت بالحجر فى علو شاهق يرفرف عليها علم أبيض كتب عليه (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ووقف البوليس أمامه وعندما قاربنا الباب ألفينا وزير الأمير فى انتظارنا فحيانا وتقدمنا إلى داخل القصر وهنا صاح نفير البوليس فوقف الجمع يؤدون السلام وماأن اجتزنا البهو إلى ماوراء تلك البوابة حتى رأينا الأمير نفسه يسير إلينا فى حاشية كبيرة ليرحب بنا وهذا شرف عظيم لا يناله إلا من له مكانة عنده. هنا صافحنا وهو يفوه بكلمات الترحيب التى لم أفهمها اللهم إلا كلمة (ألا فيا) بمعنى العافية وهم يقولونها جميعاً عند اللقاء ثم تقدم الينا وزراؤه يحيونا بعده وبينهم وزير المالية بعمامته الطويلة وقامته الشامخة وقاضى القضاة بعمامته القصيرة وعيونه الناعسة وقد

مددت لهم يدى ولشد ما كان خجلي ودهشتى عندما تنحوا عن مد أيديهم واكتفوا بالاشارة واللفظ وذلك من علامات الاحترام للأمير ولنا إذ لا يجوز أن يسلموا باليد على من صافح الأمير لأنهم دونه مقاما ، دخلنا بهو الاستقبال فجلس هو فى الوسط وأجلسنى فى أفخر مكان إلى جواره وجلس إخوانى أمامه أما الوزراء ورجال حاشيته فجلسوا قعوداً على الأرض وكانت مفروشة بالبسط وتتدلى من السقف مروحة من المشمع الأبيض يحركها الغلام بالحبل من الخارج . وقد أخذنا نتجاذب أطراف الحديث . وكان كل كلامه هو ووزراؤه بلغتهم (الهوسة) وإن عرف أغلبهم الانجليزية والعربية على أنهم كانوا يخشون التحدث بأيتهما مخافة الخطأ فى القول لذلك أمر الأمير مترجمه أن يجلس إلى جوارى ويحادثنى بالعربية ، وقد أبديت له دهشتى من الاسلام وانتشاره فى تلك البلاد بهذه الكثيرة فقال بأن الاسلام تسرب اليهم عن طريق تجار العرب من المغرب قديماً ، حتى جاء جده (المجدد عثمان الفوتى) منذ نيف ومائة سنة وأعلن الجهاد وغزا تلك البلاد الوثنية وخير أهلها بين الاسلام والجزية ففضل غالبهم الاسلام لذلك قدس الناس هناك هذا البطل وهم يزورون قبره تبركا ويقدمون الصدقات على روحه وقد زرنا برفقة الوزير ضريحه فى مكان متواضع وهو يدفن تحت مسطبة كبيرة جدا حولها مطاف من الرمل . ولقد احتفظ له ولذريته بلقب (أمير المسلمين) وبذلك امتاز أمير سكوتو هذا على سائر الأمراء جميعاً فى نيجريا الاسلامية الشمالية وقد كانت موافقته على تولية هؤلاء الأمراء واجبة من قبل غير أن هذا الحق قد سحب منه اليوم وأبقى له حق تزعم الأمراء جميعاً إذ يقدمه الحاكم الانجليزى عليهم فى الاجتماعات الرسمية التى تعقد بين آن وآخر فى (كادونا) عاصمة وسط نيجريا ويليه من الأمراء فى المقام أمير (برنو) الذى ينتسب إلى أصل عربى وله هو وشعبه لغتهم الخاصة وهذا يرى نفسه فوق أمير كانو مقاماً ولذلك لم يمد له يده للمصافحة فى اجتماع مشهور ولم يذق من مياه كانو ولا طعامها

شيئاً بل استحضر حاجته كلها من بلاده وأمير سكوتو هذا شاب فى سن الحادية والثلاثين يدعى أبا بكر بن حسن وقد ولى الامارة منذ ثلاثة شهور فقط بعد وفاة أبيه وقد أستأذناه فى أخذ صورته مع رجاله فسمح بذلك فى تواضع حمدناه له ، ثم ودعنا إلى الباب ولازمنا وزيره إلى مابعد مدخل القصر على أن يوافينا صباحاً لنزور دور العلم ومصالح الحكومة ، وفى الصباح وافيناه فى وزارة المـــالية فطاف بنا المكاتب المختلفة ولعل أجملها حجرة الخزينة حيث شاهدنا الموظفين قد افترشوا الأرض وهم يعدون النقود ويضعونها فى أكياس كبيرة من القماش سعة كل منها مائة جنيه وهم لايحبون الورق المالى بل يفضلون عليه القطع المعدنية وقد بلغ من كثرتها أن زود بعض العمال بآلة تعد النقود من تلقاء نفسها . ثم قصدنا معه إلى مدرسة البنات وبها ٥٤ بنتاً فى أربعة فصول يلبسن أردية زرقاء موحدة تصرفها لهن المدرسة ويجلسن على مقاعد وطيئة (مثل كراسى المطبخ) وأمامهن المناضد القصيرة وطالبات السنة النهائية يقمن بطهى الطعام للغذاء وهو من الأطعمة القومية البسيطة . ولهن غرفة فسيحة للاستحمام . وقد رأينا كل بنت تحمل فوطتها الخاصة بها وتقصد إلا هذا الحمام وتخلع ثيابها مع زميلاتها وتستحم مرة كل يوم تحت إشراف المدرسات الوطنيات وهن يغسلن ملابسهن وفوطهن فى مغاسل أقيمت لهن فى الهواء الطلق . والناظرة انجليزية والاقبال على المدرســـة ضعيف والجميع يسرن حفاة . ثم ذهبنا إلى مدرسة البنين الابتدائية Middle School فى بنائها الحجرى العظيم الفخم وطاف بنا ناظرها الوطنى الفرق المختلفة وعدد طلبتها ١٥٥ وهى فى نظامها وبرامجها شبيهة بتلك التى فى كانو وكاتسينا غير أنها مزودة بمجموعة وافية من المصورات والأجهزة والطلبة يلبسون زياً واحداً هو سروال قصير وقميص طويل أبيض ، وعلى الرأس قلانس بيضاء إلا رؤساء الأسر (Prefects) فيلبسون الطرابيش وأزرارها تتدلى على جباههم وكلهم حفاة .

بعد ذلك زرنا المدرسة الصناعية وهى شبيهة بمدرسة كاتسنيا إلا أنها أكبر امتداداً وأوفر استعداداً ، ومررنا على المستشفى ورؤساؤها من الانجليز يعالجون المرضى مجاناً وأكثر الأمراض انتشاراً الحمى الشوكية التى مات بها العام الماضى ثلاثون ألفاً ثم مرض الزهرى الذى ينتشر فى تلك البلاد انتشاراً ذريعاً ثم البلهارسيا وقليل من السل الذى انتقل إليهم بواسطة البقر الوافد من السودان الفرنسى ، ومن أكبر العقبات فى سبيل الأطباء مياه الآبار التى يستقى منها الناس جميعاً معظمها ملوث وقد شرعت الحكومة فى دق مضخات هائلة عمقها عشرون متراً ولا يزال العمل مستمراً ، وسيجبر جميع الناس على إدخال أنابيب المياه فى بيوتهم واجتناب مياه الآبار . انتهينا من تلك الزيارات ثم عدنا مع الوزير إلى الأمير نشكره على حسن رعايته وكبير تفضله فقابلنا بحفاوته التى ألفناها ثم ودعناه بعد أن تمنى لنا رحلة موفقة سعيدة ورجانى أن أبعث إليه بما أكتب عن بلاده . ثم ودعنا رجال الحاشية إلى الباب الخارجى ومعهم الوزير وهو رجل مسن حنكته التجارب ونال بين قومه تقديراً واحتراماً ، وقد قصر لقب الوزير عليه دون سائر الامارات التى ألغى فيها هذا اللقب واستبدل به لقب (الوالى) ، سرنا إلى سوق البلدة وهى شبيهة بأسواق كانو وكاتسينا . وقد استقبلنا (سلطان السوق) وطاف بنا ، ومن المعروضات التى راقتنا القرع الكبير (gourd) الذى يتخذ القوم منه الجرار وأوانى الأكل ، وقد أدهشنا البائع بمهارته وهو ينقر القطع فى أشكال هندسية جميلة تدل على حسن ذوقه الفنى . كذلك الكولا التى ينكب على مضغها الجميع ، الكبار والصغار ، وجلها يرد من سيراليون ويزعمون أنها تفيد المعدة وتنبه الأعصاب وتزيل التعب لكنها تكسب الأسنان والفم لوناً أحمر قبيحاً ويظهر أنها ضارة بالأسنان لأنك قلما ترى رجلا أو سيدة نقى الأسنان سليمها مع أن سائر السود فى جهات إفريقية الأخرى معروفون بجمال أسنانهم . ثم قطع من كرات سوداء لزجة رائحتها

منتنة يبتاعونها بكثرة لتحل محل البهار عندنا فى طعامهم لذلك لم أعجب من رائحة أطعمتهم الكريهة التى تمجها النفس . كذلك كنا نرى هناك كثيراً من



بوابة قصر الأمير فى سكوتو بنيجريا

(الحواة) بعضهم يلعب بالأفاعى والعقارب والبعض بالأسلحة والسكاكين وقطع الأخشاب يضعها فى فمه أو أنفه . أما المتسولون والمشعوذون فحدث عن كثرتهم فى تلك البلاد يصيح الواحد منهم بصوته الجهورى قائلا (الذى واهدو) بمعنى الله الذى هو واحد . عرجنا على الحاكم الانجليزى نشكره ثم عدنا إلى الاستراحة نستعجل الخدم فى الرحيل وكانوا زهاء عشرة من بينهم خادم أمير كانو الخاص ويبدو وجيها وكأنه أحد الأمراء ويجيد الكلام

بالعربية الفصحى وهو الذى يتقدم الأمير أينما سار فى منزله ، وهو يقول له بصوت مرتفع (تا كاواسانو) أى اخط على مهل ، والآخرون من حوله يقولون (رانكايددى) أى أطال الله عمرك ويتكرر ذلك مئات المرات وكان بين ركبنا هذا سائق سيارة الأمير وطاهى طعامه كل ذلك إكراما لنا . وكان بين الخدم زنجى وسيم الطلعة أفطس الأنف معوج الساقين اسمه موسى اشتهر عند سيده بالأمانة — رغم أنها قليلة فى تلك البلاد — وقد كان وثنياً وهداه إلى الاسلام سيده عبد الله وحفظ بعض آى القرآن الكريم وعلمه الصلاة والصوم ، وقد كان آية فى النشاط وخفة الحركة رغم سيقانه الملتوية وذلك يكاد يكون فى الناس جميعاً فلا تكاد تجد واحداً ممتلىء السوق أو معتدلها ولعل ذلك راجع إلى طرق حمل الأمهات لأطفالهن وراء ظهورهن إذ يلف الطفل ورجلاه مفتوحتان يطوق بهما ظهر أمه وبذلك تميل العظام إلى الخارج ويتعطل نموها بسبب ضغط اللفافة عليها فتظل الساق دقيقة معوجة . حمل المتاع على اللورى وتأهبنا للرحيل والخدم يمرحون وإذا بأحدهم يستحلف أخاه على شىء فحلف له بالله ما فعل ذلك فقال له الآخر قل (والرادو) مافعلته وبسؤالى علمت أن أغلظ الأيمان عندهم (الرعد) فاذا حلف به أحدهم لا يحنث قط وقد يحلف بالله باطلا . والحق أن البرق والرعد والصواعق عندهم مزعجة مخيفة يخيل للانسان عند سماعها أن السماء قد انطبقت على الارض من شدتها فكم من مرة أمطرتنا سيولا لا نظير لها وهشمت الصواعق من الأبنية والأشجار وأحدثت فرقعة دونها دوى المدافع .

قمنا عائدين إلى كانو وكم مررنا بمزارع للقطن ومحالجه الكبيرة وبخاصة فى سكوتو وكاتسينا ، غير أن محصوله قليل ونوعه ردىء . كذلك كثر رعاة البقر من قبائل (الفلانى) المتنقلين وألوانهم . وليس من بينهم السود أمثال الهوسة مثلا ، وجل أبقارهم ذوات لون أبيض وقرون هائله . وعجبت لما علمت أن ثمن الثور الجيد جنيهان وثمن البقرة الحلوب أربعة جنيهات ،

والحصان الجواد ثمانية ، وكانت أنهار الطريق ونهيراته لا تدخل تحت حصر تجرى فيها المياه دافقة سريعة عقب المطر صوب نهر النيجر العظيم ، وبعد أيام قليلة يغيض ماؤها ويكاد يجف ، وفى موسم الجفاف تجف تماماً ، وهى التى أفادت مناجم الذهب لان هذا المعدن يكثر فى عروق الكورتز إلى جوار الانهار ، وجل الربى والصخور هناك من الجرانيت والشيست وفيها يكثر الكورتز والذهب ، وكانت الغابات تزيد كثافة خصوصا فى الجهات التى أوقفتها الحكومة حرما للنبات والحيوان (Forest & game reserve) وفى كثير من الأراضى يكثر العشب ويتفرق الشجر ، وقرب القرى والمدن يقطع القوم الشجر ويزرعون الحقول وبخاصة الفول السودانى والذرة بانواعها : الشامى والعويجة والدخن وسيقانه تشبه سيقان الذرة الاخرى لكن ثمره فى حب أسمر صغير يرص على طول اسطوانة رقيقة قد تزيد على الذراع طولا ، كنا نرى الفلاحين يقطعونها ويربطونها حزما ويحملونها إلى ديارهم لتخزن وكلما احتاجوا منها طعاماً دقوها فانسلخت عن تلك الاعواد ثم سحقوها واعدوا منها طعامهم ، وجل الفلاحين يسيرون شبه عرايا إلا فى خرقة بالية تستر العورة الأمامية وتنتهى بشريط رفيع يستر الدبر ويعلقون كثيراً من الاحجبة فى الرقاب والايدى والارجل وحتى غطاء العورة الامامية ، وكم كان يهولنا منظر بطونهم وبخاصة الاطفال فهى منتفخة إلى حد يكاد يطغى على القامة كلها ، والفتيات من العذارى يسرن نصف عرايا بأثدائهن الصغيرة الكاعبة ويميل النساء جميعا هناك إلى المداعبة وعندئذ يبدين من دلالهن الشىء الكثير وبخاصة فى مواقف الرقص وهو كثير لديهم . ولقد استوقفنا منظر فى احدى القرى كانت تدق الطبول المستطيلة ، وتقوم الفتيات برقصات فى دوائر وصفوف وجل عنايتهن توجه لحركات الارجل والضرب بها على الارض فى مهارة عجيبة . وقد يمسك الشاب بثدى الفتاة وهى ترقص ولا يعد ذلك عيبا أو منكراً ، ومن غريب ما علمته أن الختان فى تلك البلاد مفروض على

الذكور دون الاناث . أخذت السيارات تقطع بنا تلك المسافات الشاسعة ولا يكاد يغيب عن العين منظر النساء يسرن وعلى رؤوسهن جرار الفخار أو أوانى القرع. والأطفال يعلقن وراء ظهورهن ، وقد تمسك الواحدة بأحد توءميها فى اليدين . وقفنا نصلى الجمعة فى أحد المساجد الصغيرة وكانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة فقيل لنا بأن الظهر بعد ساعتين ، وعلمنا أخيراً أنهم يصلون الظهر عند ما تقارب الساعة الثانية بعد الظهر، أما العشاء فيظل الرجل يؤذن بها إلى منتصف الليل. وكان الناس طوال الطريق يحيوننا برفع الأيدى مقبوضة أو بالركوع على الأرض أو بكلمة (سانو) ولقد حرت فى معانى تلك الكلمة فهى تقال عند التحية وفى ردها وعند التمنيات الطيبة وفى العزاء وفى الفرح وعند حلول بيت جديد أو شراء شىء ، ويجب علينا أن نردها مزدوجة فنقول (سانو سانو) . كذلك من أكثر الكلمات ذيوعا (تو) بمعنى حاضر أو موافق أو حالا ، وكلمة (هاكا) بمعنى كذلك وهى عربية فى الأصل ، وكلمة (ياوّا) بمعنى نعم ، ولغة الهوسة هذه سهلة المأخذ موسيقية المقاطع يستعذب الانسان سماعها على عكس لغة اليروبا من أهل الجنوب التى تصعب حتى على أهلها ، وبها كثير من الكلمات العربية المحرفة أذكر منها يامو تواى مات ، — الولاّ أى الوضوء — جرماه أى جرم ضخم فى المقام ، ومالم أى المعلم — الكلم أى القلم — كَلِمة أى كلام واحد — رْوا — أى ماء — الجيهو — أى الجيب — لُتاف أى الكتاب — الماجرى — أى المهاجر — سدكا (صدقة) — كبز (خبز) — كافهتنا (انت فهمت)

ولقد عرجنا على قرية ولى العهد (شوروما) وهو الحاكم عليها فدخلنا قصره الذى يحكى قصر والده غير أنه زود بالكثير من الأثاث الغربى الحديث وهناك قدم الناس لنا الشاى بكامل معداته على أحدث نظام ، وطاف بنا حجرات المنزل كلها وتؤدى إليها سراديب متعرجة عديدة يضل الانسان طريقه فيها وكلها بنيت بالطين كعادتهم فى كل أبنيتهم وكان يلبس الثياب

الفضفاضة المثقلة بالتطريز من الحرير والقصب وعلى رأسه العمامة البيضاء المشرفة وإلى ورائهاذؤابتان هماشعار ولاية العهد وكان يحرص على إظهارهما



واجهة القصر الملكى فى كاتسينا

دائما ، وكم دخل عليه رجال يركعون ويتمتمون بعبارات التحية والدعوات وحتى شقيقه لاقاه راكعا على الأرض وتلك من آدابهم

عدنا إلى كانو وفى منتصف الطريق فاجأتنا عاصفة عاتية أمطرتنا وابلا مدراراً وظلت كذلك حتى الصباح ، وكم أسقطت من بيوت واقتلعت من أشجار ، قطعت أسلاك الكهرباء ، وفى الصباح خرجنا لزيارة مدرسة الصحة (Hygene) وهناك لاقينا عدداً قليلا من الطلاب يتلقون محاضرات فى أمراض المنطقة الحارة وكيفية مكافحتها ، وهم يمكثون سنة ثم يعينون فى الأعمال الصحية فى القرى ويقوم عليها شاب انجليزى وآخر وطنى ، وبعدها قصدنا ديوان المساحة ورئيسه انجليزى وباقى الموظفين والرسامين من الوطنيين ، وقد أنتجوا مجموعة من خرائط محلية تكاد تشابه فى اتقانها تلك التى تخرجها مصلحة المساحة المصرية . وهم يتخذون خرائطنا ومصطلحاتنا

نماذج لهم ثم اصلاحية الأحداث ومدرسة البنات والمستشفى والمدرسة الصناعية وكلها شبيهة بما رأيناه فى كاتسينا وسكوتو ، وفى المساء حضرنا السينما ويقوم بها بعض شبان لبنان ليلتين للبيض وثلاثا للسود ، وما كدنا ننتهى منها حتى فاجانا مطر غزير ظل طوال الليل فى شدة مخيفة أقلقت نومنا وما كدنا نستغرق فى النوم حتى سقط حائط الجار الذى يفصل بيننا وبينه شارع ضيق فأحدث رجة عنيفة ثم أثار وحل الطريق فنفذ إلى نوافذنا رغم أنها كانت مغلقة وأغرق نصف حجراتنا وكثيراً من متاعنا وسقط رشاش الماء على أسرتنا فقمنا فزعين فى ظلام الليل وخلنا البيت قد انهار فوقنا ، وفى الصباح طفنا ببعض أرجاء البلدة وزرنا برفقة المحافظ والوالى مشروع الكهرباء والمياه وهو هائل أعد بمضخات تسحب الماء من خمس آبار وسط النهر ترشح مياهها وتنقى بالمواد الكيماوية ويشرف عليها انجليزى ووطنى . وتناولنا الطعام عند منزل الأخ الكريم بطرس شدياق ، وفى الساعة الثالثة تناولنا القهوة عند الأخ جان نجيم ، وفى الساعة الخامسة حضرنا حفلة الشاى التى أقامها لنا مشايخ الشريعة وحضرها الكثير مرحبين بنا آسفين لوداعنا ، وفى تمام الساعة الثامنة أعد لنا مكان فى ديوان الحكومة ودعى كثير من المتعلمين من المدارس والموظفين ، وحضر الأمير بنفسه وكل أبنائه وحاشيته ثم الحاكم الانجليزى ومساعده وكثير من رجاله وذلك ليستمعوا لمحاضرة طلب إلى إلقاؤها عن بعض البلاد التى رأيتها وعجائبها وأثر التعليم فيها ، ولقد جلس علية القوم فى (الفراندة) والناس أمامها على الأرض فى الفناء المكشوف وكان عددهم هائلا .

ولقد بدأت محاضرتى بكلمة شكر للأمير والحاكم لما لقيته على يديهم من حفاوة وشدت بما رأيته فى بلادهم وخاصة الرغبة الملحة فى رفع مستوى التعليم هناك ثم حدثتهم عن بعض بلاد العالم كاليابان فى نيويورك ، واستراليا ، وهونولولو ، وايسلنده ، وما فيها من عادات وروائع ، وعن

مستوى التعليم وأسباب نهوضه عندهم ، وكنت ألقى المحاضرة بالعربية الفصحى لان من يفهمها منهم أكثر ممن يفهم الانجليزية وكان الاخ حسن لطفى المصرى يترجم ما أقول بالهوسة لغة البلاد وما أن انتهيت من المحاضرة حتى قاموا يصيحون صيحات استحسان وأقبل الامير والحاكم الانجليزى وسائر كبار القوم يصافحوننى شاكرين معجبين . ثم دعانى الحاكم أن أتناول القهوة فى بيته مع الاميروحاشيته وبعض الانجليز فسرنا نشق طريقنا بين جماهير الناس وهم يحيوننا بمختلف الوسائل وبخاصة الركوع على الارض وبعضهم كتب المحاضرة بالعربية كلها ، انتهينا من بيت الحاكم فى الساعة الحادية عشرة مساء وهنا قام الأمير وسرنا خلفه ثم ودعنا الحاكم ورجاله وتمنوا لنا رحلة سعيدة وأكثروا من عبارات الاعجاب بالمحاضرة وبالروح التهذيبية التى سادتها وقالوا بأنهم يرجون أن يسمعوا هم وقومهم من أمثالها الكثير ثم أثنوا على رغبتى فى التجوال هكذا ورغبوا فى أن أزورهم ثانية ، أقلتنا السيارات إلى قصر الأمير لأنه قد أعد لنا شايا ، فدخلنا القصر من الباب الخلفى ، ومررنا ببيوت الحاشية وهم ركع سجود أمامنا يتمتمون بعبارات الدعاء ، واجتزنا عدة سراديب ثم صعدنا إلى الطابق الأعلى وهناك جلسنا إلى موائد الشاى وقدخصنا الأميربكثير من عنايته وعطفه وقد جلست حاشيته ووزراؤه وأنجاله على الأرض فى حجرة مجاورة إذ لا يجوز لهم أن يجلسوا على الكراسى أمامه ولا أن يتناولوا الطعام معه فى حضرة الغرباء ، وبعد منتصف الليل بنصف ساعة ودعنا وتمنى لنا عوداً سالما وحملنا تحياته واخلاصه لمصر التى يحبها ويذكرها وأهلها بالخير كله .

أعددت حقيبتى لأنى ساقوم مبكراً فى منتصف الساعة السابعة صباحا إلى أرض الطيران لأسافر طائرا إلى الفاشر وقد دفعت أجر تلك المسافة أربعة وعشرين جنيها بعد أن وزن الرجل المتاع وصاحبه ، فكانت الحقيبة

عشرين كيلو جراماً وهو الحد الأقصى للمتاع المباح للمسافر مجانا ومازاد يدفع عنه شلنان ونصف عن كل كيلو وقد وزنت أنا أيضا فكنت ٦٤ كج وذلك لكي يعرف الرجل حمولة الطيارة بالضبط وقد كانت القاعدة إلى مدة قريبة ، أن يوزن المسافر ومتاعه معا ، فان بلغا مائة كيلو أعطيت التذكرة ومازاد لابد أن يدفع عنه الآجر الاضافى المذكور . وفى الصباح المبكر سرنا على بركة الله وسط رهط من السيارات يتقدمنا (شروما) ولى العهد وابن الأمير ثم (جالاديما) أخ الأمير ومحافظ البلدة ثم الوالى سليمان وأساتذة الشريعة الأفاضل وأبو السعود الهمام ورفاقه الكرام (أحمد وحسن وسالم وصادق) ثم كثير من إخواننا السوريين واللبنانيين ، رافقني هذا الجمع إلى المطار رغم الساعة المبكرة ووعورة الطريق وكثرة مياهها وأوحالها ، وفى المطار مررت على الطبيب ، وفى تمام السابعة تحركت الطيارة باسم الله مجراها ومرساها ، وصعدت بنا والأرض تهوى من تحتنا وتتضاءل المزارع والقرى والنهيرات وهى تتقدم فى ثبات عجيب رغم صغرها إذ أعدت لخمسة من المسافرين فقط ثم مقعد سادس لمساعد القائد (البيلوت) وكانت الأرض تبدو وكأنها خريطة قسمت بخطوط متقاطعة وأكواخ الناس وكأنها خلايا النحل . وما كدنا نسير بعيداً حتى بدت طلائع السحاب الأبيض وكأنها الدخان ، وأخذت تزيد كثافة حتى ألفينا السماء من تحتنا وكأنها بحر طفا عليه الزبد الكثيف أو القطن المندوف ، وكانت محركات الطيارة تحدث بها رعشة متواصلة ودوياً عالياً وما كان أقساها على نفوسنا كلما فاجأنا السائق بهبوط مباغت أو ميل بها إلى أحد جانبيها ، هنا كنا نحس وكأن قلوبنا قد هوت إلى أقدامنا . وكنا كلما ذكرنا موقفنا ونحن معلقون بين السماء والأرض على هذا العلو الشاهق يتوالى علينا الفزع ويعمنا الهلع والخوف لكن سرعان ما كان يغلب علينا الايمان الوثيق فى الله عز وجل فنتشجع وتطمئن بذكر الله نفوسنا . أما المناظر من تحتنا فكانت رائعة حقاً لكن سرعان ما كانت

تملها النفس لأنها تظل موحدة لا تستبين فوارقها بسبب تضاؤل الأشياء أمام هذا العلو الكبير ، لذلك فانى لأوثر عليها مناظر الطريق البرى مهما أحاطه



أمير المسلمين ورجال حاشيته فى سكوتو

من عقبات ، وكانت زنه طيارتنا هذه ٦٩٩٨ رطلا وهى فارغة و ١٠٢٥٠ رطلا فى أقصى حمولتها . فى ساعتين وربع وصلنا مايدوجرى ومكثنا بهـــا عشرين دقيقة مررنا خلالها على الطبيب ثم قدم الخادم لنا الشربات والسجاير وفى تمام التاسعة والخامسة والثلاثين قمنا صوب (فورت لامى) الفرنسية فبدت بلدة مايدوجرى من تحتنا بأكواخها المخروطية (وهى عاصمة قبائل البرنو الذين ينتمون فى كثير منهم إلى العرب) يجاورها نهر فاض بالماء وتلوى ليات متعاقبة وكأنه الأفعى الكبيرة وكلما تقدمنا زادت مسايل الماء التى فاضت على جوانبها وأفسحت المجال للمنـاقع الهائلة ، وقد كان السحاب كثيراً وكلما اعترض السائق حاول أن يجتنبه بالصعود أو الهبوط المفاجىء المباغت الذى كان يهز منا القلوب ويفزعها وقد ندر الشجر من تحتنا وبدت الأرض بساطاً أخضر تتخلله بقع من المياه الجيرية البيضاء ، وبعد تمام ساعة وخمس دقائق

نزلنا فورت لامى الفرنسية فألفيناها على حافة نهر (شارى) الهائل الملتوى الذى فاض فأغرق كثيراً من الأراضى فى مساحات شاسعة ، ولكثرة مستنقعات هذه المنطقة رصفت أرض المطار بالآجر إلى مدى بعيد . أخذنا ذخيرتنا من البنزين وقمنا صوب السودان المصرى الساعة الحادية عشرة وربع. وكان متوسط سرعة الطيارة مائتى ميل فى الساعة ، والعجيب أن تلك السرعة الهائلة لا يدركها الراكب إذ أن الطيارة تبدو كأنها تسير سيراً هينا بطيئا ولبثنا نسير زهاء أربع ساعات وقد كانت الرياح معاكسة لنا لذلك كثرت حركات الطيارة إلى أعلى تارة وإلى أسفل تارة أخرى مما تعبت منه كثيراً وأحسست بدوار كأنه دوار البحر لذلك امتنعت عن تناول الغداء الذى قدم لنا فى الطيارة من أطعمة باردة وفى تمام الساعة الثالثة نزلنا فى (الجنينة) بعد مسافة ٥٢٠ ميلا وهذه أطول شقة فى تلك الرحلة وتلك البلدة على حدود السودان لها سلطانها الوطنى وهو الوحيد اليوم فى بلاد السودان بعد أن ألغى نظام السلاطين ، وقد زرت مأمور المركز وضابطه وهما سودانيان يحبان مصر كثيراً وبتنا ليلتنا فى استراحة الطيران وتناولنا عشاءنا على حساب التذكرة وفى باكورة الصباح قمنا صوب الفاشر وكانت المناظر تحتنا سهولا يعمها الشجر وتشقها المسائل الجافة ، وبعد ساعة من سيرنا بدأت التلال تكسوها الخضرة ، وفى تمام الثامنة وصلنا الفاشر (أى ساعه ونصف) وهنا قابلت بعض الضباط الوطنيين وعلمت منهم أن الطريق إلى الأبيض وعر وتقطعه السيارات فى أربعة أيام لذلك آثرت أن أواصل سيرى بالطيارة إلى الأبيض ودفعت لذلك عشرة جنيهات أى أنى خسرت فى تلك الصفقة ثلاثة جنيهات ، سرنا على بركة الله نشق طريقنا فوق السحاب الذى بدا من تحتنا وكأنه كومات القطن المتصلة التى حجبت عنا الأرض تماما وكان مطره متساقطا على الأرض وكانت تعلونا طبقة أخرى من سحاب آخر رقيق مجزع شاهق العلو وكان الجو بين السحابين رائقاً صافياً سطعت فيه أشعة

الشمس ، ولبثنا فى تلك الحال زهاء ساعة كاملة ثم أخذ السحاب يتقطع من تحتنا حتى اختفى وبعد ساعتين ونصف وصلنا الأبيض (السبت ١٧ ديسمبر) فكأنى طرت فوق إحدى عشرة ساعة وكان علونا زهاء خمسمائة متر وقطعنا من المسافة نحو سبعمائة وألف ميل كانت تقطعها السيارة فى عشرة أيام إذا كان الطريق ممهداً ، أما اليوم فالطريق معطل بسبب الأمطار الغزيرة وهم يقولون أن مطر هذا العام أغزر ما سقط فى العصور الماضية كلها .

حللت نزل (أبو نجمة) ليونانى أقام فندقا للنوم منذ شهر وبجانبه مقهى ودار للسينما ويكاد يكون النزل الوحيد فى البلدة ثم قصدت تواً الى زيارة مأمور البوليس ومأمور المركز ثم المفتش الانجليزى (D. C.) فاستقبلنى المفتش استقبالا كريما وبخاصة لما أن رأى خطابات التوصية من الخارجية والمعارف وكلف الأخ مكاوى افندى وكيل المركز أن يرافقنى فى عربة المفتش إلى بعض القرى المجاورة فسرنا اليها وهى نموذج من قرى مديرية كردفان أكواخها تقام من بوص الذرة المجدول فى شكل دائرى فوقه مخروط مدرج ، والكل يقوم من الداخل على شرائح من خشب وأمام الكوخ ظلة يجلس القوم فيها خلال النهار، ثم كوخ صغير للطبخ ، أما الكوخ الرئيسى فللنوم رأينا فيه (عنجريباً) أو اثنين وفى ركن منه الآرجوحة التى يسمونها الطوطحانية وهى للأطفال . وأمام كل كوخ كنا نرى الفتيات وأمامهن قطعة كبيرة من الحجر صقل جزء منها فى شكل منحدر وتسمى مرحاكا وأمسكت الغادة بصخرة ثقيلة مستديرة وأخذت تسحق الذرة أو الدخن ، وهى تعد كل يوم بعضاً منه بقدر مايحتاجون اليه من طعام ، وأساس طعامهم العصيدة بأن يطبخ هذا الدقيق بالماء ، ثم (يغمسون) به الويكة والسمن ، أو الزيت أو ما أعد من طبخ متواضع ، وبين الوجبات يشربون (المريسة) من تخمير مسحوق الذرة أيضا يبدو وكأنه (البوظة) الخفيفة أو (السوبية) السمراء وبه بعض الحموضة والعفونة . ويتخذون من الأراضى المجاورة للقرى مزارع

للدخن والذرة العويجة ومرعى لماشيتهم ، غير أن جماعة الرعاة يغلب ألا يقطنوا القرى الثابتة بل يتجولون وهم يركبون ثيرانهم ويحملون عليها متاعهم ويتقدم الجمع كبيرهم، وبيده حربة طويلة، وغالبهم من شعوب الفلاتة والبقارة ، وفى أغلب القرى مكتب يسمونه خلوه أو مسيد يقرأ الأطفال فيه القرآن حفظاً عن ظهر قلب ، ويحف بالقرية مجموعة من الشجر السائد وهو قليل ، ومن بينه شجرة الأبنوس التى تبدو عادية مغضنة غير جذابة ، فاذا شققتها ألفيتها سوداء لامعة من داخلها ، ثم شجرة الباوبات التى تنتج أكوازاً خضراء يصف فى داخلها شبه جوز ينقع ويشرب الأهلون منه وكأنه التمر هندى ، ثم شجر السنط الشائك ، وشجر الهشاب الذى يمدهم بالصمغ العربى والأرض المحيطة بالقرية ليست ملكا للناس بل للدولة ، على أن كل من أحرز قطعة واعتاد زرعها ظلت له ، وعند الحصاد يدفع للدولة (العشر) ، ولكل قرية شيخ منها يفصل بين الناس فى المشاكل الصغيرة ، ولا تتعرض الدولة لهم إلا فيما جل من الحوادث كالسرقة والقتل ، ولا تخلو أرضهم من بعض الحيوانات وأظهرها الأرنب البرى الذى أعد له كل بيت مطرقة من خشب ملتوية يمسكها الصبى ويعدو خلف الحيوان ، ثم يضربه ضربة قاضية ويحمله إلى الكوخ ليأكلوه ، وجل لحومهم منه ، أما الحشرات والهوام فحدث عن كثرتها واختلاف أنواعها وبخاصة أثناء الليل . والناس فى تلك الأراضى قليلون ، وتفصل ما بين القرية والأخرى مسافات شاسعة من تلك التربة الرملية الصفراء ، التى ألفيتها مخضرة نضرة لكثرة ما نزل عليها من المطر هذه الأيام وهى موسم الأمطار ، أما بعد شهر آخر من الزمان فتصبح جافة شبه صحراوية لا يرى فيها سوى الشجر المتفرق . ولعل أهم أشجار المنطقة الهشاب وهو شجر الصمغ العربى ذائع الصيت فى تلك البلاد ، فهى تعد أغنى مصدر له فى الدنيا يعمد الرجل إلى الشجرة فيسلخ قطعة من لحائها ويتركه فينز الصمغ

فى أسفله ويتكور ، وقد يبلغ من الكبر حجم كرة التنس فى لون الزجاج الأبيض أو المحمر . سرت برفقة المفتش إلى سوق الصمغ والغلال فأدهشنى ما رأيته من نظام محكم جميل ، يقصد البائعون اليه باكورة الصباح بحقائبهم ويدخلونها . وقد صفت ألواح فى الأرض منمرة يضع كل تاجر بضاعته عندها ويتسلم ورقة برقم موضعه ، وفى العاشرة تماماً يغلق الباب ، ثم يدخل الخبراء ويمرون على المعروضات يختبرونها ويكتبون مذكرات صغيرة عن نوعها وما تستحق من ثمن ، ثم يسلمون تلك الأوراق لسادتهم من تجار الشراء الذين يجلسون فى قاعة المزاد ، وقد أعدت المقاعد بالنمر وتسلم كل مكانه بالاقتراع حتى لا يجلس فى نفس المكان كل يوم، ويقف المذيع وينادى قائلا : الصمغ رقم كذا نوعه : أبيض نظيف أو ممطور أى أصابه مطر أو أحمر . بكم تشترونه فهذا يصيح بأربعين قرشاً للقنطار، والثانى باثنين وأربعين وإذا وقف المزاد سئل صاحب الصمغ إن كان يقبل البيع بهذا السعر ، فان قبل تمت الصفقة وذهبوا الى مكان الموازين ، وان رفضها بقيت بضاعته الى اليوم الثانى . والموازين دقيقة جداً ويقف إلى جانب الوزان صاحب البضاعة وأخيراً يذهب المشترى ويدفع الثمن فوراً بواسطة الكاتب المختص فان أرجأ أو تلاعب طرد وحرم من دخول السوق ثانية . ويتراوح تقلب الأسعار فى الصمغ بين ٥٠ قرشاً و١٥٠ قرشا للقنطار ، ومجموع ما تصدره المديرية نحو ستين ألف طن فى كل عام . ومنه يعمل الصمغ السائل للصق وبعض الحلوى والمسكَّرات (اللكوم ، الكرملة ، البستلية الخ) ، ولكل تاجر كبير حظيرة قريبة يضع فيها مشترواته ، ويعكف العمال والعاملات على فرزها وتنقيتها لتعد للتصدير ، وشريط سكة الحديد يلاصق تلك المخازن ونصف السوق خاص بالصمغ ، والنصف الآخر للغلال ولب البطيخ ، ويسير البيع فى هذه على الطريقة نفسها ، وجل اللب الذى يرد لمصر من هذه المديرية ويتراوح ثمن القنطار بين عشرة قروش وعشرين .

قمت إلى زيارة المدرسة الابتدائية الأميرية وبها من الطلاب مائة وعشرون يدفع الطالب عشرة جنيهات فى العام ويشتغل كل يوم ستة دروس الى الثانية بعد الظهر وبعدها ينصرف التلاميذ ليتغدوا فى بيوتهم وأزياء الطلبة الجلابيب البيضاء والعمامة الكبيرة المنتفخة والمراكيب ومن تلك المدارس ثمانية فى السودان فقط وبعضها أنصاف مدارس السنة الأولى والثالثة هذا العام والثانية والرابعة العام التالى. طفت بها وتفقدت فصولها فسرنى ما رأيت من حسن النظام ثم عرجت على المدرسة الأهلية (مدرسة النهضة) لشاب ذكى اسمه وليم نسيم يسير بها وفق المنهج المصرى وهى خليط من البنات والذكور وعددها مائة وعشرون أيضا وهو يقوم بمجهود جدير بكل تشجيع خصوصا وأنه ينشر الثقافة المصرية وجدير بوزاره المعارف أن تعاونه وترشده كما فعلت ذلك بمدرسة الاقباط فى الخرطوم ومن تلك المدارس المصرية هناك زهاء خمسة (فى الأبيض وبور سودان وأم درمان وعطبرة والخرطوم) وبالمدينة مسجد هائل فاخر البنيان ذو مئذنتين وسوق اللحوم والخضر لا بأس بنظافته وحسن نظامه. والشوارع متقاطعة وفى مسافات متعادلة وتقوم عليها المتاجر وبعضها كبير غنى وجلها للسوريين فى الأقمشة واليونانيين فى البدالة والمقاهى والبلدة تعد عاصمة مديرية كردفان لذلك أقيم بها بناء للمديرية فاخر يرأسه الحاكم الانجليزى Governor ومساعده(A.G.)هذا خلاف المركز ويرأسه المفتش (District Commissioner) ومساعده (A.D.C.) أما المآمير وسائر الموظفين فسودانيون ولم أكد أرى من الموظفين المصريين أحدا لذلك دهشت وتألمت إذ لم أر من الأثر المصرى سوى العلم الأخضر يقوم على جميع المصالح إلى يمين الانجليزى. وكل المصالح تعلق صورة ملك الانجليز ولم أر صورة واحدة لملك مصر حتى ولا فى المتاجر ولم ألاحظ للطربوش أثراً فالموظفون يلبسون الخاكى والبرانيط الكبيرة والأهلون العمائم البيضاء.

قمنا باكورة الصباح (الاثنين) بالقطار إلى الخرطوم (الساعة السادسة) وأجر الدرجة الثانية ٢١١ قرشا ومسافتها أربع وعشرون ساعة على أن



أمام ضريح المجاهد عثمان الفوتى وبفضله انتشر الاسلام فى غرب افريقية

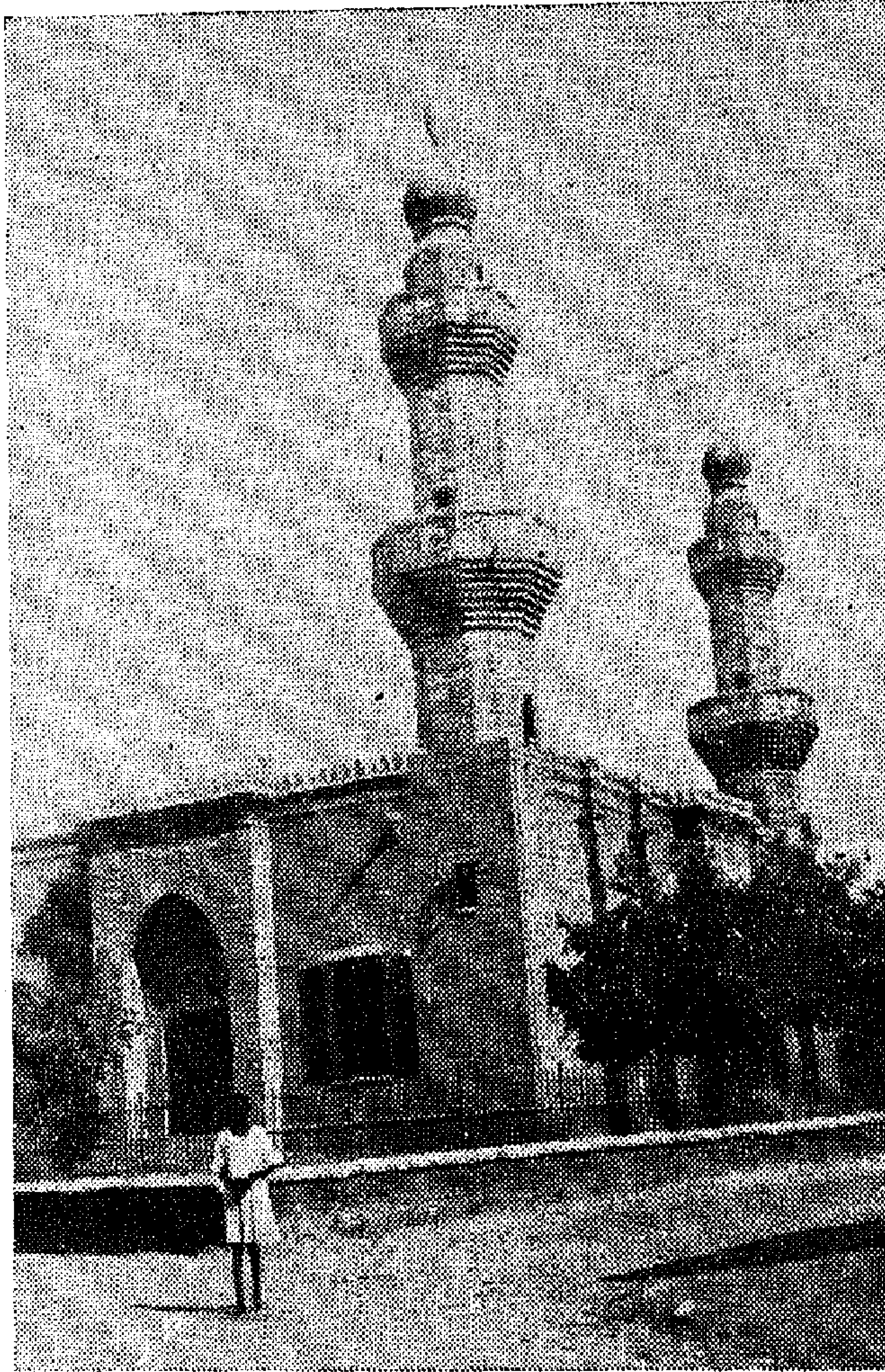
الأمطار والسيول الغزيرة هذا العام قد أتلفت من الخط كثيرا فلقد هشمت منه خمسة كيلو مترات وتعطل الخط بسبب ذلك شهرا كاملا ولقد رأينا أنقاض القضبان التى قذفت بها السيول بعيدا وألوتها ليات عجيبة ، ويظهر أن طريق سكة الحديد واهنة ضعيفة فاذا ما أمطرت السماء وقف القطار ولم يتحرك حتى تنقطع الأمطار أولا ويرده خبر عن سلامة الطريق ثانيا لذلك وقفنا ليلة كاملة فى سنار لأن المطر فاجأنا هناك ولم نبرحها إلا التاسعة صباحا وبذلك نكون قد تأخرنا اثنتى عشرة ساعة أو يزيد والطريق قبل كوستى رملية تكسوها الخضرة المؤقتة فى موسم المطر وتنثرها الشجيرات الشائكة وإذا ما حل موسم الجفاف الشهر القادم يبس كل شىء وبدت كالصحراء الرملية المجدبة والناس هنا يحملون الحراب جميعا وقد مررنا بقوم ينهشون لحم ورل (شبيه بالتمساح الصغير) ويشوونه ثم يأكلونه . والقرى نادرة

وبيوتها الأكواخ المخروطية العادية من البوص ومناظر الطريق سهول موحدة مملة وكانت تكثر بها الخيران والبرك والمستنقعات بسبب ما تراكم من مياه الأمطار وهنا يتربى البعوض وتكثر الملاريا التى لا يكاد ينجو منها أحد فى كل عام خصوصا فى الشهر القادم وكنا نرى بعضا من شجر الصمغ الذى يسمونه (هشاب) وهو يكثر فى داخل البلاد جدا وينتج خير أنواع الصمغ قاربنا كوستى السادسة مساء فبدت بلده كبيرة بها كثير من البيوت الحديثة البناء إلى جانب الأكواخ المعروفة وبعدها بقليل عبرنا النيل بقنطرة سوداء أعدت للقطار ومرور الناس وبعدها وقفنا بمحطة صغيرة أمامها جزيرة اسمها (أبا Aba أو جزيرة الرياض) وهنا رأينا حشدا هائلا من الناس يحفون بزعيمهم السير السيد عبد الرحمن المهدى ابن المهدى الكبير صاحب الثورة المشهورة. وتلك الجزيرة وغالب أطيان كوستى ملك له وقد منحته الحكومة الانجليزية إياها وقد آثر ألا يركب القطار من كوستى خشية زحام المودعين وقد أضيفت عربة نوم فى القطار له ولحاشيته وكلما وقفنا بمحطة وفدت جيوش كثيفة من الأهلين يسألون عن الشيخ ويرجونه الفاتحة من أجلهم فاذا ما ظهر هاجموه مقبلين متمسحين بثيابه ومن لم يستطع يتمسح بالعربة التى يركبها وإذا ما أثقلوا عليه دخل وبعث إليهم بأبريق من الماء قرأ شيئا عليه ثم سلمه لأحد أعوانه ليرشه على الناس بركة والسعيد الذى ينال قطرات من الماء الذى توضأ به، عندئذ يخلطها ببعض المياه ويشربها أو يغتسل بها. وهو يسيطر على أذهان الناس من سكان جنوب الخرطوم وغرب النيل ويسرى فيهم أثره سريان السحر، أما فى الخرطوم وما يليها شمالا فهذا الأثر السحرى لمزاحم له هو السيد المرغنى من الأشراف أما المهدى فليس من الأشراف لذلك يرى المرغنى نفسه أولى بتلك الثقة الدينية والحكومة تمهرهما مرتبات شهرية من خزينة الدولة وقدرها مائة جنيه لتستميلهم وتدخر ثقتهم لوقت الحاجة ومن أعجب ما علمته أن هؤلاء لا يميلون

إلى المصريين كثيرا ويفضلون الانجليز عليهم ولولا حسن ثقة الناس بالمصريين لصرفوهم عنا وذلك مما أسفت له كثيرا ، هنا اسودت التربة وبدا خصبها وأخذ في الزيادة كلما قاربنا سنار وكان جل الزراعة (العيش) ومعناه الحبوب في لغتهم وخصوصا الذرة وكم اختلط على الأمر في كلمة (العيش) وحسبتها الخبز وقد حدث أن ناول تاجر سوداني في الأبيض عامله في المتجر وكان من أصل سوري خمسة قروش ليشتري بها عيشا فجاءه الغلام بأرغفة من الخبز وكان الرجل يريد بها ذرة . ظل القطار يتراخى في سيره ويتسكع في المحاط حتى وصل الخرطوم السابعة مساء وانتقلت إلى فندق ألبيون المتواضع ثم قصدت توا إلى النادي المصري وتحدثت إلى بعض أعضائه من المصريين وقد علمت أن الأعضاء يناهزون المائتين وأن الحكومة المصرية تمده باعانة قدرها مائة جنيه كل عام وقد تكفلت ببناء ناد كاد أن يتم وهو على أفخر مايكون ويتكلف أربعة آلاف جنيه ورئيس النادي صاحب العزة عبدالقوى بك أحمد ، ولقد جرنا الحديث إلى مبلغ ميل السودانيين لمصر فتأيد ما علمته من قبل من مناقشاتي مع بعض الوطنيين والمثقفين منهم ولا يزال السواد الأعظم من الناس يحبون مصر ، أما المثقفون فبدأوا يخشون مزاحمة المصريين وأخذهم بعض الغرور في أنهم مساوون للمصريين ولا يرتاحون لرياسة المصري بقدر ارتياحهم للانجليزي والانجليز يساعدونهم على هذا ويتوددون اليهم وبخاصة بعد إمضاء المعاهدة منذ سنة ١٩٣٦ حتى أنهم بعثوا بمنشور سري لموظفيهم يحضونهم فيه على ملاينة السودانيين والاختلاط بهم لكيلا ينصرفوا إلى المصريين وقد لمست ذلك في معاملة الرؤساء لمرؤسيهم إذ كانوا يكلمونهم في رفق وبشاشة ولا يمضي أسبوع لا يدعى جمع منهم إلى دار أحد الانجليز لتناول الشاي ، وشتان بين الشعور الذي لمسته في زيارتي الأولى وبينه اليوم وفي يقيني أن تهاون مصر في حقها من تعيين نخبة من رجالها الذين علت ثقافتهم فساوت كبار الموظفين الانجليز هناك يسيء إلينا كثيرا

ويقوى الجانب الانجليزى الذى لايفتأ يوغر الصدور ضدنا وهم يوفدون فى كل عام إثنى عشر موظفا انجليزيا من ذوى الشهادات العالية ليعينوا فى الوظائف الرئيسية ويمرنوهم على السودان وأهله فيدرسون لغة البلاد وعاداتها وقوانينها وطرق معاملة الموظفين بالرقة والملاينة ومع أن المعاهدة تنص بأن الوظائف الكبرى تكون مناصفة فانا لانرسل من أبنائنا أحداً وما فائدة تلك الاورطة المصرية التى أرسلت إلى السودان وانزوت فى ناحية منعزلة ويحرم على الجندى السير فى كثير من شوارع الخرطوم وهى لا تتصل بالاهلين ولا بالجنود السودانيين أبداً رغم أن البلاد رحبت بها أى ترحيب واستقبلتها استقبالا باهراً وكانت تتوقع الاختلاط الاول كى تتقارب القلوب ويزول ما ينفثه الخصوم فى النفوس من أبعاد وتنفير وفى ظنى أن مجىء الجيش هكذا غرم لنا ولاطائل تحته فلننتق طائفة من علية المثقفين والمجربين ليحلوا الوظائف الكبيرة مناصفة مع الانجليز لكى يعملوا على نشر الثقافة المصرية والروح المصرية ، وليكونوا ممن سمت أخلاقهم ونبهت علومهم حتى لايشعر السوادنى بأن الانجليزى خير من المصرى — وقد بدأ يظن ذلك — وليعملوا كما يعمل الانجليز على رفع مستوى الثقافة السودانية واحلال السودانيين الوظائف التى يستطيعون السير بها ، وكل تأخير أو تقاعد فى تنفيذ ذلك من شأنه أن يقوى علاقة هؤلاء الشبان بالانجليز ويصرفهم عنا وبذلك يجعل الأمر عسيراً علينا فيما بعد ، ويبدو انصراف السودانيين عن مصر فى أمور كثيرة أذكر من بينها أنهم آثروا القبعات الأوربية — لا وقاية من حر أو شمس — بل تجافياً بالمصريين وكرهاً لهم ، وقد نبذوا الطربوش وأكثروا من التخاطب بالانجليزية احتقاراً للعربية ونظر موظفوهم إلى المصريين هناك شذراً وحقداً وتحدثوا علينا بأنهم لا يقلون عن المصريين ثقافة ان لم يزيدوا عنهم وصرحوا بأن الانجليز سادة العلم فهم خير لهم من المصريين ، ويقينى أن سبب ذلك راجع إلى تقاعد مصر عن المطالبة بحقها وعن إرسال فئة من

كبار المثقفين الذين حنكتهم التجارب فى الحكم وفى وسائل اجتذاب السودانيين ، وفى ايفاد فرقة الجيش وابعادها عن الاختلاط بالناس وفى ترك



المسجد الجامع فى الأبيض

التعليم يتصرف فيه الانجليز دون اعتداد بمشورة المصريين — اللهم تلك المشورة الشكلية فى أمر اللغة العربية التى أدت إلى تقديم تقرير الأستاذ الجارم بك

ولقد زرت كلية غردون فى بنائها الفاخر وتفقدت الدراسة فيها وهى تكاد تقارب مدرسة ثانوية مصرية تتم دراستها فى أربع سنين غير أن بها بعض التخصص فى السنتين الثالثة والرابعة لاخراج صغار المهندسين والمدرسين

والأطباء ورجال القانون، ولقد دعا الانجليز سنة ١٩٣٧ لجنة انجليزية برياسة (دلاور) الذى طاف بجهات شرق أفريقية بلجنته مصلحا نظم التعليم فيها وكلف بدراسة حالة التعليم فى السودان والعمل على رفع مستواه ولم يعر الجانب المصرى التفاتا ولا عناية، وكان جديراً أن يمثل مصر فى تلك اللجنة بعض الأعضاء، ولما جاء دور اللغة العربية انتدبوا الاستاذ الجارم بك فوضع تقريره، وذلك غير كاف إذ يجب أن تعدو علاقة التعليم بين مصر والسودان حدود اللغة العربية إلى غيرها من عناصر الثقافة وهم يعدون العدة اليوم لجعل كلية غردون مدرسة ثانوية يتخرج منها الطلبة إلى الجامعة التى ستحل مكان الكلية وينقل طلبتها الحاليون إلى مكان آخر والمواد تدرس كلها بالانجليزية فى المدارس الابتدائية لمدة أربع سنوات وفى الكلية التى تمثل المدرسة الثانوية ويشرف على كل مادة أستاذ انجليزى يساعده بعض الوطنيين من خريجى الكلية وليس بالكلية أستاذ مصرى واحد وقد رأيت بعض البيض يدرسون فخلتهم مصريين ولشدما كان أسفى لما قيل لى بأنهم سودانيون مولدون وبعضهم أتم تعليمه فى كلية بيروت أو فى كلية فكتوريا بالاسكندرية وعجبت لم لا يوفد خريجو الكلية إلى الجامعة المصرية وللمبرزين منهم أن يتموا التعليم بعد ذلك فى انجلترا ليقوموا بشئون التعليم فى الكلية والجامعة المزمع إنشاؤها وفى ذلك تقريب لوجهة النظر المصرية وهى لاشك أنفع للسودانيين وأقرب إلى نزعاتهم ونفوسهم. وغالب التدريس يسير على نظام المحاضرات وبالكلية متحف للطيور وآخر للصخور كبير ومعمل للعلوم لا بأس به ويلحق به متحف تاريخى عام به مخلفات السلاطين الأقدمين وآثار الشعوب الهمجية فى نواحى السودان المختلفة وقد زرت (كلية الأقباط) التى يشرف عليها قسيس متحمس للتعليم وبها روضة للأطفال وقسم للبنين وآخر للبنات ابتدائى ثم قسم ثانوى وبناؤها فاخر صحى وتعينها وزارة المعارف المصرية بما يزيد على ألف جنيه فى العام

وكان يشرف على امتحانات الدخول وامتحان الدور الثانى العلامة الأستاذ حسونة بك والمدرسة تسير وفق منهج وزارة المعارف ومن غريب ما علمته أن السودانيين محظور عليهم الالتحاق بها ، ولما ألحفت المدرسة فى طلب التجاوز عن ذلك صرحوا بعدد محدود جداً يقبل كل عام رغم رغبة الكثير من السودانيين فى تعليم أبنائهم فيها

قمت فى سيارة (بثمانين قرشاً) إلى جبل الأولياء مسافة ٤٥ ك.م فوصلت إليه بعد جهد لأن الطريق وعر كثير العقبات ، وقد (غرزنا) فى الأوحال طويلا، وهناك بدا الخزان بين ربوتين متقابلتين من الصخر الأحمر هما اللتان اكسبتاه اسم جبل الأولياء وبجانبهما قرية بهذا الاسم بيوتها بالطين وسقوفها مسطحة ، وقد أقيم السد من البناء الأصم المنسق الجميل مسافة ثلاثة كيلومترات ، وفى وسطها ٩٩ عيناً لتصريف المياه ، وبعد ذلك خمسة كيلو مترات من جسر أصم إلى الضفة الغربية فكأن سعته كلها ثمـــانية كيلومترات ، لذلك بدا النيل خلفه كالبحر الخضم . وقد أقيمت حوله على الضفة الشرقية مبانى مصلحة الرى المصرى فى جمالها ومتنزهاتها ، وبنى المكتب الرئيسى فوق الربوة الحمراء . قطعته بالسيارة وكان القوم هنــاك يقفون بخراطيم المياه يطاردون جيوش الجراد التى وفدت من كردفان ومن الغرب ولم تستطع عبور النيل الشاسع فاتخذت السد طريقاً لهجرتها فى سحاباتها الكثيفة التى كادت تسد عين الشمس وأخذ المأمور ومساعدوه يقبضون على المارة ويكلفونهم بمحاربته معهم، على أنى ألفيت الطريقة غير مجدية لكثافة سحابات هذا الجراد الذى نزل على حقول (العيش) التى كان نباتها ناجحا فى البلاد الغربية من النيل الأبيض فأتى عليها جميعا ، وهم يخشون أن يفعل ذلك بحقول الشرق .

عدت بالسيارة التى أعادت الكرة (وغرزت) بشكل أيأسنا من تحركها وظلت كذلك إلى منتصف السادسة مساء ولم أتناول طعاماً طيلة يومى لأنى

كنت سأتناول الغداء فى منزل الأخ مصطفى مدحت ، وأخيراً قدر لنا أن نتحرك ونصل الخرطوم السابعة مساء بعد أن فاتنى قطار كسلا وكنت أزمع السفر إليها تلك الليلة لذلك اضطررت إلى البقاء فى الخرطوم ، وكان يؤنسنى جمع من طلبتنا الكرام وجلهم ممن تخرجوا فى مدرسة الأمير فاروق الثانوية وهم فى ظرفهم وحسن خلقهم وكريم طبعهم ممن يفخر الانسان بهم فى تلك البلاد النائية — ولقد أتيحت لى فرصة حضور حفل الزواج السنوى الذى يقيمه الزعيم السير السيد عبد الرحمن المهدى فى بيته فى نهاية أم درمان بناء على دعوة أرسلت إلى ورغم أنى كنت أشعر بتعب شديد وحمى ظهر أنها ملاريا فيما بعد ، أسرعت إلى الدار فاذا بصيوان كبير زانته الأعلام والأضواء الكهربائية ومكبرات الصوت وبعض الخطباء ومنضدة رجال الصحافة ، وكان الصيوان غاصاً بالجلوس يتوسطهم المهدى وبعض أقربائه ، وأخذ الخطباء والشعراء يتبارون فى القول مادحين بالطبع السيد مدحاً يفوق الحد حاثين الشبان على الاقبال على الزواج بقيمة لا تزيد على ربع دينار وبعد انتهائهم من كلماتهم يفد الأزواج الجدد أمام المهدى ليبارك زواجهم ثم ينصرفون وسط التهليل والزغاريد ، وقد وفد من هؤلاء تلك الليلة زهاء ستمائة تمت عقود زواجهم ولم يزد المهر على ربع جنيه ، حمدت للسيد تلك الغيرة الوطنية والعمل على حماية الشباب والحث على زيادة عدد السودانيين وان اتهمه البعض بأنه يفعل ذلك دعاية له ضد خصومه أمثال المرغنى ولا يفعل ذلك لوجه الله ولا حباً فى المصلحة العامة وكم ساءنى تلك الليلة ما سمعته من ابن عمه (السيد محمد الخليفة شريف) وأحد خطباء الحفل الذى تناول المعاهدة المصرية بالنقد والتجريح قائلا : ياشباب السودان هل رأيتم كيف تم التآمر الانجليزى المصرى على السودان فأطلق باب الهجرة للمصريين بغير قيد ولا شرط مما يعد سبة فى حياة السودانيين ونيلا كبيرا منهم ، أليس ذلك نتيجة لاحجامكم عن الزواج مما قلل النسل ونزل بعدد السودانيين جميعاً فشجع هؤلاء أن يقولوا ذلك ؟

عبارة دلت على شىء كبير من الجحود ونكران الجميل ، فكم أنفقت مصر على السودان من أموال وأراقت من دماء وتمسكت بتلك البلاد حباً فى المصلحة المشتركة إذ لا يستطيع السودان العيش وحده لقصور موارده وقلة جهود رجاله ولولا سخاء الرى المصرى والجيش وماينفقون فى السودان من أموال طائلة لبدا البؤس على السكان مجسما فكان ذلك مثلا جديداً لكراهية هؤلاء المصريين وهم أذناب الانجليز يجتمعون تحت ستار الدين ويغررون بالعامة من بسطاء العقول وينفثون سموم المستعمر تحبيباً لهم فى الانجليز وتنفيراً من المصريين وما ذلك عن خدمة لبلادهم ولكن اشباعا لشهواتهم المالية وألقابهم الانجليزية . لم أطق الصبر على ذلك فقمت غاضباً محتجاً وتركت الحفلة وعدت إلى الفندق محموما متعبا ساخطاً وما كانت العشاء حتى ساءت حالتى فعمد الأخ الكريم مصطفى مدحت وبعض إخوانه إلى الطبيب فحضر ورجح أنى أصبت (بالملاريا) وأحاطنى (بالحقن) والعلاج اللازم وفوق ذلك سهر معى أبنائى هؤلاء طيلة الليل وهم يعالجوننى بالملح والخل والكلونيا ، ولبثت فى تلك الشدة يومين رأى الجميع بعدها أن انتقل إلى مستشفى الحكومة وهناك كانت العناية بى بالغة الحد من مديرها الانجليزى وطبيبها السودانى وعادنى عدد من عليه القوم بين موظفين مصريين ووطنيين ولبثت هناك أسبوعا كاملا وقد فوتتنى تلك الحمى ثلاثة قطارات ، وفى صباح الخميس ٢٩ سبتمبر عدت إلى فندق (سان جيمس) الجميل وهناك أخذت أستعيد قواى تدريجا . واليوم استطعت النزول والتريض مساء على شارع (البحر) وهو النيل الأزرق وكان طامياً وشارع السردار وهما من أفخر شوارع الخرطوم ثم عرجت على محطة (الوسط) وهى فى مقام (العتبة الخضراء) عندنا لأنها بدء الترام الدائرى وترام أم درمان وترام الخرطوم بحرى وعلى مقربة منها مركز البيع والشراء كثير الحركة فى الخرطوم . ولقد قصدت فى الصباح مكتب الطيران الأمبراطورى وطالبتهم بالزيادة التى دفعتها بين الفاشر

والأبيض فردوها إلى ، وحاولت أن أتجول فى البلدة فلم أطق هجير الحر الذى يلزم المرء داره ويزهده فى الحركة والتفكير . وفى الصباح من يوم السبت قصدت إلى الأرطة المصرية فألفيتها تحل بنـاء فسيحا من قشلاقات مصر القديمة يعسكر به نصف الأرطه وعدده زهاء ٣٠٠ جندى يشرف عليهم نحو ١٢ ضابطا ، والنصف الآخر من الأرطة فى بور سودان ، ولقد كان الجمع ناقمين من سوء معاملة حكومة السودان لهم وعدم معاملتهم بالاحترام اللائق بهم ، إذ لا يسوون بالضباط الانجليز ولم يجهز لهم بيوت لائقـــة يسكنونها كتلك التى يسكنها السودانيون من الضباط وقمندان الأرطة نفسه ينزل استراحة الرى المصرى ، أما قشلاقات الانجليز ومساكنهم ففاخرة تشعر باحترام كبير فلم لا تعمل حكومتنا على المساواة بينهم وبين الانجليز كما تنص المعاهدة ، وأين مبانى الخرطوم التى أنشأ المصريون الكثير منها وسلبت منهم اليوم ومنحت لغيرهم وكلف رجال مصر بدفع أجور باهظة لمساكنهم وانتقالاتهم ، أما همة الضباط وعنايتهم بتدريب الجنود فبالغة غاية الأخلاص والنشاط وهم شاعرون بالمسئولية الملقاة على عواتقهم ويرغبون أن يظهروا أمام الأنجليز بمظهر النشاط الذى يجعلهم يفوقون ما يقوم به الأنجليز فى معسكرهم

قمت إلى مكان (الشجرة) وفيها تقوم مستعمرة للرى المصرى فى فيلات فاخرة بديعة ، ثم مجموعة هائلة من ورش ومخازن غنية جدا وإلى جوارها حوض به ترسو قطع أسطول الرى المصرى وكراكاته وكلها تمخر النيل إلى منطقة السدود وتعاون على الأبحاث الفنية لتوفير المياه فى تلك المناطق وجل آلاتها الضخمة ورفاصاتها وكراكاتها تشترى من انجلترا وبأثمان باهظة جداً وكذلك المهمات كلها وحتى الخشب جله من التيك الغالى الذى يرد من انجلترا وتعمل منه حتى درج السلالم العادية ، وتلك البواخر الصغيرة تكلف تكاليف باهظة قد تبلغ الألف جنيه للرحلة الواحدة ، والحق أن الرى المصرى

ومنشآته العديدة لتكلف الحكومة غالياً إذ تناهز ميزانية رجال الرى جميعا مليون جنيه كل عام وكان يمكن الاقتصاد فى نفقاته تلك إلى النصف ، والذى يدهشنى أنهم بدأوا ينظرون فى بحث مشروع خزان البرت مع أننا لم نستخدم خزان جبل الأولياء إلى اليوم ، وقد اعترف المستر (Perry) رئيس التفتيش المصرى لى بذلك فى حديثه معى لأننا لم نستغل مياه خزان اسوان كلها فامعنى تلك العجله التى لا تدل إلا على الاسراف والتبديد .

عدت وفى القلب حسرة وفى النفس أسى على نصيب بلادنا من السودان ومايجرى فيه مما يصرف السودانيين عنا ويباعد مابيننا وبينهم ويجعل معاهدة الصداقة قصاصة ورق لا خير فيها

تمت الجولة بعون الله

فهرس الكتاب

فهرس الخرائط والصور

		ملیم
تاريخ حياة معدة	للاستاذ توفيق الحكيم	١٠٠
تحت شمس الفكر	» » »	٨٠
عهد الشيطان	» » »	٧٠
تاريخ التعليم فى عهد محمد على	» احمد عزت عبد الكريم	٧٠٠
قضية الفلاح	للآنسة ابنة الشاطىء	١٠٠
السينما	للاستاذ احمد بدرخان	١٠٠
جولة فى ربوع آسيا	» الرحالة محمد ثابت	٨٠
» » الشرق الأدنى	» » » »	٨٠
» » أفريقيا	» » » »	٨٠
» » أوروبا	» » » »	٨٠
» » الدنيا الجديدة	» » » »	٨٠
» » استراليا	» » » »	١٠٠
» » العالم الاسلامى	» » » »	
فلسفة اللذة والألم	للاستاذ اسماعيل مظهر	١٥٠
مصر فى قيصرية الاسكندر المقدونى	» » »	٦٠
الحب الأول أو قيصر وكليوباترة	» » »	٥٠
علم الاجتماع	» مصطفى فهمى	٧٠
الحرب والغازات	» عبد الرحيم رشوان	٥٠
فى الطريق	» ابراهيم عبد القادر المازنى	١٥٠
اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للأمام فخر الدين الرازى		٦٠
الشوقيات (ثلاثة اجزاء)	للمرحوم احمد شوقى بك	٣٥٠
الجمعة اليتيمة	للدكتور سعيد عبده	٦٠
وحيد	للاستاذ حسين عفيف المحامى	١٠٠
سهير	» » » »	١٠٠
الزنبقة	» » » »	١٠٠

		مليم
تمريض الطفل	للدكتور اسماعيل صبرى	٥٠٠
حياة الطفل	« مصطفى الديوانى	١٥٠
أسواق القطن	للاستاذ محمد عبد الرحمن حافظ	٢٠٠
أصول المحاسبة وامساك الدفاتر	« « « « «	٣٠٠
مفرق الطريق	« بشر فارس	١٠٠
الحجاز	« احمد ابراهيم عيسى	١٠٠
الأمراض التناسلية وعلاجها	للدكتور يوسف عبد العزيز حموده	٤٥٠
الحلل السندسية جزآن	شكيب أرسلان	٤٠٠
دائرة معارف المنزل الحديث ٤ أجزاء	للآنسة بسيمة زكى	٤٥٠
الغذاء والمطبخ والمائدة — المطبخ الشرقى	« « «	٢٥٠
جهاد الأمم فى سبيل الدستور	الاستاذ محمد شوكت التونى	١٠٠
الانسان والبيئة	« لويس اسكندر	٧٠
امتحانات الرياضة والعلوم	للاستاذين احمد عبد الحميد حمدى، احمد محمد النجار	٦٠
كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهور بالثورة العرابية	السيد احمد عرابى الحسينى باشا	٢٠٠
أطلس تاريخ القرن التاسع عشر	الاستاذين احمد نجيب هاشم، محمد مأمون نجا	١٥٠
التحقيق التام فى علم الكلام	محمد الحسينى الظواهرى الشافعى	(تحت الطبع)
علم الصحة والطب الوقائى	للدكتور عبد الواحد الوكيل بك	٧٥٠
مبادىء الاحصاء	« عبد المنعم ناصر الشافعى	٥٠٠
كاهن آمون	احمد صبرى	١٠٠
الأيام المئة	الدكتور محمود عزمى	١٠٠
رسالة الخواطر والشعر المنثور	على سعد مراد	تحت الطبع

Khedive Ismail & Slavery By M. F. Shukry	650
Industrial Administration. By Chas. R. Pearson.	250
A Précis Book for Egyptian Students	15

الجولات المطبوعة للمؤلف

جولة فى ربوع أوروبا

بين مصر وايسلندة

عن طرائف المدنية الأوروبية ومشاهدها ونظمها الاجتماعية

جولة فى ربوع آسيا

بين مصر واليابان

عن بدائع الشرق الأقصى ومدهشاته (اليابان والصين والهند الخ)

جولة فى ربوع افريقية

بين مصر ورأس الرجاء الصالح

عن عجائب القارة الغامضة وغابات جوفها وأسرار همجها وأخطار وحوشها

جولة فى ربوع الشرق الأدنى

بين مصر وأفغستان

عن مميزات بلاد إيران والعراق والأفغان والأناضول والشام

جولة فى ربوع الدنيا الجديدة

بين مصر والأمريكيتين

عن مدهشات الدنيا الجديدة ونفائس بلاد المغرب والأندلس

جولة فى ربوع استراليا

بين مصر وهونولولو

عن روائع زيلندة — فيجى — ساموا — هوليوود — كندا — أزورا

جولة فى ربوع العالم الاسلامى

عن تراث الاسلام وآيات نهوضه من مشارق الأرض إلى مغاربها

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر